قام الطالب بتصحيح الملحوظات على الرسالة

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
الدراسات العليا
قسم العقيدة

الجــزاء الأخــروي

((دراسة تحليلية نقدية في ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة))

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في العقيدة

إعداد الطالب :

محمد عبدالرحمن حسن حبنكة الشهير بالميداني

إشراف :

الأستاذ الدكتور الشيخ

عثمان عبدالمنعم يوسف عيش

رئيس قسم العقيدة بجامعة الأزهر سابقاً

وأستاذ العقيدة بجامعة أم القرى

الجزء الأول

١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص رسالة ماجستير – تخصص عقيدة – بعنوان :

الجزاء الأخروي ، دراسة تحليلية نقدية في ضوء عقيدة أهل السنّة والجماعة .

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه . وبعد :

فهذه الرسالة تتكون من : مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة .

الباب الأول : وقد تضمنت فصوله الأربعة بيان : مفهوم الجزاء الأخروي ، وانقسامه إلى ثواب وعقاب ، وهل الأعواض والقصاص من أنواعه ، وحكمه . وبيان أدله ثبوته النقلية والعقلية . وبيان بعض الحكم المترتبة على تحققه ، وأثر الإيمان به . وبيان دوافع إنكاره لدى بعضهم ، وآثاره عليهم ودحض شبهاتهم .

الباب الثاني : وقد تضمنت فصوله الثلاثة بيان : أسس الجزاء الأخروي . وهي أولاً : قيامه على أساس حكمة الله وعدله وفضله . وبيان شروط تحقق الجزاء على العمل . وتفاوت الجزاء على الأعمال وعوامل ذلك. ومظاهر العدل والفضل في الجزاء الأخروي . وثانياً : قيامه على أساس استيفاء الإنسان لشروط أهلية التكليف . وحكم جزاء من فقد شرطاً منها . وثالثاً : قيامه على أساس المسؤولية الشخصية ، وتوضيح حدودها ، وتوجيه النصوص التي قد يظن أنها تتعارض مع هذا الأساس .

الباب الثالث : وقد تضمنت فصوله الثلاثة بيان : أهم صفات الجزاء الأخروي . وهي أولاً : عمومه لمستحقيه ولأعمالهم وتروكهم الظاهرة والباطنة . وثانياً : شموله لنفس المكلف وجسده . وثالثاً : خلوده ودوامه . مع الرد على المنكرين لشيء من ذلك .

الخاتمة : وقد تضمنت أهم نتائج البحث ومنها :

١) يقينية الجزاء الأخروي بالدليل الشرعي والعقلي .

٢) كون الجزاء إنما هو بحكمة الله ، فضلاً في الثواب وعدلاً في العقاب .

٣) ثبوت الامتحان في الآخرة لأهل الفترة والمجانين والصمّ الذين لم تبلغهم الدعوة .

٤) أن الإنسان مسؤول عن عمله وآثاره .

٥) أن الجن يثابون بالجنة ويعاقبون بالنار .

٦) أن الجزاء ثابت لمراتب إرادة الأعمال إلا ماجاء النص باستثنائه .

٧) يقينية شمول الجزاء لنفس المكلف وجسده ، ويقينية دوامه .

إلى غير ذلك من النتائج المدوّنة في خاتمة البحث .

الطالب : محمد عبدالرحمن حبنكة الميداني .

المشرف : د:عثمان عبدالمنعم يوسف عيش

عميد كلية الدعوة وأصول الدين : د: عبدا لله بن عمر الدميجي .

شكر وتقدير

الحمد لله وحده حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ملء السماوات وملء الأرض وملء ما شاء جل شأنه من شيء بعد . أحمده عزّوجلّ بجميع المحامد اللائقة بجلال وجهه وعظيم سلطانه ، وأثني عليه الخير كله . وأشكره أولاً وآخراً على جميع ما أولاني إياه من نعم ظاهرة وباطنة قديمة أو حديثة علمتها أم لم أعلمها . وأسأله تعالى أن يتقبّل مني ولا يؤاخذني بتقصيري وذنوبي فهو عزوجل أهل للمغفرة والرحمة .

والصلاة والسلام على من أرسله تعالى رحمة للعالمين ، فبلّغ ما أنزله إليه ربّه أكمل بلاغ وأحسنه وأتمه . فصلى الله عليه وسلم تسليماً . وصلى الله وسلم على آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان ، من قاموا أفضل قيام بإبلاغ ما وصلهم من علم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أدركنا وكأننا نسمعه من في رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبعد : فإن العبد لو استنفد عمره لأداء ما وجب عليه من حق الشكر لكل ذي يد عليه – فضلاً عن الشكر الواجب عليه تجاه ربه تعالى – ما استطاع الوصول إلى أداء عشر المعشار من ذلك .ولكن كما قيل ما لايدرك جله لايترك كله ،فأقول سائلاً المولى الكريم:

أن يجزي خير الجزاء وأعظمه والديّ اللذين ربياني صغيراً حتى إذا أدركت أدباني وعلماني وهما دواماً قد أحاطاني بصنوف رعايتهما وتوجيهاتهما باذلين في ذلك كله من وقتهما وجهدهما وعلمهما مالا يعلمه إلا الله وحده . وأسأله جل جلاله أن يعينني على أداء برّهما على أكمل وجه يرضيه عني .

وأسأله تعالى أن يجزي أستاذي وشيخي ؛ الشيخ الأستاذ الدكتور عثمان عبدالمنعم يوسف عيش أفضل ما يجزي به من تصدى لمهنة التعليم والتدريس الصعبة فقد منحني -حفظه الله – من علمه ووقته وجهده الشيء الكثير . ولم يكن ينتظرني حتى أسأله بل كان سباقاً إلى السؤال عني وعما أحتاجه في جميع مراحل بحثي .

وجزى الله خيراً كل من كان له علي فضل من سائر أهل بيتي الذين جنّدوا أنفسهم في سبيل توفير أفضل الظروف لي كي أستطيع إتمام هذا البحث على أفضل صورة ممكنة .

وأخيراً فإني أسأله تعالى أن يجزي خيراً كل من جعله سبباً لنعمة وصلت إلي ، ولاسيما المسؤولون عن جامعة أم القرى وعن كلية الدعوة وأصول الدين وقسم العقيدة والمكتبات العلمية وغير ذلك .

والحمد لله رب العالمين أولاً وآخراً وصلى الله وسلم على نبينا المصطفى محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

المقدمة

إن الحمد لله وحده نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلاهادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

وصلوات الله وسلامه على خاتم الأنبياء والرسل وسيد البشر أجمعين محمد بن عبدالله الذي جاء من عند الله بالشريعة المصدّقة لما بين يديها ، والناسخة لما قبلها والباقية إلى يوم الدين ، مَنْ ترك المؤمنين على المحجّة البيضاء ليلها كنهارها ، لايزيغ عنها إلاّ هالك ، وشهادتنا له أنه قد أدّى الرسالة وبلّغ الأمانة ونصح الأمّة ، فصلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلّم تسليماً .

أما بعد : فإن الله تبارك اسمه قد خلق الإنسان بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً ، وأمدّه بأصناف نعمه التي اختصه بكثير منها دون سائر مخلوقاته ، وهو تعالى إذ خلقه كذلك لم يخلقه عبثاً ولا باطلاً وإنما خلقه ليبتليه أيكون من الشاكرين أم من الكفورين . وقد أمدّ العليم الخبير هذا الإنسان بمنهج يتبعه من أراد أن يؤديّ حق شكر الله عليه . وقضت حكمته - وهو العزيز القدير - أن يقيم لهذا المبتلى المكلّف داراً أخرى ، يجازي فيها من أحسن بالحسنى فهو الرحيم الغفور الشكور ويجازي فيها من أساء بالسوأى فهو العدل شديد العقاب .

وعلى ذلك فإن الجزاء في الدار الآخرة هو الغاية العظمى التي سيصير إليها الناس فلا غرابة والحال هذه أن يكثر دارسوه قديماً وحديثاً وأن يتناولوا مسائله وقضاياه وأحكامه بالتفصيل الدقيق .

وإذا ذهبنا نستعرض كتب أصول الدين ، فإن أيّ كتاب منها - عظم حجمه أو صغر- لابد أن يتناول بالإثبات ذلك الجزاء ويتناول بعض أسسه التي يقوم عليها ، أو بعض صفاته ومظاهره .

وقد أفردت مصنفات للحديث عن داري الجزاء ووصفهما بالتفصيل ، وربما تتناول بعض تلك المصنفات شيئاً من المسائل التي لها تعلّق بالجزاء الأخروي فتقرر الحق في شأنها

على ما يظهر لدى مصنفها . وتبقى كثير من تلك المسائل متناثرة في ثنايا الكتب في مواضع شتّى تدرس فيها بحسب ما كان يقتضيه الحال في كل موضع فيها .

ومن أراد أن يستجمع دراسة معظم المسائل المتعلّقة بالجزاء الأخروي فعليه أن يتفطّن إلى تلك المواضع وقد يهتدي إلى بعضها وقد لا يهتدي إلى بعضها الآخر .

هذا بالإضافة إلى أن مسألة إثبات أصل وجوب الجزاء الأخروي على أيّ صفة أرادها ا لله تعالى ، مسألة لم أجد من فصّل البحث فيها بدراسة أدلّتها العقلية المستنبطة من الأدلّة الشرعيّة .

وأيضاً فإنّه توجد مسائل متعلّقة بآثار إثبات الجزاء الأخروي أو عدم إثباته ونحو ذلك وهي أمور لاتهتم بدراستها الكتب التي كانت تستخدم المناهج العقليّة الصرف .

وتوجد مسائل تدرس في مواضعها المظنونة إلاّ أن أدلتها أوردّ الشبهات عنها قد لا توجد مجموعة في مصنّف واحد بل في مصنّفاتٍ عديدة وقد تتداخل فيما بينها .

وأخيراً فإنه توجد شبهات قد تثار على الجزاء الأخروي من أصله أو على بعض مسائله ولايجد الدارس الردّ عليها في المواضع التي يغلب على ظنّه وجودها فيها ، وقد لايجد لديه ردّاً مباشراً عليها في كثير من الكتب المهتمّة بدراسة هذا الركن من أركان أصول الدين .

من أجل ذلك كله رأيت أن يكون لي نصيب في دراسة هذا الركن من أركان الإيمان بحيث أتناول إثبات أصل الجزاء وإقامة مختلف الأدلّة عليه مستنبطة من الكتاب والسنة وأتناول آثار الإيمان به ونتائج إنكار المنكرين له والحكمة من إقراره ، والشبهات المثارة عليه وردّها ، وبيان الدوافع إلى إنكاره ، وقمت كذلك بتجميع ما أمكن من المسائل المتعلّقة بالجزاء الأخروي ودراستها مفصّلة إلى حدٍّ ما بعد توزيعها على الأبواب الملائمة لها ، ودرست بعضها باعتبارها من أسسه وبعضها الآخر باعتبارها من أهم صفاته . وأسأل ا لله تعالى أن أكون قد وضعت لبنة حسنة في صرح العلم المتعلّق بهذه المسألة .

وكان من أهمّ الصعوبات التي واجهتني عند البحث ما يأتي :

أولاً : أن بعض مسائل الجزاء الأخروي وإن كانت مما اتفقت على إثباتها أقوال المسلمين قد لايجد الباحث تفصيل استدلالاتهم عليها إلاّ بعبارات متناثرات ، عليه أن

يجتهد لتجميعها وتنسيقها ، وقد يجتمع عنده الكثير من الاستدلالات إلاّ أنها استدلالات متداخلات فيما بينها فيضطر إلى إعادة صياغتها وترتيبها من جديد .

ثانياً : أن الرد على الآراء غير الصحيحة يحتاج إلى فهم مثار الشبهات لدى تلك الآراء ، فإن الرد على أيّ شبهة لايكون كاملاً إلاّ إن أدرك الباحث المعنى الذي يقصده صاحب ذلك الرأي ، وأدرك الشبهات التي تجعله يجنح إلى رأي باطلٍ لا دليل عليه .

ثالثاً : أنّ الردّ الرصين له أساليب تجعل منه دليلاً جديداً على أصل القضيّة ، واستخراج أمثال هذه الردود من بطون كتب العلماء يحتاج إلى جهد كبير . وقد لايجد الدارس الرد المباشر على الشبهة المثارة وإنما يجد بعد البحث ردوداً على شبهات أخرى ، أو كلاماً في مسألة ما ، مما قد يفيده في الرد على هذه الشبهة فيضطر إلى إعادة صياغته بما يتلاءم مع ذلك الرد .

رابعاً : أنّ كثيراً من الأقدمين عندما كانوا ينسبون الأقوال إلى أصحابها كانوا لايشيرون إلى مواضعها فيضطر الباحث إلى دراسة كثير من كتب العالم الذي نسب إليه قول أو ردّ ما لعله يستطيع أن يجد كلامه في مصنّفه الخاصّ به .

خامساً : وأخيراً فإن الباحث قد تقابله بعض الفروع التي اختلف فيها علماء أهل السنّة ولكلٍّ منهم أدلّته الكثيرة ، فيظلّ وقتاً طويلاً حتى يستطيع أن يرجّح قولاً على آخر بعد أن يكون قد جمع ما استطاعه من الأدلّة المتعلّقة بهذه المسألة .

وغير ذلك من صعوبات قد لايخفى كنهها عن الكثيرين ممن كان له السبق في هذا المجال .

ولا أنسى أن أعترف هنا بالفضل للباحثين قبلي في الدلالة على بعض مواضع المسائل في الأصول التي يجب الاعتماد عليها . .

وقد سرت في هذا البحث حسب المنهج التالي :

أولاً : رجعت إلى المصادر الأصليّة عند دراستي لأيّ موضوع ولا سيما عند بيان أقوال المذاهب أو عند تخريج الأحاديث .

ثانياً : عند ذكر مراجع أيّ مسألة كنت كثيراً ما أقدم المرجع الأقدم ثم الذي بعده في

التاريخ ، إلاّ إن كانت استفادتي من مرجع متأخر هي الأساس أو هي الأكثر أهمية فكنت أقدمه ، وأؤخر المرجع الذي تكون استفادتي منه ثانوية أو قليلة .

ثالثاً : في صلب الرسالة كنت أقتصر على ذكر المرجع إما كاملاً وإما أقتصر فيه على ما يدل عليه . وقد أذكر اسم المؤلف وإذا تكرر في موضع فقد لا أعيد ذكر اسمه . ولم أذكر المعلومات الأخرى المتعلّقة بالمرجع إلاّ في الفهرس الخاص بالمراجع .

رابعاً : إذا كانت المسألة محل البحث من المسائل التي اتفق عليها علماء المسلمين أو جمهورهم فقد كنت آتي أولاً بالقول الصحيح مدللاً عليه ، ثم أذكر القول الباطل وشبهاته وأرد عليها .

خامساً : أمّا إذا كانت المسألة محل البحث من المسائل التي وقع فيها خلاف بين فرق وعلماء المسلمين فكنت غالباً ما أذكر الأقوال غير المختارة ابتداءً ثم أختمها بالقول المختار، وقد أرد على استدلالات تلك الأقوال مباشرة بعد ذكرها وقد يتأخّر الردّ إلى ما بعد ذكر القول الصحيح حسب ما كان يقتضيه الحال .

سادساً : لم ألتزم بذكر أقوال جميع فرق المسلمين ، فلست أهدف في هذا البحث إلى دراسة أقوال الفرق ، ولكنني أهتم بذكر أهم الأقوال الواردة في المسألة منسوبة إلى أصحابها مع ذكر استدلالاتهم على ما ذهبوا إليه .

سابعاً : قد لا أجد في بعض المسائل أقوالاً أخرى لها أهميتها أَوْلَها استدلالات معتبرة فأقتصر على ذكر القول الصحيح بأدلّته .

ثامناً : في بعض الأحيان قد لا أذكر إلا القول الصحيح في المسألة إن كانت من المسائل الكبار التي تحتاج في دراستها إلى بحث مستقل ، وربما أستدل له ببعض الاستدلالات .

تاسعاً : بعض المسائل قد تحتاج إلى ذكر تفصيلات وتحليلات وتقسيمات ، وقد كنت آتي بذلك – بحسب الإمكان – ، مدلّلاً على كلّ ما آتي به بالدليل المناسب له .

عاشراً : كنت في استدلالي على ما أورده من القضايا والأحكام أستقصي معظم أو كثيراً من الأدلّة الواردة في الموضوع ، رغبة مني في قطع أي شبهة قد تنشأ عند المخالف، وفي يقيني أن كلّ دليل فيه دائماً جديد لايوجد في غيره من الأدلّة ، فإذا جمعت

مختلف الأدلّة وأحسن عرضها تبيّن الحقّ لكلّ طالب له ، وانقشعت أيّ غشاوة يمكن أن تكون سبباً لرأي مخالف للحقّ .

حادي عشر : وإني في هذا البحث وإن التزمت موافقة إجماع المسلمين أو أقوال جمهور أهل السنّة في القضايا الأساسيّة ، فإنّي في القضايا الفرعيّة التي وقع فيها بعض الخلاف بين علماء أهل السنّة قدلا ألتزم برأي إمام معين وإنما ألتزم باتباع الحقّ على ما يبينه لي الدليل ، ولذلك فقد أستفيد من قول بعض العلماء في الرد على بعض المخالفين ، ثم لا يمنعني ذلك من أن لا أوافقه تمام الموافقة فيما يترجح عنده من رأي بل أخالفه إن ظهرلي أنّ الحقّ بخلاف ما قاله . ولكني على كل حال لا أبتدع قولاً وإنّما أتّبع بالدليل سنّة قوم قد كان لهم عليّ منّة وفضل في تبيين القول الراجح بالبرهان .

ثاني عشر : قمت بتخريج الآيات والأحاديث الواردة في ثنايا البحث .

* أمّا الآيات فقد كنت أذكر رقم الآية واسم السورة في متن الرسالة ، إلاّ إنْ كان الكلام نقلاً لقول لم يذكر صاحبه فيه رقم الآية ولا اسم السورة ، فإني أذكرهما في الهامش . وقد أقتصر عند ذكري الآية على موضع الشاهد منها .

* وأمّا الحديث فقد التزمت بذكره من الصحيحين أو أحدهما ، إن وجد فيهما . وإن لم يوجد فيهما دليل مناسب ، فقد كنت آتي بالحديث موضع الاستدلال من غيرهما وأذكر تصحيح عالم أو أكثر لهذا الحديث من علماء هذا الشأن . مع عزو الدليل إلى موضعه الذي ورد فيه عند ذكره لأوّل مرّة ، ثم أحيل إلى هذا المكان إن تكرر ذكر الحديث .

* وبالنسبة لصحيح مسلم فإني اعتمدت فيه على النسخة التي طبع معها شرح النووي وهي نسخة غير مرقّمة الأحاديث ، فإنْ أخرجت الحديث من المعجم المفهرس وتأكدت أن الرقم فيه يشير إلى الحديث نفسه الموجود في الصحيح نبّهت على ذلك ، فقلت مثلاً : (ح: ٧٠ حسب المعجم) . وقد يقع مثل ذلك بالنسبة لأرقام أبواب كتب الترمذي في جامعه ، إذ اعتمدت فيه على : عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي ، وهي نسخة غير مرقمة .

ثالث عشر : وأما ترجمة الأعلام فإني قد آثرت أن أعرّف بهم تعريفاً مفصّلاً في ملحق خاص بعد الانتهاء من موضوع الرسالة كاملاً .

ولم ألتزم إلا بتعريف الأسماء الواردة في متن الرسالة . واخترت أن لا أعرّف بمشاهير الصحابة الذين لا أظن أن أحداً يجهلهم كالخلفاء الأربعة رضي الله عنهم ونحوهم .

رابع عشر : وأمّا الفرق فقد عرّفت بها عند أول مرّة ترد فيها . وذلك لقلّتها .

خامس عشر : وتوجد رموز استخدمتها عند توثيق مسألة أو حديث مثل : (ص) إشارة إلى الصفحة ، و(جـ) إشارة إلى الجزء ، و(مج) إشارة إلى المجلد ، و(ح) وهي اختصار لقولي رقم الحديث .

سادس عشر : وقد ختمت الرسالة بفهرسين تفصيليين للمراجع والموضوعات .

هذه من أهم الأمور التي أردت أن أنبّه عليها لبيان المنهج الذي سرت عليه في هذا البحث . وأما خطّتي في الرسالة فقد جعلتها على مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة :

مقدمة : وفيها بيان أهمية الموضوع وسبب اختياره وأهم الصعوبات التي واجهتني عند البحث ، ومنهجي وخطتي فيه .

الباب الأول : مفهوم الجزاء الأخروي وحكمه وأدلّة ثبوته وحكمته وحال منكريه وفيه أربعة فصول :

الفصل الأول : مفهوم الجزاء الأخروي وحكمه . ويشتمل على :

أولاً : بيان مفهوم الجزاء الأخروي .

ثانياً : انقسام الجزاء إلى ثواب وعقاب ومفهوم كلٍّ منهما .

ثالثاً : مدى اعتبار الأعواض نوعاً من أنواع الجزاء الأخروي .

رابعاً : مدى اعتبار القصاص نوعاً من أنواع الجزاء الأخروي .

خامساً : حكم الجزاء الأخروي .

الفصل الثاني : أدلّة ثبوت الجزاء الأخروي نقلاً وعقلاً . ويشتمل على :

تمهيد : قيام الجزاء الأخروي على أساس الإيمان باليوم الآخر .

الاستدلال الأول : إخبار القرآن والسنّة بوقوع الجزاء في الآخرة .

الاستدلال الثاني : الجزاء الأخروي مقتضى كمال الأسماء والصفات الإلـهية .

الاستدلال الثالث : الجزاء الأخروي مقتضى الحكمة الإلـهية في ابتلاء الإنسان .

الاستدلال الرابع : الجزاء الأخروي مقتضى الحكمة الإلـهية في تكليف الإنسان .

الفصل الثالث : حكمة الجزاء الأخروي وأثر الإيمان به في النفس والسلوك . ويشتمل على :

أولاً : بعض الحكم المترتبة على تحقق اليوم الآخر وتحقق مافيه من جزاء .

ثانياً : أثر الإيمان بالجزاء الأخروي في النفس والسلوك .

الفصل الرابع : دوافع المنكرين للجزاء الأخروي ، وآثار إنكاره عليهم ، ودحض شبهاتهم . ويشتمل على :

تمهيد :

أولاً : دوافع المنكرين لليوم الآخر ومافيه من جزاء .

ثانياً : الآثار السيّئة لإنكار الجزاء الأخروي على النفس والسلوك .

ثالثاً : دحض شبهات المنكرين للجزاء الأخروي .

الباب الثاني : أسس الجزاء الأخروي . وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول : قيام الجزاء الأخروي على أساس عدل الله تعالى وفضله . ويشتمل على:

أولاً : الجزاء الأخروي بين عمل الإنسان ومشيئة الله تعالى وفضله وتحقيق المذاهب في ذلك .

ثانياً : شروط تحقق الجزاء على العمل .

ثالثاً : تفاوت الجزاء الأخروي على الأعمال وعوامل ذلك .

رابعاً : مظاهر العدل والفضل في الجزاء الأخروي .

الفصل الثاني : قيام الجزاء الأخروي على أساس أهليّة التكليف . ويشتمل على :

أولاً : ثبوت الجزاء لمن استوفى شروط أهليّة التكليف .

ثانياً : حكم جزاء من فقد شروط أهلية التكليف .

الفصل الثالث : قيام الجزاء الأخروي على أساس المسؤولية الشخصيّة . ويبحث فيه النقاط التالية :

أ : جزاء الإنسان على عمله .

ب : جزاء الإنسان على آثار عمله .

جـ : لاتعارض بين قيام الجزاء الأخروي على المسؤولية الشخصيّة وفضل ا لله تعالى فيه .

د : عدم التعارض بين بعض صور الجزاء وعدل ا لله تعالى في قيامه على أساس المسؤولية الشخصية .

الباب الثالث : أهم صفات الجزاء الأخروي . وفيه تمهيد وثلاثة فصول .

تمهيد :

الفصل الأول : عموم الجزاء الأخروي لمستحقّيه من الأحياء وشموله لأفعالهم وتروكهم ودرجات إرادتهم لها . ويشتمل على :

أولاً : عموم الجزاء الأخروي للإنس والجن وغيرهما من العجماوات .

ثانياً : شمول الجزاء الأخروي للأفعال والتروك .

ثالثاً : مدى شمول الجزاء الأخروي لدرجات التوجّه الإرادي نحو الأعمال الظاهرة والباطنة .

الفصل الثاني : شمول الجزاء الأخروي النفس والجسد . ويشتمل على :

تمهيد :

أولاً : إثبات شمول الجزاء الأخروي لنفس المكلّف وجسده .

ثانياً : صور من نعيم النفس والجسد وعذابهما في الكتاب والسنة .

ثالثاً : الرد على شبهات منكري مادّية الجزاء الأخروي .

الفصل الثالث : الجزاء الأخروي بين الخلود وعدمه . ويشتمل على :

تمهيد :

أولاً : الأدلة على دوام الجزاء الأخروي .

ثانياً : أقوال المنكرين لدوام الجزاء الأخروي والردّ عليها .

خاتمة : وفيها أهم نتائج البحث .

وقد ختمت الرسالة بملحق للتعريف بالأعلام ، ثم بثبت للمراجع ، ثم بفهرس

تفصيلي للموضوعات .

والله وحده أسأله أن يكون قد أمدّني بالمعونة والهداية إلى الحقّ في كل مسألة بحثتها ، وأسأله أن يعفو عنّي إن بدر منّي خطأ أو تقصير ، وأن لا يحرمني أجر المجتهد المصيب فيما أصبت ، وأجر المجتهد المخطئ فيما أخطأت . والحمد لله رب العالمين .

الباب الأوّل

مفهوم الجزاء الأخروي وحكمه وأدلة ثبوته وحكمته وحال منكريه وفيه أربعة فصول :

الفصل الأول : مفهوم الجزاء الأخروي وحكمه .

الفصل الثاني: أدلة ثبوت الجزاء الأخروي نقلاً وعقلاً .

الفصل الثالث : حكمة الجزاء الأخروي وأثر الإيمان به في النفس والسلوك.

الفصل الرابع : دوافع المنكرين للجزاء الأخروي وآثار إنكاره عليهم ، ودحض شبهاتهم .

الفصل الأول

مفهوم الجزاء الأخروي وحكمه ويشتمل على :

أولاً : بيان مفهوم الجزاء الأخروي .

ثانياً : انقسام الجزاء إلى ثواب وعقاب ومفهوم كل منهما .

ثالثاً : مدى اعتبار الأعواض نوعاً من أنواع الجزاء الأخروي .

رابعاً : مدى اعتبار القصاص نوعاً من أنواع الجزاء الأخروي .

خامساً : حكم الجزاء الأخروي .

أولاً : بيان مفهوم الجزاء الأخروي .

جاء في كتب اللغة أن معنى الجزاء هو : المكافأة على الشيء ، يقال : جزاه به وعليه جزاءً وجازاه مُجازاةً وجزاءً . والجزاء قد يكون بالخير وقد يكون بالشر ، يقول الله سبحانه : ﴿ **قالوا فما جَزَاؤُهُ إن كنتم كاذبين (٧٤) قالوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كذلك نَجْزِي الظالمين (٧٥)** ﴾ يوسف .

والمعنى : ما جزاء وما عقوبة من بان كذبه منكم وظهر أنه هو السارق ؟ .

ويقال : جزيته بما صنع وجازيته بمعنى واحد .

ومن معاني الجزاء اللغوية كذلك : القضاء . يقال : جزى هذا الأمرُ أيْ قضى ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **واتقوا يوماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نفسٍ شيئاً...(٤٨)** ﴾ البقرة .

والمعنى : أنه يوم القيامة لا تقضي فيه نفس عن نفس شيئا ، ومنه قولهم : تجازى دينَه: أي تقاضاه .

ويأتي الجزاء كذلك بمعنى الإغناء ، وبه فسر أيضا قوله تعالى : ﴿ **واتقوا يوماً لاتجزي ...** ﴾ **فقيل** : لاتغني . ويقال أيضا : جَزَى الشيءُ يَجزِي بمعنى : كفى ، ومنه قولهم : ما يُجْزيني هذا الثوبُ أي : ما يكفيني ، وقولهم : يَجْزي هذا مِنْ هذا ، أيْ : كُلّ واحدٍ منهما يقوم مقام صاحبه ...(١)

مما سبق يتبين أن الجزاء يطلق على أمور :

منها : المكافأة على الشيء ، والمكافأة قد تكون ثواباً وقد تكون عقاباً .

ومنها : قضاء الشيء ، والإغناء والكفاية .

وظاهر أنّ المعنى الذي ينطبق على الجزاء الأخروي من المعاني السابقة هو الأول . ولا يبعد المعنى الاصطلاحي لكلمة الجزاء عند المتكلمين عما ذكره أهل اللغة ، بل المعنيان

---

(١)- انظر لسان العرب،لابن منظور جمال الدين محمد بن مكرّم الأنصاري:جـ١٨،ص ١٥٥ وما بعدها، مادة (جزى) . وانظر ترتيب القاموس المحيط ، للفيروز آبادي مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الشيرازي (ت : ٨١٧ هـ) ،جـ١،ص ٤٩٠-٤٩١،نفس المادة .

متحدان .[1]

وأما وصف الجزاء بالأخروي : فهــي نسـبة إلى الأخـرى ، والأخـرى المـراد بهـا : الحيـاة الآخرة، وهي دار الحياة بعد الموت .[2]

فالجزاء الأخروي : هو الجزاء الواقع في تلك الدار ، على ما قـدم الإنسـان مـن عمـل في الحياة الدنيا .

---

(١)- انظر على سبيل المثـال : كشـاف اصطلاحـات الفنـون ؛ محمـد علـي الفـاروقي الهنـدي (التهـانوي) [ت:فى القرن الثاني عشر الهجري] . جـ١،ص: ٣٨٣ .

(٢)- انظر المعجم الوسيط ، إعداد لجنة منبثقة عن مجمع اللغة العربية بمصر: جـ١،ص٩ .

ثانياً : انقسام الجزاء إلى ثواب وعقاب ومفهوم كلٍّ منهما .

جاء في لسان العرب أن : الجزاء يكون ثواباً وعقاباً . [1] اهـ . أي : ثواباً على العمل الصالح وعقاباً على العمل السيء .

أما الثواب : فهو من قولنا ثاب الرجلُ يثوب ثوباً وثوباناً رجع بعد ذهابه ، وثاب الناس اجتمعوا وجاؤوا ، وكذلك الماء إذا اجتمع في الحوض ... ، وأثاب : أقبل ....

والثواب : جزاء الطاعة ، وكذلك المثوبة ، قال الله تعالى : ﴿... **لمثوبة من عند الله خير...** (١٠٣)﴾ البقرة .

وأعطاه ثوابه ومثوبته أي : جزاء ما عمله ، وأثابهُ الله ثوابهَ وأثوَبهُ وَ ثوَّبه مَثوُبَتهُ : أعطاه إياها . وفي التنزيل العزيز :

﴿ **هل ثُوِّبَ الكفّار ما كانوا يفعلون** (٣٦) ﴾ المطففين .

أي : جوزوا . [2]

ويبدو مما سبق أن أصل كلمة الثواب يعود إلى معنى : الرجوع والإرجاع ، ثم تُوسِّع فيه إلى معنى الجزاء ملاحظاً فيه معنى الإرجاع . قال الطبري -رحمه الله- في بيان هذا المعنى عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ **ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون** (١٠٣) ﴾ البقرة . :

(والمثوبة في كلام العرب : مصدر من قول القائل : أثبتك إثابةً وثواباً ومثوبة ، فأصل ذلك من : ثاب إليك الشيء بمعنى : رجع ، ثم يقال : أثبته إليك : أيْ رجعته إليك ورددته ، فكان معنى إثابة الرجل الرَّجُلَ على الهدية وغيرها : إرجاعه إليه منها بدلاً، ورده عليه منها عوضاً ، ثم جعل كل معوضٍ غيرَه من عمله أو هديته أو يدٍ له سلفت منه إليه مثيباً لَهُ . ومنه : ثواب الله عزوجل عباده على أعمالهم ، بمعنى إعطائه

---

(١)- انظر لسان العرب . مادة (جزى)،جـ١٨،ص : ١٥٦ .

(٢)- انظر لسان العرب . مادة (ثوب)،جـ١،ص : ٢٣٦ وما بعدها . وانظر الصحاح،لـ : إسماعيل بن حماد الجوهري . نفس المادة ، جـ١،ص : ٩٤-٩٥ .

إياهم العوض والجزاء عليه [١] ، حتى يرجع إليهم بدل من عملهم الذي عملوا له).[٢]

بناءً على ذلك فإنه يمكن أن تطلق الإثابة ويراد بها الجزاء العادل على الأعمال السيئة ، ويمكن أن يستدل على هذا المعنى بقوله تعالى :

﴿ ... **فأثابكم غمًّا بغمّ** ... (١٥٣) ﴾ آل عمران .

قال الطبرى في بيان معنى هذه الآية الكريمة :

(يعني بقوله جل ثناؤه ﴿ .. **فأثابكم غمًّا بغمٍّ** .. ﴾ يعني : فجازاكم بفراركم عن نبيكم ، وفشلكم عن عدوّكم ، ومعصيتكم ربكم ﴿ **غمًّا بغمٍّ** ﴾ يقول : غمًّا على غمٍّ ، وسمَّى العقوبة التي عاقبهم بها من تسليط عدوهم عليهم ، حتى نال منهم ما نال ثواباً ، إذ كان ذلك من عملهم الذي سخطه و لم يرضه منهم ، فدل بذلك جل ثناؤه أن كل عوض كالمعوض من شيء من العمل خيراً كان أو شرًّا ، أو العوض الذي بذله رجل لرجل أو يد سلفت له إليه ، فإنه مستحق اسم ثواب ، كان ذلك العوض تكرمة أو عقوبة ، ونظير ذلك قول الشاعر :

أخاف زياداً أن يكون عَطاؤُهُ أَدَاهِمَ سودًا أو مُحَدْرَجَةً سُمْراً .

فجعل العطاء العقوبة ، وذلك كقول القائل لآخر - سلف إليه منه مكروه - : لأجازينك على فعلك ولأثيبنَّك ثوابك).[٣]

وإذا كانت الإثابة قد تطلق ويراد بها الجزاء العدل على العمل السيء ، فإنه في الغالب عندما تطلق كلمة الثواب فإنه يراد بها ما يكون جزاءً على الأعمال الحسنة ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ **فأثابهم الله بما قالوا جنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاءُ المحسنين** (٨٥) ﴾ المائدة .

فالإثابة هنا بمعنى مجازاتهم بذلك الجزاء الحسن من النعيم المقيم بسبب ما قالوه مما

---

(١)- هكذا فى المطبوعة .

(٢)- تفسير الطبرى المسمى (جامع البيان عن تأويل آي القرآن):جـ١،ص : ٤٦٨ . وانظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية:جـ٨،ص ٣٩٧ .

(٣)- تفسير الطبرى:جـ : ٤ ،ص : ١٣٤ .

يرضي الله من الإيمان بالله وحده وبرسوله صلى الله عليه وسلم وبما أنزل عليه من ربه.[1]

وهذا المعنى الأخير للثواب هو المقصود عند إطلاق المتكلمين كلمة الثواب .

أما العقاب فمما جاء في بيانه في كتب اللغة :

العقاب والمعاقبة أن تجزي الرجل بما فعل سوأً ، والاسم العقوبة ، وعاقبه بذنبه معاقبة وعقاباً أخذه به ، وتَعَقَّبْت الرجلَ : إذا أخَذْته بذنب كان منه ...[2]

جاء في تفسير البحر المحيط عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به** ...(١٢٦) ﴾ النحل .

(وسمَّى المجازاة على الذنب معاقبة لأجل المقابلة ، والمعنى : قابلوا من صنع بكم صنيع سوءٍ بمثله).[3]

والظاهر أن أصل كلمة العقاب مأخوذ من قولهم :

(وعقب الليلُ النهارَ جاء بَعْدَهُ ، وعاقَبَهُ أي : جاء بِعَقِبه فهو معاقب وعقيب أيضاً).[4]

وقولهم : (عَقَبَهُ إذا جاء بعده ، وعقَبَ هذا هذا إذا ذهب الأول كله ولم يبق منه شيء ، وكل شيء جاء بعد شيء وخلفه فهو عَقْبه).[5]

وبناء على ما سبق فإن المجازاة على الذنب تأتي بعده وبسببه ، فسمّيت عقاباً لأجل هذا.[6]

ونظراً لهذا المعنى فإنه توجد مصادر وأفعال تتبع هذه المادة – مادة (عقب) – قد استخدمت لمطلق الجزاء سواء كان خيراً أو شراً حيث يقول صاحب اللسان :

---

(١)- انظر تفسير الطبري:جـ٧ ، ص : ٧ .

(٢)- انظر لسان العرب:مادة (عقب)،جـ٢،ص: ١١٠ . وانظر كذلك ترتيب القاموس المحيط . نفس المادة،جـ١،ص: ١٨٤ وما بعدها .

(٣)- تفسير البحر المحيط ، لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيّان الأندلسي الغرناطي . جـ٥،ص: ٥٤٩ .

(٤)- لسان العرب:مادة (عقب)،جـ٢،ص: ١٠٧ .

(٥)- المرجع السابق . نفس المادة،جـ٢،ص: ١٠٣-١٠٤ .

(٦)- انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية:جـ٨،ص: ٣٩٧ .

(... واعتقب الرجل خيراً أو شرًّا بما صنع أي : كافأه به ، وأعْقَبَهُ على ما صنع أي : جازاه ، وأعْقَبَهُ بطاعته أيْ : جازاه ....، والعقْبَى : جزاء الأمر ....، وأعقبه ا لله بإحسانه خيراً ، والاسم منه العقبى ، وهو شبه العِوَض ، واستعقب منه خيراً أو شرًّا اعتاضه فأعقبه خيراً : أي عَوَضَهُ وأبدله).[1]

ومع ذلك فإن صاحب اللسان – وغيره من اللغويين – عندما تكلم عن (العقاب) خاصة وما يتصرف منه من الأفعال ، لم يعرفه إلاّ بكونه جزاءً على الأعمال السيئة . وكذلك فإنّ الدارس للاستعمال القرآني لكلمة (العقاب) وما تصرف منها ، يجده خاصاً بما يتعلق بالجزاء على الأعمال السيئة ، من ذلك قوله تعالى :

﴿**وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين** (١٢٦)﴾ النحل .

فالمعاقبة المراد بها هنا : جزاء الكافرين الجزاء السيء بالنسبة إليهم على ما فعلوه بالمؤمنين من أفعال سيئة .[2]

وأيضاً يقول جل شأنه :

﴿ **كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم ا لله بذنوبهم وا لله شديد العقاب** (١١) ﴾ آل عمران . والعقاب كما هو ظاهر من الآية هو بمعنى المجازاة والمؤاخذه على الذنوب والمعاصي .

وبهذا المعنى الأخير وهو : جزاء المرء بما يسوؤه على ما قدّمه من أعمال سيئة استخدم المتكلمون كلمة : العقاب .

---

(١)– لسان العرب:مادة (عقب)،جـ٢،ص : ١٠٢، ١٠٧، ١١٠ .

(٢)– انظر تفسير التحرير والتنوير، لـ. محمد الطاهر بن عاشور: جـ١٤،ص: ٣٣٥-٣٣٦ .

ثالثاً : مدى اعتبار الأعواض نوعاً من أنواع الجزاء الأخروي .

١ : الأعواض عند المعتزلة(١) واعتبارها من أنواع الجزاء الأخروي:

يعتقد أكثر المعتزلة أن كل حيٍّ يصاب بالآلام في هذه الحياة الدنيا من إنسان أو حيوان فإنه يجب على الله أن يعوضه عما أصابه من الآلام ، وإذا لم يتحقق ذلك التعويض في الدنيا فلابد أن يتحقق في الآخرة ، وقد أسموا هذا التعويض عن الآلام بـ(العِوَض) ، إذ العوض في اللغة البدل(٢) ، وقد رأوا أنه يجب على الله- تعالى عن قولهم- أن يعطي هذا الذي أصابه الألم -غير المستحق- في الدنيا بدلاً عن ألمه الذي أصابه ، فلذلك أسموا هذا البدل بالعوض . وقد جعلوا هذا العوض نوعاً من أنواع الجزاء الأخروي منفصلاً عن كُلٍّ

---

(١)- المعتزلة : فرقة من الفرق الكلامية، تشعبت إلى فرق متعددة، يجمعها القول بالأصول الخمسة وهي : التوحيد والعدل والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وفي كل أصل من هذه الأصول لها آراء خاصة استندت فيها إلى رأي العقل المجرد ، وخالفت فيه الحق . والكثير من الدارسين يرجحون أن مقدمهم هو واصل بن عطاء الغزال [ت: ١٣١هـ]،وهو الذي اعتزل مجلس الحسن البصري عندما خالفه في حكم مرتكب الكبيرة ، و يرجح كثير من المؤرخين أن لفظ المعتزلة إنما أطلق على هذه الفرقة بسبب اعتزال واصل لمجلس الحسن ، وقيل غير ذلك في سبب هذه التسمية ، ولا يمنع من كون واصل مقدّم المعتزلة أن يكون هناك ممن سبقه أو عاصره أفرادٌ أخذت المعتزلة ببعض أقوالهم أو جلّها من مثل معبد الجهني [ت: في حدود ٨٠هـ] وغيلان الدمشقي [قتل سنة ١٠٥هـ] والجعد بن درهم [قتل زمان هشام بن عبدالملك الأموي والذي توفي سنة ١٢٥هـ] ، وغيرهم. وللمعتزلة مسميات أخر كالعدلية والقدرية ...

انظر في تعريف المعتزلة وبيان آرائهم .الفَرْق بين الفرق ، تأليف : عبدالقاهر بن طاهر البغدادي الاسفرائيني التميمى [ت: ٤٢٩هـ] ص: ١١٤-١٢٠ . وانظر : الملل والنحل ، تأليف : أبو الفتح محمد بن عبدالكريم بن أحمد الشهرستانى [ت: ٥٤٨هـ] ص:٤٨-٥٣ . وانظر تاريخ المذاهب الإسلامية . الجزء الأول : في السياسة والعقائد ، تأليف : محمد أبو زهرة ص : ١٣٨-١٤٥ . وانظر : مذاهب الإسلاميين . الجزء الأول : المعتزلة والأشاعرة ، تأليف: عبدالرحمن بدوي ص: ٣٧-٨٢ . وانظر: الفرق الكلامية الإسلامية مدخل ودراسة ، تأليف: علي عبدالفتاح المغربي ص: ٢٠٣-٢١١ .

(٢)- انظر لسان العرب،مادة (عوض)،جـ٩،ص: ٥٥.

من الثواب والعقاب ، وأوجبوا -كعادتهم- على ا لله تعالى إحقاقه ، وجعلوا لهذا العوض كيفيات وصوراً وأحكاماً اختلفوا فيما بينهم في تقريرها .

فما هو العوض عند هؤلاء المعتزلة ؟ وعلى ماذا يستحق ؟ وما الذي دفع هؤلاء المعتزلة إلى القول به ؟ وما هو الموقف الحق من ذلك كله ؟ وبعد : فهل هذا العوض هو نوع معين من أنواع الجزاء الأخروي منفصل عن الثواب والعقاب كما ذهب إلى ذلك هؤلاء المعتزلة أم لا ؟ .

هذه هي أهم المسائل التي سيتم بحثها بإذن ا لله تعالى فيما يلي :

العِوَض – عند المعتزلة – :(كل منفعة مستحقة لا على طريق التعظيم والإجلال).[1]

وبقولهم : (لاعلى طريق التعظيم والإجلال) : ينفصل العوض عن الثواب لأنه إنما يفعل عندهم على طريق التعظيم والإجلال وجوباً ، وبقولهم (منفعة) ينفصل عن العقاب.

والعوض – عند مثبتيه من المعتزلة – يستحق على جميع المصائب والآلام التي تلحق الإنسان أو الحيوان ، فالمستحِقُّ للعوض هو مَنْ نزل به الألم سواء كان إنساناً مكلّفاً أو غير مكلف ، أو كان حيواناً . وأما المُسْتَحَقُّ عليه العوض فهو فاعل الألم في المقام الأول سواء كان هو ا لله تعالى أم غيره من إنسان أو حيوان ، فا لله تعالى إن كان هو فاعل الألم فإن العوض يستحق عليه جل جلاله ، سواء كان الألم واقعاً على مكلف أو غير مكلف ، ومن شرط العوض أن يوفيَ على الألم ويزيد عليه حتى يحسن الألم من أجله ، ويجوز أن يكون العوض عن الآلام في الدنيا أو في الآخرة ، وإذا كان في الدنيا فيجب – عند كثير من مثبتي العوض من المعتزلة – أن يكون متأخراً عن الألم لا سابقاً عليه . وعند كثير منهم أيضاً لابد من ثبوت أمر آخر من هذه الآلام التي يفعلها ا لله سبحانه في هذه الدنيا وهذا الأمر هو ما يحصل للمكَلَّفين من الاعتبار بسبب تلك الآلام .

هذا إن كان ا لله تعالى قد فعل الألم في هذه الدنيا ، وأما في الآخرة فإنه جل شأنه

---

(١)– شرح الأصول الخمسة.للقاضي:عبدالجبار بن أحمد.تعليق: أحمد بن الحسين بن أبي هاشم ص:٤٩٤.

لايفعل الآلام إلاّ فيمن يستحقّها من المعذبين [١] .

وبعد مناقشات يوردها القاضي عبدالجبار المعتزلي حول ما الذي يُستحق على ا لله تعالى عند فعله الألم في العبد قال :

(إنا نقول في الجميع إنهم يستحقُّون عليه عز وجل العوض والنفع ، وأنه تعالى يجوز أن يوصل إلى الكافر العوض معجلا ، لكنه متى أخره إلى وقت العقاب جعله جزأً من عقابه لا لأنه في الأصل استحق على هذا الوجه ، لكن لأنه لما أخر إلى الوقت الذي لايجوز توفيره وفّر عليه ما يقوم مقامه ...). [٢]

فالكافر لايسقط عوضه عندهم بالعقاب ، أيْ إنّ العقاب عندهم لايحبط العوض . [٣] وذلك على النقيض من الثواب الذي يحبط بالعقاب ولو لم يكن عقاباً على كفر بل كان على كبيرة . [٤]

لكن ألا يجوز أن تكون تلك الآلام التي يفعلها ا لله سبحانه في هذه الدنيا ببعض المكلفين عقوبة على ذنب أو معصية سابقة ومن ثم لايستحقون عليها عوضاً ؟ .

قد قال بذلك بعض المعتزلة كأبي علي الجبائي وغيره ، وخالفه ابنه أبو هاشم الجبائي وتبعه على تلك المخالفة القاضي عبدالجبار ومن شايعه ، فرفضوا أن يكون شيء من هذه الآلام الواقعة في الدنيا عقوبة على معصية سابقة . [٥]

---

(١)- انظر: جُمل العلم والعمل . تصنيف: الشريف المرتضي علي بن الحسين الموسوي العلوي،ص:٣٤ . وانظر: المغني في أبواب العدل والتوحيد .جـ١٣ (اللطف) . إملاء القاضي: عبدالجبار الأسد آبادي،ص: ٤٨٥-٤٨٦،وص: ٥٢٠ . وانظر شرح الأصول الخمسة،للقاضي عبدالجبار بن أحمد ، ص ٤٩٨، و ص: ٥٠٣-٥٠٥ . وفي ص: ٤٩٣ ؛ هامش (١) يبين المحقق نقلاً عن المعتزلة أن معنى الاعتبار عندهم هو ما يدعو المكلف إلى فعل الواجب والانصراف عن القبيح .

(٢)- المغني في أبواب العدل والتوحيد،للقاضي عبدالجبار بن أحمد،جـ١٣(اللطف)،ص: ٣٧١ .

(٣)- عقد القاضي عبدالجبار في المغني فصلاً لإثبات أن العوض لايسقط بالعقاب . انظر جـ١٣،ص٥٢٤.

(٤)- سيأتي بيان هذه المسألة عند المعتزلة ومناقشتها في فصل قادم،انظر ص: ١٩٢ . مع الهامش (٤) .

(٥)- انظر المغني،للقاضي عبدالجبار،جـ١٣،ص : ٤٣١ وما بعدها . وسيأتي بيان سبب ذلك عندهم في ص:١٧ .

ما سبق كان في الآلام التي يفعلها الله سبحانه ، وأمّا الآلام التي يتسبب فيها غير الله تعالى ، ولم يكن الله جل شأنه قد أباحها أو ندب إليها أو أوجبها أو ألجأ إليها فإن العوض يستحق -كما سبق ذكره[1]- على ذلك الذي تسبب في الألم[2] . والله سبحانه يأخذ العوض من ذلك الذي تسبب في الألم ويوفره للمستحِق مكلفاً كان المستحِق أو غير مكلف ، سالكاً في ذلك سبحانه طريقة الانتصاف .

والانتصاف صورته هنا لاتكون إلا بنقل الأعواض من المستحَق عليه العوض إلى المستحِق له ، وذلك لأنه لابد أنْ يكون لفاعل الألم أعواض إما مستحقة على الله تعالى، إن كان سبحانه قد أنزل به آلاماً ، أو على غير الله جل شأنه ، كفلانٍ من الناس ، إن كان ذلك الإنسان قد تسبب في آلام حصلت له ، فإن قام هو بفعل ألم في غيره ، واستُحِق عليه العوض ، فإن هذا العوض يؤخذ مما ثبت له من الأعواض التي يستحقها ، وينقل ما يؤخذ منه إلى مَنْ فعل به الألم [3].

ولا يجوز عند القائلين بالعوض من المعتزلة أن يمكّن الله سبحانه أحداً من إيصال ألمٍ إلى غيره ، إلاّ إذا كان في علم الله تعالى عوض يستحقه موصل الألم إمّا على الله تعالى أو على غير الله سبحانه ، ولا يتفضل الله جل شأنه -بزعمهم- بإعطاء عوض استحق على غيره سبحانه [4].

والعوض يُستحق على كلّ مَنْ فَعَلَ الألم بغيره ، سواء كان فاعل الألم مكلفاً أو غير مكلف ولوكان بهيمة أو عقرباً ونحو ذلك وهذا ما ذهب إليه القاضي عبدالجبار وغيره[5]. إذ يقول في الدفاع عن رأيه هذا (واعلم أنّ كثيراً من المخالفين استشنعوا

---

(1)- انظر ص:10 .

(2)- انظر المغني،للقاضي عبدالجبار:جـ13،ص:450 وما بعدها . وهذا الحكم إن كان المتسبب في الألم ظالماً فيما تسببه من الألم ، وان لم يكن ظالماً فإن الحكم يختلف بحسب الحال .

(3)- انظر المغني،لعبدالجبار:جـ13،ص: 426 وما بعدها ، وص: 483 وما بعدها . وانظر شرح الأصول الخمسة له،ص: 503-505 .

(4)- انظر شرح الأصول الخمسة،للقاضي عبدالجبار،ص:503-505 .

(5)- انظر المغني،لعبدالجبار بن أحمدجـ13ص: 501وما بعدها.وانظر شرح الأصول الخمسة،له،ص503.

ما نقوله من أن العوض يجب على البهيمة وعلى العقرب والزنبور ، ويظنون أنا جعلناها مكلفة وجعلنا الفعل واجباً عليها ، ومتى عرف غرضنا فيما نذكره من ذلك سقط هذا الباب ، وذلك أن العوض الذي يجب على السبع ليس بفعل واجب عليه ، ولا هو مِنْ أهل التكليف لفَقْد التمكين بالعقل وغيره ، وإنما نعني بذلك أن وصول العوض الذي يستحقه هذا المظلوم يجب أن يكون من أعواض السبُع التي يستحقها على ا لله تعالى دون أعواض غيره فيصير هذا القول مِنّا بمنزلة أن نقول إن النفقة واجبة في مال الصبي ونعني بذلك أن ملكه أوْلى بأنْ يتناول ويصرف في نفقة والده من ملك غيره ...).(1)

وهكذا يتبين مما سبق أن العوض يُسْتحق على فاعل الألم في المقام الأول . إلاّ أن هناك حالات عند مثبتي العوض من المعتزلة استثنوها من هذا الحكم ، وجعلوا العوض فيها يُسْتحق على غير فاعل الألم المباشر ، وهي الحالات التي يكون الألم فيها واقعاً بإباحة ا لله تعالى ، كإباحته سبحانه ذبح الأنعام للأكل ، أو ندبه ذلك كذبحها للعقيقة ، أو إيجابه تعالى كذبحها هدْياً لتمتع أو قران ونحو ذلك ، فإن العوض في هذه الحالات ليس على فاعل الألم المباشر والذي هو الإنسان الذابح ، وإنما يستحق العوض فيها على ا لله تعالى ، لأن هذا الألم قد وقع بإباحته أو ندبه أو إيجابه ، ومثل هذه الحالات حالة الإلجاء ، سواء كان من ا لله عزّ وجلّ أو غيره ، وذلك كأن يفعل الإنسان في نفسه ألماً بجرْيه على شَوْكٍ ، هرباً من صاعقة أحدثها ا لله تعالى ، فالعوض هنا مُسْتَحَقٌّ على ا لله عزّ وجلّ ، وأمّا إن كان سبب هذا الجري الذي نتج عنه الألم الهروب من قاطع طريق مثلاً ، فالعوض في هذه الحالة مُسْتَحَقٌّ عَلَى قاطع الطريق ، لأنه هو الذي ألجأ ذلك الإنسان إلى أن يفعل في نفسه الألم (2) .

قال القاضي عبدالجبار: (اعلم أنه لا فرق بين ما فعله تعالى وبين ما ينتجه أو يُلْجِئُ إليه أو يوجبه أو يأمرُ بِهِ في أن العوض في جميعه عَلَى ا لله تعالى ...)(3) .

---

(1)- المغني، للقاضي عبدالجبار: جـ13، ص: 503 .

(2)- انظر شرح الأصول الخمسة، لعبدالجبار بن أحمد، ص: 502-503 .

(3)- المغني في أبواب العدل والتوحيد، لعبد الجبار بن أحمد: جـ13 ، ص: 452 .

وقال أيضاً :

(وأمّا إذا كان غير المكلف مما يحل قتله بالشرع كالدوابّ المؤذيه ، فعوضها على ا لله تعالى دون القاتل لما بيناه من أن إباحته للضرر كفعله له في تكفله بالعوض ، وأما إذا كان الكلام فيما يجوز أن يُذبح من البهائم ، فمتى ذبحها الذابح الذي يحلُّ له أنْ يذبح ، فعوضها على ا لله تعالى ....)[1] .

وأخيراً فهناك حالات من الألم قال مثبتو العوض من المعتزلة : إن العوض فيها لا يُسْتَحَقُّ على أحد وذلك مثل أن يأخذ الإنسان دواءً كريه الطعم لأمر ليس ضرورياً كزيادة وزن وزيادة تجمل ونحو ذلك[2] .

٢ :الأعواض عند المعتزلة هي حكمةوقوع الآلام في هذه الحياة الدنيا:

يرجع قول المعتزلة بالأعواض ووجوبها ، إلى محاولتهم تقرير وجه الحكمة من الآلام الواقعة في هذه الحياة الدنيا ، وهي مسألة قد بحثها الكثير من الناس والكثير من الفرق حتى من غير المسلمين واختلفوا في بيان وجه الحكمة من الآلام الدنيوية ، ويبدو أنّ كثيراً منهم قد أرادوا استنباط تعليل واحد يَعُمُّ جميع تلك الآلام ، فكان بالتالي أحد أقوى الأسباب لاختلافهم هو ما يشاهد من أن الآلام لا تختص بالمكلفين ، فلو أنها كانت كذلك لكان يمكن أن تعلل الآلام بأنها نوع من العقاب الذي يُجَازى به هؤلاء المكلفون على ذنوب ومعاصي سبقت منهم ، ولكن بما أنها لاتختص بهم بل تَعُمُّ غيرالمكلفين من الصغار والبهائم ونحوهما ، فإنه لايصح أن يقال إن هؤلاء يعاقبون على ذنوب سبقت منهم –في حياتهم هذه– ، إذ هؤلاء لاتكليف عليهم ، وذلك لفقدهم لشرط من شروط التكليف وهو كمال العقل وحضوره ، ولذلك فإن الشرع قد رفع القلم عن الطفل والمجنون والساهي[3] . واستبعاد هذا التعليل قد أدى بالناس إلى اختلاف آرائهم في تعليل الآلام

---

(١)– المرجع السابق،جـ١٣،ص: ٥٤٩.

(٢)– انظر شرح الأصول الخمسة،للقاضي عبدالجبار،ص: ٥٠١–٥٠٣ .

(٣)– سيأتي في فصل قادم دراسة مسألة شروط أهلية التكليف،انظر ص: ٤٦٠ ومابعدها.وقد ورد في رفع القلم هذا حديث سيأتي ذكره وتخريجه بإذن ا لله،انظر ص:٤٦٦،مع الهامش (٣) .

الدنيوية ، وظهر في تعليل تلك الآلام بعض الآراء الضالة والكفرية ، كقول من يزعم بأن للآلام خالقاً غير ا لله تعالى[1] ، وهذا كفر محض إذ فيه إثبات خالق غير ا لله تعالى .

وذهب آخرون إلى أن هذه الآلام إنما هي جزاء على معاصيَ ارتكبت في حياة سابقة، وهذا أيضاً كفر إذ يعتمد على عقيدة التناسخ[2] الكفرية والتي يلزم منها إنكار اليوم الآخر أساساً واعتبار الحياة مستمرة إلى مالا نهاية له.وذهب آخرون إلى الزعم بأن غير المكلفين من الأطفال والبهائم لايحسون بشيء من الآلام ، بل إنهم قد يلتذون بالضرب الواقع عليهم[3]! ، وهذا القول فيه مكابرة للعقل والواقع ، وغير ذلك من الأقوال الضالة . والمعتزلة -ولاسيما القاضي عبدالجبار ومن كان على رأيه ممن سبقه أو لحقه- عندما رفضوا جميع تلك التعليلات السابقة للآلام ، أخذوا يبحثون عن العلة التي تحسن من أجلها الآلام -ولاسيما الآلام الواقعة من قبل ا لله عزوجل ، وكان بحثهم ذلك معتمداً على مالهم من آراء خاصة في أصول الدين ، ومعتمداً بصفة رئيسة على ما قرروه في مبدأ العدل الإلهي . ولأجل استنباط تلك العلة فإنهم قد استعرضوا جميع ما رأوه من أسباب يحسن إيقاع الألم من أجلها ، سواءٌ من قبل ا لله تعالى أو من قبل غيره وقد ذكروا أن الألم يحسن لأحد الأوجه التالية :

١- أن الألم يحسن إيقاعه لما فيه من جلب نفع لمن وقع به الألم ، إذ يكون ذلك

---

(١)- والقائلون بهذا هم الثنوية كما قال القاضي عبدالجبار.انظر شرح الأصول الخمسة،ص: ٤٨٣ ، وهؤلاء مع كفرهم العظيم بإثبات خالق غير ا لله تعالى ، اعتقدوا أن الآلام قبيحة من كل وجه ، وهذا اعتقاد باطل أيضاً بما سيأتي بيانه من وجوه حسنة من هذه الآلام التي يصيب ا لله بها العباد . وانظر شيئاً عن الثنوية المثبتين لخالقَيْن شرح الأصول الخمسة ص: ٢٨٤ ، وما بعدها .

(٢)- انظر شرح الأصول الخمسة ص: ٤٨٣ ، وهؤلاء مع كفرهم بسبب قولهم بالتناسخ ، هم لم يروا وجهاً حسناً للآلام إلا كونها مستحقة على معاصي سابقة ، وهذه رؤية قاصرة ، إذ للآلام أوجه حسنة أخرى غير كونها مستحقة على معاصي سابقة . انظر شرح الأصول الخمسة ص: ٤٨٧،٤٨٥ . وانظر في بيان شيء عن أراء التناسخية:الأضحوية في المعاد،لابن سينا،ص : ٩٤-٩٥ ، ١١٤-١٢١ .

(٣)- انظر شرح الأصول الخمسة،ص: ٤٨٣ . وانظر : مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين،لأبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري،ص: ٢٨٦-٢٨٧ .

النفع أعظم من الألم الواقع سواءٌ كان جلب النفع ذلك مظنوناً أو متيقناً .

٢- أن الألم يحسن إيقاعه لما في ذلك من دفع ضرر أعظم منه ، وسواءٌ في ذلك كون دفع الضرر الأعظم مظنوناً أو متيقناً .

٣- أن يكون من يوقع عليه الألم ، مستحقاً لذلك ، لارتكابه -على سبيل المثال - معصية توجبه ، وإيقاع الألم لعلة الاستحقاق ، لايجوز -حسب ما ذكره القاضي عبدالجبار - أن يكون إلا متيقناً لا مظنوناً فيتحصل من ذلك خمسة أوجه لحسن إيقاع الألم ، فإن لم يوجد واحد منها علة للألم الواقع فهو قبيح[1]،ولكن بالنسبة إلى ا لله عزوجل فإن الأوجه الخمسة -التي سبق ذكرها- ليست كلها جائزة في حقه تعالى -على زعم القاضي عبدالجبار ومن وافقه - .

فلا يجوز في حقه -تعالى عن قولهم- أن يوقع الألم ليدفع عمن يوقع به ذلك الألم ضرراً أعظم منه سواءٌ كان دفع الضرر مظنوناً أو معلوماً ، وللقاضي عبدالجبار في ذلك تعليلات من أهمها :

أن الضرر المدفوع إما أن يكون من جهته تعالى أو من جهة غيره ، فإن كان من جهته تعالى ، فإما أن يكون مصلحة أو مفسدة ، فإن كان مصلحة فلا معنى لدفعه ، وإن كان مفسدة فلا سبيل إلى وجوده أصلاً . وإن كان الضرر المدفوع من غير جهة ا لله تعالى ، فإما أن يكون من قبل غير مكلف ، فهذا إمّا أن يكون الضرر الحاصل من جهته مصلحة أو مفسدة ، فإن كان مصلحة فلا معنى لأن يدفعه ا لله سبحانه ، وإن كان مفسدة من كل وجه فإنه يجب على ا لله تعالى أن يمنع غير المكلف عن إيقاع الألم ذلك . وأمّا إن كان الألم حاصلاً من جهة مكلف ، فكذلك إما أن يكون مصلحة لمن سيقع عليه الألم، فلا معنى لدفعه وإما أن يكون مفسدة فالواجب على ا لله -تعالى عما يقولون- أن يدفعه بالأمر والنهي والوعد والوعيد[2]،كذلك فإن القاضي عبدالجبار ذكر أنه لايجوز في حقه

---

(١)- انظر شرح الأصول الخمسة،للقاضي عبدالجبار،ص: ٤٨٤ ، واعتبرت الأوجه خمسة لأن (١) و (٢) يمكن أن يكون كل واحد منهما عبارة عن وجهين ، أحدهما متيقن والآخر مظنون .

(٢)- انظر شرح الأصول الخمسة،للقاضي عبدالجبار،ص: ٤٨٦ . والمغني له،جـ١٣، ص: ٣٦٩ - ٣٧٠ .

تعالى إيقاع الألم بعبد لما سيجلبه ذلك من نفع له أعظم من ذلك الألم ، أو إيقاع الألم بعبد لأنه مستحق لذلك ، لايجوز ذلك في كلا الحالتين أن يكون على سبيل الظن ، لأن الظن لا يجوز عليه تعالى(١).

إذاً فالجائز على الله تعالى -بزعم هؤلاء المعتزلة – من الأوجه الخمسة السابقة وجهان :

الأول : أن يكون إيقاعه سبحانه الألم بمن يوقعه به سبباً لجلب نفع له ، معلوم لله سبحانه يقيناً .

الثاني : أن يوقع سبحانه الألم بمن يكون مستحقاً لوقوع الألم به ، استحقاقاً يعلمه الله تعالى يقيناً (٢).

ثم إن الوجه الثاني لحسن الآلام الواقعة من قبل الله عزوجل ، لم يجوز أبو هاشم الجبائي وتبعه القاضي عبدالجبار أن يكون علة لحسن الآلام الدنيوية ، لسببين :

أحدهما : أن الآلام الدنيوية تعم المكلفين وغير المكلفين ، ولايصح أن يقال إن غير المكلفين يعاقبون على معاصي سابقة (٣).

ثانيهما : أن الآلام قد تعبّدنا الله بالصبر عليها ، ولم يتعبدنا بالصبر على العقوبات بل أجاز الجزع والهرب (٤). إذاً فالآلام الدنيوية الواقعة من قبل الله تعالى لا وجه لحسنها إلاّ كونها سبباً لجلب نفع للمتألم أعظم منها . وهذا النفع هو العوض . وأضاف بعضهم إلى العوض سبباً آخر لابد منه لحسن الآلام وهو الاعتبار(٥).

وبالعوض والاعتبار ينتفي القبح عند هؤلاء المعتزلة عما يفعله الله جل ثناؤه من الآلام، وذلك لانتاء كونه ظلماً بثبوت العوض ، وانتفاء كونه عبثاً بثبوت الاعتبار (٦).

---

(١)- انظر المغني،للقاضي عبدالجبار،جـ١٣، ص : ٣٦٩ ، ٣٧٦ - ٣٧٧ .

(٢)- انظر المرجع السابق،جـ١٣،ص: ٣٧٦ - ٣٧٧ .

(٣)- انظر المرجع السابق،جـ١٣،ص: ٣٧٤ .

(٤)- انظر المرجع السابق،جـ١٣،ص: ٤٣١ وما بعدها .

(٥)- وقد سبق ذكره في ص:١١ . وبيان شيء عنه . انظر نفس الصفحة هامش : ١ .

(٦)- انظر جمل العلم والعمل،للشريف المرتضي،ص: ٣٤ . والمغني،للقاضي عبدالجبار،جـ١٣،ص: ٤٨٥- ٤٨٦ .

قال القاضي عبدالجبار :

(والذي يسلكه شيخنا أبو هاشم ..في ذلك هو ما قدمناه من أنه تعالى يفعل الآلام للعوض والاعتبار جميعاً فيخرج بمجموعهما من أن يكون قبيحاً لانتفاء كونه ظلماً وعبثاً..)[1].

إذاً فكل ألم يقع من قبل الله تعالى في هذه الحياة لابد أن يكون الله قد تضمن لمن أوقع به الألم عوضاً يوصله له ، ولابد أن يُوجَدَ في ذلك الألم أيضاً -بالإضافة إلى العوض- اعتبار للمكلفين ، وبناءً على إيجاب العوض على الله سبحانه في مقابل كل ألم ينزله في هذه الحياة ، التزم هذا الفريق من المعتزلة القول بأن الله سبحانه يعوض البهائم بأعواض عظيمة عما يصيبها من الآلام الواقعة عليها من جهة الله تعالى ، أو الواقعة عليها من غير جهة الله سبحانه إن كان ذلك الألم قد شرعه جلّ جلاله . وذلك كتشريعه تعالى ذبح البهائم للأكل مثلاً -كما سبق بيانه[2]- ، لأن شرع الله كفعله لابد أن يكون حسناً لاظلم ولاقبح فيه بوجه ، وقد شرع ذبحها ، فلابد أن يكون سبحانه -على زعمهم- قد تضمن العوض العظيم لها ، فيكون هذا العوض هو وجه حسن شرعه تعالى[3]. بل إن البهيمة -كما يزعمون- لو علمت مالها من العوض العظيم بسبب ذبحها ، أو أنها رأت ذلك العوض أمامها لتمنت تكرار الذبح حالاً بعد حال ، كما زعم القاضي عبدالجبار [4].

وكما سبق ذكره فإن العوض إذا لم يتم إيصاله في الدنيا فلابد أن يوصل لصاحبه في الآخرة [5].

إذاً فمما سبق بيانه يتضح أن إثبات هؤلاء المعتزلة لهذا الصنف من الجزاء في الآخرة والذي هو العوض قد كان سببه إرادتهم تعليل الآلام الواقعة في هذه الحياة الدنيا .

---

(١)- انظر المغني،لعبدالجبار بن أحمد،جـ١٣ (اللطف)،ص: ٤٥٢ .

(٢)- انظر ص: ١٣-١٤ .

(٣)- انظر المغني،لعبد الجبار بن أحمد،جـ١٣،ص٤٥٢ .

(٤)- انظر المرجع السابق،جـ١٣،ص: ٤٥٩ .

(٥)- انظر ص : ١١ .

والسؤال هو : هل نجح هؤلاء المعتزلة حقيقة في بيان الحكمة من الآلام الواقعة في الدنيا البيان الكامل ؟ وهل ما قالوه عن العوض وجعلهم له أمراً منفصلاً عن الثواب وما رتبوه عليه من أحكام وصور هل ذلك كله مما تؤيده الدلائل الشرعية ؟ .

هذا ما سيتبين – إن شاء الله تعالى – عند بيان القول الحق في شأن الآلام وفي شأن الحكمة منها ، القول الحق المستند إلى تقريرات مستنبطة من دلالات كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم[١] .

وسيتبين أيضاً من خلال تلك التقريرات حكم هذا العوض الذي أثبته هؤلاء المعتزلة بالكيفية المخصوصة التي ذكروها [٢] .

٣ : القول الحق –لأهل السنة–في مسألة الأعواض ومدى اعتبارها هي الحكمة من الآلام[٣]:

تبين مما سبق أن المعتزلة يقولون بوجوب الأعواض على الله تعالى في مقابلة الآلام التي ينزلها جل شأنه بالمخلوقات في هذه الحياة ، وأن تلك الأعواض هي الحكمة الوحيدة[٤] من وراء هذه الآلام ، والتي لولاها ما حسن من الله تعالى إنزال تلك الآلام بالعباد .

وإذا كان أهل السنة حكاماً بين الطوائف يبينون ما في أقوالهم من الصواب والخطأ [٥]، فقد بينوا ما في كلام المعتزلة من الصواب والخطأ .

فالمعتزلة أصابوا في اعتقادهم وجود حكمة لله تبارك وتعالى من وراء هذه الآلام التي يفعلها ، ولكنهم أخطؤوا في أمور عدة ، منها الأخطاء الأربعة التالية :

---

(١)– انظر ص:٢٢–٢٩ .

(٢)– انظر ص:٢٩–٣٠ .

(٣)– بالنسبة إلى الآلام التي يكون سببها البشر فسيأتي الكلام عنها بإذن الله عند الكلام عن مسألة المقاصة (القصاص) . انظر ص: ٣٥ وما بعدها .

(٤)– بالإضافة إلى الاعتبار عند أبي هاشم الجبائي ومن تبعه ، حيث أوجبوا كلا الأمرين في كل ألم يفعله الله سبحانه ، كما سبق بيانه . انظر ص: ١٠ وص: ١٧–١٨ .

(٥)– فأهل السنة لايردّون قول أيّ فرقة في مسألة من مسائل الدين كاملاً ، بل يبيّنون مافيه من الخطأ والصواب من غير تحيّز . انظر : شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ؛ ابن قيم الجوزية. ص: ٩٤–٩٥ .

الخطأ الأول :

قياسهم أفعال الخالق على أفعال المخلوق ، ووضع شريعة على الله تعالى بناء على ذلك القياس الفاسد ، يوجبون فيها ويحرمون على الله تعالى بمجرد العقول القاصرة ، ويدعون بعد ذلك أن الحكم اللائقة بأفعال الله تعالى إنما تتبين من خلال تلك الشريعة الفاسدة الأصول [1]. فالله سبحانه لايشابه خلقه في أفعاله ، كما لايشابه خلقه في ذاته وصفاته [2].

الخطأ الثاني :

فيما يتعلق بما سبق نقله عنهم من منعهم أن يوقع الله ضرراً بأحد ليدفع عنه ضرراً أعظم وما ذكروه من تعليل لذلك[3]، فإنه يقال : إن كلامهم فيه قصور نظر وحجرٌ فاسد على الله سبحانه ، فما المانع من أن يدفع الله ضرراً عظيماً يمكن أن يقع على فلان من الناس ، من قبل شخص مكلف آخر بأن ينزل به مرضاً ، ويشفيه منه بعد ذلك . وهو سبحانه وإن كان قد نهى ذلك المكلف عن أن يضرّ غيره بظلم ، إلا أنه تعالى لما علم منه أنه سيعصى ، ولم تكن له جل شأنه إرادة في وقوع ذلك الضرر ، دفعه بمرض يسير سرعان ما يشفى منه . وهذا متوافق غاية التوافق مع الحكمة ولا يخالفها .

وما المانع أيضاً من أن يعلم الله سبحانه من عبد أنه يريد التوجه إلى مكان ، لو ذهب إليه لحصل له ضرر عظيم سببه قضاء إلـهي سابق لابد من حصوله ، كزلزلة عظيمة تحدث فيه ، وهو جلّ جلاله لايريد لذلك العبد أن يحصل له ضرر من تلك الزلزلة-فما المانع من أن يقعد الله تعالى ذلك العبد عن الذهاب إلى ذلك المكان وقت وقوع الزلزلة بمرض ينزله به ، ثم يكشفه عنه بعد حين . إن أي عبد يحصل له شيء من هذا -إن كان

---

(١)- انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية،جـ١٧،ص: ١٠٠ .

(٢)- انظر ص : ٤١-٤٢ .

(٣)- انظر ما سبق ص: ١٦ .

مؤمناً- لايصدر عنه إلا شكر ا لله تعالى وحمده والثناء عليه ، والاعتراف بحكمته العظيمة ، سبحانه وتعالى . ومثل هذا الأمر كثيراً ما يحدث للناس في هذه الحياة .

فهذان المثالان -وغيرهما كثير- يبطلان زعم من زعم من المعتزلة أن ا لله تعالى لايكون منه إيقاع ضرر لدفع ضرر أعظم منه . وا لله أعلم .

الخطأ الثالث :

ومن أخطاء المعتزلة فيما يتعلق بما سبق نقله عن بعضهم من رفضه لأن تكون الآلام الدنيوية عقوبة على معصية سابقة ، وما ذكره من سبب لذلك ، وأنه راجع إلى أمرين ، أولهما : شمول الآلام لغير المكلفين ، وثانيهما : تعبد ا لله الناس بالصبر على الآلام دون العقوبات[1]. فكلامهم هذا خطأ أيضاً ، والسَّببان المذكوران باطلان .

فالنصوص الشرعية تثبت - كما سيأتي بيانها - أن كثيراً من المصائب الدنيوية هي عقوبات على مَعاصيَ سابقة [2].

وأما السببان المذكوران ، فالأول منهما باطل ، وسبب بطلانه أن المصائب والآلام الدنيوية وإن كان قسم كبير منها عقوبة على معاصيَ سابقة ، إلاّ أن ذلك لايعني أن جميع المصائب والآلام كذلك ، وليس من اللازم أن تكون هناك علّة واحدة توجد في جميع الآلام ، فقد يوجد في بعضها علة ما ، أو عدّة علل ، ويوجد في بعضها علة أخرى أو علل أخرى ، وللآلام علل عدة سيأتي بيان طرف منها ، وبعض تلك العلل يصح أن يشمل حكمها غير المكلفين [3].

والسبب الثاني باطل أيضاً ، وذلك أنه لو سُلّم له ما ذكره فيه ، فإنه يقال له : إن للآلام والمصائب عللاً عدة ، منها كون تلك المصائب عقوبة على معصية سابقة ، ومنها علل أخرى ، فمن أين لمن أصابته مصيبة أن يعلم أن ما أصابه من الألم كان بسبب معصية

---

(١)- انظر ص: ١٧ .

(٢)- انظر ص:٢٦-٢٨ .

(٣)- انظر من ص:٢٢ وما بعدها في بيان علل الآلام استنباطاً من دلالات الكتاب والسنة . وانظر العلة : الثانية والثالثة ، ص: ٢٣-٢٤ وهما علّتان يصح أن يشمل حكمهما غير المكلفين .

سابقة ، أو بسبب آخر ، فعليه بالتالي أن يصبر على كلّ حال ، وهو بذلك الصبر يعظم أجره عند الله تعالى ولا يضيع عليه صبره ذلك ، وإن كان ما أصابه عقوبة على معصية سابقة . والله أعلم .

الخطأ الرابع :

وأمّا ما ذكره كثير من المعتزلة من أن العوض علة لابد من وجودها في كل ألم من الآلام التي ينزلها الله تعالى في هذه الحياة الدنيا ، وأنه لولا ذلك العوض لما حسن الألم من الله جلّ جلاله[1]، فهذا خطأ أيضاً ، والحق أن الآلام ليست جميعاً ذات حكمة واحدة معينة ، بل لها حِكَمٌ متنوعة ، إذ توجد بعض تلك الحكم في قسم منها ، وبعض آخر في قسم آخر ، وقد تجتمع أكثر من حكمة في الألم الذي ينزله الله تعالى ، ومن تلك الحكم المستنبطة من دلالات نصوص الكتاب والسنة ما يلي :

الحكمة الأولى : إن ما ينتج عن الأمراض والمصائب ونحوها من الآلام –في هذه الحياة– ، يعتبر ابتلاءً وامتحاناً للمرء ، وهو مثل النعم التي هي أيضاً ابتلاءٌ له ، يوضح هذا المعنى قوله تعالى :

﴿ ... **وَنَبْلُوكُمْ بالشرِّ والخيرِ فتنةً وإلينا ترجعون** (٣٥) ﴾ الأنبياء .

فالشر في هذه الآية الكريمة يُراد به : ما يصيب الإنسان من مصائب تغمّه وتحزنه . والخير يراد به : النعم التي تنال الإنسان ، فهذه المصائب والنعم التي تنزل بالإنسان إنما هي ابتلاء وامتحان من الله سبحانه لعباده ، إن تعاملوا معها بما يرضيه تعالى كانت سبباً لسعادتهم في الدنيا والآخرة ، وإن تعاملوا معها بما يغضب الرب جلّ جلاله –إذْ يكون معصية له– كانت سبباً لشقائهم في الدنيا والآخرة . وليست هذه النعم أو المصائب دليلاً على أن هذا العبد مكرمٌ عند اللهِ مطلقاً أو أنه مهان مطلقاً ، وإنما تكون النعمة كرامة للعبد إن أرضى الله سبحانه فيها ، وأما إن عصاه فيها فإنها ستكون سبباً لمهانته . وكذلك شأن المصيبة . قال تعالى :

﴿ **فأمّا الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعّمه فيقول رَبّي أَكْرَمَنِ** (١٥) **وأمّا إذا ما**

---

(١)– انظر ص: ١٧–١٨ .

ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربّي أَهَانَن (١٦) كَلاّ بل لا تكرمون اليتيم(١٧)﴾الفجر[(١)].

بناءً على ذلك ، فإن ما في هذه الحياة من امتزاج الشرور بالخيرات هو من لوازمها ، التي لايمكن أن تنفك عنها ، إذ إنّ هذه الحياة الدنيا بكل ما فيها دار ابتلاء لا دار بقاء ، وهذا يستلزم أن لاتكون دار لذة مطلقة كاملة ، بل يستلزم أن تكون داراً ألمها ممتزج بلذّاتها ، وسرورها بأحزانها وغمومها ، وصحتها بسقمها ، وبالتالي فإن ما في هذه الدار من آلام هي من لوازمها التي لايمكن أن تنفك عنها وإلاّ لَمْ تكن دار ابتلاء بل دار بقاء ، وهذا مناقض للحكمة فيستحيل حصوله ، ومن يفترض حصول مثل هذا مع إيمانه بأن هذه الدار دار ابتلاء ، يدل على كونه جاهلاً با لله وحكمته وعلمه وكماله ، وجاهلاً بما في خَلْقه تعالى ، أو لوازم خَلْقِه التي لابدّ منها من حكمة بالغة وغاية حميدة[(٢)].

الحكمة الثانية : إن الآلام قد تكون من لوازم خيرات هي أعظم منها ، فلو عطلت ملزوماتها لفات بتعطيلها خير أعظم بكثير جداً من مفسدة تلك الآلام . وأما وجود الملزوم بدون لازمه فهو ممتنع . ومن يقدّر وجود تلك الخيرات بدون لوازمها من الآلام ،

---

(١)- انظر قاعدة في المحبة،لشيخ الإسلام ابن تيمية . تحقيق : محمد رشاد سالم،ص: ١٦٤-١٧١ . وانظر عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين،لابن قيم الجوزية،ص: ١٣٢ .

(٢)- انظر : شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل،لابن قيم الجوزية،ص: ٤٠٩ ، ٤١٤-٤١٥ . وانظر : مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ، للمؤلف نفسه . جـ١ ص:٢٧٤-٢٧٥ . وفي هذا الموضع علل الإمام ابن قيم الجوزية الآلام التي تصيب الأطفال ، حيث اعتبر الآلام لازمة لهذه الحياة ، لايمكن أن تنفك عنها ، فهي تصيب الكبار والصغار على حد سواء ، ومن يطلب أن تكون هذه الحياة بلا آلام فإنما هو يطالب بحياة غير هذه أشبه بحياة الجنة ، ولكن حكمة ا لله سبحانه لم تقتض ذلك لأنه جعل هذه الحياة دار ابتلاء ، والحياة الأخرى دار جزاء على هذا الابتلاء ، ودار الابتلاء اقتضت حكمة ا لله امتزاج الآلام باللذائذ فيها ، وجعله سنة من سنن هذه الحياة الثابتة والتي تصيب المكلف وغير المكلف على حد سواء وبذلك تتم الحكمة من خلق هذه الحياة وخلق الإنسان فيها ، والتي هي ابتلاؤه ومن ثم جزاؤه في حياة أخرى ، يكون فيها داران : أحدهما : دار لذة خالصة ، والأخرى : دار ألم خالص . وسيأتي -بإذن ا لله- الكلام عن الابتلاء وكونه الحكمة من خلق الإنسان في هذه الحياة في فصل : أدلة ثبوت الجزاء الأخروي . ص: ٧١ وما بعدها .

فإنما هو يقدّر أمراً ذهنياً لاوجود له في الواقع الممكن . ومثال ذلك الشمس التي خلقها ا لله تعالى ، والتي فيها من المنافع مالا يحصيه العباد ، ومع ذلك فإنها قد تكون سبباً لبعض الآلام التي تصيب بعض المسافرين أو الفقراء الذين لايجدون ما يتحصنون به من الشمس وربما تكون سبباً لجفاف بعض الأماكن ، ومع ذلك فإن هذه الآلام ونحوها إنما هي شرور جزئية لا نسبة بينها وبين فوائد الشمس الجمّة [(١)].

وأي مخلوق إذا وازن بين ما حصل له من هذه الشمس من منافع بإذن ا لله وخلقه ، وبين ما حصل له بسببها من مضار ، فإنه سيجد أن نتيجة الموازنة هي لصالح المنافع حتماً. فلماذا يغض الإنسان بصره عن تلك المنافع العظيمة ، ولايرى إلا تلك الشرور الجزئية ؟! إن هذا الأمر فيه قصور في التفكير ، وظلم للحقيقة كبير .

الحكمة الثالثة : إن الآلام قد تكون سبباً للذات أعظم منها ، وذلك كالأم التي تتحمل آلام الحمل والولادة الشديدة ، وذلك بنفس رضيّة في سبيل الحصول على الولد الذي هو من أعظم لذائذ الحياة . وكذلك فإن الآلام قد تكون سبباً لصحة وعافية وقوة الأبدان إذ الألم دليل المرء على وجود مرض فيه ، فيسارع إلى تعاطي أسباب الشفاء منه ، فلولا الآلام لقضت كثير من الأمراض على الناس من غير أن يشعروا بها ويسارعوا إلى التداوي منها [(٢)].

الحكمة الرابعة : إن كثيراً من الكمالات الإنسانية لاتنال إلاّ بالآلام والمشاق كالعلم والشجاعة والمجد والزهد والعفة والحلم والمروءة والصبر والإحسان ، وغير ذلك . فهذه كمالات موقوفة على أسباب لابدّ منها لحصول تلك الكمالات والفضائل ، فالعقل يقضي بحسن تلك الأسباب ولو كان بعضها عبارة عن آلام تلحق الإنسان [(٣)].

الحكمة الخامسة : إن ا لله سبحانه يحب أن يُشكر ، والمصائب تكون سبباً لزيادة شكر ا لله تعالى ، وذلك إذا رآها من لم يُبْتلَ بها ، أو عوفي منها من ابتلي بها ، فالإنسان حينئذ يعاين عظم

---

(١)- انظر : شفاء العليل،لابن قيم الجوزية . ص: ٤١٣ . ومفتاح دار السعادة،جـ١،ص: ٢٧٤-٢٧٥ .

(٢)- انظر : شفاء العليل،لابن قيم الجوزية . ص: ٤١٣ ، ٤١٤ .

(٣)- انظر : المصدر السابق . ص : ٣٧٦ ، ٤١٣ ، ٤١٥ .

النعمة التي هو فيها فيزداد ويكمل ويعظم شكره لله تعالى [١].

الحكمة السادسة : إن كثيراً من الآلام تكون سبباً لكثير من العبادات التي يحبها الله تعالى ، فإن هناك آلاماً تنتج عن الرق – مثلاً – ، ومع ذلك فإن الرّق سبب لعبودية محببة لله سبحانه وهي العتق . وهناك آلام سببها الفقر ، والفقر سبب لعبودية محببة لله سبحانه وهي الصدقة . وهناك آلام سببها المرض ، والمرض سبب لعبودية محببة لله سبحانه وهي العيادة. ونحو ذلك [٢].

الحكمة السابعة : إنه قد يترتب على بعض الآلام حكم باهرة وآيات عظيمة ما كانت لتحصل لولا تلك الآلام ، وذلك كالحكم والمصالح والفوائد والآيات التي لاتحصى ، والتي يمكن استنباطها من قصة يوسف عليه السلام وأبيه وإخوته ، مع أنه قد لحق يوسف وأباه عليهما السلام آلام كثيرة في هذه القصة ، لكن تلك الآلام تضمحل في جانب ما ترتب عليها من الحكم والمصالح .

وكذلك ما حصل لأيوب عليه السلام من الضر والألم يضمحل ويتلاشى في جنب المصلحة والمنفعة التي حصلت له ولمن جاء بعده ممن اعتبر بقصته عليه السلام [٣].

الحكمة الثامنة : إنّ بعض الآلام والمصائب قد تكون الحكمة منها : كَوْنَها مذكرة لمن تصيبهم بعذاب الله الأكبر لعلهم يرجعون إلى الله ويتوبون ويقلعون عمّا ارتكبوه مما يغضب الله تعالى . قال الله جلّ جلاله : ﴿...**وبلَوْناهُمْ بالحسناتِ والسيّئاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**(١٦٨)﴾ الأعراف.

فالحسنات : هي الرخاء في العيش ، والدّعة والسعة في الرزق ، والسيئات هي : الشدة في العيش والشظف فيه ، وتشمل المصائب والرزايا التي تنزل بالعباد في الدنيا . فالله عزّ وجلّ يبتلي عباده في الدنيا بهذه الأمور لعلهم يرجعون إليه قبل فوات الأوان [٤].

---

(١)– انظر : المصدر السابق . ص : ٣٧٠ – ٣٧١ .

(٢)– انظر : المصدر السابق . ص : ٣٧٢ .

(٣)– انظر المصدر السابق ص: ٣٧٤ .

(٤)– انظر : المصدر السابق ص: ٤٢١ . وانظر تفسير الطبرى:جـ٩ص: ١٠٤ .

الحكمة التاسعة : ومن الحكمة في بعض الآلام أنها تُمحّص من تصيبه وتخلصه من كثير من الصفات النفسية الدنيئة ، التي تكون مستحكمة فيه ، ومثال ذلك : الشدائد التي تتوالى على المرء الجبان ، فقد تكون سبباً لاقتلاع هذا الخلق الدنئ من نفسه ، إلى غير ذلك من الصفات السيئة ، وهذا الأمر له أكبر الأثر في إعداد المرء الصالح القادر على اجتياز مرحلة الامتحان في هذه الحياة الدنيا بنجاح كبير .

الحكمة العاشرة : إن الآلام والمصائب قد تكون جزأً من العقوبة التي يستحقها الكافرون ، هذا الجزء يعجل لهم في الدنيا [1]، مع ما سينالهم من العذاب الأليم المقيم يوم الدين . قال تعالى : ﴿ ... **بل زين للذين كفروا مكرهم وصّدوا عن السبيل ومن يُضْلِلِ ا للهُ فماله مِنْ هَادِ** (٣٣) **لهم عذابٌ في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشقّ ومالهم من ا للهِ من واقٍ** (٣٤) ﴾ الرعد .

وهذه العقوبة المعجلة فيها اعتبار لمن شاء أن يتعظ ولايسير في طريق هؤلاء الهالكين ، قال تعالى بعد أن ذكر إهلاكه لفرعون :

﴿ **إنّ في ذلك لعبرةً لمنْ يَخْشى** (٢٦) ﴾ النازعات[2].

كذلك فإن الآلام والمصائب قد تكون بالنسبة إلى المؤمنين عقوبة معجلة لهم على ما سبق منهم من معاصي ، قال تعالى :

﴿ **وما أصابكم من مصيبةٍ فبما كسبت أيديكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرِ** (٣٠) ﴾ الشورى .

ثم إن هذه العقوبات المعجلة بالنسبة إلى المؤمنين فيها تحذير وتبشير لهم ، تحذير لهم من أنهم إذا استمروا في اقتراف المعاصي فإنهم سينالون العقوبة الأشد يوم الدين ، وفي تلك العقوبات بشارة للمؤمنين بأن ما أصابهم من العقوبة الدنيوية سيكون سبباً للحط من مسبّبات العقوبة الأخروية والتي هي المعاصي ، ولاشك ان العقوبة الدنيوية مهما بلغت لاتقارن أبداً بالعقوبة الأخروية . قال صلى ا لله عليه وسلم ((ما يصيب المسلم من نصبٍ

---

(١)- انظر شفاء العليل،لابن قيم الجوزية ، ص:١٦٨ .

(٢)- قد يقال بأن الاعتبار قد قال به فريق من المعتزلة ، وهذا صحيح ، إلا أن كثيراً منهم كما سبق بيانه لم ير الاعتبار وجهاً كافياً لحسن الألم بل أوجب معه العوض .انظر ص :١٧-١٨ .

ولا وصبٍ ولاهمٌ ولاحزن ولا أذى ولاغمٌ ، حتى الشوكة يشاكها ، إلا كفر ا لله بها من خطاياه))[1] .

وقال صلى ا لله عليه وسلم أيضاً : ((ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفَّرَ ا للهُ بها عنه ، حتى الشوكة يشاكها))[2] .

وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً : ((ما من مسلم يصيبه أذى مرض فما سواه إلا حطَّ ا لله سيئاته كما تحط الشجرة ورقها))[3] .

وجاء في الحديث أيضا أنه [لما نزلت :﴿ **من يعمل سوأً يجز به** ﴾ [4] بلغت من المسلمين مبلغاً شديداً فقال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم :((قاربوا وسددوا ففي كل ما يصاب به المسلم كفَّارة حتى النكبة يُنْكَبُهَا أو الشوكة يشاكها .))] [5] .

وقال صلى ا لله عليه وسلم عن الحمَّى : ((..إنها تذهب خطايا بني آدم كما يُذْهِبُ الكيرُ خَبَثَ الحديد .))[6] .

(١)- متفق عليه من رواية أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي ا لله عنهما ، واللفظ للبخارى . فتح الباري : كتاب المرضى (٧٥) ، باب : ماجاء في كفارة المرض (١)،ح: ٥٦٤١ ، ٥٦٤٢،جـ ١٠،ص : ١٠٣ . ورواية مسلم انظر شرح النووي : كتاب : البر والصلة والأداب،باب : ثواب المؤمن فيما يصيبه، جـ١٦،ص: ١٢٩ - ١٣٠،(ح: ٥٢ حسب المعجم) .

(٢)- متفق عليه من رواية عائشة رضي ا لله عنها . واللفظ للبخاري ، رواية البخاري في نفس الموضع السابق،ح: ٥٦٤٠ . وكذا رواية مسلم في نفس الموضع السابق،جـ١٦،ص : ١٢٩ .

(٣)- متفق عليه من رواية عبدا لله بن مسعود رضي ا لله عنه . واللفظ للبخاري . فتح الباري:كتاب المرضى (٧٥) ، باب : وضع اليد على المريض (١٣)،ح: ٥٦٦٠،جـ١٠،ص : ١٢٠ . وانظر : شرح النووي على مسلم : كتاب : البر ، باب : ثواب المؤمن فيما يصيبه ، جـ١٦،ص : ١٢٧ .

(٤)- من آية : ١٢٣ النساء .

(٥)- رواه مسلم عن أبي هريرة رضي ا لله عنه . انظر شرح النووي على مسلم : نفس الكتاب والباب السابقين ، جـ١٦،ص: ١٣٠ .

(٦)- رواه مسلم عن جابر بن عبدا لله رضي ا لله عنه . انظر نفس الموضع السابق،جـ١٦،ص: ١٣٠-١٣١

إذاً فالخطايا المسجلة على الإنسان تُكفَّرُ وتُسْتَرُ ويُمْحَى أثرها بسبب ما أصاب صاحبها من الآلام والمصائب الدنيوية ، ودل ذلك على أن العقوبة المترتبة على تلك الخطايا قد حُطّت أيضاً ، وهذا من رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين إذْ لم يثنّ عليهم العقوبة [1].

الحكمة الحادية عشرة : إن الآلام والمصائب قد تكتب للمؤمن على أنها من أعماله الصالحة التي ترتفع بها درجته في الجنة فتكون سبباً لزيادة ثوابه . قال تعالى :

﴿ **ماكان لأهل المدينةِ ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لايصيبهم ظمأٌ ولانصبٌ ولا مخمصةٌ في سبيل اللهِ ولا يطؤون موطئاً يغيظ الكفّار ولا ينالون من عدوٍّ نيلاً إلاّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عملٌ صالحٌ إنّ اللهَ لا يضيعُ أجْرَ المحسنينَ** (١٢٠) ﴾ التوبة .

وقال صلى الله عليه وسلم : ((ما من مسلم يشاك شوكةً فما فوقها إلاّ كتبت له بها درجةٌ ومحيتْ عنه بها خطيئة)) [2].

وقال أيضا عليه الصلاة والسلام : ((ما يصيب المؤمن من شوكةٍ فما فوقها إلا رفعه الله بها درجةً أو حطَّ عنه بها خطيئةً)) [3].

وقد ذهب فريق من العلماء إلى أن هناك حالات تكتب فيها الآلام والمصائب أعمالاً صالحة للمرء يثاب عليها ، فمن تلك الحالات : إذا لم يكن للمؤمن خطيئة ، أو إذا رافق إصابته بالألم عمل صالح كالصبر ، أو إذا كان ذلك الألم تسبب فيه عمل صالح قام به العبد ، كمن جاهد في سبيل الله ، وأصابه في ذلك الجهاد آلام ومصائب . والله أعلم [4].

---

(١)- انظر شفاء العليل،لابن قيم الجوزية،ص : ٤١٩-٤٢٠ .ومفتاح دار السعادة له أيضاً،جـ١ : ص٢٩١. وفتح الباري شرح صحيح البخاري،جـ١٠ ، ص ١٠٩-١١٠ .

(٢)- رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها . انظر شرح النووي على مسلم : كتاب البر ، باب : ثواب المؤمن فيما يصيبه،جـ١٦،ص١٢٧-١٢٨ .

(٣)- رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها . الموضع السابق نفسه،ص : ١٢٨ .

(٤)- انظر فتح البارى بشرح صحيح البخارى،جـ١٠،ص ١٠٥، ١٠٩-١١٠. وانظر كلاماً لشيخ الإسلام ابن تيمية في بيان الحالات التي يثاب فيها المؤمن على ما أصابه من الآلام ، وقد نقل ذلك الكلام أبو عبدالله محمد بن محمد المنبجي الحنبلي في كتابه تسلية أهل المصائب . ص ١٧٣-١٧٦ . وانظر عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين،لابن قيم الجوزية ، ص: ٦٩-٧٠ .

وهذا الوجه الأخير ربما يتشابه مع ما ذكرته المعتزلة عن العوض ، في كون المتألم ينال تعويضاً حسناً مقابل ما أصابه من الألم ، ومع ذلك فإن النصوص التي سبق ذكرها لم تثبت أن هناك عوضاً يناله المتألم ، وهذا العوض هو شئ منفصل عن الثواب ، بل ظاهر تلك النصوص أنه إذا كان مقتضى الحكمة تعويض المتألم التعويض الحسن بسبب ما ناله من الألم ، فإن ذلك التعويض هو من جنس الثواب الذي يناله المرء على سائر أعماله ، فالآية التي سبق إيرادها تذكر أن ما يصيب المؤمن أثناء جهاده من أنواع الآلام ، فإنه يكتب له على أنه من أعماله الصالحة ، وبالتالي فإنه يثاب على ذلك الذي يصيبه بجنس الثواب الذي يثاب عليه المرء بسبب أعماله الصالحة .

إذاً فالعوض بالصفة التي ذكرها القائلون به من المعتزلة ، لادليل عليه من الشرع وعموماً فإنه من خلال أوجه الحكمة من الآلام التي ينزلها الله سبحانه والتي سبق بيانها ، يتبين عدة أمور منها :

الأمر الأول : تقصير المعتزلة عن بيان كثير من أوجه الحكمة في الآلام الدنيوية ، وخطؤها في محاولة حصر الحكمة من تلك الآلام في أمر معين وهو العوض أو العوض والاعتبار .

الأمر الثاني : بطلان ما ادعاه فريق منهم من أن الآلام الدنيوية لاتكون عقوبات على معاصيَ سابقة ، إذ كون بعض الآلام عقوبات على معاصيَ سابقة هو أمر قد ثبت بالنصوص الصريحة ، كما سبق بيانها [(١)] .

الأمر الثالث : بطلان ما ادّعاه بعض المعتزلة من إيجاب العوض على الله تعالى للبهائم مقابل ما يفعله سبحانه بها من الآلام أو مقابل ما يشرعه من ذبحها ، إذ هو أمر لم يدل عليه دليل شرعي ، وما يصيبها من الآلام عموماً يمكن أن تكون له حكم أخرى غير مسألة العوض ، والوجهان الثاني [(٢)] والثالث [(٣)] من الأوجه التي سبق بيانها يصلح أن يكونا

---

(١)- انظر ص : ٢٦-٢٨ .

(٢)- انظر ص : ٢٣-٢٤ .

(٣)- انظر ص: ٢٤ .

من أوجه الحكمة من إيلام البهائم ، وقد تكون هناك أوجه أخرى للحكمة من تلك الآلام التي تصيبها يعلمها ا لله سبحانه ، ويقصر البشر عن إدراكها ، وإن كان يجب عليهم أن يؤمنوا بوجودها وبكونها حسنة ، [1]وعموماً فإن ما سبق ذكره من أوجه للحكمة من الآلام، لايعني أنه ليست هناك حكم أخرى ، بل إن هناك من الحكم مالا يحصيه إلا ا لله جلّ جلاله .

ولابد من التنبيه هنا على أنه لايجب أن يكون الألم فيه مصلحة لمن نزل الألم به ، إذا لم تقتض الحكمة ذلك ، بل غاية ما يجب اعتقاده هو وجود حكمة لله تعالى في ذلك الألم، وأما المصلحة فقد تحصل وقد لاتحصل .

الأمر الرابع : وأيضاً فإنه لو وازن أي مخلوق بين نعم ا لله عزّ وجلّ وبين ما أصابه من الآلام في الدنيا ، لوجد أن نعمه جل وعلا أعظم بكثير من تلك الآلام التي أصابته ، على أن أي مخلوق لابد أن يكوَن مقصراً في شكره على نعم ا لله عليه وواقعاً في أخطاء تستدعي مؤاخذته عليها بالآلام الدنيوية .

والنتيجة مما سبق أن العوض بالصفة المخصوصة التى ذكرها كثير من المعتزلة هو أمر لاتدل عليه النصوص الشرعية ، بل غاية ما تدل عليه أنه سبحانه إن عوض من آلمه بسبب ألمه فإن ذلك التعويض إنما يكون عموماً إما بالتكفير عن سيئاته أو بالرفع من درجاته .

---

(١)- انظر المسامرة للكمال بن الشريف،بشرح المسايرة للكمال بن الهمام . ص: ١٨١-١٨٥.

رابعاً : مدى اعتبار القصاص نوعاً من أنواع الجزاء الأخروي .

١ : تعريف المراد بالقصاص في الآخرة :

القِصاص لغة بكسر القاف : القَوَد ، وهو القتل بالقتل أو الجرح بالجرح ، والتقاصّ : التناصف في القصاص ، وتقاصّ القوم : إذا قَاصَّ كُلُّ واحدٍ منهم صاحبَه في حساب أو غيره ، والاقتصاص : أخذ القِصاص ، والاقصاص : أن يؤخذ لك القصاص ، وقد أقصَّهُ ، وأَقَصّ الأمير فلاناً من فلانٍ : إذا اقتصَّ له منه ، فجرحه مثل جرحه ، أو قَتَله قَوَداً ، واستقصه سأله أن يُقِصَّه منه ،.. والقِصاص والتقاصُّ في الجراحات : شيءٌ بشيءٍ ، وقد اقتصَّ من فلانٍ وقد أَقْصَصْتُ فلاناً من فلان أَقِصّه إقْصاصًا وأَمْثَلْت منه إمْثَالاً ، فاقتصَّ منه وامْتَثَل ، والاستقصاص : أن يَطْلُبَ أن يُقَصّ ممن جرحه ....، ويقال : أَقَصَّه يُقِصّه : إذا مكّنه من أخذ القصاص ، وهو أن يَفْعَلَ به مثل فعله من قتل أو قطع أو ضرب أو جرح ، والقِصاص : الاسم [١] .

هذا ما ذكره أهل اللغة في القصاص ، ويبدو أنه في الأصل مأخوذ من القَصّ وهو القطع ، قال بعض أهل اللغة : القصاص في الجراح مأخوذ من هذا، إذا اقتص له منه بجرحه مثل جرحه إيّاه أو قتله به [٢] . وقيل إنه مأخوذ من القَصّ وهو : اتّباع الأثر ، يقال: قَصَّ آثارهم يقُصُّهَا قَصًّا وقصصاً وتقصَّصَها : تتبعها ، ويقال : قصصت الشيء : إذا تتبعت أثره شيئاً بعد شيءٍ ومنه قوله تعالى : ﴿ **وقالت لأخته قُصّيه...**﴾[٣] . أي : اتّبعي أثره[٤]، وسُمّي القصاص في الجراحات ونحوها بهذا الاسم : لأن المقتص يتتبع جناية الجاني ليأخذ مثلها [٥] .

---

(١)- انظر لسان العرب،مادة (قصص)،جـ٨،ص:٣٤٤ .

(٢)- انظر المرجع السابق ، مادة (قصص)،جـ٨، ص : ٣٤١ . وانظر فتح البارى بشرح صحيح البخارى، لابن حجر العسقلاني،جـ١،ص : ٣٩٥ .

(٣)- من الآية (١١) من سورة القصص .

(٤)- انظر لسان العرب،مادة (قصص)،جـ٨،ص : ٣٤١-٣٤٣ .

(٥)- انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري،جـ١١ ، ص: ٣٩٥ .

والقصاص يوم الدين يحمل نفس معنى القصاص في الدنيا : فا لله سبحانه الذى له في ذلك اليوم الحكم والأمر وحده لاشريك له ، يمكّن كل مظلوم من أن يتتبع كلّ من ظلمه، ليأخذ منه ما يماثل الجناية التي أوقعها عليه ذلك الظالم في الدنيا .

٢ : ثبوت القصاص في الآخرة شرعاً ، وبيان النصوص لكيفيته :

والقصاص بين الخلائق في الآخرة ثابت بالسنة الصحيحة ، وقد ورد في شأنه عدة أحاديث ، منها : قوله صلى ا لله عليه وسلم : ((يخلص المؤمنون من النار ، فيُحْبسون على قَنْطرة بين الجنَّةِ والنَّارِ فَيُقَصُّ [١] لبعضهم من بعض مظالمُ كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هُذِّبوا ونَقوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دخول الجنَّة . فوالذي نفسُ محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنَّة منه بمنزلِهِ كان في الدنيا .))[٢] .

وقال صلى ا لله عليه وسلم :

((من كانت عندَه مظلمةٌ لأخيهِ فليتحلَّله منها ، فإنه ليس ثمَّ دينارٌ ولادِرهَمٌ ، من قبل أن يُوْخَذَ لأخيه من حسناته،فإن لم يكن له حسناتٌ أُخِذَ مِنْ سيئاتِ أخيه فطُرِحَتْ عليه))[٣]

وقال عليه الصلاة والسلام لصحابته رضي ا لله عنهم أجمعين :

[((أتدْرُون ما المفلِسُ ؟)) قالوا : المُفْلِسُ فِينَا مَنْ لادِرْهَمَ لَهُ ولامتاع . قال : ((إنّ المفلس من أمتي يأتي يَوْمَ القيامة بصلاةٍ وَصِيَامٍ وزكاةٍ ويَأْتي قَدْ شَتَمَ هذا وقذف هذا وأَكَلَ مالَ هذا وسفك دم هذا وضرب هذا ، فَيُعْطى هذا مِنْ حسناته وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قَبْل أن يُقْضى ما عليه أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عليه ثُمَّ طُرِحَ في النارِ))][٤] .

---

(١)- وفي رواية أخرى لصحيح البخاري (فيقتصّ)،انظر العيني على البخارى (عمدة القاري شرح صحيح البخارى)،مج ١٢، جـ٢٣،ص: ١١٣ .

(٢)- رواه البخارى عن أبي سعيد الخدري رضي ا لله عنه . فتح الباري : كتاب الرقاق (٨١) ، باب : القصاص يوم القيامة (٤٨)،ح: ٦٥٣٥ ، جـ١١،ص: ٣٩٥ .

(٣)- رواه البخاري عن أبي هريرة رضي ا لله عنه ، فتح الباري : كتاب الرقاق (٨١) ،باب : القصاص يوم القيامة (٤٨)،ح: ٦٥٣٤،جـ١١ ، ص: ٣٩٥ .

(٤)- رواه مسلم عن أبي هريرة رضي ا لله عنه ، شرح النووي على مسلم : كتاب البر والصلة والآداب ، باب : تحريم الظلم،جـ١٦،ص: ١٣٥-١٣٦ .

وقال صلى ا لله عليه وسلم :

((لتُؤَدُّنَّ الحقوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ القيامةِ حتَّى يُقَادَ للشاة الجَلْحَاءِ من الشاةِ القرناء))[1].

القود : القصاص . والجلحاء : هي التي لا قرون لها . والقرناء : هي الكبيرة القرنين [2].

[((يحشر الناس يوم القيامة [3] – أو قال : العباد – عراة غرلاً بُهما)) قال[4]: قلنا: وما بهماً ؟. قال ((ليس معهم شيء ، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب[5]: أنا الملك أنا الديان ، ولاينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنّة حق حتى أقصه منه ، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنّة أن يدخل الجنّة ولأحد من أهل النار عنده حق حتى أقصه منه ، حتى اللّطمة .)) قال : قلنا : كيف وإنا إنما نأتي ا لله عزوجل عراة غرلاً بهماً ؟ قال : ((بالحسنات والسيئات))][6].

فهذه الأحاديث التي سبق ذكرها ، وغيرها من الأحاديث التي في معناها تثبت وقوع القصاص يوم الدين إثباتاً يقينياً . وتثبت أن ذلك القصاص الواقع في الدار الآخرة له

---

(١)- رواه مسلم عن أبي هريرة رضي ا لله عنه ، شرح النووي على مسلم : كتاب البر والصلة والآداب ، باب : تحريم الظلم،جـ١٦، ص: ١٣٦ .

(٢)- انظر لسان العرب،مادة : قَوَدَ ، جـ٤،ص: ٣٧٤ . جَلَحَ جـ٣،ص: ٢٤٨ . قَرَنَ جـ١٧،ص: ٢٠٩.

(٣)- ذكر البخاري هذا الحديث معلقاً في صحيحه -كما سيأتي تخريجه- وقال : يحشر ا لله ، وكذا في مستدرك الحاكم وسيأتي التخريج بإذن ا لله . انظر : الهامش القادم رقم (٦) .

(٤)- أي : راوي الحديث .

(٥)- في مطبوعة مسند أحمد ، والمنقول عنها الحديث أعلاه : ((بصوت يسمعه من قرب أنا الملك)) والتصحيح من تعليق البخاري ومن رواية الحاكم .

(٦)- رواه أحمد في مسنده عن عبدا لله بن أنيس رضي ا لله عنه .جـ٣ ،ص: ٤٩٥ . ورواه الحاكم في المستدرك : كتاب التفسير ، تفسير سورة حم المؤمن،جـ٢،ص: ٤٣٧-٤٣٨ . وقال الحاكم : صحيح الإسناد و لم يخرجاه ، وكذا قال الذهبي في تلخيصه للمستدرك : صحيح . والحديث ذكره البخاري معلقاً في صحيحه . فتح الباري : كتاب التوحيد (٩٧) ، باب : قول ا لله تعالى : ﴿ **ولاتنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير** ﴾ و لم يقل ماذا=

صورة معينة ، ولكنه في نتيجته يعود إلى الجزاء بالثواب أو بالعقاب .

فقصاص المظالم يوم الدين لايكون مباشرة بإثابة المظلوم أو عقاب الظالم ، ولكنه حسب ما بينته الأحاديث التي سبق ذكرها يكون بأن يأتي المظلوم ليأخذ من حسنات الظالم على قدر مظلمته ، فإذا لم يكن للظالم حسنات ، وضع عليه من سيئات المظلوم بقدر تلك المظلمة ، ثم يكون جزاء الظالم بعد أن يقضي ما عليه من الحقوق بالإعطاء من حسناته أو بالأخذ من سيئات المظلومين ، ثم إن من كان ظالماً فإنه تنقص درجته في الجنة إذا قضى ما عليه من ظلم للعباد من حسناته ، وبقي له بعد ذلك حسنات تربو على سيئاته، وأما إذا فنيت حسناته وحمل مع ذلك من سيئات بعض من ظلمهم مقابل ظلمه لهم وعدم وجود حسنات له يعطيها لأولئك الذين ظلمهم ، فإنه عندئذ يكون الحكم الذي يستحقه بحسب عمله هو دخول النار ليلاقي جزاءه على ما اقترفه من ظلم للعباد ، وعلى ما قد يكون له من سيئات أخر ، والله أعلم [(١)]. وأما المظلوم فإن الحسنات التي أخذها مقابل ما وقع عليه في الدنيا من ظلم ، فإنها ستكون في ميزان حسناته وهذا مما سيكون له أثر في رفع درجته في الجنة ، إن كان ممن يدخلها ابتداءً ، أو يكون أثرها هو التخفيف من عقابه ومن مدة ذلك العقاب إن كان ممن يستحقون العقاب بسبب أعمالهم، وكذلك الحال إن كان قد أخذ من سيئاته فطرحت على من ظلمه فإن ذلك الأخذ سيكون سبباً في ازدياد وزن حسناته [(٢)].والله أعلم .

=خلق ربكم (٣٢)،جـ ١٣،ص: ٤٥٣ . وذكره إلى قوله : ((أنا الديان))، وأكمل ذكره ابن حجر في شرحه:جـ١٣ ص: ٤٥٧ ، وللحديث قصة وهي : أن جابراً سمع هذا الحديث فرحل إلى عبدالله بن أنيس ليسمعه منه،وقد ذكر البخاري هذه القصة معلقة في صحيحه . فتح الباري : كتاب العلم (٣)،باب : الخروج في طلب العلم (١٩)،جـ١،ص: ١٧٣ . وذكر ابن حجر في فتح الباري:جـ١،ص: ١٧٤ ، مالهذا الحديث من طرق يكون بمجموعها مقبولاً ، وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رواية أحمد للحديث ، وقال عن الحديث إنه (من جنس حديث الترمذي صحاحه أو حسانه).مجموع الفتاوى:جـ١٨ ، ص: ١٨٧-١٨٨.

(١)- هذا إن لم تكن لله سبحانه مشيئة أخرى في عدم تعذيبه لحكمة له سبحانه .

(٢)- هذا في حالة كون المظلوم مؤمناً ، أمّا إن كان كافراً فقد يقال : بأن ما وقع عليه من ظلم لايقضى إلاّ بالأخذ من سيئاته -دون الكفر- ووضعها على ظالمه . والله أعلم.

إذاً فالقصاص يوم الدين له ابتداءً صورة معينة من الجزاء ، ولكنه في نتيجته يعود إلى كونه جزاءً بالثواب أو بالعقاب .

٣ : مناقشة آراء المعتزلة الخاصة بهم في شأن القصاص الأخروي :

بناءً على صحة النصوص الواردة في شأن القصاص في الآخرة وظهور دلالتها ، وتأييد العقل لمقتضى تلك الدلالة ، فإنه لايمكن لمسلم أن ينكر وقوع القصاص في الآخرة .

ولكن حسب ما سبق بيانه من أقوال فريق من المعتزلة عند الكلام عمّا ذكروه عن العوض وأحكامه عندهم ، وشمول أحكامه لما يقع بين الخلق من أنواع التظالم [١]، فإن لهؤلاء المعتزلة آراء خاصة في شأن تقاصّ الخلق يوم القيامة المظالم التي كانت بينهم في الدنيا، وقد خالفوا في تلك الآراء ما دلت عليه النصوص الصحيحة التي سبق بيانها ، ومن تلك المخالفات مايلي :

المخالفة الأولى : تعميمهم حكم القصاص ليشمل الأمور الغَرَزيَّة التي هي من فطرة الله تعالى وليست داخلة في باب ظلم المخلوقين بعضهم بعضاً . ومن ذلك ما ادعوه من أننا نقتص من البعوض وغيره من الحشرات التي تقرصنا من أجل الحصول على غذائها[٢] .

وهذه الحالة التي ادعى هؤلاء المعتزلة شمول أحكام القصاص لها-أو انتقال الأعواض حسب تعبيرهم- ، لا معنى للظلم فيها مطلقاً ، وإذا كان كذلك فلا معنى لوقوع التقاص أصلاً . وهي لا معنى فيها للظلم لأن الله سبحانه قد جعل غذاء هذه الحشرات على تلك الدماء التي تحصل عليها من غيرها ، فهي لا تملك وسيلة لبقائها سوى هذا الأمر. وقصاص المخلوقين بعضهم من بعض لا يكون إلاّ في الأمور التي يعقل فيها معنى ظلم بعضهم بعضاً، إذ إنه حسب ما تبين من شرع الله تعالى الذي شرعه لنا في هذه الحياة الدنيا أن القصاص لا يثبت لأحد على أحد إلاّ إن كان الأخير قد تعدّى بظلم على الأول بأي شكل من أشكال التعدي الظالم ، فلا يقال : إن المريض الذي يجري له الطبيب عملية جراحية لابد من إجرائها ، سوف يقتص منه ، لأنه لاسبيل للطبيب في معالجة ذلك

---

(١)- انظر ص: ١٠-١٣ .

(٢)- انظر ص: ١٢-١٣ .

المريض إلا بهذه الطريقة . كذلك لا يقال: إن المؤدَّب إذا لم يوجد سبيل لتأديبه إلا بالضرب سوف يَقْتَصُّ من مؤدبه . وهكذا أيضاً فإنّ الإنسان الذي أباح ا لله سبحانه له أكل لحوم بعض الحيوانات بعد ذبحها ، لايقال : إنه يثبت للحيوان القصاص منه [(١)].

إذاً فالقصاص لا يكون إلا على أمر قد ثبت فيه معنى التعدي بظلم ، يدل على ذلك قوله صلى ا لله عليه وسلم في الحديث الذي تقدم ذكره : ((فَيُقَصُّ لبعضهم من بعض مظالمُ كانت بينهم في الدنيا))[(٢)]. فقوله صلى ا لله عليه وسلم : ((مظالم)) يدل على أن القصاص كما أنه في الدنيا لا يثبت إلاّ في أمر يظهر فيه معنى الظلم ، فكذا في الآخرة لا يكون القصاص إلا على ما كان من أحوال بين العباد قد ظلم فيها بعضهم بعضاً .

وأما ما دلت عليه بعض الأحاديث من وقوع القصاص بين الحيوانات بعضهم من بعض ، كالحديث الذي سبق ذكره والذي قال فيه الرسول صلى ا لله عليه وسلم .
((لتؤدّن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلْحاء من الشاة القرناء))[(٣)].

وغير ذلك من أحاديث تذكر نحو هذا المعنى ، فإن هذه الأحاديث يلاحظ فيها أنها إنما تثبت قصاص الحيوانات البهم بعضهم من بعض في الاعتداءات التي لو قُدِّرَ وقوعها من

---

(١)- كثير من المعتزلة كما سبق البيان عند الكلام عن الأعواض ، يقرّون بأن لهذه البهائم أعواضاً تستحقها بسبب ذبحها وأكلها ، إلاّ أنهم يجعلون العوض ثابتاً على ا لله تعالى لأنه هو من أباح ذلك انظر ص: ١٣-١٤ ، والعجيب أنهم فرقوا بين هذه المسألة ، ومسألة قرص البعوض ، فجعلوا العوض في حالة قرص البعوض ثابتاً على البعوض نفسه ، مع أنه سبحانه قد فطره على ذلك ، ولم يجعل له سبيلاً آخر لغذائه . وكان يلزمهم على مقتضى زعمهم أن يجعلوا العوض ثابتاً على ا لله تعالى ، فإن البَعوض مجبر على ذلك السبيل الذي فطره ا لله سبحانه عليه ، وأما الإباحة فلا جبر فيها ، إذ يمكن للإنسان ألاّ يأكل وألا يذبح هذا الحيوان وأن يستبدله بغيره ، وأما البعوض فلا يمكنه غير ذلك ، فكيف يجعل العوض ثابتاً في المسألة الأولى على ا لله سبحانه دون المسألة الثانية ، مع أنها من باب أولى أن تكون كذلك ؟ وهذا اضطراب ظاهر قد خفي على مَنْ يدّعون أنهم يعملون العقول ، وأين عقولهم من هذا الاختلاف ؟ والحق أنه لا عجب في ذلك ، فإن التناقض والاختلاف لازم لكل من حكّم رأيه وهواه وخالف هدي الكتاب والسنة .

(٢)- انظر الحديث كاملاً مع تخريجه ص: ٣٢ ، مع هامش : (٢) .

(٣)- انظر تخريجه ص: ٣٣ ، مع هامش : (١) .

المكلّف لا عتبرت ظلماً ، ولذلك قال بعض العلماء : إن القصاص من القرناء للجلحاء ليس من قصاص التكليف بل هو قصاص مقابلة ، وذلك لأنه لا تكليف على هذه الحيوانات [(١)].

ويلاحظ أيضاً أن أحاديث القصاص بين البهائم قد جاءت بإثبات القصاص فيما بين الصنف الواحد من الحيوانات ، وذلك لأن تقدير كون اعتداء حيوان على آخر هو من باب الظلم إنما يمكن حصوله غالباً بين أفراد الصنف الواحد ، ويؤيد ذلك المثل الذي ضرب للقصاص ، وهو قصاص الشاة التي لا قرون لها من التي لها قرون إذا كانت الأخيرة قد نطحتها في الدنيا ، والمتتبع لسلوك الحيوان عموماً يرى أن الأضعف لا يبدأ بمحاولة الاعتداء على من هو أقوى منه بكثير من بني جنسه ، ولذلك لا يكون غالباً اعتداء الأقوى على من هو أضعف منه -كنطح ذات القرون لِلَّتي ليس لها قرون- إلاّ على سبيل الظلم . وا لله أعلم .

المخالفة الثانية : أن القصاص عند المعتزلة القائلين بالعوض ، إنما يتم بالنقل من الأعواض التي تكون مستحقةً للظالم- نتيجة ما أصابه من آلام من قبل ا لله تعالى أو من قبل غيره – إلى المظلوم على قدر ما تستحقه المظلمة [(٢)].

ولا يكون القصاص بالحسنات والسيئات [(٣)].

وقد تبين فيما سبق عدم صحة القول بأن العوض شئ منفصل عن الثواب والعقاب ، وقد ورد في النصوص الشرعية ما يثبت تعويض المرء عن بعض ما أصابه من الآلام في الحياة الدنيا ، برفع درجاته أو بالحطّ من سيئاته ، وأما العوض بالصورة التي تراها المعتزلة فإنه لم يرد في إثباته شئ من النصوص الشرعية [(٤)].

أما ادعاء المعتزلة أن قصاص المظلوم من الظالم لايكون بالحسنات والسيئات ، فهو

---

(١)- انظر شرح النووي لصحيح مسلم . جـ١٦،ص: ١٣٧ .

(٢)- انظر ص: ١٢ .

(٣)- عقد القاضي عبدالجبار بن أحمد في المغني فصلاً بعنوان : فصل في أن الانتصاف لا يجوز أن يقع بالثواب وإنما يقع بنقل الأعواض . انظر جـ١٣ ((اللطف))،ص: ٥٤٥ .

(٤)- انظر ص: ٢٩-٣٠ .

ادعاء تبطله أيضاً النصوص التي سبق إيرادها والتي جاء في بعضها بيان كيفية ذلك الاقتصاص ، منها الحديث الذي قال فيه الرسول صلى ا لله عليه وسلم .

((... فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قَبْل أنْ يقضى ما عليه ، أُخِذَ مِنْ خطاياهم فَطُرِحَتْ عليه ثم طرح في النار))[١] .

والحديث الآخر الذي قال فيه رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم .

((من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلّله منها ، ... من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته فإن لم يكن له حسنات أُخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه .))[٢] .

وفي الحديث الآخر عندما سئل الرسول صلى ا لله عليه وسلم عن كيفية الاقتصاص فقال : ((بالحسنات والسيئات))[٣] .

فهذه النصوص –وغيرها– تثبت بدلالة واضحة وظاهرة أن القصاص يوم الدين إنما يتم بواسطة الحسنات والسيئات ، فيأخذ المظلوم من حسنات ظالمه بقدر مظلمته ، أو يعطيه من سيئاته بقدر تلك المظلمة ، إن كانت حسنات الظالم قد فنيت . فيبطل إذاً زعم المعتزله أن القصاص يوم الدين يتم بأمر آخر غير الحسنات والسيئات ، وأن القصاص لا يكون بهما .

وهذا في شأن المكلفين ، وأما غير المكلفين من البهائم ونحوهم ، والذين أثبتت النصوص وقوع القصاص بينهم ، فإنه لم يثبت في حقهم ثواب أو عقاب مخصوص ، وا لله أعلم بكيفية ذلك القصاص الذي يقع بينهم[٤] .

---

(١)– انظر الحديث كاملاً مع تخريجه ص: ٣٢ ، مع هامش : (٢) .

(٢)– انظر الحديث كاملاً مع تخريجه ص: ٣٢ ، مع هامش : (٣) .

(٣)– انظر الحديث كاملاً مع تخريجه ص: ٣٣ ، مع هامش : (٦).

(٤)– انظر ص:٥٩٩ من الباب الثالث الفصل الأول عند الكلام عن البهائم .

خامساً : حكم الجزاء الأخروي .

إن الجزاء الأخروي ثواباً وعقاباً يجب الإيمان بوقوعه لدلالة النصوص الشرعية عليه دلالة ظاهرة لا شك فيها ، ولايكون إيمان المكلف صحيحاً مستوفياً لجميع أركانه الواجبة مالم يكن شاملاً للإيمان بذلك الجزاء . ومن كفر به فهو كافر كفراً يخرج به عن ملة الإسلام بالكلّية . وسيأتي -بإذن الله تعالى- في فصل الأدلة على ثبوت الجزاء الأخروي ذكر النصوص الدالة على ذلك [١].

إذاً فالإيمان بوقوع الجزاء الأخروي عن طريق الخبر الشرعي السمعي هو إيمان واجب لا شك فيه ، وهذا باتفاق الفرق الإسلامية [٢].

ولكن هل يعلم وجوب تحقق وقوع الجزاء الأخروي عن طريق العقل ، أم لا يعلم ذلك؟.

لقد اختلفت الفرق الإسلامية في أمر وجوب تحقق وقوع المعاد الأخروي وتحقق ما فيه من جزاء ، بالدليل العقلي ، فذهب بعضهم إلى أن ذلك يعلم بدليل العقل كما يعلم بالسمع ، وذهب آخرون إلى أن أمر المعاد وما فيه من جزاء لا يعلم إلاّ عن طريق الخبر الشرعي السمعي [٣] . والصواب كما قال الإمام ابن قيم الجوزية : (أن المعاد معلوم بالعقل مع الشرع) [٤].

وسيأتي في فصل أدلة ثبوت الجزاء الأخروي ذكر الأدلة النقلية ، والأدلة العقلية الدالّة على ثبوت ذلك الجزاء . ثم إن الأدلة العقلية التي ستذكر سيتبين أنه قد جاء في النصوص الشرعية ما يؤيد دلالتها ، وهذا يجعل تلك الأدلة سمعية خبرية لورودها فى النصوص الشرعية ، ويجعلها كذلك أدلة عقلية لأنها تقيم الحجة على العقل بثبوت الجزاء الأخروي [٥].

وسبب اختلاف الفرق الإسلامية في كون المعاد الأخروي وما فيه من جزاء من الأمور التي تعلم بالعقل ، أو لا تعلم به ، يرجع في الأصل إلى الاختلاف في عدد من

---

(١)- انظر ص:٤٩ وما بعدها .

(٢)- انظر شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية ، شرح : محمد خليل هراس . ص: ١٤٢.

(٣)- انظر شرح العقيدة الأصفهانية،لشيخ الإسلام ابن تيمية،ص: ١٦٨-١٦٩ .وقد بين أن ممن ذهب إلى أن المعاد يعلم بدليل العقل - كما يعلم بدليل السمع - : سلف الأمة وأئمتها ، وكثير من أهل الحديث والفقه من أصحاب الأئمة الأربعة كابن عقيل من أتباع أحمد ، وكذلك المعتزلة والكرامية ، وكذا الفلاسفة بالنسبة لمعاد النفوس . وأما الذين ذهبوا إلى أن المعاد لايعلم إلا بطريق السمع فهم : الأشعري وأتباعه ومن وافقهم من أصحاب المذاهب الأربعة . انظر المرجع نفسه ص : ٨ ، ١٦٨-١٦٩ .

(٤)- الفوائد،لابن قيم الجوزية ، ص: ٧ .

(٥)- انظر ص:٥٧ وما بعدها .

المسائل التي تعد أصلاً قد بُني ذلك الخلاف عليه ، و من تلك المسائل ، مسألة التحسين والتقبيح العقليّين ، ومسألة ثبوت الحكمة والعلّة في أفعال ا لله تعالى ، ومسألة الحكم في ترتّب الثواب والعقاب على العبد قبل ورود الشرع ، ومسألة حكم إطلاق الوجوب على ا لله تعالى هل هو جائز أم غير جائز ؟ .

والحق في هذه المسائل كما بينه نظار أهل السنه والجماعة فيما يلي :

أولاً : إن الحسن والقبح وصفان ذاتيان للأشياء والأفعال ، وأن ا لله سبحانه قد جعل ذلك مستقرًّا في العقول والفطر ، بمعنى أنه تعالى ألهم العقول والفطر حقيقة التخالف فيما بين الأمور الحسنة والأمور القبيحة ، وأعطاها مقدرة على التفرقة بينهما ، كما أنه سبحانه أعطى الحواس المقدرة على التمييز بين الأمور المختلفة في ذاتها والمدْركة بتلك الحواس ، فاللسان يميّز بين الحلو والحامض والمر والعذب ، والعين تميز بين الألوان المختلفة، والأنف يُميّز بين الرائحة الزكية والكريهة ...الخ [(١)].

كذلك فإن العقل قد يعلم حسن بعض الأشياء والأفعال الحسنة ، وقبح بعض الأشياء والأفعال القبيحة ، وقد يختلط عليه علم البعض الآخر ، وأما الشرع فهو الذى يُعلم به سائر الأمور الحسنة والقبيحة وهو عندما يأتي يقرر ما جعله سبحانه مستقراً لدى العقول والفطر ، فيؤكد ما استطاعت الوصول إلى الحق بشأنه ، ويهديها إلى الصواب فيما حارت فيه ، فضلّت في حكمها عليه عن الحق ، أو توقفت في شأنه ، ولايأتي بما يناقض ما جعله سبحانه مستقراً فيها ، إذ الكل من عنده تعالى ، ولايمكن أن يخالف قوله فعله . فالشرع يأتي بمحارات العقول لا بمحالاتها [(٢)].

فإذا ثبت ذلك فإنه يقال : إن الحسن كمال والقبح نقص ، وا لله سبحانه لايفعل ولايقول ولا يأمر إلاّ بالأمر الحسن ، أما الأمر القبيح فإنه سبحانه يتنزه عن فعله وعن قوله وينهى عنه عباده . وهذا مبنيّ على أنه سبحانه كامل في ذاته وصفاته وأفعاله وأقواله ، فلا

---

(١)- انظر مفتاح دار السعادة،لابن قيم الجوزية،جـ٢،ص : ٥٩-٦٠ ، ١٠١-١٠٢ ، ١١٦.

(٢)- انظر المرجع السابق،جـ٢ص : ٥٩-٦٠ ، ٩٥، ١١٧ .

يليق به إلا كلّ وصف كامل وكل فعل وقول وأمر متصف بغاية الكمال .

ثانياً :إنّ أفعال ا لله عزّ وجلّ ذات حِكَمٍ وعِلَلٍ تليق بكمالاته ، وهذا يقتضي أن يكون لكل فعل أَوْ قَوْلٍ له سبحانه غاية ومقصد وهدف حميد ، وهذا لايتحقق إلا بالأفعال والأقوال والأوامر الحسنة [(١)].

ثالثاً : إن ا لله تعالى يحب ويكره ، حبًّا وكراهية تليق به جل شأنه ، وعلى ذلك فلاشك أنه سبحانه يحب الكمال ويكره النقص ، أي : إن (ا لله سبحانه يحب الكامل من الأفعال والأقوال والأعمال ، ومحبته لذلك بحسب كماله ويبغض الناقص منها ويمقته ومقته له بحسب نقصانه) [(٢)] وبناءً على ما سبق فإن العقل يمكنه إدراك بعض ما يمكن أن يفعله سبحانه لأنه يليق به وبكماله ، ويمكنه إدراك بعض مالايمكن أن يفعله جل شأنه ، لأنه نقص يتنزه عن فعله ، هذا إذا استطاع العقل الوصول إلى الحق في حسن هذا الأمر المعيّن أو قبحه. قال الإمام ابن قيم الجوزية (فإذا كان الفعل مستلزماً للكمال والنقصان واستلزامه له عقلي ، والكمال والنقصان يستلزم الحب والبغض ... واستلزامه عقلي ، فبيان كون الفعل حسناً كاملاً محبوباً مرضياً ، وكونه قبيحاً مسخوطاً مبغوضاً أمر عقلي.) [(٣)].

وأما إذا لم يستطع العقل الوصول إلى الحق في شأن معرفة حسن هذا الأمر المعين وكونه مما يليق نسبته إلى ا لله تعالى ، أو معرفة قبحه وكونه مما لايليق نسبته إليه جلّ شأنه، فإنه عندئذ يحار ويحتاج إلى بيان من الشرع ، بياناً لا يكون متناقضاً مع الأمور الصحيحة الراسخ في العقول كونها حسنة تليق نسبتها إلى ا لله سبحانه ، أو قبيحه لاتليق نسبتها إليه جل شأنه [(٤)]، بل إن الشرع قد يأتي فيبين لأولي الألباب وجه الحق في الأمر المعين ويبين لهم كيفية الاستدلال العقلي على إثبات ذلك الحق . ثم إن منهج أهل السنة في

---

(١)- سيأتي مزيد بيان لصفة الحكمة الإلهية ومعناها وما يقتضيه ذلك المعنى . بإذن ا لله تعالى .انظر ص: ٢٢٧ وما بعدها .

(٢)- مفتاح دار السعادة:جـ٢،ص :٤٤ .

(٣)- المرجع السابق:جـ٢،ص: ٤٤ .

(٤)- انظر : مفتاح السعادة ؛ ابن قيم الجوزية : جـ: ٢ ، ص: ٩٩ .

معرفة ما يليق نسبته إلى الرب سبحانه من الأفعال والأقوال ، لايكون بالنظر في الخلق ومعرفة ما يجوز في حقهم ومالايجوز ، ومن ثم قياس أفعال الخالق على أفعال الخلق ، فإن هذا قياس فاسد ، فالرب كما أن ذاته وصفاته لاتشبه ذات المخلوقين وصفاتهم ، فكذا أفعاله لاتُشبه أفعال المخلوقين ما يحسن ومايقبح فيها . فهو سبحانه يحسن منه مدح نفسه والثناء عليها ، ويقبح ذلك من الخلق ، وهو جل شأنه يحسن منه ابتلاء خلقه بأنواع المحن لحكمة تليق به تعالى ، وإن كان ذلك لايحسن من خلقه ،ونحو ذلك من الأفعال التي يحسن صدورها من الرب جل شأنه ولايحسن صدورها من الخلق كالعزّة والكبرياء ، فليس منهج أهل السنة ذلك القياس الفاسد ، بل منهجهم يقوم على أساس تدبّر سائر أفعال ا لله سبحانه ، فيقيسون الفعل الذي يراد معرفة صحة نسبته إلى ا لله سبحانه على سائر أفعاله تعالى التي تكون نسبتها إليه جل شأنه ثابتة يقيناً لظهورالِحَكم[1] والغايات الحميدة منها واضحة جلية ، ثم النظر في هذا الفعل المعين ومعرفة إن كان يتحقق فيه شئ من تلك الحكم والغايات الحميدة أو نحوها ، فيليق نسبته إلى ا لله سبحانه ، أم أنه لايتحقق فيه شئ من الحكم الحميدة ، بل قد يلزم منه إلحاق نقص با لله تعالى ، فلا تليق نسبته إليه سبحانه.

وأهل السنة في ذلك كلّه يهتدون دواماً بنصوص الكتاب والسنة ، لمعرفة ما تليق نسبته إلى ا لله سبحانه من الأقوال والأفعال والحكم والغايات ، مما لاتليق نسبته إليه جل شأنه .

رابعاً :وأما تَعَلُّق التكليف والجزاء بالأمور المدركة عقلياً فإن الحق الذي عليه أهل السنة أن الجزاء لايترتب على الأمر المدرك عقليًّا إلا بعد ورود الشرع فإن الحجة إنما قامت على العباد بالرسل يقول سبحانه : ﴿**...وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً** (١٥)﴾الإسراء

ويقول جل شأنه : ﴿**رسلاً مبشرين ومنذرين لئلاّ يكون للناس على ا لله حجّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وكان ا للهُ عزيزاً حكيماً**(١٦٥)﴾النساء .

وقديّن الإمام ابن قيم الجوزية أن انتفاء الإيجاب والتحريم المقتضي للثواب والعقاب في الأمور المدركة عقليًّا ليس لعدم قيام سببها الذي هو ظهور الحسن أو القبح في هذا الأمر

---

(١)- انظر : المرجع السابق جـ: ٢ ، ص : ٥٩، ١١٥ .

المدرك ، وإنما لفوات شرط تعلق الوجوب والتحريم ، الذي هو ورود السمع ، فالوجوب والتحريم انتفيا عن الفعل المدرك عقلاً لانتفاء شرطه لا لانتفاء سببه [1]. ويستشهد بقوله تعالى : ﴿ **ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدّمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين** (٤٧)﴾القصص .

ووجه الدلالة من هذه الآية الكريمة : أنه تعالى أخبر أن ما قدمت أيديهم سبب لإصابة المصيبة إياهم ومع ذلك فإنه سبحانه أرسل رسوله وأنزل كتابه لئلا يقولوا : ﴿**ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتّبع آياتك** ﴾ . وهذا يدل على أمرين :

الأول : أن أعمال الكفار قبل البعثة من الشرك والظلم ونحو ذلك هي قبيحة لذاتها مستحقة لأن يعاقبوا عليها .

الثاني : أنه سبحانه برحمته الواسعة لم يحكم بثبوت استحقاق العباد لذلك العقاب قبل بلوغ دعوة الرسل إليهم . فبلوغ الدعوة قد جعله سبحانه شرطاً لقيام الحجة على العباد ، ولاستحقاقهم العقاب على أعمالهم القبيحة .

فلا تلازم إذاً بين ثبوت الحسن والقبح العقليين وبين استحقاق الثواب والعقاب ، إذ إن الأدلة إنما اقتضت ارتباط الثواب والعقاب بالرسالة وتوقفهما عليها ، ولم تقتض توقف الحسن والقبح بكل اعتبار عليها ، وفرق بين الأمرين [2].

فإذا قيل : إن الجزاء الأخروي أمر يعلم بالعقل حسن وقوعه ، فإن ذلك لايعني أن من لم تبلغه دعوة رسول قط ولم يؤمن بذلك الجزاء ، أنه سوف يعاقب على عدم إيمانه به ، بل العقاب على عدم الإيمان يتوقف حتى قيام الحجة على العبد ببلوغ دعوة الرسول إليه .

خامساً :ومسألة الإيجاب والتحريم على الله تعالى مسألة لايصح إطلاق حكم واحد فيها، بل لابد من التفصيل ، فالله سبحانه (لايمتنع في نفسه الوجوب والتحريم) [3]، ولكن ليس البشر هم الذين يوجبون ويحرمون عليه تعالى ، لأنهم مخلوقون مربوبون ، والله

---

(١)- انظر المرجع السابق جـ٢،ص : ٤٤-٤٥ ، ١١٣ .

(٢)- انظر المرجع السابق جـ٢،ص: ١١٣

(٣)- انظر المرجع السابق جـ٢،ص : ٥٩ .

سبحانه هو الرب الخالق ، ولا يمكن للمربوب أن يحكم على الرب سبحانه ويوجب ويحرم عليه [1].

وإنما ا لله سبحانه هو الذي يوجب ويحرم على نفسه إيجاباً وتحريماً هو في حقيقة الأمر من مقتضى كمال أسمائه وصفاته ومن مقتضى حكمته البالغة ، لذا فإنه لايليق به سبحانه أن ننسبه إلى ضد ما أوجبه أو حرمه على نفسه [2].

وإيجاب ا لله تعالى على نفسه يتضمن إرادته لما أوجبه ومحبته له ورضاه به وأنه لابد أن يفعله ، وأما تحريم ا لله جل شأنه على نفسه فيتضمن كراهته لذلك وأنه لايفعله [3].

ثم إن ذلك الإيجاب والتحريم ثابت في نصوص كثيرة ، ففي الإيجاب في حق ا لله سبحانه يخبرنا جل شأنه أنه كتب على نفسه ، وأحق على نفسه ، فقال تعالى : ﴿ **وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلامٌ عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمةَ أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنّه غفور رحيم** (٥٤)﴾ الأنعام .

﴿**...وكان حقًّا علينا نصرُ المؤمنين** (٤٧) ﴾الروم .

وفي التحريم يخبرنا جل شأنه أنه حرم الظلم على نفسه ، كما في الحديث القدسي : ((ياعبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّماً فلا تظالموا..))الحديث[4].

ويؤيد معنى هذا الحديث آيات كثيرة ، كقوله تعالى :

﴿**من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربُّك بظلاَّمٍ للعبيد** (٤٦)﴾ فصلت .

وقوله سبحانه :

---

(١)- انظر مناقشة قضية الإيجاب والتحريم على ا لله تعالى في المرجع السابق،جـ٢،ص : ٥٩-٦٢ ، ٩٣، ١٠٦، ١١٢، ١١٥ وغير ذلك من المواضع ..

(٢)- انظر المرجع السابق جـ٢،ص : ٥٩ ، ١٠٥-١٠٦ .

(٣)- انظر المرجع السابق جـ٢،ص : ١١١.

(٤)- طرف من حديث رواه مسلم عن أبي ذر رضي ا لله عنه ، وهو بداية الحديث . شرح النووي على مسلم : كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم الظلم،جـ ١٦ ، ص : ١٣١-١٣٣ .

﴿ ... **ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً** (٤٩)﴾ الكهف [١].

ثم إن الإيجاب والتحريم يعقل من العبد بالنسبة إلى نفسه ، وما النذر إلا عبارة عن عمل خير يوجبه المرء على نفسه . و قد حرم يعقوب عليه السلام على نفسه أنواعاً من المآكل ، كما قال تعالى : ﴿**كلُّ الطعامِ كان حِلاً لبني إسرائيلَ إلاّ ما حرَّمَ إسْرَائيلُ على نفسه...**(٩٣) ﴾ آل عمران

والعبد يعقل منه أيضاً أن يكون طالباً من نفسه فعلَ أمورٍ ، ناهياً لها عن فعل أمورٍ أخرى ، كما قال سبحانه : ﴿ ... **إن النفس لأمَّارة بالسوءِ إلاّ ما رَحِمَ ربّي...**(٥٣)﴾يوسف .

وقال جل شأنه : ﴿ **وأمّا من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى**(٤٠)﴾النازعات.

فإذا كان العبد يعقل منه ذلك مع أن له آمراً ناهياً فوقه ، (فالرب تعالى الذي ليس فوقه آمر ناه كيف يمتنع منه أن يكون طالباً من نفسه فيكتب على نفسه ويحق على نفسه ويحرم على نفسه ، بل ذلك أولى وأحرى في حقه من تصوره في حق العبد ...) [٢].

وكما سبق ذكره من أنه لا تلازم بين إثبات الحسن والقبح العقليين وبين ثبوت التكليف والجزاء بالنسبة للأمر المدرك عقليًا قبل ورود الشرع ، فكذلك لاتلازم بين ثبوت الحسن والقبح العقليين وبين الإيجاب والتحريم على ا لله سبحانه بالعقول القاصرة أو بالمقاييس الفاسدة ، فالأول ثابت والثاني منتف [٣].

فبناءً على ثبوت اتصاف الأشياء والأفعال بالحسن والقبح الذاتيين ، وبناءً على ثبوت أن من مقتضى كمال ا لله سبحانه في ذاته وصفاته وأفعاله وأقواله أن لايفعل جلّ شأنه إلاّ الأمر الحسن وأنه تعالى يتنزه عن فعل الأمر القبيح ، وبناءً على ثبوت أنه سبحانه له حكمة بالغة وغاية حميدة من وراء كل فعل من أفعاله وقول من أقواله ، وبناءً على قيام الأدلة

---

(١)- سيأتي في فصل قادم مزيد كلام عن الظلم ، وعن تحريمه سبحانه الظلم على نفسه،انظر: ص:٢٣٨-٢٤٢ .

(٢)- مفتاح دار السعادة،لابن قيم الجوزية،جـ٢،ص: ١١١.

(٣)- انظر المرجع السابق،جـ٢،ص :١١٣-١١٤ .

العقلية الدالة على وجوب وقوع المعاد ، ودلالة النصوص الشرعية على تلك الأدلة -كما سيأتي بيانها-[1] ، بناءً على ذلك كله : يثبت أن القول الصحيح هو القول بأن المعاد أمر يعلم وجوب وقوعه بالعقل .

وليس معنى الوجوب هنا أن العقل البشري الناقص قد أوجب على الله شيئاً بقياس فاسد ، ولكن معناه : ان الجزاء الأخروي يجب عقلاً وقوعه لأنه من مقتضى كمال صفات الرب سبحانه وكمال أفعاله المنزهة عن أي نقص .

ثم إن الله سبحانه قد أوجب على نفسه إيقاع ذلك الجزاء ، هذا الإيجاب يدل عليه ما ورد من الآيات التي أقسم فيها سبحانه على أنه ليفعلن ما أقسم به من إيقاع الجزاء المناسب للعمل سواء كان العامل مؤمناً أم كافراً ، وذلك كقوله تعالى :

﴿...فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرنّ عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ....(١٩٥) ﴾آل عمران.

وقوله سبحانه :

﴿فوربّك لنحشرنّهم والشيَاطينَ ثمَّ لنحضرنهم حول جهنّم جِثِيًّا (٦٨) ﴾مريم .

وقوله جل شأنه :

﴿ لأملأنّ جهنمَّ منك وممّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) ﴾ ص .

ففي الآية الثانية يقسم سبحانه بنفسه أنه لابد أن يحشر الكافرين والشياطين ، وأنه لابد أن يحضرهم حول جهنم جثياً[2] . واللام في الآيتين الأولى والثانية واقعة في جواب قسم محذوف [3] .

ومما ورد في شأن إيجاب الله سبحانه على نفسه مما هو متعلق بالجزاء الأخروي ، في السنة ، ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل :

---

(١)- انظر فصل الأدلة على ثبوت الجزاء الأخروي من ص : ٥٧ وما بعدها .

(٢)- انظر مفتاح دار السعادة:جـ٢،ص : ١١٠ ، وانظر تفسير ابن كثير:جـ٣،ص : ١٣١ .

(٣)- انظر تفسير فتح القدير لمحمد بن علي الشوكاني:جـ١،ص ٤١٣،وجـ٤،ص٤٤٦ . وانظر تفسير التحرير والتنوير،لمحمد الطاهر بن عاشور:جـ٤،ص : ٢٠٥ ، وجـ ٢٣،ص : ٣٠٧ .

[((يامعاذ ، أتدري ما حق ا لله على العباد ؟)) قال ا لله ورسوله أعلم . قال :((أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا ، أتدري ما حقهم عليه ؟)) قال: ا لله ورسوله أعلم . قال: ((أن لايعذبهم))] .

وفي رواية أن الرسول صلى ا لله عليه وسلم قال لمعاذ رضي ا لله عنه :

[((هل تدري ما حق ا لله على عباده ؟)) قلت : ا لله ورسوله أعلم . قال :((حق ا لله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا)) ثم سار ساعة ، ثم قال :((يا معاذ بن جبل)) قلت : لبيك رسول ا لله وسعديك . قال :((هل تدري ما حق العباد على ا لله إذا فعلوه ؟)) قلت : ا لله ورسوله أعلم . قال : ((حق العباد على ا لله أن لايعذبهم))] [(١)] .

فعدم تعذيب من لم يشرك با لله شيئاً ، هو حق أحقه ا لله سبحانه على نفسه وأوجبه عليها [(٢)] .

إذاً فالنتيجة مما سبق كله هي : أن الجزاء الأخروي يعلم ثبوت وقوعه بالعقل ، كما يعلم بالشرع ، أي بمجرد الخبر النصي السمعي ، والدلالة العقلية على الجزاء الأخروي مستندة إلى استلزام واقتضاء كمال صفات ا لله وكمال أفعاله له .

---

(١)- متفق عليه من حديث معاذ بن جبل رضي ا لله عنه ، والروايتان أعلاه لفظان للبخاري . الأولى: فتح الباري : كتاب التوحيد (٩٧)،باب ما جاء في دعاء النبي صلى ا لله عليه وسلم أمته إلى توحيد ا لله تبارك وتعالى (١)،ح:٧٣٧٣ ، جـ١٣،ص:٣٤٧ . والثانية : كتاب الرقاق (٨١)،باب : من جاهد نفسه في طاعة ا لله (٣٧) ،ح:٦٥٠٠،جـ١١،ص:٣٣٧ . وروى البخاري الحديث في مواضع أخرى . وأما رواية مسلم فانظر : شرح النووي على مسلم : كتاب الإيمان ، باب : الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً،جـ١،ص:٢٢٩-٢٣٣ ، وقد ذكر للحديث عدة روايات .

(٢)- انظر بيان هذا المعنى في الفصل الأول من الباب الثاني ص: ١٩٠-١٩١ .

الفصل الثاني

أدلة ثبوت الجزاء الأخروي نقلاً وعقلاً ويشتمل على تمهيد وأربعة أنواع من الاستدلالات :

تمهيد : قيام الجزاء الأخروي على أساس الإيمان باليوم الآخر.

الاستدلال الأول : إخبار القرآن والسنة بوقوع الجزاء في الآخرة .

الاستدلال الثاني : الجزاء الأخروي مقتضى كمال الأسماء والصفات الإلهية .

الاستدلال الثالث :الجزاء الأخروي مقتضى الحكمة الإلهية في ابتلاء الإنسان .

الاستدلال الرابع : الجزاء الأخروي مقتضى الحكمة الإلهية في تكليف الإنسان .

تمهيد :

قيام الجزاء الأخروي على أساس الإيمان باليوم الآخر .

يعتبر الإيمان بالجزاء الأخروي فرعاً عن الإيمان باليوم الآخر ، الذي هو أحد أركان الإيمان الستة ، وهي : الإيمان با لله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره . هذه الأركان التي لايكتمل إيمان المرء ولا يكون مسلماً إن لم يؤمن بها جميعاً ، ومن أنكر منها شيئاً كان كافراً ، مستحقاً للعذاب الخالد يوم الدين ، قال تعالى في بيان معظم الأركان التي يجب الإيمان بها : ﴿ **ليس البرَّ أن تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البرَّ من آمن با لله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين..**(١٧٧) ﴾ البقرة .

وهذه الآية تشمل خمسة من الأركان السـتة السابقة ، وقد بينها جميعاً رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم عندما سئل عن الإيمان فقال : ((...أن تؤمن با لله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره ...)) الحديث [(١)].

وقال جل شأنه في بيان بعض أوصاف المؤمنين وفي بيان حال من لم يؤمن بالآخرة : ﴿**طس~ تلك آيات القرآن وكتاب مبين** (١) **هدىً وبشرى للمؤمنين** (٢) **الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون** (٣) **إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينّا لَهُمْ أعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ** (٤) **أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخْسرون** (٥) ﴾ النمل .

وقال جل شأنه : ﴿**...ومن يكفر با لله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً** (١٣٦) ﴾ النساء .

فهذه الآية يتبين منها أن الكفر باليوم الآخر شأنه شأن الكفر بأيٍّ من أركان الإيمان الأخرى يؤدي إلى أن يكون صاحبه ممن ضلّ عن صراط الدين القويم أبعد الضلال وأشده.

وقال سبحانه : ﴿**وإن الذين لايؤمنون بالآخرة عن الصراطِ لناكبون**(٧٤)﴾المؤمنون.

---

(١)- هذا طرف من حديث سؤال جبريل عليه السلام للنبي صلى ا لله عليه وسلم عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة وأشراطها ، وسيأتي ذكره كاملاً مع تخريجه في ص :٣٦٤-٣٦٥ .

ناكبون : أي عادلون مائلون [1].

وقال جل شأنه في بيان حال ومصير من لم يؤمن بالدار الآخرة وبالبعث بعد الموت:

﴿**وقالوا إنْ هي إلاّ حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين** (٢٩) **ولو ترى إذْ وُقِفُوا على رَبِّهم قال أليس هذا بالحقِّ قالوا بَلَى وَرَبِّنَا قال فذوقوا العذابَ بما كنتم تكفرونَ** (٣٠) **قد خَسِرَ الذين كذَّبُوا بِلِقَاءِ ا لله حتى إذا جاءَتْهُمُ السَّاعةُ بغتةً قالوا ياحسْرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوْزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون** (٣١)﴾ الأنعام .

وقال تعالى : ﴿**والذين كذبوا بآياتنا ولقاءِ الآخرة حبطت أعمالهم هل يُجزَوْن إلاَّ ما كانوا يعملون** (١٤٧)﴾ الأعراف .

وقال سبحانه : ﴿ **وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كُنَّا تُراباً أئنَّا لفي خَلْقٍ جديدٍ أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**(٥)﴾ الرعد .

فمن يكفر بالدار الآخرة وبما فيها من بعث وحساب وجزاء فهو من أشد الخاسرين في ذلك اليوم ، وهو من الذين حبطت أعمالهم ، فليس له عمل صالح يثاب عليه ، فهو من أهل النار الخالدين فيها أبداً .

فالإيمان باليوم الآخر ينطوي على الإيمان بعناصر رئيسية ثلاثة ، لابد من الإيمان بها جميعاً لأنها –كما مر سابقاً– فرع عن الإيمان بأصلها وهو اليوم الآخر ، وهذه العناصر هي :

الأول : الإيمان بالبعث والنشور وما يترتب عليه من حشر للمبعوثين على صعيد واحد ، وغير ذلك من أمور المحشر كالحوض والصراط... .

الثاني : الإيمان بحساب الخلائق أجمعين –بصفة عامة– على ما قدموه من أعمال ، وما يترتب على الحساب من وزن للأعمال الصالحة والسيئة ....

---

(١)- انظر تفسير فتح القدير،للشوكاني:جـ٣،ص : ٤٩٣-٤٩٤ .

الثالث : الإيمان بالجزاء على الأعمال ثواباً وعقاباً ، وهو عموماً مترتب على نتيجة حساب ووزن الأعمال ، والإيمان بما يتعلق بذلك الجزاء من الشفاعة والقصاص ونحو ذلك...

ولكون الجزاء هو الغاية من ذلك اليوم ، فإن من أشهر أسماء اليوم الآخر أنه : يوم الدين ، قال تعالى : ﴿ **الحمد لله رب العالمين** (٢) **الرحمن الرحيم** (٣) **مالك يومِ الدينِ**(٤) ﴾ الفاتحة .

(والدين : الجزاء ، يقال : كما تدين تدان ، أي : كما تجازي تُجازى .)[(١)].

فتسمية اليوم الآخر بأنه يوم الدين تسمية له بأهم ما سيقع فيه ، وهو : مجازاة كل عبد بما عمله في الدنيا . قال تعالى :

﴿ **يومئذٍ يوفيهم الله دينَهُمُ الحقَّ ويعلمون أن الله هو الحقُّ المبين** (٢٥) ﴾ النور .

أي يوفيهم : حسابهم وجزاءهم [(٢)].

وقال سبحانه : ﴿ **اليومَ تُجزى كلُّ نفسٍ بما كسبت لا ظلمَ اليومَ إنَّ الله سريعُ الحسابِ** (١٧) ﴾ المؤمن(غافر) .

ونظراً لهذه الأهمية لليوم الآخر ولما فيه من أمور تختم بالجزاء ، الذي هو الغاية التي تتم بها الحكمة من خلق الإنسان في هذه الحياة [(٣)]. ولعظم هذا الجزاء الذي لا يعلم مقداره إلا الله سبحانه سواء كان ثواباً أو عقاباً ، ولكونه أبديّاً ، ولكون الإيمان باليوم الآخر مع الإيمان بالله تعالى لهما أكبر الأثر في استقامة حياة الناس في هذه الحياة ، قال تعالى :

﴿ ...**ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر** ...(٢٣٢) ﴾ البقرة .

---

(١)- شرح العقيدة الطحاوية،لابن أبي العز الحنفي . ص: ٤٦٥ . وانظر التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ، لشمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري القرطبي .ص: ٢٦٠-٢٦١ .

(٢)- انظر التذكرة في أحوال الموتى،للقرطبي،ص: ٢٦١ .

(٣)- كما سيأتي بيانه فيما بعد . انظر الدليلين الثالث ، والرابع . الثالث من ص: ٧١ وما بعدها ، والرابع من ص: ١٠٩وما بعدها .

وقال سبحانه : ﴿ **لقد كان لكم في رسول ا للهِ أُسْوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجو ا لله واليومَ الآخِرَ و ذَكَرَ ا للهَ كثيراً** (٢١) ﴾ الأحزاب .

وفي المقابل فإن الكفر به ، كالكفر با لله تعالى له الأثر الكبير في فساد خلق الإنسان النفسي وسلوكه العملي ، قال جلّ شأنه : ﴿ **إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون با لله واليومِ الآخر وارتابت قُلُوبُهُمْ فَهُمْ في ريبهم يتردّدون** (٤٥) ﴾ التوبة [1].

نظراً لذلك كلّه جاء تقرير الإيمان باليوم الآخر وما فيه في القرآن الكريم بطرق شتى وأساليب متنوعة ، وفي مواضع كثيرة ، فمن تلك الطرق :

١- الإخبار عنه وعن وقوعه ، قال تعالى : ﴿ **ا لله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يَوْمِ القيامةِ لاَ رَيْبَ فيه ومن أصْدَقُ مِنَ ا للهِ حديثاً** (٨٧) ﴾ النساء .

٢- قرن الإيمان به بالإيمان با لله تعالى نفياً وإثباتاً ، وذلك في آيات كثيرة ، فالإثبات كقوله تعالى : ﴿ **... من آمن با لله واليومِ الآخر وعملَ صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولاهم يحزنون** (٦٢) ﴾ البقرة .

وقوله سبحانه : ﴿ **يؤمنون با لله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف ويَنْهَوْن عن المنكرِ ويسارعونَ في الخيرات وأولئك من الصالحين** (١١٤) ﴾ آل عمران .

والنفي كقوله جل شأنه : ﴿**...كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولايؤمن با لله واليومِ الآخر...** (٢٦٤) ﴾ البقرة .

وقوله سبحانه : ﴿ **قاتلوا الذين لايؤمنون با لله ولا باليوم الآخر** ...(٢٩) ﴾ التوبة .

٣- أمر النبي صلى ا لله عليه وسلم بأن يقسم على وقوعه لتأكيد حصول اليوم الآخر وحصول ما فيه من بعث ونشور وحساب وجزاء ، قال تعالى :

---

(١)- سيأتي الكلام عن آثار الإيمان بالجزاء الآخروي في الفصل الثالث : حكمة الجزاء الأخروي وأثر الإيمان به في النفس والسلوك انظر من ص: ١٢٨وما بعدها . وسيأتي كذلك الكلام عن آثار إنكاره في الفصل الرابع : المنكرون للجزاء الأخروي دوافع إنكارهم وآثاره عليهم ودحض شبهاتهم،انظر من ص: ١٤٤ وما بعدها .

﴿ **ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون إلاّ بما كنتم تكسبون** (٥٢) **ويستنبئونك أحقٌّ هُوَ قُلْ إِيْ وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وما أنتم بمعجزين** (٥٣) **ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض لافتدت به وأسرُّوا الندامة لما رَأَوُا العذاب وقضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون** (٥٤) ﴾ يونس.

وقال سبحانه : ﴿ **زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على ا لله يسير** (٧) ﴾ التغابن .

٤- عرض صور لما يحدث في اليوم الآخر سواء عند البعث أو الحشر أو الحساب أو في الجنة أو في النار ، وذلك في القرآن كثير جداً . قال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم : ((من سرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ ﴿ **إذا الشمس كوّرت** ﴾ و ﴿**إذا السماء انفطرت**﴾ و﴿ **إذا السماء انشقت** ﴾)) [(١)].

وكذلك من السور الأخرى سورة الواقعة والرحمن والغاشية وغيرها كثير .

٥- إقامة الأدلة على اليوم الآخر وعلى ما يقع فيه من جزاء [(٢)].

٦- ردشبهات المنكرين لليوم الآخر [(٣)].

وغير ذلك من طرق [(٤)].

---

(١)- رواه الترمذي عن ابن عمر رضي ا لله عنهما ، عارضه الأحوذي بشرح صحيح الترمذي لابن العربي المالكي : أبواب التفسير ، سورة ﴿إذا الشمس كورت ﴾ ،جـ١٢،ص : ٢٣٣ . وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب . وانظر في بيان هذا الحديث : التذكرة في أحوال الموتى للقرطبي،ص:٢٤٠ وما بعدها .

(٢)- سيأتي بيان مايتعلق من الأدلة بالجزاء الأخروي بإذن ا لله تعالى وذلك في هذا الفصل انظر من ص:٥٤ وما بعدها .

(٣)- سيأتي أيضاً بإذن ا لله الحديث عن الشبهات وذلك في الفصل الرابع : دوافع المنكرين للجزاء الأخروي ، وآثار إنكاره عليهم ودحض شبهاتهم. انظر من ص : ١٥٧ وما بعدها .

(٤)- انظر عقيدة المؤمن،لأبي بكر جابر الجزائري،ص : ٣٣١-٣٣٤.

أنواع الاستدلالات على ثبوت الجزاء الأخروي .

الاستدلال الأول : إخبار القرآن والسنة بوقوع الجزاء في الآخرة:

هذا النوع من الاستدلال إنما يستدل به على الذين آمنوا با لله تعالى وآمنوا برسوله صلى ا لله عليه وسلم وبما جاء به من ا لله سبحانه حق الإيمان بذلك ، فيكون ملزماً لهم فيجب عليهم الإيمان به ، لأن الخبر عن اليوم الآخر وعمّا يحدث فيه من أمور تختم بالجزاء هو من جملة ما ثبت يقيناً ، إذ إن النبي صلى ا لله عليه وسلم قد أخبر به عن ربه عز وجل أكمل إخبار وأوضحه . وعليهم أيضاً الإيمان بالكيفية التي أخبر ا لله بها عن ذلك الجزاء ، ولا يكون إيمانهم بالجزاء الأخروي ، ولاباليوم الآخر عموماً صحيحاً إن لم يؤمنوا بتلك الكيفية ، وذلك لثبوت النصوص التي ورد فيها الإخبار ووضوح وظهور دلالتها ، فلا يسع مؤمناً با لله حقًّا تأويلُ تلك النصوص بإخراجها عن دلالتها الأصلية وجعلها دالة على معاني لا علاقة لها بظاهر تلك النصوص ، فإن ذلك إمّا هو اتهام لله تعالى ولرسوله صلى ا لله عليه وسلم بعدم البيان الكافي والواضح لمسائل العقيدة التي هي المقصود الأول من الرسالة وهذا باطل ، وإما –وهو الواقع– تلاعب من قبل من يخرجون النصوص عن دلالتها ، ولا سيما في نصوص واضحة الدلالة كالنصوص التي تتحدث عن الجزاء الخروي وكيفيته[1]،وهؤلاء في حقيقة أمرهم لايعتبرون مؤمنين باليوم الآخر وما فيه من جزاء ، إذ لم يؤمنوا بالكيفية التي أخبر ا لله سبحانه عنها،قال جل شأنه في حق أهل الكتاب :

﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون با لله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم ا لله ورسولُه ولا يدينون دين الحقِّ من الذين أوتوا الكتاب حتَّى يعطوا الجزيةَ عنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ(٢٩)﴾ التوبة.

فأهل الكتاب على الرغم من أن كثيراً منهم لديه إيمان بيومٍ آخر يجازى فيه المرء على عمله فإن ا لله جل شأنه لم يعتبرهم مؤمنين به لما لديهم من تحريف في كيفية الجزاء في

---

(١)– سيأتي في الفصل الثاني من الباب الثالث : الرد على الفلاسفة المنتسبين للإسلام والذين أولوا النصوص الواردة في شأن إثبات الجزاء المادي ، وجعلوا الجزاء روحانيا فقط . انظر ص : ٧٣٢ وما بعدها.

ذلك اليوم [1]،ومن ذلك ظن معظمهم أن الثواب في ذلك اليوم روحاني فقط[2].

ثم إن الإخبار عن الجزاء الأخروي في نصوص الكتاب قد جاء في الغالب مقروناً بالإخبار عن كيفيته والتي هي بصفة عامة عبارة عن مجازاة المثابين بإدخالهم الجنة ، دار النعيم . ومجازاة المعاقبين بإدخالهم النار ، دار العذاب الأليم[3].

والنصوص التي تخبر بأنّه سبحانه سوف يجازي كل عاملٍ بحسب عمله ، فيجازي المطيع بالجنة والعاصي بالنار ، نصوص كثيرة جداً منها قوله تعالى :

﴿ **إليه مرجعكم جميعاً وَعْدَ ا للهِ حقًّا إنَّهُ يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ بالقسط والذين كفروا لهم شرابٌ من حميم وعذابٌ أليم بما كانوا يكفرون** (٤) ﴾ يونس .

وقوله سبحانه :

﴿ **ما عندكم ينفد وما عند ا للهِ باقٍ ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** (٩٦) **من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** (٩٧) ﴾ النحل .

وقوله جل شأنه :

﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرنّ عنهم سيّئاتهم ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون** (٧) ﴾ العنكبوت .

وقوله تبارك اسمه :

﴿ **فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون** (٢٧) **ذلك جزاء أعداء ا للهِ النَّارُ لَهُمْ فِيها دَارُ الخُلْدِ جَزَاءً بما كانوا بآياتنا يجحدون**(٢٨)﴾فصلت.

---

(١)- انظر تفسير التحرير والتنوير،لابن عاشور:جـ١٠ ، ص: ١٦٣ .

(٢)- انظر اليوم الآخر بين اليهودية والمسيحية والإسلام ، تأليف : فرج ا لله عبدالباري أبو عطا ا لله . ص: ٣٧٧-٣٩١ .

(٣)- انظر التذكرة في أحوال الموتى،للقرطبي ، ص: ٢٦١.

وقال صلى الله عليه وسلم : ((لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة فقال: انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، قال : فرجع إليه ، قال : فوعزتك ، لايسمع بها أحد إلاّ دخلها . فأمر بها فحفّت بالمكاره ، فقال : ارجع إليها فانظر إلى ما أعددتُ لأهلها فيها ، قال : فرجع إليها ، فإذا هي قد حفّت بالمكاره ، فرجع إليه فقال : وعزّتك، لقد خفت أن لايدخلها أحد . قال : اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، فإذا هي يركب بعضها بعضاً ، فرجع إليه فقال : وعزّتك لايسمع بها أحد فيدخلها، فأمر بها فحفّت بالشهوات ، فقال : ارجع إليها ، فرجع إليها ، فقال : وعزّتك، لقد خشيت أن لاينجو منها أحد إلاّ دخلها))[1].

وغير ذلك من نصوص كثيرة جداً في القرآن الكريم والسنة النبوية .

ومن طرق الإخبار عن حصول الجزاء الأخروي أنه وعدٌ من الله سبحانه ، ووعد الله جل شأنه لايمكن أن يتخلف فهو أمر مؤكد لا ريب فيه . قال تعالى :

﴿ **إنما توعدون لصادقٌ** (٥) **وإن الدين لواقع** (٦) ﴾ الذاريات .

والدين في مثل هذه الآيات هو الجزاء كما سبق بيانه[2].

وقال سبحانه :

﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً وعد الله حقاً ومن أصدق من الله قيلاً** (١٢٢) ﴾ النساء .

وقال تعالى :

﴿ **وَعَدَ الله المنافقينَ والمنافقاتِ والكفّارَ نارَ جَهَنَّمَ خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذابٌ مقيم** (٦٨) ﴾ التوبة .

ثم إنه ليس في إيقاع ذلك الجزاء أمر يصعب على الله سبحانه فعله بل هو أمر ممكن عليه تعالى ، إذْ غاية ما فيه ، إحياء الأموات بعد إعادة تركيب أجسادهم التي رمّت

---

(١)- رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه . عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي : أبواب صفة الجنة ، باب : ماجاء حفّت الجنّة بالمكاره وحفّت النار بالشهوات ، جـ١٠ ، ص: ٣٣-٣٤ . وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

(٢)- انظر ص:٥١ .

وتفتتت لينالوا جزاءهم ، وهذا أمر في غاية اليسر على ا لله جل شأنه ، وقد وعد بتحقيقه فلابد أن يحصل ، قال سبحانه :

﴿ يوم نطوي السماءَ كطيِّ السجل للكتب كما بدأنا أوّل خلقٍ نعيده وعْداً علينَا إنا كنّا فاعلين (١٠٤) ﴾ الأنبياء [(١)].

الاستدلال الثاني:

الجزاءالأخروي مقتضى كمال الأسماء والصفات الإلهية:

إن ا لله تعالى كامل في ذاته وكامل في أسمائه وفي صفاته ، وكماله سبحانه لا يستطيع أحدٌ أن يحدهّ أو يتصوره . ثم إن الكامل في أسمائه وصفاته لا يصدر عنه -لكماله- إلا الحق والحسن -البالغ الحسن- من الأقوال والأفعال[(٢)]، لأنه لو اعترى أفعاله أو أقواله جل جلاله شيء من الباطل لكان ذلك راجعاً -سبحانه وتعالى عن ذلك- إلى نقص في وصف من أوصافه ؟ إذ النقص لا يعتري إلا الناقص ، والكمال المطلق إنما اختص به الكامل في صفاته وفي أفعاله .

وإن كانت عقولنا البشرية -لقصورها- لا تستطيع الإحاطة بمقتضيات كمال أفعال ا لله تعالى فضلاً عن الحكم عليه سبحانه فيما ينبغي أن يفعله من الكمال ، إلاّ أنه سبحانه قد أودع فيها مقدرة التعرف على بعض ما يقتضيه كمال أسمائه وصفاته جل شأنه في أفعاله وأقواله من كمال وحق فإذا استطاع العقل الوصول إلى شيء من ذلك كان في هذا الذي وصل إليه دليل له على أن جميع أفعاله وأقواله أي : خلقه وأمره سبحانه إنما هو تابع لكمال أسمائه وأوصافه ، وهذا يعني أن خلقه وأمره جلّ شأنه إنما هو من الحق صدر وللحق يهدف . قال الإمام ابن قيم الجوزية : (ومن كان له نصيب من معرفة أسمائه الحسنى واستقرأ آثارها في الخلق والأمر ، رأى الخلق والأمر منتظمين بها أكمل انتظام ، ورأى سريان آثارها فيهما وعلم -بحسب معرفته- ما يليق بكماله وجلاله أن يفعله وما لايليق ، فاستدل بأسمائه على ما يفعله ومالا يفعله فإنه لا يفعل خلاف موجب حمده

---

(١)- انظر حاشية زين الدين قاسم الحنفي على المسايرة،للكمال بن الهمام ، ص: ٢١٢-٢١٤.

(٢)- انظر طريق الهجرتين وباب السعادتين ، لابن قيم الجوزية،ص: ٢٣٣-٢٣٤ .

وحكمته)[1].

وقال أيضاً رحمه الله :

(إحصاء الأسماء الحسنى والعلم بها أصل للعلم بكل معلوم فإن المعلومات سواه إما أن تكون خلقاً له تعالى أو أمراً ، إمّا علم بما كوّنه أو علم بما شرّعه ، ومصدر الخلق والأمر عن أسمائه الحسنى وهما مرتبطان بها ارتباط المقتضى بمقتضيه ، فالأمر كله مصدره عن أسمائه الحسنى ، وهذا يجعل أمره تعالى كله حسن إذ يرى فيه الحكمة ويُرى فيه المصلحة والرحمة واللطف والإحسان ، وكذلك فعله جل شأنه لا يخرج عن العدل والحكمة والمصلحة والرحمة ، إذ مصدره أسماؤه الحسنى ، فلا تفاوت في خلقه ولا عبث ، ولم يخلق خلقه باطلاً ولا سدى ولا عبثاً ...)[2].

بناءً على ذلك فإن الجزاء الأخروي مرتبط بأسمائه وصفاته تعالى ارتباط المقتضى بمقتضيه ، فالمؤمن بأسمائه وصفاته تعالى على الوجه الذي ينبغي لها لابد أن يدرك ما يستلزمه كمالها من الإيمان بالجزاء الأخروي ، فتكون دليلاً له مستقلاً على ذلك الجزاء ، وتكون مرسخة لاعتقاده بذلك الجزاء رسوخاً لا يعتريه شك ولا ريبة ، قال الإمام ابن قيم الجوزية .

(ولهذا كان الصواب أن المعاد معلوم بالعقل مع الشرع ، وأن كمال الرب تعالى وكمال أسمائه وصفاته تقتضيه وتوجبه ، وأنه منزه عما يقوله منكروه كما ينزه كماله عن سائر العيوب والنقائص .)[3].

وقال أيضاً :

(وهذا دليل مستقل لمن عرف الله تعالى وأسماءه وصفاته على وقوع المعاد وصدق الرسل فيما أخبروا به عن الله عنه[4]، فتطابق دليل العقل ودليل السمع على

---

(١)- طريق الهجرتين،ص: ٢٣٤ .

(٢)- انظر بدائع الفوائد:جـ١ ، ص: ١٦٣ بتصرف .

(٣)- الفوائد لابن قيم الجوزية،ص: ٧ ، وانظر ص: ١٦٦ .

(٤)- أي : عن المعاد .

وقوعه.)[1].

وفيما يلي بيان كيفية اقتضاء بعض صفات الكمال الإلـهية للجزاء الأخروي :

الأولى : صفة كونه عزّ وجلّ له الحمد :

في مقدمة الصفات الإلـهية التي سيتم بيانها -بإذن الله- صفة كونه تعالى له الحمد ، والحمد من أوسع الصفات وأعم المدائح . وطرق العلم به كثيرة ومتنوعة ، وذلك من خلال سائر أسمائه وصفاته تعالى ، ومن خلال شرعه وأحكامه وقدره ومخلوقاته وسائر أفعاله جل شأنه[2]. فالله سبحانه موصوف بعموم الحمد وذلك يستلزم (ألا يكون في خلقه وأمره مالا حكمة فيه ولا غاية محمودة يفعل لأجلها)[3].

وعلى ذلك فإن الله سبحانه إذا كان موصوفاً بالحمد المطلق على كل ما يفعله ، وكان جل جلاله محموداً على خلقه بني البشر وتكليفه إياهم لما في ذلك من الغايات الحميدة [4]، فإن من تمام حمده جزاء أولئك البشر على ما قدموه من أعمال بحسبها . قال سبحانه : ﴿ **وهو الله لا إله إلاّ هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون** (٧٠) ﴾ القصص .

فالله سبحانه له الحمد في هذه الدنيا [5] إذ خَلَقَ الخَلْقَ بالحق ، قال تعالى :

﴿ **الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدِلون** (١) ﴾ الأنعام .

وهو جل شأنه له الحمد في الدار الآخرة [6]، إذ تتحقق الغاية الحكيمة التي من أجلها

---

(١)- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل . ص: ٤٠٤ .

(٢)- انظر طريق الهجرتين،لابن قيم الجوزية ، ص: ٢٢٤ .

(٣)- شفاء العليل،لابن قيم الجوزية ، ص: ٣٦٩ .

(٤)- كما سيأتي بيانه عند الكلام عن الاستدلال الرابع من أدلة ثبوت الجزاء الأخروي . انظر من ص: ١٠١ وما بعدها .

(٥)- انظر تفسير فتح القدير الشوكاني:جـ٤ ، ص: ١٨٣ .

(٦)- انظر : المرجع السابق ، الموضع نفسه .

خَلَقَ الخَلْقَ ، حمداً يعترف به الخلق كلهم عند اكتمال تحقق تلك الغاية ، والتي هي الفصل بين الخلق والحكم لأهل الطاعة بالثواب والكرامة ، ولأهل المعصية بالعقاب والإهانة ، قال جل جلاله : ﴿ ... **وقُضي بينهم بالحقّ وقيل الحمد لله ربِّ العالمين** (٧٥) ﴾ الزمر [1].

الثانية : صفة القضاء بالحق وأنه جل شأنه خير الحاكمين وخير الفاصلين :

ومن صفات وأفعال الكمال الإلـهية المقتضية لوجود يومٍ آخر يقضى فيه بالحق بين الناس ويحكم فيه للمحسن بالفوز ، وللمسيء بالخسران كونه سبحانه يقضي بالحق وهو خير الحاكمين وخير الفاصلين ، وهذه الصفات تستلزم أن يقوم المتصف بها وهو الله جل جلاله بالحكم والقضاء بالحق بين خلقه ، اللّذين يُفصَل بهما بين من كان على الحق ومن كان على الباطل وبين المحسن والمسيء وبين الظالم والمظلوم ، وبالتالي يعطي كل امرئٍ الجزاء الذي يستحقه بحسب نتيجة ذلك الحكم والقضاء الحق . قال سبحانه : ﴿ ... **إن ربك يقضي بينهم يومَ القيامة فيما كانوا فيه يختلفون** (٩٣) ﴾ يونس وقال تعالى : ﴿**واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين**(١٠٩)﴾يونس .

وقال جل شأنه : ﴿ **الملك يومئذٍ لله يحكم بينهم فالذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ في جناتِ النعيم** (٥٦) **والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذابٌ مهينٌ**(٥٧)﴾الحج .

وقال جل جلاله :

﴿ **إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوسَ والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كُلِّ شيءٍ شهيد** (١٧) ﴾ الحج .

الثالثة : صفة الحكمة :

ومن صفات الكمال الإلـهية المقتضية للجزاء الأخروي صفة الحكمة ، وسيأتي بيان بعض أوجه اقتضاء تلك الصفة للجزاء الأخروي عند الكلام عن

---

(١)– انظر طريق الهجرتين،لابن قيم الجوزية ، ص: ٢٣٧ .

الاستدلالَيْن الثالث والرابع [1].

ويلزم من صفة الحكمة أن لايخلق الله الخلق عبثاً ، فقال الله عزّ وجلّ :

﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنّكم إلينا لا ترجعون** (١١٥) **فتعالى الله الملك الحقُّ لا إله إلا هو رب العرش الكريم** (١١٦) ﴾ المؤمنون .

ففي الآية الأولى يستنكر سبحانه على من زعم أنه جل شأنه خَلَقَ الخَلْقَ عبثاً ، وفي الآية الثانية يبين أنه سبحانه يتعالى عن ذلك الزعم الباطل ، إذ هو لايليق به بمقتضى ما قد ثبت له تعالى من أوصاف الكمال والتي منها - حسب ما جاء في الآية - :

الرابعة : صفة الملك :

أي : إنه سبحانه الملك الذي ليس له في الحقيقة شريك يملك في هذا الكون شيئاً معه أو من دونه قال جل شأنه : ﴿ **وقُلِ الحمد للهِ الذي لم يتخذ وَلَداً ولم يكن له شريكٌ في الملك ولم يكن له وليٌ من الذلّ وكبِّرْه تكبيراً** (١١١) ﴾ الإسراء .

وهذه الحياة الدنيا قد وجد فيها من آمن بهذه الحقيقة وعمل بمقتضاها ، ووجد فيها من أنكرها ولم يؤمن بها ، ولم يعمل بمقتضاها ، وإذا كان الأمر كذلك وكان سبحانه الملك الذي خضع له كل شئ فلابد أن يقيم يوماً آخر يجازي فيه بالإحسان من أقر له بحقيقة ملكه وعمل بمقتضى تلك الحقيقة ، ويجازي فيه بالإساءة من لم يثبت له هذه الحقيقة ولم يعمل بمقتضاها .

وارتباط الجزاء الأخروي بكونه سبحانه المالك وحده لجميع ما في الكون ، قد جاءت الإشارة إليه في القرآن الكريم أكثر من مرة، من ذلك قوله تعالى : ﴿ **وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله وهو الحكيم العليم**(٨٤) **وتبارك الذي له ملك السمٰوات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون** (٨٥) ﴾ الزخرف . وقد جاء قبل هاتين الآيتين تنزيه الله سبحانه عن أن يكون له ولد .

وقوله جل شأنه : ﴿ **و لله ما في السمٰوات وما في الأرض ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى** (٣١) ﴾ النجم .

---

(١)- انظر ص: ٧١ وما بعدها ، ١٠٩ وما بعدها .

الخامسة : صفة أنه جل شأنه الحق :

ومن الصفات التي دلت عليها آية (المؤمنون) التي سبق ذكرها : أنه جل شأنه الحق ، فهو سبحانه الحق في ملكه وفي أمره وفي نهيه وفي حكمه وفي جميع أفعاله ومن مقتضيات ذلك انتفاء العبث والباطل حتماً عن أيّ فعل من أفعاله ، وبالتالي فإنه سبحانه لا يترك عباده مهملين ، بل إن كونه سبحانه الملك الحق يقتضي أن يضبط أمور مملوكيه أكمل ضبط وأتمه وذلك بما يشرعه لهم من شرائع ، وبما يرتبه بعد ذلك من جزاء لمن التزم بتلك الشرائع ، ولمن خالفها، فهو سبحانه لا يترك المسيء بلا عقاب ولا يسوي المحسن بالمسيء، بل يثيب الطائع ويعاقب المسيء [(١)].

ومما جاء في بيان دلالة وصف الله سبحانه بكونه الحق على الجزاء الأخروي ، قوله تعالى : ﴿ **ذلك بأن الله هو الحقُّ وأنه يحي الموتى وأنه على كل شيء قديرٌ** (٦)﴾ الحج . وهذه الآية قد جاءت بعد قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة** ...(٥) ﴾ الحج .

قال الإمام ابن قيم الجوزية : (فكما أن ذاته الحق ، فقوله الحق ووعده الحق وأمره الحق وأفعاله كلها حق ، وجزاؤه المستلزم لشرعه ودينه ولليوم الآخر حق ، فمن أنكر شيئاً من ذلك فما وصف الله بأنه الحق المطلق من كل وجه وبكل اعتبار ، فكونه حقًّا يستلزم شرعه ودينه و ثوابه وعقابه . فكيف يظن بالملك الحق أن يخلق خلقه عبثاً ، وأن يتركهم سدى لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يثيبهم ولا يعاقبهم ؟!.) [(٢)].

وقال أيضاً رحمه الله : (فإن ملكه الحق يستلزم أمره ونهيه وثوابه وعقابه ، وكذلك يستلزم إرسال رسله وإنزال كتبه ، وبعث المعاد ليومٍ يجزى فيه المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته فمن أنكر ذلك فقد أنكر حقيقة ملكه ، و لم يثبت له الملك الحق ، ولذلك كان منكر ذلك كافراً بربه ، وإن زعم أنه يقر بصانع العالَم ، فلم يؤمن بالملك الحق الموصوف

---

(١)- سيأتي - بإذن الله تعالى - تفصيل هذا المعنى في الاستدلال الرابع ص: ١٠٩ وما بعدها .

(٢)- بدائع الفوائد،لابن قيم الجوزية : جـ٤ ، ص: ١٦٥ .

بصفات الجلال ، والمستحق لنعوت الكمال ...)[1].

السادسة : أنه عزّ وجلّ الإله الحق :

ومن الصفات التي دلت عليها كذلك آية (المؤمنون) : كونه سبحانه الإله المعبود بحق، فلاإله معبوداً بحق إلا ا لله سبحانه . ومن ثمّ فإن عبادة ما سواه عبادة باطلة ، وبما أنه قد وجد في هذه الحياة من يعبد الإله الحق وهو ا لله جل شأنه ، ومن يعبد غيرا لله من الآلهة الباطلة ، فمن مقتضيات كمال ألوهية الإله الحق جل جلاله أن يجازي من أخلص له العباده أحسن الجزاء ، وأن يجازي من لم يعترف له بالعبودية الحقة الجزاء الذي يستحقه من العقاب الأليم . وبما أن هذا الجزاء لم يتم في هذه الحياة كما هو مشاهد فلاشك في وجود يوم آخر - لا يعجز الإله الحق عن إيجاده - يتم فيه تحقيق الجزاء الأوفى ، ومن لم يثبت له جل جلاله تفريقه بين من آمن به ومن لم يؤمن به لم يثبت له كمال الألوهية اللائق به ، فإن (كونه تعالى الإله الحق يقتضى كمال ذاته وصفاته وأسمائه ووقوع أفعاله على أكمل الوجوه وأتمها .)[2].

السابعة : صفة الربوبية الكاملة :

وفي ختام آية (المؤمنون) يبين سبحانه أنه رب العرش الكريم ، والعرش هو أعظم المخلوقات فيستلزم كونه سبحانه رباً للعرش الكريم أنه رب لجميع ما دونه من المخلوقات، وهذا يشمل البشر جميعاً ، وكونه سبحانه ربهم يعني أنه خالقهم ورازقهم ومعينهم والمنعم عليهم بشتى ضروب الإنعام في جميع شؤون حياتهم ، فمن كان ربّاً كاملاً في ربوبيته لاشريك له فيها ، هل يليق به جل شأنه تصور أنه قد خلق الإنسان وأمده بمختلف احتياجاته ، ثمّ تركه دون أن يمده بأهم ما يحتاج إليه وهو منهج كامل يتربى ويسير على مقتضاه في حياته الدنيا ، منهج يكون مستتبعاً بجزاء يدفع الإنسان للالتزام والتمسك به ؟ فإن الإنسان كما هو مشاهد قد يتبع المنهج الرباني فتستقيم حياته،

---

(١)- التبيان في أقسام القرآن، لابن قيم الجوزية،ص: ١٠٢ . وانظر بدائع الفوائد له:جـ٤،ص: ١٦٥. وكذلك شفاء العليل له،ص: ٣٦٨ .

(٢)- بدائع الفوائد،لابن قيم الجوزية:جـ٤ ، ص: ١٦٥ .

وقد لا يتبعه فتفسد حياته ، وليس هذا فحسب بل إن الفساد الناتج عن مخالفته للمنهج الرباني يمتد ليشمل ما حوله . فلابد إذاً من وجود جزاء يثبّت المتمسكين بالمنهج الرباني على تمسكهم به ، لما يرجونه من الثواب العظيم ، كما يكون زاجراً لمن لا يزال لديه إيمان صحيح وخوف من الله ، ولكنه قد تحدثه نفسه بمخالفة المنهج الرباني بسبب شهوة عارضة أو نحو ذلك ، مما يجعله يتجنب تلك المخالفة بسبب ما يخشاه من العقاب الأليم إن هو اكتسبها ، وأما المعاند فإنه يكون مستحقاً للعقاب جزاء ما تسبب به من فسادٍ ناتج عن مخالفته للمنهج الرباني . وبما أن ذلك الجزاء – كما هو معلوم – ليس متحققاً بصورته المثلى في هذه الحياة ، فيلزم إذاً أن تكون هناك حياة أخرى يتحقق فيها على الوجه الأكمل [(١)]، ومما جاء في الإشارة إلى ارتباط تحقق الجزاء الأخروي بصفة الربوبية الكاملة لله عز وجل ، مع صفة الحمد له سبحانه ، قوله تعالى : ﴿ **فلله الحمدُ ربِّ السمٰوات وربِّ الأرض ربِّ العالمين** (٣٦) **وله الكبرياء في السمٰوات والأرض وهو العزيز الحكيم**(٣٧) ﴾ الجاثية . وهاتان الآيتان قد جاءتا تعقيباً على موقف الكافرين من يوم القيامة قبل مجيئه ، ثم موقفهم بعد حصوله وحصول ما فيه من جزاء . ذلك الموقف المذكور في الآيات السابقة لهاتين الآيتين وفي الآية الثانية ذكر سبحانه ثلاث صفاتٍ أخرى يتصف بها جل شأنه يقتضي كمال كل منها حصول الجزاء الأخروي .

الثامنة : صفة الكبرياء :

وهي الأولى من الصفات الواردة في آية الجاثية وهي صفة قد اختص سبحانه بالاتصاف بها ، ومن نازعه جل شأنه فيها عذبه [(٢)]. فهو تعالى المتكبر بحق ، ولاشك أن

---

(١)– انظر في بيان بعض ما دلت عليه آية المؤمنون من معاني:مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة،لابن قيم الجوزية:جـ٢،ص : ١٢، ٨٥ . و : التبيان في أقسام القرآن له،ص : ١٠١-١٠٢ . والفوائد له،ص:٧ . والعقيدة الإسلامية وأسسها؛عبدالرحمن حبنكه الميداني،ص: ٦٢٣-٦٢٤ .

(٢)– روى الإمام مسلم بسنده عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((العز إزاره والكبرياء رداؤه . فمن ينازعني عذبته)).شرح النووي على مسلم : كتاب البر ، باب تحريم الكبر، جـ١٦ ، ص: ١٧٣ ح:١٣٦ . قال النووي في شرحه ، عن الحديث أنه :=

الإله المتكبر بحق لا يمكن أن يستوي لديه حال من عبده وحال من تكبر عن عبادته ، واعتدى على مقتضى كبريائه وألوهيته ، بل إن مقتضى كمال كبريائه أن يُعِزّ من ذَلَّ له، وأن يذل من تكبّر عن عبادته ، وبما أن ذلك لا يقع في الدنيا فلاشك أنه يقع في دار أخرى يقيمها من لا يعجزه شيء .

التاسعة : صفة العزة :

وهي الثانية من الصفات الواردة في آية الجاثية وصفة العزة لله سبحانه هي أيضاً من نازعه فيها جل شأنه عذبه[1]، فدلالتها على الجزاء كدلالة صفة الكبرياء عليه .

والثالثة منها : صفة الحكمة ، وهي صفة سبق الإشارة إلى أن الحديث عنها سيأتي في الاستدلالين الثالث والرابع[2].

العاشرة : صفة العدل :

ومن صفات الكمال الإلهية المقتضية للجزاء الأخروي صفة العدل[3]. فالله جل شأنه متصف بكمال وغاية العدل ، والذي ينتفي معه أدنى مقدار من الظلم تجاه أي مخلوق لله سبحانه . وقد تكرر في القرآن الكريم بيان ذلك الانتفاء بأساليب منها قوله تعالى : ﴿ **إن الله لا يظلم مثقالَ ذَرَّةٍ** ...(٤٠) ﴾ النساء .

=(هكذا هو في جميع النسخ فالضمير في (إزاره) و (رداؤه) يعود إلى الله تعالى للعلم به . وفيه محذوف تقديره : قال الله تعالى ((ومن ينازعني ..)) . ومعنى ينازعني : يتخلق بذلك فيصير في معنى المشارك ، وهذا وعيد شديد في الكبر مصرح بتحريمه ..) . شرح النووي:جـ١٦ ، ص: ١٧٣ .

(١)- انظر التعليق السابق ، والحديث الذي ذكر فيه .

(٢)- انظر ص:٦٠-٦١ .

(٣)- يقول الإمام ابن قيم الجوزية في قصيدته الكافية الشافية :

والعَدْل من أوصافه في فعله ومقاله والحكم بالميزان .

توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن قيم الموسومة : بالكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية ، تأليف : أحمد بن إبراهيم بن عيسى . تحقيق : زهير الشاويش . جـ٢،ص: ٢٣٣. وسيأتي الكلام عن اتصافه تعالى بالعدل وانتفاء الظلم عنه سبحانه،انظر ص: ٢٣٨ وما بعدها.

ومنها قوله جل شأنه : ﴿ **إن ا لله لا يظلم الناسَ شيئاً**...(٤٤) ﴾ يونس .

ومنها قوله تعالى : ﴿ .. **ولا يظلم ربك أحداً** (٤٩) ﴾ الكهف .

ومما يدل على ارتباط الجزاء الأخروي بصفة العدل أو بكونه سبحانه منفيّاً عنه الظلم تماماً قوله تعالى : ﴿ **وماذا عليهم لو آمنوا با للهِ واليومِ الآخر وأنفقوا ممّا رزقهُمُ ا للهُ وكان ا للهُ بهم عليماً** (٣٩) **إن ا لله لا يظلم مثقال ذرةٍ وإن تك حسنة يضاعفها ويُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عظيماً** (٤٠) ﴾ النساء .

ففي الآية الأولى يستنكر سبحانه على من لم يؤمن به وباليوم الآخر ولم ينفق في سبيل ا لله ابتغاء مرضاته ، لا أن تكون النفقة رياءً وسمعة – وذلك أن الآية التي قبلها تتحدث عمن ينفق ماله رئاء الناس – ، ويبين جل شأنه في الآية الأولى وفي الآية الثانية صفتين من صفاته تقتضيان وجود هذا اليوم الآخر الذي يقع فيه الجزاء على الأعمال .

الحادية عشرة : صفة شمول علم الله سبحانه :

وهي الصفة الأولى من الصفتين اللّتين دلّ عليهما النصّ السابق من سورة النساء ، وشمول علم ا لله سبحانه لجميع أحوال العباد وأمورهم ، فلا يعزب عن علمه سبحانه شيء ممّا يجب الإيمان به . والإيمان بهذه الصفة إيماناً يقينياً صحيحاً يكون سبباً للإيمان باليوم الآخر وبما يقع فيه من جزاء ، كما أن الجهل بها أو عدم الإيمان الصحيح بها يكون سبباً لإنكاره . يقول تعالى في بيان جملة ما يُبكّت به الكفار يوم الدين ، ولاسيما بعد أن تشهد عليهم أيديهم وأرجلهم وجلودهم فيعاتبونها :

﴿ **وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن ا لله لا يعلم كثيراً مما تعملون** (٢٢) **وذلكم ظنّكُمُ الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين** (٢٣) ﴾ فصلت . فبين سبحانه أن ظنهم الكاذب أن ا لله تعالى لا يعلم كثيراً مما يعملون قد جعلهم لا يؤمنون بجزاء أخروي على أعمالهم ، وكان عاقبة ذلك الخسران المبين . ثم إن من آمن بأن ا لله سبحانه عليم بأفعال الظالمين ، وبأنها قبيحة، وبأن فيها اعتداء على حقه جل شأنه وعلى حقوق العباد . وآمن بأنه جل جلاله عليم بأفعال الطائعين ، وبما كان منهم من مخالفتهم لأهوائهم وشهواتهم ومجاهدتهم لأنفسهم

ومن حولهم في سبيل طاعتهم لربهم ، وبما نالهم في سبيل ذلك من الآلام التي جاءتهم من قبل المعتدين والظالمين - من آمن بأن الله سبحانه عليم بكل ذلك أكمل العلم وأحسنه، لزمه أن يؤمن بأنه جل شأنه لابد أن يجازي الجزاء الأوفى كلاً من الفريقين حسب أعمالهم . فإن العالِم المتصف بغاية العلم وكماله لاشك أن علمه ذلك سينتج عنه أعظم الفوائد والآثار الحسنة ، وإلا لم يكن علمه متصفاً بغاية الكمال والحسن ، والله سبحانه متصف يقيناً بصفة العلم أكمل اتصاف وأحسنه . ومن أعظم آثار علمه الشامل المصحوب بالقدرة التامة أنْ يجازي جلّ وعلا المحسن بالإحسان ، والمسيء بالعدل . فالإيمان الصحيح بصفة العلم الإلهي وبكمالها يستلزم الإيمان بما يقتضيه كمال تلك الصفة من إيقاع الجزاء الأوفى والمناسب لما قدمه الإنسان من عملٍ . وهذا الجزاء إن لم يتحقق في هذه الدار فلابد أن تكون له دار أخرى يتحقق فيه ، ويكون عندئذ جزاءً أخروياً .

والصفة الثانية التي يقتضي الإيمان بها الإيمان بالجزاء الأخروي ، والتي بيّنتها الآية الثانية من الآيتين اللتين سبق ذكرهما من سورة النساء[1] ، هي الصفة التي كان الحديث عنها سابقاً للحديث عن صفة العلم ، وهي : صفة كمال العدل الإلهي ، الذي لا يكون معه ظلم للعباد ولو بأدنى مثقال ذرة ، فإنه سبحانه منزه عن ذلك . والآية قد بينت أن المتصف بكمال العدل وغايته لا يمكن أن يترك المحسن بلا جزاء يناسب عمله ، بل هو سبحانه يجازيه بما يستحقه وفوق ذلك فإنه تعالى يتفضّل عليه ويضاعف له حسناته ويؤتيه من لدنه أجراً عظيماً لا نسبة بينه وبين ما قدمه . وعموماً فإن كونه سبحانه متصفاً بغاية العدل يلزم منه أن لا يتساوي المحسن والمسيء المساواة الكاملة [2]. والله أعلم .

الثانية عشرة : صفة الرحمة الإلهية :

ومن صفات الكمال الإلهية التي تجعل المؤمن بها يوقن بالجزاء الأخروي وبخاصة

---

(١)- انظر ص: ٦٦ - الآيتين الـ : ٣٩-٤٠ من سورة النساء .

(٢)- انظر لكثير مما سبق منذ بداية الحديث عن صفة العدل الإلهي : تفسير الطبري:جـ٥،ص: ٨٨-٨٩ . وتفسير ابن كثير:جـ١،ص: ٤٩٦-٤٩٧ .وفي ظلال القرآن،لسيد قطب:مج ٢،جـ٥،ص: ٦٦١ .والعقيدة الإسلامية وأسسها،لعبدالرحمن حبنكة الميداني،ص: ٦٠١-٦٠٢ .

جزاء الصالحين ، صفة الرحمة الإلـهية [(١)]. فهو سبحانه المتصف بكمال الرحمـة ، والمؤمـن حقًّا بتلك الرحمة الكاملة على الوجه الذي ينبغي لـها ؛ عندما يرى أولياء الله وقد نالـهم من العذاب والنصب في هذه الحياة الدنيا الشيء الكثير ، ثم يموتون علـى ذلـك ، لابـد أن يعتقد ذلك المؤمن بأنه سبحانه لكمال رحمته سوف يجازي بالإحسان عباده المؤمنين هؤلاء الجزاء الأوفى منّةً مِنْهُ سبحانه في يوم آخر يحقق فيه جل شأنه مقتضى تلك الرحمة الكاملة. قال تعالى :

﴿ **قل لمن ما في السمٰوات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمـةَ ليجْمعنّكـم إلى يومِ القيامة لا ريب فيه الذين خسروا أنفسهم فَهُمْ لا يُؤْمنون** (١٢) ﴾ الأنعام .

فمقتضى كمال الرحمة الإلـهية هو جمعه سبحانه العباد ليوم القيامـة حتـى يجـازي مـن أحسن الجزاء المناسب لعمله ، فلا يضيـع عليـه عملـه الصـالح [(٢)]. والخاسـر مـن لم يؤمـن بمقتضى تلك الرحمة ، والآية تذكر أنه سبحانه قد كتب على نفسه الرحمة وهذا لينتفي أي شك في شأن تحقيقه تعالى لمقتضيات رحمته ، والتي منها تحقيق الجزاء الأخروي ، وفي ذلك أيضاً تنبيه على أنه عزّ وجلّ هو وحده من يوجب على نفسه ويحرم علـى نفسـه إذ ليـس فوقه آمر ولا ناهٍ ، ولا يستطيع عقل من تلقاء نفسه أن يوجب ويحرم عليه جل شأنه .

الثالثة عشرة : صفته جل وعلا أنه ذو انتقام :

وفي مقابل صفة الرحمة المختصة بالمؤمنين ، كما قال سبحانه :

﴿ ... **ورحمتي وسعت كلَّ شيءٍ فسأكتبها للّذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون** (١٥٦) ﴾ الأعراف .

---

(١)- أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه - واللفظ للبخـاري - عـن الرسـول صلـى الله عليـه وسلم أنه قال : ((جعل الله الرحمة في مئة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين جـزءاً ، وأنـزل في الأرض جزءاً واحداً ، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلـق حتـى ترفـع الفـرس حافرهـا عـن ولدهـا خشـية أن تصيبـه)). والحديث سيأتي تخريجه في ٤٤٧ ، مع هامش : ١ .

(٢)- انظر في ظلال القرآن،لسيد قطب:مج٢، جـ٧،ص: ١٠٥٢ .

في مقابل هذه الصفة توجد صفة أخرى لله جل شأنه وهي : كونه تعالى ذا انتقام ، قال تعالى في بيان تلك الصفة البيان الذي يستنتج منه اقتضاؤها للجزاء الأخروي ، ولاسيما الجزاء بالعقاب : ﴿ **وقد مكروا مكرَهُمْ وعندا لله مكرُهم وإن كان مكرُهُمْ لِتَزُولَ منه الجبالُ** (٤٦) **فلا تحسَبَّن ا لله مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إن ا للهَ عزيزٌ ذو انتقامٍ**(٤٧)﴾ ابراهيم . فا لله جل جلاله ذو انتقام ممن كفر به و لم يؤمن به الإيمان الحق ، وجحد حقه في الأمر والنهي فمن آمن بهذه الصفة الإيمان الصحيح ، فسيجد أنها تقتضي وجود جزاءٍ أخروي يعاقب فيه من كفر با لله سبحانه وعصاه العقاب الذي يستحقه.

الرابعة عشرة : صفته تعالى أنه الصادق الوعد :

ومن صفاته تعالى أنه الصادق في الوعد ، وقد وعد أن يقيم الساعة ويجازي الناس بحسب أعمالهم ، وقوله الحق ووعده الصدق ، فلا يمكن بعد ذلك لمؤمن با لله سبحانه وبكمال صفاته أن يخطر بباله أدنى شك أو ريبة في شأن تحقق الجزاء الأخروي ، وإلاّ كان شكهُ هذا قادحاً في إيمانه با لله تعالى ، قال جل شأنه في بيان اقتضاء صدق ا لله في وعده لكون وقوع الجزاء الأخروي ممالا يتطرق إليه شك أو ريبة : ﴿ **ا لله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يومِ القيامةِ لا رَيْبَ فيه ومن أصدق من ا للهِ حديثاً** (٨٧) ﴾ النساء .

وقال تعالى : ﴿ **أولئك مأواهم جهنَّمُ ولا يجدونَ عنها محيصاً** (١٢١) **والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً وعد ا لله حقّاً ومن أصدق من ا لله قيلاً** (١٢٢) ﴾ النساء .

فالجزاء الأخروي وعد على ا لله حقٌّ لا يمكن أن يتخلف لأنه سبحانه الصادق في وعده وقوله . وهذا في الإثبات ، ويقول تبارك اسمه في النهي عن الظن بأنه سبحانه قد يخلف وعده : ﴿**فلا تحسبنَّ ا للهَ مُخْلِفَ وعده رُسلَه إن ا للهَ عزيزٌ ذو انتقامٍ**(٤٧)﴾إبراهيم.

ويعترف المؤمنون با لله حقّاً بأنه سبحانه لا يمكن أن يخلف ميعاده ، قال جل شأنه حاكياً مقالتهم :

﴿ **ربنا إنك جامع الناس ليومٍ لا ريب فيه إن ا للهَ لا يخلف الميعادَ** (٩) ﴾ آل عمران .

وقد ردّ جل وعلا على المنكرين للبعث الأخروي الجاحدين له ولما يحصل بعده

مؤكداً حصوله وأن ذلك وعد عليه يستحيل تخلفه ، في قوله تعالى :

﴿ **وأقسموا با للهِ جَهْدَ أيمانهم لا يبعث ا لله من يموت بلى وعداً عليه حقّاً ولكـن أكثر الناسِ لا يعلمونَ** (٣٨) ﴾ النحل .

الخامسة عشرة : صفة القدرة الرّبانيّة الكاملة :

ومن صفات الكمال الإلـهية التي يكون الإيمان بها حقّاً دافعـاً لأي شبهة قـد تعرض للإنسان في شأن تحقق اليوم الآخر وما فيه مـن بعـث للأجسـاد وإحيـاء للأمـوات وحشـر وحساب وجزاء ، هذه الصفة هي صفة القدرة الإلـهية الكاملة الـتي لا يعجزهـا شـيء ، والتي لا يلحقها أدنى نصب عند فعله تعالى لأي شيء .

هذه القدرة الرّبانيّة الظاهرة في هذا الوجود من آمن بها حق الإيمـان لـن يستبعد أي صورة يقررها جـل شأنه للجزاء الأخـروي ، وفي بيـان قدرتـه تعـالى علـى إعـادة الخلق لمجازاتهم على أعمالـهم قال جل جلاله :

﴿ **إلى ا للهِ مرجعُكم وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ** (٤) ﴾ هود .

وقال جل شأنه : ﴿ **قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بَـدَأَ الخَلْـقَ ثـم ا للهُ يُنْشِئُ النشأة الآخرة إن ا لله على كلّ شيء قديرُ** (٢٠) **يُعَذّب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون**(٢١) **وما أنتم بمعجزين في الأرضِ ولا في السماء وما لكم من دونِ ا للهِ من وَلِـيٍّ ولا نصيرٍ** (٢٢) ﴾ العنكبوت .

وهكذا فإن الدارس لو ذهب يستقصى أسماء ا لله الحسنى وصفاته العليا لوجدها جميعاً مقتضية ومستلزمة للإيمان بالجزاء الأخروي إيماناً يقينياً راسخاً[(١)] . وبناء على ما سبق فـإن الكفر باليوم الآخر وبما فيه من جزاء يلزم منه الكفر بذات الرب جـل شـأنه ، قـال الإمـام ابن قيم الجوزية في بيان ذلك : (... فمن أنكر ذلك – أي إثابة المحسن وعقاب المسيء في الآخرة – فقد أنكر إلهيته وربوبيته وملكه الحق ، وذلك عين الجحود والكفر به سـبحانه ،

---

(١)- ذكر الإمام ابن قيم الجوزية في كتابـه عـدة الصـابرين وذخـيرة الشـاكرين:اقتضـاء كمـال أسمـاء ا لله وصفاته للثواب والعقاب ، ونص على بعض الصفـات الـتي سـبق في هـذا الدليـل دراسـة اقتضائهـا للجـزاء الأخروي . انظر ص: ١٣٣ من ذلك الكتاب .

كما قال المؤمن لصاحبه الذي حاوره في المعاد وأنكره : ﴿ ... **أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً** (٣٧) ﴾ الكهف .

فأخبر أن إنكاره للمعاد كفر بذات الرب سبحانه ، وقال تعالى : ﴿ **وإن تعجبْ فعجبٌ قولهم أئذا كنَّا تراباً أئنَّا لفي خلقٍ جديدٍ أولئك الذين كفروا بربهم**...(٥)﴾الرعد .

وذلك أن إنكار المعاد يتضمن انكار قدرة الرب وعلمه وحكمته وملكه الحق وربوبيته وإلهيته ، كما أن تكذيب رسله وجحد رسالاتهم يتضمن ذلك أيضاً . فمن كذب رسله وجحد المعاد فقد أنكر ربوبيته سبحانه ونفى أن يكون رب العالمين)[١].

الاستدلال الثالث :

الجزاء الأخروي مقتضى الحكمة الإلهية في ابتلاء الإنسان :

قيام هذا الدليل والدليل الآتي على أساس صفة الحكمة الثابتة لله سبحانه :

إن الإيمان بالجزاء الأخروي يقوم على أساس الإيمان با لله عز وجل خالق هذا الكون والإيمان بأسمائه وصفاته . وقد سبق في الدليل الماضي بيان اقتضاء كثير من صفات الكمال الربّانية للجزاء الأخروي ، وسبقت الإشارة إلى أن صفة الحكمة الربانية سوف يتم التوسع في بيان اقتضائها للجزاء الأخروي في هذا الدليل والدليل القادم بإذن ا لله تعالى[٢].

ومن خلال عرض هذين الدليلين سوف يتبين أن صفة الحكمة الإلهية البالغة أساس يقوم عليه هذان الدليلان ومصداق هذا في قوله تعالى : ﴿ **فما يكذبك بعد بالدين** (٧) **أليس ا لله بأحكم الحاكمين** (٨) ﴾ التين .

قوله :﴿**أحكم**﴾ يجوز أن يكون مشتقاً من الحكم وهو القضاء بين الناس ، فيكون في هذا الدليل على أن ثبوت كمال صفة الحكم لله سبحانه يقتضي ثبوت الجزاء الأخروي وصفة الحكم الثابتة لله عز وجل قد سبقت دراستها وبيان اقتضائها للجزاء الأخروي في

---

(١)- المرجع السابق ص: ١٣٣-١٣٤ .

(٢)- انظر ص : ٦٠-٦١ .

الدليل الماضي[1].

ويجوز أن يكون قوله ﴿**أحكم**﴾ مشتقاً من الحكمة[2]، والمعنى : أن اتصافه سبحانه بغاية الحكمة وكمالها في جميع أحكامه وأقضيته ؛ يستلزم أن لا يكون لدى الإنسان أدنى شك في تحقق الجزاء الأخروي .

وكلا التقديرين ليس الاستدلال فيهما عن طريق الخبر المحض ، بل هو استدلال عن طريق العقل الذي طلب منه التفكر والتدبر للوصول إلى حقيقة ثبوت الجزاء الأخروي بناءً على ثبوت صفات الكمال لله سبحانه .

والحكمة-على وجه العموم- تعني : وضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها . وهي بناءً على ذلك تتضمن ما في أفعال الله تعالى وأقواله من العلل والغايات الحميدة التي يتبين بها أن هذا الأمر المعين من قول أو فعل قد وضع في موضعه الملائم له . ومعنى كون تلك الغايات والعلل حميدة أي أنها تكون سبباً لحمد الرب جل شأنه[3].

وإثبات الحكمة لله سبحانه يكون بالنظر والتفكر في مخلوقات الله تعالى علويها وسفليها صغيرها وكبيرها ، وإدراك ما في كل مخلوق خلقه الله جل شأنه من حكمة باهرة وغاية حميدة سواء في الكيفية التي خلقه الله تعالى بها أو في مكانه الذي خلقه فيه أو في زمانه الذي أوجده فيه ، قال تعالى : ﴿ ...**صنع الله الذي أتقن كُلَّ شيءٍ إنه خبير بما تفعلون** (٨٨) ﴾ النمل .

ومهما تفكر الإنسان وبحث ونقب في هذا الكون فإنه لن يجد في شيء مما خلقه الله سبحانه أي فطور أو خلل أو فساد . قال جل جلاله : ﴿ **الذي خلق سبع سموات طباقاً ماترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور** (٣) **ثم ارجع البصر كرّتين ينقلب إليك البصرُ خاسئاً وَهُوَ حَسِيرٌ** (٤) ﴾ الملك .

---

(١)- انظر ص : ٦٠ .

(٢)- انظر في بيان جواز المعنيين في قوله ﴿**أحكم**﴾ تفسير التحرير والتنوير،لمحمد الطاهر بن عاشور . جـ٣٠ ، ص: ٤٣١ .

(٣)- سيأتي مزيد بيان للمعنى الصحيح لصفة الحكمة ، مع الرد على التفسيرات غير الصحيحة لها ، انظر ص: ٢٢٧ وما بعدها . وانظر شفاء العليل،لابن قيم الجوزية،ص: ٣٣٤ .

فإذا حصل للمرء الإيمان بحكمة ا لله سبحانه البالغة في الوجود كله[1] قاده ذلك إلى أنّه تعالى لابد أن تكون له حكمة بالغة من خلق هذا الإنسان ، بل إن الحكمة من خلق الإنسان لابد أن تكون أظهر وأعظم من سائر الحكم ، لأن الإنسان كما هو معلوم أرقى الكائنات المشاهدة ، وقد أثبت ذلك سبحانه بقوله : ﴿ **ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البَرِّ والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً**(٧٠)﴾الإسراء.

وإثبات الحكمة لله سبحانه يقتضي انتفاء العبث والباطل عن جميع أفعاله وأقواله جل شأنه فإذا انتفى العبث والباطل انتفاءً كليًّا فإن الوصف الذي يليق أن توصف به أفعال الرب وأقواله هو : الحق ، إذ الحق في اللغة نقيض الباطل [2].

وقد جاء في الكتاب العزيز بيان أن خلق ا لله سبحانه للسماوات والأرض وما بينهما إنما هو بالحق فلا مجال لتصور اللّعب أو العبث أو الباطل في أي فعل من أفعاله تعالى أو في أي قول من أقواله إذ ورد ذلك البيان في القرآن بطرق متعددة :

منها : صيغة الإخبار المباشر من قبل ا لله سبحانه ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ **وهو الذي خلق السمٰوات والأرض بالحقّ...**(٧٣) ﴾ الأنعام .

وقوله جل شأنه : ﴿ **وما خلقنا السمٰوات والأرضَ وما بينهما لاعبين** (٣٨) **ما خلقناهما إلاّ بالحقِّ ولكن أكثرهم لايعلمون** (٣٩) ﴾ الدخان .

ومنها **:** صيغة الإخبار على لسان أولياء ا لله الذين آمنوا بهذه الحقيقة بعد أن تدبّروا وتفكّروا في هذا الكون الذي خلقه ا لله سبحانه ، قال تعالى على لسان أولئك الذين سماهم : أولي الألباب-(أي: العقول التامة الزّكية التي تدرك الأشياء بحقائقها على جليَّاتها)[3] :

---

(١)- توسع الإمام ابن قيم الجوزية في بيان الكثير من حكم ا لله سبحانه في كثير من مخلوقاته وذلك في كتابه : مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة،انظر : جـ :١، ص : ٢٠٦ وما بعدها .

(٢)- انظر لسان العرب،مادة (حقق)،جـ١١ص٣٣٢.

(٣)- تفسير ابن كثير:جـ١،ص:٤٣٨ .

﴿ **إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآياتٍ لأولي الألباب**(١٩٠) **الذين يذكرون ا لله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلقِ السمٰوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار**(١٩١)﴾آل عمران .

فمن تفكر في خلق السماوات والأرض وتدبر ما فيهما من بديع صنع ا لله سبحانه وإتقانه واستطاع الوصول إلى بعض حكم ا لله سبحانه في مخلوقاته تيقن من حقيقة أنه سبحانه لم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً وإنما خلق ذلك كله بالحق .

وعلى النقيض من موقف أولياء ا لله يكون موقف أعداء ا لله سبحانه من الكفار الذين لم يَقْدُروا ا لله حق قدره فظنوا أنه سبحانه قد خلق الخلق عبثاً وباطلاً لا لحكمة ولا لغاية.

قال تعالى : ﴿ **وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار** (٢٧) ﴾ ص[(١)].

وهؤلاء الذين أنكر ا لله عليهم ظنهم الفاسد هذا قد طالبهم في كتابه العزيز بالتفكر في خلق الإنسان في ذاته ، والتدبّر في منافع أعضائه وما في خلقها بالصورة التي خلقت عليها وبالمكان الذي وضعت فيه من حكمة وغاية عظيمة . فإذا استطاع الإنسان إدراك أنه لايوجد في جسده شيء قد خلق عبثاً أو باطلاً ، بل كل شيء خلقه ا لله في جسده إنما خلقه بالحق تمكّن من أن يعمّم هذه الحقيقة على جميع ما في الكون إما بالقياس أو بالتدبّر والدراسة فيدرك أنه سبحانه ما خلق هذا الكون كله بسماواته وأرضه وما بينهما إلا بالحق . قال تعالى : ﴿ **أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق ا لله السمٰوات والأرض وما بينهما إلا بالحق ...**(٨) ﴾ الروم[(٢)].والإنسان لابد أن يصل إلى هذه النتيجة ولكن بشرط أن يتفكر ويتدبّر بتجرد عن أيّ هوى أو شهوة .

---

(١)- انظر شفاء العليل،لابن قيم الجوزية،ص٣٣٣-٣٣٤. وبدائع الفوائد،جـ٤ص:١٦٦ . وانظر : مبحث دوافع إنكار الجزاء الأخروي،ص: ١٤٠ .

(٢)- انظر في ظلال القرآن،لسيد قطب:مج ٥ ، جـ٢١ ص: ٢٧٥٩-٢٧٦٠. و : تفسير التحرير والتنوير،لابن عاشور:جـ٢١ ص:٥٢-٥٤ .

ومن طرق إثبات حقيقة خلقه سبحانه السماوات والأرض بالحق ، بيان شيء من الحكم في بعض مخلوقات الله تعالى ليكون ذلك البيان دافعاً للبشر إلى التعرف على المزيد من الحكم العظيمة في سائر مخلوقات الله جل شأنه ، ليؤمنوا بعد ذلك إيماناً جازماً بتلك الحقيقة . ومما جاء في القرآن إيضاحاً لهذه الطريقة : قوله سبحانه : ﴿ **هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ماخلق الله ذلك إلا بالحق يفصّل الآيات لقومٍ يعلمون** (٥) ﴾ يونس .

فهنا يبين جل جلاله بعض الحكم الباهرة في خلقه للشمس والقمر ، وعلى المرء أن يقوم باستكشاف المزيد من تلك الحكم ليصل إلى اليقين بكونه سبحانه لم يخلق السماوات والأرض - بما في ذلك الإنسان - وما بينهما إلا بالحق(١) .

وفي هذا الدليل والدليل الآتي سوف يتبين-بإذن الله تعالى-أن الحكمة من خلق الإنسان هي ابتلاؤه بما وهبه الله وما أحاطه به من عوامل كانت هي دليل حقيقة الابتلاء، ثم إنه سبحانه إذ ابتلى الإنسان فقد كلفه بمنهج يسير على وفقه ليجتاز مرحلة الابتلاء ولكن الحكمة لاتكتمل بالوقوف على مجرد كون الإنسان مبتلى مكلفاً ، وإنما تكتمل عندما يكون هذا الابتلاء والتكليف مستتبعاً بالجزاء .

وفيما يلي إيضاح الدليل الثالث وهو : أن الجزاء الأخروي مقتضى الحكمة الربّانية في ابتلاء الإنسان ويتلوه بإذن الله إيضاح الدليل الرابع .

الابتلاء : تعريفه، والبيان الإجمالي لكونه الحكمة من خلق الإنسان، ولضروبه وعوامله :

الابتلاء : أصله من البلاء ، وكلاهما يأتي على معنى : الاختبار والامتحان والتجريب يقال : بَلَوْت الرجل بلْواً وبلاءً وابتليته : اختبرته ، وبلاه يبلوه بلواً : إذاجرّبه . ويقال : ابتلاه الله وبلاه ، أي : اختبره وامتحنه . والابتلاء والبلاء يكونان في الخير

---

(١)- انظر في ظلال القرآن ، مج ٣،ج ١١ص ١٧٦٤-١٧٦٧.و: تفسير التحرير والتنوير: جـ١١،ص ٩٦-٩٨ .

والشر[1].

قال تعالى : ﴿ **وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم** (١٦٥) ﴾ الأنعام.

أي : (ليختبركم فيما أنعم عليكم من النعم المختلفة ، فيتبين من يطيع ا لله فيها ومن يعصيه ويستخدم نعمه تعالى فيما لايرضي ا لله)[2].

وهناك تعبير آخر ورد في القرآن يحمل هذا المعنى نفسه الذي حمله تعبير الابتلاء أو البلاء ، ذلك التعبير هو : الفتنة . فالفتنة من معانيها اللغوية: الاختبار والامتحان[3].وقد وردت في القرآن بهذا المعنى في مواضع ، وذلك في مثل قوله تعالى : ﴿ **واعلموا أنَّمَا أَمْوَالُكُم وأولادكم فتنةٌ وأن ا لله عنده أجْرٌ عظيمٌ** (٢٨) ﴾ الأنفال .

قال الإمام الطبري في بيانه لمعنى الآية الكريمة : (يقول تعالى ذكره للمؤمنين : واعلموا أيها المؤمنون أنما أموالكم التي خولكموها ا لله ، وأولادكم التي وهبها ا لله لكم اختبار وبلاء أعطاكموها ، ليختبركم بها ويبتليكم ، لينظر كيف أنتم عاملون من أداء حق ا لله عليكم فيها ، والانتهاء إلى أمره ونهيه فيها ...)[4].

وسيتضح من خلال عرض هذا الدليل-بإذن ا لله- أن الابتلاء يمكن اعتباره الحكمة الأولى من خلق الإنسان في هذه الحياة ، تلك الحكمة التي سيترتب عليها حكم أخرى ، أهمها - كما سيتبين - الحكمة التي هي الغاية لما سبقها من الحكم وهي : جزاء الإنسان على ما قدمه من عمل في مدة ابتلائه . وقد ثبت في القرآن أن الابتلاء هو الحكمة العامة من خلق الكون وخلق الحياة الدنيا ، ولكن الذي تتحقق في خلقه تلك الحكمة بصفة خاصة هو : الإنسان[5]. قال تعالى في بيان ذلك : ﴿ **وهو الذي خلق السمٰوات والأرض في ستة أيّامٍ وكان عرشه على الماءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أحسن عملاً** ...(٧) ﴾ هود .

---

(١)- انظر لسان العرب،مادة (بلا)،جـ٨،ص ٩٠ .

(٢)- تفسير الطبري:جـ٨،ص : ١١٤ .

(٣)- انظر لسان العرب،مادة (فتن)،جـ١٧،ص: ١٩٢ .

(٤)- تفسير الطبري:جـ٩،ص: ٢٢٤ .

(٥)- ويشارك الإنسان في ذلك الابتلاء الجن ، وسيأتي الكلام عنهم،انظر ص: ٦٠٠ وما بعدها .

وقال جل شأنه في بيان أنه ما خلق الإنسان في هذه الحياة إلا ليبتليه :

﴿ **هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً** (١) **إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً** (٢) ﴾ الإنسان .

ولأن الإنسان إنما هو مبتلى في هذه الحياة ، فإن الحكمة تقتضي أن يكون لهذا الابتلاء والامتحان غاية يتبين بعدها للإنسان نتيجة ما قدمه من عمل . من أجل ذلك لم تكن حياة الإنسان في هذه الدنيا خالدة ، بل هي حياة محدودة بمدة معينة تنتهي بموت الإنسان ، هذا الموت الذي هو عبارة عن نهايةٍ لمرحلة سابقة ، وتمهيد لمرحلة قادمة . قال جل شأنه : ﴿ **الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور**(٢) ﴾ الملك .

فالحياة هي المدة الزمنية التي يبتلى فيها الإنسان ، وبالموت تنتهي تلك المدة ، وبعد الموت يكون الجزاء على ماقدم الإنسان من عمل في مدة ابتلائه [(١)]. وا لله سبحانه عزيز قادر على معاقبة من يستحق العقوبه وأما من آمن وأصلح العمل في مدة ابتلائه ، ولكنه صدرت منه بعض المخالفات ، فإنه سبحانه غفور يتفضل عليه إن شاء فلا يؤاخذه بتلك المخالفات . قال الإمام ابن قيم الجوزية :

(وأخبر ... أنه خلق الموت والحياة ليبتليهم أيضاً ، فأحياهم ليبتليهم بأمره ونهيه ، وقدر عليهم الموت الذي ينالون به عاقبة ذلك الابتلاء من الثواب والعقاب)[(٢)].

هذا هو البيان الإجمالي لكون الابتلاء هو الحكمة من خلق الإنسان ، ولكونه يقتضي حكمة أخرى هي ترتب الجزاء على الكائن المبتلى ، وأما تفصيل ذلك فإنه يحتاج إلى بيان ضروب ثلاثة للابتلاء ، كل ضرب هو في الأساس عبارة عن عامل من العوامل الدالة – سواء كانت منفردة أو مجتمعة– على كون الإنسان مبتلى في هذه الحياة . ثم بيان أن ثبوت الابتلاء في حق الإنسان يقتضي ترتب الجزاء عليه ترتباً ضرورياً ، وذلك يعني أن كل ضرب من تلك الأضرب هو في نتيجته يدل على وجوب تحقق الجزاء الأخروي .

---

(١)– انظر القضاء والقدر في الإسلام ، تأليف : فاروق أحمد الدسوقي . جـ١ (في القرآن الكريم والسنة)، ص : ١٥٩ – ١٦٠ . وانظر تفسير التحرير والتنوير: جـ٢٩،ص: ١٣ .

(٢)– شفاء العليل،لابن قيم الجوزية،ص: ٦٦ .

وأضرب الابتلاء التي سيتم بيانها هي :

الضرب الأول : ابتلاء الله للإنسان بصفاته التكوينية الخاصة.

الضرب الثاني : ابتلاء الله للإنسان بتسخير الكون له .

الضرب الثالث : ابتلاء الله للإنسان بانقسام الوجود -بالنسبة إليه- إلى غيب وشهادة .

وفيما يلي تفصيل القول في كلٍّ منها :

الضرب الأول : ابتلاء الله للإنسان بصفاته التكوينية الخاصة :

لقد خلق الله جل شأنه الإنسان وأنعم عليه بأن أودع فيه جملة من الخصائص والصفات النفسية والجسدية ، التي ميزه بها على سائر مخلوقاته المشاهدة ، وهي صفات يمكن لأي إنسان أن يتدبرها ويتدبر الغاية التي خلقت من أجلها سواء كان هذا التدبّر من خلال نفسه أوْمن خلال الآخرين من حوله .

١) فالمتدبر يرى أنه سبحانه قد وهب هذا الإنسان لبًّا يفكّر به في مختلف الأشياء من حوله، ويستنبط من خلال تفكيره أموراً أخر . ويدرك به عواقب الأمور وغايات الأشياء.

٢) ويرى المتدبر في النفس الإنسانية أنها قد أُلهمت إدراك وجود طريقين للخير والشر وذلك في مسيرة حياة الإنسان . ويرى كذلك أنها قد ألهمت الكثير من معالمهما ، وأن لديها المقدرة على التمييز بين الخير والشر في كثير من الأمور المتقابلة .

٣) ثم إن الإنسان لو تدبّر في ذاته حق التدبّر لأدرك أن في أعماق نفسه فطرة صالحة خيّرة تتجه نحو الحق والخير .

٤) وبجانب هذه الفطرة هناك أهواء وشهوات للإنسان ليس لها ضابط غرزي ، وإنما ضابطها العقل وإرادة الإنسان الجازمة ، فإن لم تضبط بهما أدت إلى شرور عظيمة .

٥) ويجد الإنسان من خلال تدبّره في نفسه أنه حرٌّ مختار في بعض تصرفاته وسلوكياته، مجبر في أحوال أخرى .

٦) ثم إن المجال الذي ترك فيه للإنسان حرية الاختيار ، هو مجال أعماله التي توصف بكونها خيراً أو شراً والتي يكون الإنسان مسؤولاً عنها .

٧) وأيضاً فإن المتدبّر للإنسان يرى أن كثيراً مـن أعمالـه الاختياريـة الظـاهرة هـي في حقيقة أمرها نابعة من صفة نفسية يتصف بهـا الإنسـان ، وهـذه الصفـة قـد تكـون خـيرّة فيكون الفعل النابع منها خيراً ، وقد تكون شريرة فيكون الفعل النابع منها شراً ، ومجموع هذه الصفات هي ما يسمَّى بالأخلاق .

٨) وأيضاً فإن كثيراً من الدارسين للنفس الإنسانية قد أثبتوا أنها تحتـوي – ولا سيما إذا كانت أكثر بعداً عن اعتياد الإثم والمعاصي – تحتـوي علـى مـا أسمـوه ضمـيراً خلقيّـاً ، وهذا الضمير الخلقي يحاسب صاحبه على ما قد يرتكبه من أفعال سيئة [(١)].

٩) وأما بالنسبة لصفات الإنسـان الجسـدية فإنـه بالمقارنـة بينهـا وبـين مثيلاتهـا لـدى الحيوانات الأخرى ، يتبين أنه وإنْ وجد تشابه بينهما ، إلا أن الإنسان يتميز في كون جميع صفاته الجسدية قد خلقت في أحسن تقويم وأحسن هيئة وشكل ، بحيث تسـاعد الإنسـان في أداء أعماله اللائقة والخاصة به الأداء التام والمناسب لتلك الأعمال على الوجه الأكمل، فالإنسان إذاً مخلوق لله قد خلقه سبحانه متميزاً عن كثير ممن خلـق بمـا سـلف ذكـره مـن صفات نفسية ومن تقويم جسدي .

وهذه الأمور التي ميّز الله بها الإنسان قد جاء بيانهـا في النصـوص الشـرعية ، وذلـك بأسلوب يتضح من خلاله أنه سبحانه ما ميز الإنسـان بهـذه الأمـور إلاّ ليبتليـه بهـا ابتـلاءً يترتب عليه مجازاة الإنسان على ما عمله في مدة ابتلائـه . فهـو سبحانه يمـتن علـى النـاس بإعطائهم أداة التفكير والتدبر ، ومن أسمائها في القرآن : القلب قال جل شأنه :

﴿ **إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيدٌ** (٣٧) ﴾ ق .

قال الطبري : (القلب في هذا الموضع : العقل) [(٢)].

وقال تعالى :﴿**أفلم يسيروا في الأرض فتكونَ لـهم قلوب يعقلون بها...**(٤٦)﴾الحج.

وقال الإمام ابن قيم الجوزية :

(إن القلب يطلق على معنيين : أحدهما : حسي ، وهو العضـو اللحمـي الصنوبـري الشكل ، المودع في الجانب الأيسر من الصدر ... ، والثاني : أمـر معنـوي ، وهـو لطيفـة

---

(١)- انظر دستور الأخلاق في القرآن ، لـ : محمد عبدا لله دراز . ص: ٢٣ وما بعدها .

(٢)- تفسير الطبري:جـ ٢٦،ص: ١٧٧ .

ربانية رحمانية روحانية لها بهذا العضو تعلق واختصاص ، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسانية)[1] .

ثم إن أداة التفكر والتدبر التي وهبها ا لله سبحانه للإنسان أداة خطيرة ، إذ هي قد تفكر وتدبر فينشأ عنها إما خيرات عظيمة وإما شرور هائلة ، وهذا أمر يدركه المؤمن والملحد ، ولكن المؤمن يدرك أن أعظم استخدام لهذه الأداة هو استخدامها في مجال التفكر في آيات ا لله الكونية والقولية للوصول إلى الإيمان به سبحانه الإيمان الصحيح ، فطاعته جل جلاله وتنفيذ أوامره ونواهيه . إلا أن الإنسان–بصفة عامة–قد يستخدم تلك الأداة للوصول إلى ذلك الإيمان ، وقد لا يستخدمها مطلقاً في هذا المجال ، بل هو إما أن يحجبها عنه ، وإما أن يستخدمها في المجال المناقض له ، فيستخدم عقله في محاربة الدعوة إلى الإيمان با لله تعالى وطاعته . والعياذ با لله ! .

بناءً على ذلك فإن الإنسان إذا أقر بأن ا لله سبحانه هو خالق هذا الكون ، وهو من وهبه هذه الأداة ، فإنه لابد أن يستنتج أنه جل شأنه ما وهب الإنسان تلك الأداة الخطيرة إلا ليبتلي ويختبر استخدامهُ لها ، هل يكون وفق منهج ا لله أو مخالفاً له .

وهذا ما دلت عليه النصوص ، إذ بينت أن الذين يستخدمون أداة التفكير – القلب – التي وهبهم ا لله إياها في المجال الصحيح من الذين يستحقون المدح ، فهم من الموصوفين بأنهم أولو الألباب وبأنهم الذين يعقلون ، وبأنهم الأحياء – أي : أحياء القلوب – ، وذلك لأنهم استفادوا حقّاً من هذه المنحة الربانية إذ استخدموها في المجال الصحيح ، وفيما يعود عليهم بأعظم النفع . وأما الذين لا يستخدمون عقولهم وقلوبهم في التفكر في آيات ا لله ولا توصلهم تلك القلوب إلى الإيمان الصحيح با لله تعالى ، فطاعته جل شأنه ، قد ذمهّم سبحانه بأنهم أموات – أي : أموات القلوب – ، وذمهم بأنهم لا يعقلون ولا يفقهون ... إلى غير ذلك من عبارات الذمّ الدالة على أن تلك الأداة وإن كانت موجودة لديهم ، إلا أنهم عندما لم يستخدموها في مجال التفكر في آيات ا لله ، ولم تهدهم إلى الإيمان بربهم سبحانه ، فقد فقدت تلك الأداة فائدتها ، وأصبحت أداة ميتة كأنها لا وجود لها أصلاً .

---

(١)– التبيان في أقسام القرآن،لابن قيم الجوزية،ص: ٢٦٣ .

واستحقاق المرء للمدح أو الذم نتيجة استخدامه لتلك الأداة يدل على أن إعطاءه إياها كان على سبيل الاختبار والابتلاء . قال سبحانه في شأن من يستفيدون من منحة العقل : ﴿ **إن في خلق السمٰوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب**(١٩٠) ﴾ آل عمران .

وقال تعالى : ﴿ **وسخر لكم الليل والنهارَ والشمسَ والقمرَ والنجومُ مسخراتٌ بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون** (١٢) ﴾ النحل .

وقال جل شأنه : ﴿ **وما علّمناه الشعر وما ينبغي له إنْ هُوَ إلاّ ذكرٌ وقرآن مبين**(٦٩) **لينذر من كان حيّاً ويَحِقَّ القولُ عَلى الكافرين** (٧٠) ﴾ يس .

قال الإمام الطبري في بيانه لمعنى الآيتين : (يقول : إن محمد إلا ذكر لكم لينذر منكم -أيها الناس- من كان حيّ القلب ، يعقل ما يقال له ، ويفهم ما يبين له ، غير ميت الفؤاد بليد)[1].

وقال جل شأنه في بيان حال من لايستفيدون ممّا منحهم الله إياه من فكر وعقل للوصول إلى ما ينفعهم حقيقة : ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنّم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون** (١٧٩) ﴾ الأعراف .

فهنا نفى سبحانه عن قلب الكافر فائدته اللازمة له من الفقه والتدبر ، إذ أعرض صاحبه به عن التفكر والتدبر في آيات الله جل شأنه [2].

وقال سبحانه : ﴿ **ولئن سألتهم من نَزَّل من السماء ماءً فأحْيَا بِهِ الأرض من بعد موتها ليقولُنَّ الله قل الحمدُ لله بل أكثرهم لا يعقلون** (٦٣) ﴾ العنكبوت .

وقال تعالى : ﴿ **وما يستوي الأحياء ولا الأموات إنّ الله يُسْمِعُ من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور** (٢٢) ﴾ فاطر .

قال الإمام الطبري : (وما يستوي الأحياء القلوب بالإيمان بالله ورسوله ، ومعرفة

---

(١)- تفسير الطبري:جـ٢٣،ص: ٢٧ .

(٢)- انظر المرجع السابق:جـ٩،ص: ١٣١-١٣٢ .

تنزيل الله . والأموات القلوب لغلبة الكفر عليها حتى صارت لا تعقل عن الله أمره ونهيه، ولا تعرف الهدى من الضلال)[1].

وأما ما يتعلق بإلهام النفس معرفة حدود طريقي الخير والشر ، والقدرة على التمييز بينهما ، فإنه سبحانه قال في الدلالة على ذلك : ﴿ **ونفسٍ وما سوّاها** (٧) **فألهمها فجورها وتقواها** (٨) ﴾ الشمس .

فهو تعالى قد خلق النفس الإنسانية سوية مستكملة لجميع الصفات اللائقة بها ، وأودع فيها معرفة معالم الحق والباطل والخير والشر ، معرفة تمكنها من التمييز بين كثير من الأعمال الصادرة منها أَوْ مِنْ غيرها ، والحكم عليها بما يليق بها . أي إنه جل شأنه قد مكّن النفس الإنسانية من تمييز العمل الفاجر والحكم عليه بكونه شرّاً لا يليق بها أن تقوم به ، وإن كانت لديها المقدرة على القيام به إن اختارت طريق الفجور ، وأيضاً فهو جل جلاله قد مكّنها من إدراك حسن كثير من الأعمال الخيّرة ، التي يجب عليها أن تقوم بها ، ليتحقق لها رضوان الله والوقاية من غضبه ، وأعطاها سبحانه المقدرة على القيام بها إن اختارت طريق التقوى [2].

ويتبين من قوله تعالى في الآيتين التاليتين : ﴿ **قد أفلح من زكاها** (٩) **وقد خاب من دساها** (١٠) ﴾ الشمس .

أن الإنسان لم يمكّن من تلك المعرفة لغير حكمة ، بل لحكمة لله بالغة ، وهذه الحكمة هي اختبار الإنسان وابتلاؤه لينظر هل يستفيد من تلك المعرفة في تزكية نفسه بجعلها تقوم بالأعمال الصالحة ، وبإبعادها عن الأعمال السيئة ، فيستحق بذلك الفلاح . أم أنه سوف يؤثر طريق الفجور الذي يحقق له بعض مطالبه العاجلة وإن كان فيه تدنيس لنفسه بالآثام والمعاصي فيستحق بسبب ذلك الخيبة .

---

(١)- المرجع السابق:جـ٢٢،ص: ١٢٨-١٢٩ .

(٢)- انظر تفسير ابن كثير:جـ٤،ص: ٥١٥-٥١٦ . وانظر : في ظلال القرآن،لسيد قطب:مج ٦،جـ٣٠ ص: ٣٩١٧ . وانظر : تفسير سورة الشمس،لعبدالرحمن حبنكة الميداني ، حديث إذاعي ألقي في شهر شوال،سنة : ١٤٠٧هـ .

والتعبير بالفلاح والخيبة يشير كذلك إلى الجزاء الأخروي المترتب على ذلك الابتلاء ، إذ قد لا يتحققان في الدنيا لكثير من مستحقيهما .

وأما الفطرة الصالحة فقال عنها تبارك اسمه : ﴿ **فأقم وجهك للدّين حنيفاً فطرت ا للهِ التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق ا لله ذلك الدينُ القيِّمُ ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون** (٣٠) ﴾ الروم .

وقال عنها صلى ا لله عليه وسلم : ((ما من مولود إلاّ يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه كما تُنْتَج البهيمةُ بهيمةً جمعاء هل تُحِسُّون فيها من جدعاء)) ثم قال أبو هريرة رضي ا لله عنه – راوي الحديث – :

﴿ **فطرت ا لله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق ا لله** ﴾ [(١)].

والراجح أن المراد بالفطرة الاسلام [(٢)]، وهذا يعنى أنه سبحانه قد جعل في أعماق النفس الإنسانية فطرة مقتضية لكل خير وصلاح ، لو خلي بينها وبين مقتضاها لما نشأ الإنسان إلا مؤمناً با لله وبصفات كماله ، موحّداً له سبحانه ، شاكراً له ، مطيعاً لأوامره ، مؤمناً بما تقتضيه حكمته في أفعاله ... [(٣)]. ولكن هذه الفطرة تُحجب عن مقتضاها ، بعوامل كثيرة منها عامل التربية الذي أشار إليه صلى ا لله عليه وسلم في الحديث السابق ، فينشأ الإنسان على ما ربّيَ عليه ويغيب عنه مقتضى فطرته الأولى ، فيصبح كافراً با لله تعالى مشركاً به أو ملحداً أو نحو ذلك . وإن كانت هذه الفطرة قد تستيقظ في حالات كحالات الخوف الشديد ، الذي يدفع الإنسان إلى طلب العون والإنقاذ ممن يملكها حقيقة

---

(١)– متفق عليه من رواية أبي هريرة . واللفظ للبخاري . فتح الباري : كتاب الجنائز (٢٣) ، باب : إذا أسلم الصبي فمات هل يصلّى عليه ؟ (٧٩) ، ح: ١٣٥٩،جـ ٣،ص: ٢١٩ . وأما روايات مسلم فانظر شرح النووي على مسلم: كتاب القدر ،باب : معنى (كل مولود يولد علىالفطرة) ، جـ٦ ١،ص: ٢٠٧-٢١٠ .

(٢)– انظر شفاء العليل لابن قيم الجوزية ، الباب الثلاثون : في ذكر الفطرة الأولى ومعناها .... من ص: ٤٧٠ وما بعدها .

(٣)– انظر مفتاح دا رالسعادة،لابن قيم الجوزية،جـ١،ص: ٢٨٠ .

فتستيقظ فطرته عندئذ ويتيقن بأنه لايملكها فعلاً إلا ا لله سبحانه المالك لكل هذا الكون بجميع ما فيه ، فيلتجئ إليه مخلصاً طالباً منه أن ينجيه من هذا الكرب . ثم إن كثيراً ممن قد يتعرضون لمثل هذه الحالات إن استجاب ا لله لهم وأنجاهم واطمأنوا نسوا ما كانوا فيه وغابت عنهم فطرتهم مرة أخرى ، وعادوا إلى كفرهم وشركهم وفجورهم .

قال ا لله تعالى مبيناً حال هؤلاء : ﴿ **هو الذي يُسَيِّرُكُمْ في البَرِّ والبحر حتّى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريحٍ طيِّبةٍ وفرحوا بها جاءتها ريحٌ عاصف وجاءهُمُ الموج من كلِّ مكانٍ وظنّوا أنّهم أحيطَ بهم دَعَوُا ا للهَ مُخْلِصينَ لَهُ الدينَ لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين** (٢٢) **فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق...**(٢٣)﴾يونس .

ولكن البعض قد يستفيد من حالات الصحو هذه ، ويحاسب نفسه ويتفكّر فيما هو فيه ، وفي خالقه الحق جل شأنه ، الذي يستحق وحده العبادة . وكيف أنه تعالى قد ترك الحرية له في أن يعبده أو يكفر به ، فيدرك- إن علم بأنه سبحانه حكيم في فعله كله- بأن له جل شأنه من ذلك حكمة بالغة ، تتحقق في كونه تعالى إنما خلقه في هذه الحياة ليبتليه ويختبره هل يعبده العبادة الحقة أم يكفر به جل شأنه ؟

وأما نوازع الأهواء والشهوات الموجودة في النفس الإنسانية ، فهذه تتعلق بأمور دنيوية ، قد زُيّن للناس حبُّها والتعلّق بها ضمن عناصر ابتلائه ، وجمع ا لله جل شأنه معظمها في قوله :

﴿ **زُيِّنَ للناس حُبُّ الشهواتِ من النساءِ والبنينَ والقناطيرِ المقنطرةِ من الذهبِ والفضةِ والخيلِ المسوَّمَةِ والأنعامِ والحرثِ ذلك متاعُ الحياةِ الدنيا وا للهُ عندَه حسنُ المآب**(١٤)﴾ آل عمران.

فهو تعالى يبيّن أنه قد زيّن لنفوس الناس حب أصناف الشهوات المذكورة في الآية ، والتعبير بأن هذه الأمور مزيّنة للناس ليس فيه دلالة على أنها قبيحة ابتداءً ، بل يدل ذلك التعبير على أنه سبحانه لحكمة قصد أن يجعل في نفوس الناس محبة تلك الأمور ، هذه

الحكمة يمكن استنباطها من قوله : ﴿ **وا لله عنده حسن المآب** ﴾ أي : حسن المرجع[1] .

وقد بيّن سبحانه في الآية التي تليها بعض صفات ذلك المرجع البالغ الحسن فقال :

﴿ **قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جناتٌ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها وأزواجٌ مطهرةٌ ورضْوانٌ من ا للهِ وا للهُ بصير بالعباد** (١٥) ﴾ آل عمران .

فالتعقيب على تزيين تلك الشهوات للناس بأنه سبحانه ﴿ **عنده حسن المآب** ﴾ وبيان أن ذلك المآب إنما هو عبارة عن جنات عدن بما فيها من أصناف النعيم ، يدل المرء على أنه لاينبغي له أن يغتر بتلك الأمور فينجرف وراءها ، بل عليه أن يعلم أن تلك الأمور قد ابتُلي بها ليتبيّن هل هو من المتقين المستحقين لحسن المآب ، أم يكون من الصنف الآخر الذين يغترون بتلك المتع وينسون أنها مجرد أمور يختبرون بها وسرعان ما تزول ليأتي الجزاء بعدها .

وقال جل شأنه : ﴿ **إنما أموالكم وأولادكم فتنة وا لله عنده أجْرٌ عظيمٌ**(١٥) ﴾التغابن.

ومن معاني الفتنة – كما سبق بيانه[2]– : الاختبار والامتحان .

إذا فا لله سبحانه يبيّن أن الأموال والأولاد إنما هي امتحان للمرء واختبار له [3].

فعلى الإنسان أن يعلم ذلك فيقوم في ماله وأهله وولده بما يرضي ربه ، ولا يجعل شهوة المال والولد تتحكم فيه ومن ثمّ تهوي به إلى سخط ا لله ، ثم على الإنسان أن يعلم كذلك أن ابتلاءه مستتبع بالجزاء الأوفى وهذا مادل عليه قوله : ﴿ **وا لله عنده أجر عظيم**﴾ والأجر العظيم مختص بمن أحسن عمله ، وأما من أساءه فله جزاء يناسبه .

وبالإضافة إلى الفطرة الخيّرة التي ترتفع بالإنسان إلى مراقي الخير والفلاح ، والشهوات التي إن لم يضبطها المرء كانت وبالاً عليه ودافعة له إلى مهاوي الشر والرذيلة، بالإضافة إلى هذين الداعيين الذاتيين للإنسان ، فقد جاء في النصوص بيانٌ لداعيين آخرين منفصلين عن

---

(١)– انظر تفسير ابن كثير: جـ١،ص: ٣٥٢ .

(٢)– انظر ص: ٧٦ .

(٣)– انظر تفسير ابن كثير: جـ٤،ص: ٣٧٦ .

الإنسان ، وإن كانا يقومان بعملهما من داخل كيان الإنسان. أحدهما : يدعو الإنسان إلى الخير ويأمره به ويحببه فيه ويحذره من كل شر ، وآخر : بخلافه ، يزينّ للإنسان الانغماس في الشرور والآثام والشهوات ويصرفه عن كل خير وفضيلة ، قال صلى ا لله عليه وسلم في بيان هذين الداعيين : [((ما منكم من أحد إلاّ وقد وُكِّلَ به قرينه من الجن، وقرينه من الملائكة)) قالوا : وإياك يا رسول ا لله قال : ((وإياي ، إلاّ أن ا لله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلاّ بخير))] [(١)].

فالحديث يدل على أن قرين الجن وهو الشيطان يأمر الإنسان بالشر ، وخص صلى ا لله عليه وسلم بالإعانة حتى أصبح لا يأمره إلا بخير . فإذا كان حال الشيطان القرين لابن آدم أنه يدعوه إلى الشر ، فلابدّ أن يكون حال الملك القرين على الضد من ذلك ، أي : إنه يدعو الإنسان إلى كل خير وصلاح ، قال الإمام ابن قيم الجوزية : (إذا تأمّلت حال القلب مع الملك والشيطان رأيت أعجب العجائب ، فهذا يلمّ به مرة وهذا يلمّ به مرة ، فإذا ألمّ به الملك حدث من لمّته الانفساح والانشراح والنور والرحمة والإخلاص والإنابة ومحبة ا لله وإيثاره على ما سواه ، وقِصَرُ الأمل والتجافي عن دار البلاء والامتحان والغرور، فلو دامت له تلك الحالة لكان في أهنأ عيش وألذه وأطيبه . ولكن تأتيه لمة الشيطان ، فتحدث له من الضيق والظلمة والهمّ والغم والخوف والسخط على المقدور والشكّ في الحق والحرص على الدنيا وعاجلها، والغفلة عن ا لله، ما هو من أعظم عذاب القلب) [(٢)].

وهذان الداعيان داعي الخير وداعي الشر وجودهما هو من باب إكمال عوامل ابتلاء الإنسان ، فإن أي إنسان يجد من داخل كيانه من يدعوه تارة إلى فعل الخير وتارة إلى فعل الشر ، لابد ان يتساءل – وإن جهل وجود كائن منفصل يدعوه من داخله – عن سبب وجود هاتين الدعوتين المتضادتين في داخله ، فإن كان لديه إيمان بـا لله الخالق الحكيم ،

---

(١)- رواه مسلم عن عبدا لله بن مسعود رضي ا لله عنه . شرح النووي على مسلم : كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب : تحرّي الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قريناً ، جـ١٧، ص: ١٥٧-١٥٨ .

(٢)- التبيان في أقسام القرآن ، لابن القيم ، ص: ٢٦٥ .

وبأنه جل شأنه هو الذي خلقه بهذه الصفات ، أدرك بعد تفكير أنه سبحانه قد أوجد فيه تلك الدعوتين المتضادتين من داخله اختباراً له يظهر منه حقيقة ميله ، هل هو ميل نحو الخير يدفعه إلى استجابة دعوة الآمر بالخير ، أم هو ميل نحو الشر يدفعه إلى استجابة دعوة الآمر بالشر . قال تعالى : ﴿ **ولقد صدّق عليهم إبليس ظَنَّه فاتبعوه إلاّ فريقاً من المؤمنين**(٢٠) **وما كان له عليهم من سلطان إلاّ لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك وربُّك على كلِّ شيءٍ حفيظ** (٢١) ﴾ سبأ .

فهو سبحانه لم يمكّن إبليس لعنه الله من إضلال من أضله من الناس إلا لحكمة اكتمال مقتضيات الابتلاء ، فالمؤمن بالله الإيمان الصحيح هو مؤمن بالآخرة إيماناً راسخاً لا يجد معه إبليس سبيلاً لإثارة الشكوك في نفسه بل هو منقاد لجميع ما يقتضيه إيمانه ذلك. وأما من كان في إيمانه شئ من خلل أو شك ، فإن إبليس عندئذ سيجد إلى إضلاله وإفساده سبلاً كثيرة .

ونظراً لخطورة داعي الشر – الشيطان – فقد حذّر منه الله في كتابه العزيز وبيّن أنه يزيّن للإنسان المنكرات والمعاصي والآثام ويحبّبه فيها ويحثّه على ارتكابها ، وأما الأعمال الصالحة ، فإنه يبغّضها إلى نفسه فيصرفه عنها ، بل إنه ربما خوّفه من بعض الأعمال الصالحة ، كتخويفه الإنسان من الفقر إذا هو أدّى زكاة ماله ، قال جل شأنه في بيان ذلك: ﴿ **الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم** (٢٦٨) ﴾ البقرة .

وبيّن سبحانه أن وسيلة الشيطان لإضلال الناس هي بالوعود والأماني الكاذبة الخادعة، قال تعالى ﴿ **يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً** (١٢٠) ﴾ النساء.

وأما ما وهبه الله سبحانه للإنسان من إرادة حرة في مجال معين ، فهذه الإرادة يمكن استنباط الدليل عليها من آيات عدة منها قوله جل جلاله : ﴿ **ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كُلُّهُم جميعاً أفأنت تكرِه النَّاسَ حتى يكونوا مؤمنين** (٩٩) ﴾ يونس .

فمما تدل عليه هذه الآية أنه سبحانه لو شاء لسلب الناس حرية الاختيار التي منحهم إياها ولأجبرهم على الإيمان ، ولكن ذلك يتنافى مع كون الإنسان مبتلى في هذه الحياة

ابتلاءً يُعرف منه إن كان سيسير في سبيل مرضاة الله أم أنه سيميل عن ذلك السبيل إلى سبل المعاصي ومالا يرضاه الله سبحانه . فهذا الابتلاء يقتضي أن يكون للإنسان نوعٌ من حرية الإرادة ، أي حرية إرادة في مجال معين ، وهو مجال الاختبار والامتحان فقط [1].

وقال تبارك اسمه أيضاً : ﴿ **إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا أفمن يُلقى في النَّارِ خيرٌ أم مَنْ يأتي آمنا يوم القيامة اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصيرٌ**(٤٠) ﴾فصلت.

فهو سبحانه يخاطب هنا الملحدين في آياته خطاباً مباشراً قائلاً لهم : ﴿ **اعملوا ما شئتم**﴾ وهو إن كان خطاب تهديد ووعيد ففيه دلالة على أنه سبحانه قد أعطاهم حرية في بعض تصرفاتهم وأفعالهم ، ويكون التهديد بعد ذلك على نتيجة اختيارهم ، إن كان هذا الاختيار قد اتجه نحو عصيان الربّ سبحانه والكفر به ، مع إعلامهم بأنه تعالى بصير بجميع ما يعملون لا تخفى عليه جل شأنه خافية من أعمالهم ، وإعلامهم أيضاً بالجزاء الذي سوف ينتظرهم على كفرهم وإلحادهم والذي يهددهم به سبحانه ، وهو الإلقاء في النار يوم القيامة ، مع مقارنة هذا الجزاء بالجزاء الذي سوف يلقاه من آمن بالله وآياته حق الإيمان ، من الأمن يوم القيامة والنعيم المقيم [2].

قال الله تبارك وتعالى :

﴿ **وما كان لنفس أن تموت إلاّ بإذن الله كتاباً مؤجّلاً ومن يُرِدْ ثوابَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها ومن يرد ثواب الآخرةِ نؤته منها وسنجزي الشاكرين**(١٤٥)﴾آل عمران.

وقال جل شأنه أيضاً : ﴿ **مَنْ كانَ يريد الحياة الدُّنْيَا وزينتها نُوَفِّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون** (١٥) **أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلاّ النَّارُ وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون** (١٦) ﴾ هود .

---

(١)- انظر : قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزوجل ، تأليف : عبدالرحمن حبنكة الميداني،ص: ٨٦.

(٢)- انظر تفسير الطبري:جـ٢٤،ص: ١٢٤ . وانظر : قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزوجل،ص:٨٧ .

وقال سبحانه أيضاً : ﴿ **من كان يريد العاجلة عجَّلْنا لَهُ فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصْلاها مذموماً مدحوراً** (١٨) **ومن أراد الآخرة وسعى لها سَعْيَها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً** (١٩) **كلاًّ نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً** (٢٠) ﴾ الإسراء .

(هذه الآيات تثبت الحقائق التالية :

أولاً : وجود الإرادة الإنسانية كمصدر لأفعال الإنسان .

ثانياً : أن هذه الإرادة لها حرية اختيار ، وليست إرادة مجبرة مسيرة في جميع الأحوال ، وهذا يتضح من خلال أسلوب الآيات العام ، حيث وضع أمام العبد كلٌّ من طريقي الدنيا- أي : الدنيا فقط - والآخرة ليختار العبد بينهما .

ثالثاً : أن هذين الطريقين الذين عبر عنهما بطريقي الدنيا والآخرة هما مجال حرية الاختيار لإرادة الإنسان فعليه أن يختار أحدهما إما طريق الدنيا ، والذي يسلكه من يختار الدنيا وزينتها وما فيها من لذائذ وشهوات فقط ، ويصرف إلى هذا الطريق كل جهده وهمه ولا يفكر فيما وراء ذلك . والطريق الآخر هو طريق الآخرة ، وهو الذي يختار السير فيه من يبتغي ثواب الآخرة .

رابعاً : أن حرية الاختيار التي منحها الله للإنسان ليست مطلقة بل محدودة ضمن المجال السابق فقط) [(١)] .

إذاً فثبوت أن للإنسان إرادة لها حرية اختيار ، هو ثبوت يقيني لا شك فيه ، وهو أمر قد يعلمه الكثير ممن لايكون مؤمناً بدين الله المنّزل . وبشيء من التدبّر مع الاستعانة بما سبق إيراده من الأدلة يمكن الوصول إلى أن الحكمة من هذه المنحة الربانية تظهر في كونها لابتلاء الإنسان واختباره ، اختباراً يتبيّن به أي من طريقي الخير أوالشر سوف يختاره الإنسان ويكون سبيله في هذه الحياة .

والآيات التي سبق ذكرها تُبَيِّنُ أن الجزاء مترتب على ذلك الابتلاء ، بحيث يكون موافقاً لما اختاره الإنسان ، وذلك الترتّب هو ما يقتضيه كمال الحكمة الإلهية .

---

(١)- انظر : القضاء والقدر في الإسلام،لفاروق الدسوقي،جـ١،ص: ٢١٢-٢١٣ بتصرف .

وأما كون الأفعال الصادرة من الإنسان نابعة في أساسها من خلق من أخلاق الإنسان النفسية الداخلية ، فإن مما يدل على ذلك قوله صلى ا لله عليه وسلم جواباً لمن سأله عن البِّر والإثم فقال :

((البِرُّ حسن الخلق ، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطّلع عليه الناس))[1].

(البرّ : هو جماع أفعال الخير ، وقد عرفه الرسول صلى ا لله عليه وسلم بأنه حسن الخلق ، فهذا يدل على أن حسن الخلق يشتمل على جماع أفعال الخير)[2]. أي إن كل فعل من أفعال الخير إنما مصدره خلق في الإنسان حسن ، ومفهوم المخالفة لهذا المعنى أن كل فعل من أفعال الشر والرذيلة إنما مصدره خلق في الإنسان سيء .

وأما قوله صلى ا لله عليه وسلم عن الإثم : ((والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس)) ففيه إشارة إلى الضمير الأخلاقي الذي فطر ا لله الناس عليه ، وهو ضمير يحس بالفضيلة الخلقية كما يحس بالرذيلة ، وحينما يحس بالرذيلة يعتريه شعور بالنفرة منها وكراهيتها ، ويلوم صاحبه على إرادته وارتكابه لها . والإنسان الذي يشعر بذلك يقدر أن مثل هذا الإحساس من شأنه أن يحدث لكل إنسان آخر إذا اطلع على ما عمله من عمل سيء ، ولذلك فهو يكره أن يطلع الناس على عمله الآثم ذلك ، لئلا يخسر مكانته في نفوسهم حينما يعلمون أنه امْرُؤٌ آثم [3].

وقد يمكن أن يكون هذا الضمير الأخلاقي هو المراد من النفس اللوامة التي أقسم بها ا لله جل وعلا في كتابه فقال : ﴿**لا أقسم بيوم القيامة(١)ولا أقسم بالنفس اللوامة(٢)**﴾القيامة.

---

(١)- رواه مسلم عن النوّاس بن سمعان الأنصاري ، وهو الذي سأل الرسول صلى ا لله عليه وسلم .شرح النووي على مسلم : كتاب البّر والصلة والآداب ، باب : تفسير البر والإثم ، جـ١٦ ، ص: ١١٠-١١١، (روايتان برقم : ١٤-١٥ حسب المعجم) .

(٢)- الأخلاق الإسلامية وأسسها ؛ عبدالرحمن حبنكة الميداني،جـ١،ص: ٤٩ . وانظر شرح النووي على مسلم:جـ١٦،ص: ١١١.

(٣)- انظر : الأخلاق الإسلامية وأسسها . جـ١،ص: ٥٠ .

فقد ذُكِر عن الحسن البصري رحمه الله أنه قال في هذه الآية : (إن المؤمن والله مانراه إلاّ يلوم نفسه ، ما أردت بكلمتي ، ما أردت بأكلتي ، ما أردت بحديث نفسي ، وإن الفاجر يمضي قدماً قدماً لايعاتب نفسه)[1] . فالفاجر نتيجة لتعوده الإثم والمعاصي يموت عنده الضمير الخلقي ، أما المؤمن فيظل ضميره حيّاً يقظاً يحاسبه على أعماله ، ويطالبه بالأحسن دائماً . وإن كان ذلك لا يمنع أن تمر على الكافر أو الفاجر لحظات يستيقظ فيها ضميره الميت ويحاسبه على كثير من أعماله السيئة ، ويطالبه بالتحول عن حياة الفجور والكفر التي يعيشها إلى حياة أفضل منها . والله أعلم .

ومن النصوص التي قد تدل على وجود ذلك الضمير الخلقي ولاسيما لدى المؤمن ، قوله صلى الله عليه وسلم ((ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً وعلى جَنَبَتَي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داع يقول: : يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تتفرجوا ، وداع يدعو من جوف الصراط، فإذا أراد أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال : ويحك ، لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه . والصراط : الإسلام ، والسوران : حدود الله تعالى ، والأبواب المفتحة : محارم الله تعالى ، وذلك الداعي على رأس الصراط : كتاب الله عزوجل ، والداعي فوق الصراط : واعظ الله في قلب كل مسلم))[2] .

فقوله : ((والداعي فوق الصراط : واعظ الله في قلب كل مسلم)) قد يراد به قوة من نوع خاص يمنحها الله لقلب المرء الذي التزم السير في صراطه ، صراط الإسلام ،

---

(١)- تفسير ابن كثير جـ٤ ص: ٤٤٧-٤٤٨ . وانظر في ظلال القرآن . مج٦ جـ٢٩ ص: ٣٧٦٨ .

(٢)- رواه أحمد عن النواس بن سمعان رضي الله عنه . المسند : جـ٤ ص: ١٨٢-١٨٣.ورواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين،في:كتاب الإيمان،جـ١،ص: ٧٣ ، وقال : صحيح على شرط مسلم ولا أعرف له علة ولم يخرجاه ، ولم يتعقبه الذهبي . وعند الحاكم بدل ((جنبتي الصراط)) : ((كنفي الصراط))،وبدل ((ولاتنفرجوا)) : ((ولاتعوجوا)) . وزاد في الجملة الأخيرة : ((واعظ الله يذكر في..)).والحديث صححه محمد ناصر الدين الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته: ح: ٣٨٨٧،جـ٢،ص: ٧٢١-٧٢٢ .

حتى يصبح ذلك القلب مصدر مراقبة للمرء في جميع تصرفاته وأفعاله ، فإن رأى صاحبه قد أخذ في إرادة شيء من الأمور المحرّمة انبعثت على الفور منه نداءات داخلية تحذّر صاحبه المسلم من مغبة قيامه بذلك العمل لما يستلزمه من سيره في غير صراط الإسلام .

وكلما ازداد المرء طاعة لربه ازدادت تلك القوة الممنوحة لقلبه بفضل الله تعالى (١).

وأما المرء غير المسلم فإنه لم يسلك أساساً صراط الإسلام فكيف يمنح بالتالي قوة تحذّره من مخالفة مقتضيات السير في ذلك الصراط ؟! . ولكن قد يقال بأنه تنشأ لديه قوة في قلبه تمنعه من مخالفة ما يعتقد أنه حق أو باطل . وهذا غير ممتنع ، وقد أثبت وجوده الأخلاقيون من غير المسلمين (٢).

بناءً على ما سبق فإن الأخلاق التي يتصف بها الإنسان حسنة كانت أو سيئة هي دليل داخلي لنفس كلّ مؤمن بأن الله سبحانه هو الذي خلقه على هذه الصفة وأنه سبحانه حكيم في فعله-هي دليل له على أنه كائن مبتلى في هذه الحياة ، إما أن يسير وفق ما تقتضيه أخلاقه الحسنة أو أن يسير وفق ما تقتضيه أخلاقه السيئة ، ويقوّي أثر هذا الدليل في نفس الإنسان وجود المحاسب الداخلي له على أعماله ، والذي يلومه على فعله السيء ، ويطالبه بالازدياد من الفعل الحسن ، وهذا المحاسب الداخلي يدل على أن الله تعالى الذي خلق الناس وفطرهم ، هو الربّ الحكيم الذي لا يمكن أن يترك المحسن والمسيء دون أن يحاسب كلاًّ منهما على إحسانه وإساءته ، والحساب يقتضي الجزاء قال تعالى :

﴿ **ليجزي الله كلَّ نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب** (٥١) ﴾ إبراهيم .

ما سبق كان في الصفات النفسية ، وأما الصفات الجسدية وكونها ملائمة لوظيفة الانسان الابتلائية في هذه الحياة ودالة عليها ، فإن مما يدل عليها قوله سبحانه :

---

(١)- انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية:جـ : ٢٠،ص: ٤٤-٤٥ . وانظر : روائع من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم،تأليف : عبدالرحمن حبنكة الميداني . ص: ٤٣١-٤٣٣ . وقد يراد بواعظ الله الوارد في الحديث الملك القرين الذى سبق الحديث عنه والله أعلم ، انظر ص: ٨٥-٨٦ .

(٢)- انظر ص: ٧٩ .

﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً (٢) إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإمّا كفوراً (٣) إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً (٤) إنّ الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً (٥) ﴾ الإنسان .

فهو تعالى يبيّن في الآيات السابقة أن الحكمة من خلقه الإنسان في هذه الحياة هي ابتلاؤه واختباره لينظر كيف يعمل ، الابتلاء الذي يتبعه الجزاء المناسب لعمل الإنسان . ويذكر جل شأنه بعض نعمه التي أنعم بها على ذلك الإنسان من خلال خلقته ، تلك النعم التي هي بالإضافة إلى أنها دليل للانسان على كونه مبتلى في هذه الحياة ، فإنها تعينه على القيام بما يقتضيه ابتلاؤه عموماً على أحسن وجه . وفي مقدمة تلك النعم نعمتا السمع والبصر وهما اللّتان وردتا في الآيات السابقة . وهاتان النعمتان يدرك من خلالهما الإنسان الأمور المسموعة والمرئية إدراكاً يختلف عن إدراك سائر المخلوقات التي ترى بأعين شبيهة بأعين الإنسان وتسمع بآذان شبيهة بآذان الإنسان ، وذلك لأن الإنسان يوصل ما يراه أو يسمعه إلى قلبه المفكر ، والذي يحلل ويستنتج ويستنبط ، فيدرك ما وراء هذه الأمور المسموعة أو المرئية ، ويصل إلى الحقائق التي تدل عليها . فنعمة البصر والسمع مرتبطة إذاً بنعمة القلب المفكر ودورهما الأول هو إيصال المعلومات إليه ، ولذلك لا يرتفع حكم الابتلاء عمن لم يكن سميعاً بصيراً ، مادامت الأمور الأساسية التي يقتضيها ابتلاؤه قد وصلت إلى فؤاده بأي طريق كان ، سواء بالسمع وحده أو بالبصر وحده أو بالحس أو نحو ذلك ، وإن كان ابتلاؤه لا يكون بالدرجة نفسها التي يكون عليها ابتلاء السميع البصير ، لأن السمع والبصر نعمتان مبتلى بهما المرء في حد ذاتهما ، هل يستخدمهما فيما يرضي الله أم في تحقيق أهوائه ولو كانت في سخط الرب جل شأنه ؟ ولذلك يخفف عمن يفقدهما بعض أنواع الابتلاء ، كما يخفف عن الأعمى ابتلاء الجهاد بالنفس ، وكذا الأعرج والمريض ، قال جل جلاله : **﴿ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ...(١٧) ﴾** الفتح .

أي : ليس على هؤلاء حرج في عدم خروجهم للجهاد لعدم استطاعتهم [١].

---

(١)- انظر تفسير فتح القدير،للشوكاني:جـ٤ ص: ٥٠ .

وكما نفى سبحانه فائدة القلب اللازمة له من الفقة والعقـل -كمـا سبق ذكـره[1]- بالنسبة لمن لم يستفد من تلك النعمة في مجال التفكرّ في آيات ا لله للوصول إلى الإيمان بـه ، لأنه قد حجبها عن ذلك ، فقد نفى أيضاً جـل شـأنه عـن المعرضـين عـن التفكـر في آياتـه فائدتي السمع والبصر عن آذانهم وأعينهم وإن كانت سليمة . وهـذا يـدل علـى أن هـذه الآذان والأعين لم توهب للإنسان ليسمع ويرى بهما كما تسمع وتـرى البهـائم ، بـل قـد وهبت له لأمر هام وهو : سماع ورؤية آيات ا لله سبحانه الكونية والقولية ، سماعـاً ورؤيـة توصل تلك الآيات إلى القلب المفكّر ليتدبرها ويصل منها إلى الإيمان با لله جل شـأنه.و بمـا أن هذه هي الوظيفة المطلوبة أساساً من تلك الأعين والأبصار ، وبما أن الإنسـان قـد يقـوم بتلك الوظيفة وقد لا يقوم ، فإن هذا يدلّ علـى أنـه تبـارك اسمـه قـد أراد ابتـلاء الإنسـان واختباره ليظهر منه إن كان سيستخدم نعمتي السمع والبصـر في أهـم وظيفـة لـهما، وبمـا يحقق النتيجة المطلوبة ، أم أنه سوف لا يستخدمها الاستخدام الصحيـح الموصّـل إلى تلـك النتيجة .

قال تعالى في بيان ذلك : ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنّم كثيراً من الجنّ والإنـس لـهم قلـوب لا يفقهون بها ولـهم أعين لا يبصرون بها ولـهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعـام بل هم أضل أولئك هم الغافلون** (١٧٩) ﴾ الأعراف .

قال الإمام الطبري : (... وكذلك قوله ﴿ **ولـهم أعين لا يبصـرون بهـا** ﴾ معنـاه . ولـهم أعين لا ينظرون بها إلى آيات ا لله وأدلتـه فيتأملوهـا ويتفكـروا فيهـا ، فيعلمـوا بهـا صحة ماتدعوهم إليه رسلهم ، وفساد مَـاهم عليـه مقيمـون مـن الشـرك بـا لله وتكذيـب رسله، فوصفهم ا لله بتركهم إعمالـها في الحق ، بأنهم لا يبصرون بها ، وكذلك قوله : ﴿ **ولـهم آذان لا يسمعون بها** ﴾ آيات كتاب ا لله ، فيعتبروها ويتفكروا فيها ، ولكنهـم يعرضون عنها ... ، وذلك نظير وصف ا لله إياهم في موضع آخر بقولـه ﴿... **صـمٌّ بكـمٌ عميٌ فهم لا يعقلون** ﴾[2]. والعرب تقول ذلـك للتـارك استعمال بعـض جوارحـه فيمـا

---

(١)- انظر ص: ٨٠-٨٢ .

(٢)- من الآية : ١٧١ البقرة .

يصلح له ...)[1]. وفي موضع آخر يبيّن سبحانه أنه ليست الأبصار هي التي تعمى عن رؤية آيات ا لله ، وإنما القلوب هي التي تعمى عن إدراك تلك الآيات المرئية قال سبحانه:

﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكونَ لهم قلوبٌ يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور (٤٦) ﴾ الحج .

فالقلب هو الذي يعمى عن إدراك حقائق ما تراه الأعين ، ولكن عماه عن إدراكِ تلك الحقائق يكون سبباً لا نتفاء فائدة الرُّؤية بالأعين ، فيصحّ وصفها إذاً بالعمى وعدم الإبصار.

وعموماً فإن ا لله جلّ جلاله قد خلق الإنسان حسن الصورة سويّاً معتدلاً على أحسن تقويم ، على وجه يلائم ما يقتضيه ابتلاؤه في هذه الحياة الدنيا ، ويعينه عليها ، قال تعالى:

﴿ خَلَقَ السّماوَات والأرض بالحق وصَوّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وإليهِ المصيرُ(٣)﴾التغابن.

وقال جل شأنه : **﴿ يَا أَيُّهَا ٱلإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبّكَ الكَرِيم** (٦) **الّذي خَلَقَكَ فسوّاك فَعَدَلَكَ** (٧) **فِي أيِّ صُورَةٍ ماَ شَاءَ رَكّبَكَ** (٨) **كَلاَّ بَلْ تُكَذِبُونَ بالّدِينِ**(٩)﴾الانفطار .

وقال تبارك وتعالى :**﴿ لَقَدْ خلقنا الإِنْسَانَ في أَحْسَنِ تَقْوِيم** (٤) **ثُمّ رَدَدْنَاه أَسْفَلَ سَافِلِينَ** (٥) **إلاَّ الّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ** (٦) **فَمَا يُكَذِبُكَ بَعْدُ بِالدّينِ** (٧) **أَلَيْسَ ا للهُ بِأَحْكَم ٱلحَاكِمِينَ** (٨) ﴾ التين .

في هذه النصوص السابقات يربط ا لله عزّوجلّ ما وهب الإنسان في جسده من نِعمٍ بالجزاء ، أي : إنّه سبحانه قد وهب الإنسان هذه النعم لغاية لا تكتمل إلاّ بتحقّق الجزاء الأخروي ، الذي يتحقّق به الجزاء الأوفى علىما قدّمه الإنسان من عمل في الحياة الدنيا . ثم إنّه واضح من واقع الحياة أنّ صفات الإنسان المتميّزة في نفسه وفي جسده أيضاً قد أدّتْ إلى وجود مؤمنين وكافرين ، ووجود صالحين وفاسقين ، ووجود مطيعين لله متّبعين لأوامره مجتنبين لما نهى عنه ، وعاصين متّبعين لأهوائهم وشهواتهم ووساوس

---

(١)- تفسير الطبري:جـ٩،ص: ١٣١-١٣٢ .

شياطينهم ، وَوجُودُ هذينِ الفريقين يَدُلُّ كذَلِكَ على حقيقة كون الإنسان مبتلى في هذه الحياة فعندما يرى الموقن أن ا لله سبحانه قد أوجد هذين الفريقين وقدّر وقوع المواجهة بينهما والتي تصل إلى حد وقوع الحرب والمقاتلة ، فإنه لابد أن يعتقد بوجود حكمة لله سبحانه من وراء هذا التقدير ، وهذه الحكمة لا تتحقق إلاّ بكونه جل وعلا قد ابتلى خلقه بهذه الأمور ، فهو يبتلى المؤمنين بالكافرين ليظهر صادق الإيمان حقّاً الذي لا تزلزل إيمانه المصائب والفتن ، ويتميز عمن في إيمانه ضعف يظهر عند أول محنة يصاب بها من أجل إيمانه ، وليظهر أيضاً مدى حب المؤمنين لربّهم ولدينهم ومدى بذل أنفسهم وجميع ما يملكون من أجل نصرة دين ا لله ، وليتميزّ بذلك الابتلاء من يكون ولاؤه ومعاداته في ا لله حقّاً ممن يدعي ذلك وهو غير صادق ، فتظهر تلك الشدائد حقيقة كذبه في دعواه[1].

وهو سبحانه يبتلي الكافرين بالمؤمنين ليتعظ من شاء منهم بما جرى لبعضهم من العقوبة التي أوقعها ا لله عليهم بأيدي المؤمنين ، فيكون ذلك سبباً لإيمانهم .

وقد دلت آيات عدّة على أنّ ا لله يبتلي المؤمنين بمقارعة الكافرين ومواجهتهم أذاهم ، منها :

١ - قول ا لله عزّوجل : ﴿ **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرْبَ الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاقَ فإمّا منّاً بعد وإما فداءً حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء ا لله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل ا لله فلن يضلّ أعمالهم** (٤) ﴾ (محمد) صلى ا لله عليه وسلم .

قال الإمام الطبري عند قوله سبحانه ﴿ **ولكن ليبلو بعضكم ببعض** ﴾ :

(يقول : ليختبركم بهم ، فيعلم المجاهدين منكم والصابرين ، ويبلوهم بكم ، فيعاقب بأيديكم من شاء منهم ، ويتعظ من شاء منهم بمن أهلك بأيديكم من شاء منهم ، حتى ينيب إلى الحق)[2].

---

(١)- انظر طريق الهجرتين،لابن قيم الجوزية،ص: ٢١٥ .

(٢)- تفسير الطبري:جـ٢٦،ص: ٤٣ .

٢ – وقوله تعالى : ﴿ **ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونَبْلُوَ أخباركم** (٣١) ﴾ (محمد) صلى ا لله عليه وسلم .

فهو سبحانه يبتلي المؤمنين بما يكون بينهم وبين الكافرين من مواجهات مختلفة الصور لِيُعْلم من خلال ذلك الابتلاء المؤمن با لله حقّاً ، الذي يكون مستعداً لأن يبذل نفسه وماله بالجهاد في سبيله ، ومستعداً لأن يصبر لجميع أنواع الأذى التي يتعرض لها في سبيل الثبات على دين ا لله وفي سبيل نصرته والدعوة إليه . فهذه المواجهات إذاً يعلم بها القوي والصادق في إيمانه ممن هو ضعيف أو كاذب في ذلك الإيمان [(١)].

٣ – وقول ا لله عزوجل : ﴿ **ألم** (١) **أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنّا وهم لا يفتنون** (٢) **ولقد فتنّا الذين من قبلهم فليعلمن ا لله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين**(٣) ﴾ العنكبوت .

فهنا ينكر جل شأنه على من يظن أنه يكفيه إعلان إيمانه بقوله ، من غير أن يُمتحن ويُفتن بأنواع من الابتلاءات التي تَعْرِضُ له بسبب إيمانه . فمن أعلن إيمانه فعليه أن يعلم أنه سبحانه سوف يعرّضه لأنواع من الفتن اختباراً لمدى صدقه في ذلك الإيمان واختباراً لمدى تمكّن الإيمان من قلبه [(٢)].

ثم إنه حسب عمل المرء في تلك الابتلاءات يتبين نوع ومقدار الجزاء الذي سيناله . قال تعالى بعد أن ذكر ابتلاءه من كان مع رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم في غزوة الأحزاب ، ذلك الابتلاء الذي أظهر الصادق في إيمانه من المنافق :

﴿ **ليجزي ا لله الصادقين بصدقهم ويعذّب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن ا لله كان غفوراً رحيماً** (٢٤) ﴾ الأحزاب .

الضرب الثاني : ابتلاء الله للإنسان بتسخير الكون له :

إن المتدبّر للعلاقة بين الإنسان وبين الكون المشاهد من حوله علويه وسفليه ، بما فيه

---

(١)– انظر تفسير الطبري:جـ٢٦،ص: ٦١ .

(٢)– انظر تفسير الطبري:جـ٢٠،ص: ١٢٨–١٢٩ . وانظر شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل،لابن قيم الجوزية،ص: ٤٠٥ .

من مخلوقات حية وغير حية لاشك أنه سوف يستنتج أن هذا الكون عموماً قد سخره ا لله الخالق الحكيم لـهذا الإنسان بنوعين عامّين من أنواع التسخير :

النوع الأول : أن كثيراً مما في هذا الكون قد جعله سبحانه سبباً لمصلحة من مصالح الإنسان التي تتعلق بها أمور معاشه من غير أن يكون تحصيل تلك الأسباب معتمداً أساساً على مجهود الإنسان .

وعلى سبيل المثال فإن الشمس قد جعلها سبحانه سبباً لنشر الضياء ليتمكّن الإنسان من العمل ، وجعلها أيضاً سبحانه سبباً لكثير من الأمور التي لاتستقيم حياة الإنسان على هذه الأرض إلاّبها وهكذا فكثير مما خلقه ا لله قد جعله سبباً لتحقيق مصالح الناس ، وهم قد يجهلونه كليًّا أو يعلمونه شيئاً قليلاً .

النوع الثاني : تذليل بعض هذا الكون للإنسان ليحقق فيه بنفسه وبمجهوده كثيراً من مصالحه التي لاغنى له عنها ، كالأرض التي سخرها له سبحانه يحرثها ويبذرفيها زرعه، ومن ثم يحصد ما ينبته ا لله له فيها . وكالحيوانات يستفيد من لحومها وألبانها وأصوافها وظهورها .

ولايستطيع الإنسان إحصاء نعم ا لله عليه فيما سخر له من هذا الكون سواء كان للإنسان مجهود فيه أو لم يكن له فيه أي عمل أو تدخل مباشر .

وتسخير الكون عموماً للإنسان واقتضاء هذا التسخير لحقيقة ابتلاء الإنسان ، قد جاء بيانه في نصوص عدة من نصوص القرآن الكريم .

ففي إثبات تسخير الكون وما فيه للإنسان قال جل شأنه : ﴿ **ألم تروا أن ا لله سخر لكم ما في السمٰوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة...**(٢٠)﴾ لقمان.

وقال تبارك اسمه : ﴿ **وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون** (١٢) ﴾ النحل .

فالليل سخره ا لله للناس ليكون وقت راحتهم ، والنهار سخره لهم ليكون فيه معاشهم، والشمس تمدهم بضيائها ، والقمر بنوره ، والشمس والقمر يكون بهما حسبان الأيام والشهور والسنين ، والنجوم سخرها سبحانه ليهتدي بها المسافرون في البر والبحر .

وكل ذلك قد ورد في شأن امتنان ا لله على عباده به آيات عديدة في القرآن ، وهي أمور قد سخرت للإنسان ، ولا يكاد يوجد له في تحقيق المنفعة منها جهد يذكر ، وإنما يكون جهده في تحصيل تلك المنفعة . وبذلك تكون هذه الآية دالة على النوع الأول من نوعي التسخير ، وأما النوع الثاني فمما يدل عليه قوله تعالى :

﴿ **والأنعامَ خلقها لكم فيها دفءٌ ومنافِعُ ومنها تأكلون** (٥) **ولكم فيها جَمال حين تُريحون وحينَ تسرحون** (٦) **وتحملُ أثقالَكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربَّكم لرؤوف رحيم** (٧) **والخيلَ والبغالَ والحميرَ لتركبوها وزينةً ويخلُق مالا تعلمون**(٨)﴾ النحل .

فالخيل مثلاً لم تركب إلا بعد أن بذل الإنسان مجهوداً في ترويضها .

وعموماً فإن هذه الأمور التي سخرها ا لله للإنسان ، عليه أن يتفكّر في الحكمة من تسخيرها . قال سبحانه : ﴿ **وسخر لكم مافي السمٰوات ومافي الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقومٍ يتفكرون** (١٣) ﴾ الجاثية .

وبتدبر الإنسان في هذه الأمور المسخرات له يجد أن كثيراً من أعماله الموصوفة بكونها خيراً أو شراً ، أي التي يكون فيها إمّا مطيعاً لربه أو عاصياً له إنما تظهر من خلال تعامله مع هذه المسخّرات . أي إن هذه المخلوقات لم تسخّر للإنسان إلا ليُختَبر ويُبتلى في استخدامه لها وهل يكون ذلك منه حسناً أم يكون سيئاً ؟ قال جل شأنه: ﴿ **إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيّهم أحسن عملاً** (٧) ﴾ الكهف .

فجميع ما جعله سبحانه على الأرض مما سخره للإنسان ومما هو من زينة هذه الحياة ، إنما هيأهُ جلّ شأنه بهذه الكيفية ليحقق حكمة ابتلاء الإنسان وامتحانه ، الابتلاء الذي يتبين من خلاله المحسن في عمله من المسئ [(١)].

ثم إنه ومن خلال واقع الحياة يتبين أن ا لله سبحانه قد فاضل بين الناس فيما وهبهم إياه مما جعله من زينة هذه الأرض ومتعها . قال تعالى :

---

(١)- انظر تفسير فتح القدير،للشوكاني:جـ٣،ص: ٢٧٠ .

﴿ **وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجاتٍ ليبلوكم فيما آتاكم إن ربَّك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم** (١٦٥) ﴾ الأنعام .

فالتفاضل إذاً مقصود لنفس الحكمة المرادة من تسخير هذا الكون بأجمعه ، تلك الحكمة التي هي : ابتلاء الإنسان ابتلاءً يتميز بسببه المحسن في عمله من المسيئ . ثم إن الله سبحانه سريع العقاب لمن أساء عمله ، وهو جل شأنه غفور رحيم لمن آمن وأصلح عمله.

ومن التفاضل الموجود بين الناس تفاضلهم فيما وهبهم إياه سبحانه من الأموال ، مما يؤدي إلى أن يكون بعضهم غنيًّا وبعضهم فقيراً . والله جل شأنه يبيّن أن هذا التفاضل مقصود كذلك لحكمة الابتلاء ، قال جل شأنه في بيان ذلك : ﴿ **فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربُّه فأكرمه ونعّمه فيقول ربّي أكرمن** (١٥) **وأمّا إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن** (١٦) **كلا بل لا تكرمون اليتيم** (١٧) ﴾ الفجر .

﴿ **فَقَدَرَ عليه رزقَه** ﴾ أي : ضيَّق عليه في الرزق (١) .

وقوله تعالى ﴿**كلا**﴾ فيه رد على من زعم أن إعطاء المال دال على كرامة المعطى له عندا لله سبحانه،وعلى من زعم أن التضييق في الرزق دال على هوان المضيّق عليه عندا لله تعالى ، فكلا الزعمين خاطئان ، بل الإعطاء والتضييق ابتلاء من الله للإنسان لينظر كيف يعمل في هذه الحال أو في الحال الأخرى ، وهو سبحانه بكل شئ عليم (٢) .

وكذلك ما يتفاضل به الناس فيما يهبهم إياه جل شأنه من الحكم والسلطان ، هو مقصود لحكمة الابتلاء ، قال تعالى : ﴿... **فلما رآه مستقرًّا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني ءأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربّي غنيٌّ كريمٌ**(٤٠) ﴾ النمل .

وهكذا سائر النعم والمصائب التي يختبر بها الله سبحانه عباده ، فإن عليهم أن يدركوا حقيقة كونهم مبتلين بها ابتلاء يقتضي مجازاتهم على حسب أعمالهم . قال جل جلالهُ : ﴿...**ونبلوكم بالشرّ والخير فتنة وإلينا ترجعون** (٣٥) ﴾ الأنبياء .

---

(١)- انظر تفسير ابن كثير:جـ٤،ص: ٥٠٩ .

(٢)- انظر المرجع السابق . نفس الموضع .

الضرب الثالث : ابتلاء الله سبحانه للإنسان بانقسام الوجود إلى غيب وشهادة :

إن الوجود ينقسم بالنسبة إلى الإنسان إلى قسمين رئيسيين:

الأول : وجود يشهده الإنسان أي : يدركه بأي من حواسه المادية من البصر أو السمع أو الحس أو نحو ذلك ، وهذا هو عالم الشهادة .

الثاني : وجود مغيَّب عن الإنسان وهو مالا يستطيع الإنسان إدراكه بأيٍّ من حواسه المادية . ولكن الله سبحانه قد وهب الإنسان مقدرة على معرفة كثير من الأمور الغيبية بالاستدلال عليها بمالها من آثار ظاهرة يمكن أن يدركها الإنسان ، فينتقل بفكره من الأثر إلى معرفة المؤثّر وإن لم يدرك حقيقة ذاته ، فالإنسان يستدل مثلاً بالمخلوقات على وجود خالقها وهو الله جل شأنه ، وهذا هو عالم الغيب .

وأعظم ما غُيِّب عن الإنسان هو الله تبارك اسمه ثم اليومُ الآخر ، وإن كان جل شأنه قد أقام الدلائل العقلية والكونية الكثيرة الدالة عليه وعلى وجوده وكونه خالقاً لهذا الكون ورَبّ كلّ شئ ومليكه وعلى أنه الإله الحق ، وكذلك فإنه سبحانه قد أقام الدلائل العديدة على تحقق اليوم الآخر وتحقق ما فيه من جزاء . ولكن هناك من الناس من لا يلتفت إلى تلك الدلائل ولايتدبرها أو يجحدها رغم ظهور الحجة فيها . وبذلك تظهر الحكمة في كونه تعالى غيباً عن إدراك الإنسان المباشر ، وفي كون الجزاء الشامل للأعمال أخروياً غيبياً ، تلك الحكمة التي هي امتحان إيمان الإنسان بالله وبالجزاء الأخروي .

فالإنسان لايمكن أن يكفر بالأمر المشاهد وإلا لم يعد من العقلاء . فإذا كان يرى الله جل جلاله أو كان يرى دار نعيمه ودار عذابه ، فإنه لايمكن أن يكفر بالله وبجزائه ، ولا أن يكفر بشئ مما يقتضيه ذلك الإيمان ، ومن ثمّ فإن ظهور الرب سبحانه أو ظهور جزائه الأوفى للناس في هذه الحياة ينقض الحكمة من خلق الإنسان فيها والتي هي ابتلاؤه[1] .

ولكن إذا كان سبحانه غيباً عن الإنسان ، وكان جزاؤه الأوفى على الأعمال غيباً كذلك ، فلابدّ أن يظهر من في إيمانه شك أو خلل ، إما بضعف إيمانه بالله وآياته وإما

---

(١)- انظر مفتاح دار السعادة،لابن قيم الجوزية:جـ١،ص: ٤ .

بإشراكه با لله تعالى ، وإما بكفره المطلق با لله سبحانه وبما أخبر به . أما المؤمن الراسخ الإيمان فإنه سواء غُيِّب عنه إلهه وخالقه وغُيِّب عنه ما أخبر به ، أم لم يغيب شئ من ذلك، فإن إيمانه با لله وآياته لايمكن أن يعتريه شك أو شبهة ، فهو يخشى ربه بالغيب كما يخشاه بالمشاهدة .

ونظراً لأهمية ابتلاء إيمان الإنسان بالغيب فقد ورد في القرآن تقديمه على كثير من صفات المؤمنين المتعددة . قال سبحانه في أول سورة البقرة وفي أول وصف للمتقّين الذين هم الأهل لأن يهتدوا بكتابه : ﴿ **ألم** (١) **ذلك الكتاب لاريب فيه هدىً للمتقين** (٢) **الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** (٣) ﴾ البقرة .

وعندما حرّم سبحانه على المحرم قتل الصيد ، أخبر بأنه سيبتليه بأن يوجد حوله ما يمكن له أن يصطاده بيسر وسهولة ، وذلك ليعلم – وهو سبحانه لا يخفى عليه شيء – من يخشاه بالغيب حق خشيته ، ومن لا يخشاه ، فيصبح بالتالي معرضاً للعذاب الأليم . قال جل شأنه : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ليبلونّكُمُ ا لله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم ا لله من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك فله عذابٌ أليمٌ**(٩٤)﴾المائدة

ثم إن الفرق بين من يؤمن بالغيب ومن لا يؤمن به ، أن المؤمن بالغيب لا يقف عند حدود ظواهر ما يشاهده في هذا الكون ، وإنما ينتقل بتفكيره إلى أساس وجود هذا الكون ومصدره وإلى النظام الذي يحكمه وإلى الغاية التي خلق من أجلها الكون بصفة عامة ، والإنسان بصفة خاصة . فيؤدّي به إلى الإيمان با لله سبحانه خالق هذا الكون ، والإيمان بحكمته البالغة ، ومن ذلك حكمته في كونه غيباً عن الإنسان ، وحكمته في سائر أفعاله وأقواله وأقضيته ، تلك الحكمة المستلزمة لأن يكون الإنسان مبتلى في هذه الحياة من قبل ربه عزوجل ابتلاءً مستتبعاً بالجزاء يوم الدين . ويكون إيمانه بذلك كله يقينياً راسخاً رغم أنه إيمان بالغيب .

أما غير المؤمن فإنه يقف عند حدود ظواهر الأشياء دون إرادة منه للتفكر في غاياتها ، ليس لأنه لا يستطيع هذا الأمر ، فإن ا لله قد مكّنه منه كما مكّن المؤمن ، وذلك لأن النوع الإنساني عموماً متفق على استخدام الاستدلال بالأمر المشاهد على الأمر الغيبي ،

وأنّه قد يفيد اليقين ولكن الكافر بالغيب الذي جاء إثباته في دين ا لله المنزل قد توقف في استدلالاته بالأمور المشاهدة على الأمور الغيبية عند حدود العلوم الكونية الدنيوية ، لأنه لايريد إلا الحياة الدنيا والتمتع بزينتها ، ولا يريد التفكير فيما وراء ذلك ، يقول جل شأنه: ﴿ **يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون**(٧)﴾الروم[(١)].

فالآية تبين التلازم بين من يقف عند حدود ظواهر الأشياء ولا يتفكر في غاياتها ولا فيما وراءها وبين إنكار اليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء ، والذي هو أمر غيبي به تكتمل الغاية من خلق الإنسان في هذه الحياة كما دل عليه قوله جل شأنه في الآية التي بعدها : ﴿ **أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق ا لله السمٰوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمًّى وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون** (٨) ﴾ الروم[(٢)].

وقال سبحانه : ﴿ **فأعرض عن من تولّى عن ذكرنا ولم يردْ إلا الحياةَ الدنيا** (٢٩) **ذلك مبلغهم من العلم** ...(٣٠) ﴾ النجم .

فهؤلاء الذين يقفون عند حدود الحياة الدنيا ولا يدركون الغاية من ورائها ، لم يكن ذلك منهم – كما سبق ذكره – لقصور في إدراكهم بل لأنهم معرضون بإراداتهم عن التفكّر في الذكر الذي جاء من عند ا لله سبحانه ، ومعرضون عن التفكّر في آيات ا لله في هذا الكون التفكير المؤدي إلى إيمانهم بالدار الآخرة وهم قد قصروا فكرهم كله على ظواهر هذه الحياة الدنيا لأنهم لا يريدون سواها ، فكانت تلك الحياة هي مبلغهم وغايتهم من العلم ، لا يعلمون شيئاً سواها ولا يريدون أن يعلموا . ولا شك أن نتيجة هذا الأمر هي عدم إيمانهم با لله تعالى الإيمان الحق ، وعدم إيمانهم باليوم الآخر وما فيه من جزاء .

إذاً يتبين مما سبق عظيم حكمة ا لله سبحانه في وجود كثير من الأمور الغيبية عن الإنسان ومطالبته بالإيمان بأعظمها أهمية ولاسيما الإيمان به سبحانه وبجزائه يوم الدين تلك الحكمة التي هي ابتلاء إيمان الإنسان، وهل سيكون راسخاً ثابتاً فيما لو غُيّبت عنه تلك

---

(١)– انظر تفسير التحرير والتنوير،لابن عاشور: جـ٢١،ص: ٤٩–٥٠ .

(٢)– انظر المرجع السابق:جـ٢١،ص: ٥٤ . وانظر الكون والإنسان في التصور الإسلامي،تأليف حامد صادق قنيبي،ص: ٥٢ . وانظر ص: ١٠٨ ،من هذه الرسالة .

الأمور ، أم سيعتريه الشك والريبة ، ومن ثمّ يضعف أو ينتقض كليّاً ؟[١].

الثبوت اليقيني لحقيقة ابتلاء الله تعالى للإنسان :

لقد تبين من خلال شرح الأضرب السابقة اقتضاء كلّ منها لكون الإنسان مبتلى في هذه الحياة ، وبجمع تلك البيانات المتفرقة فإنه يمكن تلخيص القول :

بأن الإنسان ذو شهوات قد تميل به نحو الرذيلة والشر باختياره وإرادته ، وذو فطرة خيرة وعقل يمكن أن يضبط تلك الشهوات ويسير بالإنسان نحو الخير والفضيلة باختياره أيضاً وإرادته . وهو في كلا الحالين له من داخل نفسه ما يحثّه على السير إما في طريق الخير وإما في طريق الشر ، وفي ذلك كله فإن جسده هو الآلة التي تنفّذ مراداته الخيّرة أو الشريرة أتم تنفيذ . والإنسان قد سُخِرَ له هذا الكون ، ومن خلال هذا التسخير فإنه قد يستخدم ما سخر له في عمل الخير ، وقد يستخدمه في عمل الشر .

والإنسان قد يُعمل فكره للوصول إلى الإيمان بربه تعالى الإيمان الصحيح ، وذلك من خلال آيات الله القولية والكونية ، وقد لايعمله فلا يكون مؤمناً به تعالى .

بناءً على تلك النتائج ، يكون التساؤل عن الغاية من خلق الإنسان .

والجواب هو : إما أن يقال إنه جل شأنه قد خلق الإنسان بالصورة التي أدت إلى تلك النتائج السابقة لا لغاية ولا لحكمة . وهذا باطل إذ يتنافى مع ما سبق بيانه من ثبوت الحكمة لله سبحانه في جميع أقواله وأفعاله ، وباطل أيضاً لأنه يؤدي إلى القول بأنه سبحانه قد خلق الخلق لعباً وعبثاً وهو تعالى منزه عن اللعب والعبث[٢].

وإما أن يقال إنه سبحانه قد خلق الإنسان بالصورة التي أدت إلى تلك النتائج السابقة ابتلاءً له واختباراً ، أي إنه جل شأنه : يبتلي الإنسان ويمتحنه فيما وهبه من صفات نفسية وجسدية ، ليظهر منه إن كان سيستفيد من تلك الصفات في القيام بأعمال الخير أم إنه سيستغلها للقيام بأعمال الشر . وهو جل شأنه : يختبر الإنسان ويمتحنه من خلال هذا

---

(١)- انظر في بيان حقيقة الابتلاء وبيان كثير من ضروبه : القضاء والقدر في الإسلام،لفاروق الدسوقي، جـ١ ، ص: ١٥٩ ، ١٧٩ ، ٢١١ - ٢٢٥ .

(٢)- انظر في بيان ثبوت الحكمة لله تعالى وانتفاء اللعب والعبث عنه جل شأنه . ص: ٧١-٧٥ .

الكون الذي سخره له ، ليظهر منه إن كان سيستخدمه فيما هو خير أو فيما هو شر .

وهو جل شأنه : يختبر الإنسان ويبتليه في كونه غيباً عنه ، هل يؤدي ذلك إلى إيمانه به وإن كان لا يراه ولا يدركه بحواسه الظاهرة ، إيماناً يقينياً نابعاً من قلبه . أم إنه سوف يكفر بربه الذي لا تحصى نعمه عليه ، لعدم إدراكه له تعالى بتلك الحواس . أي إن الحكمة من خلق الإنسان في هذه الحياة الدنيا هي ابتلاؤه . وهذا القول هو الحق ، إذ تلك الحكمة التي سبق بيانها هي حكمة تتّفق ومقتضى كمال صفات الرب تعالى وأفعاله ، والتي يمكن نسبتها إليه تعالى .

بناءً على ما سبق يمكن القول بأن : ابتلاء الإنسان في هذه الحياة من قبل الله عزوجل قد أصبح حقيقة لاشك فيها .

الجزاء الأخروي مقتضى ابتلاء الله للإنسان :

إن خلق الإنسان بالصورة التي سبق بيانها ، وإن كانت الحكمة منه هي ابتلاؤه ، إلا أن الفكر لا يقتنع بالوقوف عند حدود الابتلاء إذ يرى أن هذا الابتلاء والاختبار والامتحان وإن كان حكمةً لخلق الإنسان ، إلا أنه أمر يمكن أن يقال فيه : وما الغاية والحكمة منه ؟ أي : من وراء ذلك الابتلاء . وهل له من نتيجة تترتب عليه ؟ .

فإن قيل : إنه سبحانه لم يخلق الإنسان إلا ليبتليه ، وليمتحن فعله كيف يكون ؟ فإذا ظهر من الإنسان حقيقة فعله من خلال ما ابتلاه وامتحنه الله فيه ، أماته الله وانتهى كل شيء .

فإن هذا القول في حقيقته قول باطل ، وهو يقارب القول بأنه سبحانه قد خلق الإنسان بالصورة التي سبق بيانها ، ليعيش في هذه الحياة كما يريد ثم يموت وينتهي كل شيء ، وقد تبين أن هذا القول باطل ، إذ خَلْقُهُ سبحانه فِعْلٌ من أفعاله لابدّ أن تكون له حكمة ، ولابدّ أن ينتفي عنه العبث والباطل . فكذلك الابتلاء هو قضاء من أقضيته تعالى، وأقضيته جلّ شأنه كأفعاله وأقواله لابد أن تكون لها حكمة ما لم تكن هي في ذاتها غاية الحكمة وتمامها . ولا يمكن أن تكون غاية الحكمة ابتلاء عمل الإنسان كيف يكون خيراً أم شراً ؟ ، فإذا ظهر وتميّز الناس بعضهم عن بعض في العمل ، ماتوا جميعاً ، دون أي غاية تترتب على نتيجة ذلك الابتلاء .

إن شعور المبتلين بأنه لا غاية من وراء ابتلائهم سوف يكون دافعاً لهم حتماً إلى الانطلاق وراء الحصول على أعظم قدر من الأهواء والشهوات دون التقيّد بأي ضابط لتلك الأهواء والشهوات ، وهذا يؤدي حتماً إلى أنه لن يلتزم بالخير إلاّ أفراد معدودون من الناس ، وقد لا يلتزم أحدٌ أبداً . وهذه غاية لخلق الناس لا تتفق وحكمةَ ا لله جل شأنه بل إنها تناقضها ، وتبطل حكمة الابتلاء أيضاً .

إذاً فثبوت صفة الحكمة الكاملة لله سبحانه يقتضي أن يكون لابتلائه تعالى للناس في هذه الدنيا غاية حميدة .

والغاية التي تتفق ومقتضى الحكمة من الابتلاء هي : أن يجازى المبتلى على عمله الذي قدمه في زمن ابتلائه الجزاء الأوفى ، فيجازى المحسن بالإحسان والثواب ، والمسيء بالإساءة والعقاب،وبما أن ذلك الجزاء الأوفى لا يتحقق في الدنيا فلابد له إذاً من دار أخرى يتحقق فيها على الوجه الأكمل . تلك الدار هي الدار الآخرة ، والجزاء الواقع فيها هو الجزاء الأخروي [1].

وهذا الجزاء هو الغاية التي يمكن للعقل الوقوف عند حدها ، فلا يتساءل بعد ذلك عن حكمة تالية مقصودة من وراء هذا الجزاء [2]. قال سبحانه : ﴿ **إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً** (٢) ﴾ الإنسان .

وبعد إقرار هذه الحقيقة وهي : حقيقة أن خلق الإنسان قد كان لابتلائه ، قال تعالى :

﴿**إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً** (٣) **إنّا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً** (٤) **إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً** (٥) ﴾ الإنسان .

ثم فصّل سبحانه بعد ذلك ثواب عباده الصالحين في جنات النعيم .

فالإنسان إذاً ينقسم نتيجة لابتلائه في هذه الحياة إلى إنسان شاكر لربه مؤمن به متبع لصراطه ، وآخر كفور بربه ضال عن صراطه متبع لأهوائه وشهواته ، وكل منهما قد أعدّ ا لله له جزاءً يناسب عمله الذي قدمه ، فأعد للكافرين السلاسل والأغلال والسعير ،

---

(١)- انظر : العقيدة الإسلامية وأسسها ؛ عبدالرحمن حبنكة الميداني،ص: ٦٢١-٦٢٣ .

(٢)- وهكذا الحال في أي حكمة أخرى تذكر لخلق الإنسان في هذه الحياة لابد أن يكون الجزاء هو الغاية من ورائها .

وأعد للمؤمنين الشراب الهنيء والنعيم المقيم .

وبتلك الغاية التي يصل إليها الإنسان يوم القيامة - يوم الجزاء الأوفى - تكتمل الحكمة من ابتلائه في هذه الحياة الدنيا [1].

وهكذا فإن كثيراً من النصوص التي سبق الاستدلال بها على ثبوت حقيقة الابتلاء ، كانت تختم بالإشارة أو بالحديث عن يوم الدين ، يوم المصير إلى الله سبحانه ، أو عن الجزاء الواقع فيه أو نحو ذلك ، وهذا فيه دلالة على أن الحكمة تقتضي أن يكون لابتلاء الإنسان في هذه الحياة غاية لابد منها ، تلك الغاية هي : جزاء الإنسان الجزاء الأكمل على ما قدمه من عمل في حياته الدنيا ، قال عزوجل : ﴿ **وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجاتٍ ليبلوكم في ما آتاكم إن ربّك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم** (١٦٥) ﴾ الأنعام [2].

وقال جل شأنه : ﴿ ... **ونبلُوكم بالشرِّ والخيرِ فتنة وإلينا ترجعون** (٣٥)﴾الأنبياء[3].

وقال تبارك اسمه:﴿ **إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم**(١٥)﴾التغابن[4].

وعموماً فقد جاء في القرآن الكريم ما يدل على أن الحق الذي خلق الله به السماوات والأرض وما بينهما يقتضي بأن تكون الغاية من خلق الإنسان هي مجازاته على ما قدمه من عمل في حياته الدنيا ، قال جل جلاله : ﴿ **وخلق الله السمٰوات والأرض بالحقّ ولتُجْزَى كُلُّ نفسٍ بما كسبت وهم لا يُظْلَمون** (٢٢) ﴾ الجاثية .

وقريب من هذا ما جاء في الربط بين حقيقة خلق السماوات والأرض وحقيقة مجيء يوم الدين ، قال سبحانه : ﴿ **وما خلقنا السمٰوات والأرض وما بينهما إلاّ بالحق وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل** (٨٥) ﴾ الحجر .

---

(١)- انظر : الأخلاق الإسلامية وأسسها ؛ عبدالرحمن حبنكة الميداني،جـ١،ص: ٣٤٣ .

(٢)- انظر ما تقدم ص: ١٠٠.

(٣)- انظر ما تقدم ص: ١٠٠ .

(٤)- انظر ما تقدم ص: ٨٥ .

وقال تعالى : ﴿ **أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق ا لله السمٰوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمّى وإن كثيراً من الناس بلقاء ربِّهم لكافرون** (٨) ﴾الروم[1] .

وقال جل شأنه : ﴿ **وما خلقنا السمٰوات والأرض وما بينهما لاعبين**(٣٨)**ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون**(٣٩)**إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين**(٤٠)﴾الدخان .

قال الإمام ابن قيم الجوزية :

(فتأمّل أسرار كلام الرب تعالى وما تضمنته آيات الكتاب المجيد من الحكمة البالغة الشاهدة بأنه كلام رب العالمين ، والشاهدة لرسوله بأنه الصادق المصدوق ، وهذا كله من مقتضى حكمته وحمده تعالى ، وهو معنى كونه : خلق السماوات والأرض وما بينهما بالحق و لم يخلق ذلك باطلاً ، بل خلقه صادراً عن الحق آيلاً إلى الحق مشتملاً على الحق ، فالحق سابق لخلقها مقارن له غاية له ، ولهذا أتى (بالباء) الدالة على هذا المعنى دون (اللام) المفيدة لمعنى الغاية وحدها ، فالباء مفيدة معنى اشتمال خلقها على الحق السابق والمقارن والغاية .

فالحق السابق : صدور ذلك عن علمه وحكمته ، فمصدر خلقه تعالى وأمره عن كمال علمه وحكمته ، وبكمال هاتين الصفتين يكون المفعول الصادر عن الموصوف بهما حكمة كله ومصلحة وحقّاً ... .

وأما مقارنة الحق لهذه المخلوقات فهو ما اشتملت[2] من الحكم والمصالح والمنافع والآيات الدالّة للعباد على ا لله ووحدانيته وصفاته وصدق رسله وأن لقاءه حق لا ريب فيه...

وأما الحق الذي هو غاية خلقها ، فهو غاية تراد من العباد وغاية تراد بهم ، فالتي تراد منهم أن يعرفوا ا لله تعالى وصفات كماله عزوجل ، وأن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً ، فيكون هو وحده إلههم ومعبودهم ومطاعهم ومحبوبهم ، قال تعالى :

---

(١)- انظر ما سبق ص: ١٠٣ .

(٢)- هكذا وردت في الكتاب المطبوع .

﴿ ا لله الذي خلق سبع سمٰوات ومن الأرض مِثْلَهُنَّ يتنزَّلُ الأمـرُ بينهـنَّ لتعلمـوا أن ا لله على كلِّ شيءٍ قديرٌ وأن ا لله قد أحاط بكلِّ شيءٍ علماً ﴾ (١).

فأخبر أنه خلق العالَم ليعرف عباده كمال قدرته ، وإحاطة علمه ، وذلـك يسـتلزم معرفتـه ومعرفة أسمائه وصفاته وتوحيده ، وقال تعالى :

﴿ وما خلقت الجنَّ والإنس إلاّ ليعبدون﴾(٢).

فهذه الغاية هي المرادة من العباد وهي أن يعرفوا ربهـم ويعبـدوه وحـده . وأمـا الغايـة المرادة بهم فهي الجزاء بـالعدل والفضـل والثـواب والعقـاب ، قـال تعـالى : ﴿ و لله ما في السـمٰوات ومـا في الأرض ليجـزي الذيـن أسـاءوا بمـا عملـوا ويجـزي الذيـن أحسـنوا بالحسنى﴾(٣))(٤)

الاستدلال الرابع :

الجزاء الأخروي مقتضى الحكمة الإلٰهية في تكليف الإنسان :

هذا الاستدلال يقوم على ذات الأسس التي قام عليها الاستدلال السـابق ، فهـو يقـوم على أساس ثبوت صفة الحكمة لله سبحانه ثبوتاً يقينياً علـى مـا يليـق بكمـال ا لله تعـالى ، ذلك الثبوت الذي يقتضي أن يكون وراء كـل فعـل مـن أفعـال ا لله سـبحانه أو قـول مـن أقواله أو قضاء من أقضيته علة محمودة مقصودة للرب جل شأنه ، بما يلزم عنه انتفاء العبث والباطل عن جميع تلك الأمور . ويقوم على أساس أنه سبحانه قد خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق(٥)، وأن ذلك يقتضي أن يكون خلقه للإنسان بالحق ، وأن يكـون ذلـك الحق موجوداً في جميع أقضية ا لله تعالى المتعلقة بالإنسان . ويقوم على أساس الأضرب الـتي سبق بيان اقتضائها للابتلاء ، إذ هي كذلك تقتضي كون الإنسان مكلّفاً في هذه الحياة من

---

(١)- آيـة (١٢) من سورة الطلاق .

(٢)- آيـة (٥٦) من سورة الذاريات .

(٣)- آيـة (٣١) من سورة النجم .

(٤)- بدائع الفوائد،لابن قيم الجوزية،ص: ١٦٢-١٦٤ . باختصار .

(٥)- وهو أساس ينبني على الأساس الذي قبله . انظر ما سبق ص: ٧٣-٧٥ .

قبل ربه جل وعلا . وبيان هذا الاستدلال على النحو التالي :

إن الإنسان وإن كان قد وهبه ا لله سبحانه فطرة صالحة ميَّالةً إلى كل خير ، ومكّنه من التمييز بين كثير من الأعمال الحسنة والأعمال السيئة ، إلا أنه نظراً لوجود دواعي الأهواء والشهوات التي لها على النفس تأثير كبير ، فقد يلتبس على الإنسان في مسيرة حياته الحق بالباطل ، فلا يستطيع التمييز بينهما . فإذا كان الإنسان حرّ الإرادة مسخّراً له الكون، فإنه قد يختار سلوك سبيل تحقيق أهوائه وشهواته الجامحة ، وإن اقترف في سبيل تحقيقها الآثام والشرور ، وإن بغى واعتدى وظلم غيره من الناس ، وقد لا يرى في ذلك غضاضة إذ يظن أن سبيله هذا هو السبيل الواجب الاتباع لكونه يحقق له رغباته وشهواته تلك ، وهذا ما حصل بالفعل في حياة البشر . وقد يقال : بأن البشر يمكنهم أن يضعوا لأنفسهم منهجاً يضبطون به تصرفاتهم وفق حدود معيّنة ، ويجاب عن هذا بأن الخيبة هي مصير أي منهج بشري يوضع فى سبيل ضبط أعمال الناس وفق حدود معينة ، وذلك لأسباب من أهمها :

١- أن ذلك المنهج لا يراعي غالباً مصالح جميع الناس بل هو يراعي في المقام الأول مصالح واضعيه وإن أتت على حساب بقية الناس .

٢- وأيضاً فإن واضعيه هم قلة من البشر مهما بلغوا فإن عملهم لابد أن يكون ناقصاً، بحيث يظهر ذلك النقص بعد زمن يسير من تطبيقه .

٣- وأيضاً فإن القائمين على وضع ذلك المنهج إن استطاعوا أن يحملوا الناس على تطبيقه بقوة السلطان فإنهم لن يستطيعوا أن يحملوهم على محبته ، وبالتالي فإن كثيراً من الناس سوف يبحثون عن الطرق التي يخالفون بها ذلك النظام دون أن يتعرضوا للعقوبة وإذا أمكن اقناع فريق من الناس بمحبة منهج وضعي لمدة من الزمن بحجة تحقيقه لمصالحهم، فإنه بعد اكتشاف عيوب ذلك المنهج وسقوطه ، وبعد تكرار وضع مناهج متعددة تنتهي إلى نفس النتيجة السابقة ، بعد ذلك كله يصبح الشعور الأول لدى غالبية الناس هو الشك في أي منهج يوضع لتنظيم حياتهم ، وعدم احترامه ، ومن ثم البحث فوراً عن تلك الطرق التي يستطيعون بها مخالفة هذا المنهج الجديد ، بأمان من أي سلطة دنيوية . هذا في

علاقة البشر بعضهم مع بعض ومع الكون من حولهم ، وأما علاقتهم بربهم عزوجل ، فإن البشر إذا كانوا لم يستطيعوا أن يوجدوا منهجاً يحكمون به علاقتهم بعضهم ببعض فكيف يستطيعون أن يوجدوا منهجاً لعلاقتهم بخالقهم على الوجه الذي يرضيه جل وعلا؟! .

إن الموقنين بوجود خالق لهذا الكون يعتقدون - إلا من ندر منهم - بأن لهذا الخالق جل وعلا عبادات يجب عليهم أن يؤدّوها نحوه ، ولكن ما هي تلك العبادات التي ترضيه؟.

إن تحديد تلك العبادات لو ترك للبشر لأدى إلى أن يكون لكل مجموعة من الناس طريقة تؤدي بها تلك العبادة ، تتعصب لها ضد طرق الآخرين ، وربما وقع بينهم التناحر والقتال من أجل ذلك ، دون أن يكون لأحد منهم الدليل الصحيح على أن طريقته تلك هي الطريقة الحقة ، بل قد تكون جميع تلك الطرق طرقاً باطلة لا يرضى عنها الرب جل شأنه . وهذا ما حصل لدى الأديان الوضعيه أو المحرّفة .

وقد حصل أمر آخر لدى تلك الأديان وهي عدم توحيد الخالق سبحانه في ربوبيته أو ألوهيته ، فيعبدون معه سبحانه ، أو من دونه ، آلهة أخر بأي نوع من أنواع العبادة ، دون أن يكون لديهم دليل حق على أن الله سبحانه قد أمر بعبادتها أو أنه أباح ذلك ، هذا على رغم ميل العقل المنصف إلى أن المتفرّد بالخلق يجب أن يكون متفرّداً بالعبودية جل شأنه .

إذاً فالبشر ذوو إرادة حرة وذوو أهواءٍ وشهوات كثيراً ما تميل بهم إلى فعل الشرور والمنكرات والبغي والظلم ، والبشر كذلك غيرقادرين على وضع منهج لهم يضبطون به تصرفاتهم ضمن حدود الخير ، وهم من باب أولى غير قادرين على وضع منهج لعلاقتهم بربهم عزوجل . بناءً على ذلك فقد يقول قائل : إنه سبحانه قد خلق البشر بالكيفية التي أدت إلى تلك النتيجة دون أن يكون منه تعالى أيّ بيان لأي منهج يكون به صلاح علاقة البشر بعضهم مع بعض ومع الكون من حولهم ، وصلاح علاقتهم بربهم عزوجل .

ولكن هذا التقدير لاتجوز نسبته إلى الله سبحانه لأن النتيجة التي تحصل من ورائه تتعارض مع صفة الحكمة الثابتة لله سبحانه ، إذ كيف يجوز تصوّر أن الله جل شأنه

الحكيم في فعله وقضائه قد ترك الإنسان من غير هداية واضحة المعالم حتى يخبط في الكون خبط عشواء ، فيؤدي به ذلك إلى كثير من المفاسد والشرور والآثام بقصد منه لها أو بغير قصد . فإذا لم تجز نسبة هذا التصور إلى الله عزوجل ، لم يبق إذاً إلا أن يقال إن حكمته تعالى تقتضي أن ينزل جل وعلا على عباده منهجاً يكلّف العباد بتطبيقه ، ويكون واضح المعالم ينظّم علاقتهم مع بعضهم البعض ومع الكون من حولهم ، ويبينّ لهم كيف يعبدونه جل جلاله العبادة التي ترضيه . فينزل لهم منهجاً إذا طبّقوه على أكمل وجه لم يَبْقَ مجالٌ لحدوث شرٍ أو إثم أو ظلم أو كفر على هذه الأرض [1] .

وذلك المنهج سيكون فيه بالضرورة ضوابط لأهواء الناس وشهواتهم ضمن حدود معينة بحيث لا يتعدى بعضهم على بعض . ومثل تلك الضوابط قد تجعل كثيراً من الناس لا يلتزمون بذلك المنهج وإن كان فيه تحقيق الخير والسعادة لمجموعهم في هذه الحياة ، إذ إن الأهواء والشهوات الجامحة تدفع صاحبها إلى تلبية مقتضياتها وإن تجاوز في ذلك الحدود، وتعمي بصره عما في تجاوزه ذلك من شرور قد تصيبه في نهاية الأمر .

وعليه فإن مجرد وجود منهج أو تكليف رباني لحياة البشر على هذه الأرض لا يدفع الناس بالضرورة إلى الالتزام به ، لأنهم سوف يرون أن هذه الحياة هي المجال الوحيد للحصول على المتع والملذات ، فلا ينبغي إذاً الالتزام بأي منهج يحد من تلبية أكبر قدر من تلك الملذات . وكذلك فإنهم سيرون أن نهاية كل من التزم بذلك المنهج أو لم يلتزم به قد كانت في كثير من الأحيان نهاية واحدة ، بل إن من لم يلتزم كان أحسن حالاً في نظر كثير من الناس من أهل الدنيا من الملتزم لأنه اغتنم أكبر قدر ممكن من الشهوات والملذات.

وحصول المصائب العامة نتيجة مخالفة ذلك المنهج لا يدفع كثيراً من الناس – حسب واقع الحياة – إلى الالتزام به ، إذ هي في نظرهم مجرد شرور غالباً ما تعم الصالح والمفسد ،

---

(١)- انظر شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ؛ لابن قيم الجوزية ؛ ص: ٤٣٨ . والمدخل لدراسة الشريعة الإسلامية ؛ عبدالكريم زيدان ؛ ص: ٣٩-٤٣ . و: عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم ؛ محمد أبو النور الحديدي ؛ ص: ١٢-٢٤ . و: الرسل والرسالات ؛ عمر سليمان الأشقر ؛ ص: ٢٩-٣٩ .

فإذا عمّت لم يكن للمتمسك بالمنهج الإلـهي ميزة على مخالفه . وإذا لم تعم واختصت بمخالف المنهج الإلـهي فهو يرى أنه قد نال في حياته الكثير من الملذات ويكفيه هذا في نظره ونظر غيره ممن هو على منواله . وكثير من المؤمنين قد ينالهم من المصائب وأنواع الظلم والاضطهاد على أيدي غير المؤمنين فهي تقابل ما يصيب غير المؤمنين .

وسيطرة المتمسكين في بعض الأوقات لا تجعل المخالفين يتركون سيرهم في السبيل الذي اختاروه ، إنهم على الرغم من تلك السيطرة يمكنهم النيل من كثير من الأهواء والشهوات المحرمة ، ولا يستطيع صاحب السلطان أن يراقب على الدوام جميع أعمال المنحرفين ، ثم إن سيطرة المتمسكين قد لا تعني شيئاً بالنسبة إلى غيرهم ، إذ كثيراً ما كان السلطان لـهم على أولئك الملتزمين بالمنهج الإلـهي . فإنزال منهج أو تكليف مجرد عن أيّ ترغيب قويّ لمن يريد اتباعه وترهيب شديد لمن يريد مخالفته سوف يؤدّي حتماً إلى نُدرة من يتبعون ذلك المنهج ، وحتى هؤلاء قد يضطّرون في نهاية الأمر إلى التخلي عن الالتزام بذلك المنهج إذا واجهتهم الصعوبات والشدائد من جراء تطبيقهم له .

وأيضاً فإن إنزال منهج مجرد عن أيّ جزاء وافٍ ينال كلاً ممن تبعه وخالفه سيؤدي في الغالب إلى تساوي نهاية كل منهما ، بل إنه ربما يموت من خالفه وهو في مركز القوة والسلطان ، ويموت من وافقه وهو في مركز الضعف والهوان . إن إنزال مثل هذا المنهج وعدم إنزاله سواء ، إذاً فلا تليق نسبة إنزال مثل هذا المنهج إلى ا لله سبحانه وإلى حكمته البالغة ، وذلك لأنه ليست الغاية هي مجرد وجود منهج للحياة بل الغاية وجود منهج يمكن أن يكون له أتباع عديدون ، بسبب ما يوجد فيه من عوامل تقوي من عزائمهم للثبات عليه تجاه ما يواجههم من مغريات أو شدائد تحول بينهم وبين الالتزام به من جهة ، وترهبهم من مخالفته إن حدثتهم أنفسهم بذلك من جهة أخرى،والغاية كذلك وجود منهج يكون لمتبعه في النهاية العاقبة الحسنة ، ولمخالفه العاقبة السيئة فلا يكون مصيرهما متحداً . وبالتالي فإن المنهج أو التكليف الذي تليق نسبته إلى ا لله العدل الحكيم سبحانه هو المنهج المستتبع بالجزاء الأوفى المناسب لعمل كلٍّ ممن اتبعه أو خالفه ، وذلك الجزاء إن لم يكن في هذه الدنيا – كما هو الواقع المشاهد – فلابد من اعتقاد وجود دار أخرى يتم

فيها ذلك الجزاء على أكمل وجه ، وذلك هو الجزاء الأخروي [1]. ومما يدل على أن التكليف المستتبع بالجزاء هو الأمر الذي يجب على المؤمن بـا لله تعالى وبحكمته البالغة أن ينسبه إلى ربه جل شأنه ، ما ورد في النصوص من الإنكار على من زعم أنه تعالى قد خلق هذا الخلق عبثاً ، بلا غاية ولا هدف ، فتركهم سدىً لم يأمرهم بشيء ، ولم ينههم عن شيء ، ولن يتبعَ أعمالهمَ بأي حساب ولا جزاء [2]. وقد أنكر سبحانه ذلك باعتبار أنه نقص يجب أن ينزّه تعالى عنه كما ينزّه عن سائر العيوب والنقائص ، والمؤمن بـا لله تعالى وبأسمائه وصفاته الإيمان الحق يدرك ذلك ويعلمه قال جل شأنه : ﴿ **إن في خلق السمٰوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب** (١٩٠) **الذين يذكرون ا لله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكّرون في خلق السمٰوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار** (١٩١) ﴾ آل عمران .

فهذا ثناء من الرب سبحانه على عباده الذين تدبروا في خلقه للسماوات والأرض ، وتدبّروا ما في ذلك الخلق من دلائل وصف ا لله تعالى بكمال الحكمة ، مما أوصلهم إلى الشهادة لله بأنه لم يخلق السماوات والأرض باطلاً بل خلقهما بالحق و (لما علموا ذلك وشهدوا به علموا أن خلقها يستلزم أمره ونهيه وثوابه وعقابه فذكروا في دعائهم هذين الأمرين فقالوا : ﴿ ... **ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار** (١٩١) **ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من انصار** (١٩٢) ﴾ [3].

فلما علموا أن خلق السماوات والأرض يستلزم الثواب والعقاب تعوذوا بـا لله من عقابه ثم ذكروا الإيمان الذي أوقعهم عليه فكرهم في خلق السماوات والأرض فقالوا :

﴿**ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنّا** ...(١٩٣) ﴾ [4].

---

(١)- لاينفي هذا أهمية وجود الجزاءات الدنيوية العاجلة لكنها تظل جزئية لا تشمل جميع الناس ، ولا جميع أعمالهم ، ويمكن للكثير أن يتهرب منها . انظر : المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية ؛ عبدالكريم زيدان،ص: ٤٤-٤٥ . و: أصول الدعوة ؛ عبدالكريم زيدان ، ص: ٦٦-٦٧ .

(٢)- انظر بدائع الفوائد،لابن قيم الجوزية،جـ٤،ص: ١٦٤-١٦٥ .

(٣)- سورة آل عمران .

(٤)- سورة آل عمران .

فكانت ثمرة فكرهم في خلق السماوات والأرض الإقرار به تعالى وبوحدانيته وبدينه وبرسله وبثوابه وعقابه ...)[1].

وأما من كان في إيمانه با لله وبأسمائه وصفاته خلل فإنه قد يظن جواز وقوع شيء من الباطل في فعله سبحانه أو قضائه ، فيعتقد أنه جل شأنه لا يعنيه أمر خلقه ، ومن الجائز أن يتركهم سدىً فلا يكلفهم ولا يجازيهم ، وهذا اعتقاد باطل ، قال سبحانه في الإنكار على من ظن هذا الظن الكاذب : ﴿ **أيحسب الإنسان أن يترك سدى** (٣٦)﴾ القيامة .

ويلاحظ أنه تقدست أسماؤه قد أنكر أن يكون خَلَقَ الخَلْقَ سدىً لامن جهة الإخبار المحض، بل إنه سبحانه أنكره إنكار (من جعل في العقل استقباح ذلك واستهجانه وأنه لا يليق أن ينسب ذلك الكلام إلى أحكم الحاكمين)[2].

ثم ذكر سبحانه بعد قوله ﴿ **أيحسب الإنسان** ..﴾ : الأطوار التي جعل الإنسان يتقلّب فيها حتى يبلغ الكمال ذكراً كان أو أنثى ، من وقت أن كان نطفة لا حياة فيها إلى أن أصبح كائناً حيّاً مكتمل النمو حسن الخلقة ، قال جل شأنه :

﴿ **ألم يك نطفة من منيٍّ يمنى** (٣٧) **ثم كان علقة فخلق فسوّى** (٣٨) **فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى** (٣٩) ﴾ القيامة .

ولهذا الخلق ذي الأطوار المتعددة دلالة على الجزاء الأخروي من جهتين :

الجهة الأولى : أن القادر على ابتداء الخلق قادر على إعادته مرة أخرى إلى الحياة ، فليست الإعادة أصعب من الابتداء بل إنها قد تكون أسهل ، وبهذه الدلالة ختم ا لله سبحانه هذه الآيات بقوله : ﴿ **أليس ذلك بقادر على أن يُحْيِيَ الموتى** (٤٠) ﴾ القيامة .

الجهة الثانية : أن من تدبّر ما في الأطوار التي يتقلب فيها الإنسان عند خلقه من حكم عظيمه وآيات باهرة ، أدرك أن خالق هذا الإنسان إله كامل الحكمة والعلم والقدرة، ولذلك فإنه يستحيل أن يترك هذا الإنسان سدى ، إذ هو مناقض للحكمة ، بل

---

(١)- بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية،جـ٤،ص: ١٦٦ .

(٢)- ابن قيم الجوزية في:مفتاح دار السعادة،جـ٢،ص: ١٢ ، وانظر أيضاً نفس الكتاب،جـ١،ص: ٧ .

لابد أن يكون قد جعله مكلّفاً في هذه الحياة مجازى على تكليفه في حياة أخرى [(١)].

قال ابن القيم : (فمن لم يتركه وهو نطفة سدى ، بل قلب النطفة وصرّفها حتى صارت أكمل مما هي وهي العلقة ، ثم قلب العلقة حتى صارت أكمل مما هي ، حتى خلقها فسوى خلقها فدبرها بتصريفه وحكمته في أطوار كمالاتها حتى انتهى كمالها بشراً سويّاً ، فكيف يتركه سدى لا يسوقه إلى غاية كماله الذي خلق له ، فإذا تأمل العاقل البصير أحوال النطفة من مبدئها إلى منتهاها دلّته على المعاد والنبوّات ، كما تدل على إثبات الصانع وتوحيده وصفات كماله ، فكما تدل أحوال النطفة من مبدئها إلى غايتها على كمال قدرة فاطر الإنسان وبارئه ، فكذلك تدل على كمال حكمته وعلمه وملكه ، وأنه الملك الحق المتعالي عن أن يخلقها عبثاً ويتركها سدى بعد كمال خلقها...)[(٢)].

وكذلك فقد أنكر سبحانه على من زعم أنه خَلَقَ الخَلْقَ عبثاً ، بحيث إنه لن يجازيهم على أعمالهم وإن كلفهم ، بسبب أنه يلزم من ذلك الزعم التسوية بين الفريقين المكلفين اللذين سلكا طريقين مختلفين أي إن كلاًّ من المؤمنين والكافرين والمصلحين في الأرض والمفسدين فيها ، والمتقين والفجار ، والمطيعين والعصاة والمظلومين والظلمة ، قد انتهوا إلى مصير واحد . وهذه التسوية في المصير بين الفريقين المكلفين المختلفين ضرب من العبث الذي يتنزه ا لله تعالى عنه فلابد إذاً من الفصل بينهما ، وتمييز كلٌّ منهما عن الآخر ، ثم مجازاة كلٍّ بما يستحقه ، وهذا الإنكار يوجد في قوله تعالى :

﴿ **أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار** (٢٨) ﴾ ص .

---

(١)- انظر مفتاح دار السعادة،لابن قيم الجوزية،جـ٢،ص: ١٢ . و: شفاء العليل له،ص: ٣٦٧ . و: التبيان في أقسام القرآن له،ص: ١٠١-١٠٢ . و: تفسير ابن كثير:جـ٤،ص: ٤٥٢ . و: في ظلال القرآن ؛ سيد قطب:مـج٦،جـ٩،ص: ٣٧٧٣-٣٧٧٤ . و: تفسير سورة القيامة ؛ عبدالرحمن حبنكة الميداني ، حديث إذاعي ألقي في جمادى الثانية ١٤٠٨هـ .

(٢)- بدائع الفوائد،لابن قيم الجوزية،جـ٤،ص: ١٦٥-١٦٦ .

وقوله جل شأنه : ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئاتِ أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون** (٢١)﴾ الجاثية .

وللإمام ابن قيم الجوزية كلام حول هاتين الآيتين الكريمتين قال فيه : (فدل على أن هذا [١] حكم سيء قبيح ينزّه ا لله عنه ، و لم ينكره سبحانه من جهة أنه أخبر بأنه لا يكون وإنما أنكره من جهة قبحه في نفسه ، وأنه حكم سيء يتعالى ويتنزه عنه لمنافاته لحكمته وغناه وكماله ووقوع أفعاله كلها على السداد والصواب والحكمة ، فلا يليق به أن يجعل البر كالفاجر ولا المحسن كالمسيء ولا المؤمن كالمفسد في الأرض ، فدل على أن هذا قبيح في نفسه تعالى ا لله عن فعله) [٢] .

وقد مضى في الاستدلال السابق بيان أنه مهما ذكر من حكم لخلق الإنسان في هذه الحياة فإن ذلك الخلق لا يمكن أن يكون بالحق إلاّ إذا كان الجزاء هو الغاية العظمى من وراء خلق الإنسان ، وسبق بيان دلالة القرآن على ذلك [٣] .

وهكذا يتبين من خلال هذا الدليل والذي قبله مدى ارتباط الإيمان بالجزاء الأخروي بالإيمان بحكمة ا لله البالغة والكاملة ، فمن آمن بتلك الحكمة وتيقن بأنه سبحانه لا يجوز أن يكون في فعل من أفعاله أو قول من أقواله أو قضاء من أقضيته عبث أو باطل ، آمن وتيقن بأنه سبحانه لابد أن يجازي عباده على ما عملوه في هذه الحياة ثواباً للمحسن وعقاباً للمسيء.

الحكمة من جعل الجزاء أخروياً مؤجلاً ، لا دنيويّاً معجلاً :

إن لله جل شأنه حكماً كثيرة من وراء جعله الجزاء أخروياً مؤجلاً لا دنيوياً معجلاً ، وقد يكون من تلك الحكم – وا لله أعلم – ما يلي :

الأولى : إن من تمام الحكمة أن يكون الجزاء بعد انتهاء مدة التكليف تماماً بالنسبة للمكلف حتى يكون الجزاء مستوفياً لجميع أعماله ، وحتى يتم تقويم جميع أعمال المرء ،

---

(١)- أي : التسوية بين المختلفين ، كما يدل عليه السياق .

(٢)- مفتاح دار السعادة،لابن قيم الجوزية،جـ٢،ص: ١١-١٢ . وانظر : شفاء العليل له،ص : ٣٣٤ .

(٣)- انظر ما سبق ص: ١٠٥-١٠٩ .

ليكون الجزاء بحسب نتيجة هذا التقويم ، وذلك أنه قد يكون لبعض الأعْمال المتأخرة أثر في مغفرة أعمال سابقة أو إبطالها كإيمان المرء بعد كفره أو العكس .

الثانية : أن الجزاء إذا كان أخروياً فإنه يحقق بالنسبة لمجموع المكلفين معنى قد لا يتحقق إن كان معجلاً لكل مكلّف ، وهذا المعنى هو تحديد الأكثر سبقاً وفوزاً بالنسبة للمثابين ثم من دونه ، وهذا من تمام الجزاء والمكافأة للمثابين . وكذلك تحديد الأشد خسارة وخيبة من المعاقبين ثم من هو أقل خسارة ، وهذا أيضاً من تمام جزاء المعاقبين .

الثالثة : إن ظروف هذه الحياة لا يتأتى فيها إعطاء الجزاء الكامل والأوفر ، فإنها مبنية على أساس اختلاط مرها بحلوها ليتم الابتلاء والتكليف ، وأما الدار الأخرى فقد أعدّ سبحانه فيها أتم الإعداد دارين خالصتين للجزاء ، إحداهما خالصة للجزاء بالثواب ، والأخرى خالصة للجزاء بالعقاب [1].

الرابعة : إن الإيمان بالغيب هو من أهم صفات المؤمن بالله وبما أخبر به الإيمان الحق، وقد سبق بيان ذلك ، وسبق الاستشهاد عليه بقوله جل شأنه [2]: ﴿ **ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين** (٢) **الذين يؤمنون بالغيب**...(٣) ﴾ البقرة .

وذلك لأن الإيمان الغيبي بالله وبما أخبر به يدل على صدق الإيمان وثباته ، وأما المؤمن بالأمر المشاهد فإنه لايستحق مدحاً لأنه يكون في حكم المضطر ، إذْ لو أنكره لما عُدَّ في جملة العقلاء ، ولذلك لاينفع الكافرين إيمانهم عند موتهم ولايوم القيامة ، إذ قد أصبح الغيب مشهوداً أمامهم فلا فضيلة لهم في ذلك الإيمان [3].

ونتيجة لذلك كله فقد جعل الجزاء غيبياً حتى لايناله إلاّ من يؤمن بالله وبوعده ووعيده حق الإيمان ، وحتى تتم حكمة ابتلاء الإنسان وتكليفه في هذه الحياة .

---

(١)- انظر شفاء العليل ، لابن قيم الجوزية . ص:٤٠٩ ، ٤١٤-٤١٥ . ومفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ، له . جـ١ ، ص: ٢٧٤-٢٧٥ .

(٢)- انظر ماسبق ص: ١٠١-١٠٤ .

(٣)- انظر مفتاح دار السعادة ، لابن قيم الجوزية،جـ١ ، ص:٤.

هذا بعض ما يمكن استنتاجه من حِكَمِ جَعْلِ الجزاء أخروياً غيبياً[1]، ومـن وراء ذلـك حكم لله سبحانه لايحصيها إلا هو جل شأنه . وا لله أعلم .

(١)- انظر في ذلك : قضية الألوهية بين الفلسفة والدين-الكتاب الثاني : ا لله.. والإنسان ؛ عبدالكريم الخطيب ، ص: ٣٥٤ وما بعدها .

الفصل الثالث

حكمة الجزاء الأخروي وأثر الإيمان به في النفس والسلوك ويشتمل على :

أولاً : بعض الحكم المترتبة على تحقق اليوم الآخر وتحقق ما فيه من جزاء .

ثانياً :أثر الإيمان بالجزاء الأخروي في النفس والسلوك .

أولاً: بعض الحكم المترتبة على تحقق اليوم الآخر وتحقق ما فيه من جزاء .

تبين مما سبق أن الجزاء الأخروي هو مقتضى أسماء الله وصفاته وحكمته في خلقه وأنه سبحانه قد اقتضت حكمته أن يهيّئ لهذا الجزاء يوماً يصلح لإقامته على الوجه الأكمل وسمي ذلك اليوم في الاصطلاح الشرعي باليوم الآخر ، لأنه يقع بعد انقضاء الحياة الأولى .

وقد هيأ الله سبحانه في ذلك اليوم جميع ما اقتضته حكمته لإتمام الجزاء ، من بعث ونشور وحساب وميزان وحوض وصراط...ودار لِجزاء الصالحين وهي الجنة وأخرى لجزاء المجرمين وهي النار .

وإذا كان إيجاد تلك الأمور مما اقتضته حكمة الله سبحانه ، فإن في تحقيقها حكماً أخرى لايحصيها إلاهو جل شأنه ، وقد أشار تعالى إلى بعضها في كتابه الكريم ، فمن تلك الحكم التي بينها سبحانه في كتابه ما يلي :

الأولى : تحقيق ما أقيم اليوم الآخر من أجله وهو الجزاء العادل لجميع المكلفين على ما قدّموه من أعمالٍ في حياتهم الدنيا فيجزى بالثواب من أحسن ويجزى بالعقاب من أساء .

قال جل شأنه في ذلك : ﴿ **يومَ تُبَدّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسمٰواتُ وبَرَزوا لله الواحد القهار** (٤٨) **وترى المجرمين يومَئذ مقرّنين في الأصفاد** (٤٩) **سرابيلُهم من قَطِران وتغشى وجوهَهم النار** (٥٠) **ليجزي الله كلَّ نفسٍ ماكسبت إن الله سريعُ الحساب**(٥١) ﴾ إبراهيم .

وقال تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا لاتأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتيّنكم عالم الغيب لايعزبُ عنه مثقالُ ذرةٍ في السمٰوات ولا في الأرض ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبرُ إلا في كتابٍ مبين** (٣) **ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم** (٤) ﴾ سبأ .

فذلك اليوم وكل ما يجري فيه إنما غايتة مجازاة العباد على كسبهم في الدنيا .

الثانية : أداء الحقوق إلى أهلها ، وهو ما سبق بيانه في موضوع القصاص ، فذلك اليوم هو يوم إقامة العدل المطلق ، ومن مقتضى العدل ردّ كل أمرٍ قد وُضع في غير موضعه

إلى نصابه ، أي إبطال جميع أنواع الظلم الذي من مقتضاه وضع الشيء في غير موضعه[1] وإحقاق الحق بدله ، ويدخل في ذلك معاملات العباد بعضهم مع بعض ، فكلّ ظلم وقع من عبدٍ على عبد آخر لابدّ وأن يُقْتَصَّ لمن وقع عليه ممّن أوقعه به ، القصاص الذي يردّ له حقه كاملاً غير منقوص .

هذا وقد تبين أن ذلك القصاص لاعلاقة له بكون المقتّص له من أهل النار والمقتصّ منه من أهل الجنة ، بل يُقتص للأول من الثاني قبل أن يدخل كل منهما دار جزائه ، وأن المؤمنين لا يدخلون الجنة حتى يُقتصّ لبعضهم من بعض ما كان بينهم في الدنيا من مظالم، وذلك حتى لايدخل أحد الجنة وعليه لأحدٍ حق أوله عند أحد حق .كما مرّ أيضاً أن القصاص يوم القيامة يكون بالحسنات والسيّئات ، وأنه يشمل حتى الحيوانات ، وبذلك يتم العدل فيما يتعلق بحقوق العباد فيما بينهم .

الثالثة : بيان الحق فيما اختلف فيه الناس في الدنيا ، فإن الناس يكونون في الدنيا على عقائد شتى ومذاهب مختلفة ، ومن أهم اختلافاتهم اختلافهم في الدين ، في عقيدتهم في الإله وكيفية علاقتهم به ، وفي عقيدتهم في أمره وشرعه ، وفي عقيدتهم في الملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر إلى غير ذلك من أمور العقيدة والعبادة ، وكُلٌّ كان يدّعي أن الحق هو ما اعتقده وأن ما سوى معتقده هو الباطل ، وأنه على هدى والآخرين على ضلال ، فإذا جمع الله الخلائق في اليوم الآخر للجزاء ، كان من مقتضى حكمته سبحانه -كما بيّنه تعالى في كتابه- أن يبيّن الحق من الباطل في جميع ما اختلف فيه الناس من أمور العقائد فيظهر الحق واضحاً جلياً لالبس فيه ولا خفاء ، ويتميّز عنه ما سواه من أنواع الباطل التي لاحصرلها ، وبذلك يكون جزاء العباد على بينة من الأمر فيعلم المثاب لم أثيب ويعلم المعاقب لم عوقب .

وهذه الحكمة أشار إليها سبحانه في كتابه في مواضع مختلفة منها قوله تعالى : **﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لايعلمون مثل قولهم فا لله يحكم بينهم يوم القيامة**

---

(١)- انظر شفاء العليل ص:٣٠٢ .

فيما كانوا فيه يختلفون (١١٣) ﴾ البقرة .

وقوله تعالى : ﴿ **وأقسموا با لله جهد أيمانهم لا يبعث ا لله من يموت بلى وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لايعلمون** (٣٨) **ليبيّن لهم الّذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين** (٣٩) ﴾ النحل .

فتبيينه تعالى للناس ما اختلفوا فيه هو أحد حكمه في إقامة اليوم الآخر بما فيه من جزاء[1] كما هو ظاهر من الآية .

وقال جل شأنه في موضع آخر : ﴿ **...والّذين كفروا إلى جهنم يحشرون** (٣٦) **لِيَميزَ ا لله الخبيثَ من الطيب ويجعلَ الخبيثَ بعضَه على بعضٍ فيرْكُمَه جميعاً فيجعلَه في جهنّم أولئك هم الخاسرون** (٣٧) ﴾ الأنفال .

ففي ذلك اليوم يتميّز الحق من الباطل ويتميّز أهل الإيمان من أهل الكفر ويلقى كل منهما جزاءه المناسب .

الرابعة : وهي الحكمة الثانية التي تشير إليها آية سورة النحل التي سبق ذكرها وهي قوله تعالى : ﴿ **ليبيّن لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين**(٣٩)﴾ النحل .

وهذه الحكمة - كما قال الإمام ابن قيم الجوزية - هي : (علم المبطل بأنه كان كاذباً [وإن][2] كان على باطل ، وأن نسبة أهل الحق إلى الباطل من افترائه وكذبه وبهتانه، فيخزيه ذلك أعظم خزي)[3].

فعندما يتبين الحق من الباطل ، يظهر لكل فرد حقيقة حاله التي كان عليها في الدنيا فأما المؤمن الحق ، فإنه قدكان يعلم الحق في الدنيا ويعتقده ، ولكن ظهور ذلك الحق في الآخرة على رؤوس الأشهاد ، يكون من باب إظهار رفعته على جميع المبطلين ويكون من باب جزاء معجل له في موقف الحساب قبل جزائه الخالد في جنات النعيم .

---

(١)- انظر بدائع الفوائد،لابن قيم الجوزية،جـ٤ ، ص: ١٦١ .

(٢)- هكذا في المطبوعة ولعلها : وأنه .

(٣)- انظر بدائع الفوائد،جـ٤ ، ص١٦١-١٦٢ .

وأما الكافر الذي كان على باطل من أمره فإنه سواء كان يعلم في الدنيا أنه على باطل ويكتم ذلك أولا يعلمه يقيناً ، فإن باطله سوف يظهر واضحاً جلياً يوم القيامة على رؤوس الأشهاد ويكون في ذلك الخزي والعار له أمام نفسه وأمام الآخرين وخاصة أمام من كان في الدنيا على الحق ، وكان هو يستهزئ به ، ويكذّبه ، وينسبه إلى الباطل فينقلب الحال في الآخرة ويتبين له أنه هو الكاذب في جميع دعاواه الباطلة في الدنيا ويصير في ذلة وصغار ومهانة ، ويكون ذلك له أيضاً من باب الجزاء المعجّل له في موقف الحساب قبل جزائه الخالد في الجحيم .

ثم إن المؤمنين قد اختلفوا فيما بينهم في أمور كثيرة لاتصل إلى حد خروج أحد منهم من الإيمان ودخوله في الكفر ، ولكنها ربما كانت سبباً لشيء من الصراعات فيما بينهم ، وربما كانت سبباً أيضاً لشعور بعضهم بالحيرة فيما إذا كان على باطل أو على حق[1] وقد يموت وفي قلبه أمنية معرفة إن كان على حق أم على باطل أم أن لديه شيئاً من الحق والباطل ، ففي ذلك اليوم يتبيّن لجميع الخلق حدود ما كانوا عليه من الحق أو الباطل . وا لله أعلم .

الخامسة : بناءً على ما سبق فإنه في ذلك اليوم يتحقق نصر ا لله لأوليائه ، وأما أعداء ا لله وأعداء المؤمنين فليس لهم في ذلك اليوم إلا الخزي والخسران المبين قال جل شأنه في ذلك :﴿ **إنا لننصُرُ رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد**(٥١)﴾ غافر .

فهذا نصر ا لله لأوليائه ، وأما أعداؤه فقال تعالى فيهم : ﴿ **ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركاءي الذين كنتم تشاقون فيهم ، قال الذين أوتوا العلم إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين** (٢٧) ﴾ النحل .

وقال أيضاً : ﴿ **و لله ملك السمٰوات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون**(٢٧) ﴾ الجاثية .

---

(١)- وذلك كما يحدث في الفتن مثلاً .

السادسة : أن اليوم الآخر هو يوم مظهر الأسماء والصفات الإلهية وأحكامها ، قال الإمام ابن قيم الجوزية : (إن يوم المعاد الأكبر يوم مظهر الأسماء والصفات وأحكامها ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ ... **لمن الملك اليوم لله الواحد القهار** ﴾[1].

وقال : ﴿ **الملك يومئذ الحقّ للرحمن** ... ﴾[2].

وقال : ﴿ **يوم لا تملك نفسٌ لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله** ﴾[3].

حتى إن الله سبحانه ليتعرف إلى عباده ذلك اليوم بأسماء وصفات لم يعرفوها في هذه الدار فهو يَوْمُ ظهورِ المملكة العظمى والأسماء الحسنى والصفات العلى ...)[4].

فمن أول ما يتحقق من الصفات في ذلك اليوم هو صدقه تعالى في إخباره ووعده بوقوع يوم الدين والجزاء ، قال جل شأنه : ﴿ **أولئك الذين نتقبّل عنهم أحسن ماعملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنّة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون**(١٦)﴾الأحقاف .

فهو سبحانه يحقّق للمؤمنين وعده الصادق لهم بإدخالهم الجنة بمنّه وفضله ورحمته ، والمؤمنون في دار الجنة سوف يحمدونه تعالى على صدقه في وعده فيقولون : ﴿...**الحمد لله الذي صدَقَنا وعده وأورَثَنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين** (٧٤) ﴾ الزمر .

وهو ما سيعترف به الكفار عندما يقررهم الله تعالى على ذلك ، قال تعالى : ﴿ **ولو ترى إذ وُقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربّنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون** (٣٠) ﴾ الأنعام .

وأيضاً عندما يسألهم المؤمنون . قال جل شأنه : ﴿ **ونادى أصحابُ الجنّة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربّنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربّكم حقاً قالوا نعم فأذّن**

---

(١)- سورة غافر ، من الآية : ١٦ .

(٢)- سورة الفرقان ، من الآية : ٢٦ .

(٣)- سورة الإنفطار ، من الآية : ١٩ .

(٤)- انظر شفاء العليل ص : ٤٠٣ .

مؤذّن بينهم أن لعنة ا لله على الظالمين (٤٤) ﴾ الأعراف .

ويوم القيامة يظهر لجميع الخلق أن ا لله سبحانه هو الحق ، بكل ما تشتمل عليه هذه الكلمة من معاني ، فهو الحق في ذاته لا إله إلا هو ، وهو الحق في صفاته ، وهو الحق في أقواله وأفعاله .

قال جل شأنه : ﴿ **يومئذ يوفيهم ا لله دينهم الحق ويعلمون أن ا لله هو الحق المبين**(٢٥) ﴾ النور .

ويظهر في ذلك اليوم أن ا لله هو المالك الحقيقي لجميع الكون،الواحد الذي لايشركه في ملكه أحد . قال تعالى : ﴿ **....لينذر يوم التلاق** (١٥) **يوم هم بارزون لايخفى على ا لله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار** (١٦) ﴾ غافر .

فالكل في ذلك اليوم يعترفون بأنه المالك الواحد لاشريك له ، ويعترفون له أيضاً بأنه القهار فيخضعون له ويذلّون بين يديه سبحانه وتعالى ويشهد الخلق أيضاً في ذلك اليوم عزته جل جلاله التي لايعجزها شيء . قال جل شأنه : ﴿ **إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلّما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن ا لله كان عزيزاً حكيماً** (٥٦) ﴾ النساء .

ويقّر العباد في ذلك اليوم بحكمته الباهرة من خلقه الخلق بعد أن يشهدوا اكتمال الغاية من خلق العباد بمجازاتهم على أعمالهم .

ويظهر للمؤمنين عظم مغفرته لهم حيث قد تقبل من كثير منهم أحسن ما عملوا وتجاوز سبحانه عن سيئاتهم . قال تعالى : ﴿ **أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ماعملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنّة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون**(١٦)﴾الأحقاف .

ويظهر للخلائق عظم رحمته بهم في ذلك اليوم الذي أمسك له سبحانه تسعة وتسعين جزءاً من رحمته الواسعة [(١)].

---

(١)- روى مسلم عن سلمان رضي ا لله عنه قال قال :رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم :((إن ا لله خلق يوم خَلَقَ السموات والأرض مائة رحمة كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض فجعل منها في الأرض=

ويظهر فيه أيضاً شدة انتقامه من أعدائه .

ويرى الخلق في ذلك اليوم بعضاً من مظاهر عظيم قدرة ا لله سبحانه ، كإحيائهم بعد الموت وحسابهم وجزائهم .

ويظهر لهم فيه أيضاً كمال عدله وأنه لايظلم أحداً شيئاً . قال سبحانه : ﴿ **اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لاظلم اليوم إن ا لله سريع الحساب** (١٧) ﴾ غافر .

ويتبين الخلق كمال علم ا لله الذي أحصى عليهم كل صغيرة وكبيرة عملوها ، إلى غير ذلك من الأسماء والصفات التي يظهر أثرها للعباد في ذلك اليوم ظهوراً أكمل من ظهوره في الحياة الدنيا فيتبّين معه للعباد كلهم حقيقة حمده- أي اتصافه بصفات الكمال وتنزهه عن كل نقص -ويتبين ذلك حتى للمقرّين به منذ أن كانوا في الدنيا ، لأنهم سوف يشاهدون تحقق أكمل مقتضيات أسمائه وصفاته عز وجل ، وبذلك يُحمد سبحانه في هذا اليوم الحمد اللائق به .

قال تعالى : ﴿ **الحمد لله الذي له مافي السمٰوات ومافي الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير** (١) ﴾ سبأ .

=رحمة فيها تعطف الوالدة على ولدها والوحش والطير بعضها على بعض فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة)) . انظر شرح النووي على صحيح مسلم:كتاب التوبة ، باب سعة رحمة ا لله تعالى وأنها تغلب غضبه ، جـ ١٧،ص: ٦٩ .

ثانياً : أثر الإيمان بالجزاء الأخروي في النفس والسلوك .

إن صفات الإنسان النفسية وسلوكه العملي يعتمدان أساساً على معتقداته الإيمانية وبمقدار ثبات تلك المعتقدات ورُسُوخها في نفسه يكون ظهور أثرها في صفاته وسلوكه ، والإيمان بالجزاء الأخروي بالانضمام إلى الإيمان با لله تعالى إذا ترسخ في النفس واتضحت معالمه في تصور الإنسان ، واستحضره أمامه في جميع أحواله أو أغلبها ، كان لهذا الإيمان بالجزاء الأخروي أكبر الأثر في تشكيل الصفات النفسية لهذا الإنسان وفي توجيه سلوكه في الحياة ، وفيما يلي بعض آثار الإيمان اليقيني بالجزاء الأخروي على صفاته النفسية الأخلاقية وسلوكه الفردي والاجتماعي :

الأثر الأوّل : أثر الإيمان بالجزاء الأخروي على تثبيت العقائد الأخرى وتصحيح مفاهيم الإنسان :

١- إن الإيمان بالجزاء الأخروي له أثر كبير في تقوية إيمان الإنسان بسائر معتقداته[1]إذ يدرك عظم أهمية الإيمان اليقيني والراسخ بها من خلال إدراكه عظم الجزاء المترتب عليها فهو يستحضر في تصوره دوماً مدى العذاب الشديد الذي سيلقاه إن شك أو كفر بشيء مما يجب عليه الإيمان به ، وعظم النعيم الذي سيجده إن ثبت على إيمانه الراسخ ذلك . قال جل شأنه : ﴿ **وهذا كتابٌ أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون**(٩٢)﴾الأنعام.

فهذه الآية تدل على ارتباط الإيمان بالقرآن الكريم بالإيمان بالآخرة وما فيها من جزاء.

قال الإمام الطبري في معنى قوله تعالى : ﴿ **والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون** ﴾ : (يقول تعالى ذكره : ومن كان يؤمن بقيام الساعة والمعاد في الآخرة إلى ا لله ويصدّق بالثواب والعقاب ، فإنه يؤمن بهذا الكتاب الذي أنزلناه إليك يامحمد ويصدق به ، ويقر بأن ا لله أنزله ، ويحافظ على الصلوات المكتوبات ، التي أمره ا لله بإقامتها ، لأنه منذر من بلغه وعيد ا لله على الكفر به ، وعلى معاصيه ، وإنما يجحد به

---

(١)- انظر اليوم الآخر في ظلال القرآن،جمع وإعداد : أحمد فايز، ص: ١٣ .

وبما فيه ويُكَذِّبُ أهلُ التكذيبِ بالمعاد والجحودِ لقيام الساعة ، لأنه لايرجو من الله إن عمل بما فيه ثواباً ، ولا يخاف إن لم يجتنب ما يأمره باجتنابه عقاباً)[1].

٢- إضافة إلى ذلك فإن الإيمان بالجزاء الأخروي يعمق الإيمان بكثير من الصفات الربّانيّة المستلزمة لذلك الجزاء ، فهو يعمق الإيمان بعدل الله وحكمته وعلمه ورحمته وجوده وفضله وشدة عقابه وعذابه .... إلى غير ذلك من صفات الكمال الربّانية .

٣- وأيضاً فإن من أهم آثار الإيمان بالجزاء الأخروي على معتقدات الإنسان تصحيح تصوراته وقيمه ومبادئه وأهدافه التي يؤمن بها ، التي تكون الميزان الذي يزن به جميع ما يواجهه من سلوك نفسي أو عملي وجميع ما يقابله في هذه الحياة ، فتصوّره واسع يشمل الدنيا والآخرة شمولاً يؤمن معه بارتباط الآخرة بالدنيا ارتباطاً وثيقاً حيث يؤمن بأن كل ما يواجهه في الدنيا ليست آثاره مقتصرةً عليها فحسب ، بل إن آثاره ممتدةٌ إلى الدار الآخرة امتداداً يجعل الأثر الدنيوي لاقيمة له في مقابلة الأثر الأخروي ، الأمر الذي يصحح قيمَ ومبادئَ وأهدافَ الإنسان في هذه الحياة ، والتي يزن بها جميع أمورها ، إذ إن الاعتبار الرئيسي لتلك الأمور هو مدى النتائج المترتبة عليها في الدار الآخرة ، فإن كان الأمر يؤدي إلى السعاده والنعيم في الدار الآخرة فعليه أن يؤمن به وينفذه ، أما إن كان يؤدي إلى الشقاء والعذاب الأليم فيها فهو أمر قبيح عليه اجتنابه[2].

الأثر الثاني : أثر الإيمان بالجزاء الأخروي على النفس الإنسانية وصفاتها الأخلاقية :

١- إن أول أثر للإيمان بالجزاء الأخروي على النفس هو شعورها بالطمأنينة والراحة فتصل بذلك إلى أعلى درجات الأمن النفسي .

فالجزاء الأخروي فيه الإجابة على سؤال يعتبر من أهم الأسئلة الفطرية التي تتمثل في كل نفس إنسانية ، إذ فيه الإجابة عن المصير الذي ينتظر الإنسان ، وعن الغاية التي خلق من أجلها ، وما يطلب منه لتحقيق تلك الغاية ، فالنفس البشرية في قلق دائم من ماهية المصير الذي ينتظرنا بعد رحلة هذه الحياة . هل هو العدم المطلق ؟ وإن لم يكن المصير هو

---

(١)- تفسير الطبري : جـ٧،ص ٢٧٢ .

(٢)- انظر اليوم الآخر في ظلال القرآن،ص: ٤-٦ ، ٢٠ .

العدم فما هو إذاً ؟ ثم هل لهذه الحياة التي نعيشها علاقة بذلك المصير ؟.

وتظل النفس في قلق دائم مالم تجد جواباً مقنعاً شافياً لتلك الأسئلة ، فإذا جاء الدين الرباني الذي أنزله خالق هذه النفس وفاطرها وكان متضمناً الإجابة الشافية لكلّ الأسئلة النفسية الفطرية ، ومن ذلك الأسئلة المتعلقة بالمصير ، شعرت النفس البشرية عندئذ بالراحة والطمأنينة ، إذ إنها تعلم الغاية من وجودها وأنها لم تخلق عبثاً ولعباً ، وتعلم مصيرها الذي ينتظرها وأنه لن يكون العدم بل الرجوع إلى خالقها ليجازيها على عملها في حياتها الأولى .

ولاشك أن مثل ذلك المصير يبعث في النفس الأمل والرجاء في حياة أفضل من هذه الحياة إذا حقق صاحبها شروط نيل تلك الحياة الفضلى الخالدة .

٢- إن الاعتقاد اليقيني بالجزاء الأخروي يمدّ النفس مع ذلك بقوة إيمانية هائلة : قوة تدفعه إلى العمل الصالح والدعوة إلى الحق وإلى محاربة الشر والطغيان والفساد دون انتظار لجزاء دنيوي ، بل مع التحمُّل للمصائب التي تعود عليه في نفسه أو أهله أو ماله نتيجة اتباعه الحق ودعوته له ، والتي يوقن بسرعة زوالها وبعظم الجزاء الأخروي المترتب على تحمله لها ، مع التحمُّل أيضاً لما قد يفقده نتيجة محاربته للفساد من ملاذّ الحياة الدنيا ، إذ يعلم يقيناً بأن هذه الحياة الدنيا ليست هي الغاية وأن تلك الملاذ هي متاع زائل سيعقبه إن آثره عقاب أليم خالد(١) .

٣- إن هذه القوة الإيمانية النفسية التي يستمدها الإنسان من اعتقاده بالجزاء الأخروي تمكنه من مواجهة مصاعب الحياة ، وما يمر به من آلام ومصائب ومآسي ، واجتيازها دون أن تحطّ من عزيمته لعلمه بأنها من الأمور التي هي من جملة ابتلائه في هذه الحياة ، الابتلاء الذي ستكون غايته الجزاء على ماعمل فيه بحسب عمله(٢) .

٤- بناءً على ما سبق فالإيمان بالجزاء الأخروي يهب المؤمن الرضا النفسي التامّ عن

---

(١)- انظر : مبادئ الإسلام لأبي الأعلى المودودي ص:١١٦.واليوم الآخر في ظلال القرآن ص:٦.ونظام الإسلام العقيدة والعبادة،لمحمد المبارك،ص :١٥٦-١٥٧ .

(٢)- انظر : اليوم الآخر في ظلال القرآن،ص: ١٦ .

ربه وعن كل ما يقدره له ، فالمؤمن يعلم حكمة ا لله سبحانه من ذلك كله ، وأنه إذا آمن بربه حق الإيمان ، وآمن بجزائه الأخروي فكل ما يصيبه في هذه الحياة فسوف ينال بسببه النعيم الخالد إن تعامل معه بما يرضي ربه .

٥- إن الإيمان بالجزاء الأخروي يحمي النفس الإنسانية من الاغترار بزينة الحياة الدنيا والانطلاق المسعور وراء شهواتها [١]، فمن خلال إيمانها بالجزاء الأخروي تعلم أن النعم كالمصائب ابتلاء من ا لله لها مستتبع بجزاء مناسب لعملها فيما ابتليت به .

٦- والإيمان بذلك الجزاء يدفع الإنسان إلى التحلي بالفضائل النفسية الخلقية على اختلاف أنواعها ، والبعد عن جميع الرذائل الخلقية مما يكون له أكبر الأثر في توجيه سلوك الإنسان نحو كل خير وصلاح وفلاح ، والبعد به عن كل شر وفساد .

٧- والإيمان بالجزاء الأخروي يدفع الإنسان إلى إخلاص عمله لله وحده سبحانه والبعد بعمله عن أي شائبة رياء أو سمعة ، فا لله وحده هو المستحق لأن يُرجَى ثوابه ويخشى عقابه[٢]. قال جل شأنه : ﴿ **ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً**(٨) **إنما نطعمكم لوجه ا لله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً** (٩) **إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً** (١٠) ﴾ الإنسان .

فهؤلاء المؤمنون إنما قاموا بتلك الأعمال الصالحة لوجه ا لله تعالى ، طلباً لثوابه ورضاه وخوفاً من ذلك اليوم الآخر وما فيه من أهوال وجزاء عظيم ، دون أن ينتظروا أي ثواب عاجل ممن أحسنوا إليهم .

٨- ومن آثار الإيمان بذلك الجزاء وبما يسبقه من حساب ووزن لجميع الأعمال حسنها وسيّئها مهما صغرت أو عظمت أنّه ينمي الضمير الداخلي الذي يراقب الإنسان مراقبة يقظة قبل صدور أي عمل نفسي أو سلوكي ، ويحاسبه محاسبة دقيقة بعد صدور أي عمل عنه . فالمؤمن با لله حقيقة وباليوم الآخر ، وما فيه من ثواب وعقاب يدفعه إيمانه إلى مراقبة ا لله في جميع أعماله مراقبة دقيقة تجعله دائم الحذر من الوقوع فيما يغضب ا لله

---

(١)- انظر : المرجع السابق ص: ١٦-١٧ .

(٢)- انظر نظام الإسلام العقيدة والعبادة،لمحمد المبارك،ص: ١٥٦ .

جل جلاله ، فيستوجب عقابه ، وتحمله دوماً على اتّباع مرضاة الله سبحانه علّه ينال ثوابه، قال تعالى:

﴿ أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، إنما يتذكر أولوا الألباب (٩) ﴾ الزمر .

إن المؤمن با لله وبجزائه الأخروي يستشعر الحذر من الدار الآخرة ومما فيها من جزاء في جميع أحواله ، ضابطاً إيّاها وفق ما يرضيه تعالى رجاء نيل رحمته ورضوانه ونعيمه الخالد(١) .

الأثر الثالث : أثر الإيمان بالجزاء الأخروي على السلوك الإنساني :

كما أن الصفات النفسية للمؤمن بالجزاء الأخروي تسمو إلى الفضائل والكمالات الخلقية ، فإن السلوك النابع عنها أو المحكوم بضوابطها يكون سلوكاً مستقيماً ملتزماً بأحكام الله تعالى مما تظهر آثاره في :

١- اتباع المؤمن با لله وبالجزاء الأخروي لأوامره سبحانه في جميع شؤون حياته واجتنابه كل ما نهاه عنه ، بل محاولته الدائمة ، في توجيه سلوكه المباح إلى أن يكون طاعة لله عزوجل طلباً لثوابه العظيم وخوفاً من عقابه الأليم يوم الدين(٢) . ولذلك نجد الله تعالى قد قرن الإيمان بالآخرة مع كثير من الأعمال الصالحة التي يكلف المرء القيام بها أو الأعمال السيئة التي يكلفه اجتنابها تنبيهاً للمؤمن با لله واليوم الآخر الى عظم ثوابه إذا أطاع ربه أو إلى أليم عقابه إن قصّر في مأمور أو انتهك محظوراً(٣) . قال تعالى :

﴿ وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن با لله واليوم الآخر ، ذلكم أزكى لكم وأطهر وا لله يعلم وأنتم لا تعلمون (٢٣٢) ﴾ البقرة .

فقوله سبحانه ﴿ **ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن با لله واليوم الآخر** ﴾ فيه

---

(١)- انظر : في ظلال القرآن ؛ سيد قطب ، مجلد (٥) ، جـ: ٢٤ ، ص: ٣٠٤٢ . والإيمان والحياة، ليوسف القرضاوي،ص: ٢٣٠-٢٣١ .

(٢)- انظر : اليوم الآخر في ظلال القرآن،ص: ٦ .ونظام الإسلام العقيدة والعبادة . ص: ١٥٣ .

(٣)- انظر : أصول الدعوة ؛ عبدالكريم زيدان . ص:٦٦-٦٧ .

دلالة واضحة على أن من كان يؤمن با لله رباً واحداً له الحكم وله الأمـر ، ويؤمـن بـاليوم الآخر وما فيه من ثواب لمن يطيعه وعقاب لمن يعصيـه فإنـه سيتبع أوامـر ا لله وينقـاد لـها دون معارضة أو مخالفه ، وذلك اتقاءً منه لعذابه تعالى إن هو خـالف أوامـره ورجـاءً لنيـل ثوابه باتباعه أوامره [1] .

إذاً فإن في مثل هذا الأسلوب الذي قرن فيـه تعـالى الأمـر أو الحكـم الإلـهي بالإيمـان باليوم الآخر تنبيهاً للمؤمن إلى مقتضيات إيمانه به والـتي منهـا إيمانـه اليقيـني بـالجزاء الـذي سيقع فيه ثواباً لمن أطاع ا لله وعقاباً لمن عصاه ، ونتيجـة لذلـك يعمـل المؤمـن علـى اتبـاع مرضاة ا لله سبحانه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

وأحياناً يقرن العمل المطلوب إتيانه أو اجتنابه بالجزاء نفسه ، سواء كان ثواباً أو عقاباً كما قال سبحانه بعد ذكر آيتي المواريث في أوائل سورة النساء : ﴿ **تلك حدود ا لله ومن يطع ا لله ورسوله يدخله جنـات تجري مـن تحتهـا الأنهـار خـالدين فيهـا وذلـك الفـوز العظيم**(١٣) **ومن يعص ا لله ورسوله ويتعدّ حدوده يدخله ناراً خـالداً فيهـا ولـه عـذاب مهين** (١٤) ﴾ . فهذا تصريح بالجزاء الذي سوف ينال من يطيع ا لله ورسوله باتباع أوامـر ا لله تعالى وأحكامه والتي منها ما يتعلق بالميراث ، بأنه سوف يجازى بالعقاب الأليم الخـالد في جهنم وبئس المصير . فمن كان يؤمن با لله حقاً وبالجزاء الأخروي لابد أن يكـون لمثـل هذا الوعد والوعيد أثر عظيم في نفسه يدفعه إلى الالـتزام بـأوامر ا لله ، وإلى عـدم مخالفتهـا مطلقاً . وهكذا يتبين أنه سبحانه يقرن الإيمـان بـاليوم الآخـر وبمـا فيـه مـن جـزاء بـأوامره ونواهيه ليكون في ذلك أكـبر الأثـر في توجيـه السـلوك الإنسـاني الوجهـة الـتي يحبهـا ا لله سبحانه ويرضاها لعباده [2] .

٢- ثم إن المؤمن با لله واليوم الآخر إذا غفل أحياناً عن مقتضيات إيمانه فزل ووقـع في معاصي سلوكية فإنه لا يظلّ مقيماً على ذنبه ، بل إن إيمانه سرعان مـا يسـتيقظ إن كـان قوياً فيخشى عقاب ربه سبحانه فيعود إليه مستغفراً لذنوبـه طالبـاً منـه أن يكفرهـا لـه ولا

---

(١)- على سبيل المثال انظر : تفسير الطبري : جـ٢،ص: ٤٨٨ .

(٢)- انظر نظام الإسلام العقيدة والعبادة،ص: ١٥٥-١٥٦ ،والإيمان والحياة،ص: ٢٦٢ ،وأصول الدعـوة ، ص : ٦٦-٦٧ .

يؤاخذه بها ، وأن يشمله برحمته الواسعة [1] قال سبحانه :

﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا ا لله فا ستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا ا لله ولم يُصِرُّوا على ما فعلوا وهم يعلمون** (١٣٥) ﴾ آل عمران .

قال الإمام الطبري في معنى قوله تعالى : ﴿ **ذكروا ا لله فاستغفروا لذنوبهم...** ﴾

(وقوله : ﴿ **ذكروا ا لله** ﴾ يعنى بذلك ذكروا وعيد ا لله على ما أتوا من معصيتهم إياه ﴿ **فاستغفروا لذنوبهم** ﴾ يقول : فسألوا ربهم أن يستُر عليهم ذنوبهم ، بصفحه لهم عن العقوبة عليها ﴿ **ومن يغفر الذنوب إلاّ ا لله** ﴾. يقول : وهل يغفر الذنوب عن راكبها فيسترها عليه إلا ا لله ﴿ **ولم يصروا على ما فعلوا** ﴾ يقول : و لم يقيموا على ذنوبهم التي أتوها ومعصيتهم التي ركبوها ﴿ **وهم يعلمون** ﴾ يقول : لم يقيموا على ذنوبهم عامدين للمُقام عليها ، وهم يعلمون أن ا لله قد تقدم بالنهي عنها ، وأوعد عليها العقوبة من ركبها ...)[2].

٣- حرص المؤمنين بالجزاء الأخروي على عمارة الأرض بكل خير وصلاح[3] مع عدم الانهماك في شهوات وملاذ الحياة الدنيا ، بل المؤمن با لله وباليوم الآخر يعمل جهده في إعمار الأرض بالصلاح لأن الدنيا مزرعة الآخرة ، فالثواب لايناله المؤمن في الآخرة إلا بما يقدمه من عمل في هذه الحياة الدنيا . ولكن عمله في مجالات هذه الحياة يكون من غير اغترارٍ بزينتها وشهواتها ، اغترارٍ يجعله يغفل عن واقع حاله الابتلائي وعمّا سيعقب هذا الابتلاء من حساب وجزاء ، فهو يعمل على عمارة الأرض ليس لأن ذلك غاية لذاته بل لأنه وسيلة إلى غاية عظمى هي رضى ا لله جل وعلا ، قال تعالى في بيان تلك الغاية:

﴿**وابتغ فيما آتاك ا لله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن ا لله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن ا لله لا يحب المفسدين** (٧٧) ﴾ القصص .

---

(١)- انظر اليوم الآخر في ظلال القرآن،ص: ١٩ .

(٢)- تفسير الطبري:جـ٤،ص: ٩٥ .

(٣)- انظر اليوم الآخر في ظلال القرآن ؛ ص: ٥،١٦،١٩،٤٨ . و: نظام الإسلام العقيدة والعبادة، ص:١٥٤-١٥٥ ، ١٥٨ . و: الإيمان والحياة ، ص: ٣٠٠-٣٠١،٣١٠.

فالمؤمن يستخدم ما أنعم ا لله عليه من نعم في هذه الدنيا فيما يعود عليه بالثواب العظيم يوم القيامة ، وهو إذاً لا يهمل الدنيا ولا يهمل ما خلقه ا لله فيها من نعم ، وإنما يستخدم ذلك كله فيما يرضي ربه ، استخداماً يعمر به دنياه وآخرته ، مع أن ذلك لا يمنعه من أن يستمتع في الدنيا بما أباحه ا لله له ، ولكنه استمتاع لا يشغله عن الدار الآخرة، بل إن المؤمن حتى عندما يستمتع في الدنيا بأمر ما فإنه يقصد به التقوي على طاعة ربه والبعد عن محارمه ، فيكون له على ذلك أيضاً الثواب العظيم من ا لله يوم الدين[1] .

٤- إن المجتمع المؤمن بالجزاء الأخروي يكون مجتمعاً مؤمناً متمسكاً بشرع ا لله منفذاً لأوامره ، مجتمعاً متحاباً متكافلاً متعاوناً على فعل البر والتقوى ومحاربة الإثم والعدوان ، مجتمعاً يعمل على تحقيق الخير بين أفراده ، ويحرص على نشر الخير بين أفراد المجتمعات الأخرى ، مجتمعاً يسود فيه العدل المستنبط من شريعة ا لله ، ويكون فيه جميع أفراده حكاماً ومحكومين خاضعين لتلك الشريعة متحاكمين إليها ، قابلين بحكمها في شؤون حياتهم جميعها برضا تام ، مجتمعاً تسوده المحبة بين جميع أفراده فلا الغني أو القوي يحتقر أو يظلم الفقير والضعيف ، ولا الفقير أو الضعيف يحسد الغني أو القوي أو يحقد عليه ، إذ لا شحناء ولا بغضاء بين عموم أفراده بل غنيهم يعيل فقيرهم وقويهم يعين ضعيفهم ، مجتمعاً ينشئ الحضاره بمفهومها الشامل الصحيح والمتكامل والمتوازن [2]، الحضارة التي يكون فيها تحقيق عمارة الأرض وفق منهج ا لله متساوقاً باتزان مع تحقيق جميع القيم والشعائر والعبادات الدينية الأخرى ، فلا يطغى جانب على جانب ، ولا ينقص من جانب لأجل جانب آخر فجانب عمارة الأرض يتحد في الطريق مع جانب العقائد والعبادات عندما يقصد به وجه ا لله وطلب مرضاته وثوابه ، ويبتعد عن كل ما يؤدي إلى غضبه أو عقابه يوم الدين .

هذه إشارة إلى بعض فوائد الإيمان بالجزاء الأخروي على عموم المجتمع المؤمن به ، وعلى الحضارة التي ينشئها ذلك المجتمع ، وأما استقصاء تلك الفوائد فإنه مما يطول جداً .

---

(١)- انظر : تفسير ابن كثير: جـ٣،ص: ٣٩٩ . وفي ظلال القرآن ، مج: ٥ ، جـ٢٠ ، ص: ٢٧١١ .

(٢)- انظر نظام الإسلام العقيدة والعبادة ص: ١٥٧ . و: العقيدة الإسلامية وأسسها ؛ لعبدالرحمن حبنكه الميداني،ص: ٦٢٥-٦٢٦ .

الفصل الرابع

دوافع المنكرين للجزاء الأخروي وآثار إنكاره عليهم، ودحض شبهاتهم

ويشتمل على :

تمهيد .

أولاً : دوافع المنكرين لليوم الآخر وما فيه من جزاء .

ثانياً : الآثار السيئة لإنكار الجزاء الأخروي على النفس والسلوك.

ثالثاً : دحض شبهات المنكرين للجزاء الأخروي .

تمهيد :

إن الإيمان باليوم الآخر وما فيه من جزاء كما أنه مرتبط بالإيمان با لله تعالى وأسمائه وصفاته الإيمان الحق واليقيني ، فإن إنكاره مرتبط أيضاً بعدم الإيمان الصحيح با لله سبحانه أو بشيء من أسمائه وصفاته ، أي إن الكفر با لله تعالى بأي نوع من أنواع الكفر هو سبب رئيسي يؤدي إلى الكفر باليوم الآخر وما فيه من جزاء ، وهو إما أن يكون كفراً كلياً بإنكاره مطلقاً وإمّا كفراً ناتجاً عن إنكار صورته وكيفيته الحقة ، كما أخبر ا لله سبحانه عنها ، واختلاق صورٍ أخرى له لا دليل عليها مطلقاً .

ويظهر الكفر الكلي باليوم الآخر وما فيه من جزاء أساساً عند المنكرين لوجود الرّبّ الخالق الحكيم جلّ وعلا ، وكفر هؤلاء باليوم الآخر أمر طبيعي ، إذ مَن ذلك الذي سيقيم اليوم الآخر ويجازي الإنسان بحسب تصوّرهم الباطل ؟! إنهم إذا كانوا لا يؤمنون بوجود ا لله فكيف يؤمنون بمجازاته للعباد ؟! ثم ما الهدف من مجازاة العباد إن لم يكن هناك أي حكمة أصلاً من وجودهم بحسب زعمهم ؟! .

وهذا الصنف المنكر لوجود ا لله سبحانه ولوجود اليوم الآخر هم من جملة المقصودين بقوله تعالى : ﴿ **وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ومالهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون** (٢٤) ﴾ الجاثية .

فهذه الآية تشمل مشركي العرب المنكرين للمعاد ، الذين لا يعتقدون إلا بوجود هذه الحياة الدنيا ، وتشمل غيرهم من الفلاسفة المنكرين للمعاد ، وهؤلاء قد نسبوا الإحياء والإماته للدهر ، إما من باب إشراك الدهر في الفعل مع ا لله سبحانه ، أو من باب إضافة الشيء إلى الظرف الذي يقع فيه ، فيضيفون فعل الإحياء والإماته إلى الظرف الذي يقعان فيه وهو الزمان والدهر ، مع اعتقادهم بأن ا لله سبحانه هو الفاعل لذلك .

وتشمل الآية أيضاً الدهريين المنكرين للخالق جل جلاله ، والمعاد من باب أولى إذ إن نسبتهم فعل الإحياء والإماته إلى الدهر هي نسبة ظاهرة واضحة إذ لا فعل عندهم في الحقيقة إلا للدّهر [(١)] .

---

(١)- انظر : تفسير ابن كثير ، جـ٤، ص:١٥٠ . و: تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، لسليمان بن عبدا لله بن محمد بن عبدالوهاب ، باب من سب الدهر فقد آذى ا لله ، ص: ٦٠٦-٦٠٩ .

وهؤلاء الدهريون يكون النقاش معهم أصلاً في إثبات الإيمان بوجود الله تعـالى أولاً ، ثم بصفاته الكاملة المستلزمة لبقية أركان الإيمان ، والتى منها ركن الإيمان باليوم الآخر وما فيه من جزاء .

هذا في إنكار اليوم الآخر من قبل الكافرين بوجود الخالق جل وعلا ، وأمـا مـن كـان عنده تصديق بوجود خالق لهذا الكون ، وكفر باليوم الآخر وما فيه من جزاء كفراً جزئيّـاً أو كليّاً ، فلـهم دوافع عدة لكفرهم ، مع أن إنكارهم اليوم الآخر وما فيه من جزاء يعـود عليهم بالكثير مـن الآثـار السيئة علـى أنفسـهم وسـلوكهم ، وأخـيراً فـإن لـهم شـبهات يحاولون بها إقامة الدليل على صحة إنكارهم ، سيأتي دحضها -إن شـاء الله- في الفقـرة الثالثة .

أولاً : دوافع المنكرين لليوم الآخر وما فيه من جزاء .

إن لمنكري اليوم الآخر وما فيه من جزاء إنكاراً كلياً دوافع عدة منها [1]:

الدافع الأول :

دافع الكبر ، فهؤلاء المتكبرون على الرغم من إيمانهم بالرب الخالق ، إلا أنهم تكبروا عن عبادته سبحانه ، كما قال جل شأنه : ﴿ **وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين** (٦٠) ﴾ غافر .

فهؤلاء الذين استكبروا عن عبادته سبحانه سيدفعهم كبرهم ذلك حتماً إلى إنكار الجزاء الأخروي ، إذ إن الإيمان بجزاء أخروي يعني معاقبتهم على استكبارهم ذلك ، وهم يرفضون الاعتراف بأي عقاب يقع عليهم نتيجة ذلك الاستكبار . وقد يكون الاستكبار استكباراً عن متابعة الرسول صلى ا لله عليه وسلم ، واستكباراً عن اتباع ما جاء به من عند ربه سبحانه ، ومنه الإيمان بالجزاء الأخروي كما قال جل شأنه : ﴿ **وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين (٣١) وإذا قيل إن وعد ا لله حق والساعة لاريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين** (٣٢) ﴾ الجاثية .

فالاستكبار عن متابعة الرسل وما جاؤوا به من آيات ا لله سبحانه ، يدفع أصحابه إلى إنكار يوم الدينونة والجزاء ، حتى يستبعد المستكبر من تصوره أي احتمال لمحاسبته ومجازاته على استكباره عن متابعة الرسول .

الدافع الثاني :

عدم الإيمان بصفات ا لله التي تقتضي الدينونة والجزاء وذلك كالحكيم والعدل والشديد العقاب والمنتقم والغفور و الرحيم والقدير والعليم ونحو ذلك ، فمن لا يؤمن بهذه الصفات، أو لايؤمن بها الإيمان الذي تستحقه ، فهو بالتالي غير مؤمن بمقتضياتها ولوازمها أو بكثير من مقتضياتها ولوازمها ، ومن أهمها الجزاء الأخروي .

---

(١)- يلاحظ أن هذه الدوافع قد توجد كلها أو بعضها لدى الفريق الذي ينكر وجود الخالق الحكيم جل وعلا ، فتدفعه إلى كلا الأمرين أي إنكار الخالق وإنكار اليوم الآخر وما فيه من جزاء .

ويبين سبحانه في كتابه موقف المشركين إذ لم يؤمنوا بحكمته تعالى وبكون أفعاله وأقواله كلها حق لاعبث فيها ، فظنوا أنه عزوجل ما خلق السماوات والأرض إلا لعباً وعبثاً لا لحكمة ولا لغاية حميدة يقصدها تعالى ، مما قادهم إلى إنكار الجزاء الأخروي ، إذ لاداعي – في زعمهم – إلى إثباته إن كانت الحكمة غير مقصودة في أفعاله ، تعالى الله عن زعمهم علواً كبيراً ، قال سبحانه في بيان ذلك : ﴿ **وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويلٌ للذين كفروا من النار** (٢٧)﴾ ص .

فخلق السماوات بلاحكمة ولا غاية حميدة إنما هو من باب الباطل ، الذي ينفيه سبحانه عن فعله وخلقه ، ويخبر جل شأنه أنه لايظن أن خلقه سبحانه من باب الباطل إلا من كفر به تعالى فلم يؤمن با لله حق الإيمان ، ولم يثبت له ما يستحقّه من الأسماء والصفات التي تقتضي تنزيهه عزوجل عن كل عيب ونقص [(١)].

قال جل شأنه : ﴿ **إن هؤلاء ليقولون** (٣٤) **إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين**(٣٥) **فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين** (٣٦) **أهم خير أم قوم تبّعٍ والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين** (٣٧) **وما خلقنا السمٰوات والأرض وما بينهما لاعبين**(٣٨) **ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون** (٣٩) ﴾ الدخان .

فإنكار الكافرين للبعث بعد الموت وما يتبعه من جزاء كان أحد أسبابه الرئيسية عدم علمهم بانتفاء اللّعب والعبث عن كلّ فعله سبحانه ، والذي منه خلق السماوات والأرض، وأنه جل شأنه لم يخلقهما إلا بالحق ، ولاشك أن هذا الأمر من الكافرين يرجع إلى عدم إيمانهم ببعض صفات الخالق جلّ وعلا والتي من أهمها صفة الحكمة الكاملة .

وقال سبحانه عمن لايؤمن بشمُول علمه لجميع أعمال العباد ظاهرها وخفّيها فينطلق في الآثام والمعاصي من غير رادع ظناً منه أنه سبحانه لا يعلم كثيراً من أعماله : ﴿**وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن ا لله لا يعلم كثيراً مما تعملون** (٢٢) **وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين** (٢٣) ﴾ فصلت [(٢)].

---

(١)- سبق بيان ذلك في ص: ٧٣ .

(٢)- انظر ص: ٦٦-٦٧ .

وإنكار قدرة الله التي لا يعجزها شيء أو عدم الإيمان بها حق الإيمان ، قد أدى بمشركي العرب وغيرهم إلى إنكار الجزاء الأخروي مطلقاً ، ومن هنا كان تساؤلهم الدائم عن إمكانية بعثهم بعد أن تكون عظامهم قد تحولت إلى تراب ، قال تعالى حاكياً قولهم: ﴿ **أإذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد** (٣) ﴾ ق .

فالكافرون يستبعدون الرجعة إلى الحياة بعد الموت والتحول إلى التراب ، أي : إنهم مستبعدون أن يقدر سبحانه على إعادتهم للحياة بعد الموت ، فهذا انتقاص منهم لقدرة الله تعالى ، ولذلك ناقش الله سبحانه منكري البعث كثيراً لإثبات قدرته التي لايعجزها شيء ، وضرب لهم الأمثال مِنْ خلقهم الخلق الأول ومِنْ خلق السموات والأرض ونحو ذلك لإثبات عظيم قدرته تعالى ، ومن ثَمَّ إثبات قدرته على إعادة الأموات إلى الحياة مرة أخرى للحساب والثواب والعقاب [١].

الدافع الثالث :

الاغترار بزينة الحياة الدنيا وزخرفها ومتاعها وملذاتها الفانية فإن ذلك يجعل كثيراً من الناس لايؤمنون بوجود يوم آخر يجازى فيه الإنسان على عمله ، اكتفاءً منهم بما ينالونه من شهوات وملذات الحياة الدنيا ، قال جلّ وعلا : ﴿ **إن الذين لايرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا و اطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون** (٧) **أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون** (٨) ﴾ يونس .

فهؤلاء الذين لايرجون ولا يتوقعون لقاء الله سبحانه لمجازاتهم على أعمالهم قد كان من ضمن أسباب ذلك ما بينه سبحانه من أنهم رضوا بالحياة الدنيا وزينتها ومتاعها رحلة كاملة لحياتهم لاتحتاج بعد ذلك لحياة أخرى يحاسبون فيها على عملهم في هذه الحياة الدنيا ، وبالتالي فقد حملوا أنفسهم على الاطمئنان إلى أنه ليس أمامهم إلا هذه الحياة وحدها [٢].

وقال جل شأنه : ﴿ **وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار**

---

(١)- كما سيأتي بيانه انظر ص: ١٥٧-١٥٨ .

(٢)- انظر تفسير الطبري : جـ١١ ، ص: ٨٧ . و: تفسير ابن كثير ، جـ٢ ، ص: ٤٠٧ . و: وفي ظلال القرآن:مج: ٣ ، جـ١١ ، ص: ١٧٦٧ .

ومالكم من ناصرين (٣٤) **ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً وغرتكم الحياة الدنيا فاليوم لا يخرجون منها ولاهم يستعتبون** (٣٥) ﴾ الجاثية .

وهؤلاء هم الذين قال الله فى شأنهم : ﴿ **وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لاريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين** (٣٢) ﴾ الجاثية .

فالاغترار بالحياة الدنيا وزينتها إذا كان من ضمن أسباب كفرهم بيوم الدين كان ذلك الكفر من ضمن أهم أسباب تعذيبهم بعذاب النار الأبدي .

الدافع الرابع :

الرغبة في الفجور والانطلاق وراء الأهواء والشهوات دون إرادة التزام أي قيد يمنع الإنسان من نيل أي شهوة ترغبها نفسه ، ولا شك أن الإيمان بجزاء أخروي يقتضي الالتزام بتكاليف عدة تضبط فعل الإنسان بالنسبة إلى أهوائه وشهواته وتنهاه عن مجاوزتها إلى الشهوات المحرمة ، ولكن الإنسان الفاجر الشهواني لايرضى بتلك الضوابط والحدود فيرفضها ويرفض الإيمان بمقتضاها أي : إن ذلك يدفعه إلى إنكار الجزاء الأخروي ، حتى لايشعر في قرارة نفسه بأية مسؤولية مستتبعة بجزاء عن أي عمل يقوم به. قال سبحانه : ﴿ **أيحسب الإنسان ألّن نجمع عظامه** (٣) **بلى قادرين على أن نسوي بنانه**(٤) **بل يريد الإنسان ليفجر أمامه** (٥) **يسأل أيان يوم القيامة** (٦) ﴾ القيامة .

فهو سبحانه ينكر على من يظن أنه تعالى ليس قادراً على جمع العظام البالية مبيّناً قدرته على ماهو أعلى من مجرد جمع العظام البالية ، والذي هو تسوية البنان ثم يبين سبحانه العلة النفسية الحقيقية لإنكار يوم الدين والموجودة عند كثير من المنكرين له فهم في واقع الأمر لم ينكروا يوم الدين لمجرد أنهم استبعدوا أن يقدر الله جل جلاله على جمع العظام البالية ، بل إن وراء إنكارهم ذلك إرادةً نفسية شريرة ، هذه الإرادة هي إرادة الانطلاق الفاجر وراء الأهواء والشهوات ، الانطلاق الذي لايريد صاحبه أن يقوم أمامه أي حاجز تكليفي أو جزائي يمنعه مما يرغبه من الأهواء والشهوات ، فمن ثم ينكر كونه مسؤولاً أو مجزيّاً عن أي عمل من أعماله ولذلك يتساءل عن موعد يوم الدين سؤال المستبعد المنكر لوقوعه [1].

---

(١)- انظر تفسير سورة القيامة ؛ عبدالرحمن حبنكه الميداني ، حديث إذاعي ألقى في شهر ربيع الثاني ١٤٠٨هـ .و: في ظلال القرآن ، مجلد٦ ، جـ٢٩ ، ص: ٣٧٦٩ .

قال جل شأنه : ﴿ **الذين يكذّبون بيوم الديـن** (١١) **ومـا يكـذّب بـه إلا كـل معتـدٍ أثيم**(١٢) ﴾ المطففين .

فالرغبة الجامحة في الاعتداء الآثم بتجاوز حدود ما أباحه ا لله إلى ما حرمـه ، هـي مـن أقوى الدوافع إلى التكذيب بيوم المحاسبة والجزاء على الأعمال [1].

فهذه بعض الدوافع التي تجعل أصحابها ينكرون يـوم الديـن والجـزاء إنكـاراً تامـاً فـلا يثبتون له أي صورة من الصـور ولـو كـانت محرفـة عمـا بيّنتـه رسـل ا لله وكتبـه . ولابـدّ للداعي أن يلاحظها عندما يريد مناقشـة أمثـال هـؤلاء وإقامـة الحجـة عليهـم . أمـا الذيـن عندهم تصديق با لله تعالى وبحكمته وعندهم تصديق بلزوم مجـازاة الإنسـان علـى عملـه في حياته الدنيا ولكنهم لا يؤمنون بالصورة التي بيّنها رسل ا لله وكتبه لليـوم الآخـر ومـا فيـه من جزاء، فإن دافع إنكارهم للكيفية الحقّة لليوم الآخر وما فيه من جزاء قد يكـون راجعـاً إلى:

١- تعصبهم لعقيدة منحرفة كانوا عليها ، تصور الجزاء الأخـروي بصـورة مخالفـة لمـا جاء في بيان رسل ا لله تعالى كعقيدة التناسخ ونحوها من العقائد الباطلة .

٢- التكبّر عن اتباع هذا الرسول وعن الإيمان بما جاء به .

٣- استبعاد عقل ناقص لم يقدّر ا لله حق قدره لبعض ما أخبرت به الرسل عن حقائق اليوم الآخر ، وما فيه من كيفيات معينة كبعث الأجساد البالية وحشـرها ، وصـور النعيـم والعذاب المادي كما حصل لفريق من الفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام . وإن كان قـد أدى هذا الاستبعاد لدى مشركي العرب إلى إنكارهم للجزاء الأخروي مطلقاً ، فإنـه قـد أدى لدى هذا الفريق من الفلاسـفة إلى إنكـار البعـث الجسـماني فـإلى إنكـار النعيـم والعـذاب الجسماني ، وإثبات الجانب غير المادي فقط من الجـزاء الأخـروي . وكـل مـن المشـركين وهؤلاء الفلاسفة لم يؤمنوا حق الإيمان بقدرة ا لله سبحانه التي لا يعجزها شيء [2].

---

(١)- انظر العقيـدة الإسـلامية وأسسـها ، ص: ٦٧٩ . و: في ظـلال القـرآن ، مـج :٦ ، جــ٣٠، ص : ٣٨٥٧ .

(٢)- سيأتي مناقشة الفلاسفة الذين أنكروا البعث والجزاء المادي انظر ص: ٧٣٢ وما بعدها .

ثانياً : الآثار السيئة لإنكار الجزاء الأخروي على النفس والسلوك.

مضى في فصل سابق الحديث عن الآثار الحسنة للإيمان بالجزاء الأخروي على النفس والسلوك [1] ، وسيتم الحديث هنا عن الآثار السيئة لإنكار الجزاء الأخروي عليهما ، وذلك مما يزيد في إظهار أهمية ذلك الإيمان في حياة الإنسان بصفة عامة ، حتى إنه يعتبر دليلاً جديداً على حقيقة الإيمان به .

إنه حسب تأمل واقع المنكرين للجزاء الأخروي يتبين أن الأمر في إنكار ذلك الجزاء لا يتوقف على مجرد عدم حصول تلك الآثار الحسنة له ، بل يتعداه إلى أن يكون له أكبر الأثر السيء على الإنسان عموماً . وفيما يلي بيان جملة من الآثار السيئة لإنكار اليوم الآخر وما فيه من جزاء على النفس والسلوك .

الأثر الأول : أثر إنكار اليوم الآخر ومافيه من جزاء على سائر معتقدات الإنسان الإيمانية :

١- إنه مهما كان الدافع الحقيقي وراء إنكار اليوم الآخر ومافيه من جزاء فإن المنكر لابد أن يكون لديه فساد اعتقاد إما في وجود خالق لهذا الكون ، وإما في صفات ذلك الخالق تبارك وتعالى ، ولاسيما الصفات التي تقتضي إثبات محاسبة الربّ عباده على أعمالهم ومن ثم مجازاتهم عليها .

٢- إن الإيمان با لله تعالى إذا لم يكن مقترناً بالإيمان بالجزاء الأخروي لابد وأن يضعف أثره في النفس الإنسانية شيئاً فشيئاً حتى يتلاشى - أو يكاد - أي أثر له في تلك النفس .

٣- وأيضاً فإن الذي لايؤمن بوجود اليوم الآخر ومافيه من بعث وحساب وجزاء يكون تصوره الإيماني لحقيقة وجوده تصوراً ضيقاً محدوداً بحدود هذه الدنيا [2].

وأعظم أثر سيئ لهذا التصور هو اختلاف الهدف الذي يقصده الإنسان والغاية التي يطمح إليها من وراء جميع تصرفاته وسلوكياته في هذه الحياة ، فبدلاً من أن تكون

---

(١)- انظر ماسبق ص: ١٢٨-١٣٥ .

(٢)- انظر اليوم الآخر في ظلال القرآن ، ص: ٤ ، ١٩ .

غايته وهدفه هي رضا الله والفوز بالنعيم في الدار الآخرة ، تصبح هذه الحياة الدنيا الفانية بشهواتها ولذاتها هي الهدف الأوحد ، والغاية القصوى التي يطمح إليها والتي يقصدها من وراء جميع تصرفاته [(١)]. وهذا يعني اختلال الموازين التي يقيس بها الإنسان أعماله ، فبدلاً من أن تكون موازين يوضع في حسابها أمر الآخرة وما فيها من جزاء على الأعمال بحسبها ، ومن ثم يتبين القدر الحقيقي للعمل ، وهل هو مما يجب فعله أو تركه ، فبدلاً من ذلك كله لا يوضع في حساب تلك الموازين عند وزن أي عمل فيها إلا المصالح العاجلة المتحقّقة في حدود هذه الحياة الدنيا بما تجلبه من منافع دنيويه أو تدفعه من مضار دنيويه وقتية دون أي اعتبار لأي جزاء أخروي [(٢)].

الأثر الثاني : أثر إنكار اليوم الآخر ومافيه من جزاء على النفس الإنسانية وصفاتها الخلقية :

إن عدم الإيمان باليوم الآخر وبمافيه من جزاء ينشأ عنه آثار عدة مدمرة لفطرة النفس الإنسانية التي فطر الله سبحانه عليها عباده على أحسن تقويم وقد لاتجتمع كلها لدى شخص واحد منكر للجزاء الأخروي ، لكنه لابد أن يحصل له بعض تلك الآثار السيئة ، وحصول ذلك البعض كاف لمسخ فطرة الله التي فطر النفس الإنسانية عليها ، ومن تلك الآثار ما يلي :

١- شعور المنكر للجزاء الأخروي بالعذاب النفسي الدائم ، قال تعالى :

﴿ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزّقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد (٧) **أفترى على الله كذباً أم به جنة بل الذين لايؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد** (٨) **﴾** سبأ .

فالعذاب الذي ذكر سبحانه أن الكافرين فيه ، وهم مازالوا في الدنيا ، يمكن أن يشمل نوعين من أنواع العذاب :

أما الأول : فهو عذاب الآخرة ، وعلى الرغم من أنهم مازالوا في الدنيا ما ماتوا

---

(١)- انظر : اليوم الآخر في ظلال القرآن ، ص: ٤ ، ١٩ .

(٢)- انظر في ظلال القرآن ، مج: ٦ ، جـ٢٧ ، ص: ٣٤١٠ ، جـ٢٩ ، ص: ٣٧٦٢ .

بعد ، إلا أنه لتحققه اليقيني كانوا كأنهم واقعون فيه زمـان وجودهـم في الدنيـا ومعذبـون بعذابه .

وأما الثاني : فهو العذاب النفسي الذي يحيط بأولئك الذين ينكرون لقاء الله سبحانه وينكرون مجازاته لعباده في يوم آخر [1].

وهذا العذاب النفسي له صور وأنواع متعددة منها :

أ ـ شعور المنكر للجزاء الأخروي بالقلق والحيرة والاضطراب الدائم وفقدانه للسكينة والطمأنينة ، إذ ليس لديه إجابة مقنعه ، أو حتى شبه مقنعـه حـول الأسئلة الـتي تـتردد في نفسه ، ملحة عليه بأن يجد الإجابة الشافية عليها ، والتي تـدور حـول الهـدف والغايـة مـن وجوده في هذه الحياة ، وحول مصيره بعد المـوت ، فالحيـاة الدنيـا بظروفهـا لاتصلـح لأن تكون هي الغاية من وجود الإنسان ، فإن الإنسان فيها قد يكون ظالماً وقد يكون مظلوماً، وقد يكون محسناً وقد يكون مسيئاً ، وقـد يكـون الظـالم والمسـيء مـن أصحـاب النعمـة والقوة في هذه الدنيا بخلاف المظلوم والمحسن . فلايمكـن إذاً اعتبـار الحيـاه الدنيـا أنهـا هـي الغاية من وجود الإنسان عليها ، ولايمكـن بالتـالي أن تكـون إجابـة مقنعـة شـافية لنفسية أولئك الذين ينكرون وجود حياة أخرى يتم فيها تحقيق الغاية من وجود الإنسان .

ب ـ من جهة أخرى فإن الاعتقاد بأن مصير الإنسان هو العدم المحض اعتقـاد يصيـب النفس الإنسانية لدى صنف من البشر باليأس والقنوط ومن ثم الإحباط التام [2]،وذلك لأن صاحب ذلك الاعتقاد يرى أنه لاجزاء ولا ثواب له تجاه كثير مـن الأعمـال الصالحـة الـتي يفعلها ، وأنه لاتعويض له عـن كثـير ممـا يلحقـه مـن المصـائب والآلام أو عمـا يفوتـه مـن اللّذات والنعم ، وأنه لامجال لتحقيق العدل فيما قد يصيبه مـن أنـواع الظلـم القـاهر الـذي لايستطيع دفعه فتصيبه هذه الأمور بالإحباط التام وتجعله يشعر بأن الدنيا لم تخلـق إلا عبثـاً وباطلاً وأن ما يجري فيها للبشر إنما هو ضرب من ذلك العبث الذي لا حكمة من ورائه ، ويتنامى هذا الشعور في داخله وتضيق به وبأسبابه نفسه شيئاً فشيئاً ، حتـى تصـل إلى حـد تتمنى فيه الخلاص من هذه الحياة الهازلة في سبب وجودها وفيما يجـري فيهـا فتدفـع تلـك

---

(١)- انظر : في ظلال القرآن ، مج : ٥ ، جـ٢٢ ، ص: ٢٨٩٥ .

(٢)- انظر : الإيمان والحياة ، ص : ٩٥ ، ١١٠ ، ١٦٧ .

النفس صاحبها في النهاية إلى الانتحار .

وحسب الواقع فإن مشاعر الانتحار الناتجة عن الضيق بهذه الحياة ، لا تختصُّ بأولئك الذين تصيبهم الآلام أو الكوارث أو المصائب على اختلاف أنواعها ، بل إنها في هذا العصر الحديث قد انتشرت بصورة كبيرة لدى أولئك الذين حقّقوا غاية ما يتمناه الإنسان في هذه الحياة من متع جسده ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يلبّوا حاجة نفسهم إلى الطمأنينة والراحة الحقيقية ، والتي لايمكن تلبيتها بمجرد المتع الحسّية فضاقت عليهم أنفسهم ، وتعاظم لديهم هذا الشعور ، حتى لجأوا أخيراً إلى الانتحار[1] .

جـ ـ ومن أنواع العذاب النفسي الذي يصاب به المنكر للجزاء الأخروي هو شعوره بالخوف الدائم مما قد يأتي به المستقبل إذ قد يأتي بما لايشتهيه ولا يهواه بل بما قد يجلب له ضرراً[2] ، وذلك ممايضيع عليه أوقاتا للاستمتاع بمتع هذه الحياة لايمكن تعويضها وقد تستمر تلك الأضرار فلا يكون عنده مجال للتعويض مطلقاً .

د ـ وإن أصابه مالا يتوافق وهواه أو أصابه ضرر في نفسه أو ماله فإن ذلك المنكر للجزاء الأخروي يكون في سخط مما أصابه ، وحزن وكآبة لاتنفك عنه لما حلّ به ، وإذا كان الإنسان كثيراً ما يصاب في حياته بأنواع من الآلام والمصائب والصعاب ، فإن هذا المنكر للجزاء الأخروي إنما يعيش حياته كلّها في سخط وحزن وكآبة ، بل قد يصل الأمر ببعضهم إلى الانهيار التام لدى أدنى مصيبة[3] .

٢- ومن آثار إنكار الجزاء الأخروي على النفس الإنسانية ، شعورها بأن الحياة الدنيا هي فرصتها الوحيدة للاستمتاع ونيل الشهوات والملذات ، فيصبح الحصول على أكبر قدر من شهوات الحياة الدنيا هو الهم الأكبر لتلك النفس[4] ، ويشتدّ حرصها عليها

---

(١)- يذكر أن أعلى نسبة انتحار كانت في السويد التي تعتبر أكثر دولة في العالم تحقق جميع مطالب الإنسان الجسدية فحسب . انظر الإيمان والحياة،للقرضاوي ، ص : ٨٤-٨٥ .و: اليوم الآخر والحياة المعاصرة، عبدالغني عبود،ص: ١٣٩ .

(٢)- انظر الإيمان والحياة ، ص : ١٥٥ ، ١٥٨ .

(٣)- انظر المرجع السابق ، ص : ١٣٣ ، ١٩٣ .

(٤)- يذكر هنا قول الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد :

ألا أيهذا اللائمي أحضرالوغى وأن أحضر اللذات هل أنت مخلد.

انظر : جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والاسلام،محمد بن أبي الخطاب القرشي ، جـ ١،ص : ٤٣٨ .

وتتكالب على متع الدنيا بنهم شديد لايحجزها حاجز ولايردعها رادع من دين أو خلق[1]إلا إن كان حاجزاً مادياً لايستطيع صاحبها مقاومته ، وأما الضوابط والمحرمات الدينية أو حتى تلك المسماة بالخلقية أو العرفية فما هي في تصور تلك النفس إلا كوابت لها ، لامعنى لها إذ لايوجد هناك عقاب ينتظر من يرتكبها ، بالإضافة إلى كونها تضيّع عليها هذه الفرصة الوحيدة للاستمتاع ، فلا يتمسك بها إذاً إنسان عاقل .

ويصل الأمر بتلك النفس إلى غلبة تلك الشهوات عليها وتمكّنها منها تمكّناً يؤدي إلى شعورها الدائم بالحاجة الشديدة إلى تلك الشهوات ، فلا تشبعها شهوة ، ولا يكفيها نيل متاع ، بل كلّما حصلت على شهوة أو متاع ازداد نهمها وطلبها للمزيد من أنواع تلك الشهوات والملذات والمتع فتنطلق تلك النفس وراء الأهواء والشهوات انطلاقاً فاجراً باغياً متجاوزاً لكل الحدود حتى الحدود الطبيعية التي فطر ا لله الناس عليها .

ويلاحظ في هذا المجال أيضاً أن الدافع النفسي للانطلاق وراء شهوات الحياة الدنيا ولاسيما تلك التي تغيّب الإنسان عن واقعه كالمسكرات والمخدرات ، قد يكون الهروب من مشاعر الضيق والملل والخوف والاضطراب وغير ذلك مما قد يصيب الإنسان الذي لايؤمن بحياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا . ثم إن هذا الانهماك الكليّ في شهوات الدنيا وملذّاتها له آثاره السيئة على النفس الإنسانية وصفاتها الخلقية ، ومن تلك الآثار :

أ) التكبرّ على دعاة الخير والإصلاح وعلى دعوتهم والاستهزاء بهم ، واعتبار ما يدعون إليه ضرباً من الخبل والجنون ، إذ كيف يطلبون منه الكفّ عن كثير مما يسمّونه شهوات محرمة ، ويضيّعون عليه فرصته الوحيدة لانتهاب تلك الشهوات والتلذذ بها والتي لايؤمن بوجود سواها ينال فيها مبتغاه من الشهوات ، قال سبحانه : ﴿ **إلهكم إله واحد فالذين لايؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون** (٢٢) ﴾ النحل .

ب) ومنها الظلم والطغيان والتجبّر على من هو أضعف منه لتسخيره في تحقيق المزيد من أهوائه وشهواته [2].

---

(١)- انظر في ظلال القرآن ، مج: ٥ ، جـ ١٩ ، ص: ٢٦٢٧ .

(٢)- انظر اليوم الآخر في ظلال القرآن ، ص:٤٧-٤٨.

جـ) ومنها المكر والخديعة والاحتيال الآثم في سبيل الوصول إلى مراده في شهواته بأي سبيل .

د) ومنها تأصّل خلق الجريمة والاعتداء على الآخرين في نفسه تحقيقاً للمزيد من شهواته دون أن يشعر بأي خوف أو وجل أو حرج[1] من أي جزاء أخروي ، وأما الجزاءات الدنيوية -ولاسيما الوضعية التي لاتهتم بالجوانب الإيمانية- فإنها لا علاقة لها بالأخلاق النفسية فلادور لها إذاً في استئصال ذلك الخلق السيء ، وإنما علاقتها مقصورة على الأعمال السلوكية ، وحتى في هذا المجال فإن المجرم المتمرس على الإجرام يستطيع أن يجد له أساليب كثيرة يتهرب من خلالها من أن تطاله تلك الجزاءات حتى إنه يكاد لايوجد أي أثر لتلك الجزاءات في نفس المجرم تردعه عن جريمته ، ولاسيما الأحكام الوضعية في العصر الحاضر التي كثيراً ما ترأف بالمجرمين بدعوى أنهم مرضى نفسيّون ، وفي واقع الأمر هي تزيد من تأصّل خلق الجريمة في أنفسهم إذ يرون تفاهة ما تقابل به جرائمهم من جزاءات .

هـ) ومنها غلظ القلب الذي يؤدي إليه كثرة ارتكاب الآثام والجرائم .

و) ومنها ظهور مشاعر الأنانية والفردية والأثرة في سبيل الاستحواذ على أكبر قدر ممكن من الشهوات والمتع ، ومن ثمّ اختفاء معاني البذل والعطاء والإيثار والتضحية .

ز) ومنها ظهور مشاعر الحسد والحقد والغل على من كان متمتعاً بمتاع أفضل منه وربما حتى على من كان في مستواه ، وذلك لأنه يتمنى أن يحصل على المتاع كله .

ح) ومنها انهيار جميع المفاهيم الخلقية لديه ، فما كان من الأخلاق يجلب له منفعة دنيوية من شهوة أو متاع أو سُمْعَة ونحو ذلك كان الاتصاف به عنده حسناً ، وما كان يجلب له مضرة في دنياه ، أو يحرمه منفعة يريدها أو على الأقل لايحقق له أي منفعة كان الاتصاف به عنده قبيحاً ، فالكذب الذي من خلاله يحصل على مال أو متاع هوحسن يجب عليه أن يتصف به ، والصدق الذي يسلبه مالاً أو متاعاً هو قبيح يجب أن يتجنبه ،

---

(١)- انظر : المرجع السابق ، ص: ٥٠ .

وإن كان ممن يهتم بالسمعة ، اتصف بالكرم إن جلب له السمعة الحسنة [1]، وإلا كان شحيحاً بخيلاً ، وهكذا سائر الصفات والأخلاق النفسية لا يتصف منها إلا بما يحقق له مصالحه الدنيوية ، التي لايؤمن بوجود مصالح أخرى له سواها .

ويخبرنا جلّ شأنه عن فريق من المنافقين في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم المتصفين بكثير مما سبق من الصفات الخلقية الدنيئة وذلك لأنهم غير مؤمنين حقاً بالله وباليوم الآخر فيخبرنا أنهم إذا دُعوا إلى حكم الله ورسوله أعرضوا عنه مخافة أن يحكم عليهم ، وذلك عندما يعلمون أن الحق ليس لهم ، ولكنهم إن علموا أن الحق لهم ، أظهروا الإذعان والطاعة لحكم الله ورسوله ، يقول تعالى : ﴿ **ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين** (٤٧) **وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون** (٤٨) **وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين**(٤٩)﴾النور .

ثم إن تلك الصفات السيئة الناشئة عن انهماك المُنْكِر للجزاء الأخروي في شهوات الدنيا ، تعد في حقيقة الأمر من جملة العذاب النفسي الذي ينال المنكر للجزاء الأخروي ، وذلك لمخالفة تلك الصفات السيئة لمقتضى فطرة النفس الإنسانية التي فطرها الله سبحانه على أحسن تقويم ، نقية طاهرة بريئة من جميع تلك العيوب والرذائل الخلقية ، ولاشك أن مخالفة مقتضى الفطرة سوف يؤدي إلى شعور النفس بعدم الراحة والطمأنينة وهذا يستلزم شعورها بالعذاب ، كما أن موافقة مقتضى الفطرة يؤدي إلى راحة وطمأنينة النفس .

٣- قد يصل الحال بالمنكر للجزاء الأخروي المتصف بتلك الصفات السيئة أو بعضها إلى فقدانه الثقة بمن حوله إذ يشعر بأن جميع من حوله متصفون بما يتصف هو به من صفات وأخلاق سيئة ، وهذا يؤدي به إلى الوحدة والعزلة النفسية عن الآخرين ، وإلى دوام الخوف من كل من حوله ، إذ قد يغدر به أحدهم في أية لحظة تناسبه ، ولاشك أن لمشاعر الوحدة والعزلة عن الآخرين والخوف الدائم منهم أكبر الأثر السيء على صحة الإنسان النفسية والعقلية والجسدية[2] .

---

(١)- انظر مثلاً:مبادئ الإسلام ؛ أبو الأعلى المودودي ، ص:١١٤-١١٨ .

(٢)- انظر:الإيمان والحياة ، ص: ١٢٤ .

إن الذي يحيا ونفسه في قلق من مصيره وفي خوف من مستقبله وفي شهوة عارمة نحو متاع الدنيا الزائل لايطفئها شيء ، وفي حسرة وسَخَط على كل أمر يصيبه مما لايوافق هواه ، وفي وحدة وعزلة سببها فقده الثقة في الآخرين ، قياساً لهم على نفسه التي يعلم حقاً أنها ليست أهلاً لتلك الثقة – إن الذي يحيا ونفسه كذلك لاشك أنه قد خسر نفسه في الدنيا خسراناً محققاً إذ جعلها محاطة بأنواع العذاب هذه ، خسارة لايفوقها إلا خسارته لها يوم الدين عندما يوبقها بعمله السيء في نار جهنم خالداً فيها مخلداً قال تعالى:

﴿ قل لمن مافي السمٰوات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون (١٢) ﴾ الأنعام .

فخسارة منكرى يوم القيامة وما فيه من بعث وحساب وجزاء لأنفسهم ، تشمل خسارتهم لها في الدنيا بتعريضها للعذاب النفسي الدنيوي العاجل ، وخسارة أخرى هي خسارة استفادتهم مما وهبهم الله في أنفسهم من نعمة التفكير والعقل والفطرة ونحو ذلك والتي لو استفادوا منها حق الاستفادة لأوصلتهم إلى الإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر وبرسله وكتبه ، وإلى الاستقامة على منهج الله سبحانه لنيل ثوابه والنجاة من عقابه ، كما أن خسارتهم لأنفسهم تشمل خسارتهم المتحققة لها في الآخرة [(١)].

ولاشك أن تلك الخسارة للنفس في الدنيا هي من ضمن ما توعد به تعالى من أعرض عن ذكره وآياته من المعيشة الضنك ، كما قال جل شأنه : **﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى** (١٢٤) ﴾ طـه .

الأثر الثالث : أثر إنكار اليوم الآخر وما فيه من جزاء على السلوك الإنساني :

إن السلوك الإنساني –كما سبق–هو التطبيق العملي الموافق لما يعتقده المرء ويؤمن به ولما يتصف به من صفات نفسية ، وبناءً عليه فإن السلوك الموافق لما يعتقده منكر اليوم الآخر من انتفاء الجزاء الأخروي على أعماله الدنيوية ، ومن ثَمَّ عدم خوفه من عقاب على سيء أعماله وعدم رجائه ثوابَ حسنها ، والموافق لصفاته النفسية الدنيئة السابق بيانها يتّسم بما يلي :

---

(١)– انظر مثلاً:في ظلال القرآن ، مج :٢ ، جـ٧، ص:١٠٥٣ .و: تفسير التحرير والتنوير ؛ محمد الطاهر بن عاشور ، جـ٧ ، ص : ١٥٤ .

١- انغماس صاحبها في شهوات الدنيا وملاذها ، وجريه اللاهث وراءها ، ووراء متاعها الفاني ، انغماساً يجعل أهواءه وشهواته هي إلٓهه الذي يعبده ، كما قال تعالى : ﴿**أفرأيت من اتخذ إلـهه هواه وأضله ا لله على علم** ...(٢٣)﴾ الجاثية .

فعبادة الإله تعني طاعته في جميع ما يأمر به وينهى عنه ، أمّا من كان يسير في حياته وفق مراد هواه يفعل ما كان موافقاً له ويجتنب ما يخالفه ، فإنه قد اتخذ إلـهه هواه أي معبوده الذي يطيعه [(١)].

٢- ثم إن من لوازم كون إله الإنسان هو هواه وشهوته : صرف جميع طاقاته النفسية والفكرية والجسدية وجميع أوقاته في الحصول على المزيد من المتع المادية على اختلاف أنواعها ، سالكاً في ذلك جميع السبل الموصلة إلى تلك الغاية فيستوي عنده السبل المباحة والمحرمة لنيل الشهوات المباحة أو المحرمة ، إذ يسلك سبل المكر والخديعة والحيلة إن لم يمكنه الوصول إلى شهواته إلا بذلك ، ويسلك سبل الجريمة والبغي والعدوان على اختلاف أنواعها من قتل وسرقة وغصب ونهب إن كان في ذلك تحصيل المزيد من الشهوات ، وقد يسلك سبل الخير والفضيلة إن كان فيها تحقيق لمنافعه الدنيوية العاجلة ، ويسلك تلك السبل كلها أيضاً إن كان يرى أن في سلوكه لها دفعاً لما يراه ويحسبه ضرراً دنيوياً والذي من أنواعه عنده ما فيه صدٌّ لبعض شهواته الدنيوية فيتخذ كافة السبل الممكنة لإزاحته من طريقه ، ولذلك فإن أمثال هؤلاء الناس هم أشد الناس محاربة للأنبياء والدّعاة والمصلحين من بعدهم .

٣- عموماً فإن المنكر للجزاء الأخروي لايرجى منه عمل الخير لأنه خير يجازى عليه في يوم آخر ، إذ لا يؤمن بحياة غير هذه الحياة ، ولا يؤمن إلا بنفع دنيوي عاجل فإن كان في عمل الخير ذلك النفع ، عمله من أجله وإلا فلا ، وكذا إن كان في عمل الشر ضرر عاجل اجتنبه وإلا فلا . ولذلك فإنه لا يستغرب من منكر يوم الدين أي تصرف سلوكي شائن ، قال جل شأنه : ﴿ **أرأيت الذي يكذب بالدين** (١) **فذلك الذي يدُعّ اليتيم**(٢) **ولا يحض على طعام المسكين** (٣) **فويل للمصلين** (٤) **الذين هم عن صلاتهم ساهون**(٥)

---

(١)- انظر : في ظلال القرآن ، مج : ٥ ، جـ٢٥ ، ص: ٣٢٣٠ .

الذين هم يراؤون (٦) **ويمنعون الماعون** (٧) ﴾ الماعون .

فالمكذّب بيوم الدين يوم الحساب والجزاء ، الذي لا يرجو ثواباً أخروياً على عمل صالح ، ولاعقاباً على عمل سيّء ، وإنما همه مصلحته الدنيوية ، لايستغرب منه حصول تلك الفعال الذميمة المذكورة في السورة الكريمة ، إذ إن ذلك المعتقد الفاسد لا يلزم منه إلا تلك الأفعال الدنيئة ولاسيما إذا رأى فيها تحقيقاً لمصالحه الدنيوية أو عدم رجاء مصلحةٍ دنيوية من أضدادها إذ إن تلك الأضداد - أي الأفعال الحسنة من إكرام اليتيم وإطعام المسكين ونحو ذلك - مغارم لا تعود عليه بأي غُنْم عاجل ، أما إن رأى فيها غنماً عاجلاً فعلها عندئذ رياءً وسمعة .

وقال جل شأنه : ﴿ **ويل للمطففين** (١) **الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون** (٢) **وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون** (٣) **ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون** (٤) **ليوم عظيم**(٥)﴾ المطففين .

فلو كان أولئك المطفّفون الذين يأخذون حقهم بالوفيّ والزائد ويخسرون من حق الآخرين عند الكيل والوزن - لو كانوا يؤمنون بيوم الدين حقاً ما صدر منهم هذا العمل الشائن (١).

٤- وبالتالي فإن مجتمعاً يكون سلوك أفراده وصفاتهم النفسية على نحو ما سبق لا يمكن أن يكون مجتمعاً متماسكاً مترابطاً ، فلا رابطة تضم أفراده إلا رابطة المصلحة المادية التي سرعان ما تنفصل لسرعة تبدّل المصالح المادية وتعارضها .

٥- ثم إن مثل هذا المجتمع لايمكن أن يكون مجتمعاً متحاباً متراحماً متكافلاً ، بل هو مجتمع لا يهتم أفراده إلا بتحقيق مصلحتهم الشخصية ولو كان على حساب مصلحة من هو في الظاهر أقرب الناس إليه ، فهو مجتمع لا يهتم غنيه بفقيره ولا قويه بضعيفه ، ولو استطاع غنيه وقويه استعباد فقيره وضعيفه بأي صورة من صور الاستعباد الطاغي لفعل ذلك في سبيل تحقيق مصالحه وأهوائه ونزواته الشخصية،ولو أدىّ ذلك إلى حرمان المُسْتَعْبَدِ من تحقيق شيء من مصالحه أو من تحقيق القدر الضروري منها .

---

(١)- انظر تفسير ابن كثير ، جـ٤ ، ص: ٤٨٣ .

ولا شك أن مثل هذا الفقير والضعيف الذي لا يجد من يهتم به أو يتعاطف معه يشعر بالغلّ والحقد والبغض لتلك الفئة المتسلطة ، وينتظر أي فرصة للانتقام منهم بكل وحشية ، فينقلب الحال وتنعكس الصورة بتغيير الأدوار والشخصيات دون تغيير لحقيقة الأمر ، فمن كان فقيراً مستضعفاً يصبح غنياً مستعبداً لغيره والعكس بالعكس كما حصل في البلاد التي أخذت بنظام الاشتراكية و الشيوعية .

٦- ثم إن مجتمعاً لا يؤمن بمنهج إلَـهي وتكليف رباني يجب اتّباعه مستتبع بجزاء أخروي لابد أن يضع لنفسه بدلاً من المنهج الرباني قوانين وأحكاماً ودساتير ظالمة جائرة لأنهم لا يؤمنون بجزاء أخروي ، فتمكّن تلك القوانين من كانوا في مراكز القوة من زيادة نفوذهم وتسلُّطهم على من هم دونهم بأي شكل من الأشكال ، سواء كان بشكل ظاهر(١) أو خفي(٢)، مما يؤدي إلى وجود طبقة غنية قوية مستحكمة على من دونها وهؤلاء هم القلة، أما الأكثرية فهي مغلوبة على أمرها ينحصر دورها في تلبية رغبات وأهواء وشهوات القلة المستحكمة .

٧- أما العلاقات بين أمم ودول أساسها تلك المجتمعات المنكرة للجزاء الأخروي فهي بلاشك علاقات مبنية على الصراع الدائم بين شعوب تلك الأمم من أجل الحصول على المزيد من متع الدنيا وملاذّها ، ويأخذ هذا الصراع أشكالاً عدة وكثيراً ما يصل إلى الصراعات العسكرية المدمّرة .

٨- أما الحضارة التي تنشئها بشرية كهذه فإنها مهما بلغت من تقدّمها المادي فهي تحمل عوامل انهيارها من داخلها وستعمل يوماً على نسف تلك الحضارة المزعومة من أساسها حتى لاتبقي لها أثراً (٣).

---

(١)- كما في الأنظمة الشيوعية المنهارة حديثاً .

(٢)- كالأنظمة الرأسمالية الديمقراطية .

(٣)- انظر اليوم الآخر في ظلال القرآن ، ص٤٨ .

وبعد فإن من أهم الأسباب التي أوصلت الأمة الإسلامية إلى ماهي عليه الآن ضعف إيمانها بالجزاء الأخروي فقد ضعف إيمانها بالثواب العظيم عندا لله الذي لايجعل للدنيا سبيلاً للتمكّن من قلوب أبنائها ، إذ هي لاتساوي شيئاً أمام ذلك الثواب العظيم ، كما ضَعُف إيمانها بعقاب ا لله الأليم ، الإيمان الذي يصرفها عن جميع ماحرّمه ا لله سبحانه ، ويجعلها-مع الإيمان بالثواب-ملتزمة بأوامر ا لله وأحكامه ، الإيمان الذي يجعلها أمة دعوة إلى صراط ا لله المستقيم ، أمة جهاد في سبيل ا لله تحب الموت كما يحب غيرها من الأمم الحياة. فعندما ضعف إيمانها بذلك كله تمكن حبّ الدنيا من قلوب أبنائها ونسي كثير منهم لقاء ا لله سبحانه فأنساهم أنفسهم حتى دبّ الوهن في قلوبهم ، ونزع الخوف من قلوب أعدائهم، فتسلطت عليهم الأمم وتداعت عليهم من كل جانب ، وصدق الرسول صلى ا لله عليه وسلم إذ قال :[((يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها)) قال : قلنا : يا رسول ا لله ، أمن قلة بنا يومئذ ؟ . قال :((أنتم يومئذ كثير ، ولكن تكونون غثاءً كغثاء السيل ، ينتزع المهابة من قلوب عدوكم ، ويجعل في قلوبكم الوهن)) قال : قلنا : وما الوهن ؟ ، قال : ((حب الدنيا وكراهية الموت))][1] .

ولا عودة لهذه الأمة لسابق مجدها إلا بعد عودتها إلى إيمانها بربها حق الإيمان ، وإيمانها بثوابه وعقابه جل شأنه حق الإيمان ، وبرسوله وكتابه وقدره وملائكته وسائر ما يجب الإيمان به ، الإيمان الذي يكون دافعاً لها للالتزام بكل ما يرضي ا لله سبحانه في جميع شؤون حياتها ، واجتناب كل مالا يرضى عنه جل شأنه ، الإيمان الذي يدفعها إلى العودة إلى الدعوة والجهاد في سبيل ا لله وحده .

هذه بعض الآثار السيئة على النفس والسلوك والمترتبة على عدم الإيمان باليوم الآخر وما فيه من جزاء . ونلاحظ فيما سبق ذكره من الآثار أمرين :

---

(١)- رواه أحمد عن ثوبان . المسند ، جـ٥،ص ٢٧٨ . ورواه أيضاً عن أبي هريرة أنه سمع رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم يقول لثوبان :((كيف أنت ياثوبان إذا تداعت..)) الحديث ، المسند ، جـ٢، ص:٣٥٩ . والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته ، ح:٨١٨٣ ،جـ٢،ص: ١٣٥٩.

الأمر الأول : أن جميع تلك الآثار السيئة أو معظمها هي مترتبة أيضاً على عدم الإيمان با لله تعالى ، ويرجع ذلك إلى أن عدم الإيمان با لله جل شأنه يقتضي عدم الإيمان بسائر الأركان الإيمانية ، فجميع الآثار السيئة المترتبة على عدم الإيمان بتلك الأركان ، تعتبر من جملة ما يستلزمه عدم الإيمان با لله تعالى .

الأمر الثاني : أن إنكار الجزاء الأخروي يتميّز عن إنكار سائر الأركان الإيمانية بآثار سيئة تظهر لدى منكره أكثر من ظهورها لدى منكر تلك الأركان ، ويتشابهان في آثار سيئة أخرى ، وذلك لأن هذه الأركان وحدةٌ متكاملة مترابطة ، كل ركن منها يمكن أن يستنبط منه دلالة على سائر الأركان ، والإيمان بكل ركن منها حق الإيمان لابد أن يكون دافعاً لصاحبه للإيمان بسائر تلك الأركان ، وأي خلل في الإيمان بأي منها قد يمتد إلى الإيمان بسائرها ، إذاً فلا يبعد أن تتشابه كثير من الآثار الحسنة والآثار السيئة للإيمان بكل ركن منها ، وإن كان ذلك لايمنع من أن يتميّز بعضها عن البعض الآخر بآثار معينة.

ثالثاً : دحض شبهات المنكرين للجزاء الأخروي .

إن الذين يؤمنون بوجود خالق لهذا الكون ، ولكنهم ينكرون البعث والجزاء إنكاراً تامّاً أو جزئيّاً يكون النقاش معهم حول ما قد يحتجون به من شُبَهٍ لإنكار يوم الدين وما فيه من جزاء بما يتم به بيان بطلان تلك الشبه بالحجج الدامغة .

هذه الشُّبَه يذكرها المنكرون للجزاء الأخروي ليظهروا أمام أنفسهم وأمام الآخرين بمظهر المنكر عن اقتناع لاعن تعنت لادليل عليه .

وهذه الشبه وإن كانت ساقطة لدى المتأمل المتدبر إلا أنه قد ينخدع بها بعض قاصري التفكير ، وعندئذٍ يكون إبطالها مما يساعد أولئك على الرجوع إلى الحق إن كانت عندهم بقية من إيمان ، أو يكون في إبطالها إقامة لحجة قوية عليهم يوم الدين بأنهم قد أنذروا بهذا اليوم وأقيمت لهم الدلائل عليه وأبطلت الشبهات التي تطرح حوله ، ولكنهم ظلموا أنفسهم فأصروا على الكفر دون أن يكون لهم عذر في ذلك ، ومن ثم فعليهم أن يذوقوا جزاء ما اختاروه لأنفسهم . قال جلّ شأنه : ﴿ **يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصّون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين** (١٣٠)﴾ الأنعام .

ولذلك جاء في القرآن الرد على أهم شبهات منكري اليوم الآخر وما فيه من جزاء وذلك على النحو التالي :

الشبهة الأولى :

زعمهم استحالة إعادة الحياة للإنسان بعد أن يتحلل جسده كلُّه بما فيه من لحم وعروق وأعصاب ، وبعد أن ترمّ عظامه لصعوبة ذلك حتى على قدرة الله جل شأنه .

فهذه الشبهة تقوم إذاً على عدم الإيمان الحق بقدرة الله سبحانه التي لا يعجزها شيء، ومن هنا جاء الرد في القرآن الكريم على هذه الشبهة بإثبات قدرة الله سبحانه الكاملة وذلك من خلال مايشاهده الإنسان ، قال جل شأنه : ﴿ **وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحي العظام وهي رميم** (٧٨) **قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم** (٧٩) ﴾ يس .

فالرد على شبهة هذا المنكر لقدرة الله على البعث قد كانت بتذكير الإنسان بخلقته الأولى التي كانت من نطفة من ماءٍ مهين ، كما قال جل شأنه : ﴿ **يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلّقة وغير مخلّقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم** ....(٥) ﴾ الحج .

فالذي خلق هذا الإنسان بجميع صفاته وأعطاه الحياة ، ولم يعجزه ذلك كيف يتصوّر أنه يعجز عن أن يعيده كما كان ، ويعيد إليه الحياة ؟! ، إذ إن القدرة اللازمة لإعادة الحياة ليست بأعظم من القدرة اللازمة لابتداء الحياة ، بل إن إعادة الحياة أهون من ابتدائها كما قال جل شأنه : ﴿**وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه**...(٢٧)﴾الروم .

وأيضاً فقد ضرب الله سبحانه للإنسان مثلا آخر يدل على عظم قدرته تعالى وأنه لايعجزها شيء أراده جل شأنه ، قال تعالى : ﴿ **أولم يروا أن الله الذي خلق السمٰوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير**(٣٣)﴾الأحقاف .

وقال جل شأنه : ﴿ **لخلق السمٰوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لايعلمون** (٥٧) ﴾ غافر . فإذا كان سبحانه قد قدر على خلق السماوات والأرض بكل ما فيهما من مخلوقات عظيمة من غير تعب ولا إعياء خلقاً لو تدبره المتدبر لوجده أعظم وأكبر بكثير من خلق الناس فلا شك أنه ذو قدره عظيمة ، من آمن بها حق الإيمان فلابدّ أن يؤمن بأن هذه القدرة لايعجزها إعادة من مات إلى الحياة مرة أخرى [(١)].

الشبهة الثانية :

إن أجزاء البدن عندما تتحلل وترمّ فإنها تتحول إلى تراب فتختلط بتراب الأرض فتضلّ فيه وتغيب حتى لايبقى لها أثر متميّز فكيف يمكن بعد ذلك تمييزها وإعادتها إلى ماكانت عليه . قال تعالى حاكياً عن المشركين هذه الشبهة : ﴿ **وقالوا أإذا ضللنا في الأرض أإنّا لفي خلق جديد ، بل هم بلقاء ربهم كافرون** (١٠) ﴾ السجدة .

---

(١)- انظر العقيدة الإسلامية وأسسها ، عبدالرحمن حبنكه الميداني ، ص: ٦٧٠-٦٧١ .

فمنكرو البعث يستبعدون الرجعة إلى الحياة بعد أن تضل أجسادهم في الأرض ، أي بعد أن تتحوّل لحومهم وعظامهم إلى تراب يختلط بتراب الأرض ، ويضيع فيه حتى لا يتبين له أثر [(١)]. وهذه الشبهة ترجع إلى عدم إيمان صحيح بقدرة ا لله التامة ، وبعلمه الشامل الذي لايعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض . وقد جاء في الآيات التي قبل تلك الآية ما يرد على هذه الشبهة بإثبات كلٍّ من العلم الشامل لله سبحانه والقدرة التامة الكاملة . قال جل شأنه : ﴿ **ا لله الذي خلق السموٰات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون** (٤) **يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون** (٥) **ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم** (٦) **الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين** (٧) **ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين** (٨) **ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون** (٩) **وقالوا أإذا ضللنا في الأرض أإنا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون**(١٠)﴾السجدة .

ففي الآيات السابقة إثبات لقدرة ا لله التامة التي لا يعجزها شيء والتي من آثارها خلق السماوات والأرض بكل ما فيها ، ومن ضمن ذلك الإنسان الذي ابتدأ خلقه من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ثم إن كل خلق خلقه سبحانه بإتقان وإحسان تامّين وهذا لا يفعله إلا من كان علمه شاملاً لكل شيء ، وليس الأمر متوقفاً على مجرد الخلق الأول لأنه سبحانه لم يترك ما خلقه بلا تدبير ولا نظام ، بل إنه يدبر أمر كلّ شيء ويقدره لحظة بلحظة أكمل تدبير وأحسن تقدير ، وهذا يدركه كل من تأمل الكون وتأمل ما فيه من إتقان بديع ونظام دقيق لا يختلّ ، وهذا يستلزم علمه سبحانه بالغيب والشهادة فهو لايعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض . فمن يتصف بالعلم الشامل الذي لا يعزب عن علمه شيء لا يعجزه إعادة تجميع ذرات الإنسان

---

(١)- انظر : تفسير الطبري ، جـ٢١ ، ص: ٩٦ . و: تفسير التحرير والتنوير ؛ محمد الطاهر بن عاشور ، جـ٢١ ، ص: ٢١٨ . و: العقيدة الإسلامية وأسسها ، ص: ٦٧٢ .

من مختلف الأماكن التي تفرقت فيها ، وعن تمييزها عما اختلطت به إن أراد ذلك . ومن يتصف بالقدرة التامة لا يعجزه إعادة تركيب تلك الذرات كما كانت ، ولا يعجزه إعادة الحياة إليها إن أراد ذلك . وفي حقيقة الأمر فإن كثيراً من منكري البعث عندما يواجهون بتلك الحجج فإنهم في قرارة أنفسهم لا يستطيعون إنكار علم الله الشامل وقدرته التامة الباهرة ولكنهم يظلون مصرّين على موقفهم من إنكار البعث ، لا لأنهم لم يقتنعوا بأدلته وإنما من باب الجحود والإنكار والكفر المتعنت الذي لا دليل له ، والذي قد يكون باعثه الاستكبار عن اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم أو الاستكبار عن عبادة الله الواحد ، أو قد يكون باعثه إرادة الفجور والانطلاق وراء الآثام والمعاصي ونحو ذلك من بواعث نفسية دنيئة [(١)] .

ويدل على ما سبق قوله سبحانه ﴿ **بل هم بلقاء ربهم كافرون** ﴾ فـ (بل) حرف إضراب عما سبق أي ليس إنكارهم للبعث والجزاء وكفرهم به بسبب تلك الشبهة الواهية التي يحاولون بها التشكيك في البعث ، وإنما كفرهم كفر جحود وتعنت ،كفر بلقاء الله سبحانه الذي يوقنون أنهم لو لاقوه فإنّه مجازيهم بما يستحقونه من عقاب على كفرهم وفجورهم [(٢)] . ويرد سبحانه على الشبهة أيضاً في موضع آخر بإثبات علمه الشامل لكل ذرة من ذرات كيان الإنسان المتحلل في التراب ، بقوله تعالى : ﴿ **قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ** (٤) ﴾ ق .

فهو سبحانه يعلم علماً شموليّاً تامّاً جميع ما تنقصه الأرض من أجسام الموتى بالتحلل فيها شيئاً فشيئاً فلا يعزب عنه أدنى مثقال ذرة من جسد الإنسان المتحلل كما لم يعزب عن علمه أدنى مثقال ذرة من عمل الإنسان ، إضافة إلى تسجيل كل ما يتعلق بالإنسان وعمله في كتاب حفيظ لا تمتد إليه يد العبث والتغيير [(٣)] .

---

(١)- انظر بيان ذلك فيما سبق ذكره من دوافع إنكار اليوم الآخر وما فيه من جزاء ص: ١٣٩-١٤٣ .

(٢)- انظر : تفسير الطبري ، جـ: ٢١ ، ص: ٩٧ . و: تفسير التحرير والتنوير ، جـ٢١، ص: ٢١٩ .

(٣)- انظر : تفسير الطبري ، جـ: ٢٦ ، ص: ١٤٨ . و: تفسير ابن كثير ، جـ: ٤ ، ص: ٢٢٢ . و:تفسير التحرير والتنوير : جـ٢٦ ، ص: ٢٨٠-٢٨١ .

الشبهة الثالثة :

ما قد يُلَبِّس به البعض من أن هـذا الخلق الأول الـذي خلقـه ا لله سبحانه قـد أصابـه بالإعياء والتعب والنصـب – تعـالى عـن ذلـك علـواً كبـيراً – فلـم يعـد قـادراً علـى خلـق جديد[١]– في زعمهم الكاذب – ولاسيما أن اليهود بعد أن حرَّفُوا ديـن ا لله الـذي أنـزل إليهم ، قد افتروا على ا لله كذباً بنسبة التعب والنصب والإعياء إليه – تعالى عـن ذلـك – نتيجـة خلقـه السـماوات والأرض ولذلـك يزعمـون أنـه سبحانه بعـد خلقـه السـماوات والأرض في ستة أيام استراح في اليوم السابع [٢]تعالى عن قولـهم علواً كبيراً .

وقد رد عليهم سبحانه بقوله : ﴿ **ولقـد خلقنـا السمٰوات والأرض ومـا بينهمـا في ستة أيام وما مسّنا من لغوب** (٣٨) ﴾ ق .

أي : من نصب وإعياء وتعب [٣].

فإذا كان اليهود وهم في الأصل أصحاب كتاب سماوي قد حرّفوا دينهم ونسـبوا إليـه تعالى النصب والإعياء نتيجة خلقــه السـماوات والأرض مـع مـا في ذلـك مـن عـدم إيمـان حقيقي بقدرة ا لله التامة التي لا يمكن أن يعتريها نقص من تعب ونصب وعجز ونحو ذلـك ، فلا يبعد أن يُلَبِّس بعضُ منكري البعث بهذا الافتراء محاولين بتلك الشبهة الفاسدة نقـض حقيقة البعث وما يترتب عليه من جزاء أخروي وقد فات هؤلاء أنـه سبحانه (ليس فعله بمنزلة غيره الذي يفعل بالآلات والكلفة والنصب والمشقة ولا يمكنه الاستقلال بالفعل ، بل لابد معه من آلة ومعين ، بل يكفي في خلقه لما يريد أن يخلقه ويكوّنه نَفْسُ إرادته ، وقولـه للمُكوَّنِ ((كن)) فإذا هو كائن كما شاءه ، وأراده)[٤].

قال جل شأنه : ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون** (٨٢) ﴾ يس .

فأنىّ للتعب والنصب أن يصيب من كان يكفي لخلقه ما يريده مجرد إرادتـه لـه وقولـه ﴿**كن فيكون**﴾ . ومن كان خلق الناس كلهم وبعثهم بالنسبة إلى قدرته جل شأنه كخلـق

---

(١)– انظر : العقيدة الإسلامية وأسسها ، ص: ٦٧١ .

(٢)– انظر : الكتاب المقدس (العهد القديم) سفر التكوين ، الإصحاح الثاني (١–٤) .وقد تبعهـم علـى قبول ذلك الافتراء النصارى الذين آمنوا بالتوراة المحرفة .

(٣)– انظر : تفسير الطبري : جـ٢٦ ، ص: ١٧٨–١٧٩ . و: تفسير ابن كثير : جـ٤ ص: ٢٢٩ .

(٤)– شرح العقيدة الطحاوية ص: ٤٦١–٤٦٢ .

وبعث نفس واحدة قال تعالى : ﴿ **ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن ا لله سميع بصير**(٢٨) ﴾ لقمان .

الشبهة الرابعة :

ما يثيره كثير من منكري البعث من أن إعادة من مات من البشر إلى الحياة أمر غيبيّ لم يروا له مثيلاً في واقع حالهم ، فلا يمكن لهم إذاً أن يسلّموا به إذ لم يدركوه بحواسهم الظاهرة ، ولذلك حكى ا لله عنهم في كتابه الكريم مطالبتهم بإعادة آبائهم إلى الحياة ، حتى يروا ذلك بأعينهم ، فيؤمنوا بالبعث في اليوم الآخر وما يتبعه من جزاء على الأعمال، من ذلك قوله سبحانه : ﴿ **إن هؤلاء ليقولون** (٣٤) **إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين** (٣٥) **فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين** (٣٦) ﴾ الدخان .

وقوله جل شأنه :

﴿ **وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وماهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون** (٢٤) **وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين** (٢٥) ﴾ الجاثية .

ففي قوله تعالى ﴿ **ما كان حجتهم** ﴾ دلالة على أنه إن كانت حجتهم أي أقوى أدلتهم على إنكار البعث والجزاء الأخروي هو هذا الدليل الساقط فلاشك أن سائر ما يزعمونه أدلة لهم في هذا المجال إنما هو أوهام وشبهات لا قيمة لها مطلقاً ، مما يظهر أنه ليس لمنكر المعاد أي دليل أصلاً على إنكاره [(١)].

وعلى كل حال فإن هذه الشبهة – كسائر الشبه – لا قيمة لها في ميزان النقد العلمي الصحيح ، إذ ليس كلّ ما لايدرك بالحواس الظاهرة لا يؤمن به لأن في ذلك تعطيلاً لجانب كبير من جوانب عمل العقل وفائدته الذي قد يدرك كثيراً من الأمور ويؤمن بوجودها ، وإن لم يمكن إدراكها بما يملكه صاحبه من حواس ظاهرة كاللمس والبصر والسمع ، وهذا الأمر يوجد بكثرة في جانب من العلوم النفسية والعلوم الكونية

---

(١)- انظر : الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ؛ أبو القاسم جارا لله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي:جـ: ٣ ، ص: ٤٣٩ .و: تفسير التحرير والتنوير ، جـ: ٢٥ ، ص: ٣٦٤ .

الحديثه وغير ذلك [1] . ومع ذلك فإننا نجد في القرآن عدة ردود على هذه الشبهة وذلك من باب إقامة الحجة على منكري البعث والجزاء الأخروي ، وهداية لمن كان قلبه قابلاً لها ، ومن تلك الردود قوله تعالى بعد إيراد شبهتهم هذه في سورة الجاثية : ﴿ **قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لاريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون**(٢٦)﴾

فإن كان منكرو المعاد يعتمدون في إنكارهم على كونهم لم يروا أن ميتاً عادت له الحياة بعد موته ، أفلا ينظرون في أنفسهم ووجودهم في هذه الحياة ، ليستنبطوا من ذلك الدليل على المعاد الأخروي ، فهم قبل أن يوجدوا في هذه الحياة ، كانوا أمواتاً لاحياة لهم ولا وجود ثم الله سبحانه أنشأهم بقدرته من ذلك الماء المهين وهو سبحانه قد وهبهم هذه الحياة فصاروا أحياءً بعد موتهم ، فلاشك أنه سبحانه قادر على إحيائهم مرة أخرى – كما وعد – للجزاء ثواباً أو عقاباً بعد أن يميتهم موتتهم الثانية [2] .

ومن هذه الردود ما جاء الاستدلال به على البعث في أكثر من موضع في القرآن الكريم ، منها قوله تعالى : ﴿ **ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، إن الذي أحياها لمحي الموتى إنه على كل شيء قدير** (٣٩) ﴾ فصلت .

فهؤلاء الذين يطالبون بإعادة آبائهم إلى الحياة مرة أخرى ليكون ذلك دليلاً ملموساً لهم لحقيقة الحياة بعد الموت أفلا يتدبرون مشهد الأرض القاحلة من حولهم عندما ينزل المطر عليها فينبت الله به ما كان ميتاً فيها من البذور فتحيا الأرض بحياة النباتات والزروع فيها بعد أن كانت ميتة لموت تلك النباتات ، ففي هذا الأمر الذي يتكرر دواماً دليل حسي مشاهد على إمكان الحياة بعد الموت ، وفيه كفاية لمن طلب ذلك من منكري البعث حتى يثوبوا إلى رشدهم ويؤمنوا به إن كانوا فعلاً طالبين للحقيقة [3] .

---

(١)– انظر العقيدة الإسلامية وأسسها ، ص: ٦٧٤ .و: مبادئ الإسلام ؛ أبو الأعلى المودوي،ص: ١٢٠ .

(٢)– انظر : تفسير ابن كثير ، جـ: ٤ ، ص: ١٥١ .و: في ظلال القرآن ، مج : ٥ ، جـ: ٢٥ ، ص: ٣٢٣٣ .

(٣)– انظر تفسير الطبري ، جـ٢٤ ، ص: ١٢٢ .و: العقيدة الاسلامية وأسسها ، ص: ٦٧٥ .و: في ظلال القرآن ، مج : ٥،جـ:٢٤ ، ص: ٣١٢٥-٣١٢٦ .

الشبهة الخامسة :

وهي عبارة عن اتهام موجه للرسل عليهم السلام فيما يتعلق بخبرهم عن اليوم الآخر وما يفعله الله سبحانه فيه من بعث وحشر وحساب وجزاء ، وهو اتهام لهم بافترائهم الكذب على الله سبحانه فيما يخبرون به عنه ، وبأنهم قد تلقّوا أخبار اليوم الآخر من أساطير الأوّلين ، أو اتهامهم بالجنون فهم يخبرون بما لا يتقبله عقل ، ويلاحظ أن هذه الاتهامات فرع عن الاتهامات الموجهة عموماً للرسل في جميع ما يخبرون به عن الله سبحانه . قال تعالى حاكياً عن منكري البعث مقالاتهم الاتهامية :

﴿ **وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد** (٧) **أفترى على الله كذباً أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد**(٨)﴾ سبأ .

وقال جل شأنه : ﴿ **بل قالوا مثل ما قال الأولون** (٨١) **قالوا أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون** (٨٢) **لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين**(٨٣)﴾المؤمنون .

والرد على هذه الاتهامات الموجهة للرسل عليهم السلام بخصوص البعث والجزاء الأخروي مستنبط من الرد العام المجمل على جنس تلك الاتهامات ، فمنكرو البعث كافرون برسلهم وهم عموماً يتهمون رسلهم بالكذب على الله تعالى فيما يخبرون به عنه، وبتلقي تلك الأخبار عن أساطير الأولين ، ويتهمونهم أحياناً أخر بالجنون وأن معظم ما جاؤوا به إنما هو هذيان وكلام لا يصدر عن عاقل [(١)].

ومن الردود على التهمة الأولى تهمة الكذب على الله ما جاء في قوله تعالى عقب اتّهامهم للرسل بالكذب في شأن إخبارهم عن البعث والجزاء : ﴿ **وقال الذين كفروا أإذا كنا تراباً وآباؤنا أإنا لمخرجون** (٦٧) **لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين** (٦٨) **قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين**(٦٩)﴾النمل.

فهو سبحانه يطلب من هؤلاء الكافرين أن يسيروا في الأرض فيعتبروا بحال من سبقهم

---

(١)- انظر : العقيدة الإسلامية وأسسها ، ص: ٦٧٧-٦٧٨ .

من أشياعهم من الكافرين المكذّبين لرسلهم والمنكرين للبعث وما يتبعه من جزاء ، كيف أنزل ا لله عليهم عذابه وعقابه تأييداً ونصرة لرسله عليهم السلام فلو لم يكن الرسل صادقين فيما يخبرون به عن ا لله سبحانه ومن ذلك إخبارهم عن اليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وجزاء لما أيّدهم جل شأنه بنصرتهم على أعدائهم المكذبين بهم [(١)]. وفي هذا رد أيضاً على من اتهمهم بالجنون عليهم السلام ، إذ كيف يؤيد سبحانه بنصره العام مجانين يدّعون أنهم رسل من عنده لهداية الناس ودلالتهم إلى صراط ا لله المستقيم . وللرد أيضاً على اتهام رسل ا لله بالجنون ، يقول سبحانه : ﴿ **قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنّة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد**(٤٦) ﴾ سبأ .

فهذه مطالبة لمتهمي الرسول صلى ا لله عليه وسلم بالتفكير في حاله ودعوته وما جاء به من آيات بيّنات يؤيد بها دعوته ، تفكراً خالياً من أي تعصب ، تفكراً مقصوداً به الحق، خالصاً لله سبحانه ، ولاشك أن مثل هذا التفكر سيقودهم إلى الإيمان بأن هذا الرسول ليس به شيء من الجنون ، وأن ما جاء به هو الحق ، الذي من اتّبعه نال الثواب العظيم ومن خالفه فقد أنذره هذا الرسول الكريم صلى ا لله عليه وسلم بالعذاب الشديد يوم الدين . وفي حقيقة الأمر فإن كثيراً من الذين يصرّون على اتّهام الرسول صلى ا لله عليه وسلم بالجنون ليس ذلك اعتقاداً منهم بأنه مجنون حقاً ، وإنما كراهية منهم لاتباع الحق الذي جاء به،قال تعالى : ﴿ **أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون** (٧٠) ﴾ المؤمنون .

الشبهة السادسة :

ما يظنه كثير من منكري البعث من أن خلقه سبحانه لهذا الكون ليس له حكمة وغاية حميدة بل هو ضرب من العبث واللعب – تعالى ا لله عن ذلك علواً كبيراً – ومن ثم – حسب زعم هؤلاء – فإنه سبحانه لا يهتم بإقامة يوم آخر يجازي فيه الناس على أعمالهم فلا يوجد إذاً يوم آخر ولا يوجد جزاء أخروي .

---

(١)– انظر : تفسير ابن كثير : جـ: ٣ ، ص: ٣٧٣ .

ويتضح من هذه الشبهة أن أساسها عدم الإيمان بصفة الحكمة الإلهية ، ومن ثم يكون إيضاح بطلانها بما سبق بيانه من ثبوت صفة الحكمة لله سبحانه وما يقتضيه ذلك الثبوت من انتفاء العبث والباطل عن جميع أفعال الله جل شأنه [1].

الشبهة السابعة :

وهي في حقيقة الأمر ليست شبهة وإنما هي فرية اعتمدت على تصورات كنسية محرفة لكيفية الفوز بالنعيم في الدار الآخرة ، أو اعتمدت على التصورات المنحرفة عن الفهم الصحيح لدين الله والتي نشأت لدى بعض فرق الصوفية ، فنسبة تلك التصورات إلى العقيدة الإسلامية التي لم تتبدّل و لم تتغيرّ منذ أن نزلت من عند الله وبلغها رسوله صلى الله عليه وسلم .

وملخص هذه الفرية أن الاعتقاد بالجزاء الأخروي يؤدي إلى السلبية في هذه الحياة الدنيا ، وتركها بلاجهد ولا عمل ، لأن ذلك هو سبيل الخلاص . ونسبة هذه الفرية لعقيدة الجزاء كما هي في الإسلام ، إما من شخص جاهل اعتقد أن الإسلام كغيره من الديانات المحرفة كالنصرانية والبوذية والهندوسيه وأمثال هذه الديانات سواء كانت سماوية في أصلها ثم حرفت أو كانت وضعية والتي تدعو إلى الخمول والكسل فيما يتعلق بشؤون الحياة الدنيا ، وإلى السلبية التامة تجاه هذه الحياة وتركها للطغاة والكفرة والمتجبرين لأن تلك السلبية وذلك الخمول حسب زعم المحرفين لدين الله فيه الفوز والنجاة يوم الدين، وإما أن تكون هذه الفرية نسبة من شخص جاهل بالمصدر الذي يتلقى منه الإسلام فيظن أن عقيدة الإسلام فيما يتعلق بالجزاء الأخروي كما جاءت من عند الله سبحانه يمكن تلقيها من خلال ما تعتقده بعض الفرق الإسلامية من عقائد منحرفة في مفهومها عن المفهوم الصحيح لدين الله ، وذلك مثل كثير من الفرق الصوفية التي تدعو إلى السلبية التامة تجاه الحياة الدنيا . وإما أن تكون نسبة من شخص يعلم الفرق بين الإسلام وغيره ويعلم المفهوم الصحيح لعقيدة الجزاء الأخروي في الإسلام ، ولكنه كافر معاند لايريد الإيمان بالله وبرسوله وباليوم الآخر كبراً أو فجوراً أو طغياناً فينسب إلى الإسلام ما هو

---

(١)- انظر ما سبق ص: ٧١-٧٥ .

منه براء . والحقيقة أن عقيدة الجزاء الأخروي كما قررها الإسلام هي من أكبر الحوافز للمرء المسلم للقيام بعمارة هذه الأرض عمارة متقيّدة بمنهج ا لله ، المحقق لكل خير وسعادة دنيوية وأخروية والضابط لكل عمل وجهد بشري عن الزلل أو الطغيان أو الفساد .

وعقيدة الجزاء الأخروي هي من أكبر الدوافع التي تدفع المسلم للقيام بإصلاح ما قد يقع في الأرض من فساد من بعض الطغاة والمتجبرين ، والعمل على إعادة نشر الخير بين الناس بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل ا لله والدعوة إلى دين ا لله بين الناس أجمعين[1] .

هذه بعض أهم شبهات منكري البعث وما يتبعه من جزاء أخروي . وهي إنما تدل على تهافت إنكارهم له ، ، وأنه قائم على غير حجة أو دليل أو حتى شبهة دليل ، بل يقوم عند كثير منهم على رفضهم النفسي للإيمان به لدوافع دنيئة - من التي سبق بيانها - وما تلك الشبهات التي يثيرونها إلا محاولة منهم لستر تلك الدوافع بما يزعمونه من أدلة ينكرون بها الحقائق اليقينية الراسخة ، وبالتالي فإن عجز منكري المعاد والجزاء الأخروي عن الإتيان بدليل واحد قوي على إنكاره دليل إضافي على يقينية الجزاء الأخروي وحقيقته ويقينية ما يتعلق به من بعث وحشر وحساب [2]... وا لله أعلم .

(١)- سبق الحديث عن آثار الإيمان بالجزاء الأخروي على السلوك الإنساني ، انظر ص:١٣٢-١٣٥ . وانظر في هذه المسألة : اليوم الآخر في ظلال القرآن ، ص: ٥-٦، ١٩، ٤٨.

(٢)- سوف يأتي - بإذن ا لله - مزيد من الرد على منكري البعث والجزاء الماديين عند مناقشة الفلاسفة المنكرين لهما انظر ص:٧٣٢ وما بعدها .

الباب الثاني

أسس الجزاء الأخروي وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول : قيام الجزاء الأخروي على أساس عدل الله تعالى وفضله .

الفصل الثاني : قيام الجزاء الأخروي على أساس أهليّة التكليف .

الفصل الثالث : قيام الجزاء الأخروي على أساس المسؤولية الشخصية .

الفصل الأول

قيام الجزاء الأخروي على أساس عدل الله تعالى وفضله

ويشتمل على :

أولاً : الجزاء الأخروي بين عمل الإنسان ومشيئة الله تعالى وفضله وتحقيق المذاهب في ذلك .

ثانياً : شروط تحقق الجزاء على العمل .

ثالثاً : تفاوت الجزاء الأخروي على الأعمال وعوامل ذلك .

رابعاً : مظاهر العدل والفضل في الجزاء الأخروي .

أولاً : الجزاء الأخروي بين عمل الإنسان ومشيئة الله تعالى وفضله وتحقيق المذاهب في ذلك .

تمهيد :

إن مسألة المقتضي لاستحقاق الجزاء يوم الدين وإيقاعه من المسائل التي اختلفت فيها الفرق الإسلامية ، وكل مذهب رأى في طائفة من النصوص ما يؤيد رأيه ، فاعتمد عليها واستند إليها في نصرة مذهبه .

وكمعظم القضايا التي يقع فيها الاختلاف توجد ثلاثة مذاهب رئيسة طرفان ووسط . طرفان متقابلان يستدل كل منهما بطائفة من النصوص الشرعية التي تلائم أصول مذهبه ، ويتعسف في تأويل النصوص الأخرى . والوسط هو الذي ينظر أولاً في جميع النصوص الواردة في المسألة ولا يتعصب لرأي سابق أولأصل يكون غير معتمد على كتاب أو سنة ، ومن خلال تلك النظرة الشاملة المتدبرة يستطيع الوصول إلى الحق . وهذه المذاهب الثلاثة هي :

أ- المذهب الأول : وهو مذهب المعتزلة ومن وافقهم :

١- اقتضاء العمل لاستحقاق الثواب والعقاب عدلاً من الله تعالى :

إن المعتزلة ترى أن المقتضي لاستحقاق الجزاء يوم الدين هو العمل الذي قدمه العبد في الدنيا . ففعل الواجب واجتناب القبيح هو المقتضي أو المؤثر في استحقاق الثواب ، وعمل القبيح هو المقتضي أو المؤثر لاستحقاق العقاب [(١)] . وبهذا يتحقق ما يذهبون إليه من قيام الجزاء الأخروي على أساس العدل الرباني [(٢)] .

هذا في استحقاق الثواب والعقاب ، وأما في وقوعهما بالفعل فإن حكم الثواب يخالف حكم العقاب عند بعض المعتزلة ، كما سيأتي بيانه .

٢- حكم إيقاع الثواب :

---

(١)- انظر : شرح الأصول الخمسة ، للقاضي عبدالجبار بن أحمد . ص: ٦١٤ .

(٢)- انظر : المرجع السابق . ص: ١٣٣ .

لايوجد فرق عند المعتزلة بين استحقاق الثواب وإيقاعه بالفعل فكلاهما واجبان على الله عقلاً مادام أن المكلف قد اجتنب القبائح المحبطة لثوابه . والدليل العقلي على وجوب استحقاق الثواب على فعل الواجب واجتناب القبيح عند القاضي عبدالجبار هو :

(أنه تعالى إذا كلفنا الأفعال الشاقة فلابد من أن يكون في مقابلها من الثواب ما يقابله، بل لايكفي هذا القدر حتى يبلغ في الكثرة حدّاً لايجوز الابتداء بمثله ولا التفضل به، وإلاّ كان لايحسن التكليف لأجله .

وإنما قلنا إنما هذا هكذا لأنه لو لم يكن في مقابلة هذه الأفعال الشاقة ما ذكرناه ، كان يكون القديم تعالى ظالماً عابثاً ...)(1) .

وقد رد القاضي عبدالجبار على شيخه أبي القاسم (2) من المعتزلة في قوله : (إنما كلفنا هذه التكاليف الشاقة لماله علينا من النعم العظيمة ؛ فإن ذلك غير ممتنع ، فمعلوم أن من أخذ غيره من قارعة الطريق فرباه وأحسن تربيته وخوّله وموّله وأنعم عليه بضروب النعم ، جاز له أن يكلفه فعلاً يلحقه بذلك مشقة ؛ نحو أن يقول : ناولني هذا الكوز ، أو تّمم لي هذا السطر ، ولايجب أن يغرم في مقابل ذلك شيئاً آخر ، كذلك في القديم تعالى فنعمه عندنا لاتحصى وأياديه لدينا لاتحصر ...)(3) .

وقال القاضي عبدالجبار في رده :

(والأصل في الجواب عليه أن يقال : إن القديم تعالى إذا جعل هذه الأفعال الشاقة علينا ، وكان يمكنه ألاّ يجعلها كذلك ، فلابد من أن يكون في ذلك من الثواب ما ذكرناه، واستشهاده بالواحد منا ، وأنه إذا أنعم على الغير بضروب النعم فإنه يحسن منه أن يكلفه ما يلحق به مشقة نحو أن يقول له : ناولني هذا الكوز أو ما يجري هذا المجرى فلا يصح ، لأنه إنما يحسن منه ذلك في الموضع الذي لايتبين للإنسان فيه كبير مشقة ، وليس كذلك سبيل ما كلفنا الله تعالى ، ففي ذلك ما يتضمن الجود بالنفس والمخاطرة بالروح فلا يقاس

(1)- المرجع السابق . ص: ٦١٤-٦١٥ .

(2)- الظاهر أنه : أبو القاسم بن محمد الكعبي [ت: ٣١٩هـ] . وهو من معتزلة بغداد .

(3)- المرجع السابق . ص: ٦١٧-٦١٨ .

بما أورده ، ولهذا فلو كلف المنعم – الذي وصفه – المنعم عليه بما يتضمن المشقة العظيمة نحو المواظبة على خدمته والقيام بين يديه آناء الليل والنهار وما شاكل ذلك لم يحسن إليه ، بل كان يكون للمنعم عليه أن يقول : كان من حقك ألا تتفضّل عليّ بالأوّل حتى لا تأخذني بهذه التكاليف من بعد .)[1].

ومما يستدل به القائلون بالوجوب العقلي لإثابة المطيع على الله سبحانه من المعتزلة : قول الله تعالى : ﴿...**ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون**(٤٣)﴾ الأعراف.

قال الزمخشري : (﴿ **بما كنتم تعملون** ﴾ : بسبب أعمالكم لا بالتفضّل كما تقول المبطلة .)[2].

وقالت المعتزلة : إن الباء في هذه الآية وأمثالها هي : باء العوض والمكافأة ، أي إن الأعمال الصالحة تعتبر عوضاً مكافئاً للجنة ونعيمها [3].

وقال الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون** (٨) ﴾ فصلت . (وقيل : لايُمَنّ عليهم ، لأنه إنما يُمَنُّ التفضل ، فأمّا الأجر فحقٌّ أداؤه .)[4].

وقال في موضع آخر : (أو : غير ممنون عليك به ، لأنه ثواب تستوجبه على عملك ، وليس بتفضل ابتداءً ، وإنما تمنُّ الفواضل لا الأجور على الأعمال .)[5].

إذاً فالمعتزلة (لم يجعلوا لله على العبد منّةً في إعطائه الجزاء ، بل قالوا : ذلك محض حقه الذي لامنّة لله عليه فيه ، واحتجوا بقوله :

---

(١)- المرجع السابق . ص: ٦١٨ .

(٢)- الكشاف عن حقائق التنزيل ، للزمخشري . جـ:٢ ، ص: ٦٣ . وانظر : جـ:١ ، ص: ٣٠٠ . حيث ذكر أنه تعالى أثبت أن الأمر كله معقود بالعمل ... .

(٣)- انظر شرح العقيدة الطحاوية . ص: ٤٩٥ .

(٤)- الكشاف ، للزمخشري . جـ:٣ ، ص: ٣٨٣ ، وذكر القول الآخر في قوله ﴿ **غير ممنون** ﴾ وهو : غير مقطوع .

(٥)- المرجع السابق . جـ:٤ ،ص:١٢٦ .وذلك عند تفسير قوله تعالى :﴿**وإن لك لأجراً غير ممنون**(٣)﴾ القلم .

﴿ ... **لهم أجر غير ممنون** ﴾ قالوا : أي غير ممنون به عليهم ؛ إذ هو جزاء أعمالهم وأجورها ، قالوا : والمنّة تكدّر النعمة والعطية .)[1].

وقد يشهد للقائلين بوجوب الثواب عقلاً على الله تعالى ، ظاهر النصوص التي بينت أن للعباد على الله حقّاً أن لايعذبهم إن هم عبدوه وحده وأطاعوه ، وذلك كما جاء في قوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه : [((هل تدري ما حق الله على عباده)) ؟ . قلت : الله ورسوله أعلم . قال : ((حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً .)) . ثم سار ساعة ، ثم قال : ((يا معاذ بن جبل .)). قلت : لبيك رسول الله وسعديك . قال ((هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوه)) ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : ((حق العباد على الله أن لايعذبهم)) .] [2]. وإن لم يعذبهم أدخلهم الجنة إذ لادار إلاّ الجنة أو النار .

٣- حكم إيقاع العقاب وتخليده ، وأدلّة ذلك :

ذهب البصريون من المعتزلة إلى أنه يجوز عقلاً أن يعفو تعالى عن العاصي وذلك لأن العقاب حقه جل شأنه [3].

وذهب البغداديون إلى عدم جواز ذلك ، وأنه تعالى يجب عليه عقلاً أن يوقع العقاب على العاصي [4]، وادّعوا : (أن العقاب لطف من جهة الله تعالى ، واللطف يجب أن يكون مفعولاً بالمكلف على أبلغ الوجوه ولن يكون كذلك إلا والعقاب واجب على الله تعالى ، فمعلوم أن المكلف متى علم أنه يفعل به ما يستحقه من العقوبة على كل وجه كان أقرب إلى أداء الواجبات واجتناب الكبائر)[5].

وقد ردّ القاضي عبدالجبار المعتزلي على هذا الفريق من المعتزلة بما ملخصه : أن اللطف

---

(١)- شفاء العليل ، لابن قيم الجوزية . ص: ١٠٤ . وانظر : الاقتصاد في الاعتقاد ، للغزالي . ص:١٧٧ .

(٢)- الحديث سبق ذكره وتخريجه . انظر : ص ٤٧ . هامش (١) .

(٣)- انظر شرح الأصول الخمسة . ص: ٦٤٤-٦٤٦ .

(٤)- انظر المرجع السابق . ص: ٦٤٤-٦٤٥ .

(٥)- المرجع السابق . ص: ٦٤٦-٦٤٧ .

بالمكلف يتحقق بعلمه أنه مستحق للعقاب [(١)]. أي إن زجر المكلف عن فعل القبيح يتحقق بمجرد علمه أنه لو فعله لكان مستحقاً للعقاب ، ولايلزم من ذلك إيقاع العقاب بالفعل .

والقاضي عبدالجبار يفرق بهذا الكلام بين استحقاق العقاب على فعل القبيح وبين إيقاع العقاب فعلاً . فالواجب عقلاً على الله سبحانه وتعالى هو الأول دون الثاني ، وذلك عنده وعند أصحابه من المعتزلة البصريين . ودليل وجوب الأول : أنه جل شأنه قد أوجب علينا أموراً وحرّم أموراً أخرى ، ووضع فينا جل جلاله الشهوات والغرائز التي تميل بالمكلف إلى فعل القبيح ، فلابد أن يبين عزوجل لعباده استحقاقهم للعقوبة الشديدة إن هم أقدموا على فعل القبيح ، ليكون ذلك البيان زاجراً لهم عن إتيان المحرمات [(٢)].

ولكن على الرغم من أن القاضي عبدالجبار قد نصر القول بجواز عفو الله تعالى عن العاصي عقلاً ، إلاّ أنه ادعى أن عقاب جميع العصاة مما يجب وقوعه سمعاً ولا يمكن أن يتخلف [(٣)].

٤- استدلالات المعتزلة ومن وافقهم على وجوب إيقاع العقاب :

الاستدلال الأول : وقد ذكره القاضي عبدالجبار وزعم أنه دليل مركب من العقل والسمع ، وقال فيه : (إن الفاسق لايخلو إما أن يدخل الجنة أو النار إذ لا دار بينهما ، فإن دخل النار فهو الذي نقوله ، وإن دخل الجنة فلا يخلو إمّا أن يكون مثاباً أو متفضلاً عليه ، لايجوز أن يكون مثاباً لأن إثابة من لايستحق الثواب يقبح ، ولايجوز أن يدخل الجنة متفضلاً عليه لأن الأمّة قد اتفقت على أن المكلف إذا دخل الجنة يجب أن يكون حاله متميزاً عن حال الولدان المخلّدين ، فيجب أن يكون معاقباً .)[(٤)].

---

(١)- انظر المرجع السابق . ص: ٦٤٧ .

(٢)- انظر المرجع السابق . ص:٦١٩-٦٢٠ . ولهم على ذلك استدلالات أخرى ضعيفة . انظر المرجع نفسه . ص: ٦١٩-٦٢١ .

(٣)- انظر المرجع السابق . ص: ٦٤٧-٦٥٠ .

(٤)- المرجع السابق . ص: ٦٥٠ ، وانظر ص: ٦٦٦-٦٦٧ .

وهذا القول من القاضي عبدالجبار يعتمد على تعريفه للثواب بأنه : (كل نفع مستحق على طريق التعظيم والإجلال .)[1] .

فمادام أن الثواب يقترن به التعظيم والإجلال لم يصح أن يثاب الفاسق ؛ إذ لايصح أن يعظّم ويجلّ من لايستحق الإجلال والتعظيم . قال : (ولهذا فإنه لايحسن من الواحد منّا أن يعظّم أجنبيّاً على الحد الذي يعظم والده ، وأن يعظم والده على الحد الذي يعظم به النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن يعظم النبي على الحد الذي يعظم رب العزة .)[2] .

الاستدلال الثاني : وقد ذكره القاضي عبدالجبار أيضاً وهو : الاستدلال بعمومات الوعيد الواردة في حق العصاة والمجرمين والفاسقين سواء كانوا منتسبين إلى الإسلام أم غير منتسبين .

فمن تلك الأدلة : قوله تعالى :

﴿ **ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين**(١٤) ﴾ النساء . وهذه الآية وردت بعد الآيات التي بينت أحكام المواريث فيكون حكمها شاملاً لفساق الملة ولابد . وقد رتب فيها الحكم بدخول دار العذاب بل والخلود فيها على عصيان أوامر الله تعالى في مسائل المواريث .

ومن الأدلة أيضاً قوله تعالى :

﴿ **ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له عذاباً عظيماً** (٩٣) ﴾ النساء .

فهذه الآية تثبت لزوم مجازاة من قتل مؤمناً متعمداً بالتعذيب في النار واللعنة والغضب، بل وفيها إثبات خلود قاتل المؤمن عمداً في النار ، ولاشك أن حكم الآية شامل لمن يفعل ذلك الفعل القبيح من المؤمنين بل هي موجهة إليهم أصلاً إذ الكافر مخلد في النار على كفره، إلى غير ذلك من الأدلة المشابهة لما سبق [3] .

---

(١)- المرجع السابق . ص: ٥٠٠ ، وانظر ص: ٦٦٧ ، ٧٠٠ .

(٢)- المرجع السابق . ص: ٦٦٧ .

(٣)- انظر المرجع السابق . ص: ٦٥١-٦٧٢ .

الاستدلال الثالث : وقد ذكره من حكم من الخوارج[1] على مرتكب المعاصي بأنه كافر وهو : الاستدلال بالنصوص التي ورد فيها تسمية مرتكبي بعض الذنوب كفاراً . وذلك كقوله صلى ا لله عليه وسلم :

((سباب المسلم فسوق وقتاله كفر))[2] . وكقوله أيضاً : ((لاترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض))[3] . وكقوله أيضاً : ((أيما امرئ قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال وإلاّ رجعت عليه)) [4] . وكقوله : ((اثنتان في الناس

---

(١)- الخوارج يراد بهم : الذين خرجوا على علي بن أبي طالب رضي ا لله عنه ، وأكفروه بسبب قبوله التحكيم ، ثم هو يطلق على كل من وافق هؤلاء على أصولهم الرئيسية . قال الأشعري في بيان ما اتفق عليه الخوارج : (أجمعت الخوارج على إكفار علي بن أبي طالب .. وأجمعوا على أن كل كبيرة كفر إلاّ النجدات ، وأجمعوا على أن ا لله سبحانه يعذب أصحاب الكبائر عذاباً دائماً إلاّ النجدات..). مقالات الإسلاميين ص: ٨٦ . ويرى الشهرستاني أن لقب الخوارج يستحقه كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه . الملل والنحل . ص: ١١٨ . وانظر في بيان فرق الخوارج وبعض أقوالهم بالإضافة إلى المرجعين السابقين ابتداء من الصفحتين المشار إليهما وما بعدهما : الفرق بين الفرق . ص: ٧٢ وما بعدها . الفصل في الملل . جـ: ٤ ، ص: ١٨٨ وما بعدها . تاريخ المذاهب الإسلامية ؛ محمد أبو زهرة . جـ:١ ، ص: ٦٥ وما بعدها .

(٢)- متفق عليه عن عبدا لله بن مسعود رضي ا لله عنه . ولفظا الإمامين متحدان . فتح الباري : كتاب الإيمان (٢) ، باب : خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر (٣٦) ، ح: ٤٨ ، جـ:١ ، ص:١١٠ . وشرح النووي على مسلم : كتاب الإيمان ، باب : بيان قول النبي صلى ا لله عليه وسلم: ((سباب المسلم فسوق وقتاله كفر)) ، جـ:٢ ، ص: ٥٣-٥٤ . (ح: ١١٦ حسب المعجم) .

(٣)- متفق عليه عن جرير بن عبدا لله البجلي رضي ا لله عنه . ولفظا الإمامين متحدان . فتح الباري : كتاب العلم (٣) ، باب : بيان الإنصات للعلماء (٤٣) ، ح: ١٢١ ، جـ:١ ، ص: ٢١٧ . و: شرح النووي على مسلم . كتاب الإيمان ، باب : بيان معنى قول النبي صلى ا لله عليه وسلم : ((لاترجعوا بعدي كفّاراً ...)) ، جـ:٢ ، ص: ٥٥ ، (ح: ١١٨ حسب المعجم) .

(٤)- متفق عليه عن عبدا لله بن عمر رضي ا لله عنهما . واللفظ لمسلم . شرح النووي على مسلم : كتاب الإيمان ، باب : بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم : يا كافر ، جـ:٢،ص:٤٩ ،(ح:١١١ حسب المعجم) . وانظر : فتح الباري بشرح صحيح البخاري : كتاب الأدب (٧٨) ، باب : من أكفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال (٧٣) ، ح: ٦١٠٤ ، جـ: ١٠ ، ص : ٥١٤ .

هما بهم كفر : الطعن في النسب والنياحة على الميّت))[1].

ومن ذلك الاستدلال بالنصوص التي فيها نفي الإيمان عن مرتكبي بعض الذنوب كقوله صلى ا لله عليه وسلم : ((لايزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولايسرق حين يسرق وهو مؤمن ولاينتهب نهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن .)) وفي رواية : ((ولا يقتل وهو مؤمن)) وفي رواية : ((ولايغل أحدكم حين يغل وهو مؤمن فإياكم إياكم)) وفي رواية أنه قال بعد تعداد المعاصي : ((والتوبة معروضة بعد))[2].

ومن ذلك أيضاً الاستدلال بالنصوص التي فيها إثبات النفاق لمن ارتكب بعض الذنوب ، وذلك كقوله صلى ا لله عليه وسلم : ((أربع من كنّ فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا ائتمن خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر))[3].

---

(١)- رواه مسلم عن أبي هريرة رضي ا لله عنه . شرح النووي على مسلم : كتاب الإيمان ، باب : إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب والنياحة ، جـ:٢ ، ص: ٥٧ ، (ح: ١٢١ حسب المعجم) .

(٢)- متفق عليه عن أبي هريرة رضي ا لله عنه ، والرواية الأولى لفظ للبخاري في : فتح الباري : كتاب المظالم (٤٦) ، باب : النُّهبى بغير إذن صاحبه (٣٠) ، ح: ٢٤٧٥ ، جـ:٥ ، ص: ١١٩-١٢٠ . والرواية الأخيرة لفظ له في :كتاب الحدود (٨٦) ، باب : إثم الزناة (٢٠) ، ح: ٦٨١٠ ، جـ:١٢، ص: ١١٤ . وانظر شرح النووي على مسلم : كتاب الإيمان ، باب : بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ، جـ:١ ، ص: ٤١-٤٥ . وقد ذكر رحمه ا لله عدة روايات للحديث في هذا الموضع وفي إحداها : ((ولا يغل أحدكم ...)) .وأما رواية : ((ولايقتل...)) فقد رواها البخاري عن ابن عباس رضي ا لله عنهما في : كتاب الحدود (٨٦) ، باب : إثم الزناة (٢٠) ، ح: ٦٨٠٩ ، جـ١٢، ص: ١١٤ .

(٣)- متفق عليه عن عبدا لله بن عمرو رضي ا لله عنهما واللفظ للبخاري . فتح الباري : كتاب الإيمان (٢) ، باب : علامة المنافق (٢٤) ، ح:٣٤ ، جـ:١ ، ص: ٨٩ . وانظر عنده : كتاب المظالم (٤٦) ، باب : إذا خاصم فجر (١٧) ، ح: ٢٤٥٩ ، جـ:٥ ، ص: ١٠٧ . وفي هذه الرواية : بدل قوله ((إذا ائتمن خان)) قوله ((إذا وعد أخلف)) . وانظر : شرح النووي على مسلم : كتاب الإيمان ، باب : بيان خصال المنافق،جـ:٢ ، ص: ٤٦-٤٨ رواية عن ابن عمرو كرواية=

فهذه الروايات يستدل بها على كفر مرتكب الذنوب ولاسيما الكبائر [١]، وأن الإيمان منتف عنه ، وأنه منافق . فإذا ثبت هذا ؛ وجب القول بلزوم تعذيبه في النار ؛ إذ الكافر والمنافق يعذبان فيها ولابد اتفاقاً .

٥- استدلالات المعتزلة ومن وافقهم على وجوب تخليد العصاة في النار :

ثم إن المعتزلة ومختلف فرق الخوارج[٢] ذهبوا إلى القول بأن ا لله عزّوجل يخلّد من يدخل النار من عصاة الموحدين غير التائبين فيها كما يخلّد الكفار . ومن أهم استدلالاتهم على ذلك :

الاستدلال الأول : وهو قريب من الاستدلال الأول السابق الذي ذكره عبدالجبار للدلالة على وجوب تعذيب الفاسق[٣] مع تعديل يسير . قال هنا : (إن العاصي لايخلو حاله من أحد أمرين : إمّا أن يُعفى عنه أو لايعُفى عنه ، فإن لم يعف عنه فقد بقي في النار خالداً وهو الذي نقوله . وإن عفي عنه فلا يخلو إمّا أن يدخل الجنة أَوْ لاَ ، فإن لم يدخل الجنة لم يصح لأنه لادار بين الجنة والنار ، فإذا لم يكن في النار وجب أن يكون في الجنة لامحالة . وإذا دخل الجنة فلا يخلو إمّا أن يدخلها مثاباً أو متفضلاً عليه ، لايجوز أن يدخل الجنة متفضلاً عليه لأن الأمة اتفقت على أن المكلّف إذا دخل الجنة فلابد من أن يكون حاله متميّزاً عن حال الولدان المخلّدين وعن حال الأطفال والمجانين ، ولايجوز أن يدخل الجنة مثاباً لأنه غير مستحق ، وإثابة من لايستحق الثواب قبيح وا لله تعالى لايفعل

= البخاري في المظالم ، ثم ذكر عدة روايات عن أبي هريرة رضي ا لله عنه بلفظ : ((آية المنافق ثلاث : إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان)) وفي إحدى الروايات عن أبي هريرة عند مسلم : ((وإن صام وصلّى وزعم أنه مسلم)) .

(١)- انظر:الفصل في الملل ،لابن حزم .جـ:٣ ، ص:٢٣٠ .و: شرح العقيدة الطحاوية : ص:٣٥٩-٣٦٠. و: تاريخ المذاهب الاسلامية ؛ محمد أبو زهرة : جـ:١ ، ص: ٧٢-٧٣ .

(٢)- قال الأشعري:إلا النجدات . مقالات الإسلاميين : ص: ٨٦ .

(٣)- انظر ص: ١٧٤-١٧٥ .

القبيح)[1].

الاستدلال الثاني : وهو استدلال بعمومات الوعيد التي سبق ذكرها[2] فإنها (كما تدّل على أن الفاسق يُفعل به ما يستحقه من العقوبة تدل على أنه يُخلد ؛ إذما من آية من هذه الآيات التي مرت إلاّ وفيها ذكر الخلود والتأبيد أوما يجري مجراهما)[3].

ومن النصوص الدالة على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : ((من تردّى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردّى فيه خالداً مخلداً فيها أبداً . ومن تحسَّى سمّاً فقتل نفسه فسمّه في يده يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً . ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يَجَأُبها في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً .))[4].

الاستدلال الثالث : وهو الاستدلال الثالث نفسه على وجوب تعذيب الفاسق [5].

ووجه الدلالة منه : أن الكافر قد ثبت أنه مخلد في النار [6]، فإذا ثبت أن الفاسق كافر ثبت أنه مخلد في النار .

الاستدلال الرابع : أن الإيمان قول وعمل ؛ ومن ثم فمرتكب الكبائر غير التائب منها لم يستكمل شعب الإيمان ، أي إنه غير مؤمن فلا يستحق دخول الجنة حينئذ . والقول بدخول أهل الكبائر الجنة يلزم منه أن الإيمان قول بلا عمل وهو باطل [7].

---

(١)- شرح الأصول الخمسة . ص: ٦٦٦-٦٦٧ .

(٢)- انظر ص: ١٧٥ .

(٣)- المرجع السابق . ص: ٦٦٦ .

(٤)- متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه . واللفظ للبخاري . فتح الباري : كتاب الطب (٧٦) ، باب : شرب السم والدواء به وما يخاف منه والخبيث (٥٦) ، ح: ٥٧٧٨ ، جـ:١٠ ، ص: ٢٤٧. وانظر : شرح النووي على مسلم : كتاب الإيمان ، باب : بيان غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه ، جـ: ٢ ، ص: ١١٨ (ح: ١٧٥ حسب المعجم) . وانظر في الاستدلال بهذا الحديث : شرح الأصول الخمسة . ص: ٦٧٣ . والعقود الفضية في أصول الإباضية ؛ سالم بن حمد بن سليمان الحارثي . ص: ٢٨٦ .

(٥)- انظر ص: ١٧٦-١٧٨ .

(٦)- سيأتي بيان الأدلة على ذلك في فصل الجزاء الأخروي بين الخلود وعدمه . انظر ص:٧٨٨ وما بعدها.

(٧)- انظر : العقود الفضية في أصول الإباضية ؛ سالم بن حمد بن سليمان الحارثي . ص: ٢٨٧ . و: أصدق المناهج في تمييز الإباضية من الخوارج ؛ سالم بن حمود بن شامس السيابي السمائلي . ص:٣٦.

الاستدلال الخامس : أن طاعة الفاسق من الإيمان با لله ونحوه لو فُرض أنهـا أثـرت في انقطاع عذابه لكان ينبغي أن تكون الأعمال الحسنة التي تصدر من الكافر تؤثر كذلـك في انقطاع عذابه ، إذ هذه الأعمال الحسـنة هـي كذلـك طاعـات ، فهـي تجتمـع مـع أعمـال المؤمن الحسنة من إيمان ونحوه في مسمى الطاعة ؛ والطاعة ليست أكثر من كونها فعـل مـا أراده ا لله تعالى ، فلو أثرت طاعة المؤمن في انقطاع عذابه لأثرت طاعة الكافر كذلك[1] .

الاستدلال السادس : وهو قياس ذكره القـاضي عبدالجبـار للدلالـة علـى سـقوط مـا يستحقه المكلف من الثواب الأخروي على أعماله الصالحة بسبب ارتكابـه الكبـيرة ، فقـد قاس شأن الجزاء الأخروي على الجزاء الدنيوي وقال :

(إن السارق إذا سرق عشرة دراهم من حـرز علـى الشـروط المعتـبرة في هـذا البـاب وظفر به الإمام وهو مصرّ على ذلك قطع يـده بالآيـة علـى سـبيل الجـزاء والنكـال ، ولـن يكـون ذلـك كذلـك إلا ومـا كـان يسـتحقه مـن الثـواب بطاعاتـه قـد سـقط بارتكابـه الكبيرة)[2] .

* الرد على المعتزلة ومن وافقهم :

قد يكون الرد الكامل على ما سبق نقله عن المعتزلة ومن وافقهم على قولـهم أو علـى بعضه لايتم إلا بعد البيان الكامل لما ذهب إليه أهل السنة ، ولكن لابد هنـا مـن إيـراد مـا تيسر من الردود التي تكشف عدم صحة ما ذهب هؤلاء إليه .

٦- إبطال القول بوجوب إيقاع الثواب عقلاً :

إن زعم القاضي عبدالجبار أن تكاليف الـرب جـل شـأنه تكـاليف شـاقه ، وأن نعمـه لاتفي بتلك التكاليف بل يجب عليـه سبحانه أن يثيـب عبـاده ثوابـاً عظيمـاً جـداً لايجـوز الابتداء بمثله ، ولولا ذلك الثواب كان سبحانه بتكليفه العباد ظالمـاً عابثاً [3]- تعـالى ا لله عن ذلك علوّاً كبيراً - ، هو زعم باطل من أوجه عدة :

---

(١)- هذه الشبهة ذكرها القاضي عبدالجبار . انظر : شرح الأصول الخمسة . ص: ٦٦٩-٦٧٠ .

(٢)- المرجع السابق . ص: ٦٦٥ .

(٣)- انظر ما سبق ص: ١٧١-١٧٢ .

الوجه الأول : أن أعمال العبد الصالحة تجاه ربه تعالى هي مستحقة عليه بمقتضى العبودية ، لأن العبد بين يدي ربه كالمملوك بين يدي سيده ، بل الفارق أعظم بكثير جداً، فكما أن المملوك عمله وكسبه ملك لسيده لايملك منه شيئاً ؟ فكذلك الأعمال الصالحة للعبد تجاه ربه تعالى [(١)].

الوجه الثاني : أن العبد مهما قدم من عمل صالح فإنه ما يزال مقصراً عمّا يجب عليه لربه عزوجل . فهو أولاً مقصر في أداء ما يجب عليه من أنواع العبادات وتقصيره ذلك إما عن جهل وإما عن تفريط وإضاعة وإما عن غفلة ونحو ذلك ؛ إذ إن من حق الله على عبده أن يطيعه فلا يعصيه مطلقاً ، بل تكون الجوارح كلها وقفاً على طاعته جل شأنه . ومن حقه عليه أن يذكره ولا يفتر عن ذكره ، ويشكره ولا يكفر به بأي نوع من أنواع الكفر . ومن حق الله على العبد أن يكون توجهه القلبي كلّه إليه جل وعلا توكلاً واعتماداً واستغاثة وحباً ونحو ذلك ، حتى يستسلم القلب له تعالى أتم الاستسلام ويذل له أكمل الذل ويخضع له أعظم الخضوع ، وحتى يفنى القلب عن مراده ومحبوبه بمراد الرب مما يحبه تعالى ويرضاه لعباده ، وحتى يرضى أتم الرضا وأكمله بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً ، وحتى يكون حبه كله لله وبغضه كله في الله وقوله وفعله وتركه لله تعالى . وهذه الأمور وإن كانت مقدورة في الجملة إلا أن النفوس تشح بها على درجات متفاوتة من الشح ، إذ أين ذلك (الذي لايقع منه إرادة تزاحم إرادة الله وما يحبه منه فلا يعتريه غفلة واسترسال .مع حكم الطبيعة والميل إلى داعيها...؟، ومن ذا الذي ينظر في كل نعمة من النعم دقيقها وجليلها إلى أنها منة ربه وفضله وإحسانه فيذكره بها ويحبه عليها ويشكره عليها ويستعين بها على طاعته ؟ .)[(٢)]، وأين ذلك الذي لايصدر منه شيء من التظلم أو التسخط على ربه عندما يبتليه بأنواع من المصائب ونحوها

---

(١)- انظر : شفاء العليل ، لابن قيم الجوزية . ص: ١٩٧ . و: مختصر الصواعق المرسلة . جـ:١ ، ص : ٣٣٧ .

(٢)- مختصر الصواعق المرسلة ؛ ابن قيم الجوزية . جـ:١ ، ص: ٣٣٢ باختصار . وانظر لما سبق . المرجع نفسه . جـ:١ ، ص: ٣٣١-٣٣٣ . و: طريق الهجرتين ، له . ص: ٥٠٩-٥١٠ .

من الأقضية التي لاتوافق هواه .؟ [1].

ثم إن العبد مقصر في نفس العبودية التي يتوجه بها إلى ا لله ، ويظهر ذلك من عدم توفية العبادة حقها الواجب لها من (كمال المراقبة والإجلال والتعظيم والنصيحة التامة لله فيها بحيث يبذل مقدوره كلّه في تحسينها وتكميلها ظاهراً وباطناً .)[2].

فالعبد مقصر في الواجب عليه نحو ربه تقصيراً يأتي على القليل الذي يؤدّيه فيما لو حوسب بالعدل المطلق ووزن ماقدمه وماقصر فيه ، فكيف يستحق الثواب على ربه عز وجل ؟!.

ولأجل ذلك فإن أفضل خلق ا لله تعالى وهم أنبياؤه ورسله كانوا يطلبون من ا لله تعالى لأنفسهم أن يغفر لهم ويتوب عليهم ويتجاوز عنهم ويشملهم برحمته ، وسيد البشر نبينا محمد صلى ا لله عليه وسلم قال : ((وا لله إني لأستغفر ا لله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة .))[3]. وكان عليه الصلاة والسلام يقول في السكتة بين تكبيرة الإحرام والفاتحة : ((اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب اللهم نقني من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، اللهم اغسل خطاياي بالماء والثلج والبرد.))[4]. ولايقول قائل : إنه صلى ا لله عليه وسلم كان يقول ذلك معلماً

---

(١)- انظر : شفاء العليل ، ص: ١٩٦-١٩٧ ، ٢٠٣ . و: مختصر الصواعق المرسلة ، جـ:١ ، ص:٣٣٧.

(٢)- طريق الهجرتين . ص : ٥١٠ . وانظر : مختصر الصواعق المرسلة . جـ١ : ص ٣٣٢-٣٣٣ .

(٣)- رواه البخاري عن أبي هريرة رضي ا لله عنه . فتح الباري : كتاب الدعوات (٨٠) ، باب استغفار النبي صلى ا لله عليه وسلم في اليوم والليلة (٣) ، ح: ٦٣٠٧ ، جـ ١١ ، ص ١٠١ . وعند مسلم عن الأغرّ المزني رضي ا لله عنه أنه [كان صلى ا لله عليه وسلم يستغفر ا لله ويتوب إليه في اليوم مائة مرة] . شرح النووي على مسلم : كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب : استحباب الاستغفار والاستكثار منه ، وباب : التوبة ، جـ١٧،ص ٢٣-٢٤ . وقد ذكر روايتين .

(٤)- متفق عليه عن أبي هريرة رضي ا لله عنه أنه : [سأل رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم عما يقوله في السكتة بين التكبير وبين القراءة ...]. واللفظ للبخاري . انظر : فتح الباري : كتاب الأذان (١٠)،باب:=

لأصحابه وإن كان هو لايحتاج إلى مثل ذلك الدعاء ؛ فإنه صلى ا لله عليه وسلم كان يقول ذلك الدعاء سرّاً في نفسه ، ولم يكن يعلمه من خلفه من المصلين حتى سئل عما يقول في تلك السكتة . فإن كان صلى ا لله عليه وسلم - وهو من غفر ا لله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر - يكثر في جميع أحواله طلب المغفرة من ربه ، فما بالنا بمن هو دونه صلى ا لله عليه وسلم ؟!.

وأيضاً فإنه لأجل ماقد يقع من العبد من تقصير في عبادته شرع ختم كثير من العبادات بالاستغفار ، ففي الحديث أنه : [كان رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً وقال : ((اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ذا الجلال والإكرام .)).] [1].

وأمر ا لله تعالى عباده بالاستغفار عقب الإفاضة في الحج : ﴿**ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا ا لله إن ا لله غفور رحيم** (١٩٩) ﴾ البقرة .

وهذا كله مما يدل على أن العبد مهما قدّم فهو مقصّر في حق ربه ، وأنه محتاج إلى أن يشمله تعالى بمغفرته ورحمته وفضله ومنّه وكرمه . فلا يقال بعد ذلك إن العبد يستحق على ربه من قبل نفسه وبمجرد عمله شيئاً [2].

الوجه الثالث : أن العبيد بمجملهم لايكاد يخلو أحدهم من ذنوب ومعاصي لو لم يغفرها ا لله له ويَتُبْ عليه منها لاستنفد ديوانها ديوان طاعاته كلها ، ولربما زادت على طاعاته فيما لو نوقش الإنسان حساب أعماله كلها صغيرها وكبيرها [3].

=مايقول بعد التكبير (٨٩) ، ح: ٧٤٣ ، جـ٢،ص : ٢٢٧ . وانظر : شرح النووي على مسلم : كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب : ما يقال بين تكبيرة الإحرام والقراءة ، جـ ٥ ، ص : ٩٦ ، (ح:١٤٧ حسب المعجم).

(١)- رواه مسلم عن ثوبان رضي ا لله عنه . شرح النووي على مسلم : كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب : استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته ، جـ٥ ، ص ٨٩ ، (ح:١٣٥ حسب المعجم) . وانظر : طريق الهجرتين . ص ٥١١ .

(٢)- انظر : شفاء العليل . ص : ٢٠٠-٢٠٥ .وطريق الهجرتين . ص : ٥١١ . ومختصر الصواعق المرسلة جـ١ ، ص : ٣٣٥-٣٣٦ . ومفتاح دار السعادة جـ٢ ، ص ١٠٩ .

(٣)- انظر : شفاء العليل . ص ١٩٦-١٩٧ .

الوجه الرابع : أن نعم ا لله تعالى على عبيده من نعمة الإيجاد ونعمة الجسد وجوارحه والصحة وجميع صنوف نعم الحياة هي نعم كثيرة لايحصيها إلاهو جل شأنه ، وشكرها الواجب يستغرق أضعاف أضعاف ما يقدّمه العبد من أعمال صالحة ، بل إن جميع أعمال المكلف الحسنة لاتوازي شكر أيسر نعم ا لله عليه ، وتبقى سائر النعم بلا مقابل ، فلا يكون مستحقاً على ا لله ثواباً بمجرد عمله [(١)].

فادعاء القاضي عبدالجبار أن تكاليف الشرع أعظم من نعمه جل شأنه هو ادعاء وزعم فيه سوء تقدير لمدى عظيم نعم ا لله عز وجل ؛ لم يوافقه عليه فريق من المعتزلة أنفسهم [(٢)].

فإن قيل إن العبد قد قدّم مايقدر عليه من الشكر ، أجيب : بما سبق بيانه من أن التقصير لازم للعبد فهو لايقدم مقدوره كله[(٣)]، ولو فرض أنه قدم مقدوره كله من الطاعة ظاهراً وباطناً فإن هذا المقدور لايستحق عليه الثواب ؛ لأنه أقل بكثير من نعم ا لله عليه ، وإذا منعه تعالى الثواب لم يكن قد منعه أمراً يستحقه العبد عليه تعالى ، بل إنما منعه أمراً هو من محض فضله ، إن شاء أعطاه إياه وإن شاء منعه إياه بعدله جل جلاله [(٤)].

الوجه الخامس : أن النعم ليست مقتصرة على نعم الجسد والنفس بل إنها تتجاوز ذلك إلى نعم إرسال الرسل وإنزال الكتب والهداية إلى دين ا لله والتوفيق للعبد والإعانة له وتثبيته على صراط ا لله المستقيم وتيسيره لليسرى وتجنيبه سبل العسرى ، فكون العبد مؤمناً مهتدياً ملتزماً بدين ا لله وبشرعه القويم هو من إحسان الرب وإنعامه عليه كما يعترف بذلك أهل الجنة إذ يقولون : ﴿... **الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا ا لله** ...(٤٣)﴾ الأعراف .

---

(١)- انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية:جـ١ ، ص ٢١٧ . وشفاء العليل . ص : ١٩٥-١٩٦ . وطريق الهجرتين ص ٥٠٩ . وعدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ،لابن قيم الجوزية . ص ١١٤ .ومفتاح دار السعادة:جـ١،ص ٩ ، جـ٢ ص ١٠٩ . ومختصر الصواعق المرسلة،جـ١ ، ص ٣٣٦ .

(٢)- انظر : ما سبق أن نقله القاضي عن شيخه أبي القاسم الكعبي ص:١٧١ .

(٣)- انظر : الوجه الثاني من هذه الأوجه ص: ١٨١ وما بعدها .

(٤)- انظر : طريق الهجرتين . ص : ٥١٢ .

فلا يقال بعد هذا إن العبد يستحق على ربه من قبل نفسه أن يثيبه على أمر هو أصلاً من فضل الله تعالى على ذلك العبد [(١)].

الوجه السادس : أن الله تعالى عندما كلف العبيد لم يكلفهم لأنه سبحانه سينتفع بطاعتهم كما ينتفع المستأجر بمن استأجره ، ولم يكلفهم لأنه قد يصيبه ضرر–تعالى عن ذلك– فيما لو عصوه . بل كما في الحديث القدسي : ((...يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضرّي فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، ياعبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحدٍ منكم مازاد ذلك في ملكي شيئاً ، ياعبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجر قلب رجل واحدٍ مانقص ذلك من ملكي شيئاً ...)) [(٢)].

فالرب جل جلاله إذا أمر عبيده أونهاهم فإنه لايكون في أمره ونهيه مستجلباً لنفعٍ أو مستدفعاً لضرّ قد يأتيه من قبلهم ؛ كما يكون ذلك في نحو أمر الوالد لولده أو السلطان لرعيته ، فإن العبيد قد يبلغ بعضهم القدرة على نفع بعض أو مضرته ، أما الرب سبحانه فإن عبيده كلّهم أولهم وآخرهم لو اجتمعوا لن يبلغوا أن ينفعوه أو يضروه سبحانه بشيء مهما كان ، فطاعاتهم لن تزيد في ملكه ومعاصيهم لن تنقص من ملكه شيئاً . بل هو سبحانه الغني عنهم وهم الفقراء إليه وأعمالهم هم وحدهم المستفيدون منها أو المتضررون.

قال تعالى :

﴿ **إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها** ...(٧) ﴾ الإسراء .

---

(١)– انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية:جـ١٠، ص ٢١٦–٢١٧ ، جـ٨ ، ص ٧٢ ، جـ١٨ ، ص٢٠٢ . والحسنة والسيئة له ، ص ٣٣ . وشفاء العليل،ص ١٩٥ . ومختصر الصواعق المرسلة:جـ١، ص ٣٣٢، ٣٣٧. ومفتاح دار السعادة:جـ١ ، ص ٩٣ .

(٢)– رواه مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه . وهذا جزء من هذا الحديث القدسي . وأوله : ((ياعبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ...)) انظر : شرح النووي على مسلم : كتاب البر والصلة والآداب ، باب : تحريم الظلم ، جـ١٦ ، ص ١٣١–١٣٣ .

وفي حقيقة الأمر فإن تكليف الله تعالى لعباده إنما هو إحسان منه ؛ إذ فيه تحقيق لمصلحة العبيد في الدنيا ؛ لأنه تعالى إنما أمرهم بما فيه صلاحهم في الدنيا قبل الآخرة ، ونهاهم عما فيه فسادهم في الدنيا ، وهذا متوافق مع مذهب أهل السنة الذين يثبتون لله تعالى الحكمة والرحمة فيقولون : إنه جل شأنه لم يأمر العباد إلاّ بخير ينفعهم ، ولم ينههم إلاّ عن شر يضرّهم ، ومن ثم فإن التكليف الرباني إنما هو نعمة من نعم الله تعالى التي لاتحصى ، نعمة تستوجب على العبد شكرها ، فكيف يقال بأن المكلف يستوجب على الله إن أطاعه ثواباً في مقابل هذه التكاليف ؟!، والتكليف إنما هو من فضل الله وإحسانه[1] .

هذه بعض الوجوه التي تبين خطأ من يدعي وجوب ثواب من عمل صالحاً على الله تعالى بمجرد العمل . ولكن لايعني هذا نفي سببيّة العمل الصالح للثواب ، فإن كون العمل الصالح سبباً للثواب بمقتضى النصوص الشرعية[2] لايلزم منه أنه سبب موجب للثواب على الله تعالى بمجرده ، بل هو سبب بجعل الله له كذلك ؛ سبب في الثواب الذي يتفضل الله به على عبده المؤمن .

٧- الرد على استدلالات المعتزلة النصيّة على وجوب إيقاع الثواب على الوجه الذي ذهبوا إليه :

* الرد على الاستدلال بقوله تعالى : ﴿ ... **ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون** (٤٣) ﴾ الأعراف .

وأن الباء في قوله : ﴿ **بما** ﴾ تدل -عندهم- على أن الأعمال الصالحة تعتبر عوضاً مكافئاً للجنة ونعيمها[3] .

---

(١)- انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية :جـ١ ، ص ٢١٤-٢١٦ ، جـ ٨ ، ص ٧١-٧٢ ، جـ١٨ ، ص ١٩٢-١٩٤ ، ٢٠٢ . ومنهاج السنة النبوية ، لابن تيمية : جـ١ ، ص ٢١٥ . وانظر في مسألة كون التكليف مصلحة ورحمة للعبيد : مختصر الصواعق المرسلة : جـ١ ، ص ٣٧٧-٣٧٨ ، واستدل ابن القيم على ذلك بأن الله تعالى سمّى أوامره عهوداً ووصايا ورحمة وشفاءً وهدى وحياة. قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم** ...(٢٤) ﴾ الأنفال .

(٢)- كما سيأتي بإذن الله بيانه . انظر ص :٢٥٦-٢٥٧.

(٣)- انظر : ماسبق بيانه ص:١٧٢ .

إن هذا الاستدلال استدلال خاطئ إذ إنّ هذه الآية وأمثالها يجب - حتى تفهم على الوجه الصحيح- أن تجمع إلى قوله صلى الله عليه وسلم : [((سددوا وقاربوا وأبشروا ، فإنه لن يدخل الجنة أحداً عمله)) قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟. قال : ((ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله منه برحمة ، واعلموا أن أحب العمل إلى الله أدومه ، وإن قلّ .))] (1) .

ففي هذا الحديث بيان أنّ العمل الصالح مهما بلغ فإن لايكفي في إدخال صاحبه الجنة، فإنه لا أعظم من عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى الرغم من ذلك فلا يدخل عليه السلام الجنة إلا بفضل الله ورحمته .

ولكن ذلك لايعني أنه ليس للعمل أهمية في شأن الجزاء ، فإن من يدخل الجنة من المكلفين يدخلها بفضل الله عز وجل وبسبب ماقدّمه من عمل صالح .

فالباء في مثل قوله تعالى : ﴿ ... **ونودوا أن تلكم الجنّة أورثتموها بما كنتم تعملون**(٤٣) ﴾ الأعراف . هي : باء السببية .

وأيضاً فقد قال صلى الله عليه وسلم في حديث :((لن يدخل الجنة أحداً عمله)) :

((سددوا وقاربوا ..)).

((سددوا)) أي : اقصدوا بأعمالكم السداد ، أي : الصواب .

((قاربوا)) أي : لاتفرطوا فتجهدوا أنفسكم في العبادة فيؤدي ذلك بكم إلى الملل فتتركوا العبادة فتفرطوا (2) .

---

(١)- متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها . واللفظ لمسلم . شرح النووي على مسلم : كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب : لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى ، جـ ١٧، ص : ١٦١. وانظر فتح الباري : كتاب الرقاق (٨١) ، باب : القصد والمداومة على العمل (١٨) ، ح: ٦٤٦٤ ، ٦٤٦٧،جـ١١ ، ص ٢٩٤-٢٩٥ . وللحديث رواية عن أبي هريرة متفق عليها . انظر شرح النووي على مسلم : نفس الموضع السابق ص : ١٥٩-١٦٠ -عدة روايات . وانظر فتح الباري نفس الموضع السابق ، ح: ٦٤٦٣ . وهذه الرواية عن أبي هريرة عند البخاري في هذا الموضع وإحدى روايات مسلم عنه بلفظ : ((لن ينجي أحداً منكم عمله ...)) الحديث .

(٢)- انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري : جـ ١١ ، ص: ٢٩٧ .

وفي هذا القول دلالة واضحة على كون الأعمال سبباً في الثواب الذي يتفضل ا لله بـه على من يشاء من عباده بحكمته البالغة جل شأنه . فلا يظن إنسان أن العمل لافائدة منه ، إذ لايوجب للإنسان ثواباً ولاينجيه من عقاب[1]، فيترك العمل الصالح فيخسر دنياه وآخرته . بل لابد من العمل لأن ا لله تبارك اسمه بحكمته قد جعله سبباً لما يتفضل به من الثواب ، فلابد أن يقوم الإنسان إذاً بأداء العمل الصالح على الوجه الذي شرعه ا لله تعالى.

فإذا أدّى العبد الأعمال الصالحة ، فلا يغتر بهذه الأعمال ، ولايظن أنه قد أصبح له على ربه حقٌّ من قبل نفسه ، وأن ا لله سبحانه إن أثابه فإن عمله قد كان مستحقاً بذاته لذلك الثواب ، بل على العبد أن يستشعر دوماً عظيم حق ا لله سبحانه عليه ، ومدى تقصيره هو في أداء بعض ذلك الواجب عليه ، فيكون في جميع أحواله متذلّلاً بين يدى ربّه طالباً منه أن يشمله بمغفرته وعفوه وفضله ورحمته جل شأنه [2].

وبناءً على ذلك فقد قال كثير من العلماء : إن ما ورد من النصوص دالاّ على كون دخول الجنة هو بالأعمال فهو إنما يدل على أن الأعمال سبب لدخولها . وأمّا ماورد دالاًّ على نفي أن يكون دخول الجنة بالأعمال ، فهو إنما يدل على أن دخول الجنة ليس في مقابلة العمل وحده فالأعمال لاتكون أبداً أمراً مكافئاً للثواب ، بل لولا فضل ا لله ورحمته مادخل الجنة عبد .

وقيل في الجمع بين هذين النوعين من الأدلة : إن الأدلة النافية لكون دخول الجنة بالأعمال ، إنما المراد بها نفي أصل الدخول إليها ، فالعبد إنما يدخل الجنة بفضل ا لله ورحمته . وأما الأدلة التي فيها : أن دخول الجنة بالأعمال ، فحملت عند أصحاب هذا القول على أن الجنة منازل ، فبعد أن يدخل العبد اليها بفضل ا لله تعالى ، تكون المنزلة التي يصل إليها العبد في الجنة بحسب عمله .

وبين الإمام ابن قيم الجوزية أن الجوابين كلاهما من أجوبة السلف ، وإن كان الأول

---

(١)- كما جاء في احدى الروايات : ((لن ينجي أحداً منكم عمله ...)) . انظر التعليقة قبل السابقة .

(٢)- انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية:جـ٨ ، ص : ٧٠-٧١ . وانظر مفتاح دار السعادة :جـ١ ص٨-٩ جـ٢ ، ص ٩٢-٩٣ .

أحسن من الثاني [1].

* الرد على الاستدلال بقوله تعالى :

﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون** (٨)﴾ فصلت .

وأنه يدل على أن الثواب ليس منّة من ا لله سبحانه ، بل هو محض حقّ العبد على ربّه جل شأنه[2]، فهذا استدلال غير صحيح .بل التفسير الصحيح المأثور عن أهل التأويل من السلف هو : أن المراد بقوله : ﴿**غير ممنون**﴾ أي : غير مقطوع . واعتبره الإمام الطبري رحمه ا لله مأخوذاً من قولهم : حبل منين ، إذا كان ضعيفاً . واستشهد بقول الشاعر :

أَعْطَوْا هُنَيْدَةَ يَحْدُوهَا ثمانيةٌ ... مافي عطائِهِمُ مَنٌّ ولاسرفُ

قال الطبري : (يعني : أنه ليس فيه نقص ولاخطأ) [3].

وقال الإمام ابن قيم الجوزية :

(وأما قوله تعالى : ﴿ **لهم أجر غير ممنون** ﴾ فلم يختلف أهل العلم با لله ورسوله وكتابه أن معناه : غير مقطوع . ومنه ريب المنون وهو : الموت ، لأنه يقطع العمر) [4].

وأما ادعاء أن الثواب إذا كان منّةً من ا لله سبحانه فإنها ستكدّره ، إذ المنّة تكدر النعمة ، فإن هذا قياس لمنّة الرب الخالق بمنّة العبد المخلوق ، وهو قياس فاسد .

فمنة المخلوق على المخلوق قبيحة لأن الإنسان لايملك شيئاً على الحقيقة ، ولكن ا لله تعالى -على سبيل المثال - أغنى بعض عبيده وأفقر بعضهم الآخر ابتلاءً منه لهم واختباراً ، وكان من الممكن أن يكون الأمر بالعكس ، فلا يصح لمن ابتلي بالغنى أن يمن على من ابتلي بالفقر إذا أعطاه شيئاً مما وهبه ا لله إياه .

---

(١)- انظر : مفتاح دار السعادة : جـ١ ، ص ٨-٩ . ومجموع فتاوى ابن تيمية:جـ٨، ص٧٠-٧١ . وشرح النووي على مسلم : جـ١٧ ، ص ١٦١ .

(٢)- انظر ص :١٧٢-١٧٣.

(٣)- تفسير الطبري؛جـ٣٠، ص:٢٤٨ .واعتبر رحمه ا لله أن هذا التفسير هو الأصوب في هذه الآية.

(٤)- شفاء العليل ؛ ص : ١٠٥ . وقد بين الإمامان الطبري في الموضع السابق من تفسيره ، وابن قيم الجوزية في : التبيان في أقسام القرآن ؛ ص ٣١ : أن القول الآخر لقوله : ﴿**غير ممنون**﴾ قد روي أيضاً عن بعض السلف ؛ إلا أنهما استصوبا القول الأول الذي عليه الجمهور .

أما ا لله تعالى فهو المالك لكل شيءٍ على الحقيقة والمخلوق هو الفقير المحتاج إلى ربه من كل وجه ، والعبد ليس له حق على ربه ، وفي هذه الحياة الدنيا فإن كل عطاءٍ من ا لله جل شأنه لعبيده هو بمحض منّة تعالى ، وبعطاءاته جلّ شأنه تمكن المؤمن من طاعة ربه . فإذا كان التمكين من الطاعة إنما هو بمنّة ا لله جلّ شأنه ، فكيف لايكون الجزاء بعد ذلك بمنّته عز وجل ؟! قال تعالى : ﴿**يمنون عليك أن أسلموا قل لاتمنوا عليّ إسلامكم بل ا لله يَمُنُّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين** (١٧) ﴾ الحجرات .

فا لله جل جلاله أثبت أن هدايته لعبيده إلى الإيمان قد كان بمنّته عليهم ، وبذلك يعترف المؤمنون يوم الدين بعد أن يدخلهم ا لله عز وجل جنته ، قال تعالى حاكياً ما يجري بينهم في دار كرامته : ﴿ **وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون** (٢٥) **قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين** (٢٦) **فمنّ ا لله علينا ووقانا عذاب السموم** (٢٧) ﴾ الطور .

ثم إن منّة ا لله تعالى لايمكن أن تكدّر عطاءاته ، فهي لم تكدّرها في الحياة الدنيا ، فكيف تكدّرها في دار النعيم المقيم . بل إن منّة ا لله عزّوجلّ على الضدّ من منّة المخلوق لايطيب عيش في الدنيا ولا في الآخرة إلاّبها وإلاّ بالاعتراف بها ؛ إذ أيّ نسبة بين ما قدمه العبد من عمل وبين الثواب العظيم الخالد الذي يناله العبد المؤمن يوم الدين ، ولو كان الجزاء إنّما هو مقابل ما قدمه العبد من عمل فإن ذلك يستدعي أنْ يكون الجزاء على قدر عمله ، وعمله منتهٍ فكذا الجزاء ، أما إذا كان الجزاء إنما هو منّة من ا لله تعالى تفضل به عليه بسبب ما قدمه من عمل صالح ؛ فإنه لايبعد أن يمتن ا لله عليه بتأبيد الثواب كما امتن عليه بأصله ، وهو القدير على كل شيء ، الكريم الذي لاينفد ما عنده بل هو باق أبداً . وهذا هو ما أيّدته النصوص الشرعية التي بينت أنه تبارك اسمه قد تفضل على عباده المؤمنين بتخليدهم في جنته [(١)].

* الرد على الاستدلال بحديث معاذ رضي ا لله عنه والذي فيه أن للعباد حقّاً على ا لله

---

(١)- سيأتي في آخر فصول الرسالة دراسة مسألة خلود الجزاء الأخروي . انظر ص: ٧٨٦ وما بعدها . وانظر فيما سبق : شفاء العليل . ص: ١٠٤-١٠٥ . و: التبيان في أقسام القرآن ، لابن قيم الجوزية . ص: ٣١-٣٢ . و: مفتاح دار السعادة . جـ:٢ ، ص: ٩٣ .

تعالى إن هم عبدوه وحده ، ألا يعذّبهم ، وهذا يقتضي إدخالـهم الجنة إذ لادار إلا الجنة أو النار [١] . فإن ما جاء فيه لا يعارض كون الجزاء منّة من ا لله تعالى على عبيده ، إذ ليس هو الذي أحقّ ثوابه على ربه ، بل هو جل جلالـه من أحق على نفسه ذلك الثواب ، وذلك كما أحق وكتب على نفسه أن رحمته تسبق غضبه [٢] ، دون أن يكون للعبيد حقٌّ عليه أن يعاملهم برحمة سابقة للغضب ، فكذلك إحقاقه تعالى على نفسه إثابة من آمن وأحسن عملاً هو من عظيم منّته على المؤمنين ، إذ جعل ثوابهم حقاً لازماً عليه لايمكن أن يتخلف ، والثواب في الأصل منة وتفضل من الرب جل شأنه ، قال الإمام ابن قيم الجوزية:

(فإن قيل : كيف تقولون هذا وقد أخبر رسوله عنه بأن حق العباد عليه إذا وحدوه أن لايعذبهم ...؟! .قيل : لعمر ا لله ، هذا من أعظم منّته على عباده ، أن جعل على نفسه حقّاً بحكم وعده الصادق : أن يثيبهم ولا يعذبهم إذا عبدوه ووحدوه ، فهذا من تمام منّته ...)[٣] .

٨- إبطال القول بوجوب إيقاع العقاب على كلِّ عاصٍ عقلاً :

إن القول بأنه عزّوجل لابد أن يبين للعباد استحقاقهم للعقاب إن هم فعلوا الأمور المنكرة على الوجه الـذي سبق نقله عن القاضي عبدالجبار [٤]؛ هو قول قد لايجانبه الصواب إلاّ إن قيل : إنّ العقل يوجب ذلك على ا لله سبحانه ، وإنما يقال : إن العقل الذي علم كمال صفات الباري جل وعلا ، وكمال حكمته وعلمه وقدرته ، يقدر أن ذلك كله يقتضي أن يخبر جل شأنه ذلك الكائن المبتلى المكلف بجزاء مترتب على عمله ، جزاء يرهبه من إتيان القبيح ويرغّبه في إتيان الفعل الحسن .

---

(١)- انظر : ص: ١٧٣ .

(٢)- سيأتي ذكر الدليل على ذلك انظر ص: ٤٤٩-٤٥٠ .

(٣)- التبيان في أقسام القرآن ؛ ص: ٣٢-٣٣ . وانظر مجموع فتاوى ابن تيمية ؛ جـ:١ ، ص: ٢١٧-٢١٨ ، جـ:١٨ ، ص: ٢٠٢-٢٠٣ .

(٤)- انظر : ١٧٣-١٧٤ .

وأما الزعم بأنه سبحانه يجب عليه عقلاً أن يوقع على العاصي العقاب الذي يستحقه؛ فهو زعم باطل كفانا القاضي عبدالجبار المعتزلي مؤونة الرد على أهله [1].

٩- الرد على الاستدلالات النصّية لمن ذهب إلى وجوب عقاب كل عاص :

إن الاستدلالات التي تذكرها المعتزلة أو الخوارج على وجوب عقاب جميع العصاة والمعتمدة على النصوص الشرعية ؛ هي استدلالات غير صحيحه وبيان ذلك فيما يلي :

الرد على الاستدلال الأول : وهو الذي زعم القاضي عبدالجبار أنه دليل مركب من السمع والعقل [2]، وهذا استدلال باطل :

- فهو يعتمد على أن الإثابة مستحقة على الله سبحانه لمن صلح عمله ، بمجرد ذلك العمل . وقد تبين فيما سبق أن هذا الأمر غير صحيح ، وأن الثواب بكل حال هو تفضل من الله تعالى [3].

- وهو يعتمد أيضاً على إحباط إيمان المكلف كله اعتقاداً وعملاً بسبب زيادة الأعمال السيئة على الأعمال الحسنة [4]. ولكن الحق أنه لاتوجد سيئة تحبط إيمان المرء

(١)- انظر هذا الزعم ورده للقاضي عبدالجبار،ص: ١٧٣-١٧٤ .

(٢)- انظر في بيان هذا الاستدلال . ص: ١٧٤ .

(٣)- انظر ما سبق بيانه ص: ١٨٠ وما بعدها .

(٤)- يلاحظ هنا أن متأخري المعتزلة كأبي هاشم الجبائي والقاضي عبدالجبار قد رجحا القول بموازنة الأعمال فمتى زاد أحد المقدارين على الآخر كان الحكم له . انظر شرح الأصول الخمسة ، ص: ٦٢٨-٦٢٩ . ولكن كلامهم في الصغيرة والكبيرة يدل على أن الصغيرة هي ما كان ثواب فاعله أكثر من عقابه ، وأما الكبيرة فهي ما كان عقاب فاعله أكثر من ثوابه ، أي أنه رب كبيرة واحدة أسقطت ثواب جميع طاعات العبد . انظر شرح الأصول الخمسة ، ص: ٦٣٢، ٦٤٩ . وقال القاضي عبدالجبار متسائلاً : هل يبلغ ثواب طاعات أحدنا حدّاً يصير عقاب الكبيرة مكفراً في جنبها والأعمار هذه ؟ . والأصل فيه أنه لايبلغ ، لأن أحدنا وإن بلغ في الطاعة كل مبلغ وسرق بعده عشرة دراهم من حرز على الشرائط المعتبرة فإن الإمام يقطع يده على سبيل الجزاء والنكال ، فلولا أن ما كان قد استحقه من الثواب لم يبلغ حدّاً يصير عقاب السرقة مكفراً في جنبه وإلاّ كان لايجوز=

كله إلاّ الكفر ، قال تعالى :

﴿ ... **ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** (٢١٧) ﴾ البقرة .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : (إن الله لم يجعل شيئاً يحبط جميع الحسنات إلا الكفر ، كما أنه لم يجعل شيئا يحبط جميع السيئات إلا التوبة . والمعتزلة مع الخوارج يجعلون الكبائر محبطة لجميع الحسنات حتى الإيمان .قال تعالى :﴿**ومن يرتدد منكم عن دينه**...﴾-الآية- فعلق الحبوط بالموت على الكفر . وقد ثبت أن هذا ليس بكافر والمعلق بشرط يعدم عند عدمه . وقال تعالى : ﴿ ... **ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله** ...﴾[1]. وقال تعالى لمّا ذكر الأنبياء : ﴿ **ومن آبائهم وذرّياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم*ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون** ﴾[2]... ولما ذكر سائر الذنوب غير الكفر لم يعلق بها حبوط جميع الأعمال...)[3].

وبين رحمه الله أنه قد ينهى عن بعض الذنوب خشية أن تؤدي بصاحبها إلى الكفر المقتضي لإحباط العمل ، والمعصية قد تكون سبباً للكفر ، وعلى هذا يحمل قوله تعالى : ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون** (٢) ﴾ الحجرات[4].

وبناءً على هذا الأساس الباطل بنى القاضي عبدالجبار باقي شبهته من أنه إن جاز

=ذلك.اهـ . شرح الأصول الخمسة ، ص: ٨٠٠ ، فهذا هو العدل الذي أثبتته المعتزلة لله عزوجل ، أن يسقط ثواب جميع الطاعات بكبيرة واحدة ؛ انظر : في علم الكلام : دراسة فلسفية لآراء الفرق الإسلامية في أصول الدين ، (١) المعتزلة ، أحمد محمود صبحي ، ص: ١٥٨ .

(١)- من الآية ٥ : سورة المائدة .

(٢)- ٨٧-٨٨ : سورة الأنعام .

(٣)- مجموع فتاوى ابن تيمية : جـ: ٧ ، ص: ٤٩٣-٤٩٤ .

(٤)- انظر المرجع السابق : جـ: ٧ ، ص: ٤٩٤ . وسيأتي بإذن الله مزيد بيان لما يتعلق بهذه الآية . انظر ص: ٣٢٠ .

إدخال الفاسق الجنة فهو على سبيل التفضل المحض [١]، وهذا غير صحيح بل دخول العاصي المكلف الجنة ، وإن كان تفضّلاً من الله تبارك اسمه إلاّ أنّه مع ذلك بسبب ما تبقّى له من إيمان لم ينقضه بكفر .

– وهذا الاستدلال يعتمد أيضاً على ادعاء أن المكلف إذا دخل الجنة إمّا أنْ يدخلها مثاباً حتى يكون حاله متميزاً عن حال من دخل الجنة من غير المكلفين تفضلاً من الله تعالى ، أو لايدخلها فيكون من أهل العقاب [٢]. فكأن القاضي يقول : إنه إمّا أن يدخل الفاسق الجنة دخولاً يتميّز به عن حال الولدان ونحوهم ممن دخلها بالتفضل المجرد ، أو فليكن من أهل العقاب والعذاب الدائم الخالد ! . وهذا كلام يستغرب صدوره من قوم يدعون تحكيم العقل ، فأي عقل يحصر احتمالات دخول المكلف الجنة بالصورة التي زعمها هؤلاء، إمّا دخول متميّز ، أولا دخول وعذاب خالد دائم ! . ولماذا لايقال باحتمال آخر وهو : أنْ يدخل هذا الفاسق الجنة بفضل الله تعالى مع شيء من التميز عن حال أولئك الولدان ويكون سبب هذا التميز هو ما تبقّى له من تصديق لم يحبط بكفر ؟ .

– وهذا الاستدلال يعتمد على التعريف الذي سبق ذكره للثواب وهو أنه كل نفع مستحق على طريق التعظيم ومن ثم فإن الفاسق لايصح تعظيمه [٣].

وهذا التعريف غير مسلّم ، فليس شرطاً واجباً أن يقارن الثواب دوماً تعظيم وإجلال. فإن قيل : إنّه إنْ لم يقارنه التعظيم والإجلال كان تفضلاً لاثواباً ؛ أجيب : بأنّ كون الثواب تفضل من الله جل شأنه بكل حال هو القول الصحيح الذي سبق إثباته [٤].

ثم إن سلّم بأن الثواب يقارنه دوماً نوع من التعظيم والتكريم ؛ فلا مانع أن تختلف درجاتهما ، فيعظم من أحسن العمل ولم يخالطه بعمل سيء أكثر من تعظيم من أساء في عمله ؛ وإن كانت إساءته دون مقدار إحسانه ، وهذا بدوره يعظم أكثر من تعظيم من أساء عمله وكان مقداره زائداً على مقدار إحسانه إلاّ أنّه لم ينقض إيمانه بالكليّة .

---

(١)– انظر بيان هذه الشبهة . ص: ١٧٤ .

(٢)– انظر الموضع المشار إليه في الهامش السابق .

(٣)– انظر ماسبق . ص: ١٧٥ .

(٤)– انظر ماسبق بيانه ص:ص: ١٨٠ وما بعدها .

ثم إن هذا الأخير لو قدر أنه عُذّب أولاً ، فإنّ تعذيبه يكون مطهراً له من آثار الأعمال السيئة التي اقترفها ، فإنْ أدخل الجنّة بعد ذلك وعظم فيها كان تعظيمه بسبب ما كان منه من إيمان ، وأما الفسق فقد تطهر من أثره .

والمثال الذي ذكره القاضي عبدالجبار : أنه لايصح تعظيم الأجنبي كتعظيم الوالد ، وتعظيم الوالد كتعظيم النبي ، وتعظيم النبي كتعظيم الرب تعالى [(١)]، هو مثال يصح أن يكون دليلاً عليه لالَهُ ، وذلك أن تعظيم الله تعالى على ما يليق به لا يلزم منه أن لايكون للنبي صلى الله عليه وسلم من التكريم ما يليق به ، وكذلك ما يكون للنبي لايسقط ما يجب أن يكون للوالد . وهكذا الشأن في إثابة الطائع والعاصي المؤمن فإن كان ثوابهما يقارنه حتماً تعظيم وإجلال ، فإنه يقال : إن الطائع ينال من ذلك أكثر مما يناله العاصي .

الرد على الاستدلال الثاني : وهو الاستدلال بعمومات الوعيد وأنه قد رتب فيها دخول دار العذاب لكل من ارتكب الذنب الوارد فيها [(٢)].

لقد أجيب على هذا الاستدلال بأجوبة ، لعل من أهمها الجواب التالي ، وهو : القول بأن غاية هذه الأدلّة المذكورة في هذا الاستدلال أنها من باب الوعيد ، وإخلاف الوعيد مما لايذم عليه ، بل هو مما يمدح عليه ، فتجوز نسبته إلى الرب عزوجل . ومما يدل على كون إخلاف الوعيد مما يمدح عليه ما مدح به كعب بن زهير الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد قال :

نبئت أنّ رسول الله أوعدني ... والعفو عند رسول الله مأمول[(٣)].

فقد مدح كعب الرسول صلى الله عليه وسلم بأن العفو هو المأمول منه ، والعفو مستلزم لإخلاف الوعيد ، ومثل ذلك قول الشاعر :

---

(١)- انظر ماسبق . ص: ١٧٥ .

(٢)- انظر ماسبق . الموضع المشار إليه في الهامش السابق .

(٣)- انظر : جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام . جـ:٢ ، ص: ٧٩٦ . البيت ٣٩ . وقد روى البيت صاحب هذا الكتاب بلفظ : (أنبئت) .

ولا يرهب ابن العم ما عشت صولتي ولا يختشي من سطوة المتهدد .
وإني إذا أوعدته أو وعدته لمخلف إيعادي ومنجز موعدي[1] .

ثم إن الوعيد حقه تعالى وإخلافه كرم منه وجود وإحسان ، وذلك بخلاف الوعد الذي هو حق عليه تعالى لعباده الطائعين أحقه على نفسه وهو سبحانه لايخلف الميعاد[2] .

ولم يرتض شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الجواب كامل الرضا ، إذ إن قوله تعالى : ﴿**ما يبدّل القول لديّ وما أنا بظلامٍ للعبيد** (٢٩) ﴾ ق ، بعد قوله : ﴿ **قال لاتختصموا لديّ وقد قدّمت إليكم بالوعيد** (٢٨) ﴾ ق ؛ قد رأى رحمه الله فيه إضعافاً لجواب من قال : إن خلف الوعيد جائز عليه تعالى ، ففي الآية السابقة إثبات صريح لكون وعيده تعالى لايتبدّل ، كما لايتبدّل وعده ، فهو جل شأنه صادق في وعده ووعيده ، وقال :

(لكن التحقيق الجمع بين نصوص الوعد والوعيد وتفسير بعضها ببعض من غير تبديل شيء منها ، كما يجمع بين نصوص الأمر والنهي من غير تبديل شيء منها . وقد قال تعالى : ﴿ **سيقول المخلّفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتّبعكم يريدون أن يبدّلوا كلام الله ...**﴾ [3])[4] .

وطريقة هذا الجمع قائمة على أساس أن نصوص الوعيد قد ذكرت مقتضى العقوبة لكن لايلزم من وجود مقتضى العقوبة وجود العقوبة نفسها ؛ إذ العقوبة حكم من الأحكام وأيّ حكم لابد لوجوده من تحقق جميع مقتضياته وانتفاء جميع موانعه ، والعقوبة كذلك لابد لتحققها من وجود جميع مقتضياتها وانتفاء جميع ماقد يمنع تحققها .

والموانع التي قد تكون سبباً لرفع العقوبة عن المذنب وإن قام به مقتضاها ؛ بعضها مانع بالإجماع من جميع الفرق ، وبعضها مانع بالنص الصحيح . فإذا سلّم الذين يذهبون إلى وجوب عقاب كل مرتكب لكبيرة بقبول بعض تلك الموانع كالتوبة والاستغفار لزمهم التسليم بقبول بقية الموانع التي يثبت بالدليل القاطع أنها مانعة من وقوع العذاب ، ومن

---

(١)- انظر : مدارج السالكين ، لابن قيم الجوزية . جـ:١ ، ص: ٣٩٦ .
(٢)- انظر : المرجع السابق . الموضع نفسه .
(٣)- من الآية ١٥ . سورة الفتح .
(٤)- لهذا القول وما سبقه ، انظر مجموع فتاوى ابن تيمية . جـ: ١٤ ، ص: ٤٩٨ .و: مدارج السالكين. جـ: ١ ، ص: ٣٩٦ .

أهم تلك الموانع الموت على توحيد صحيح وهو مانع بالنصوص المتواترة [(١)]، وهناك موانع أخرى جاء في إثباتها نصوص متعددة [(٢)]. وهذه الموانع لاتثبت لجميع من ارتكب الكبائر من المؤمنين ، وإنما تثبت لبعضهم ، فلا ينفذ الوعيد في حقهم ، ويبقى الكثير منهم بلا موانع تمنع إنفاذ الوعيد في حقهم ، فيدخلون النار ويعذبون فيها بقدر أعمالهم عدلاً من ا لله تعالى ، ثم يخرجهم منها ويدخلهم الجنة برحمته [(٣)].

---

(١)- موت الإنسان على توحيد صحيح غير منقوض بكفر هو مانع في الأصل من التخليد في العذاب ، كما سيتبين في نصوص الشفاعة . انظر ص: ٢٦٨ وما بعدها . ولكن قد يقوم عند مؤمن من التوحيد ما يكون عظيماً جداً إلى الدرجة التي يمنع عندها وقوع العذاب على صاحبه وإن كانت أعماله السيئة أعظم بكثير من أعماله الحسنة غير التوحيد ، دليل ذلك الحديث الذي حدث به عبدا لله بن عمرو بن العاص عن النبي صلى ا لله عليه وسلم أنه قال : ((إنّ ا لله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كلُّ سجلّ مثل مدّ البصر ، ثم يقول : أتنكر من هذا شيئاً أظلمك كتبتي الحافظون ؟ ، فيقول : لايارب ، فيقول : أفلك عذر ؟ ، فيقول : لايارب ، فيقول: بلى ، إن لك عندنا حسنة فإنه لاظلم عليك اليوم . (وفي رواية : فيقول : ألك عذر أو حسنة ؟ ، فيبهت الرجل ، فيقول : لايارب ، فيقول : بلى إن لك عندنا حسنة واحدة لاظلم اليوم عليك) فتخرج بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا ا لله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . فيقول : أحضروزنك ، فيقول : يارب ، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فقال : إنك لاتظلم . قال : فتوضع السجلات في كفّة والبطاقة في كفة ، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ، فلا يثقل مع اسم ا لله شيء)) رواه الترمذي وهذا لفظه ، وقال عن الحديث : إنه حسن غريب . عارضة الأحوذي : أبواب الإيمان ، باب : ماجاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلاّ ا لله ، جـ:١٠ ، ص: ١٠٧-١٠٨ . ورواه أحمد في مسنده ، والرواية المشار إليها أثناء سرد الحديث هي روايته . المسند : جـ:٢ ، ص: ٢١٣ . ورواه ابن ماجه . سنن ابن ماجه : كتاب الزهد (٣٧) ، باب : ما يرجى من رحمة ا لله يوم القيامة (٣٥) ، ح: ٤٣٠٠ ، جـ:٢ ، ص: ١٤٣٧ . ورواه الحاكم في المستدرك : كتاب الدعاء ، جـ١ ، ص: ٥٢٩ . وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي . وكلهم رووه عن ابن عمرو . والحديث صححه الألباني في تعليقه على شرح العقيدة الطحاوية . ص:٤٧٣، هامش : ١ .

(٢)- سيأتي بيان عدد من تلك الموانع مع أدلتها بإذن ا لله . انظر ص: ٣٢٨ وما بعدها . وانظر : مجموع فتاوى ابن تيمية . جـ:٧ ، ص: ٤٨٧ وما بعدها . و: منهاج السنة النبوية . جـ:٣ ، ص: ١٧٩-١٨٦ . و: مدارج السالكين . جـ:١ ، ص: ٣٩٦-٣٩٧ .

(٣)- سيأتي ذكر بعض أحاديث الشفاعة بإذن ا لله . انظر ص: ٢٦٨ وما بعدها .

الرد على الاستدلال الثالث : وهو الاستدلال بالنصوص التي ينسب فيها الكفر ونحوه لمن ارتكب بعض الذنوب [١].

إن النصوص المذكورة في هذا الاستدلال لايمكن الاحتجاج بها على كفر مرتكب الكبيرة ، أو على انتفاء الإيمان عنه انتفاءً كليّاً ، فإنه توجد نصوص أخرى ثابتة وأمور متفق عليها تبين أن اسم الإيمان لم ينتف مطلقاً عن مرتكب أمثال هذه الذنوب ، وتبين أنه ليس كافراً أو منافقاً كفراً أو نفاقاً ناقلاً عن الملّة . من هذه الأدلّة والأمور :

أولاً : الحدود المقامة على مرتكبي بعض الذنوب كحد السرقة والزنا وشرب الخمر، فلو كان هؤلاء يكفرون بذنوبهم ما أقيمت عليهم الحدود بل كانوا مرتدين ، تطبق عليهم أحكام الردّة فوراً ، وهذا معلوم فساده ضرورة من دين الإسلام [٢].

ثانيا : أدلة فيها أن اسم الإيمان لم ينتف مطلقاً عن مرتكبي بعض الكبائر منها قوله تعالى في بعض آيات القصاص : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحرُّ بالحرُّ والعبدُ بالعبدُ والأنثى بالأنثى فمن عُفي له من أخيه شيء فاتّباع بالمعروف وأداءٌ إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربّكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم**(١٧٨) ﴾ البقرة . فهنا جعل القاتل أخاً لوليّ القصاص ، والمراد بلاشك أخوّة الدّين ، فيكون القاتل من المؤمنين ولاسيّما أنّ الآية قد صدّرت بقوله : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا..** ﴾ وقال جل جلاله : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر ا لله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن ا لله يحب المقسطين** (٩) **إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا ا لله لعلكم ترحمون** (١٠) ﴾ الحجرات . فهنا قد جعل تعالى الطائفتين كلتيهما طائفتين مؤمنتين ، وأمر بقيّة المؤمنين بالإصلاح بينهم [٣].

---

(١)- انظر ماسبق ص: ١٧٦-١٧٨ .

(٢)- انظر : عارضة الأحوذي شرح صحيح الترمذي . جـ: ١٠ ، ص: ١٠٢، ماذكره أبو عيسى الترمذي في سننه . وانظر : مجموع فتاوى ابن تيمية . جـ:٧ ، ص: ٤٨٢-٤٨٣ .

(٣)- انظر المرجعين في الهامش السابق . الموضع نفسه .

فإذا ثبت ذلك كان لابد من الجمع بين النصوص التي ينسب فيها الكفر إلى من يرتكب بعض الذنوب والنصوص التي تدل على أنه لم يخرج كليّاً من زمرة المؤمنين . وهذا الجمع يكون بإثبات وجود أصل الإيمان عند المذنب مع وجود بعض شعب الكفر أو النفاق فيه ، فهو لم ينتف عنه اسم الإيمان مطلقاً لأن أصله وهو الاعتقاد لم يحبطه بأمر مكفّر ، وفي المقابل فإنه لايستحق أن يطلق هذا الاسم عليه كما يطلق على الذين قال الله في شأنهم : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون** (٢) ﴾ الأنفال . فهذا الإيمان الكامل منتف عنه قطعاً ، ولكن لا يلزم من انتفاء الإيمان الكامل انتفاء أصل الإيمان ، ولذلك يجوز أن يقال في الفاسق المليّ : هو مؤمن باعتبار ، وليس مؤمناً باعتبار آخر ، أو يقال : هومؤمن ناقص الإيمان ، أو مؤمن عاص ، أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته ، أو يقال : هو ليس مؤمناً حقّاً ، أو ليس صادق الإيمان . وكذلك فإنه لوجود بعض خصال الكفر أو النفاق فيه جاز إطلاقهما عليه ، ولكنهما ليسا كفراً ونفاقاً يخرجان من الملة ، بل هما كما قال بعض السلف : كفر دون كفر وفسق دون فسق وظلم دون ظلم ونفاق دون نفاق [١].

وأما حديث : ((لايزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ...)) الحديث [٢]، فإنه قد جاءت رواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تفسره . قال عليه الصلاة والسلام : ((إذا زنى الرجل خرج منه الإيمان فكان عليه كالظلّة ، فإذا أقلع رجع إليه الإيمان))[٣]،

---

(١)- انظر : عارضة الأحوذي . جـ:١٠ ، ص: ١٠٣ ، ما ذكره أبو عيسى الترمذي . و: مجموع فتاوى ابن تيمية . جـ: ٧ ، ص: ٤٧٨ ، ٥٢٠-٥٢٢ ، ٥٢٤،٦٧٣-٦٧٥ .

(٢)- انظره كاملاً مع التخريج . ص: ١٧٧ .

(٣)- رواه أبو داود في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه . مختصر سنن أبي داود ، للحافظ المنذري : كتاب السنّة ، باب : الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه ، ح:٤٥٢٥ ، جـ:٧ ، ص: ٥٥ . وروى الحديث كذلك الحاكم في : المستدرك : كتاب الإيمان ، جـ:١ ، ص: ٢٢ . وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين فقد احتجا برواته ، ووافقه الذهبي . وذكر الحاكم للحديث شاهداً وقال : إنه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي . وصحح الحديث ابن تيمية . انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية . جـ:٧ ، ص: ٦٧٠ . وصححه كذلك ابن حجر . انظر : فتح الباري . جـ:١٢ ، ص: ٦١ .

فهذه الرواية (دليل أن الإيمان لايفارقه بالكليّة ، فإنّ الظلّة تظلل صاحبها وهي متعلّقة ومرتبطة به نوع ارتباط)[1] .

وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية وجه الارتفاع الجزئي لإيمان المكلف حال مقارفته الذنب ، وأنه يرجع إلى أحد أسباب ثلاثة :

السبب الأول : اضطراب في عقيدة العاصي كأن يكون ممن يظن أن الوعيد للتخويف ولن يتحقق .

السبب الثاني : الغفلة والذهول عن التحريم وعن عظمة الربّ وشدّة بأسه .

السبب الثالث : فرط شهوة يقهر مقتضى الإيمان ويمنع موجبه فيصير الاعتقاد مغموراً مقهوراً .

ولولا أحد هذه الأسباب فإن المؤمن لو كان مستحضراً في ذهنه إيمانه الكامل بأن ا لله حرّم هذا الذنب وأنه مطلع عليه وأنه يعاقبه إن ارتكبه ؛ ما اقترف الذنب أبداً .

وبناءً على ذلك فالتصديق الذي يفرّق بين المؤمن والكافر لم يعدمه مرتكب الكبيرة ، أي إنه لم يعدم الإيمان الذي يرجى له به الشفاعة ، والذي من أجله لايخلد في النار ، وتصح من أجله مناكحته وموارثته . ولكنه عدم الإيمان الذي يكون سبباً لنجاته من العذاب مطلقاً ، والذي يكون سبباً لارتفاع درجته في الجنّة . وشبّه شيخ الإسلام هذا العدم الجزئي للإيمان ، بحال النائم والسكران . قال تعالى : ﴿ **ا لله يتوفّى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمّى إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون** (٤٢)﴾ الزمر . فروح النائم ليست مقارنة له كمقارنتها له وهو يقظان وليست مفارقة له مفارقة كليّة كما في حال الموت ، بل النائم ميّت من وجه ، حيّ من وجه آخر . وكذا السكران أو الذي يغضب غضباً شديداً ، إذا قيل : إنه ليس بعاقل حال سكره وغضبه كان هذا صحيحاً ، لأن عقله حينئذ مستور ، ولكنه لم يفقده بالكليّة ، بل إذا صحا عاد إليه ، ومن هنا فارق حاله حال البهيمة التي لا عقل لها مطلقاً . فالسكران أو الغضبان يصح أن يقال : إن له عقلاً من وجه ، ويصح أن

---

(١)- مجموع فتاوى ابن تيمية . جـ:٧ ، ص: ٦٧٣-٦٧٤ .

يقال : إنه لاعقل له من وجه آخر ، فكذلك المؤمن الفاسق [1].

فانتفاء الإيمان عن مثل الزاني والسارق والشارب الخمر هو على معنى انتفاء كماله الواجب ، أي الكمال الذي يستحق به المؤمن - بفضل الله - الثواب بلا عقاب . وقيل في الحديث:إن المراد بانتفاء الإيمان هو انتفاؤه عمّن ارتكب هذه الأمور مستحلاً لها [2].

وأما حديث : ((أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ...)) [3] الحديث ، فهو كما قيل : من باب النفاق العملي لا النفاق الاعتقادي ، فمن اجتمعت فيه هذه الخصال الأربعة - وهي كلها أمور عملية - كان قد اتصف من جهة أعماله بما يستحق من أجله أن يطلق عليه وصف المنافق ، ولاسيما إذا اتصف بها اتّصافاً كليّاً حتى تصبح طبيعته وسجيته كذلك . ثم إن أصبح كذلك فإنه ربما أثرت عليه هذه الصفات تأثيراً كبيراً حتى تحدث في اعتقاده خللاً ، فيصبح منافقاً نفاقاً اعتقادياً وعمليّاً ، فإن المعصية قد تؤدي بصاحبها إلى الكفر [4].

فهذه الصفات إذا وجدت مجتمعة لدى مكلف وكانت خلقه الدائم قد يستدل بها على فساد معتقده القلبي ، فيكون كما قال صلى الله عليه وسلم : ((آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان ، وإن صام وصلّى وزعم أنه مسلم)) [5].

إذاً يتضح مما سبق سقوط الاستدلال بهذه النصوص على كفر أو نفاق من ارتكب الكبائر .

١٠- إبطال القول بوجوب تخليد العصاة في النار :

---

(١)- انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية . جـ:٧ ، ص: ٦٧٤-٦٧٥ .

(٢)- انظر : شرح النووي على مسلم . جـ: ٢ ، ص: ٤١-٤٢ . و: مجموع فتاوى ابن تيمية . جـ: ٧ ، ص : ٥٢٤-٥٢٥ . و: فتح الباري . جـ:١٠ ، ص: ٣٤ ، جـ: ١٢ ، ص: ٦٠-٦٢ .

(٣)- انظر الحديث كاملاً مع تخريجه . ص: ١٧٧ .

(٤)- انظر :شرح النووي على مسلم .جـ:٢ ، ص: ٤٦-٤٧ .و: فتح الباري . جـ: ١ ، ص: ٩٠-٩١.

(٥)- رواه مسلم عن أبي هريرة . وقد سبقت الإشارة إلى تخريجه . انظر ص: ١٧٧ ، هامش (٣) .

إن قول المعتزلة ومن وافقهم بتخليد من يدخل النار من عصاة الموحدين فيها ، هو كذلك قول باطل ، وما ذكروه من استدلالات على ذلك هي غير صحيحة ، وبيان ذلك فيما يلي :

الرد على الاستدلال الأول[1]: وهذا الاستدلال هو نظير الاستدلال الأول على وجوب تعذيب الفاسق مع تعديل يسير ، ويكتفى في الرد عليه بما سبق ذكره عند الرد على ذلك الاستدلال [2].

الرد على الاستدلال الثاني : وهو الاستدلال بعمومات الوعيد [3]. ويرد عليه بنظير الرد الذي سبق ذكره عند الرد على الاستدلال الثاني لمن قال بوجوب تعذيب الفاسق[4]. فيقال هنا :

١) إن التخليد في العذاب الوارد في حق المتعدّي لحدود الله تعالى أو في حق قاتل نفسه أو غيره ، هو حكم من الأحكام له مقتضيات وموانع ، فإن تحققت جميع مقتضياته وانتفت جميع موانعه تحقق ذلك التخليد ، وإلا ارتفع . ومن أهم موانع التخليد في العذاب: الموت على إيمان صحيح غير منقوض بكفر [5].

٢) ثم إن كثيراً من نصوص الوعيد هذه ليس فيها استثناء من تاب ، فهل يقال بأن من ارتكب بعض هذه الكبائر يناله الوعيد وإن تاب ؟ .

فإن قيل : لا ، جمعاً بين النصوص . قيل : وأيضاً فإن من مقتضى الجمع بين النصوص أن يقال : إن القاتل – أو غيره من مرتكبي الكبائر – إذا مات على توحيد صحيح لم ينقضه بكفر ، فإنه لابد – إن عذّب – أن ينقطع عذابه ثم يُدخلَ الجنّة ، ولافرق بين

---

(١)- انظر ص: ١٧٨-١٧٩ .

(٢)- انظر ص: ١٩٢-١٩٥ .

(٣)- انظر ص: ١٧٩ .

(٤)- انظر ص: ١٩٥-١٩٧ .

(٥)- كما سيأتي واضحاً عند الاستدلال بنصوص الشفاعة وغيرها من الأدلة التي يحتج بها على خروج أهل الكبائر من النار . انظر ص:٢٦٦ وما بعدها .

الأمرين مادام أن النصوص قد صحت في إخراج الموحدين من النار .

٣) ولكن يمكن القول : بأن من قتل مؤمناً متعمداً و لم يتب من ذلك ، فكأنه مازال مصرّاً على فعلته بحيث لو تمكن مرة أخرى من القتل العمد لفعله ، فإنه غير ممتنع أن يعاقب على تلك المعصية بتيسير معاصي أخرى له أكبر منها أو مثلها ، فإن ارتكبها واعتادها يُسر له ماهو أعظم حتى يصل به الأمر إلى حد الكفر فيختم له به فينتفي بذلك أي مانع من تخليده في النار ، وتجتمع لديه جميع مقتضيات تخليده فيها ، فيخلد في النار لمجموع الأسباب والمقتضيات التي قامت به ، والتي وإن كان الكفر هو الأساس فيها ، إلاّ أن جريمة القتل العمد التي ارتكبها قد كانت في الحقيقة هي السبب في خاتمة السوء التي ختمت بها حياته والتي استحق بسببها الخلود في النار ، ومن ثم فإن جريمة القتل هي السبب الأصلي الذي أدّى إلى خلوده في دار العذاب .

٤) وأيضاً فإنه غير ممتنع أن يراد بالقاتل الذي قتل مؤمناً عمداً من غير وجه حقٍّ؛ مَنْ وصل في درجة تعمدّه إلى حدّ استحلال قتل هذا المؤمن ، ولاشك أن مثل هذا الاستحلال كفر يخلد به صاحبه في النار ، وكذلك جميع أنواع المعاصي إذا تعمد صاحبها إتيانها استحلالاً لها . فقوله تعالى : ﴿ **ومن يعص ا لله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين** (١٤) ﴾ النساء . وقوله : ﴿ **ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب ا لله عليه ولعنه وأعدّ له عذاباً عظيماً** (٩٣)﴾ النساء . هو على ظاهره فيمن وصل في درجة عصيانه إلى حدّ استحلال المعصية فكفر فاستحق الخلود .

فإن قيل : ومن أين وضعتم شرط الوصول إلى دركة الاستحلال ؟ أجيب : ضرورة أن المؤمن الذي يموت على توحيد صحيح فإنه لايخلد في دار العذاب ، وذلك كما وضعتم أنتم – وهو وضع صحيح – شرط عدم توبة قاتل المؤمن وهو غير موجود في الآية [(١)] .

---

(١)- يلاحظ هنا أن بعض السلف قد ذهبوا إلى أنه لاتوبة للقاتل بناءً على قوله تعالى : ﴿ **ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم ...**﴾ إذ رتبت العقوبة على الذنب مباشرة ولم يأت ذكر للتوبة . انظر مدارج السالكين . جـ:١ ، ص: ٣٩٢-٣٩٣ .

٥) وأمّا قوله صلى الله عليه وسلم : ((من تردّى من جبل ...)) الحديث [(١)]. فإنه قد ورد في مسألته حديث آخر يبين أنه ليس المراد تخليد كل من قتل نفسه سواء كان قد مات على إيمان صحيح غير منقوض أم لا، هذا الحديث هو : عن الطفيل بن عمرو الدّوسيّ أنه : [لمّا هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة هاجر إليه الطفيل بن عمرو، وهاجر معه رجل من قومه ، فاجتووا المدينة فمرض فجزع فأخذ مشاقص له فقطع بها براجمه فشخبت يداه حتى مات ، فرآه الطفيل بن عمرو في منامه ، فرآه وهيئته حسنة، ورآه مغطّياً يديه ، فقال له : ما صنع بك ربك ، فقال : غفر لي بهجرتي إلى نبيه صلى الله عليه وسلم ، فقال : مالي أراك مغطّياً يديك ، قال : قيل لي : لن نصلح منك ما أفسدت . فقصّها الطفيل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((اللهم ولِيدَيْهِ فاغفر .))] [(٢)].

فهذان الحديثان إذا جمعا إلى بعضهما ، ولم يضرب أحدهما بالآخر ، فإن التأويل الصحيح يكون عندئذ على النحو التالي :

الحديث الأول : حديث ((من تردّى من جبل ...))-يبين الجزاء الذي يستحقه من فعل هذه الفعلة الشنيعة ، إلاّ أنّ هذا الحكم قد يقوم مانع من تحقيقه كحسنة عظيمة أو شفاعة وكلاهما قد وردا في الحديث الثاني .

فالله تعالى قد غفر لهذا الذي قتل نفسه بسبب هجرته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم تقع المغفرة ابتداءً ليديه ، ثم تشفّع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليديه وطلب من الله عز وجل أن يغفرهما ، فهذا سبب آخر قد يمنع من إيقاع العقوبة المستحقة بسبب العمل .

---

(١)- انظره كاملاً مع تخريجه ص : ١٧٩ .

(٢)- رواه مسلم عن الطفيل رضي الله عنه . شرح النووي على مسلم : كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن قاتل نفسه لايكفر ، جـ٢ ، ص:١٣٠-١٣١ . شرح بعض مفردات الحديث : اجتووا : كرهوا المقام لضجر ونوع من سقم . مشاقص : جمع مشقص وهو : سهم فيه نصل عريض . البراجم هي : مفاصل الأصابع ، واحدتها : برجمة . شخبت يداه : سال دمهما ، وقيل : سال بقوة . انظر : شرح النووي على مسلم:جـ٢ ، ص : ١٣١ .

وقد لايقوى السبب – لدى شخص آخر – على منع إيقاع العقوبة ، ولكنه يقوى على منع تخليدها . إذاً لايصح الاستدلال بطرف من النصوص واطّراح ماعداها بل لابد من جمع مختلف النصوص الواردة في مسألة معينة لمعرفة الحق في شأنها .

ويلاحظ في السببين الواردين في حديث الطفيل أنهما غير سبب التوبة المتفق على كونه مانعاً من إيقاع العقوبة عند المعتزلة ومن وافقهم .

ويلاحظ أيضاً : أنه قد تنتفي جميع موانع إيقاع العقاب كأن يكون الإنسان موحداً في الأصل إلاّ أنّه قد بلغ به الحال في لحظة إلى حدّ استحلال قتله لنفسه – وهو يعلم حرمة ذلك – فمتى كان منه ذلك وفعله ومات على ذلك كان كافراً باستحلاله مستحقاً لتحقق مقتضى الخلود في العذاب في حقه ، بعدْل الله تعالى [1].

(٦) وأخيراً فإنه يمكن أن يقال فيما يتعلق بالتخليد المقرون بالتأبيد في جهنم ، أنه لايمنع مانع من الاستثناء من ذلك التأبيد ، نظير ذلك قوله تعالى :

﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولاتقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون (٤) إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم (٥) ﴾ النور .

فهنا ذكر تعالى أن من عقوبات القاذف رد شهادته أبداً ثم استثنى الذين تابوا ، فلاينطبق عليهم حكم عدم قبول شهادتهم بصورة مؤبدة [2]. وهذا يدل على جواز الاستثناء من التخليد المقرون بالتأبيد ، وعندئذ يقال : إن الاستثناء يجوز أن يكون موجوداً

---

(١)- انظر : المرجع السابق . جـ٢ ، ص : ١٢٥ ، ١٣١-١٣٢ .

(٢)- انظر : تفسير ابن كثير جـ٣ ، ص : ٢٦٤-٢٦٥ . وقد مال الزمخشري في الكشاف . جـ٣ ص ٦٢: إلى القول بشمول الاستثناء للعقوبات الثلاث،قال : والذي يقتضيه ظاهر الآية ونظمها أن تكون الجمل الثلاث بمجموعهن جزاء الشرط ، كأنه قيل : ومن قذف المحصنات فاجلدوهم وردوا شهادتهم وفسقوهم ، أي فاجمعوا لهم الجلد والرد التفسيق ، إلا الذين تابوا عن القذف وأصلحوا فإن الله يغفر لهم فينقلبون غير مجلودين ولا مردودين ولامفسقين . اهـ . فهذا القول من الزمخشري يدل على قبوله لمبدأ جواز الاستثناء من التأبيد . هذا والزمخشري عالم من علماء اللغة ومن كبار أئمة المعتزلة .

في الجملة التي يذكر فيها الحكم المقرون بالتأبيد ، وقد يفهم الاستثناء من مجموع النصوص الأخرى الواردة في نفس موضوع هذا الحكم .

فإن قيل : لِمَ لمْ يأتِ الاستثناء في النص ذاته ؟ أجيب : بأن ذلك ليس أمراً واجباً فيجوز أن يذكر الاستثناء في النص ذاته ويجوز أن يفهم الاستثناء من مجموع النصوص ، ومثال ذلك قوله تعالى :

﴿ **قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة ا لله إن ا لله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم** (٥٣) ﴾ الزمر .

فإن الزمخشري قد قال : (﴿ **إن ا لله يغفر الذنوب جميعاً** ﴾ يعني بشرط التوبة ، وقد تكرر ذكر هذا الشرط في القرآن ، فكان ذكره فيما ذكر فيه ذكراً له فيما لم يذكر فيه لأن القرآن في حكم كلام واحد ولايجوز فيه التناقض .)[١] .

الرد على الاستدلال الثالث : وهو الاستدلال بالنصوص التي تنسب الكفر ونحوه إلى مرتكب بعض الكبائر :[٢] لقد تبين عند الكلام على الرد على الاستدلال الثالث لوجوب تعذيب الفاسق [٣] بطلان الاستدلال على كفر مرتكب الكبيرة بالنصوص التي يذكر فيها أن من ارتكب ذنباً معيناً لاينقض أصل الإيمان ، فإنه من الكافرين . وإذ بطل كون مرتكب الكبيرة من الكافرين ، بطل ما بُنِيَ على هذا الزعم من القول بأنه مخلد في النار .

الرد على الاستدلال الرابع : وهو الاستدلال بأن الإيمان قول وعمل [٤]:

إن جمهور أهل السنة يقولون : إن الإيمان قول وعمل ويدافعون عن ذلك ويستدلّون له بشتى الأدلة الصحيحة ، وعلى الرغم من ذلك فهم لم يجدوا في هذا المعتقد ما يعارض خروج عصاة الموحدين من النار ، وذلك لأن الإيمان وإن كان قولاً وعملاً ، فإنه لاينتقض بالكليّة إذا وقعت من الإنسان بعض الكبائر ، بل غاية ما يحصل لهذا الإنسان هو نقص

---

(١)- الكشاف للزمخشري . جـ٣ ، ص : ٣٥١ .

(٢)- انظر : ما سبق . ص : ١٧٩ .

(٣)- انظر : ما سبق . ص : ١٩٨-٢٠١ .

(٤)- انظر : ما سبق . ص : ١٧٩ .

إيمانه عن درجة الكمال[1] الـتي يسـتحق بهـا بفضـل ا لله تعـالى النجـاة مـن النـار مطلقـاً ، فالمعاصي تزيل عن صاحبها اسم الإيمان الكامل ، لا اسم الإيمان بالكليّة ، ومن ثم لايصح القول بانتقاض الإيمان لنقصان بعض شُعَبِهِ ، إذ لا ينتقض إلا بأمر يعود بالنقض على أصله وهو الإقرار بالتوحيد بإخلاص ، وذلك بنوع من أنواع الكفر الأكبر المخرج للمكلف من الملّة .

الرد على الاستدلال الخامس : وهو الاستدلال القائم على أساس قياس طاعة الفاسق بأعمال الكافر الحسنة [2]:

إن هذا الاستدلال في حقيقته شبهة ساقطة قائمة على أساسين باطلين :

الأساس الأول : اعتبار أثر إيمان الفاسق با لله تعـالى إيمانـاً غـير منقـوض ، أو توحيـده التوحيد الصحيح مساوياً لأثر ما قد يصدر من الكافر من أعمال حسنة ، مع أنه تعالى قـد بين أنّ أيّ عمل حسن يعمله الكافر مادام أنه لم يقترن به إيمان صحيح با لله فإنه عز وجـل يبطله ويجعله هباءً منثـوراً لاقيمـة لـه في الـوزن مطلقـاً ، قـال جـل شـأنه : ﴿ **وقدمنا إلى ماعملوا من عملٍ فجعلناه هباءً منثوراً** (٢٣) ﴾ الفرقان[3] .

فكيف يصح قياس إيمان المكلف با لله تعـالى علـى عمـل ظـاهر حسـن قـد صـدر مـن كافر؟ . بل كيف يصح قياس ذلك الإيمان بآحاد طاعات المرء المسلم ؟.

إن القاضي عبدالجبار قائل هذه الشبهة هو نفسه عندما ادّعى وجوب الثواب علـى ا لله تعالى بسبب مافي التكاليف من مشقة ؛ أورد اعتراضاً مفاده أن العبد قـد يسـتحق الثـواب على مالا مشقة فيه نحو معرفة ا لله تعالى ، وأجاب عنه قائلاً : (إنّا لم نوجب أن يكون في نفس الفعل مشقّة ، بل يجوز أن يكون فيه أو في سببه أو في مقدمته أو فيمـا يتبعـه ويتصـل به ، ولا شبهة في أنّ معرفة ا لله تعالى بهذه المنزلة ، فإنها وإن لم يثبت فيهـا مشـقّة ، ففـي سببها وهو الفكر من المشقّة مالا يخفى ، وأيضاً فإن في المحافظة عليها وتوطين النفس علـى حل الشبهة ودفع الخصوم مشاقّ عظيمة ، بل لو قيل : بأن ما تتضمنه معرفة ا لله تعالى من

---

(١)- انظر : شرح العقيدة الطحاوية . ص : ٣٨٤ .

(٢)- انظر : ما سبق . ص : ١٨٠ .

(٣)- سيأتي مزيد بيان لمسألة حبوط أعمال الكافر . انظر : ص : ٢٨٨ وما بعدها .

المشقة لايتضمنه غيرها في الأفعال لكان ممكناً ، فكيف يصح ماذكروه ؟.)[(١)].

فيقال له بناء على كلامه : فكيف تسوّي بين أثر طاعة الفاسق بإيمانه بربه وبسائر مايجب عليه الإيمان به ، إيماناً صحيحاً غير منقوص ، بالأثر -الذي لاوجود له أصلاً- الناتج عن عمل ظاهره حسن قد يصدر من الكافر ، وربما صدر عنه نتيجة عادة اعتادها أو لحاجة نفسية أو لغاية دنيوية يريدها .

الأساس الثاني : وهو أساس أشد بطلاناً من سابقه وهو : ادّعاؤه أن الطاعة ليست أكثر من فعل ما أراده ا لله ، وبذلك سوّى بين أثر كلّ من طاعات المؤمن والأعمال التي ظاهرها حسن والتي قد تصدر من الكافر ، على النحو الذي سبق نقله [(٢)].

إن الاقتصار في تعريف الطاعة على كونها فعل مايريده ا لله ، يجعله تعريفاً باطلاً ، فإن الطاعة لو أريد تعريفها التعريف الصحيح لقيل : إنها فعل ما أراده ا لله بالكيفية والشروط التي أرادها ، والتي منها أن يرادبها وجه ا لله تعالى وحده وأن تكون مقارنة للإيمان الصحيح وغير ذلك [(٣)]. أو نحو من هذا التعريف . بناءً على ذلك : فهل العمل الذي يصدر من الكافر ويكون ظاهره حسناً ، هو على الوجه الذي أراده تعالى ؟ فلو فرض أن العمل كان حسناً كبرّ الوالدين وفرض أن هذا الكافر أراد وجه ا لله الحق لاوجه إله باطل كالعزير أو عيسى عليه السلام ؛ فإن ذلك العمل لم يكن مقروناً بالإيمان با لله تعالى الإيمان الصحيح ، ولذلك فهو لايعتبر من الطاعات أصلاً ، وا لله جل شأنه سيجعله يوم الدين هباءً منثوراً من أجل أنه لم يكن على الكيفية التي أرادها .

ولو لم يكن تعريف الطاعة على النحو المذكور آنفاً ، بل كانت -كما زعم القاضي-: مجرد فعل ما أراده ا لله ، لكان المرائي مطيعاً لله تعالى ، يستحق الثواب على طاعته ، ومن ثم يكون لطاعته أثر إن لم يكن مساوياً فهو مقارب لأثر طاعة العبد المخلص في أدائه لها ، وهذا معلوم فساده من الدين بالضرورة .

---

(١)- انظر : شرح الأصول الخمسة . ص : ٦١٦-٦١٧ .

(٢)- انظر ص : ١٨٠ .

(٣)- سيأتي بإذن ا لله دراسة شروط تحقق الثواب على العمل . انظر ص : ٢٨٧ وما بعدها .

ثم إن تعريف القاضي لو فرض أنه تعريف مسلّم لقيل : بأن ا لله تعالى يريد الطاعة على وجه مخصوص وبشروط مخصوصة ، لابد من وجودها ليعتبر ذلك العمل طاعة مقبولة.

فإذا بطل الاقتصار في تعريف الطاعة على كونها : مجرد فعل ما أراده ا لله تعالى ، دون أن يشمل هذا التعريف شروط قبول الطاعة ؛ بطل ما بني على هذا التعريف من المساواة-ولو جزئيّاً- بين أثر طاعة المؤمن ، ولاسيما إذا كانت تلك الطاعة هي طاعة الإيمان با لله جل شأنه الإيمان الصحيح ؛ وبين ماقد يصدر من الكافر من أعمال تبدو في ظاهرها حسنة ومما أمر ا لله تعالى به . وبطل أيضاً القول بأن طاعة المؤمن لو أثّرت في انقطاع عقابه لأثّرت طاعة الكافر كذلك في انقطاع عقابه .

الرد على الاستدلال السادس : وهو المبني على قياس الجزاء الأخروي على الحدود الدنيوية :

إن الزعم الذي ذكره القاضي عبدالجبار والذي ادعى فيه أنه مادام قد قطعت يد السارق دون النظر فيما له من أعمال حسنة سابقة ، فإن ذلك يدل على أن تلك الأعمال قد بطلت بسبب ارتكابه السرقة ، وقاس على ذلك شأن الجزاء الأخروي [(١)]- هو زعم فاسد :

١) فهو قد قاس شأن الجزاء الأخروي على الجزاءات الدنيوية التي يؤمر بتنفيذها الحكام ، وهذا قياس باطل إذ الحاكم من البشر لايمكنه تقدير مقادير ثواب وعقاب المكلف جميعها .

٢) ثم إن الحاكم مأمور بإقامة الحدود حتماً لأن فيها معنى آخر غير مجازاة مرتكب الذنب وهو زجره وزجر غيره عن اقتراف تلك المعصية مرة أخرى . ومن أجل ذلك شرع حضور طائفة من المؤمنين إقامة الحد على من زنى . قال تعالى :

﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كل واحدٍ منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين ا لله إن كنتم تؤمنون با لله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من

---

(١)- انظر : ماسبق . ص : ١٨٠ .

المؤمنين(٢)﴾ النور [١].

٣) ثم إن هناك قياسات أخرى تدل على جواز أن ينال الإنسان ثواباً على عمل صالح قدمه ، وعقاباً على عمل سيّءٍ قدمه ، دون أن يسقط أحدهما . فعلى سبيل المثال :

لو أن إنسانا جاهد وكان له نصيب في الغنائم ، ثم سرق ووجب في حقه قطع يده ، فإنه لايمنع مانع من أن يحقق الحاكم في شأنه مقتضى كلٍّ من السببين ، فيعطيه نصيبه في الغنيمة ، ويقطع يده بالسرقة ، فلا يسقط نصيبه من الغنيمة بسبب ما ارتكبه من السرقة .

٤)وأيضا فإنه توجد عقوبات دنيوية يمكن لصاحب الحق فيها إسقاطها ، أو استبدالها بما هو أخف منها كقتل القاتل عمداً ، إذ يجوز لولي القصاص أن يسقط حقه بالكلية ، أو أن يستبدل بالقصاص أخذ الدية .

فإذا كان تعالى قد شرع مثل هذا الإسقاط أو التخفيف للناس ، أفلا يكون جل شأنه أولى بمثل هذا الإسقاط أو التخفيف ، ولاسيما في حق من لقيه على إيمان صحيح غير منقوض ،وهو جل جلاله الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء،وسبقت رحمته غضبه [٢].

٥) وهناك مثال آخر على إسقاط الحاكم لعقوبة دنيوية بسبب تقدم حسنة عظيمة اقتضت ذلك الإسقاط عن المذنب . فقد جاء في الحديث عن علي رضي ا لله عنه أنه قال: [بعثني رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم أنا والزبير والمقداد ، فقال :((انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخٍ ، فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها)) ، قال : فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة ، فإذا نحن بالظعينة ، قلنا لها : أخرجي الكتاب ، قالت : مامعي كتاب. فقلنا : لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب . قال : فأخرجته من عقاصها . فأتينا به رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم ، فإذا فيه : من حاطبٍ بن أبي بلتعه -إلى ناس بمكة من المشركين- يخبرهم ببعض أمر الرسول صلى ا لله عليه وسلم . فقال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم ((ياحاطب ما هذا؟)) قال : يا رسول ا لله لاتعجل علي ، إني كنت امرأً ملصقاً في قريش -يقول : كنت حليفاً - ولم أكن من أنفسها وكان من معك من

---

(١)- انظر : تفسير ابن كثير ، جـ٣ ، ص: ٢٦٢ .

(٢)- سيأتي بإذن ا لله الدليل على ذلك،انظر ص: ٤٤٩-٤٥٠ .

المهاجرين من لهم بها قرابات يحمون أهليهم وأموالهم ، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم ، أن أتخذ عندهم يداً يحمون قرابتي . ولم أفعله ارتداداً عن ديني ، ولارضا بالكفر بعد الإسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((أما إنه قد صدقكم)) . فقال عمر : يا رسول الله ، دعني أضرب عنق هذا المنافق . فقال : ((إنه قد شهد بدراً ، وما يدريك لعلّ الله اطلع على من شهد بدراً ، فقال : اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم)).] فأنزل الله السورة : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق -إلى قوله -فقد ضلّ سواء السبيل**﴾[1].

فحاطب رضي الله عنه لولا ماتقدم منه من سابقة عظيمة الثواب لكان مستحقاً للعقوبة على عمله ، مهما كان دافعه إلى ذلك [2].

فإذا لم يكن مثل هذا الذنب العظيم[3] قد أبطل حسنات المؤمن ، بل كانت حسناته السابقة مسقطة لعقوبة ذلك الوزر ، أفيكون الذنب يوم الدين مسقطاً لثواب جميع حسنات المؤمن ، وإن لم يصل الإ ثم الى حد الكفر ؟!.

ب- المذهب الثاني : وهو مذهب الأشاعرة[4] ومن وافقهم :

١-عرض المذهب :

(١)- الآية (١) من سورة الممتحنة . والحديث متفق عليه عن عليّ رضي الله عنه . واللفظ للبخاري . فتح الباري : كتاب المغازي (٦٤)،باب : غزوة الفتح (٤٦)،ح:٤٢٧٤،جـ٧ ، ص ٥١٩ . وانظر شرح النووي على مسلم : كتاب فضائل الصحابة ، باب: من فضائل حاطب ابن أبي بلتعة وأهل بدر،جـ١٦ ، ص: ٥٤-٥٦،(ح:١٦١ حسب المعجم) .

(٢)- انظر : فتح الباري ، جـ٨ ، ص : ٦٣٤-٦٣٥ .

(٣)- انظر في بيان كون الجاسوسية أحد الذنوب الكبار : شرح النووي على مسلم ، جـ١٦،ص٥٥.

(٤)- الأشاعرة هم : المنتسبون إلى الإمام أبي الحسن الأشعري رحمه الله ، والإمام أبو الحسن هو : عليّ بن إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن عبدالله بن موسى بن بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري . [ت: ٣٢٤هـ] وقد كان أبو الحسن في بداية أمره على مذهب المعتزلة ، والذي أخذه عن أبي على الجبائي شيخ المعتزلة في عصره . ثم بعد ذلك انتقل عن مذهبهم وبدأ يردّ عليهم جميع ما خالفوا فيه الحقّ . وأعلن موافقته لما يقوله أهل السنة في العقائد ، ولاسيما الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله ، ومن أشهر كتبه : الإبانة عن أصول الديانة ، ومقالات الإسلاميين واختلاف المصلين وغيرهما . وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية أن الأشعري كان في أول تحوّله عن مذهب المعتزلة على رأي ابن كلاب[عبدالله بن سعيد القطان ، أبو محمد=

إنه مما يمكن استنتاجه من خلال تقريرات كثير من أئمة الأشاعرة : أن المقتضي لاستحقاق الجزاء ووقوعه يوم الدين هو في حقيقة الأمر مجرد مشيئة الرب تعالى ، فهو جل شأنه يتفضل على من يشاء فيثيبه ، ويجوز عقلاً أن يثيب جل شأنه من عصى وكفر وفجر، وهو جل جلاله يعذب من شاء دون أن يستلزم ذلك وجود سبب من العبد يقتضي ذلك العذاب ، بل لمجرد أنه تعالى قد شاء ذلك وأراده ، ومهما فعل عز وجل في عبده فإن فعله ذلك عدل منه ، إذ كل تصرف ممكن عدل من ا لله جل جلاله لأنه متصرف في ملكه ولا آمر فوقه وليس لأحد عليه حق وليس له غرض في أفعاله تعالى . ولكن ا لله تبارك اسمه قد أخبرنا أنه يثيب الطائعين ويعاقب العاصين ولاسيما الكفرة ، فهو لايفعل خلاف ما أخبر به .

قال الباقلاني :

(فإن قال قائل : فهل يصح على قولكم هذا أن يؤلم ا لله سبحانه سائر النبيين ، وينعم سائر الكفرة والعاصين من جهة العقل قبل ورود السمع ؟.

قيل له : أجل له ذلك ولو فعله لكان جائزاً منه غير مستنكر من فعله .

فإن قال : فما الذي يؤمنكم من تعذيبه المؤمنين وتنعيمه الكافرين ؟.

=المعروف بابن كلاب (ت: بعد٢٤٠هـ)] ، ثم لمّا قدم بغداد أخذ عن الحنبلية الموجودين فيها ، وكان هذا آخر أمره .اهـ. وقد انتسب إلى الأشعري الكثير من العلماء من بعده ، وهم الذين عرفوا بالأشعرية ، وقد يكون لبعضهم آراء خاصة يخالف فيها الإمام الأشعري . ومن أهمهم : أبوبكر محمد بن الطيب المعروف بابن الباقلاني [ت:٤٠٣هـ] . وأبو منصور عبدالقاهر بن طاهر بن محمد التميمي البغدادي الاسفرائيني [ت:٤٢٩هـ].وإمام الحرمين أبو المعالي عبدالملك بن عبدا لله بن يوسف الجويني [ت:٤٧٨هـ] . ومحمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي ، أبو حامد الغزالي [ت: ٥٠٥هـ] . وأبو عبدا لله محمد بن عمر ، المعروف بفخر الدين الرازي [ت:٦٠٦هـ] . وغيرهم كثير . انظر فيما سبق : الملل والنحل ، للشهرستاني. ص :٩٤ وما بعدها . ومجموع فتاوى ابن تيمية . جـ٣ ، ص : ٢٢٨ . وتاريخ المذاهب الإسلامية ؛ محمد أبوزهرة . جـ١ ، ص ١٨٠ وما بعدها . ومذاهب الإسلاميين ؛ عبدالرحمن بدوي . جـ١، ص ٤٨٧ وما بعدها . والفرق الكلامية الإسلامية؛علي عبدالفتاح المغربي . ص : ٢٧٧ وما بعدها .

قيل له : يؤمننا من ذلك توقيف النبي صلى ا لله عليه وسلم وإجماع المسلمين على أنه لايفعل ذلك ، وعلى أنه قد أخبر أخباراً علموا قصده به ضرورة إلى أن ذلك لايكون ، ولولا هذا التوقيف والخبر ، لأجزنا ما سألت عنه .)[1].

ثم قال :

(فإن قال قائل : خبرونا عن جميع الكفرة والعصاة بضروب المعاصي ، هل كان جائزاً في العقل أن يغفر ا لله لجميعهم ؟ .

قيل له : أجل ، لو قسم جميعهم للجنة لجاز ، ولم يكن ما وجد من كفرهم وعصيانهم دليلاً على أنه يؤلمهم بالنار لامحالة ، لأن إيلام ا لله تعالى لمن يؤلمه ليس يوجد منه لِعِلَّةٍ لولاها لم يوجد ، بل جعل ا لله تعالى أفعال العباد دليلاً على ما قسمه لهم .

ويدل على ذلك أن العقاب حق له يجوز أخذه وتركه : فوجب أن يكون جارياً مجرى التفضل بإنعام غير مستحق ، ولأنّا قد علمنا جميعاً حسن ترك عقوبة الذنب ممن استحقه بجناية عليه)[2].

وقال أيضاً :

(ويجب أن يعلم أن الطاعة ليست علة الثواب ، ولا المعصية علة العقاب ، ولا يجب لأحد على ا لله تعالى شيءٌ . بل الثواب وما أنعم به على العبد فضل منه ، والعقاب عدل منه . ويجب على العبد ما أوجبه ا لله تعالى عليه ولا موجب ولا واجب على ا لله .

والحسن ما وافق الأمر من الفعل ، والقبيح ما وافق النهي من الفعل ، وليس الحسن حسناً من قبل الصورة ، ولا القبيح قبيحاً من قبل الصورة .

والدليل على الفصل الأول : أنه لا واجب عليه لأحد من الخليقة ، وأن حقيقة الواجب ما استوجب من وجب عليه الذم بتركه ، والرب تعالى عن الذمّ علواً كبيراً .

ويدل على صحة ذلك أيضاً قوله تعالى :

---

(١)- التمهيد ؛ أبوبكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت: ٤٠٣هـ) . ص : ٣٤٣ .

(٢)- المرجع السابق . ص : ٣٥١ .

﴿**ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله ...**﴾ [(١)].

فأعلم أن ذلك بفضله لا بالعمل . وأيضاً قوله تعالى :

﴿ **ولولا فضل ا الله عليكم ورحمته .....**﴾ [(٢)].

وسئل النبي صلى ا الله عليه وسلم :

[أيدخل أحد منا الجنة بعمله ؟ . فقال : ((لا)) فقيل : ولا أنت . فقال : ((ولا أنا ، إلا أن يتغمدني ا الله برحمته))] [(٣)].

[فقال له بعض الصحابة ، ففيم العمل ؟ فقال : ((اعملوا فكل ميسر لما خلق له.))] [(٤)].

وإنما وعد ا الله سبحانه بالثواب وأوعد بالعقاب ، وقوله الحق ووعده الصدق . فنصب الطاعات أمارة على الفوز بالدرجات ، والمعاصي أمارة على التردي في الهلكات ، وكل ذلك أمارة للخلق بعضهم على بعض ، لاله سبحانه وتعالى ، فإنه علم بالأشياء قبل كونها، كما قال بعضهم : تفرد الحق بعلم الغيوب فعلم ما كان وما يكون ، ومالايكون أن لوكان كيف كان يكون .) [(٥)].

ثم ذكر الدليل على أن الحسن هو ما وافق الأمر والقبيح ما خالفه ، وقال بعد ذلك :

(فإذا ثبت هذا وتقرر جاء منه أن الباري سبحانه وتعالى ليس فوقه آمر أمره ، ولاناه نهاه ، حتى تتصف أفعاله تارة بالحسن لموافقة الأمر ، ولا بالقبح لمخالفة الأمر ، بل هو المالك على الحقيقة ، يتصرف في ملكه كيف يشاء . ﴿**لايسأل عما يفعل وهم يسألون**﴾[(٦)].) [(٧)].

---

(١)- ٤٥ . الروم .

(٢)- ٢٠ . النور .

(٣)- سبق إيراد هذا الحديث كاملاً مع تخريجه من حديث عائشة المتفق عليه . انظر ص :١٨٧ .

(٤)- سيأتي بإذن ا الله ذكر هذا الحديث . انظر ص : ٢٤٦ .

(٥)-الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولايجوز الجهل به؛القاضي أبوبكربن الطيب الباقلاني البصري،ص:٤٨-٤٩.

(٦)- ٢٣ . الأنبياء .

(٧)- المرجع السابق . ص : ٥٠ .

وقال الغزالي :

(ندعي أن ا لله تعالى إذا كلف العباد فأطاعوه لم يجب عليه الثواب ، بل إن شاء أثابهم ، وإن شاء عاقبهم وإن شاء أعدمهم ولم يحشرهم ، ولا يبالي لو غفر لجميع الكافرين وعاقب جميع المؤمنين ، ولا يستحيل ذلك في نفسه ، ولايناقض صفة من صفات الإلهية ، وهذا لأن التكليف تصرف في عبيده ومماليكه ، أما الثواب ففعل آخر على سبيل الابتداء ....)[(١)].

وبين أن الثواب للمطيعين لايجب إلا بسبب الوعد به ، حتى لاينقلب كذباً وهو محال[(٢)].ثم قال :

(فإن قيل : التكليف مع القدرة على الثواب وترك الثواب قبيح . قلنا : إن عنيتم بالقبح أنه مخالف غرض المكلّف ، فقد تعالى المُكَلِّفُ وَتَقَدَّس عن الأغراض ، وإن عنيتم به أنه مخالف غرض المُكَلَّف فَمُسَلَّم ، لكن ماهو قبيح عند المُكَلَّفِ لم يمتنع عليه فعله ، إذ كان القبيح والحسن عنده وفي حقه بمثابة واحدة .)[(٣)].

ثم بين أن كون الإنسان عبداً لله تعالى يستلزم ألاّ يجب له على ا لله حقّ ، وكذلك بين تناقض من أوجب الشكر على العبد قضاءً لحق نعم ا لله تعالى ، ثم أوجب على ا لله جل شأنه الثواب على ذلك الشكر [(٤)]. ثم قال :

(وأفحش من هذا قولهم : إن كلّ من كفر فيجب على ا لله تعالى أن يعاقبه أبدا ويخلده في النار ، بل كل من قارف كبيرة ومات قبل التوبة يخلد في النار ، وهذا جهل بالكرم والمروءة والعقل والعادة والشرع وجميع الأمور ، فإنا نقول : العادة قاضية ، والعقول مشيرة إلى أن التجاوز والصفح أحسن من العقوبة والانتقام ، وثناء الناس على

---

(١)- الاقتصاد في الاعتقاد ؛ أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي(ت:٥٠٥هـ). ص:١٨٠ .

(٢)- انظر : المرجع السابق . ص : ١٨٠ .

(٣)- المرجع السابق ص: ١٨٢-١٨٣ .

(٤)- انظر المرجع السابق ص: ١٨٣ .

العافي أكثر من ثنائهم للمنتقم ، واستحسانهم للعفو أشد ، فكيف يستقبح العفـو والإنعـام ويستحسن طول الانتقام .

ثم هذا في حق من آذته الجناية وغضت من قدره المعصية ، وا لله تعالى يستوي في حقه الكفر والإيمان والطاعات والعصيان ، فهما في حق إلهيته وجلاله سيّان)[١].

ثم بين أن لحسن العقوبة فيما لو وقعت من الإنسان أحد وجهين :

الأول : (أن يكون في العقوبة زجر ورعاية مصلحة في المستقبل فيحسن ذلك خيفة من فوات غرض في المستقبل)[٢]. وهذا غير متحقق في العقوبة الأخروية .

الثاني : أن يكون في العقوبة شفاء لغيظ الجاني الذي يتألم منه ، وهذا مستحيل في حق ا لله تعالى [٣].

ثم قال الغزالي :

(فأما إيجاب العقاب حيث لا يتعلق بمصلحة في المستقبل لأحد في علم ا لله تعالى ، ولا فيه دفع أذى عن المجني عليه ففي غاية القبح ، فهذا أقوم من قول من يقول : إن ترك العقاب في غاية القبح ، والكل باطل واتباع لموجب الأوهام التي وقعت بتوهم الأغراض ، وا لله تعالى متقدس عنها ، ولكنّا أردنا معارضة الفاسد ليتبين به بطلان خيالهم)[٤].

وأمّا الآمدي فإنه بعد أن نفى وجوب الثواب والعقاب على ا لله عزوجل بناءً على نفي الغرض والعلة عن فعله جل شأنه ، وعلى نفي وجوب الصلاح والأصلح عليه ، وعلى هدم مسألة التحسين والتقبيح العقليين [٥]، قال : (وقوله تعالى : ﴿ ... **ولتجزى كلّ نفس بما كسبت ...**﴾[٦].

---

(١)- المرجع السابق ص: ١٨٣ .

(٢)- المرجع السابق ص: ١٨٣ .

(٣)- انظر المرجع السابق ص: ١٨٣ .

(٤)- المرجع السابق ص: ١٨٣ .

(٥)- انظر : غاية المرام في علم الكلام ؛ سيف الدين الآمدي [ت:٦٣١هـ] . ص: ٢٢٤-٢٤٢ .

(٦)- من الآية (٢٢) - الجاثية .

وقوله : ﴿...ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى﴾[1].

فليس المراد بها التعليل ، وإنما المراد بها تعريف الحال في المآل ، كما في قوله تعالى :

﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّاً وحزناً ...﴾ [2].

وقوله:﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله..﴾[3].

وعلى هذا يخرّج كلّ ماورد في هذا الباب من الآيات والدلالات السمعيات ، ونحن لاننكر أن ذلك مما يقع ، وإنما ننكر كونه مقصوداً بالتكليفات والأمر بالطاعات حتى يقال: إنه خلق لكذا ، أو لعلة كذا ، بل تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً)[4].

وقال ابن حزم وهو ممن وافق الأشاعرة في هذه المسألة :

(وأن الله تعالى لو عذّب الملائكة والأنبياء عليهم السلام ، ونعّم الكفار لكان عدلاً من فعله ، ولكنه لايفعل ذلك البتة ، إذ قد أخبرنا أنه تعالى لايفعله ..)[5].

ومما قيل : (إن الثواب والعقاب ليسا بالأعمال ... بل الموجب لهما هو اللطف الرباني والخذلان الإلهي المقدر لهم في الأزل)[6].

هذه بعض النصوص التي تبين رأي الأشاعرة ومن وافقهم في مسألة الجزاء على الأعمال يوم الدين .

٢- المبادئ التي يقوم عليها رأي الأشاعرة :

يقوم رأي الأشاعرة السابق على أربعة مبادئ هي :

المبدأ الأول :

(١)- من الآية (٣١) - النجم .

(٢)- من الآية (٨) - القصص .

(٣)- من الآية (٧٣) - القصص .

(٤)- المرجع السابق . ص: ٢٤١-٢٤٢ .

(٥)- الدرّة فيما يجب اعتقاده ، لابن حزم . ص: ٣١٤-٣١٥ .

(٦)- العيني على البخاري (عمدة القاري شرح صحيح البخاري) . مج: ٤ ، جـ:٨ ، ص: ٢١٣ . وقد نقل هذا الكلام عن القاضي البيضاوي .

أنه تعالى لاغرض ولاعلة ولاسبب لفعله ، بل إنما هو جل جلاله يفعل الفعل المعين لمجرد أنه قد شاءه وأراده [(١)].

وقد ذكر كثير من علماء الأشاعرة عدداً من الوجوه التي رأوا أنها تستوجب القول بنفي الغرض والعلة عن فعله تعالى [(٢)]، ولعل من أهم تلك الوجوه ، ما يأتي :

الوجه الأول :

(أنه لو فعل فعلاً لغرض لكان وجود ذلك الغرض وعدمه بالنسبة إليه : إما أن يكون على السواء أو لايكون ، فإن كان على السواء استحال أن يكون غرضاً ، وإن لم يكن على السواء لزم كونه تعالى ناقصاً بذاته كاملاً بغيره وذلك محال . فإن قلت : وجود ذلك الغرض وعدمه وإن كان بالنسبة إليه على السواء ، أما بالنسبة إلى العباد فالوجود أولى من العدم ، قلنا : تحصيل تلك الأولوية للعبد وعدم تحصيلها له إما أن يكون بالنسبة إليه على السوية ، أولا على السوية ، ويعود التقسيم الأول)[(٣)].

الوجه الثاني :

عدم وجود غرض أو علة معقولة في كثير مما خلقه الله تعالى . وضربوا لذلك أمثلة عدة [(٤)].

وأما الحكمة التي جاء الشرع بإثباتها فيقول الغزالي : إن لها أحد معنيين :

(أحدهما : الإحاطة المجردة بنظم الأمور ومعانيها الدقيقة والجليلة والحكم عليها بأنها كيف ينبغي أن تكون حتى تتم الغاية المطلوبة منها .

---

(١)- انظر : غاية المرام في علم الكلام ؛ الآمدي . ص: ٢٢٤-٢٢٨ .

(٢)- انظر : تفسير الرازي . جـ:٢٢ ، ص: ١٥٥-١٥٦ . حيث ذكر كثيراً من وجوه نفي الغرض عن فعل الله عزوجل .

(٣)- المرجع السابق . جـ:٢٢ ، ص: ١٥٦ . وانظر : غاية المرام للآمدي . ص: ٢٢٦ .

(٤)- انظر : غاية المرام للآمدي . ص: ٢٢٧ ، ومن الأمثلة المذكورة : خلق إبليس وإطالة عمره إلى آخر الدهر ، وإماتة الأنبياء ... وغير ذلك .

والثاني : أن تنضاف إليه القدرة على إيجاد الترتيب والنظام وإتقانه وإحكامه . فيقال: حكيم من الحكمة وهو نوع من العلم ، ويقال : حكيم من الإحكام وهو نوع من الفعل)[١].

واختصاراً يمكن أن يقال : إن الحكمة هي : (العلم بنظام الأمور والقدرة على ترتيبها)[٢].

وإذا كان هذا هو معنى الحكمة فليس في عدم إثابته تعالى للمطيع أو عدم عقابه للعاصي ما يناقض هذا المعنى ، إذ يكون عندئذ هذا الأمر هو الذي أحاط به تعالى علماً وحكم به ونفّذه على الوجه الذي علمه .

وأما العبث ونحو ذلك مما يُنفى عن الله سبحانه ، فهو إنما يُنفى عنه بطريق السلب المحض ، أو بطريق المجاز ، وذلك كما يطلق على الجدار إنه غافل أي خال من العلم والجهل ، وهو إطلاق مجازي إذ الجدار غير قابل في الأصل للعلم والجهل .

وكذلك العبث ، فإنه عبارة عن : فعل لا فائدة فيه ممن يتعرض للفوائد ، وهو جل شأنه منزّه عن الفوائد والغايات غيرقابل لها أصلاً [٣].

وعلى ذلك فلا يقال : إنه سبحانه إن لم يثب الطائع ويعاقب العاصي ، فإنه يوصف فعله بالعبث ، إذ هو غير قابل للاتصاف به .

ولكن الأشاعرة لم تنف وجود الفوائد والمصالح في أفعاله جل شأنه ، إلا أنهم رفضوا أن تكون باعثة له على الفعل ، وضربوا لذلك مثالاً بمن يغرس غرساً من أجل أن يحصل على الثمرة ، مع علمه بما يترتب على ذلك من منافع أخر كالاستظلال بشجرته ونحو ذلك ، قالوا : فجميع تلك الفوائد والمصالح بالنسبة إليه تعالى بمنزلة ما سوى الثمرة إلى الغارس [٤].

---

(١)- الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي . ص: ١٧١ .

(٢)- المرجع السابق . ص: ١٨٠-١٨١ .

(٣)- انظر : المرجع السابق . ص: ١٧٩ ، ١٨١ .

(٤)- انظر : حاشية الكلنبوي (اسماعيل الكلنبوي [ت:١٢٠٥هـ]) . على شرح جلال الدين الدوّاني الصديقي [ت:٩٠٨هـ] للعقائد العضدية ؛ لعضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي [ت:٧٥٦هـ] . جـ:٢، ص : ٢٠٧ .

المبدأ الثاني :

أن كلّ تصرف ممكن في باب الجزاء فإنه تصح نسبته إلى ا لله تعالى ولو فعله لكان عدلاً منه ، ولا يلحقه سبحانه الوصف بالظلم على أي تقدير ، بل الظلم غير متصور في حقه جل شأنه ، فهو إما أن يكون :

أ) التصرف في ملك الغير .

ب) التصرف بخلاف الأمر .

وكلاهما لايمكن تصورهما في حق ا لله جل جلاله لأنه تعالى :

١) المالك على الإطلاق الذي له التصرّف في ملكه كما يشاء .

٢) ليس لأحد عليه تعالى حق .

٣) ليس فوقه آمر ولا ناه ، فلا حاكم عليه من العقل أو الشرع ، ولايصح أن يقال: إنه سبحانه يجب عليه فعل كذا أو عدم فعل كذا .

جـ) ولو قيل بأن الظلم هو : وضع الشيء في غير موضعه ، فإن هذا المعنى غير متصور أيضاً في حقّ ا لله تعالى ، إذ هو المالك على الإطلاق ولاحاكم عليه ، فليس لفعله عزوجل حدّ دون حدّ ، ولا موضع يليق به دون موضع ، بل كل موضع ممكن فهو يليق به وهو من حدود أفعاله تعالى [(١)].

فالظلم مستحيل لذاته على ا لله سبحانه ، وعلى الرغم من ذلك فإنه لايمتنع أن يتمدح جل شأنه بكونه لا يفعله ، وذلك كما تمدح بعدم اتخاذه الولد ، وعدم الشريك والوليّ من الذلّ وعدم النوم ونحو ذلك ، وإن كانت هذه الأمور مستحيلة في حقه عزوجل [(٢)].

وقد قال الرازي عند بيانه لقوله تعالى : ﴿ ... **ولايظلم ربك أحداً** (٤٩) ﴾ الكهف . (معناه : أنه لايكتب عليه مالم يفعل ، ولايزيد في عقابه المستحق ، ولايعذب أحداً بجرم

---

(١)- انظر : الاقتصاد في الاعتقاد ، للغزالي ، ص: ١٨١ . و: حاشية الكلنبوي على شرح الدوّاني . جـ:٢ ، ص: ٢٠٢-٢٠٣ (الحاشية مع الشرح) .

(٢)- انظر : تفسير الرازي . جـ:٨ ، ص: ١٨٧ . جـ:٩ ، ص: ٧٤ . جـ:١٠ ، ص: ١٠٢ . جـ:٢١ ، ص: ١٣٤ .

غيره)[1].

وليس معنى ذلك أنه تعالى لو كتب على العبد ما لم يفعل ، أو زاد في عقابه ، أو عذبه بجرم غيره لكان ظالماً ، وذلك لما سبق بيانه ، ولكن الأمر كما قال الرازي :

(أنه تعالى إن عذب من لم يكن مستحقاً للعذاب فهو وإن لم يكن ظلماً في نفسه لكنه في صورة الظلم ، وقد يطلق اسم أحد المتشابهين على الآخر ، كقوله : ﴿ **وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مِثلُها** ...﴾[2])[3]، ونظائره كثيرة في القرآن .

المبدأ الثالث :

أن الأفعال لاتوصف قبل ورود الشرع بقبح أو حسن ، ولايستحقُّ صاحبها مدحاً ولاذماً ، إذ إن هذه الأوصاف ليست أوصافاً ذاتية لها ، بل هي تابعة لحكم الشرع ، بحيث لو جاء الشرع بتقبيح ما حسنه أو تحسين ما قبحه لصح ذلك .

ومادام الله جل جلاله ليس فوقه أحد يشرّع له الفعل الحسن والقبيح ، ومادام خطابه جل شأنه قد بين مدح نفسه والثناء عليه وعلى جميع أفعاله ، فإنه بناءً على ذلك لايتصور وصف أي فعل من أفعاله تعالى - ولو المقدرة - بالقبح ، بل أفعاله كلها حسنة ، سواء منها الواقعة أو المقدرة [4].

المبدأ الرابع :

أنه لايصح أن يقال إنه جل ثناؤه يجب عليه فعل أمر معين [5]، حتى لوقيل : بأن المراد

---

(١)- المرجع السابق . جـ:٢١ ، ص: ١٣٤ .

(٢)- من الآية (٤٠) - الشورى .

(٣)- المرجع السابق . جـ: ٨ ، ص: ١٨٧ .

(٤)- انظر : غاية المرام ؛ الآمدي . ص: ٢٣٣-٢٣٩ . و: شرح المواقف في علم الكلام ؛ السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني [ت:٨١٦هـ] . الموقف السادس : في الإلـهيات . ص: ٢٩٧-٣٢٠ . وانظر : شرح الدوّاني للعقائد العضدية . جـ:٢ ، ص: ٢١٣ . و: حاشية الكلنبوي على شرح الدوّاني . جـ:٢ ، ص: ٢٠٢-٢٠٤ .

(٥)- انظر : الاقتصاد في الاعتقاد ؛ الغزالي . ص: ١٦٨-١٦٩ ، : ١٨٠ . و: غاية المرام ؛ الآمدي=

بالواجب هو : (عبارة عما قدر الله تعالى على نفسه أن يفعله ولا يتركه ، وإن كان تركه جائزاً ، كما في قوله : ﴿ ثمَّ إنَّ علينا حسابهم ﴾[1]، وفي قوله : ((إني حرمت الظلم على نفسي ...))[2])[3]. وذلك (لأنه إن قيل بامتناع صدور خلافه عنه تعالى فهو ينافي ما صرح به في تعريفه من جواز الترك ، وإن لم يقل به فات معنى الوجوب ، وحينئذ يكون محصله أن الله تعالى لايترك على طريق جري العادة ، وليس ذلك من الوجوب في شيء ، وإن أطلق الوجوب عليه فهو وجوب اصطلاحي)[4].

٣- الأدلة السمعية التي يستدل بها الأشاعرة على رأيهم ووجه دلالتها :

الاستدلال الأول : الاستدلال بالنصوص التي ورد فيها أنه تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وأنه عزوجل لا يسأل عما يفعل ، فلا يطلب لفعله تعالى علة ولا سبب، بل فعله إنما هو مرتبط بمجرد المشيئة . ومن ذلك ثوابه وعقابه ، وقد وردت نصوص عدة تبين أنه جل شأنه يغفر لمن يشاء ويرحم من يشاء ، ويعذب من يشاء ويعاقب من يشاء . وهذا كله مما يؤكد الدلالة على أن جزاءه تعالى إنما هو مرتبط بمجرد مشيئته .

فمن النصوص الدالة على أن عموم فعله جل جلاله إنما هو مرتبط بمجرد المشيئة : قوله تعالى : ﴿ ... **ويفعل الله ما يشاء** (٢٧) ﴾ إبراهيم . وقوله : ﴿ ... **إنّ الله يفعل ما يريد** (١٤) ﴾ الحج . وقوله : ﴿ ... **إن الله يحكم ما يريد** (١) ﴾ المائدة [5].

ومن النصوص الدالة على أنه جل ثناؤه لايطلب لفعله علة ولاسبب ، قوله تعالى :

=ص: ٢٢٩-٢٣٠ . و: شرح المواقف . ص: ٣٢١ . و: شرح الدوّاني للعقائد العضدية . جـ:٢ ، ص:١٨٦ .

(١)- ٢٦ - الغاشية .

(٢)- الحديث رواه مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه . وبدايته : ((يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي ...)) وقد سبق تخريجه . انظر ص : ١٨٥ ، هامش : (٢) .

(٣)- شرح الدواني للعقائد العضدية . جـ:٢ ، ص: ١٨٦ .

(٤)- المرجع السابق الموضع نفسه .

(٥)- انظر على سبيل المثال تفسير الرازي لهذه الآية . جـ: ١١ ، ص: ١٢٧ .

﴿ **لايُسْأل عمّا يفعلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ** (٢٣) ﴾ الأنبياء [١].

ومن النصوص الداله على أن مغفرة ا لله ورحمته وعذابه وعقابه إنما هي مرتبطة بمجرد مشيئته : قوله تعالى : ﴿ **يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون** (٢١)﴾ العنكبوت وقوله : ﴿ **و لله مافي السماوات ومافي الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وا لله غفورٌ رحيمٌ** (١٢٩)﴾ آل عمران [٢]. وقوله: ﴿ ... **قال عذابي أصيب به من أشاء...**(١٥٦)﴾ الأعراف [٣]. ونحو ذلك .

الاستدلال الثاني : الاستدلال بالنصوص التي يذكر فيها ارتباط الجزاء - بالثواب أو بالعقاب - بسابق القضاء الإلهي ، دون أن يذكر للعمل أيّ حظٍّ في ذلك [٤]، كقوله تعالى : ﴿ **إن الذين سبقت لهم منّا الحسنى أولئك عنها مبعدون** (١٠١)﴾ الأنبياء [٥].

الاستدلال الثالث : الاستدلال بقوله تعالى : ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك و إن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** (١١٨) ﴾ المائدة .

فهذه الآية تدل على أنه جل جلاله إن أراد تعذيب الناس ، فله ذلك ، لأنهم عباده أي إنه متصرف في ملكه له أن يفعل فيه ما يشاء ، فله أن يعذبهم وله أن يغفر لهم ، وليس لأحد الاعتراض عليه [٦]. قال الرازي في تفسيره لهذه الآية :

(إنه يجوز على مذهبنا من ا لله تعالى أن يدخل الكفار الجنة ، وأن يدخل الزهاد والعباد النار ، لأن الملك ملكه ولا اعتراض لأحد عليه ، فذكر عيسى هذا الكلام

---

(١)- انظر المرجع السابق . جـ: ٢٢ ، ص: ١٥٥-١٥٦ .

(٢)- انظر المرجع السابق . جـ: ٨ ، ص: ٢٣٥ .

(٣)- انظر المرجع السابق . جـ: ١٥ ، ص: ٢١ .

(٤)- انظر ما سبق ذكره عن القاضي البيضاوي ، ص: ٢١٧ ، وهو قوله :(إنّ الثواب والعقاب ليسا بالأعمال ...) . وانظر مجموع فتاوى ابن تيمية . جـ: ٨ ، ص: ٢٧٢ . وانظر : شفاء العليل لابن قيم الجوزية . ص: ٤٥ .

(٥)- انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية . ص: ٢٦٢-٢٦٦ .

(٦)- انظر : مفتاح دار السعادة . جـ: ٢ ، ص: ١٠٦ ، ١٠٩-١١٠ .

ومقصوده منه تفويض الأمور كلها إلى الله ، وترك التعرض والاعتراض بالكلية ، ولذلك ختم الكلام بقوله ﴿ **فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ يعني أنت قادر على ما تريد ، حكيم في كل ما تفعل [1] لا اعتراض لأحد عليك ، فمن أنا والخوض في أحوال الربوبية .)[2].

الاستدلال الرابع : الاستدلال بقوله صلى الله عليه وسلم :

[((... فإنه لن يدخل الجنة أحداً عمله)) قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ . قال : ((ولا أنا ، إلاّ أن يتغمدني الله منه برحمة ...))] [3].

فهذا الحديث يدل على أن الثواب بالفضل لا بالعمل [4]. وقد استدل ابن حزم بهذا الحديث لما زعمه من أنه سبحانه لو عذب الملائكة والأنبياء ونعّم الكفار لكان عدلاً من فعله [5]. وأما قوله تعالى : ﴿ .... **ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون**(٤٣)﴾ الأعراف . فليس للدلالة على أن العمل الصالح له تأثير في إدخال صاحبه الجنة ، وإنما غاية العمل الصالح أنه علامة على كون صاحبه من أهل الجنة [6]. وقيل : (الباء في ﴿ **بما** ﴾ للسبب المجازي ...)[7]. وقيل غير ذلك .

الاستدلال الخامس : الاستدلال بقوله صلى الله عليه وسلم :

((اختصمت الجنة والنار إلى ربهما ، فقالت الجنة : يارب ، مالها [8] لايدخلها إلا

---

(١)- انظر ماسبق ذكره عن الأشاعرة في معنى الحكمة . ص: ٢١٨-٢١٩ .

(٢)- تفسير الرازي . جـ: ١٢ ، ص: ١٣٦ .

(٣)- الحديث متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها . وقد سبق ذكره كاملاً مع تخريجه ص: ١٧٨ ، هامش : (١) .

(٤)- انظر ما سبق نقله عن الباقلاني . ص: ٢١٤ .

(٥)- انظر : الدرة فيما يجب اعتقاده . لابن حزم . ص: ٣١٤-٣١٥ .

(٦)- انظر : تفسير الرازي . جـ: ١٤ ، ص: ٨٢ .

(٧)- تفسير البحر المحيط . جـ: ٤ ، ص: ٣٠٠ .

(٨)- ذكر ابن حجر في شرحه أن هنا التفاتاً ، إذ مقتضى الكلام أن يقال : مالي . وهكذا ورد في روايات أخر للشيخين . انظر : فتح الباري . جـ: ١٣ ، ص: ٤٣٦ .

ضعفاء الناس وسقطهم . وقالت النار : / يعني أوثرت بالمتكبرين /[1]. فقال الله تعالى للجنة : أنت رحمتي ، وقال للنار : أنت عذابي أصيب بك من أشاء ، ولكلٍّ واحدةٍ منكما ملؤها ، قال : فأما الجنة فإن الله لايظلم من خلقه أحداً ، وإنه ينشئ للنار من يشاء فيلقون فيها ، فتقول : هل من مزيد ، ثلاثاً ، حتى يضع فيها قدمه فتمتلئ ويرد بعضها إلى بعض ، وتقول : قط قط قط))[2].

ووجه الدلالة من هذا الحديث ظاهر ، فكما أنه سبحانه يخلق خلقاً يدخلهم النار يوم القيامة بلاسبب تقدم منهم ، فيمكن أن يدخل من يشاء من عباده المكلفين النار يوم القيامة بلاسبب ، بل لمجرد أنه شاء ذلك . وهذا يدل على أن الجزاء راجع إلى مجرد المشيئة الإلهية [3].

الاستدلال السادس : الاستدلال بقوله صلى الله عليه وسلم :

((لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه عذّبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم ...))الحديث [4].

فمن يقول : إن جزاءه تعالى إنما هو مرتبط بمجرد المشيئه دون اعتبار للأعمال ، يرى أن في هذا الحديث دلالة على ماذهب إليه ، إذ فيه تجويز أن يعذب الله عزوجل أهل

---

(١)- يُفهم من شرح ابن حجر أن هذه الجملة ساقطة من جميع نسخ البخاري عند هذه الرواية . وفي المطبوعة مثبتة هكذا في نص الحديث . انظر : فتح الباري . جـ: ١٣ ، ص: ٤٣٦ .

(٢)- هذه الرواية أخرجها البخاري في صحيحه ، قال : حدثنا عبيد الله بن سعد بن إبراهيم حدثنا يعقوب ، حدثنا أبي ، عن صالح بن كيسان عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم . فتح الباري : كتاب التوحيد (٩٧) ، باب (ما جاء في قول الله تعالى : ﴿ **إن رحمة الله قريب من المحسنين** ﴾) (٢٥) ، ح: ٧٤٤٩ ، جـ: ١٣ ، ص: ٤٣٤ .

(٣)- انظر فتح الباري . جـ: ١٣ ، ص: ٤٣٧ . فقد نقل مثل هذا القول عن المهلب .

(٤)- هذا الحديث ورد عن ابن الديلمي قال : [أتيت أبي بن كعب فقلت له : وقع في نفسي شيء من القدر ، فحدثني بشيء لعل الله أن يذهبه من قلبي ، فقال : ((لو أن الله عذب ...)) - وللحديث تتمة وهي : ((ولو أنفقت مثل أحد ذهباً في سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولو مت على غير هذا لدخلت النار ...)) قال : ثم =

سماواته وأهل أرضه جميعاً ، ولاشك أن كثيراً منهم لم يعملوا أعمالاً سيئة يستحقون بها العذاب ، وفي الحديث دلالة ظاهرة على أنه تبارك اسمه لو عذب خلقه كلهم ما كان ظالماً، وليس ذلك إلا لأنه متصرف في ملكه له أن يفعل فيه ما يشاء وليس لأحد الاعتراض عليه [(١)].

٤- إبطال المبادئ التي يقوم عليها مذهب الأشاعرة ومن وافقهم :

إن الرد الكامل على ما سبق نقله عن الأشاعرة ومن وافقهم - كما سبق قوله عند

=أتيت عبدا لله بن مسعود فقال مثل ذلك ، قال : ثم أتيت حذيفة بن اليمان فقال مثل ذلك ، قال : ثم أتيت زيد بن ثابت ، فحدثني عن النبي صلى ا لله عليه وسلم مثل ذلك .] والحديث رواه أبو داود وهذا لفظه . مختصر سنن أبي داود ؛ الحافظ المنذري : كتاب السنة ، باب : في القدر ، ح: ٤٥٣٤ ، جـ:٧ ، ص: ٦٨ . ورواه أيضاً ابن ماجه . سنن ابن ماجه : المقدمة ، باب : في القدر (١٠) ، ح: ٧٧ ، جـ: ١ ، ص: ٢٩-٣٠ ، وعنده إعادة للحديث المرفوع ، عندما ذكر مجيء ابن الديلمي إلى زيد بن ثابت . ورواه أيضاً أحمد في المسند : جـ: ٥ ، ص: ١٨٢-١٨٣ ، كرواية أبي داود . وص: ١٨٥ ، ولم يأت في هذا الموضع إلاّ مجيء ابن الديلمي إلى زيد بن ثابت ، وتحديث زيد له بهذا الحديث الذي سمعه من الرسول صلى ا لله عليه وسلم .ورواه أيضاً : الحافظ أبو بكر عمرو بن أبي عاصم الضحاك بن مخلّد الشيباني [ت٢٨٧هـ] في كتابه : كتاب السنة : في : الباب (٤٤) - بدون عنوان - ، ح: ٢٤٥ ، جـ: ١ ، ص: ١٠٩ . وروايته كرواية الإمام أحمد الثانية . وقال الألباني في تعليقه على كتاب السنة ، والمسمى : ظلال الجنة في تخريج السنة : إسناده - أي الحديث - صحيح ، ورجاله ثقات . انظر نفس الموضع المشار إليه في كتاب السنة . وكذا صحح الحديث في صحيح الجامع الصغير وزيادته ، ح: ٥٢٤٤ ، جـ: ٢ ، ص: ٩٣٠ . وقال الإمام ابن قيم الجوزية : وهذا الحديث حديث صحيح . انظر : شفاء العليل . ص: ١٩٤ . وابن الديلمي الذي ورد الحديث عن طريقه هو : أبو بُسر - بالسين المهملة والباء المضمومة - ويقال : بشر ، بالشين المجمعة وكسر الباء ، والأول أصح . واسمه : عبدا لله بن فيروز . هكذا قال المنذري في مختصر سنن أبي داود ، له . جـ: ٧ ، ص: ٦٩ .

(١)- انظر شفاء العليل . ص: ١٩٤ . وانظر : بذل المجهود في حلّ أبي داود ، للشيخ خليل أحمد السّهَارنفوري . [ت: ١٣٤٦هـ] . مع تعليق : محمد زكريا بن يحى الكاندهلوي . جـ: ١٨ ، ص: ٢٢٦. وانظر : عون المعبود شرح سنن أبي داود لأبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي . جـ: ١٢ ، ص: ٤٦٧ .

الرد على كلام المعتزلة ومن وافقهم [١]- لايتم إلا بعد البيان الكامل لما ذهب إليه أهل السنة ، ولكن لابد هنا من إيراد ردود يتبين بها بطلان المبادئ والاستدلالات التي اعتمد عليها الأشاعرة في تأييد قولهم .

إبطال المبدأ الأول : وهو أنه تعالى لاغرض ولاعلة لفعله [٢].

إن القول بأنه تعالى لاعلة ولا سبب لفعله ، بل هو جل جلاله إنما يفعل لمجرد أنه قد شاء ذلك ، هو قول غير صحيح إذ فيه إبطال لما يقتضيه إثبات صفة الحكمة الكاملة لله تعالى . قال شيخ الاسلام ابن تيمية :

(وكذلك الحكمة أجمع المسلمون على أن الله تعالى موصوف بالحكمة ، لكن تنازعوا في تفسير ذلك ، فقالت طائفة : الحكمة ترجع إلى علمه بأفعال العباد وإيقاعها على الوجه الذي أراده ، ولم يثبتوا إلا العلم والإرادة والقدرة [٣]. وقال الجمهور من أهل السنة وغيرهم : بل هو حكيم في خلقه وأمره ، والحكمة ليست مطلق المشيئة إذ لو كان كذلك لكان كل مريد حكيماً ، ومعلوم أن الإرادة تنقسم إلى محمودة ومذمومة ، بل الحكمة تتضمن ما في خلقه وأمره من العواقب المحمودة والغايات المحبوبة ، والقول بإثبات هذه الحكمة ... هو قول جماهير طوائف المسلمين من أهل التفسير والفقه والحديث والتصوف والكلام وغيرهم ، فأئمة الفقهاء متفقون على إثبات الحكمة والمصالح في أحكامه الشرعية ... وكذلك مافي خلقه من المنافع والحكم والمصالح لعباده معلوم...)[٤].

وإثبات الحكمة لله تعالى بالمعنى الذي أبانه شيخ الاسلام ابن تيمية قد جاء تقريره في القرآن الكريم بأساليب متعددة منها :

الأسلوب الأول :

التصريح بلفظ الحكمة وما تصرف منه كقوله تعالى في وصف ما جاء في القرآن

---

(١)- انظر ماسبق ص: ١٨٠ .

(٢)- انظر ماسبق ص: ٢١٧-٢١٩ .

(٣)- انظر ماسبق نقله عن الغزالي في بيان معنى الحكمة . ص: ٢١٨-٢١٩ .

(٤)- منهاج السنة النبوية ؛ ابن تيمية . جـ: ١ ، ص: ٣٤-٣٥ .

الكريم من أنباء الأقوام السابقين : ﴿ **حكمة بالغة** ...(٥)﴾ القمر . والكلام لايسمّى حكمة إلا إن كان موصلاً إلى الغايات المحمودة والمطالب النافعة (فيكون مرشداً إلى العلم النافع والعمل الصالح ، فتحصل الغاية المطلوبة ، فإذا كان المتكلم به لم يقصد مصلحة المخاطبين ولا هداهم ولا إيصالهم إلى سعادتهم ودلالتهم على أسبابها وموانعها ، ولا كان ذلك هو الغاية المقصودة المطلوبة ، ولا تكلم لأجلها ، ولا أرسل الرسل وأنزل الكتب لأجلها ، ولانصب الثواب والعقاب لأجلها ، لم يكن حكيماً ولا كلامه حكمة فضلاً عن أن تكون بالغة) [1].

الأسلوب الثاني : إخباره تعالى أنه فعل كذا لكذا وأنه أمر بكذا لكذا ، كقوله تعالى: ﴿ **ا لله الذي خلق سبع سمٰوات ومن الأرض مثلهنّ يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن ا لله على كلّ شيءٍ قدير وأن ا لله قد أحاط بكل شيءٍ علماً** (١٢) ﴾ الطلاق .

وقوله : ﴿ **رسلاً مبشرين ومنذرين لئلاّ يكون للناس على ا لله حجّة بعد الرّسل وكان ا لله عزيزاً حكيماً** (١٦٥) ﴾ النساء .

فإن قيل إن اللاّم في هذه الآيات ليست لام التعليل وإنما هي لام العاقبة[2]، أجيب : بأن هذا الأسلوب ليس هو الوحيد المثبت للعلة والسبب في أفعال ا لله تعالى ، بل هناك أساليب عدة متعاضدة تثبت ذلك ، ومن ثم فالأصل أن تكون اللام هنا لام التعليل .

وقد أجاب الإمام ابن قيم الجوزية بجواب آخر وهو : (أن لام العاقبة إنما تكون في حق من هو جاهل أو عاجز عن دفعها . فالأول كقوله : ﴿ **فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوًّا وحزناً** ... ﴾[3]. والثاني كقول الشاعر :

لِدُوا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير إلى ذهاب

وأما من هو بكل شيءٍ عليم وعلى كلّ شيءٍ قدير فيستحيل في حقه دخول هذه

---

(١)- شفاء العليل ، لابن قيم الجوزية . ص: ٣١٩.

(٢)- انظر ما سبق نقله عن الآمدي . ص: ٢١٦-٢١٧ . وانظر منهاج السنة ، لابن تيمية جـ: ١ ، ص: ٣٥ .

(٣)- من الآية ٨ ، القصص .

اللام، وإنما اللام الواردة في أفعاله وأحكامه لام الحكمة والغاية المطلوبة .)[(١)].

الأسلوب الثالث : الإتيان بـ(كي) وهي صريحة في التعليل ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ **ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فللّه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لايكون دولةً بين الأغنياء منكم** ...(٧) ﴾ الحشر[(٢)].

الأسلوب الرابع : الإتيان بما هو صريح في التعليل كقوله : ﴿**من أجل**﴾ وذلك في مثل قوله تعالى : ﴿**من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنّما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً**...(٣٢)﴾المائدة[(٣)].

الأسلوب الخامس : إخبار الله تعالى عن الحكم والغايات التي جعلها في خلقه وأمره، كقوله تعالى : ﴿ **الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم** ... (٢٢) ﴾ البقرة . فقوله تعالى : ﴿**رزقاً لكم** ﴾ إخبار عن الغاية والحكمة من إنزال الماء من السماء وإخراج الثمرات به . ومثله قوله تعالى: ﴿ **وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجاجاً** (١٤) **لنخرج به حبّاً ونباتاً** (١٥) **وجناتٍ ألفافاً**(١٦) ﴾ النبأ[(٤)].

إلى غير ذلك من أساليب كثيرة جاء بها القرآن لإثبات حقيقة حكمة الله جل شأنه البالغة في خلقه وفعله وأمره[(٥)].

وأما ماذكر من وجوه لنفي الغرض والعلة عن فعله تعالى ، فقد بين العلماء بطلانها[(٦)]، فما ذكره الأشاعرة في الوجه الأول من أنه تعالى لو كان فاعلاً لغرض وعلة

---

(١)- شفاء العليل . ص: ٣٢١ .وقد أجاب بجواب تفصيلي آخر ، انظر المرجع نفسه .ص:٣٢١-٣٢٥ .

(٢)- انظر المرجع السابق .ص : ٣٢٥-٣٢٦ .

(٣)- انظر : المرجع السابق . ص : ٣٢٨ .

(٤)- انظر المرجع السابق . ص: ٣٣١-٣٣٣ .

(٥)- انظر : في أساليب إثبات الحكمة في القرآن الكريم ، المرجع السابق . ص : ٣١٩-٣٤٣ .

(٦)- انظر : المرجع السابق . ص : ٣٤٧ وما بعدها . الباب الثاني والعشرون : في استيفاء شبه النافين للحكمة والتعليل وذكر الأجوبة عنها .

لكان ناقصاً مستكملاً بغيره [1]، قد أجيب عنه بأجوبة متعددة منها :

الجواب الأول : أنه لابد من بيان المراد من ادعاء أنه عز وجل لو كان فاعلاً لِعِلّةٍ للزم من ذلك إثبات أنه تعالى كان ناقصاً بذاته قبل إتمام ذلك الفعل :

١) فإن أريد بالنقص أنه عبارة عن عدمٍ لشيءٍ من الكمال الذي يجب أن يكون حاصلاً لله جل شأنه وأن لايتأخر حتى وجود ذلك الفعل ، فهو ادعاء باطل وغير مُسَلّم، ولايلزم من كونه تبارك اسمه يفعل لعلّة حصولها بالنسبة إليه أولى من عدمها ؛ أن يكون عادماً لشيءٍ من الكمال الواجب له ، إذ إن ذلك المراد يمتنع أن يكون كمالاً قبل حصوله.

٢) وإن أريد بالنقص أنه عبارة عن عدم لشيء ليس هو من الكمال الواجب ، فلا يسلّم بأن عدم مثل هذا الأمر يلزم منه إثبات نقص في حق الله سبحانه ، بل إن الكمال هو عدمه في الوقت الذي كان عدمه فيه أولى من وجوده ، كما أن الكمال هو وجوده في الوقت الذي يكون وجوده فيه - بقضاء الله تعالى وحكمته - أولى من عدمه . قال الإمام ابن قيم الجوزية :

(فما كان قبل وجوده عدمه أولى من وجوده ، وبعد وجوده وجوده أولى من عدمه، لم يكن عدمه قبل وجوده نقصاً ، ولا وجوده بعد عدمه نقصاً ، بل الكمال عدمه قبل وقت وجوده ، ووجوده وقت وجوده .)[2].

٣) وإن أريد بالادعاء معنى ثالثٌ فلا بد من بيانه حتى ينظر فيه .

بناء على ذلك فإن العلل الحميدة والغايات الكريمة عدمها في الوقت الذي قدر فيه تعالى ذلك هو الكمال ، ووجودها في الوقت الذي قدره جل شأنه هو الكمال . وأما افتراض عدمها في الوقت الذي قُدِّرَ فيه وجودها ، أو افتراض وجودها في الوقت الذي قدّر فيه عدمها ، فهو الذي يلزم منه إلحاق النقص بالله جل شانه . فالذي ينفي مطلقاً

---

(١)- انظر : ما سبق ص :٢١٨ .

(٢)- شفاء العليل . ص: ٣٤٨ .

العلل والغايات عن فعله تعالى هو في حقيقة الأمر من ينسب النقص إليه سبحانه ، لامن يثبتها له على الوجه الذي أراده جل شأنه [(١)].

الجواب الثاني : أنه كذلك لابد من بيان المراد من ادعاء أنه تبارك اسمه لو كان فاعلاً لِعِلّةٍ فإنه يكون مستكملاً بغيره .

١) فإن أريد به أن الحكمة المقتضية للعلل الحميدة والتي وجب وجودها إنما حصلت له تعالى من شيءٍ خارج عنه ، فهذا باطل لايقول به أحد ولايلزم مثبتي العلل ، إذ لارب غير الله سبحانه ولاخالق سواه ، ولم يستفد عز وجل من غيره أي كمال بوجه من الوجوه كما لم يستفد وجوده من غيره ، وكيف يكون غيره سبحانه هو الذي أعطاه ذلك الكمال ، وهو جل شأنه خالق كل شيءٍ وهو المقدر للعلل والغايات الحميدة والأسباب والحكم ..؟.

٢) وإن أريد به أن هذه الحكمة نفسها غير الله تعالى ، وهو جل شأنه مستكمل بها. فهذا أيضاً باطل ، فحكمته عز وجل صفة له ، وصفات الله ليست غيره جل جلاله ، (فإن حكمته قائمة به ، وهو الحكيم الذي له الحكمة ، كما أنه العليم الذي له العلم ، والسميع الذي له السمع ، والبصير الذي له البصر ، فثبوت حكمته لايستلزم استكماله بغيرٍ منفصلٍ عنه ، كما أن كماله سبحانه بصفاته وهو لم يستفدها من غيره .)[(٢)].

الجواب الثالث : أنه تعالى بإرادة حرة قد خلق هذه المحدثات بعد أن لم تكن ، فيقال: إما أن يكون هذا الخلق صفة كمال أولايكون .

١) فإن كان صفة كمال ، فإنه يمكن توجيه ماذكره منكرو العلل لمثبتيها من الإلزام إليهم ، فيقال : إنه عز وجل كان فاقداً لصفة الكمال هذه قبل إيجاد المخلوقات ، فيلزم منه كونه سبحانه ناقصاً بذاته لكمال واجب له ، فلا يصح أن يكون فاعلاً بالاختيار ، بل

---

(١)- انظر فيما سبق : شفاء العليل ، لابن قيم الجوزية . ص: ٣٤٧-٣٤٨ . وانظر : مجموع فتاوى ابن تيمية:جـ٨ ، ص : ١٤٦-١٤٧ . (الرابع من الردود) .

(٢)- انظر فيما سبق كله : شفاء العليل ، لابن قيم الجوزية . ص : ٣٤٨ . وانظر مجموع فتاوى ابن تيمية جـ٨ ، ص: ١٤٦ . (الثالث من الردود) .

هو فاعل بالوجوب الذاتي ، وإذا كان جل شأنه علة تامة لمعلوله في الأزل ، فمعنى ذلك أنه لابد أن يقارنه معلوله منذ الأزل وهذا هو القول بقدم العالم ، وهو باطل بالاتفاق ، ومن ثم فما يجيب به منكرو العلل على أصحاب هذا القول الباطل ، يجابون به على زعمهم بأنه تعالى لو كان فاعلاً لعلة لكان ناقصاً مستكملاً بغيره .

٢) وإن لم يكن الخلق صفة كمال ، فإما أن يكون :

أ- صفة نقص ، وهذا باطل بالاتفاق .

ب- أوليس صفة كمال ولاصفة نقص ، فيقال لهم : فهلاّ أثبتم أنه عز وجل يفعل لعلّةٍ، وإن كان ذلك ليس صفة كمال ولاصفة نقص ؟!.

هذا مع أن الثابت أن صفة الخالقية هي صفة كمال ، كما أن الحكمة صفة كمال لانقص فيهما بوجه . قال تعالى :

﴿ **أفمن يخلق كمن لايخلق أفلا تذكرون** (١٧) ﴾ النحل [١].

* وأما الوجه الثاني الذي ادعى فيه الأشاعرة عدم وجود غرض أو علة في كثير مما خلقه الله تعالى [٢]، فقد أجيب عنه بأجوبة منها :

الجواب الأول : أن من أثبت حكمة الله عز وجل في جميع أفعاله وأوامره لم يدع أنه قد اطلع على جميع تلك الحكم والغايات الحميدة ، بل إنما اطلع العباد على النزر اليسير من حكمه تعالى ، ووراء ما اطلعوا عليه مالا يعلمه إلا الله ، كما قال تعالى لملائكته عندما سألوه عن حكمة خلق آدم :

﴿ ... **إني أعلم مالا تعلمون** (٣٠) ﴾ البقرة [٣].

الجواب الثاني : أنه جل شأنه ليس كمثله شيء لافي ذاته ولافي صفاته ولافي أفعاله ، فلايطلب لفعله حكمة مثل الحكمة التي تطلب من المخلوقين ، بل إن جنس الحكم

---

(١)- انظر فيما سبق : شفاء العليل . ص: ٣٤٩-٣٥١ . ومجموع فتاوى ابن تيمية . جـ٨ ، ص: ١٤٦ . (الأول من الردود) .

(٢)- انظر ما سبق . ص:٢١٨ .

(٣)- انظر مجموع فتاوى ابن تيمية:جـ٨ ، ص : ٩٢-٩٣ ، ٥١٤ . وانظر : شفاء العليل . ص : ٣٦٥.

الواجب له تعالى هو مما يليق به عز وجل ، وعلى ذلك فلا يقال -على سبيل المثال -: إنه من يسّر من الناس لغيره أسباب الشرور والفساد والمعاصي فإنه لايعد حكيماً ، والله تبارك اسمه قد فعل ذلك ، فدل هذا على انتفاء العلة عن فعله سبحانه . فهذا القول باطل لأن مؤدّاه قياس حكمة الله جل جلاله بحكمة المخلوقين وهو قياس فاسد [(١)].

الجواب الثالث : (أن الأدلة القاطعة قد قامت على أنه حكيم في أفعاله وأحكامه ، فيجب القول بموجبها . وعدم العلم بحكمته في بعض الصور لايكون مسوّغاً لمخالفة تلك الأدلة القاطعة ، لاسيما وعدم العلم بالشيء لايستلزم العلم بعدمه .)[(٢)].

الجواب الرابع : أن العقلاء متّفقون على أن الفاعل إذا فعل أموراً متفقة مع مقتضى أعلى مراتب الحكمة ، وتكرر ذلك منه على الدوام ، ثم وجدوا منه أموراً لم يظهر لهم وجه حكمتها ، فإنهم يسلّمون له وجه الحكمة ، ولاينكرونها أو ينفونها عنه مطلقاً لأجل هذه الأمور . والله جل شأنه قد بهرت حكمته العقول في الكثير من أفعاله ، أفلا يستحق بعد ذلك أن يسلّم له وجه الحكمة فيما قد لايتبينه العباد ، مع اليقين بأن له جل شأنه من وراء ذلك الأمر حكماً عظيمة ..؟![(٣)].

الجواب الخامس : بيان وجوه الحكمة في كثير من الأمثلة التي ذكر نفاة العلة أنها لاتوجد فيها حكمة ظاهرة [(٤)].

وأما ماذكره الأشاعرة ومن وافقهم في معنى الحكمة الثابتة لله تعالى وفي معنى العبث الذي يتنزه عنه[(٥)]فباطل من أوجه منها :

---

(١)- انظر : شفاء العليل . ص: ٣٦٥ .

(٢)- انظر : المرجع السابق . الموضع نفسه ، بتصرف .

(٣)- انظر : المرجع السابق . ص: ٣٦٦ .

(٤)- ذكر الإمام ابن قيم الجوزية كثيراً من الأمثلة التي ادّعى نفاة العلة عدم وجود الحكمة فيها ، وأجاب عنها ببيان وجوه الحكمة في كل مثال منها . انظر : شفاء العليل . ص: ٣٦٢-٣٦٣ ، ٣٧٠ وما بعدها .

(٥)- انظر : ما سبق . ص :٢١٨- ٢١٩.

الوجه الأول : أن تفسير الحكمة بما لايشمل معنى وجود المصالح والعلل المحمودة ، تفسير مخالف لما عليه جماهير طوائف المسلمين من أهل التفسير والحديث والكلام وأئمة الفقه . فأئمة الفقهاء متفقون على إثبات الحكمة والمصالح في أحكام ا لله الشرعية، والسلف متفقون على أنه عز وجل قد خلق وأمر لحكمة وغاية محمودة (١).

الوجه الثاني : أن تفسير الأشاعرة للحكمة معارض لما يظهر لكل ناظر في أفعاله وأوامره تعالى من أنواع الحكم والمصالح التي لاحصر لها .

وأما ماذكره بعض الأشاعرة من عدم امتناع وجود تلك الحكم في أفعاله جل جلاله ، ورفضهم لأن تكون مرادة له ، فهو بناء على ماظنوه من أن إثبات كونه جل شأنه يفعل لعلّة يلزم منه إلحاق النقص به سبحانه ، وهذا ظن باطل وقد سبق الرد على بعض ماذكروه من أمور ظنّوا أنها تستوجب القول بنفي الغرض والعلة عن فعله تعالى .

وبعد فإنه يقال لهم : أيهما أكمل من كان فعله وأمره حكيماً بقصد منه وإرادة ، أم من وجدت الحكمة والمصلحة في أفعاله اتفاقاً من غير قصد ولا إرادة ؟!.

وبعبارة أخرى : فإن الحكمة وصف من أوصاف الرب تعالى مشتقة من اسمه الحكيم ، وهو جل شأنه موصوف بالحكمة على أكمل وجوهها ، فأيهما أكمل أن يوصف بالحكمة وهو يريد ويقصد متعلقاتها ، أي وجود الأمر الحكيم ذي المصالح ، أم أن يوصف بالحكمة وهو لايريد ولايقصد متعلقاتها ؟.

إن القول بكونه تبارك اسمه غير مريد لهذه العلل والغايات الحكيمة وإن كانت موجودة هو أمر لايعقل ، بل إن فعل الحيّ العالم الاختياري لالغاية ولالغرض يدعوه إلى الفعل هو من الأمور الممتنعة المستحيلة ، ولايصدر مثل هذا الفعل إلا من فاقد العقل بالجنون أوالنوم أو نحو ذلك ، فالحكمة والعلة الغائية هي التي تجعل المريد مريداً ، فإذا علم بمصلحة الفعل ونفعه وغايته توجهت إرادته إليه ، وأما إذا لم يعلم في الفعل مصلحة

---

(١)- انظر : منهاج السنة النبوية ، لابن تيمية . جـ١ ، ص ٣٤-٣٥ ، ١٢٦ . والحسنة والسيئة ، له ص:٤٠ . ومجموع فتاوى ابن تيمية . جـ٨ ، ص: ٣٨، ٨٨-٨٩ ، ٣٧٧ . وشفاء العليل ، لابن قيم الجوزية . ص : ٦١ .

ولاكان له فيه غرض صحيح فإنه لايفعله إلاّ على سبيل العبث ، والعبث محال عليه تعالى[1].

الوجه الثالث : أن القول بانتفاء حكمته سبحانه ، التي هي وضعه جل جلاله للأشياء في مواضعها وإرادته للعلل والغايات الحكيمة الحميدة في أفعاله وأوامره ، يؤدّي إلى القول بإبطال الإرادة المختارة . وقد بين الإمام ابن قيم الجوزية ذلك بقوله :

(فإن المريد لايعقل كونه مريداً إلاّ إذا كان يريد لغرض وحكمة ، فإذا انتفت الحكمة والغرض انتفت الإرادة ، ويلزم من انتفاء الإرادة أن يكون موجباً بالذات ، وهو علة تامة في الأزل لمعلوله ، فيلزم أن يقارنه جميع معلوله ولايتأخر ، فيلزم من ذلك قدم الحوادث المشهودة .....)[2]، وذلك باطل .

الوجه الرابع : إن تفسير الأشاعرة للحكمة والعبث يؤدي إلى القول بتجويز كل من الأفعال والأوامر المتقابلة على حكمته تعالى ، فيجوز أن ينسب إليه جل شأنه الأمر بكل ما نهى عنه ، والنهي عن كل ما أمربه ، وتعذيب من أطاعه ، وإثابة من عصاه إذ لافرق بين هذه الأمور وأضدادها إلا أنه تبارك اسمه قد اختار بمشيئة مجردة تلك الأضداد . وهذه النتيجة معارضة لمقتضى حقيقة حمدا لله تعالى ، إذ جل جلاله يحمد على أفعاله وأقواله وأوامره لما فيها من كمال الحكمة المتضمنة للغايات الحميدة والمصالح الجليلة . وحمد ا لله يستلزم الثناء عليه ومدحه على فعل مافعله وترك ماتركه ، فإن قيل إنه عز وجل قد اختار هذا الفعل وهذا الأمر لالعلة ولالغاية بل بمحض المشيئة ، وكان من الممكن أن يختار الفعل والأمر المقابل إذ لافرق بينهما ، لم يبق سبب للثناء عليه تبارك اسمه ومدحه في كونه اختار هذا الفعل أو الأمر . قال ابن قيم الجوزية :

(إن مجرد الفعل من غير قصدٍ ولاحكمة ولامصلحة يقصده الفاعل لأجلها لايكون متعلّقاً للحمد ، فلايحمد عليه حتى لو حصلت به مصلحة من غير قصد الفاعل لحصولها

---

(١)- انظر : شفاء العليل . ص:٣٥٢ .

(٢)- شفاء العليل . ص: ٣٥٧ .

...بل الذي يقصد الفعل لمصلحة وحكمة وغايةٍ محمودة وهو عاجز عن تنفيذ مراده أحق بالحمد من قادر لايفعل لحكمةٍ ولالمصلحة ولالقصد الإحسان ...)[١].

الوجه الخامس : بناءً على ماسبق في الوجه الرابع فإن قول الأشاعرة في الحكمة والعبث يؤدي إلى إلحاق النقص با لله تعالى ، إذ يجوز عندهم كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

(أن يعذب ا لله من هو من أبرّ الناس وأكثرهم طاعات وحسنات على سيئة صغيرة عذاباً أعظم من عذاب أفسق الفاسقين ، ويجوز عندهم أن يغفر لأفسق الفاسقين من المسلمين وأعظمهم كبائر كل ذنب ويدخله الجنة ابتداءً مع تعذيب ذلك في النار على صغيرة . ولهذا قال جمهور الناس عن هؤلاء : إنهم لاينزهون الرب عن السّفه والظلم ، بل يصفونه بالأفعال التي يوصف بها المجانين والسفهاء ، فإن المجنون والسفيه قد يعطي مالاً عظيماً لمن ليس هو له بأهل ، وقد يعاقب عقوبة عظيمة من هو أهل للإكرام والإحسان ، والرب تعالى أحكم الحاكمين وأعدل العادلين وخير الراحمين ، والحكمة وضع الأشياء مواضعها ...فكيف يجوز في حكمته وعدله ورحمته فيمن هو دائماً يفعل مايرضيه من الطاعات والعبادات والحسنات وقد نظر نظرةً منهيّاً عنها ، أن يعاقبه على هذه النظرة بما يعاقب به أفجر الفساق وأن يكون أفجر الفساق في أعلى عليين ...)[٢].

الوجه السادس : أن إنكار وجود الحكم والغايات الحميدة المرادة في أفعال ا لله تعالى؛ يؤدي إلى تبغيضه سبحانه إلى خلقه ، وقطع طريق محبته والتودد إليه .

فمثلاً ، لو قيل : إنه تعالى لالغاية ولالسبب ولالعلة ولالحكمة قد يضلّ المؤمن الصالح ويجعله من أفسق الفاسقين وأفجر الفاجرين . وإن تعذيب الطائع أو تنعيمه ، وكذا تعذيب

---

(١)- شفاء العليل . ص: ٣٦٩ . وانظر فيما سبق : شفاء العليل ص: ٣٣٤ . ومفتاح دار السعادة ، لابن قيم الجوزية جـ٢ ، ص : ١١٢ . وأعلام الموقعين ، له جـ١ ، ص: ٣٣٧ . والحسنة والسيئة ، لابن تيمية ص: ٦٥-٦٦ .

(٢)- النبوات : ص: ٩٩-١٠٠ . وانظر : شفاء العليل ص: ٣٣٤ . والجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، لابن قيم الجوزية،ص: ٢١٠ . والحسنة والسيئة ، ص : ٨٣ .

العاصي أو تنعيمه كل ذلك بالنسبة إليه سواء لافرق عنده ، لكان في مثل هذه الادعاءات أعظم تنفير للناس عن الدين وعن محبة خالقهم سبحانه . إذ يقول ضعيف الإيمان أو من يدعى إليه : وما الذي يؤمنني أن يقلب الله سبحانه إيماني كفراً وطاعاتي معاصي لالسبب ولالعلة ويعذبني بعد ذلك أشد العذاب .

فمثل هذه الافتراءات مثل الأب إذا قال لابنه وهو يريد أن يرسله إلى المعلم : إن هذا المعلم سواء عنده إن أحسنت أو أسأت أديت ماعليك أو لم تؤدّه ، بل إنه ربما يعاقبك إن أحسنت ويحسن إليك إن خالفت وعصيت ، فالأمر سيّان عنده . فلاشك أن مثل هذا الأب قد أوغر قلب ولده على معلمه وبغّضه إليه وجعله لايثق بوعده ولا وعيده ، وعلى أيسر تقدير قد أزال من قلب ابنه أيّ احترام أو تقدير لذلك المعلم الذي لافرق لديه بين المحسن والمسيء . فهل يكون في التنفير عن الله تعالى وتبغيضه إلى عباده أكثر من هذا؟[1].

الوجه السابع : أن قول الأشاعرة في الحكمة والعبث وتجويزهم للأمور المتقابلة والمتضادة على الله سبحانه مخالف للنصوص الشرعية .

ففي باب الجزاء مثلاً ، لو قيل إنه سبحانه يجوز عليه أن يسوي بين الطائع والعاصي ، فضلاً عن أن يثيب العاصي ويعذّب الطائع ، لكان في هذا الزعم مخالفة ظاهرة لمادلّ عليه قوله تعالى : ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيّئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محياهم ومماتهم ساء مايحكمون** (٢١) ﴾ الجاثية .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

(وهذا استفهام إنكار ، يقتضي الإنكار على من يحسب ذلك ويظنه ، وإنما ينكر على من ظن وحسب ماهو خطأ باطل يعلم بطلانه ، لامن ظن ظنّا ليس بخطإٍ ولاباطل ، فعلم أن التسوية بين أهل الطاعة وبين أهل المعصية مما يعلم بطلانه ، وأن ذلك من أظلم الشيء

---

(١)- انظر : الفوائد ، لابن قيم الجوزية . ص: ١٥٨-١٦٠ . والحسنة والسيئة ، لابن تيمية، ص:٦٥-٦٦ .

الذي ينزه ا لله عنه .)[1].

ونحو هذه الآية قوله تعالى :

﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنّكم إلينا لاترجعون** (١١٥) **فتعالى ا لله الملك الحقّ لاإله إلاهو ربّ العرش الكريم** (١١٦) ﴾ المؤمنون .

فلو لم يكن خلق العباد لالغاية ولالهدف ممالايجوز نسبته إلى ا لله سبحانه ، لما أنكر تعالى على من ظن هذا الظن الباطل ، وفي الآية بيان واضح لكون مثل هذا الخلق هو من العبث الذي يجب على كل مؤمن با لله أن ينزّهه عنه [2].

إبطال المبدأ الثاني : إن الاقتصار في تعريف الظلم - كما هو عند كثير من الأشاعرة- بأنه التصرف في ملك الغير أو بخلاف الأمر [3]، غير صحيح لأوجه منها :

الوجه الأول : مخالفته للتفسير الصحيح لصفة العدل [4]الإلهي ، والتي تقتضي في باب الجزاء ؛ إعطاء المكلف الجزاء الملائم لحاله[5].

وقد جاء إثبات كونه تعالى عدلاً في جزائه يوم الدين في قوله تعالى :

﴿**وتمت كلمة ربّك صدقاً وعدلاً لامبدّل لكلماته وهو السميع العليم**(١١٥)﴾الأنعام.

قرئت ﴿**كلمة**﴾ بالإفراد وبالجمع : ﴿**كلمات**﴾ وكلتا القراءتين من القراءات العشر[6].

---

(١)- منهاج السنة النبوية . جـ٢ ص: ١١ . وانظر جـ٣ ، ص: ٢٥-٢٦ . والحسنة والسيئة ، ص: ٣٨ .

(٢)- انظر : شفاء العليل . ص: ٣٣٣ . وراجع ماسبق بيانه في الدليلين الثالث والرابع من أدلة ثبوت الجزاء الأخروي . ص:٧١ وما بعدها .

(٣)- انظر ما سبق . ص: ٢٢٠ .

(٤)- العدل في اللغة يدور حول معاني : الاستقامة والحكم بالحقّ ، والحكم والجزاء الذي ليس فيه جورٌ أو ظلم أو هوى متبع ، ويأتي بمعنى التسوية والتقويم ، وكذلك يأتي العدل بمعنى : النظير والمثل والمثيل ، وبمعنى التوسط والتقويم انظر لسان العرب . مادة (عدل) . جـ١٣ ، ص : ٤٥٦ .

(٥)- انظر : منهاج السنة النبوية جـ١ ، ص : ٣٣-٣٤ . وشفاء العليل . ص : ٣٠٣ .

(٦)- انظر : تفسير فتح القدير ، للشوكاني . جـ٢ ، ص: ١٥٥ .

ومن كلمات الله تعالى : وعده ووعيده[1]، فهما من كلماته التي تمت بحسب سابق علمه ومشيئته وتقديره صدقاً ، وعدلاً فيمن سيتحقق في شأنه الوعد أو الوعيد ، فلايقع مقتضاهما من الثواب أو العقاب إلاّ على من كان أهلاً لذلك ، وهكذا سيتم الأمر فعلاً يوم الدين .

وقال تعالى :

﴿ **إليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقًّا إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط** ....(٤) ﴾ يونس .

﴿ **القسط** ﴾ : العدل [2]. وهذا في جزاء المؤمنين . وقال جل شأنه في جزاء غيرهم:

﴿ **ولو أنّ لكلّ نفسٍ ظلمت مافي الأرض لافتدت به وأسروا النّدامة لمّارأوا العذاب وقُضي بينهم بالقسط وهم لايظلمون** (٥٤) ﴾ يونس .

الوجه الثاني : مخالفته للنصوص الدالة على أنه سبحانه لا يظلم عباده يوم الدين شيئاً، والظلم في ذلك اليوم لايكون إلاّ على معنى : النقص من حسنات المكلف أو الزيادة في سيئاته بغير سبب . قال تعالى :

﴿ **ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مّما فيه ويقولون ياويلتنا مال هذا الكتاب لايغادر صغيرةً ولا كبيرة إلاّ أحصاها ووجدوا ما علموا حاضراً ولايظلم ربُّك أحداً**(٤٩) ﴾ الكهف . قال الإمام الطبري في بيان معنى قوله تعالى : ﴿ **ولا يظلم ربُّك أحداً** ﴾ : (ولا يجازي ربك أحداً يا محمد بغير ما هو أهله ، لايجازي بالإحسان إلا أهل الإحسان ولا بالسيّئة إلا أهل السيئة ، وذلك هو العدل)[3].

وقال تعالى :

﴿ **ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولاهضماً** (١١٢) ﴾ طه .

---

(١)- انظر : مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية . جـ١٤ ، ص: ٤٩٦-٤٩٨ .

(٢)- انظر : تفسير ابن كثير . جـ: ٢ ، ص: ٤٠٧ .

(٣)- تفسير الطبري . جـ: ١٥ ، ص: ٢٥٩ . وانظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية . جـ: ٨ ، ص: ٥٠٨ .

قال الإمام ابن قيم الجوزية : (قال المفسرون من السلف والخلف قاطبة : الظلم أن يحمل عليه سيئات غيره ، والهضم أن ينقص من حسنات ما عمل)[١].

وقال صلى الله عليه وسلم فيما حكاه عن ربه عزوجل :

((يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّماً فلا تظالموا ...))[٢].

وأصل التحريم في اللغة المنع ، والأمر الحرام هو الممنوع منه [٣]، والظاهر أنه سبحانه لايمتنع إلاّ عن أمر يقدر عليه جل شأنه ، ولكنه امتنع عن فعله بإرادته لحكمة بالغة [٤].

وبصفة عامة فإن الظلم في تفسيرات السلف من اللّغويين وغيرهم هو : وضع الشيء في غير موضعه [٥].

الوجه الثالث : أن التصرف بخلاف الأمر أو التصرف في ملك الغير هما صورتان للظلم ، ومع ذلك فقد لايطّرد ثبوت الظلم فيهما ، فربما يتصرف الإنسان بخلاف الأمر ولايكون ظالماً ، إذا كان أمراً بغير حقٍّ صادراً من حاكم جائر ، وقد يتصرف الإنسان في ملك غيره بحق ولايكون ظالماً ، وقد يتصرف في ملكه بغير حق فيكون ظالماً [٦].

وأما ما ذكر من أمور للدلالة على أن الظلم مستحيل عليه تعالى :

فإن الأمرين - الأول والثاني - وهما : كونه سبحانه المالك على الاطلاق ، وأنه ليس لأحد عليه حق ، لاينفيان وجود أمور يتنزه سبحانه عن فعلها لكماله مع قدرته عليها، كما دلّ عليه قوله تعالى :

---

(١)- مختصر الصواعق المرسلة . جـ: ١ ، ص: ٣١٥ .

(٢)- الحديث رواه مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه . وهو حديث طويل ، وهذه الجملة هي أول الحديث . وقد سبق تخريجه . انظر ص: ١٨٥ ، هامش (٢) .

(٣)- انظر : لسان العرب،مادة (حرم) ، جـ: ١٥ ، ص: ١١ .

(٤)- انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية . جـ: ٨ ، ص: ٥٠٨ ، جـ: ١٨ ، ص: ١٤٤ . و: مختصر الصواعق المرسلة . جـ: ١ ، ص: ٣١٦-٣١٧ .

(٥)- انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية . جـ: ٨ ، ص: ٥٠٧ ، جـ: ١٨ ، ص: ١٤٥ . و: مختصر الصواعق المرسلة . جـ: ١ ، ص: ٣١٢-٣١٣ .

(٦)- انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية . جـ: ١٨ ، ص: ١٤٥ .

﴿ **أفنجعل المسلمين كالمجرمين** (٣٥) **مالكم كيف تحكمون** (٣٦) ﴾ القلم .

فهذا فعل يتعلق بالجزاء بيّن سبحانه تنزهه عنه ببيان عقلي لا خبري مجرد [١] .

وأما الأمر الثالث : وهو كونه سبحانه ليس فوقه آمر ولاناه . فإنه لايمنع من أن يلزم نفسه جل شأنه ويحرم على نفسه ، إلزاماً وتحريماً متوافقاً مع مقتضى كمال أسمائه وصفاته، فلا يليق به تعالى نسبته إلى ضد ما ألزم نفسه به ، أو ما حرمه على نفسه .

وقد أيّدت النصوص الشرعية ذلك إذ جاءت ببيان أنه عزوجل قد أحقّ على نفسه أموراً كما قال تعالى :

﴿ **ثمّ ننجي رُسُلنا والذين آمنوا كذلك حقّاً علينا ننج المؤمنين** (١٠٣) ﴾ يونس .

وحرّم على نفسه سبحانه أموراً ، كما سبق في شأن الظلم [٢] .

وبذلك يتبين عدم صحة ما ذكره بعض الأشاعرة من أن الظلم مستحيل على الله سبحانه حتّى لو عُرِّف بأنه وضع الشيء في غير موضعه ، إذ لايوجد موضع يليق به دون موضع ، لأنه الحاكم والمالك [٣] . فقد تبين مما سبق أن الله سبحانه وإن كان هو الحاكم والمالك فإن ذلك لايمنع من وجود أمور يقدر الله أن يضعها في غير مواضعها ، ولكنه يتنزه عن ذلك لكمال حكمته وعلمه جل شأنه .

وأخيراً فإن ما ذكره الأشاعرة من أن الظلم وإن كان مستحيلاً على الله سبحانه فإنه لايمنع من أن يتمدح عزوجل بتركه، وما ذكروه من أن الظلم المنتفي عن فعل الله سبحانه والوارد في كثير من آيات القرآن الكريم ، وإن كان يدل على أنه جل شأنه لايعذب أحداً بجرم غيره ونحو ذلك،فإنه لايدل على أن فعل ذلك–بالنسبة إليه–هو من قبيل الظلم،وإنما سميت هذه الأمور بالظلم لكونها في صورة الظلم الذي يحصل من العباد[٤] .

---

(١)– انظر : منهاج السنة النبوية ، لابن تيمية . جـ: ٢ ، ص: ١١ .

(٢)– انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية . جـ: ١٨ ، ص: ١٤٧، ١٤٨–١٥١ ، ١٥٦ . وانظر : مفتاح دار السعادة ، لابن قيم الجوزية . جـ: ٢ ، ص: ١٠٦ ، ١١٠–١١٢ .

(٣)– انظر ماسبق ص: ٢٢٠ .

(٤)– انظر ما سبق . ص:٢٢١ .

هذا كله قد كان بناء على ماظنه الأشاعرة من أن الظلم مستحيل لذاته على ا لله سبحانه ، فإذا تبين بطلان هذا بما سبق إيضاحه ، تبين بطلان ما بنوه عليه .

إبطال المبدأ الثالث : وهو المتعلق بالنفي المطلق للحسن والقبح الذاتيين للأشياء ، ومن ثم فإن العقول لايمكنها إدراك حسن أيّ أمر أو قبحه قبل ورود الشرع ، بمعنى أنها لايمكنها إدراك إن كان هذا الفعل من الأفعال التي يحبها الرب جل جلاله أو هو على الضد من ذلك من الأفعال التي يكرهها [1]. وقد سبق بيان الحق عند أهل السنة في هذه المسألة ، وملخصه :

أن الحُسْن والقبح وصفان ذاتيان للأشياء ، وا لله تعالى قد جعل ذلك مستقرّاً في العقول والفطر . والعقل قد يعلم حسن بعض الأشياء الحسنة ، أو قبح بعض الأشياء القبيحة ، وقد يختلط عليه علم البعض الآخر . والشرع عندما يأتي يؤكد له ما استطاع الوصول إلى الحق بشأنه ويهديه إلى الصواب فيما حار فيه .

أمّا ا لله جل جلاله فإنه وإن لم يوجد حاكم فوقه ، فهو لكماله وحكمته لايفعل ولا يأمر إلا بالأمر الحسن ، ولا ينهى إلاّ عن الأمر القبيح ، وأما التكليف والثواب والعقاب فلا يثبت إلا بخطاب الشرع [2].

وما ذكر هنا من أنه جل شأنه قد بيّن في خطابه مدح نفسه والثناء عليه وعلى جميع أفعاله [3]، فالجواب : أنه عزوجل قد مدح أفعاله في خطابه لوقوعها على الكامل من وجوه الحكمة على الدوام .

إبطال المبدأ الرابع : وهو القول بعدم جواز الإيجاب والتحريم على ا لله سبحانه [4].
وقد سبق بيان وجه الحق عند أهل السنة في هذه المسألة ، وملخصه :

إن ا لله تبارك اسمه لايمتنع في نفسه الوجوب والتحريم ، ولكن ليس البشر هم الذين

---

(١)- انظر ماسبق . ص: ٢٢١ .

(٢)- انظر ماسبق . ص: جـ: ١ ، ص: ٤٠-٤٣ .

(٣)- انظر ماسبق . ص: ٢٢١ .

(٤)- انظر ماسبق . ص: ٢٢١-٢٢٢ . .

يوجبون ويحرمون عليه تعالى ، بل هو جل شأنه يوجب ويحرم على نفسه أموراً هي من مقتضى كمال أسمائه وصفاته ومن مقتضى حكمته البالغة [1].

وما ذكره بعض الأشاعرة هنا من أن ماقدره جل جلاله على نفسه أن يفعله أو أن لا يفعله ، لايعني أنه تعالى قد وجب عليه أمر وحرم عليه آخر للسبب الذي ذكروه [2]. فإن هذا السبب هو في حقيقة الأمر من قبيل المغالطة . فقوله :

(إن قيل بامتناع صدور خلافه عنه تعالى فهو ينافي ماصرح به في تعريفه من جواز الترك) يجاب عنه : بأن ما ذكر في التعريف من أن الواجب : (عبارة عما قدر الله تعالى على نفسه أن يفعله ولا يتركه ، وإن كان تركه جائزاً) . يدل على أن الترك إنما كان جائزاً قبل تقدير الله على نفسه ، وأما بعد التقدير فلم يعد الترك جائزاً . فليس قوله (وإن كان تركه جائزاً) على إطلاقه . والله أعلم .

٥- الرد على الاستدلالات السمعية التي استدل بها الأشاعرة ومن وافقهم على مذهبهم :

الرد على الاستدلال الأول : وهو الاستدلال بالنصوص التي تتضمن الدلالة على أنه عزوجل يفعل ما يشاء- يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء - وأنه جل جلاله لايسأل عما يفعل [3]:

إن هذه النصوص ليست فيها دلالة على بطلان الغايات والعلل المحمودة في أفعاله تعالى ، فعموم مشيئته تعالى لايناقض أنه جل شأنه لايشاء ولايريد إلا ما يناسب حكمته ، وهذا كما أنه تبارك اسمه مع ثبوت عموم المشيئة له لايشاء ولايريد إلا ما علم أنه سيكون، (فلو قيل : هل يجوز أن يشاء ما علم أنه لايكون ؟ لم يجز ذلك باتفاقهم لمناقضة علمه ، والعلم يطابق المعلوم ، فكيف يشاء ما يناقض حكمته ...) [4].

---

(١)- انظر ماسبق . ص: ٤٣-٤٥ ، ٢٤١ .

(٢)- انظر ماسبق . ص:٢٢١-٢٢٢ ..

(٣)- انظر ماسبق . ص: ٢٢٢-٢٢٣ .

(٤)- النبوات ؛ ابن تيمية . ص: ١٠٠ .

فالله سبحانه يفعل ما يشاء ، ويكون فعله وأمره وحكمه مقارناً لحكمته المقتضية لوضع الأشياء مواضعها ، والمتضمنة لإثبات الأسباب والغايات والعلل المحمودة [(١)].

وأما قوله تعالى : ﴿ **لايُسأل عما يفعل** ...(٢٣) ﴾ الأنبياء .

فإن معناه أنه جل شأنه لايسأل عما يفعل لكمال حكمته ، المتضمنة لما سبق بيانه ، فلا يبقى مجال لاعتراض معترض عليه جل جلاله ، وأيضاً فهو تبارك اسمه لايُسأل عما يفعل لأنه الرب المالك ، وبذلك تدل هذه الآية على تمام المدح ، فيكون عزوجل لايسأل عما يفعل لكمال ملكه وكمال حمده .

هذا مع أن سياق الآية الكريمة إنما هو في معنى آخر ، إذ يقول جل شأنه :

﴿ **أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون** (٢١) **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله ربِّ العرش عما يصفون** (٢٢) **لايسأل عمّا يفعل وهم يسألون**(٢٣) ﴾ الأنبياء .

فسياق الآية ليس في بيان أنه تعالى يفعل لالحكمة ولا لغاية مطلوبة بل يفعل بمجرد المشيئة ، وإنما سيقت للدلالة على توحيده سبحانه وبطلان إلهية ما سواه ، إذ إن كل ما عداه مسؤول مربوب وهو وحده جل شأنه ليس فوقه من يسأله عما يفعله ، فهو وحده المستحق للتفرد بالإلهية [(٢)].

وبناءً على ماسبق فإن كونه عزوجل يغفر لمن يشاء ويرحم من يشاء ويعذب من يشاء، لايدل على أنه يفعل ذلك بلاسبب ولا علة ، بل كل فعل من هذه الأفعال له سبب يتوافق مع عظيم حكمة الله تعالى .

الرد على الاستدلال الثاني وهو : الاستدلال بالنصوص التي يذكر فيها ارتباط الجزاء بسابق القضاء الإلهي [(٣)].

---

(١)- انظر : طريق الهجرتين ، لابن قيم الجوزية . ص: ٧١٧ ، و: شفاء العليل ، له . ص: ٤٤١-٤٤٢ .

(٢)- انظر : مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية . جـ: ٨ ، ص: ٥١١ . و: مختصر الصواعق المرسلة ، لابن قيم الجوزية . جـ: ١ ، ص: ٣١٨-٣١٩ . و: شفاء العليل . ص: ٤٤٢ .

(٣)- انظر ماسبق . ص: ٢٢٣ .

إن ارتباط الجزاء بسابق القضاء الإلـهي لايعني انتفاء سببية العمل للجزاء ، وذلك لأن قضاء ا لله عزوجل مثله مثل سائر أوامره وأفعاله ، فكما هو قائم على أساس مشيئته جل شأنه غير المقيدة هو كذلك قائم على أساس حكمتـه البالغة ، بمعنى أنه تعالى إذا قضى للعبد بأمر ما ، فإنه يقضيه له بأسبابه الموصلة له ، فإذا سبق من ا لله قضاء لعبد بأن يكون له ولد ، فإنه جل شأنه قد قضاه له بحسب سنته التي جعلها للحصول على ذلك الولد ، أي أنه قضاه له بأسبابه الموصلة إليه من الزواج والحمل والولادة ...، فإذا قال إنسان بأن ا لله تعالى إذا كان قد قضى لي بولد ، فإنه سيكون لي ولد سواء تزوجت أم لا ، فإن هذا الإنسان يكون ضالاً جاهلاً با لله وبسننه التي جعل الوجود قائماً عليها .

ونحو ذلك الأمراض فهي كذلك من قدر ا لله تعالى ، والشفاء منها من قدره عزوجل، وقد جعل ا لله بحكمته لذلك الشفاء أسباباً من الرقى والأدوية ونحوهما ، وهذه الأسباب هي كذلك من قدره . وقد سأل أحد الصحابة رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم فقال : [يا رسول ا لله ، أرأيت رُقىً نسترقيها ودواءً نتداوى به وتقاةً نتقيها هل تردُّ من قدر ا لله شيئاً ؟ قال : ((هي من قدر ا لله .))] (1) .

فكما أن الغايات هي من قدر ا لله عزوجل ، فكذلك الأسباب الموصلة إليها هي من قدره ، ولابد أن يقوم العبد بأداء السبب ليصل إلى الغاية المقدرة .

فكذلك شأن الجزاء ، فإذا كان جل جلاله قد قضى لعبد بالمصير إلى الجنة أو النار ، فإنه جل شأنه يقضيه بأسبابه التي توصل العبد إلى ذلك المصير ، والتي علم ا لله أن العبد سيقوم بها . وقد ظن البعض على عهد رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم أنه يكفي العبد الاتكال على سابق قضاء ا لله تعالى له بالدار التي ستكون مصيره ، فبين لهم الرسول صلى ا لله عليه وسلم أنه لابد من العمل إذ هو السبب الذي ينال به الإنسان ذلك المصير المقدر .

---

(١)- رواه الترمذي عن أبي خزامة عن أبيه . عارضة الأحوذي : أبواب الطب ، باب : ما جاء في الرقى والأدوية ، جـ: ٨ ، ص: ٢٢٤ . وقال الترمذي عن الحديث : هذا حديث حسن صحيح . وذكر الترمذي أن الحديث في بعض الروايات: عن أبي خزامة عن أبيه . وفي بعضها : عن أبي خزامة أنه سأل النبي صلى=

[كان النبي صلى ا لله عليه وسلم في جنازة ، فأخذ شيئاً فجعل ينكت به الأرض ، فقال : ((ما منكم من أحدٍ إلاّ وقد كُتِبَ مقعده من النار ، ومقعده من الجنة)) قالوا : يا رسول ا لله ، أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل ؟ قال : ((اعملوا فكلّ ميسّر لما خلق له، أمّا من كان من أهل السعادة فيُيسّر لعمل أهل السعادة ، وأمّا من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل الشقاوة)) ثم قرأ﴿**فأمّا من أعطى واتقى*وصدق بالحسنى**﴾))(1) الآية](2) .

فلا يلزم من الإيمان الواجب بالقدر ، نفي سببية الأعمال للجزاء الذي ينال المرء يوم الدين، بل إن ذلك الإيمان يجب أن يكون دافعاً لصاحبه إلى الاجتهاد في تحصيل الأعمال التي جعلها ا لله بحكمته سبباً للوصول إلى النعيم الخالد ، والاجتهاد في البعد عن الأعمال السيئة التي جعلها ا لله سبباً للوصول إلى العذاب الأليم . قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

(وأما قوله تعالى : ﴿ **إن الذين سبقت لهم منّا الحسنى أولئك عنها مبعدون**(١٠١)﴾ الأنبياء .

فمن سبقت له من ا لله الحسنى فلابد أن يصير مؤمناً تقيّاً فمن لم يكن من المؤمنين لم يسبق له من ا لله حسنى ، ولكن إذا سبقت للعبد من ا لله سابقة استعمله بالعمل الذي يصل به إلى تلك السابقة ، كمن سبق له من ا لله أن يولد له ولد فلابد أن يطأ امرأة يحبلها، فإن ا لله سبحانه قدر الأسباب والمسببات ، فسبق منه هذا وهذا . فمن ظن أن

=ا لله عليه وسلم . وصحح القول الأول . وفي تقريب التهذيب ، لابن حجر . باب الكنى . حرف الخاء المعجمة ، ترجمة : ١٣، جـ٢ ، ص: ٤١٧ . قال (أبو خزامة .... السعدي ، أحد بني الحارث بن سعد بن هذيم ، يقال اسمه زيد بن الحارث ، ويقال الحارث ، وكلاهما وهم . وهو صحابي له حديث في الرقى . وقلبه بعض الرواة).اهـ .

(١)- الآيتان : ٥-٦ . سورة الليل .

(٢)- متفق عليه عن علي رضي ا لله عنه . واللفظ للبخاري . فتح الباري : كتاب : التفسير (٦٥) ، سورة ﴿ **والليل إذا يغشى** ﴾ (٩٢) ، باب ﴿ **فسنيسره لليسرى** ﴾ (٧) ، ح: ٤٩٤٩ ، جـ: ٨ ، ص: ٧٠٩ . وانظر : شرح النووي على مسلم : كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته ، جـ: ١٦ ، ص: ١٩٥-١٩٧ ، (عدة روايات) .

أحداً سبق له من الله حسنى بلاسبب فقد ضل ، بل هو سبحانه ميسر الأسباب والمسببات ، وهو قد قدّر فيما مضى هذا وهذا)[١].

الرد على الاستدلال الثالث : وهو الاستدلال بقوله تعالى : ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك ...**(١١٨) ﴾ المائدة[٢].

لقد بين الإمام ابن قيم الجوزية[٣]عدم صحة ادعاء أن المراد بقوله تعالى : ﴿**فإنهم عبادك** ﴾ هو : أنه عز وجل المالك لهم المتصرف فيهم بما يشاء ، إذ هذه العبارة عبارة ثناءٍ على الله عز وجل وأي ثناءٍ في قولنا : إنه تبارك اسمه إذا عذّب فلاناً فإنه قادر على ذلك ، سواء عذبه بسبب أو بدون سبب ؟ وهل له جل جلاله إرادة خاصة بالتعذيب لمجرد التعذيب ؟.

إن أحداً لايشك في أنه جل شأنه قادر على أن يعذب من شاء من عباده ، ولكن التعذيب ليس أمراً مراداً للربّ لذاته [٤]، لأنه ليس في تعذيب القادر تعذيباً مجرداً عن الأسباب مايتضمن أن يمدح ويثنى ويحمد على فاعله . والرب تعالى أفعاله كلها محمودة ومرتبطة بحكمته وعدله ، فلايعذب بلاسبب لمجرد أنه قادر على ذلك مالك لمن يعذبه لا آمر فوقه ولاناهي [٥].

---

(١)- مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية . جـ: ٨ ، ص: ٢٦٦ . وانظر فيما سبق : مجموع الفتاوى . جـ: ٨ ، ص: ٦٨-٦٩ ، ٢٧٢-٢٧٧ ، ٢٨٠-٢٨٧ . و: شفاء العليل ، ص: ٤٥-٤٨ . و:الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي . ص: ٢٧،٣١ . و: مفتاح دار السعادة ، جـ: ١ ، ص: ١٠ .

(٢)- انظر ما سبق : ص: ٢٢٣-٢٢٤ .

(٣)- انظر : مفتاح دار السعادة ، لابن قيم الجوزية . جـ٢ ، ص: ١٠٩ .

(٤)- قال تعالى : ﴿**مايفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليماً (١٤٧)** ﴾ النساء انظر في بيان وجه الدلالة من هذه الآية ص: ٢٥٦ .

(٥)-انظر : الحسنة والسيئة ، لابن تيمية . ص: ١٣٢-١٣٣ . وحادي الأرواح ، لابن قيم الجوزية . ص:٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٢ . ومختصر الصواعق المرسلة ، له جـ١ ، ص : ٣٤٥-٣٥٤ ، ٣٧٦ .

بناء على ذلك فقد ذكر رحمه الله عدة أوجه يصح أن يحمل عليها قوله تعالى : ﴿فإنهم عبادك﴾ على وجه يتحقق فيه معنى مدح الله تعالى وحمده .

ومن ذلك الأوجه التالية :

الوجه الأول : أن هذا القول يتضمن الإخبار عن غاية عدل الله تعالى ، والمعنى : أنه جل شأنه إن عذب هؤلاء ، فقد عذّب عبيده الذين سبقت لهم منه تعالى سابقة الإحسان والإنعام عليهم بإيجادهم من العدم ورزقهم والإحسان إليهم بشتّى ضروب الإحسان من غير سبب تقدم منهم أو وسيلة توسلوا بها إلى ذلك ، إنما هو جل جلاله من ابتدأهم بنعمه وفضله ، فمن ابتدأ عبيده بتلك النعم الجليلة من غير سبب منهم ، كيف يكون منه يوم الدين تعذيبهم أعظم العذاب بلاسبب منهم . ولايقال إنه كما ابتدأهم بضروب الإنعام بلاسبب فكذلك يجوز أن يعذبهم بلاسبب ، للفرق بينهما[1] . فلا يعذب تبارك اسمه عبيده إلاّ بجرمهم واستحقاقهم وظلمهم .

الوجه الثاني : أن المراد بقوله : ﴿فإنهم عبادك﴾ أي : إنهم عباده الذين كان يقتضي هذا الوصف منهم أن يعبدوه جل جلاله وحده ويعظموه ويحمدوه ويسبحوه وينزهوه عن النقائص ويجلّوه أعظم الإجلال ، إذ هو تعالى ربهم وسيدهم وخالقهم والمنعم عليهم ، ومابهم من نعمة فمنه وحده ، ولكنهم لما خالفوا مقتضى وصف العبودية ، فأشركوا بالله وعدلوا به ونسبوا إليه النقيصة استحقوا العذاب على تفريطهم ذلك .

الوجه الثالث : وهو قريب من الوجه الأول . قال في بيانه الإمام ابن قيم الجوزية :

(إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وشأن السيد المحسن المنعم أن يتعطف على عبده ويرحمه ويحنو عليه ، فإن عذبت هؤلاء وهم عبيدك لاتعذبهم إلا باستحقاقهم وإجرامهم ، وإلاّ فكيف يشقى العبد بسيده وهو مطيع له متّبع لمرضاته .)[2] .

الرد على الاستدلال الرابع وهو : الاستدلال بقوله صلى الله عليه وسلم : ((...لن يدخل الجنة أحداً عمله ...)).الحديث [3] .

---

(١)- انظر ص:٢٤٧ مع هامش (٤) ، وانظر عن الفرق بين الإنعام والتعذيب ص:٢٥٨ .

(٢)- لهذا الوجه والوجهين السابقين ، انظر مفتاح دار السعادة . جـ٢ ، ص : ١٠٩ .

(٣)- انظر ما سبق . ص: ٢٢٤.

لقد سبق عند ذكر الردود على استدلالات المعتزلة على وجوب الثواب على ا لله سبحانه بمجرد العمل الصالح ؛ ذكر الوجه الصحيح للجمع بين دلالة هذا النص ودلالة النصوص الأخرى التي تثبت أن دخول الجنة بالأعمال ، كقوله تعالى : ﴿ ... **ونـودوا أن تلكم الجنّة أورثتموها بما كنتم تعملون** (٤٣) ﴾ الأعراف[١].

وملخص القول فيه : أن ماورد من النصوص دالاً على كون دخول الجنة هو بالأعمال ، فهو إنما يدلّ على أن الأعمال سبب لدخولها . وأمّا ما ورد دالاً على نفي أن يكون دخول الجنة بالأعمال ، فهو إنما يدل على أن الأعمال لاتكون أبداً أمراً مكافئاً للثواب ، بل لولا فضل ا لله ورحمته ما دخل الجنّة أحد [٢].

الرد على الاستدلال الخامس وهو : الاستدلال بقوله صلى ا لله عليه وسلم : ((....وإنه ينشئ للنار من يشاء فيلقون فيها ....)) الحديث [٣]:

لقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية ومن بعده الإمام ابن قيم الجوزية خطأ الاستدلال بهذه الرواية ، بسبب وقوع غلط فيها تكشفه سائر الروايات لهذا الحديث والواردة في الصحيحين ، من تلك الروايات الصحيحة ، قوله صلى ا لله عليه وسلم :((تحاجت الجنة والنار ، فقالت النّار : أوثرت بالمتكبّرين والمتجبّرين ، وقالت الجنّة : مالي لايدخلني إلاّ ضعفاء الناس وسقطهم . قال ا لله تبارك وتعالى للجنّة : أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي ، وقال للنار : إنما أنت عذاب أعذّب بك من أشاء من عبادي ، ولكلّ واحدة منهما ملؤها . فأمّا النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله ، فتقول : قط قط قط ، فهنالك تمتلئ ويزوي بعضها إلى بعض ، ولايظلم ا لله عز وجل من خلقه أحداً ، وأمّا الجنّة فإن ا لله عز وجل ينشئ لها خلقاً .))[٤].

---

(١)- انظر ما سبق . ص:١٨٦-١٨٩ .

(٢)- انظر ما سبق . ص : ١٨٨ .

(٣)- انظر ماسبق . ص: ٢٢٤-٢٢٥ .

(٤)- متفق عليها عن أبي هريرة رضي ا لله عنه . واللفظ للبخاري . فتح الباري : كتاب التفسير (٦٥) ، تفسير سورة ﴿ق﴾ (٥٠) ، باب : ﴿**وتقول هل من مزيد**﴾ (١) ، ح: ٤٨٥٠ ، جـ٨، ص: ٥٩٥=

ففي الرواية التي وقع فيها الغلط انقلب لفظ الحديث على بعض الرواة فبدل أن يذكر أن الله يخلق للجنة أهلاً - كما جاء في سائر الروايات الأخرى والواردة في الصحيحين - ذكر أنه عز وجل يخلق للنار أهلاً ، ويشير إلى وقوع الغلط في الرواية الأولى ماقد جاء فيها عند ذكر الجنة : أنه تعالى لايظلم من خلقه أحداً ، والمعنى : أنه جل جلاله لايظلم أحداً فيحرمه دخول الجنة إن كان من المتقين(١) .

وأما النار فإنه ينشئ لها خلقاً يدخلهم إياها بلا سبب ، وفي الرواية الثانية جاء فيها : أنه تعالى لايظلم من خلقه أحداً فيدخله النار بلاسبب ، وأما الجنة فإنه ينشئ لها خلقاً .

وبالتدبر يتبين أن ماجاء في الرواية الثانية أصح مما جاء في الرواية الأولى . إذ كيف لايظلم جل شأنه من خلقه أحداً فيحرمه دخول الجنة وقد تحقق في شأنه سبب دخولها - كما في الرواية الأولى- ثم يدخل من شاء النار بلاسبب أصلاً ؟! ومعنى الظلم في الحال الثانية أوضح من الحال الأولى . وأماماجاء في الرواية الثانية فإنه متناسق متوافق لايظهر فيه أي اضطراب ، إذ لايظلم جل شأنه أحداً فيدخله النار بلاسبب ، وفضله واسع فلايمنع أن يخلق من شاء فيدخله الجنة .

=وانظر شرح النووي على مسلم : كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب : جهنم أعاذنا الله منها ، جـ١٧ ، ص :١٨٢-١٨٣ . وفي هذا الموضع لمسلم عدة روايات لهذا الحديث عن عدد من الصحابة ليس في أيّ منها ماجاء في الرواية التي وقع فيها الغلط . وللبخاري موضع آخر ذكر فيه الرواية على الوجه الصحيح . انظر : فتح الباري : كتاب التوحيد (٩٧) ، باب : قول الله تعالى :﴿**وهو العزيز الحكيم**﴾ (٧) ، ح: ٧٣٨٤ ، جـ١٣ ، ص : ٣٦٩ . قال شيخ الاسلام ابن تيمية بعد أن أشار إلى الرواية التي وقع فيها الغلط :(والبخاري رواه في سائر المواضع على الصواب ليبيّن غلط هذا الرواية ، كما جرت عادته بمثل ذلك إذا وقع من بعض الرواة غلط في لفظ ذكر ألفاظ سائر الرواة التي يعلم بها الصواب .), منهاج السنة النبوية . جـ٣، ص : ٢٥ . وانظر : فيما سبق طريق الهجرتين ، لابن قيم الجوزية . ص: ٦٧٨-٦٨٠ . وحادي الأرواح . ص: ٣٢٨.

(١)- انظر : فتح الباري . جـ١٣ ، ص : ٤٣٧ .

وإذا كانت جهنم لاتمتلئ حتى يضع الجبار فيها قدمه- كما هو ثابت في الروايتين- فما الغاية من خلق من يعذب في النار أبداً بلاسبب ؟!.

بناء على ذلك فإنه لايصح الاستدلال بالرواية التي وقع فيها الغلط[(١)]. وا لله أعلم .

الرد على الاستدلال السادس وهو : الاستدلال بقوله صلى ا لله عليه وسلم : ((لو أن ا لله عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ...)) الحديث[(٢)].

إن هذا الحديث يمكن حمله على أوجه عدة لاتتعارض مع عدل ا لله جل شأنه ، ولامع كونه تعالى لايظلم أحداً من خلقه فيعذبه بلاسبب مطلقاً ، ولا مع حكمته جل جلاله البالغة ، ومن هذه الأوجه :

الوجه الأول : أن يحمل على معنى أنه تعالى لو عذب جميع خلقه لعذبهم على أمر استحقوا به ذلك العذاب فلا يكون ظالماً لهم ، وذلك بأن يمتحنهم مثلاً بأمر فلا يؤدون ما عليهم على الوجه المطلوب ، فيتحقق فيهم سبب للعذاب ، فيعذبهم[(٣)].

الوجه الثاني : أن العبد - كما سبق بيانه[(٤)]- مقصر حتماً فيما يجب لربه عليه من عبادة وشكر ، تقصيراً ناتجاً عن غفلة وجهل وإعراض ونحو ذلك ، وكذلك فإن أعماله الصالحة لاتفي بشكر اليسير من نعمه تعالى ... إلى غير ذلك من أسباب تأتي على ما يقدمه من حسنات .

وعلى ذلك فإنه لو عومل بمجرد عدل ا لله تعالى ونوقش الحساب لرجحت كفة

---

(١)- وهناك تخريجات أخرى للرواية التي وقع فيها الغلط ، وهي كذلك تبطل الاستدلال بها على جواز أن يعذب ا لله أحداً من خلقه بلاسبب . ومن تلك التخريجات : أن هؤلاء الذين ينشئهم ا لله ويدخلهم النار هم مخلوقات من غير ذات الأرواح كالأحجار مثلاً ، أولها روح ولكنها لاتتعذب بالنار ، أو أن المراد بالإنشاء هو ابتداء إدخال الكفار الذين استحقوا دخول النار بسبب أعمالهم ، فالإنشاء إنشاء إدخال ، لا إنشاء بمعنى ابتداء خلق من يدخله ا لله النار ، بلاسبب . انظر : فتح الباري .جـ١٣ ، ص:٤٣٧ .

(٢)- انظر ماسبق ص: ٢٢٥-٢٢٦ .

(٣)- انظر : مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية . جـ: ١٨ ، ص: ١٤٣ . و: مختصر الصواعق المرسلة، لابن قيم الجوزية . جـ: ١ ، ص: ٣٣٥ .

(٤)- انظر ص: ١٨١-١٨٥.

ذنوبه وتقصيراته على كفة حسناته ، ولعذب بعدل الله تعالى .

ويؤيد هذا أنه صلى الله عليه وسلم قال في الحديث : ((... ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم)) . فهذا يدل على أن سبب التعذيب - لو وقع - هو عدم استقلال الأعمال الصالحة بنجاة صاحبها من العذاب ، لأنه لابد أن تشملهم الرحمة ليتحقق لهم النجاة من العذاب والفوز بالثواب ، وهذا لاينفي كون الأعمال الصالحة سبباً لنيل تلك الرحمة [(١)].

ويؤكد المعنى الوارد في هذا الحديث قوله صلى الله عليه وسلم : ((من قال لاإله إلا الله دخل الجنة ووجبت له الجنة . ومن قال سبحان الله وبحمده مائة كتب الله له ألف حسنة وأربعاً وعشرين حسنة)) قالوا : يا رسول الله ، إذاً لايهلك منّا أحد ! . قال ((بلى ، إن أحدكم ليجيء بالحسنات لو وضعت على جبل أثقلته ، ثم تجيء النعم فتذهب بتلك ، ثم يتطاول الرب بعد ذلك برحمته))[(٢)].

وقوله صلى الله عليه وسلم : ((لو أن رجلاً يجرّ على وجهه من يوم ولد إلى يوم يموت هرماً في مرضاة الله عزوجل لحقره يوم القيامة))[(٣)].

وقد يعترض على ماسبق بأن تعذيب المؤمن كالكافر يتعارض مع حكمة الله تعالى إذ يتساوى مصيرهما وقد بين تعالى أنه يتنزه عن ذلك . قال جل شأنه : ﴿ **أفنجعل المسلمين كالمجرمين** (٣٥) **مالكم كيف تحكمون** (٣٦) ﴾ القلم .

---

(١)- انظر : منهاج السنة النبوية . جـ: ١ ، ص: ١٣٠ . و: شفاء العليل ، ص: ١٩٥-٢٠٤ . و: مختصر الصواعق المرسله ، جـ: ١ ، ص: ٣٣١-٣٣٤.و : مفتاح دار السعادة ، جـ: ١ ، ص: ٩ . و: طريق الهجرتين ، ص: ٥٠٩ .

(٢)- رواه الحاكم في المستدرك . عن : أبي طلحة الأنصاري رضي الله عنه . كتاب : التوبة والإنابة ، جـ: ٤ ، ص: ٢٥١ . وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي .

(٣)- رواه أحمد في : المسند . عن : عتبة بن عبد رضي الله عنه . جـ: ٤ ، ص:١٨٥. وقال الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادة : حسن . ح: ٥٢٤٩ ، جـ: ٢ ، ص: ٩٣١ . وعند أحمد في نفس الموضع بعد هذا الحديث مباشرة ، أثر آخر رواه عن : محمد بن أبي عميرة وكان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال : [لو أن عبداً خرَّ على وجهه من يوم ولد إلى أن يموت هرماً في طاعة الله ، لحقره ذلك اليوم ، ولودّ أنّه يردّ إلى الدنيا كيما يزداد من الأجر والثواب] .

والجواب : أن الحديث لم يذكر أنه تعالى لو عذب الجميع لخلدهم في العذاب ، ومن ثم فإنه جل جلاله لو كان منه ذلك ، لعذب كلاًّ بالقدر الذي يستحقه بعدله تعالى ثم يخرج المؤمنون من تلك الدار ، فلا يتساوى مصير المؤمنين والكافرين .

على أن الحديث لم يصرح بأن التعذيب هو تعذيبٌ بالنار ، فلعله يقتصر في تعذيب من أحسن عمله ولكنه نوقش الحساب بحرمانه من الثواب .

قال الإمام ابن قيم الجوزية : (فإذا حرم- أي : العبد- جزاء العمل الذي ينبغي للرب من عبده كان ذلك تعذيباً له ، و لم يكن الربّ ظالماً له في هذا الحرمان ، ولو كان عاجزاً عن أسبابه فإنه لم يمنعه حقّاً يستحقه عليه فيكون ظالماً بمنعه .)[1] .

الوجه الثالث : أن العذاب الوارد في الحديث قد يكون من جنس العذاب الدنيوي الذي لاينزل إلا بسبب وجود من يستحقه من العباد ثم يعم أثره من قدلايستحقه ، ولايكون تعالى ظالماً لعباده بهذا العذاب . فأما من يستحقه فقد ناله بسبب عمله ، وأما من لايستحقه فإن ذلك العذاب إما أن يكون مكفراً لسيّئاتٍ له ، أو رافعاً لدرجاته في الآخرة ، وعلى كلّ فإن هذا العذاب منقطع ، ولايقاس بما سوف يناله من ثواب ونعيم بفضل الله تعالى ورحمته [2] .

جـ - المذهب الثالث : مذهب أهل السنة :

١-عرض المذهب :

إن أهل السنة -مستندين إلى دلالة مجموع النصوص الشرعية- ذهبوا إلى أن العمل قد جعله تعالى سبباً للجزاء[3] الذي يناله العبد يوم الدين ، عدلاً منه جل شأنه ، ولكن العمل لاينفرد بإيجاب إدخال صاحبه الجنة ، بل لابد معه من أن يشمل الله العبد برحمته .

فيتفضل جل شأنه على من قام به سبب الثواب فيثيبه مِنّةً منه جل جلاله ، ولايكون

---

(١)- طريق الهجرتين . ص: ٥١٢ .

(٢)- انظر : مختصر الصواعق المرسلة ، لابن قيم الجوزية . جـ١ ، ص: ٣٣٨ .

(٣)- انظر : طريق الهجرتين ، لابن قيم الجوزية . ص: ٣٠١ .

العمل الحسن موجباً بذاته للثواب ، فالعمل الصالح وإن كان سبباً للثواب إلا أنه سبب قاصر، لايكفى بمجرده لنيله . ويزيد الله المثابين فضلاً بأن يخلدهم في الجنّة .

وأما في باب العقاب فإنه تعالى يعدل فيمن قام به سبب العقاب فيعاقبه إن شاء ، ولايظلمه أبداً . ولايعذب أحداً بغير سبب مطلقاً ، فالعمل السيئ سبب للعقاب ، إلا أنه مع ذلك متوقف على إرادة الله جل شأنه في أن يوقعه بالعبد أو لايوقعه .

وقد بيّن جل جلاله أنه لايمكن أن يسوّي بين من أحسن ومن أساء .

وعمله تبارك اسمه في ذلك كله مرتبط بإرادته وقدرته وعلمه وحكمته .

وقد بين تعالى أنّ مستحقي العقاب صنفان :

صنف يجوز أن تنالهم الرحمة إما ابتداء وإما بعد أن ينالوا قسطاً من العذاب وهؤلاء هم عصاة الموحدين ، فما عندهم من إيمان غير منقوض قد كان بفضل الله سبباً لتلك الرحمة .

وصنف لاتنالهم الرحمة أبداً وهؤلاء هم الكافرون ، فيخلدون في العذاب بعدل الله تعالى وبسبب كفرهم .

هذا تلخيص للمذهب الحق ، وكما هو ظاهر فهو المذهب الوسط بين المعتزلة والأشاعرة، وأما تفصيل القول فيه وإقامة الأدلة على قضاياه فكما يلي :

٢- الأدلة على كون الأعمال سبباً للجزاء :

توجد نصوص عديدة يستنبط منها الدليل على كون الأعمال سبباً للجزاء منها :

* الاستدلال بالنصوص التي تثبت كتابة الأعمال والسؤال عنها ووزنها :

فأما الاستدلال بالنصوص التي تثبت كتابة الأعمال فكقوله تعالى : ﴿ **فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون** (٩٤) ﴾ الأنبياء .

وقوله : ﴿ **ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين ممافيه ويقولون ياويلتنا مال هذا الكتاب لايغادر صغيرة ولاكبيرة إلا أحصاها** ...(٤٩) ﴾ الكهف .

﴿**الكتاب**﴾ : هو كتاب أعمال العباد [(١)].

وأما الاستدلال بالنصوص التي تثبت الحساب والسؤال عن الأعمال ، فكقوله تعالى :

﴿ **فوربك لنسألنّهم أجمعين (٩٢) عما كانوا يعملون** (٩٣) ﴾ الحجر .

وأما الاستدلال بالنصوص التي تثبت وزن الأعمال ، فكقوله تعالى :

---

(١)- انظر : تفسير الطبري . جـ١٥ ، ص : ٢٥٨ .

﴿**والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون** (٨) **ومن خفّت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون** (٩) ﴾ الأعراف .

ووجه الدلالة في هذه النصوص : أنه لو لم تكن الأعمال سبباً للجزاء لما كان لكتابتها والسؤال عنها ووزنها أي فائدة ، ولاسيما الوزن الذي تدل النصوص بوضوح على ارتباط الجزاء بنتيجته . وهذه الدلالة تتضح عند من يثبت الحكمة لله تعالى في كل فعل من أفعاله[1] .

* الاستدلال بصفات ثلاث لله تعالى تثبت القول بسببية الأعمال وهي :

الصفة الأولى : صفة الحكمة ، وقد أثبت سبحانه أنه يتنزه عن مساواة المؤمنين بالكافرين ، كما قال تعالى : ﴿ **أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار** (٢٨) ﴾ ص .

فهذه الآية يبين فيها تعالى ببيان مستند إلى الدلالة العقلية ، أن حكمته تقتضي عدم المساواة بين من أحسن عمله ومن أساءه ، وهذا يدل على أنه جل شأنه سيجازي كلاً منهما الجزاء المناسب لعمله ، وهذه دلالة واضحة على سببيه الأعمال للجزاء .

الصفة الثانية : صفة العدل ، وكونه سبحانه متنزهاً عن الظلم . قال تعالى : ﴿ **من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربّك بظلاّمٍ للعبيد** (٤٦) ﴾ فصلت .

قال الإمام الطبري في بيان معنى قوله : ﴿**وما ربك بظلاّم للعبيد**﴾ : (وما ربك يامحمد بحامل عقوبة ذنب مذنب على غير مكتسبه ، بل لايعاقب أحداً إلاّ على جرمه الذي اكتسبه في الدنيا ، أو على سبب استحقه به منه .)[2] .

أي إن كونه تعالى متصفاً بكمال العدل يقتضي أن لايجازي المكلفين إلاّ بحسب أعمالهم وفي هذا دلالة واضحة أخرى على كون الجزاء مرتبطاً بالأعمال ارتباط الأسباب بمسبباتها . قال تعالى : ﴿ **فاليوم لاتظلم نفس شيئاً ولاتجزون إلاّ ما كنتم تعملون**(٥٤)﴾يس[3] .

---

(١)- انظر : منهاج السنة النبوية . جـ٣ ، ص : ٢٧ .

(٢)- تفسير الطبري . جـ٢٤ ، ص: ١٣٠ .

(٣)- انظر : تفسير هذه الآية عند الطبري . جـ٢٣ ، ص : ١٧ .

الصفة الثالثة : صفة كونه تعالى شاكراً . قال عز وجل : ﴿ **ما يفعل ا لله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان ا لله شاكراً عليماً** (١٤٧) ﴾ النساء .

ففي هذه الآية دلالة عقلية -لاخبرية محضة- على أن كونه جل شأنه شاكراً يقتضي ألاّ يعذب بغير سبب . لأنه تعالى ليس له غرض في ذات التعذيب ، وإنما يعذب بحكمته من قام به سببه من كفر وشرك أو عصيان ، فكأنه جل جلاله قال : ما أفعل بعذابكم لولا أنكم أوقعتم أنفسكم فيه بما ارتكبتم .

وأيضاً فإن صفة كونه تعالى شاكراً تقتضي ألا يضيع عمل عبده الشاكر المؤمن بلا سبب ولاعلة ، بل يثيبه عليه أعظم الثواب تفضلاً منه [(١)].

قال ابن قيم الجوزية :(وتأمل قوله سبحانه : ﴿ **ما يفعل ا لله بعذابكم** ...﴾الآية ، كيف تجد في ضمن هذا الخطاب أن شكره تعالى يأبى تعذيب عباده سدىً بغير جرم كما يأبى إضاعة سعيهم باطلاً . فالشكور لايضيع أجر محسن ، ولايعذب غير مسيء ... فشكره سبحانه اقتضى أن لايعذب المؤمن الشكور ولايضيّع عمله ، وذلك من لوازم هذه الصفة ، فهو منزه عن خلاف ذلك كما ينزه عن سائر العيوب والنقائص التي تنافي كماله وغناه وحمده. ومن شكره سبحانه أنه يخرج العبد من النار بأدنى مثقال ذرّة من خير ولايضيع عليه هذا القدر .)[(٢)].

فالاستدلال بهذه الصفة قد ظهر منه دليل جديد على كون الأعمال سبباً للجزاء بتقدير ا لله الحكيم جل شأنه .

٣- الأدلة على كون العمل الصالح سبباً للثواب :

إن الاستدلالات المستنبطة من نصوص الكتاب لإثبات هذه الحقيقة متعددة منها :

* **الاستدلال بالربط بين الجزاء والعمل بذكر الباء الدالة على السببية** : قال تعالى: ﴿... **ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون** (٤٣) ﴾ الأعراف .

---

(١)- انظر : مختصر الصواعق المرسلة ، لابن قيم الجوزية . جـ: ١ ، ص: ٣٤٥-٣٤٦ .

(٢)- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ، لابن قيم الجوزية . ص: ٢٤١ .

﴿ **بما كنتم تعملون** ﴾ : (أي بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة فدخلتم الجنة ...)[1].

ومثله قوله : ﴿ **الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلامٌ عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون** (٣٢) ﴾ النحل . وقوله : ﴿ **كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون**(١٩)﴾الطور[2].

* **الاستدلال بتكرار ذكر الثواب عقب الوصف المناسب له من العمل الصالح :**

وهذا مما فيه دلالة على كون العمل سبباً في ذلك الثواب .

وذلك في مثل قوله تعالى : ﴿ **إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون**(٢٧٧)﴾ **البقرة**[3].

* **الاستدلال بذكر الوصف المناسب للثواب عقبه :**

فهذا يدل أيضاً على كون ذلك الوصف - من الإيمان والعمل - سبباً في الثواب الذي يناله المرء .

قال جل شأنه : ﴿ **إن المتقين في جناتٍ وعيونٍ** (١٥) **آخذين ما آتاهم ربُّهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين** (١٦) **كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون** (١٧) **وبالأسحار هم يستغفرون** (١٨) **وفي أموالهم حق للسائل والمحروم** (١٩) ﴾ الذاريات .

ففي هذه الآيات رتّب جل جلاله دخول دار النعيم على وصف التقوى ، ثم ذكر الدخول وعقّب عليه بذكر عدد من الأوصاف التي كانت سبباً في هذا الثواب الذي ناله المنعمون .

٤- العمل الحسن ليس موجباً بذاته للثواب :

لقد سبق عند الرد على المعتزلة بيان الوجه الصحيح للجمع بين النصوص التي تثبت

---

(١)- تفسير ابن كثير . جـ: ٢ ، ص: ٢١٥ .

(٢)- انظر : شفاء العليل ، لابن قيم الجوزية . ص: ٣١٥ . و: مفتاح دار السعادة ، له . جـ: ٢ ، ص: ٩٢ . و: الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، له . ص: ٣٠ .

(٣)- انظر : شفاء العليل ، ص: ٣٢٩-٣٣٠ . و: الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، ص:٢٩.

أن دخول الجنة بالأعمال والنصوص التي تنفي ذلك ، فالنصوص المثبته تدل على أن الأعمال الصالحة سبب للثواب ، والنصوص النافيه تدل على أن تلك الأعمال ليست سبباً موجباً ، وإنما يتحقق الثواب للمرء المؤمن بفضل الله ورحمته [1].

وسبق أيضاً بيان علل كون العمل الحسن ليس سبباً موجباً بذاته للثواب [2].

وبناءً على كون الثواب إنما يتحقق بفضل الله تعالى ، وعلى كون الإنعام أمراً يراد لذاته لما فيه من الإحسان والجود والرحمة وهي أمور محبوبة للرب جل شأنه لذاتها [3]:

فإنه لايمتنع أن يدخل الله دار ثوابه من لم يتقدم منه سبب للثواب أو العقاب ؛ كما ثبت في حديث احتجاج الجنّة والنّار وهو أن الله تعالى ينشئ يوم القيامة خلقاً يدخلهم الجنّة [4].

٥- تخليد الله تعالى للمثابين في دار النعيم :

لقد دلت النصوص على أن الله عزوجل يمتن على عباده الذين يدخلهم الجنة ، فيخلد إقامتهم ونعيمهم فيها . قال تعالى :

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً وعد الله حقًّا ومن أصدق من الله قيلاً (١٢٢) ﴾ النساء .

وقال عز وجل :

﴿ يبشّرهم ربّهم برحمة منه ورضوانٍ وجنّاتٍ لهم فيها نعيمٌ مقيمٌ (٢١) خالدين فيها أبداً إنّ الله عنده أجرٌ عظيم (٢٢) ﴾ التوبة .

ومسألة خلود المنعّمين في الجنة ستأتي دراستها تفصيلاً بإذن الله في فصل قادم [5].

---

(١)- انظر : ص: ١٨٦-١٨٨ .

(٢)- انظر ص: ١٨١-١٨٦ .

(٣)- انظر : الحسنة والسيئة ، ابن تيمية . ص : ٣٣ . و: شفاء العليل . ص: ٢٨٣ . و: مختصر الصواعق المرسلة . جـ: ١ ، ص : ٣٥٢-٣٥٤ ، ٣٧٣ . و: شرح العقيدة الطحاوية . ص: ٤٨٥ .

(٤)- انظر الحديث كاملاً مع تخريجه . ص: ٢٤٩ .

(٥)- انظر ص:٧٨٦ ومابعدها .

٦- الأدلة على كون العمل السّيء سببا للعقاب :

توجد عدة استدلالات يمكن الاستناد إليها لإقرار حقيقة كون العمل السيء هو السبب في ما قد ينزل بالمكلف من عقاب . من تلك الاستدلالات ما يأتي :

* **الاستدلال بالربط بين الجزاء والعمل بذكر الباء الدالة على السببية :**

قال تعالى : ﴿ **فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون** (١٤) ﴾ السجدة .

﴿ **بما كنتم تعملون** ﴾ (أي : بسبب كفركم وتكذيبكم .)(١) .

وقال جل شأنه : ﴿ **ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون إلاّ بما كنتم تكسبون** (٥٢) ﴾ يونس .

وقال تعالى : ﴿ **...فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون** (٢٠) ﴾ الأحقاف .

* **الاستدلال بالإخبار عن التناسب بين العمل السيئ والجزاء المبني عليه :**

قال جل جلاله : ﴿ **إن جهنم كانت مرصاداً** (٢١) **للطاغين مآباً** (٢٢) ﴾ إلى قوله ﴿**جزاءً وفاقاً** (٢٦) ﴾ النبأ .

فقوله : ﴿ **جزاء وفاقاً** ﴾ أي وافق هذا الجزاء بالنار الأعمال السيئة التي قدمها هؤلاء الطاغون في حياتهم الدنيا (٢) .

ونحو ذلك قوله : ﴿ **ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى أن كذبوا بآيات ا لله وكانوا بها يستهزءون** (١٠) ﴾ الروم .

﴿ **السوأى** ﴾ : (يعني الخلة التي هي أسوأ من فعلهم ، أما في الدنيا فالبوار والهلاك ، وأما في الآخرة فالنار لايخرجون منها ، ولاهم يستعتبون)(٣) .

﴿ **أن كذّبوا بآيات ا لله** ﴾ : (يقول : كانت لهم السوأى ، لأنهم كذّبوا في الدنيا

---

(١)- تفسير ابن كثير . جـ ٣ ، ص : ٤٥٨ .

(٢)- انظر : تفسير الطبري . جـ ٣٠ ، ص : ١٥ .

(٣)- تفسير الطبري . جـ٢١ ، ص : ٢٥ .

بآيات ا لله .)[1].

* **الاستدلال بتكرار ذكر العقاب بعد الوصف المناسب له من العمل السيء ، على وجه يثبت حقيقة السببية بينهما :**

قال تعالى : ﴿ ... **إن الذين كفروا بآيات ا لله لهم عذاب شديد وا لله عزيز ذوانتقام** (٤) ﴾ آل عمران .

وهذا كثير جداً في القرآن الكريم .

* **الاستدلال بالإخبار عن أنه تعالى لايجازي بالعقاب إلاّ من كان عنده كفر با لله سبحانه أو بنعمة :**

قال جل شأنه : ﴿ **ذلك جزيناهم بماكفروا وهل نجازي إلاّ الكفور** (١٧) ﴾ سبأ .

﴿ **وهل نجازي** ﴾ : أي نعاقب[2]. وهذه الآية وإن كانت قد وردت تعقيباً على العذاب الدنيوي الذي نزل بأهل سبأ ، إلاّ أن حكمها يشمل العذاب الأخروي من باب أولى .

وقوله : ﴿**الكفور**﴾ يمكن أن يعمم ليشمل من يكفر بنعمة ا لله عليه فيعصيه تعالى[3].

وهذا النوع الأخير فيه دلالة على أنه عز وجل لايعذب إلاّ من قام به سبب العذاب ، وقد سبق بيان أنه تعالى ليس له إرادة خاصة بالتعذيب[4].

* **الاستدلال بالإخبار عن أن العقوبة التي تنزل بالعبد هي بسبب منه :**

---

(١)- المرجع السابق . الموضع نفسه .

(٢)- انظر : تفسير ابن كثير . جـ٣ ، ص : ٥٣٣ . وفي تفسير الطبري . جـ٢٢ ، ص: ٨٢-٨٣ . تعليل لسبب اختصاص الكفار بالجزاء مع أن المؤمنين يجازون كذلك الجزاء المناسب لهم . وتلخيص تعليله أن المراد بالجزاء هنا : المكافأة ، وهي لاتكون إلا في الجزاء على الأعمال السيئة ، أما الأعمال الحسنة فإن ا لله تعالى يتفضل بمضاعفة الجزاء عليها .

(٣)- قال الطبري في الموضع السابق : (وهل يجازى إلا الكفور لنعمة ا لله .).

(٤)- انظر : ص: ٢٤٧ ، ٢٥٦ .

قال صلى ا لله عليه وسلم في الحديث القدسي : ((... ياعبادي إنما هي أعمالكم أحصيهالكم ثم أوفّيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد ا لله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلاّ نفسه .))[1].

فقوله : ((لايلومنّ إلاّ نفسه)) دليل على أنّه تعالى إن عاقب العبد فهو عادل في عقوبته ؛ إذلم يعاقبه إلا بسبب منه . فلا يلومن العبد إلا نفسه التي اكتسبت السوء[2].

وبعد فإن إثبات سببية الأعمال للجزاء على الوجه الصحيح يجعل الإنسان ملتزماً أوامر ا لله ونواهيه حريصاً على الأعمال الصالحة غير متوان ولا متخاذل ولامتكاسل ، وإن كان دائم الاعتراف بتقصيره لعلمه بعظيم حق ربّه عليه .

ويكون الموقن بهذه الحقيقة حامداً لربه معترفاً له بعظيم حكمته وعدله في جعله الجزاء مرتبطاً بالعمل ، ومعترفاً له بعموم الخلق ونفوذ المشيئة وجريان القضاء والقدر .

وذلك كله يجعل العبد دائم الالتجاء إلى الرب تعالى ، دائم الاستعانة به ، متذللاً خاضعاً منكسراً بين يديه ، (فيكون سيره بين شهود العزة والحكمة والقدرة الكاملة والعلم السابق والمنّة العظيمة ، وبين شهود التقصير والإساءة منه وتطلب عيوب نفسه...)[3].

٧- الأدلة على جواز العفو عن العصاة ابتداءً :

لقد دلت نصوص شرعية ثابتة على أن أيّ ذنب يعمله العبد ولايتوب منه ، فإنه يجوز أن يغفره ا لله تعالى إن شاء ذلك ، مادام أن الذنب لم يصل إلى حد الشرك . قال تعالى :

---

(١)- هذه الجملة هي آخر الحديث القدسي : ((ياعبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً ...)). وقد سبق تخريجه . انظر ص: ١٨٥ ، هامش (٢) .

(٢)- انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية . جـ٨ ، ص: ٤٤٣-٤٤٤ ، جـ١٨ ، ص : ٢٠٣ ، و:منهاج السنة النبوية ، له . جـ١ ، ص : ٢١٥ .

(٣)- طريق الهجرتين ، ص: ٣٠١-٣٠٢ . وانظر : مجموع فتاوى ابن تيمية . جـ: ٨ ، ص: ٧٣ .

﴿ **إن ا لله لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك با لله فقد افترى إثماً عظيماً** (٤٨) ﴾ النساء .

ففي هذه الآية بيان أن ا لله تعالى لايغفر ذنب الشرك به ، ويغفر مادونه لمن يشاء ، ولايكون ذلك في حالة توبة المذنب ، لأن التوبة سبب لمغفرة الذنوب جميعاً حتى الشرك . قال تعالى : ﴿ **والذين لايدعون مع ا لله إلهاً آخر ولايقتلون النفس التي حرم ا لله إلا بالحق ولايزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً** (٦٨) **يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً** (٦٩) **إلاّ من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدّل ا لله سيئاتهم حسنات وكان ا لله غفوراً رحيماً** (٧٠) ﴾ الفرقان . وعلى التوبة حمل قوله تعالى :

﴿ **قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة ا لله إن ا لله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم** (٥٣) ﴾ الزمر .

فمغفرة الذنوب جميعاً بالتوبة أمر لم يعلّقه جل شأنه بالمشيئة ، حسب نصوص الآيات الواردة بشأنها . وهذا يدل على أن المغفرة المعلقة بالمشيئة في قوله تعالى : ﴿ **إن ا لله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ...**﴾ هي مغفرة لذنوب لم يتب منها صاحبها ، إن شاء ا لله غفرها وإن شاء لم يغفرها . وعلى هذا المعنى اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة [(١)] .

وقد اعترض على ماسبق بما يلي :

الاعتراض الأول : أن المراد بالآية : إن ا لله لايغفر لمن يشاء الشرك ، أي إذا لم يتب منه ، ويغفر لمن يشاء مادون الشرك ، أي إذا تاب [(٢)] .

والجواب : أن الآية قد وردت على نسق واحد فلابد من التزامه عند التأويل مادام ذلك ممكناً ، فإمّا أن يقال إنه جل شأنه لايغفر الشرك وإن تاب صاحبه ، ويغفر مادون

---

(١)- انظر مجموع فتاوى ابن تيمية : جـ: ٤ ، ص: ٤٧٥ ، جـ: ٧ ، ص: ٤٨٤-٤٨٥ ، ٥٠١ ، جـ: ١١ ، ص: ١٨٤-١٨٥ . و: مدارج السالكين ، لابن قيم الجوزية . جـ: ١ ، ص: ٣٩٤ . و: تفسير ابن كثير . جـ: ١ ، ص: ٥٠٨-٥١١ . و: شرح العقيدة الطحاوية . ص: ٣٧١-٤٢٠ .

(٢)- انظر : الكشاف ، للزمخشري . جـ: ١ ، ص: ٢٧٣ .

الشرك مع التوبة ، ولكن عدم مغفرة الشرك مع التوبة أمر مخالف لما علم من الدين بالضرورة فلا يقبل هذا التأويل ، وإما أن يقال إنه جل شأنه لايغفر شرك من لم يتب ، ويغفر لمن يشاء الذنوب التي هي دون الشرك وإن لم يتب منها . وهذا قول أهل السنة ، وهو القول الصحيح الموافق لسائر النصوص الشرعية والذي ليس فيه تقطيع للآية ومخالفة الظاهر من نظمها [(١)].

الاعتراض الثاني : أن المراد بما دون الشرك هو الصغائر دون الكبائر [(٢)].

والجواب : أن قوله ﴿ **ويغفر مادون ذلك** ﴾ يلزم منه أن يشمل ماقارب الشرك - ولم يصل إليه - من الكبائر لأنها دونه ، ويشمل مابعد الكبائر من الصغائر ، وأما الزعم بأن المراد من قوله : ﴿ **ويغفر مادون ذلك** ﴾ الصغائر فقط ، فهو غير صحيح ولاتدعو إليه ضرورة ، بل إنه يجب صيانة كلام الرب تعالى عن مثل هذا التأويل لأنه يشبه عندئذ قول القائل : جاءني السلطان فمن دونه ، وهو يقصد أن الذي جاءه السلطان والكنّاس ونحوه ! .

الاعتراض الثالث : أن العفو عن مرتكب الكبيرة يلزم منه مساواة من أحسن عمله بمن أساءه ، والرب سبحانه ينزه عن مثل هذا . قال تعالى :﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنواوعملوا الصالحات سواءً محياهم ومماتهم ساء مايحكمون**(٢١) ﴾ الجاثية .

والجواب : إن أي عبد لو عومل بعدل الله فقط لما نجى من عقابه ، وذلك كما سبق بيانه[(٣)]، ولكن الله جل جلاله قد تفضل بقبول اليسير من أعمال العباد وتفضل بإثابتهم عليها وتفضل بالتجاوز عن السيّئات والتقصيرات .

وبناء على هذا فإنه لايمتنع أن يقبل الله جل شأنه ممن ارتكب كبيرة أعظم الحسنات وهي حسنة الإيمان وماقد يقدمه بالإضافة إليها ويثيبه عن ذلك ، بفضله ورحمته .

---

(١)- انظر : تعليق ناصر الدين أحمد بن المنير الاسكندري المالكي على الكشاف للزمخشري:جـ١ ، ص: ٢٧٣ .

(٢)- انظر : شرح الأصول الخمسة . ص: ٦٨٢ .

(٣)- انظر ص: ١٨٠ ومابعدها .

ولكن ثواب مثل هذا لايكون كثواب من أحسن عمله ولم يغش الكبائر ، وبذلك يتحقق عدم المساواة بين الفريقين . وقد اعتبر شيخ الإسلام ابن تيمية نقصان درجة المؤمنين في الجنة بسبب المعاصي نوعاً من العقاب ، قال في ذلك : (وتحقيق الأمر أن العقاب نوعان ، نوع بالآلام ، فهذا يسقط بكثرة الحسنات ، ونوع بنقص الدرجة وحرمان ماكان يستحقه ، فهذا يحصل إذا لم يحصل الأول .)[1].

بناء على ذلك فليس في العفو عن مرتكب الكبيرة أمرٌ يناقض حكمة الرب تعالى[2].

وبعد فإن مرتكب الكبائر إذا لم يتب منها ، فإنه يوم الدين إذا زادت حسناته على سيئاته كان من أهل الجنة بفضل الله تعالى ، وإن تساوت الحسنات والسيئات كان من أصحاب الأعراف الذين مآلهم الجنة بفضل الله تعالى ورحمته ، وأما إن زادت سيئاته فهو على خطر عظيم والأصل أن يعاقب في النار على قدر ذنوبه[3]. وإن كان قد جاز أن يتناول حكم مغفرة الله لمن يشاء مثل هذا المكلف ، فمن أين له أن يعلم أنه ممن شاء الله أن يغفر لهم ، لاممن شاء أن يعاقبهم ويعذبهم[4]؟، ولاسيما أنه قد ورد في النصوص مايفيد أن فريقاً كبيراً من الموحدين يدخلون النار بعدل الله ، ويعذبون على قدر ذنوبهم . كما هو واضح في نصوص الشفاعة[5].

---

(١)- مجموع فتاوى ابن تيمية . جـ١١ ، ص : ٦٨٧ .

(٢)- يلاحظ هنا : أنه بالإضافة إلى عفو الله المجرد عن أي سبب يوجد عفو لله سبحانه عن الذنوب له أسباب أخرى غير التوبة ، كالحدود والعقوبات الربانية الدنيوية والحسنات العظيمة ودعاء المؤمنين بعضهم لبعض ، وغير ذلك من أسباب سيأتي ذكر بعضها بإذن الله انظر ص:٣٢٨ ومابعدها .وانظر أيضاً : مجموع فتاوى ابن تيمية . جـ٧ ، ص: ٤٨٧-٥٠١ .ومنهاج السنة النبوية ، لابن تيمية جـ٣ ، ص : ١٨٦.

(٣)- انظر : تفسير ابن كثير . جـ٢ ، ص : ٢١٦-٢١٧ .

(٤)- انظر الجامع لشعب الإيمان ، أبوبكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت:٤٥٨هـ) جـ٢ ص:١٥٣ .

(٥)- سيأتي ذكر بعض أحاديث الشفاعة انظر ص: ٢٦٨ وما بعدها .وانظر مجموع فتاوى ابن تيمية جـ٧، ص: ٤٨٦ ، ٥٠١-٥٠٢ ، ٦٧٩ ، جـ١١،ص: ١٨٤-١٨٥ ، جـ١٦، ص: ١٩٦ . وانظر شرح العقيدة الطحاوية ص:٤٢٦ .

فالعاقل من وقى نفسه دار العذاب بأداء ما أوجبه ا لله عليه ، واجتناب ما نهاه عنه ، مع سؤاله ا لله دواماً أن يرحمه ويغفرله ويتوب عليه مما قد يصدر منه من ذنوب وتقصيرات، والعاجز من اتبع أهواءه وشهواته وتمنى على ا لله أن يعفو عنه ولايؤاخذه .

قال صلى ا لله عليه وسلم :

((الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنّى على ا لله .))[١] .

وتوجد نصوص أخرى تؤكد المعنى الذي دلت عليه آية : ﴿ **إن ا لله لايغفر أن يشرك به** ...﴾ منها : قوله صلى ا لله عليه وسلم لجماعة من صحابته رضوان ا لله عليهم: ((بايعوني على ألاّ تشركوا با لله شيئاً ، ولاتسرقوا ولاتزنوا ولاتقتلوا أولادكم ، ولاتأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولاتعصوا في معروف . فمن وفّى منكم فأجره على ا لله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفّارةٌ له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره ا لله فهو إلى ا لله : إن شاء عفا عنه ، وإن شاء عاقبه .))[٢] .

فإذا أخرج من عموم قوله : ((ومن أصاب من ذلك شيئاً)) الشرك ، للدلالة الظاهرة لقوله تعالى : ﴿**إن ا لله لايغفر أن يشرك به** ﴾[٣]، كان في الحديث دلالة واضحة على جواز مغفرته تعالى للذنب الكبير ، إذ ذكرت فيه ذنوب هي من الكبائر[٤] .

ويدل على أن المعلق بالمشيئة الذنب الذي لم يتب منه صاحبه ، أنه ذكر في الحديث

---

(١)- رواه الترمذي عن شدّاد بن أوس رضي ا لله عنه . عارضه الأحوذي : أبواب صفة القيامة والرقائق والورع ، باب بدون عنوان (٢٥ حسب المعجم)،جـ٩ ، ص:٢٨٢ . وقال الترمذي : هذا حديث حسن.

(٢)- متفق عليه عن عبادة بن الصامت رضي ا لله عنه . واللفظ للبخاري ، فتح الباري:كتاب الإيمان (٢) ، باب - بدون عنوان - (١١)،ح:١٨ ، جـ١ ، ص: ٦٤ . وانظر شرح النووي على مسلم : كتاب الحدود، باب : الحدود كفّارات لأهلها ، جـ١١ ، ص: ٢٢٢-٢٢٤ ،(عدة روايات ، ح:٤١-٤٤حسب المعجم) .

(٣)- انظر : فتح الباري:جـ١ ، ص: ٦٥ .

(٤)- انظر : الجامع لشعب الإيمان ، للبيهقي:جـ٢ ، ص : ٩٧-٩٨ . وشرح النووي على مسلم: جـ١١،ص: ٢٢٣-٢٢٤ وفتح الباري:جـ١ ، ص: ٦٨ .

العقوبة الدنيوية وأنها كفارة للذنب ولم يعلقها بالمشيئة ، ثم ذكر فيه الذنب الذي يستره الله على صاحبه ، وعلق غفرانه على المشيئة ، فإذا عُلِمَ أن التوبة النصوح لاتقل عن العقوبة الدنيوية في كونها سبباً لعدم المؤاخذة على الذنب ، علم أن المراد بالحديث هو الذنب الذي لم يتب منه صاحبه .

٨-الأدلة على عدم خلود العصاة في النار والرد على الاعتراضات الواردة عليها :

إن الفاسق قد قام به سببان : سببٌ للثواب لم ينقض كليّا ، وسبب للعقاب يستحق به أن يعاقب في النار إذا شاء الله ذلك ، وبناءً على هذا الأصل : (أثبت أهل السنة دخول أهل الكبائر النار ، ثم خروجهم منها ، ودخولهم الجنة لما قام بهم من السببين.)[١] .

ثم إن هذا الحكم متوافق مع عدل الله وحكمته من وجهين :

الوجه الأول : عدم إضاعة ثواب الأصل الإيماني القائم في قلب مرتكب الكبائر والذي لم يوجد كفر ينقضه ويحبطه[٢] .

الوجه الثاني : عدم تسوية مصير من لم يحبط إيمانه بالكليّة ، بمصير الكافر الذي حبط إيمانه كلية . فإن قيل : لماذا لايخلد الفاسق في النار في دركة أعلى من دركة الكفار ، فلا يتساوى مصيرهما ؟ .

أجيب : بأن هذا الفرض مخالف لما أثبتته النصوص من جهة ، وهو إن راعى وجه عدم تسوية مصير المؤمن بمصير الكافر ، لم يراع وجه عدم إضاعة ثواب الأصل الإيماني غير المحبط .

وقد يقال بأن وجه عدم التسوية غير متحقق في هذا الفرض ، إذ قد ثبت أن من العصاة من تأخذه النار إلى أنصاف ساقيه وإلى ركبتيه[٣] ، وثبت أيضاً أن أباطالب عم

---

(١)- مدارج السالكين ، لابن قيم الجوزية:جـ١ ، ص: ٢٨٢ ، وانظر ص: ٣٩٧ .

(٢)- انظر : الجامع لشعب الإيمان،للبيهقي:جـ٢ ، ص: ١٠٦-١٠٨ .

(٣)- في حديث طويل متفق عليه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وهو عن أحوال يوم القيامة =

الرسول صلى ا لله عليه وسلم الذي مات كافراً هو أهون أهل النـار عذابـاً ، وقـد وصـف عذابه صلى ا لله عليه وسلم في قوله : ((أهون أهـل النـار عذابـاً أبوطـالب ، وهـو منتعـل بنعلين يغلي منهما دماغه))[1] .

فلو كان العصاة يخلدون في النار لكان منهم من هو أشد عذاباً ممن مات على الكفر ، وهذا لايتوافق مع حكمة ا لله تعالى في عدم التسوية بين من آمن ومن كفر .

وأما الأدلة النصية على خروج عصاة المؤمنين من النار فكثيرة منها :

الدليل الأول : قوله تعالى : ﴿**ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا مـن عبادنـا فمنهـم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن ا لله ذلك هو الفضل الكبير** (٣٢) **جنّات عدن يدخلونها يحلّون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير** (٣٣) **وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنّا الحزن إن ربنا لغفور شكور** (٣٤)﴾ فاطر .

فالآية الأولى تتحدث عن أقسام هذه الأمـة وأن منهـم الظـالم لنفسـه ومنهـم المقتصـد ومنهم السابق بالخيرات ، والظالم لنفسه لابد أن يكون مـن مرتكبي الكبـائر غـير التـائبين منها ، لأن مرتكب الصغائر فقط معفو عنه فليس هـو مـن صنـف الظـالمين بـل قـد يلحـق بالمقتصدين ، وهم في الأصل المقتصرون على فعل الواجبات وترك المحرمات ، والتائب قـد يكون منهم وقد يصل إلى مرتبة السابقين بالخيرات وهم الفاعلون للواجبـات والمسـتحبات التاركون للمحرمات والمكروهات . ومن ثم فإنـه جـل شـأنه قـد وعـد الأصنـاف الثلاثـة

=ومايجري فيه . وقد جاء في أثناء الكلام عن شفاعة المؤمنين الناجين لإخوانهـم المعذبـين . قولـه صلـى ا لله عليه وسلم -اللفظ للبخاري- :((..فيأتونهم وبعضهم قد غاب في النار إلى قدميه وإلى أنصاف ساقيه ..)) انظر:فتح الباري :كتاب التوحيد (٩٧)،باب قول ا لله تعالى : ﴿ **وجـوه يومئـذ نـاضرة إلى ربهـا نـاظرة** ﴾ (٢٤) ، ح:٧٤٣٩،جـ١٣ ، ص : ٤٢٠-٤٢١ . وانظر شرح النووي على مسلم :كتـاب الإيمـان ، بـاب: إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة لربهم سبحانه وتعالى ، جـ٣ ،ص: ٢٥-٣٣ . وهؤلاء المخرجـين مـن النـار هم أول من يخرج منها ، وبعد ذلك يخرج أقوام أكثر عذاباً منهم .

(١)- رواه مسلم عن ابن عباس رضي ا لله عنهما . شرح النووي على مسلم : كتاب الإيمان،باب: شـفاعة النبي صلى ا لله عليه وسلم لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه ،جـ٣ ، ص: ٨٥ .

بالجنة . إلا أن الظالمين لأنفسهم قد لايدخلونها إلا بعد عذابٍ يطهرهم من الخطايا[1] .

وقد اعترض على هذا التفسير بأن : اسم الإشارة في قوله تعالى : ﴿**ذلك هو الفضل الكبير** ﴾ يعود إلى مجرد السبق بالخيرات ، وأما قوله : ﴿**جنات عدن**﴾ فهي بدل من قوله ﴿**الفضل الكبير**﴾ ، وقد ذكر ذلك الزمخشري في تفسيره [2]، حتى تنطبق الآية على مايعتقده من اختصاص من صلحت أعماله من المؤمنين بدخول الجنة دون غيرهم .

والجواب : أن الظاهر عود اسم الإشارة ﴿**ذلك**﴾ إلى توريث الكتاب للمصطفين ، لأنه هو المذكور الأبعد ، و(ذلك) يدل في الأساس على الإشارة إلى البعيد ، وبناء على هذا فإنه سواء اعتبر قوله : ﴿ **جنات عدن** ﴾ بدلاً من قوله : ﴿ **الفضل الكبير** ﴾ ، أو اعتبر جملة مستأنفة جديدة من مبتدأ وخبر ، فإن حكمها يعم الأصناف الثلاثة ، ولكن ليسوا على درجة واحدة[3] .

والزمخشري هو من المعتزلة الذين يرون أن الإنسان خالق أفعال نفسه وأنه لافضل لله على عبده المؤمن ، فهو الذي آمن ، وهو المستحق للثواب بعمله فقط ، فكيف يرجح عود اسم الإشارة ﴿**ذلك**﴾ إلى السبق بالخيرات ، ولايرجح عوده إلى توريث الكتاب ، وهو الذي يظهر منه معنى التفضل دون السبق بالخيرات على مقتضى مذهبه ؟!.

وأما على مقتضى مذهب أهل السنة فلا مانع من أن يشمل اسم الإشارة ﴿**ذلك**﴾ كلاً من توريث الكتاب والسبق بالخيرات . وا لله أعلم .

الدليل الثاني : نصوص الشفاعة ، ولاسيما النصوص الخاصة بإخراج العصاة من النار وإدخالهم الجنة بفضل ا لله ورحمته . وهي نصوص حديثية حكم بتواترها عدد من

---

(١)- انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية : جـ٨ ، ص:٤٨٥ . وتفسير الطبري:جـ٢٢ ، ص : ١٣٦-١٣٧ . وتفسير ابن كثير:جـ٣،ص:٥٥٤-٥٥٦.وقد ذكر ابن كثير بعضاً من الروايات والآثار التي تؤيد هذا المعنى .

(٢)- انظر : الكشاف للزمخشري:جـ٣ ، ص: ٢٧٥-٢٧٦ .

(٣)- انظر : تفسير ابن كثير جـ٣ ، ص: ٥٥٤-٥٥٧.وتفسير فتح القدير للشوكاني جـ٤ ص: ٣٤٩-٣٥٣،وقد رجح الشوكاني عود اسم الإشارة ﴿**ذلك**﴾ إلى توريث الكتاب والاصطفاء ، ورجح القول بشمول حكم دخول الجنة للأصناف الثلاثة ، وذكر آثاراً تعضّد ذلك . وانظر : تعليق ناصر الدين أحمد بن المنير الاسكندرى المالكي على تفسير الكشاف:جـ٣ ، ص: ٢٧٦ .

العلماء[1] .ومنها :

النص الأول : جاء في حديث طويل عن أمور تجري يوم القيامة وتختتم بالشفاعة لإخراج المؤمنين من النار ، قوله صلى ا لله عليه وسلم :

[((...حتّى إذا خلص المؤمنون من النار فوالذي نفسي بيده مامنكم من أحد بأشدّ مناشدةً لله في استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار ، يقولون: ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون ، فيقال لهم : أخرجوا من عرفتم ، فتحرم صورهم على النار فيخرجون خلقاً كثيراً قد أخذت النار إلى نصف ساقيه وإلى ركبتيه ، ثم يقولون : ربنا مابقي فيها أحدٌ ممّن أمرتنا به . فيقول : ارجعوا ، فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه ، فيخرجون خلقاً كثيراً . ثم يقولون ربنا لم نذر فيها أحداً ممّن أمرتنا به ، ثم يقول ارجعوا ، فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينارٍ من خير فأخرجوه ، فيخرجون خلقاً كثيراً ، ثم يقولون : ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا أحداً ، ثم يقول : ارجعوا ، فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرّةٍ من خير فأخرجوه ، فيخرجون خلقاً كثيراً . ثم يقولون : ربنا لم نذر فيها خيراً .)) ...[2].((فيقول ا لله عز وجل : شفعت الملائكة ، وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلاّ أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قطّ قد عادوا حمماً ، فيلقيهم في نهر في أفواه الجنّة يقال له نهر الحياة ، فيخرجون كما تخرج الحبّة في حميل السيل ، ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر ، مايكون إلى الشمس أصيفر وأخيضر ، ومايكون منها إلى الظلّ يكون أبيض)) فقالوا : يارسول ا لله ، كأنك كنت ترعى بالبادية ؟ . قال : ((فيخرجون

---

(١)- انظر مجموع فتاوى ابن تيمية . حـ: ٤ ، ص: ٣٠٩ ، جـ: ٧ ، ص: ٤٨٦ ، جـ: ١٦، ص: ١٩٦. و: النهاية ، لابن كثير . جـ: ٢ ، ص: ١٨٥ ، وقد سرد كثيراً من طرقها . و: فتح الباري . جـ: ١١ ، ص: ٤٢٦ .

(٢)- في هذا الموضع جاء في الحديث : وكان أبو سعيد الخدري يقول : إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرؤوا إن شئتم : ﴿ **إن ا لله لايظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً** ﴾ (٤٠) النساء . وأبوسعيد هو راوي الحديث .

كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم يعرفهم أهل الجنّة : هؤلاء عتقاء ا لله الذين أدخلهم الجنّة بغير عمل عملوه ولاخير قدّموه ، ثم يقول : ادخلوا الجنّة ، فما رأيتموه فهو لكم . فيقولون : ربنا ، أعطيتنا مالم تعط أحداً من العالمين . فيقول : لكم عندي أفضل من هذا، فيقولون : ياربنا . أي شيء أفضل من هذا ؟ ، فيقول : رضاي فلا أسخط عليكم بعده أبداً.))[(١)] .

ودلالة خروج العصاة من النار بعد أن يعذبوا فيها مدة من الزمن ، دلالة ظاهرة وواضحة .

النص الثاني : قوله صلى ا لله عليه وسلم :

((إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم إلى بعض فيأتون آدم فيقولون له اشفع لذريتك ، فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بإبراهيم عليه السلام فإنه خليل ا لله . فيأتون إبراهيم ، فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بموسى عليه السلام فإنه كليم ا لله . فيؤتى موسى ، فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بعيسى عليه السلام ، فإنه روح ا لله وكلمته . فيؤتى عيسى ، فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بمحمد صلى ا لله عليه وسلم . فأوتى ، فأقول : أنا لها ، فأنطلق فأستأذن على ربي فيؤذن لي فأقوم بين يديه فأحمده بمحامد ، لا أقدر عليه الآن يلهمنيه ا لله ، ثم أخرّ له ساجداً ، فيقال لي : يامحمد ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، وسل تعطه واشفع تشفّع ، فأقول : ربّ ، أمتي أمتي . فيقال : انطلق ، فمن كان في قلبه مثقال حبّةٍ من بُرّةٍ أوشعيرة من إيمان فأخرجه منها . فأنطلق فأفعل ثم أرجع إلى ربي فأحمده بتلك المحامد ثم أخرّ له ساجداً ، فيقال لي : يامحمد ، ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعطه واشفع تشفّع ، فأقول : أمتي أمتي ، فيقال لي : انطلق ، فمن كان

---

(١)- متفق عليه عن أبي سعيد الخدري رضي ا لله عنه . واللفظ لمسلم.شرح النووي على مسلم :كتاب الإيمان ، باب : إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى ، جـ٣ ، ص : ٢٥-٣٤ . وانظر فتح الباري بشرح صحيح البخارى:كتاب التوحيد (٩٧) ، باب : قول ا لله تعالى : ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة** ﴾ (٢٤) ،ح : ٧٤٣٩ ، جـ١٣ ، ص : ٤٢٠-٤٢٢ .

في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منهـا . فـأنطلق فـأفعل ثـم أعـود إلى ربّـي فأحمده بتلك المحامد ثم أخرّ له ساجداً ، فيقال لي : يامحمد ، ارفع رأسك وقل يسمع لك، وسل تعطه واشفع تشفّع ، فأقول : يارب ، أمّتي أمّتي ، فيقال لي : انطلق ، فمـن كـان في قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقـال حبـة مـن خـردل مـن إيمـان فأخرجـه مـن النـار ، فـأنطلق فأفعل.))[1]...((ثم أرجع إلى ربي في الرابعة فأحمده بتلك المحامد ثـم أخـرّ لـه سـاجداً ، فيقال لي : يامحمد ، ارفع رأسك وقـل يسـمع لـك وسـل تعـط واشـفع تشـفّع ، فـأقول : ياربّ، ائذن لي فيمـن قـال : لاإلـه إلاّ ا لله . قـال : ليـس ذاك لـك- أو قـال : ليـس ذاك إليـك- ولكـن وعزّتـي وكبريـائي وعظمـتي وجبريـائي لأخرجـنّ مـن قـال : لاإلــه إلاّ ا لله.))[2].

وهذا الحديث ظاهر الدلالة على إخراج العصاة من النار ، وأنه يخرج منهـا بالشـفاعة الأفضل ثم المفضول .

النص الثالث : قوله صلى ا لله عليه وسلم :

((إن قومـاً يخرجـون مـن النـار يحـترقون فيهـا إلاّ دارات وجوههـم حتـى يدخلـون الجنّة.))[3].

في هذا الحديث تصريح بأن الذين يخرجهم ا لله من النار هـم أقـوام قـد احـترقوا فيهـا فعلاً ، ونالوا فيها العذاب مدّة ، ثم يخرجهم ا لله منها برحمته وفضله .

---

(١)- في هذا الموضع جاء في الرواية : أن أنساً راوي الحديث توقـف عنـده ، ثـم ذهـب الذيـن سمعـوا منـه الحديث إلى الحسن البصري فأخبرهم أنه سمع الحديث من أنس قبل عشرين سنة ، وأنه تـرك شـيئاً لايـدري أنسيه ، أم كره أن يحدثهم فيتّكلوا ؟ ثم أخبرهم بالزيادة .

(٢)- متفق عليه عن أنس بن مالك رضي ا لله عنه . واللفظ لمسلم . شـرح النـووي علـى مسـلم : كتـاب الإيمان ، باب : إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النـار ، جــ٣ ، ص: ٦٠-٦٤ . وانظـر فتـح البـاري بشرح صحيح البخاري : كتاب التوحيد (٩٧) ، باب : كلام الـرب عـز وجـل يـوم القيامـة مـع الأنبيـاء وغيرهم (٣٦) ، ح: ٧٥١٠ ، جـ١٣ ، ص: ٤٧٣-٤٧٤ .قال النووى فى شرحه لمسلم ،جــ٣، ص٦٥: (وأما قوله عز وجل :((وجبريائي)) فهو بكسر الجيم ، أي : عظمتي وسلطاني أو قهري .) .

(٣)- رواه مسلم عن جابر بن عبدا لله رضي ا لله عنه . شرح النووي على مسلم:كتاب الإيمان ، باب : إثبات الشفاعة وإخراج عصاة الموحدين من النار ، جـ٣ ، ص:٥٠ .

النص الرابع : ورد في الصحيح أن جماعة أرادت الحج ثم الخروج على الناس كما يفعل الخوارج ، فلما مرّوا بالمدينة سمعوا جابر بن عبدا لله رضي ا لله عنهما يحدث الناس عن الجهنميين ، فابتدره أحد هؤلاء الجماعة وتلا عليه قول ا لله تعالى : ﴿ ...**إنك من تدخل النار فقد أخزيته** ...(١٩٢) ﴾ آل عمران .

وقوله : ﴿ ... **كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها** ...(٢٠) ﴾ السجدة ، فقال جابر :

[أتقرأ القرآن ؟ قلت : نعم ، قال : فهل سمعت بمقام محمد عليه السلام ، يعني الذي يبعثه ا لله فيه ، قلت : نعم . قال : فإنه مقام محمد صلى ا لله عليه وسلم المحمود الذي يخرج ا لله به من يخرج . قال : ثم نعت وضع الصراط ، ومرّ الناس عليه ، قال : وأخاف أن لا أكون أحفظ ذاك[1] ، قال : غير أنه قد زعم : ((أن قوماً يخرجون من النار بعد أن يكونوا فيها .))] الحديث . ويقول راوي الحديث عن جابر في آخره : [فرجعنا فقلنا : ويحكم أترون الشيخ يكذب على رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم . فرجعنا فلا وا لله ماخرج منّا غير رجل واحد .][2] .

ففي هذا الحديث بيان من أحد الذين شغفوا برأي الخوارج أنه لما سمع هو ومن معه - وكانوا ذوي عدد[3] - من جابر خروج العصاة من النار علموا أنهم ليسوا من المخلدين فيها ، ومن ثم فهم ليسوا كفّاراً ولايجوز قتالهم .

وقد اعترض على الاستدلال بأحاديث الشفاعة بما يلي :

الاعتراض الأول : بعد أن ذكر القاضي عبدالجبار رواية واحدة من روايات أحاديث الشفاعة قال :

(وجوابنا ، أن هذا الخبر لم تثبت صحته ، ولو صح فإنه منقول بطريق الآحاد وخبر

---

(١)- وقائل هذا الكلام هو راوي الحديث عن جابر .

(٢)- رواه مسلم عن يزيد الفقير وهو الذي شغفه رأي من رأي الخوارج ، فخرج في عصابة ذوي عدد ، فسمع من جابر في المدينة انظر : شرح النووي على مسلم : كتاب الإيمان ، باب : إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار ، جـ٣ ، ص: ٥٠-٥٢ .

(٣)- كما صرّح به يزيد الفقير ، انظر التعليقة السابقة .

الواحد مما لايوجب القطع ، ومسألتنا طريقها العلم فلا يمكن الاحتجاج به)[1].

وبعد أن ذكر القاضي عبدالجبار ما قد يعترض به عليه من كثرة رواة الحديث قال :

(إن كثرة نقلة الخبر في الطريق الأخير مما لااعتبار به ، بل لابد من أن يستوي طرفاه ووسطه ففسد هذا الكلام .)[2].

والجواب : إن ماذكره القاضي عبدالجبار ليس فيه شيء من الحق :

١- فأحاديث الشفاعة مروية بالطرق الصحيحة التي لامطعن فيها .

٢- وأحاديث الشفاعة قد نقلت بالتواتر - كما سبق - فليست من أخبار الآحاد .

٣- وبدراسة طرق أحاديث الشفاعة الكثيرة يتبين أن تواترها ليس منحصراً في طبقة دون طبقة [3].

فبطل كل ماذكره القاضي .

الاعتراض الثاني : أن المراد من الخروج من النار هو : الخروج من حكم دخولها ، أو من عمل أهلها ، أي لايدخلها أبداً ، وذلك لايتم إلاّ في الذي يؤمن إيماناً صحيحاً ولايرتكب شيئاً من الكبائر [4].

والجواب : أن هذا التأويل غير صحيح ، إذ في النصوص التصريح بأنهم يحترقون فيها، وهذا ما فهمه الذين أرادوا الخروج ثم عدلوا عنه . عندما علموا أن من يعذب في النار من العصاة لايخلّد فيها ، فليس حكمه حكم الكافرين .

الاعتراض الثالث : إنه قد وردت نصوص تدل على انتفاء الشفاعة عن الظالمين . منها قوله تعالى : ﴿ **وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولاشفيع يطاع** (١٨) ﴾ غافر .

---

(١)- شرح الأصول الخمسة ، للقاضي عبدالجبار . ص: ٦٧٢ .

(٢)- انظر : المرجع السابق : الموضع نفسه .

(٣)- انظر : كثيراً من الروايات في : النهاية ، لابن كثير . جـ٢ ، ص: ١٨٥ وما بعدها .

(٤)- انظر : شرح الأصول الخمسة . ص: ٦٧٢-٦٧٣ . وأصدق المناهج في تمييز الإباضية من الخوارج ؛ سالم بن حمود بن شامس السيابي السمائلي .ص: ٣٥ .

وقوله : ﴿ **واتقوا يوماً لاتجزي نفس عن نفس شيئاً ولايقبل منها شفاعة ولايؤخذ منها عدلٌ ولاهم ينصرون** (٤٨) ﴾ البقرة .

والشفاعة غير المقبولة هي الشفاعة للظالمين ، كما في الآية الأولى ، ولاشك أن مرتكبي الكبائر من الظالمين ، فتكون الشفاعة لهم غير مقبولة . ومن النصوص قوله صلى الله عليه وسلم وقد ذكر الغلول فعظمه وعظم أمره : ((لا ألفيّن أحدكم يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة ، يقول : يارسول الله ، أغثني . فأقول لا أملك لك شيئاً ، قد أبلغتك ...)) الحديث . وذكر الذي يأتي وعلى رقبته بعير أو مال أو نحو ذلك [(١)].

فالرسول صلى الله عليه وسلم لايملك لهذا الغالّ شيئاً ، أي لايملك له الشفاعة ، والغال من مرتكبي الكبائر فيقاس عليه غيره ، وإن كان الرسول صلى الله عليه وسلم لايملك له شيئاً ، فمن دون الرسول من باب أولى [(٢)].

والجواب : أن العلماء قد بينوا أن الشفاعة منتفية حتى يتحقق أمران :

الأمر الأول : إذن الله للشافع بأن يشفع . قال تعالى : ﴿ ... **من ذا الذي يشفع عنده إلاّ بإذنه** ...(٢٥٥) ﴾ البقرة .

وقبل هذا الإذن لايملك أحد أن يشفع لأحد . وبناءً على هذا يقال : إن الرسول صلى الله عليه وسلّم عندما يقول للغال لا أملك لك شيئاً ، هو صحيح مادام أن الله لم يأذن لرسوله بالشفاعة له ، فإذا أراد الله تعذيبه ، ونال قسطه من العذاب ، واستأذن الرسول في الشفاعة فأذن له ، أخرج الغالّ من النار في الوقت الذي قدره الله تعالى بعدله . وهكذا كل عاصي ظالم .

---

(١)- متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه . واللفظ للبخاري . انظر فتح الباري : كتاب الجهاد (٥٦) ، باب الغلو (١٨٩) ، ح: ٣٠٧٣ ، جـ ٦ ، ص : ١٨٥ . وانظر شرح النووي على مسلم :كتاب الإمارة ، باب : غلظ تحريم الغلول ، جـ١٢ ، ص : ٢١٦-٢١٧ . والغلول : الخيانة في المغنم . والحمحمة: صوت الفرس عند العلف ، وهو دون الصهيل . فتح الباري . جـ٦ ، ص : ١٨٦ .

(٢)- انظر : شرح الأصول الخمسة . ص: ٦٨٩ . والعقود الفضية في أصول الإباضية ، لسالم بن حمد بن سليمان الحارثي . ص:٢٨٦-٢٨٧ .

الأمر الثاني : الرضا عن المشفوع له . قال تعالى : ﴿ ... **ولايشفعون إلاّ لمن ارتضى...** (٢٨) ﴾ الأنبياء .

والظالم بعصيانه قد لايكون ممن يرتضي الله تعالى أن يشفّع فيه الشفعاء قبل أن ينال قسطه من العذاب ، فإذا نال من العذاب مايتطهر به من معصيته أَذِن الله للشفعاء أن يشفعوا فيه ويخرجوه من العذاب ، ولذلك ورد في نصوص الشفاعة التي سبق ذكرها أن المؤمنين لايخرجون إلاّ الحد الذي أذن الله لهم فيه .

وبناء على ماسبق فإنه يمكن القول : إنه في الآيتين اللتين ذكرهما المعترض ، لوكان لفظ الظالمين يشمل العصاة ، فإن معنى الآيتين عندئذ : أن مجموع الظالمين لايجدون من يشفع لهم كالشفاعة في حال الحياة الدنيا ، إذ قد يشفع الشافع قبل أن يأذن له المشفوع عنده ، أو قد تتم الشفاعة وإن كان المشفوع عنده غير راض عن المشفوع له ، ولايعني أنه ليست تو جد شفاعة مطلقاً لأي ظالم . وهذا كما أن الخلّة بين الناس يوم القيامة قد نفيت في بعض النصوص كقوله جل جلاله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لابيع فيه ولاخلّة ولاشفاعة والكافرون هم الظالمون** (٢٥٤) ﴾ البقرة .

وجاء إثباتها في نصوص أخرى ، كقوله : ﴿ **الأخلاّء يومئذ بعضهم لبعض عدوٌّ إلا المتقين** (٦٧) ﴾ الزخرف .

فليست كل خلّة منفية ؛ بل هي موجودة بين المتقين ، وليست كل شفاعة عن أي ظالم منفيّة ؛ بل الشفاعة التي بإذن الله ورضاه عن المشفوع له ثابتة .

فإذا ثبت ذلك فإنه يقال : إن الشرط الأساس لرضا الله عن العاصي الظالم هو أن يموت على إيمان صحيح غير منقوض . قال صلى الله عليه وسلم : ((أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لاإله إلا الله خالصاً من قبل نفسه .)) وفي رواية ((من قلبه.)) [(١)] .

---

(١)- رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه . الرواية الأولى : فتح الباري ، كتاب : الرقاق (٨١) ، باب : صفة الجنة والنار (٥١) ، ح: ٦٥٧٠ ، جـ١١ ، ص: ٤١٨ . والرواية الثانية : كتاب العلم (٣) ، باب : الحرص على الحديث (٣٣) ، ح:٩٩ ، جـ١ ، ص: ١٩٣ . وفي كتاب : أصدق المناهج في تمييز الإباضية من الخوارج؛سالم حمود شامس السيابي السمائلي. ص: ٣٦ ، ادعى صاحبه : أن معنى الحديث:=

وأما الظالم الذي وصل في ظلمه إلى حد الكفر ، فإنه عندئذ لاتنفعه في الخروج من النار شفاعة أبداً . قال تعالى في حكاية سؤال أصحاب اليمين للمجرمين عن السبب في دخولهم النار : ﴿ **ماسلككم في سقر** (٤٢) **قالوا لم نك من المصلين** (٤٣) **ولم نك نطعم المسكين** (٤٤) **وكنا نخوض مع الخائضين** (٤٥) **وكنّا نكذب بيوم الدين** (٤٦) **حتىّ أتانا اليقين** (٤٧) **فما تنفعهم شفاعة الشافعين** (٤٨) ﴾ المدثر [1].

وبعد فإنه قد يقال : إن المراد من الظالمين في قوله : ﴿... **ما للظالمين من حميم ولاشفيع يطاع** (١٨) ﴾ غافر :

هم الكافرون[2]، وقد يستدل على ذلك بقوله : ﴿ ... **من قبل أن يأتي يوم لابيع فيه ولاخلّة ولاشفاعة والكافرون هم الظالمون** (٢٥٤) ﴾ البقرة .

فالظالمون الذين ليست لهم خلة ولاشفاعة تنفعهم هم الكافرون . وا لله أعلم .

الدليل الثالث : عن أبي ذرّ رضي ا لله عنه قال : [أتيت النبي صلى ا لله عليه وسلم وعليه ثوب أبيض وهو نائم ، ثم أتيته وقد استيقظ ، فقال : ((مامن عبد قال : لاإله إلاّ ا لله ثم مات على ذلك إلاّ دخل الجنّة .)) قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال :((وإن زنى

=إذا كان ذلك القول عن إخلاص فلا يقترف معه مأثماً بأن يوفق للعمل الصالح ، أو يخصص الحديث بمن قال تلك الكلمة ثم مات قبل توجه الأعمال ، أو بالتائب .

وهذا ادعاء غير صحيح ، فإن الحديث على ظاهره ، ولاداعي لتأويله . فالرسول صلى ا لله عليه وسلم لم يقل : إن أسعد الناس بشفاعته التي يدخل بها المؤمنون الجنة ابتداءً ، بل أطلق القول حتى يشمل جميع أنواع شفاعاته التي يسعد بها صاحبها . فالصالح يسعد ابتداءً بشفاعته صلى ا لله عليه وسلم في إدخال المؤمنين دار نعيمهم ، والعاصي لابد أن يسعد بشفاعته صلى ا لله عليه وسلم بسبب شهادته التي أخلص فيها ولم ينقضها ، فيسعد ولو بعد حين من العذاب .

(١)- انظر لما سبق : شرح النووي على صحيح مسلم . جـ١٢ ، ص: ٢١٧ . ومجموع فتاوى ابن تيمية جـ١ ، ص: ١١٦-١٢٠ ، ١٤٨-١٥١ . ومفتاح دار السعادة ، لابن قيم الجوزية . جـ٢ ، ص: ٢٦٩-٢٧٠ . وتفسير ابن كثير جـ٤ ، ص: ٧٥ . وشرح العقيدة الطحاوية . ص: ٢٦٤-٢٦٥ . وفتح الباري جـ٦، ص : ١٨٦ .

(٢)- انظر : الجامع لشعب الإيمان ، للبيهقي . جـ٢ ، ص: ١٠٨ .

وإن سرق .)) . قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : ((وإن زنى وإن سرق .)). قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : ((وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي ذرّ .)). وكان أبو ذرّ إذا حدث بهذا قال : وإن رغم أنف أبي ذر .] (١).

وفي رواية أخرى عن أبي ذر ، قال :

[خرجت ليلة من الليالي ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي وحده وليس معه إنسان ، قال : فظننت أنه يكره أن يمشي معه أحد ، قال : فجعلت أمشي في ظل القمر ، فالتفت فرآني ، فقال : ((من هذا))؟ قلت : أبوذر ، جعلني الله فداءك . قال : ((يا أباذر ، تعال.)) قال : فمشيت معه ساعة ، فقال لي : ((إن المكثرين هم المقلّون يوم القيامة ، إلاّ من أعطاه الله خيراً فنفح فيه يمينه وشماله وبين يديه ووراءه وعمل فيه خيراً.)). قال : فمشيت معه ساعة ، فقال لي : ((اجلس هاهنا)) قال : فأجلسني في قاع حوله حجاره ، فقال لي : ((اجلس هاهنا ، حتى أرجع إليك.)). قال : فانطلق في الحرّة حتى لا أراه ، فلبث عني فأطال اللبث ، ثم إني سمعته وهو مقبل وهو يقول : ((وإن سرق وإن زنى)) . قال : فلما جاء لم أصبر حتى قلت : يانبي الله ، جعلني الله فداءك ، من تكلم في جانب الحرة؟ ماسمعت أحداً يرجع إليك شيئاً . قال :((ذلك جبريل عليه السلام ، عرض لي في جانب الحرّة قال : بشر أمتك أنه من مات لايشرك با لله شيئاً دخل الجنّة ، قلت ياجبريل : وإن سرق وإن زنى ؟ قال : نعم -قال:- قلت:وإن سرق وإن زنى ؟ قال : نعم . قلت : وإن سرق وإن زنى ؟ قال : نعم.)).] (٢).

---

(١)- متفق عليه عن أبي ذر رضي الله عنه . واللفظ للبخاري . فتح الباري : كتاب اللباس (٧٧) ، باب: الثياب البيض (٢٤) ، ح: ٥٨٢٧ ، جـ١٠ ، ص : ٢٨٣ . وانظر شرح النووي على مسلم : كتاب الإيمان ، باب : الدليل على أن من مات لايشرك با لله شيئاً دخل الجنة وإن مات مشركاً دخل النار ، جـ٢،ص: ٩٤ .

(٢)- متفق عليها عن أبي ذرّ . واللفظ للبخاري.فتح الباري :كتاب الرقاق (٨١) ، باب : المكثرون هم المقلون ...(١٣)، ح: ٦٤٤٣ ، جـ١١ ، ص: ٢٦٠-٢٦١ .وانظر شرح النووي على مسلم:كتاب الزكاة، باب : تغليظ عقوبة من لايؤدي الزكاة،جـ٧ ، ص: ٧٤-٧٦ ، وقد ذكر روايتين وفي الثانية منهما زيادة : ((وإن شرب الخمر)).أقول : وإذا تساءل البعض عن كيفية حدوث القصتين ، فالجواب :=

إن في الحديث دلالة على أن من مات على توحيد صحيح غير منقوض فإن مآله الأخير إلى الجنة ، وإن ارتكب الكبائر . وهذا يعني : أنه إذا عذب العاصي على ما ارتكبه من ذنوب فإنه لابد أن يخرج من دار العذاب ويدخل دار النعيم [١].

وقد اعترض على هذا بأن المراد بهذا الحديث التائب [٢]، أو ماكان من الإنسان قبل إسلامه من زنى وسرقة ، أو ماكان منه قبل البلوغ [٣].

والجواب : أن هذه التأويلات قد يُحتاج إليها فيما لو جاء في الحديث : أن من ارتكب هذه الذنوب يدخل الجنة دون أن يعذب أبداً ، ولكن الحديث لم يذكر ذلك ، فلا داعي لقصر الحديث على هذه التأويلات مادام أنه يمكن حمله على ظاهره ، والذي يدل على أن الموحد مصيره أن يدخل الجنة ، ولو بعد أن ينال قسطه من العذاب على ذنوبه.

ثم إن الحديث بروايتيه يظهر منه أنه قد حدث في المدينة ، ولايعقل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا ذر أيضاً لم يعلما حتى ذلك الوقت حكم التائب أو حكم من أسلم ، وقد جاء في الكثير من الآيات المكية أنه تعالى يقبل توبة المذنبين والكافرين [٤].

ثم لو فرض أنهما لم يعلما ذلك فلماذا يستبعدان حكم المغفرة لأمثال التائب والكافر الذي أسلم والصغير ، حتى يقول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي ذر : ((وإن رغم أنف أبي ذر)). ويكررها بعد ذلك رضي الله عنه عندما يذكر الحديث للدلالة على ماكان منه

=أنه لعل قصة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جبريل عليه السلام حدثت أولاً ، وسمعها أبوذر . حتى إذا رجع إلى منزله وتفكر فيها استغرب الحكم الوارد فيها ، وربما نشأ عنده احتمال أن يكون مارآه هو منام ، إذ قصة الحرّة حدثت ليلاً ، فأراد رضي الله عنه التأكد من هذا الحكم .والله أعلم .

(١)- انظر : فتح الباري . جـ: ١١ ، ص: ٢٦٢ .

(٢)- هذه أحد التأويلات التي ذكرها الإمام البخاري . انظر فتح الباري . آخر الحديث : ٥٨٢٧ ، جـ : ١٠ ، ص: ٢٨٣ .

(٣)- انظر : : أصدق المناهج في تمييز الإباضية من الخوارج ، ص : ٣٤ .

(٤)- انظر : الآيات : (٥٤) الأنعام . (١٥٣) الأعراف . (١١٩) النحل . (٨٢) طه . (٣) غافر . وغيرها من آيات مكية كثيرة .

من استبعاد لـهذا الحكم وأنه قد سلم بما جاء من عند ا لله تعالى .

إن مقتضى إطلاق البشارة للأمة – كما في الروايـة الثانيـه – أن تعمهـم ، فتعُـمَّ كـل واحد منهم بحسبه ، والوجه الذي يمكن أن يعُمّ الأمة جميعاً هو : أن مصـيرهم الأخـير هـو دار النعيم . وا لله أعلم .

الدليل الرابع : عن جابر بن عبدا لله رضي ا لله عنهما قال :

[أتى النبي صلى ا لله عليه وسلم رجلٌ فقال : يا رسـول ا لله ، ماالموجبتـان ؟ فقـال : ((من مات لايشرك با لله شيئاً دخل الجنة ، ومن مات يشرك با لله شيئاً دخل النار))] [1] .

إن الشـرك إذا أطلـق في مثـل هـذه الأحـاديث انصرف إلى الشـرك الأكـبر المخـرج للمكلف من الملّة [2] .

ومرتكب الكبيرة لا يعتبر من المشركين ، مادام أنه لم يستحلّها ، وبناءً على ذلك فـإن في الحديث دلالة على أن كل من مات على إيمان صحيـح فمصـيره الجنـة ، سـواء دخلهـا ابتداءً أو دخلها بعد مدة عذاب في النار بسبب ذنوب ارتكبها [3] .

وقد اعترض على هذا بأن المراد مـن قولـه : ((مـن مـات لايشـرك بـا لله شيئاً دخـل الجنة)) أي : من مات غير مشرك با لله وغير مقترف لإثم فإنه يدخل الجنة [4] .

والجواب : أن هذا التأويل قد يحتاج إليه لو أن الحديـث دل علـى أن جميـع الموحديـن يدخلون الجنة دون التعرض لأي عذاب ، ولكن ليس في الحديث ما يدل على هذا المعنى ، بل غايته إثبات أن مصير غير المشرك هو دخول الجنة ، وهذا لاينافيه دخول النار قبل ذلك بسبب بعض الكبائر .

الدليل الخامس : مجموعة من الأحاديث ورد فيها : أن من مات وهو يشهد أن لاإلـه

---

(١)- رواه مسلم عن جابر . شرح النووي على مسلم : كتاب : الإيمان ، باب : الدليل على أن من مـات لايشرك با لله شيئاً دخل الجنة وإن مات مشركاً دخل النار ، جـ: ٢ ، ص: ٩٢-٩٣ .

(٢)- انظر : فتح الباري . جـ: ٣ ، ص: ١١١ .

(٣)- انظر : شرح النووي على مسلم . جـ: ٢ ، ص: ٩٧ .

(٤)- انظر : أصدق المناهج في تمييز الإباضية من الخوارج ، ص: ٣٦ .

إلاّ الله – أو نحو هذا – دخل الجنة . منها :

١- قوله صلى الله عليه وسلم : ((من مات وهو يعلم أنه لاإله إلاّ الله دخل الجنة..))[1] .

٢- قوله صلى الله عليه وسلم في آخر حديث ورد في قصة جرت في إحدى غزواته: [...((أشهد أن لاإله إلا الله وأني رسول الله لايلقى الله عبدٌ غير شاك فيهما إلا دخل الجنة))][2] .

٣- قوله صلى الله عليه وسلم : ((من شهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل)) [3] .

٤- عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاه نعليه وقال له :

((اذهب بنعليّ هاتين فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لاإله إلا الله مُستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة)) .

فذهب رضي الله عنه فلقي عمر رضي الله عنه فأخبره فمنعه عمر من إخبار الناس ، ورجعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسأل عمر الرسول عليه السلام متثبتاً عما نقله عنه أبو هريرة فأخبره ، فقال عمر :

---

(١)- رواه مسلم عن عثمان بن عفان رضي الله عنه . شرح النووي على مسلم : كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً ، جـ: ١ ، ص: ٢١٨ .

(٢)- رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه . شرح النووي على مسلم : الكتاب والباب السابقين ، جـ: ١ ، ص: ٢٢٣-٢٢٤ .

(٣)- متفق عليه عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه . واللفظ للبخاري . فتح الباري : كتاب : أحاديث الأنبياء (٦٠)،باب:قوله:﴿**يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم...**﴾-١٧١:النساء -(٤٧) ، ح: ٣٤٣٥ ، جـ: ٦ ، ص: ٤٧٤ . وانظر شرح النووي على مسلم : الكتاب والباب الواردين في التعليقة قبل السابقة ، جـ: ١ ، ص: ٢٢٦-٢٢٧ .

[فلا تفعل فإنّي أخشى أن يتّكل الناس عليها فخلّهم يعملون . قال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم : ((فخلّهم))] [1].

٥- قوله صلى ا لله عليه وسلم : ((من قال لاإلـه إلا ا لله ، نفعته يوماً من دهره ، أصابه قبل ذلك ما أصابه)) . وفي رواية : ((أنجته)) بدل ((نفعته)) [2].

هذه الأحاديث مجتمعة تدل دلالة واضحة وظاهرة على أن من مات على إيمان صحيح غير منقوض فإن مآله إلى الجنة [3]، ومما يؤكد هذه الدلالة :

أ- قوله صلى ا لله عليه وسلم : ((على ما كان من العمل)) فإن ظاهر هذا القول أنه جل شأنه يدخل الموحد الجنة سواء كانت أعماله صالحة أم غير ذلك [4]. ولا يعني هذا أن العاصي لايجازى على عصيانه .

ب- طلب عمر رضي ا لله عنه من الرسول صلى ا لله عليه وسلم ألاّ يخبر الناس بحديث ((من لقيت ...)) حتى لايتّكل عليه الناس ، فلو كان هذا الحديث ونحوه خاصاً بمن تاب وعمل صالحاً ما طلب عمر رضي ا لله عنه من الرسول صلى ا لله عليه وسلم ذلك.

ولو كان عمر يخاف أن يبلغ هذا الحديث من لايفهمه على هذا الوجه ، ما كان من العسير أن يضاف إلى هذه البشارة أنها خاصة بمن تاب عن العمل السيء ، أو بمن كان

---

(١)- رواه مسلم عن أبي هريرة رضي ا لله عنه . انظر : شرح النووي على مسلم : الكتاب والباب السابقين ، جـ: ١ ، ص: ٢٣٣-٢٤٠ .

(٢)- كلا الروايتين أخرجهما البيهقي عن أبي هريرة رضي ا لله عنه في : الجامع لشعب الإيمان :(١) الأول من شعب الإيمان وهو باب : في الإيمان با لله عزوجل ، ح: ٩٦-٩٧ ، جـ: ١ ، ص: ٢٦٨-٢٦٩ . وقد بين محقق الكتاب عبدالعلي عبدالحميد حامد من خلال دراسته لسند كل من الروايتين أن : الرواية الأولى : إسنادها رجاله ثقات معروفون ، وبيّن حال كل رجل . والرواية الثانية . إسنادها صحيح ، وبين حال رجالها غير المذكورين في السند الأول . والحديث صححه الألباني في الجامع الصغير وزيادته : ح:٦٤٣٤، جـ: ٢ ، ص: ١٠٩٨ .

(٣)- انظر تأويلات السلف لهذه الأدلة وأمثالها مع توجيهها : شرح النووي على مسلم ، جـ: ١ ، ص:٢١٩-٢٢٠ .

(٤)- انظر : فتح الباري . جـ: ٦ ، ص: ٤٧٥ .

عمله كله حسناً أو نحوهما .

جـ- الحديث الخامس ، ظاهر الدلالة على أن من مات على التوحيد فإنه لابد أن ينتفع يوماًما بشهادة التوحيد التي مات عليها ، والانتفاع الحقيقي لايكون إلا بدخول الجنة، وفي الرواية الثانية : فإن تلك الشهادة لابد أن تنجيه أي من العذاب ، وقال في آخرالحديث : ((أصابه قبل ذلك ما أصابه)) وإذا جمع هذا القول إلى قوله : ((تنجيه)) كان فيه دلالة على أن الشهادة تنجي صاحبها من العذاب وإن ناله منه ما ناله بسبب معاصيه .

الدليل السادس : الجمع بين الأحاديث التي يذكر فيها عدم دخول النار أو تحريم دخولها لمن شهد حقاً أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتلك التي يذكر فيها عدم دخول الجنة أو تحريم دخولها لمن ارتكب ذنباً . ومن تلك الأحاديث :

١- قوله صلى الله عليه وسلم : ((لايدخل النار أحدٌ في قلبه مثقال حبّة من خردل من إيمان ، ولايدخل الجنة أحدٌ في قلبه مثقال حبّة من خردل من كبرياء))[(١)] .

٢- قوله صلى الله عليه وسلم : ((من شهد أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله حرّم الله عليه النار))[(٢)] .

٣- قوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ وكان رديفه على الرحل :[((يا معاذ بن جبل)). قال : لبيك يا رسول الله وسعديك . قال : ((يا معاذ)) . قال : لبيك يا رسول الله وسعديك (ثلاثاً) . قال : ((ما من أحد يشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله صِدْقاً من قلبه إلاّ حرّمه الله على النّار)) . قال يا رسول الله ، أفلا أخبر به الناس

---

(١)- رواه مسلم عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه . شرح النووي على مسلم : كتاب الإيمان ، باب: تحريم الكبر وبيانه ، جـ: ٢، ص: ٨٩ .

(٢)- رواه مسلم عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه . انظر المرجع السابق : كتاب الإيمان ، باب : الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً ، جـ: ١ ، ص: ٢٢٧-٢٢٩ .

فيستبشروا ؟ . قال : ((إذاً يتّكلوا)) .][1].

٤- قوله صلى الله عليه وسلم : ((لايدخل الجنة نمامّ))[2].

٥- قوله صلى الله عليه وسلم : ((من ادّعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام .))[3].

فالحديث الأول من هذه الأحاديث قد جمع بين أمرين لايمتنع أن يجتمعا في قلب مكلف[4]، وكذلك فإن ماورد في الحديثين الثاني والثالث من الشهادة الحقة لايمتنع أن يجتمع لدى مكلف مع ما ورد في الحديثين الرابع والخامس من الذنوب ، وعندئذ :

أ- فإمّا أن يقال : إن هذا المكلف محرم عليه دخول كل من الدارين تحريماً أبدياً ، وهذا باطل إذ لابد أن يصير المكلف إلى أحد الدارين .

ب- وإما أن يقال : إن هذا الصنف من المكلفين محرم عليهم دخول الجنة تحريماً أبدياً، وأما النار فإنه يحرم عليهم دخول بعض دركاتها المختصة بالكافرين . وهذا القول يقابله القول بأن هذا الصنف من المكلفين محرم عليهم دخول النار تحريماً أبدياً ، وأما الجنة فإنه يحرم عليهم دخول بعض درجاتها العلى .

وكلا القولين باطلان ، يسقط بعضهما بعضاً . ويشهد على بطلانهما سائر نصوص

---

(١)- متفق عليه عن أنس بن مالك رضي الله عنه . واللفظ للبخاري . انظر : فتح الباري : كتاب العلم(٣) ، باب : من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لايفهموا (٤٩) ، ح: ١٢٨ ، جـ: ١ ، ص:٢٢٦ . وانظر : شرح النووي على مسلم : كتاب الإيمان ، باب : الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً ، جـ: ١ ، ص: ٢٤٠- ٢٤٢ ، (ح: ٥٣ حسب المعجم).وآخر الحديث أن معاذاً أخبر بها عند موته تأثّماً .

(٢)- رواه مسلم عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه . شرح النووي على مسلم : كتاب الإيمان ، باب : بيان غلظ تحريم النميمة ، جـ: ٢ ، ص: ١١٢ .

(٣)- رواه مسلم عن سعد بن أبي وقاص وأبي بكر رضي الله عنهما . شرح النووي على مسلم : كتاب الإيمان ، باب: بيان حال من رغب عن أبيه وهو يعلم ، جـ٢ ، ص: ٥٢-٥٣ .

(٤)- انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية . جـ: ٧ ، ص: ٦٧٧-٦٧٨ .

الكتاب والسنة الدالة على دخول بعض الموحدين النار ثم خروجهم منها [(١)].

جـ- وإما أن يقال إن هذا الصنف من المكلفين لهم نصيب في كلا الدارين ، ولكنهم يدخلون الجنة أولاً ثم يدخلون النار ، ولايقول بهذا أحد من المسلمين .

د- وإما أن يقال إنه يدخل إلى النار ثم يخرج منها ويدخل الجنة وهذا هو قول أهل السنة الموافق لمجموع أدلة الكتاب والسنة . ويؤيده خوف الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتكل الناس على أنه من شهد شهادة الحق فقد حرمه الله على النار . إذ لو كان هذا الحكم خاصاً بمن أصلح عمله ، ما كان من العسير أن يبيّنه الرسول صلى الله عليه وسلم. وتأويل أحاديث هذا الدليل بمقتضى هذا القول على النحو التالي :

إن تحريم دخول الجنة الوارد في حق مرتكب الكبيرة ليس تحريماً مطلقاً ، بل هو تحريم مقيد بقيد خاص . وكذلك فإن تحريم دخول النار الوارد في حق من شهد شهادة الحق ليس تحريماً مطلقاً ، بل هو مقيد بقيد خاص .

فالأول يحرم عليه دخول الجنة كدخول من لم يرتكب تلك الكبائر ، فإما أن يحرم عليه دخولها ابتداءً ، وإما أن يحرم عليه دخول بعض درجاتها العلى .

وإن شمل الوعيد من يرتكب تلك الكبائر استحلالاً لها أو نحو ذلك فهذا يحرم عليه دخول الجنة تحريماً أبدياً .

والثاني يحرم عليه دخول النار كدخول من ليس عنده إيمان ، فإما ألاّ يدخلها أبداً ، وذلك إذا لم يوجد سبب يقتضي ذلك بحكمة الله تعالى وعدله ، أو وجد ولم يشأ الله تعذيبه . وإما أن يحرم عليه البقاء فيها كبقاء الكافرين إن دخلها بسبب عمله ، وقد يحرم عليه دخول بعض دركاتها ، والله أعلم . ولكن لايكتفى بهذا الوجه بل لابد أن يجتمع معه الوجه الذي قبله ، لما سبق بيانه [(٢)].

---

(١)- انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية . جـ: ١٦ ، ص: ١٩٦-١٩٧ .

(٢)- انظر ص:٢٦٦-٢٦٧ . وانظر : شرح النووي على مسلم . جـ: ١ ، ص : ٢١٩-٢٢٠ ، جـ: ٢، ص: ٥٢ ، ٩١ ، ١١٣، ١٢٥، ١٦٦ . وانظر : مجموع فتاوى ابن تيمية . جـ: ٧ ، ص: ٦٧٧-٦٧٩ ، جـ: ١٦ ، ص: ١٩٦-١٩٧ .

٩- خلود الكافرين في عذاب جهنم :

إن الكافر قد أحبط بكفره جميع ماقد يكون عنده من أسباب للثواب . قال تعالى :

﴿ **... ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** (٢١٧) ﴾ البقرة .

فليس عند الكافر إلاّ الأسباب المؤدية إلى دخوله دار العقاب . وإذا كانت الجنة داراً قد اختصها ا لله بمن قام به سبب الإيمان الصحيح غير المنقوض ، كما قال صلى ا لله عليه وسلم : ((... إن الجنة لايدخلها إلا نفس مسلمة ...))(١) .

وقال صلى ا لله عليه وسلم : ((.... إنه لايدخل الجنة إلاّ المؤمنون ...))(٢) .

فليس من الحكمة العفو عن الكافر ابتداءً إذ فيه تسوية لمصيره بمصير المؤمن وا لله

---

(١)- طرف من حديث متفق عليه عن عبدا لله بن مسعود رضي ا لله عنه . ولفظه كما عند البخاري : [كنّا مع النبي صلى ا لله عليه وسلم في قبّه فقال : ((أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة))؟ قلنا : نعم . قال : ((أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة)) ؟ قلنا : نعم . قال : ((أترضون أن تكونوا شطر أهل الجنّة)) قلنا : نعم .قال : ((والذي نفس محمد بيده إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة ، وذلك أن الجنة لايدخلها إلا نفس مسلمة ، وما أنتم في أهل الشرك إلاّ كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود ، أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر .)).] . فتح الباري : كتاب الرقاق (٨١) ، باب الحشر (٤٥) ، ح: ٦٥٢٨ ، جـ:١١، ص: ٣٧٨ . وانظر : شرح النووي على مسلم : كتاب الإيمان ، باب : بيان كون هذه الأمة نصف أهل الجنة ، جـ: ٣ ، ص: ٩٦-٩٧ . وروى الإمام مسلم عن أبي هريرة في : كتاب الإيمان ، باب : بيان غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه ، جـ: ٢ ، ص: ١٢١-١٢٢ : قصة الرجل الذي حارب مع الرسول صلى ا لله عليه وسلم فأصابته جراحة فقتل نفسه ، فأمر صلى ا لله عليه وسلم بلالاً فنادى في الناس : ((إنه لايدخل الجنة إلا نفس مسلمة)) .

(٢)- طرف من حديث رواه مسلم عن عمر بن الخطاب رضي ا لله عنه قال : [لما كان يوم خيبر أقبل نفرٌ من صحابة النبي صلى ا لله عليه وسلم ، فقالوا : : فلان شهيد ، فلان شهيد ، حتى مرّوا على رجلٍ ، فقالوا : فلان شهيد ، فقال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم : ((كلاّ إنّي رأيته في النار في بردة غلّها أو عباءة)) ثم قال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم : ((يا ابن الخطاب ، إذهب فناد في الناس : أنه لايدخل الجنة إلاّ المؤمنون)) قال : فخرجت فناديت : ألا إنه لايدخل الجنّة إلاّ المؤمنون] . شرح النووي على مسلم : كتاب الإيمان ، باب : غلظ تحريم الغلول وأنه لايدخل الجنة إلا المؤمنون ، جـ: ٢ ، ص: ١٢٧ .

سبحانه قد بين تنزهه عن ذلك [١]. وكذلك ليس من الحكمة العفو عن الكافرين قبل إخراج جميع من في النار من المؤمنين للسبب نفسه .

وأما بعد ذلك فالذي دلت عليه النصوص أن الكافرين يخلدون في العذاب أبد الآباد .

قال جل شأنه : ﴿ **إنّ الذين كفروا وظلموا لم يكن ا لله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً(١٦٨)إلاّ طريق جهنّم خالدين فيها أبداً وكان ذلك على ا لله يسيراً(١٦٩)**﴾ النساء.

وقال جل جلاله : ﴿ **إنّ المجرمين في عذاب جهنّم خالدون** (٧٤) **لايُفتّر عنهم وهم فيه مبلسون** (٧٥) ﴾ الزخرف [٢].

---

(١)- سبق بيان ذلك انظر ص: ١١٦-١١٧ .

(٢)- ستأتي دراسة تفصيلية - بإذن ا لله - لمسألة خلود الكافرين في النار ، والأدلة المتنوّعة عليها ، وبعض حكم ذلك الخلود . وذلك في آخر فصول الرسالة . انظر ص: ٧٩٨ ومابعدها .

ثانيا : شروط تحقق الجزاء الأخروي على العمل .

إن للإثابة على الأعمال ، وكذا للعقاب عليها شروطاً لابد من توافرها حتى تتحقق الإثابة على عمل ما ، أو العقاب عليه .

وابتداءً فإن هناك شرطاً رئيساً لاعتبار المرء موضع إثابة أو عقاب على ما سبق منه من عمل ، وهذا الشرط هو : استيفاء العامل حال عمله شروط أهلية التكليف ، التي ستأتي دراستها [1] إن شاء ا لله .

أما أهم الشروط اللازمة ليكون العمل موضعاً للثواب أو للعقاب فهي على النحو الآتي :

١ - أهم شروط تحقق الثواب على العمل :

الشرط الأول : كون العامل مؤمناً با لله تعالى حق الإيمان :

قال جل شأنه :

﴿ **من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** (٩٧) ﴾ النحل .

فلقبول أي عمل صالح ومن ثم الإثابة عليه لابد من أن يكون العامل المكلف مؤمناً بربه تعالى الإيمان الصحيح الخالي من أي ناقضٍ من نواقض الإيمان [2] . والتي من أعظمها الشرك با لله عزوجل ، قال سبحانه :

﴿ **قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولايشرك بعبادة ربه أحداً** (١١٠) ﴾ الكهف .

فمن أراد الثواب من ا لله تعالى على ماقدمه من عمل صالح ، فليلقه جلّ شأنه بإيمان صحيح غير منقوض بأي نوع من أنواع الشرك المخرج من الدين بالكلية ، وذلك لأن (العقيدة هي التي تجعل للعمل الصالح باعثاً وغاية ، فتجعل الخير أصيلاً ثابتاً يستند إلى أصل كبير ، لا عارضاً مزعزعاً يميل مع الشهوات والأهواء حيث تميل) [3] .

---

(١)- انظر ص:٤٥٩ ومابعدها .

(٢)- انظر : مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية . جـ: ١٠ ، ص: ٣٢٣ .

(٣)- في ظلال القرآن ؛ سيد قطب ، مج : ٤ ، جـ: ١٤ ، ص: ٢١٩٣ .

ثم إن المشرك إن عمل خيراً . ولو فرض أنه لم يكن لغاية دنيوية . فإنه غالبـاً لايبتغي بعمله ذلك وجه ا لله وحده ، بل يبتغي معه غيره ممن يعبده من الآلـهة الأخرى الباطلة ، وا لله سبحانه أغنى الشركاء عن الشرك ، فلا يقبل من الأعمال إلا ما كان له خالصاً [(١)].
وقد لايبتغي المشرك من عمله إلا ذلك الإله الـذي يعبـده مـع ا لله سبحانه أو مـن دونـه، ومثل هذا أحرى ألا يثاب على عمله .

فإذا لم يتحقق شرط الإيمان الصحيح ، لم يكن العمل الحسن مقبولاً عند ا لله سبحانه، بل يكون مردوداً على صاحبه، لاقيمة له ، ولايكون لصاحبه على ا لله ثواب ، قال تعالى:

﴿ **مثل الذين كفروا بربهـم أعمالـهم كرماد اشتدت بـه الريح في يوم عاصف لايقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد** (١٨) ﴾ إبراهيم .

فا لله سبحانه يشبّه أعمال الكفار الحسنة بالرماد الذي إذا جاءته ريح عاصف تناثر في الهواء فلم يقدر صاحبه على تجميعه ، ومن ثم الاستفادة منه ، وذلك التشبيه فيه دلالة على عدم غنـاء تلـك الأعمـال عـن صاحبهـا شيئاً ، إذ هـم لـن ينـالوا بسـببها أي ثـواب يـوم الدين[(٢)] .

وقال جل شأنه:﴿ **وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً**(٢٣)﴾الفرقان.

في هذه الآية يخبر تبارك اسمه بأنه سوف يجعل الأعمال التي يظن بها الكفار خيراً هباءً منثوراً .

والهباء هو : الذرات المتناهية الصغر التي ترى عند دخول أشعة الشـمس مـن كـوة أو نافذة ونحوهما [(٣)].

وهذا الهباء المتناثر يصعب جداً جمع شيء منه ، ومـا جُمـع لايسـتفاد منـه في شـيء ، فكذا أعمال الكفار الحسنة عندما يجعلها سبحانه هباءً منثوراً ، فلا يكاد صاحبها يستطيع جمع شيء منها ، وماقد يجمعه لن يستفيد منه في شيء ، إذ لم يكن على الوجه الذي أراده

---

(١)- وسيأتي بيان هذا الأمر عند شرح شرط الإخلاص . انظر ص: ٣٠٠ ومابعدها .

(٢)- انظر : تفسير ابن كثير ، جـ: ٢ . ص: ٥٢٧ . وتفسير فتح القدير للشوكاني ، جـ: ٣ ، ص:١٠١

(٣)- انظر : تفسير التحرير والتنوير ؛ محمد الطاهر بن عاشور . جـ: ١٩ ، ص: ٨ .

ا لله سبحانه [1] .

فالكفار ليست لـهم أعمـال حسـنة يقدمـون بهـا علـى ا لله تعـالى ويكـون لـهـا وزن معتبر، يقول شيخ الاسلام ابن تيمية :

(وأما الكفار : فلا يحاسبون محاسبة مـن تـوزن حسـناته وسيئاته ، فإنـه لاحسـنات لـهم، ولكن تعد أعمالـهم وتحصى فيوقفون عليها ويقررون بها ويجزون بها .)[2] .

ولكن قد يقال بأن جهنم دركات ، ولاشك أن الكفار متفاوتون في كـثرة ذنوبهـم ، فيلزم من ذلك أن يكـون بعضهـم دون بعـض في شـدة العـذاب [3] . علـى ذلـك فـالعمل الحسن الذي قد يعمله الكافر وإن لم يكن مقبولاً عند ا لله تعالى ، إلا أنه قـد يسـتفيد منـه صاحبه ؛ من جهة أن الزمن كان مستغرقاً في أداء عمل حسـن ، لاعمـل سـيء يزيـد مـن عذاب صاحبه في النار. والكافر وإن لم يكن لأعماله الحسنة قيمة في الميزان ، إلا أن ميزان من كان مكثراً من الأعمال السيئة ومقلاً مـن الأعمـال الحسـنة سـوف يكـون أخـفّ مـن ميزان من كان بعكسه. فيصير الأول إلى عذاب أشد من عذاب الأخير ، هـذا مـع مراعـاة أمور أُخر كالمعتقد الكفري ، فبعض الكفر أعظـم مـن بعـض ، وكعظـم المعصيـة ، فـرب معصية واحدة أعظم من معاصي كثيرة أخرى [4] .

قد يقال هذا . ولكن في الحقيقة ليس في هـذا الأمـر فـائدة حقيقيـة إذ العـذاب بالنـار مهما علت دركته فهو عذاب شديد لايظن صاحبه أن هنـاك عذابـاً أعظـم منـه . وبذلـك فإنه لايقال بأن الكافر قد انتفع حقيقة مما قدمه من عمل صالح .

ومما يدل على عدم انتفاع الكافر في الآخرة بما يقدمه من أعمال صالحة في الدنيا قولـه

---

(١)- انظر : تفسـير ابـن كثـير ، جــ: ٣ ، ص: ٣١٤.و: تفسـير فتـح القديـر ، للشـوكاني ، جــ: ٤ ، ص: ٧٠.و: تفسير التحرير والتنوير . جـ: ١٩ ، ص: ٨ .

(٢)- مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية:جـ: ٣ ، ص: ١٤٦ .

(٣)- انظر : تحرير المقال في موازنة الأعمال ؛ أبو طالب القضاعي . جـ: ١ ، ص: ٢٧٨-٢٨١ .

(٤)- انظر : مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابـن تيميـة ، جــ: ٤ ، ص: ٣٠٥-٣٠٦ .و: الـدرة فيمـا يجـب اعتقاده ، لابن حزم . ص: ٣٥٣-٣٥٧ .

صلى الله عليه وسلم : ((إن الله لايظلم مؤمناً حسنة ، يعطى بها في الدنيا ، ويجزى بها في الآخرة . وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل لله في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها .))(١) .

فهذا الحديث يبيّن أن الكافر إنما يطعم بحسناته في الدنيا بما يناله من نعم الله سبحانه ، حتى إذا أتى في الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها ، فلا يقال إنه قد ينتفع في الآخرة بما يقدمه من عمل صالح في الدنيا (٢) .

ومما يؤكد هذا ماجاء عن عائشة رضي الله عنها أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له : [يا رسول الله : ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ، ويطعم المسكين ، فهل ذاك نافعه ، قال : ((لا ينفعه إنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين))] (٣) .

وقال بعض العلماء : إن معنى قوله لاينفعه ، أي لاينفعه في الخروج من النار ، أما الانتفاع في كونه في دركة من العذاب أعلى من الدركات السفلى ، فهذا غير ممتنع ، إذ النار دركات فمن كانت له أعمال حسنة لابد أن يكون في دركة أعلى من دركة من ليس له مثل تلك الأعمال (٤) .

ومما قد يستدل به على ذلك الحديث الذي سأل فيه العباس رضي الله عنه الرسول صلى الله عليه وسلم فقال له : [يا رسول الله : إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك فهل

---

(١)- رواه مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه . انظر شرح النووي على مسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة ، وتعجيل حسنات الكافر في الدنيا ، جـ: ١٧ ، ص: ١٤٩-١٥٠ .

(٢)- انظر : شرح النووي على مسلم ، جـ: ١٧ ، ص: ١٥٠ .

(٣)- رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها ، انظر شرح النووي على مسلم ، كتاب الإيمان ، باب : الدليل على أن من مات على الكفر لاينفعه عمل ، جـ: ٣ ، ص: ٨٦ . وانظر في التعريف بابن جدعان : ص:٥٢٥ ، هامش : (٣) .

(٤)- انظر : شرح النووي على مسلم ، جـ: ٣ ، ص: ٨٧ .

نفعه ذلك ؟ . قال : ((نعم ، وجدته في غمرات من النار فأخرجته إلى ضحضاح))][1] .

وفي رواية أن العباس قال للنبي صلى الله عليه وسلم : [هل نفعت أباطالب بشيء ؟ فإنه كان يحوطك ويغضب لك . قال : ((نعم هو في ضحضاح من نار ، لولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار))][2] .

وقد ذكر أيضاً أبو طالب مرة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ((لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة ، فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلي منه أم دماغه))[3] .

فهذا أبو طالب قد مات على كفره ، ومع ذلك سوف ينتفع يوم القيامة بشفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم بتخفيف العذاب عنه - كما في نص الحديث - وهذه الشفاعة إنما كانت بسبب نصرة أبي طالب للرَّسُول صلى الله عليه وسلم وتأييده له [4] .

---

(١)- متفق عليه من حديث العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه ، واللفظ لمسلم ، انظر : شرح النووي على مسلم ، كتاب الإيمان ، باب : شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه ، جـ: ٣ ، ص: ٨٤ . وللحديث عدة روايات عند البخاري أقربها من حيث السند إلى رواية مسلم ، انظر: فتح الباري ، كتاب : مناقب الأنصار (٦٣) ، باب قصة أبي طالب (٤٠) ، ح: ٣٨٨٣ ، جـ: ٧ ، ص: ١٩٣ . وسند مسلم : حدثنا ابن أبي عمر حدثنا سفيان ..، وسند البخاري : حدثنا مسدد ، حدثنا يحي عن سفيان .... .

(٢)- متفق عليه من حديث العباس ، واللفظ للبخاري ، انظر فتح الباري : كتاب الأدب (٧٨) ، باب : كنية المشرك (١١٥)،ح: ٦٢٠٨ ، جـ: ١٠ ، ص: ٥٩٢ . وانظر : شرح النووي على مسلم ، الموضع السابق من التعليقة السابقة .

(٣)- متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، واللفظ للبخاري . انظر : فتح الباري ، كتاب الرقاق (٨١)،باب : صفة الجنة والنار (٥١) ، ح: ٦٥٦٤ ، جـ: ١١ ، ص: ٤١٧ . وانظر : شرح النووي على مسلم ،كتاب الإيمان ، باب شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأبي طالب ،جـ: ٣ ،ص:٨٥ .

(٤)- يقول الإمام ابن قيم الجوزية : (ومن شكره سبحانه أنه يجازي عدوه بما يفعله من الخير والمعروف في الدنيا ، ويخفف به عنه يوم القيامة فلا يضيع عليه ما يعمله من الإحسان وهو من أبغض خلقه إليه) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ، له . ص: ٢٤٠ .

وقد أجيب عن ذلك بأن هذا الأمر خاص بأبي طالب ، إذ ما قدمه من عمل حسن كان متعلقاً بالرسول صلى ا لله عليه وسلم ، وهو له من الخصوصيات ماليس لغيره ، ثم هو الذي سيشفع في عمه حتى يخفف من عذابه ، فأبو طالب لم يستفد إذاً بمجرد عمله[1] .

وفي الحقيقة فإن القولين متقاربان ، إذ كلاهما يُقران بأن الكافر لن يخرج من النار مادام قد مات على كفره ، مهما قدّم من عمل صالح ، وكلاهما يقرّان بأن النار دركات، وأن الكافر المكثر من الأعمال الحسنة والمقلّ من سيئها دون الكفر هو في دركة أعلى من مثيله في الكفر ونقيضه في العمل ، فالخلاف إذاً ليس جوهرياً . وا لله أعلم .

فالكافر إذا مات على كفره لم يقبل منه أي عمل صالح قدّمه ، ولكن إذا فرض أن هذا الكافر أسلم فهل تعتبر أعماله الحسنة التي عملها أثناء كفره باطلة أيضاً ، أم أن ا لله سبحانه يتفضل بقبولها ؟ .

ذهب فريق من العلماء إلى القول ببطلان جميع ما عمله الكافر في حال كفره من أعمال حسنة ، حتى ولو آمن من بعد ذلك ، لأن من شرط قبول العمل الصالح أن يكون الإنسان وقت أدائه مؤمناً با لله الإيمان الحق فيكون مؤمناً بربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته كما ينبغي له جل شأنه – على ما سبق بيانه –[2] .

ورغم أن هذا هو الأصل وهو أصل صحيح كان ينبغي أن يكون المعوّل عليه ، لولا ورود دليل صحيح يبين أن ا لله سبحانه قد تفضّل بقبول واحتساب ما قدّمه ذلك العبد في حال كفره ، من أعمال حسنة ، إذا آمن بعد ذلك . هذا الدليل جاء على لسان رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم عندما سأله حكيم بن حزام – رضي ا لله عنه – عن أعمال صالحة كان يعملها في جاهليته ، قال : [قلت : يارسول ا لله ، أرأيت أشياء كنت أتحنّث بها في الجاهلية ، من صدقة أو عتاقة ومن صلة رحم فهل فيها من أجر ؟ فقال النبي صلى ا لله عليه وسلم : ((أسلمت على ما سلف من خير)).][3] .

---

(١)– انظر : تفسير ابن كثير ، جـ: ١ ، ص: ٤٩٧-٤٩٨ .

(٢)– انظر : شرح النووي على مسلم ، جـ: ٢ ، ص: ١٤٠-١٤١ .

(٣)– رواه البخاري ، وهذا لفظه في:فتح الباري ، كتاب الزكاة (٢٤) ، باب : من تصدق في الشرك ثم=

فهذا حديث يدل ظاهره على أنه سبحانه يتفضل على العبد إذا آمن بقبول عمله الصالح الذي أداه في كفره ، وربما يكون من شرط ذلك أن يكون صاحبه قد أراد بذلك العمل الحسن وجه ا لله تعالى ، فإن الكافر قد يكون مشركاً ، والمشرك يعبد ا لله سبحانه ، ويعبد معه غيره ولا يمتنع أن يريد مثل هذا المشرك ببعض عمله الحسن وجه ا لله تعالى وحده ، وا لله أعلم .

وقد ذهب إلى تأييد القول بقبول العمل الصالح الذي صدر من العبد حال كفره كثير من العلماء من أشهرهم الأئمة : ابراهيم الحربي ، والنووي ، والقرطبي ، وشيخ الإسلام ابن تيمية ، وابن حجر العسقلاني ، وابن حزم ، وغيرهم (1) .

وأما الفريق الذي قال بأن عمل الكافر لايقبل مطلقاً مهما كان ، ولو آمن بعد ذلك فقد ذهب إلى تأويل هذا الحديث تأويلات بعيدة منها :

=أسلم (٢٤)،ح: ١٤٣٦ ، جـ: ٣ ، ص: ٣٠١ ، ورواه أيضاً في كتاب البيوع (٣٤)،باب : شراء المملوك من الحربي وهبته وعتقه (١٠٠)،ح: ٢٢٢٠ ، جـ: ٤ ، ص: ٤١١ . ورواه أيضاً في موضعين آخرين برقم ٢٥٣٨-٥٩٩٢ . حسب ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي . والحديث رواه مسلم بعدة روايات . انظر : شرح النووي على مسلم ، كتاب الإيمان ، باب حكم عمل الكافر إذا أسلم ، جـ: ٢ ، ص: ١٤٠-١٤٢ . وانظر كتاب : الإيمان ، للحافظ محمد بن اسحاق بن يحي بن منده ، ذكر فضل من أسلم على ماسلف من الخير في الجاهلية (٧٥) ، وقد ذكر عدة روايات انظر الأحاديث : ٣٨٧-٣٩٤ ، مج:٢، ص: ٥٠٠-٥٠٢ .

(١)- انظر : شرح النووي على مسلم ، جـ: ٢ ، ص: ١٤١-١٤٢ ، وذكر ممن أيد القول بقبول حسنات الكافر ابن بطال . وانظر أيضاً : فتح الباري ، جـ: ١ ، ص : ٩٩-١٠٠ ، وذكر بالإضافة لمن سبق أعلاه ابن المنير . وقد أيد ذلك القول أيضاً شيخ الاسلام ابن تيمية ، انظر : مجموع الفتاوى ، جـ: ٢١، ص: ٢٨٢-٢٨٣ . قال رحمه ا لله : (.. فالكفار قد يعبدون ا لله وما فعلوه من خير أثيبوا عليه في الدنيا فإن ماتوا على الكفر حبطت أعمالهم في الآخرة ، وإن ماتوا على الإيمان فهل يثابون على مافعلوه في الكفر ؟ فيه قولان مشهوران والصحيح أنهم يثابون على ذلك لقول النبي صلى ا لله عليه وسلم لحكيم بن حزام : ((أسلمت على ما أسلفت من خير)) وغير ذلك من النصوص) . وانظر العيني على البخاري ، جـ: ٨ ، ص: ٣٠٣-٣٠٤ فقد ذكر كثيراً من النقولات عن العلماء المؤيدين للقبول ، وانظر : الدرة فيما يجب اعتقاده لابن حزم ص: ٣٥٥-٣٥٦ .

١- أن من عمل أعمالاً حسنة في جاهليته ، اكتسب منها طباعاً حسنة ، سيستفيد منها بعد إسلامه حيث تعينه على عمل الخير .

٢- ومنها أن من عمل أعمالاً حسنة في جاهليته اكتسب بسببها ثناءً جميلاً سيبقى له بعد إسلامه .

٣- ومنها أن ما عمله من أعمال حسنة في جاهليته وإن لم تقبل منه ، فإنه لا يبعد أن تكون سبباً لزيادة أجره على ما يعمله من أعمال القربات والطاعات بعد إسلامه .

٤- ومنها : أن تلك الأعمال الحسنة التي عملها المرء في جاهليته قد تكون سبباً لأن يهديه الله ببركتها إلى الإسلام .

وهذه التأويلات البعيدة[1] سببها ما ظن من مخالفة ماورد في هذا الحديث لقواعد الشرع وهي الإثابة على عمل عمله الإنسان وهو غير مؤمن بربه الإيمان الصحيح ، ولكن كما قيل : إن المخالف لقواعد الشرع هو إثابته على ذلك العمل فيما لو مات على كفره، وأما التفضّل بالإثابة على ذلك العمل بعد أن يؤمن المرء فهذا لامانع منه ، إذ الإثابة قد حصلت لشخص مؤمن بالله تعالى الإيمان الصحيح ، والذي يجوز أصلاً أن يتفضل عليه

---

(١)- قال الشيخ ابن باز في تعليقه على هذه التأويلات : هذه المحامل ضعيفة ، والصواب ما قاله المازري والحربي في معنى الحديث ، وهو دليل على أن ما فعله الكافر من الحسنات يقبل منه إذا مات على الإسلام والله أعلم ، انظر : فتح الباري : جـ: ٣ ، ص: ٣٠٢ ، هـ : ١ . ويلاحظ هنا أن ابن حجر قد نقل عن المازري في هذا الموضع قوله عن الحديث : ظاهره أن الخير الذي أسلفه كتب له ، والتقدير : أسلمت على قبول ما سلف لك من خير ، ولكن بالنظر في شرح النووي لمسلم ، جـ: ٢، ص: ١٤٠ ، وشرح ابن حجر في موضع آخر ، جـ: ١ ، ص: ٩٦ ، والعيني على البخاري ، جـ: ٨ ، ص:٣٠٣ ، يتبين أن المازري ممن يرفضون القول بظاهر الحديث ، وقد أوّله ، وثلاثة من التأويلات السابقة منسوبة إليه ، وقد ذكر أن القاضي عياض أوّله والتأويل الرابع له . انظر المراجع السابقة بنفس المواضع المشار إليها.ويقول الشيخ علي بن محمد بن ناصر الفقيهي في تعليقة له في كتاب الإيمان لابن منده ، (قلت : وهذا - أي القول بقبول أعمال الكافر إذا أسلم - هو الراجح في المسألة إن شاء الله لوضوح الأدلة على ذلك وصراحتها). انظر : كتاب الإيمان لابن منده ، جـ: ٢ ، ص: ٥٠٣ ، تعليق الشيخ الفقيهي على مجموعة أحاديث باب : (٧٥) ذكر فضل من أسلم على ماسلف من الخير في الجاهلية .

بأنواع من الإثابة ولو لم يكن لـها مقابل من عمل صالح [(١)].

ويؤيد القبول أيضاً ما أجاب به النبي صلى ا لله عليه وسلم عائشة عندما سألته عن ابن جدعان وما قدمه من عمل صالح وهل ينفعه فقال : ((لاينفعه إنه لم يقل يومـاً رب اغفـر لي خطيئتي يوم الدين)) [(٢)].

فمفهوم هذا الحديث يدل على أنه لو آمن با لله تعـالى الإيمـان الصحيـح ، وقـال هـذه العبارة لنفعه عمله ذلك ، ولو كان إيمانه بعد عمله الحسـن ذلـك ، إذ الرسـول صلـى ا لله عليه وسلم قال : ((إنه لم يقل يوماً ...)) ولو كان العمل الحسن لايقبل مطلقاً ولو مـات المرء على إيمان صحيح لقال : إنه عندما فعل تلك الأفعال لم يكن يقول ، أو لم يكن يؤمـن ونحو ذلك من العبارات .

ويؤيد قبول العمل الحسن الذي يصدر من المرء حال كفره إذا آمن بعد ذلـك الإيمـان الصحيح قوله صلى ا لله عليه وسلم :

((إذا أسلم العبد فحسن إسلامه كتب ا لله له كل حسنة كان أزلفها ومحيت عنه كل سيئة كان أزلفها ، ثم كـان بعـد ذلـك القصـاص ، الحسـنة بعشـرة أمثالـها إلى سبعمائة ضعف ، والسيئة بمثلها إلا أن يتجاوز ا لله عزوجل عنها)) [(٣)].

---

(١)- انظر : فتح الباري : جـ: ١ ، ص: ١٠٠ ، فقد نقل معنى هذا الكلام عن ابن المنير .

(٢)- سبق تخريج الحديث ص: ٢٩٠ ، هامش : ٣ .

(٣)- رواه النسائي في سننه ، كتاب الإيمان وشرائعه (٤٧) ، باب : حسن إسلام المرء (١٠)،ح:٤٩٩٨ ، جـ: ٨ ، ص: ١٠٥-١٠٦ . وذلك بسنده عن أبـي سعيد الخدري رضي ا لله عنـه ، والحديـث صححـه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته:ح: ٣٣٦، جـ: ١ ، ص: ١٢٢ . وحسنه بعد دراسة سـنده . د: علي بن محمد بن ناصر الفقيهي في تعليقة له في كتاب الإيمان لابن منده ، جــ: ٢ ، ص: ٤٩١ ، هـ(١). والحديث رواه الإمام البخاري في صحيحه معلقـاً عن الإمـام مـالك ، ولكـن ليـس عنـد البخـاري عبـارة ((كتب ا لله له كل حسنة كان أزلـفها)) انظـر : فتـح البـاري ، كتـاب الإيمـان (٢)،بـاب حسـن إسـلام المرء(٣١)،ح: ٤١ ، جـ: ١ ، ص: ٩٨ . وقد ذكر ابن حجر عدداً من رواة هذا الحديث عن الإمام مـالك وقال : (وقد ثبت في جميع الروايات مـا سـقط مـن روايـة البخـاري وهـو كتابـة الحسـنات المتقدمـة قبـل الإسـلام) انظـر : فتـح البـاري ، جــ: ١ ، ص: ٩٩ . وذكـر الإمـام النـووي في شـرحه لمسـلم أن الإمـام الدارقطني ذكر هذا الحديث في غريب حديث مالك ورواه عنه من تسع طرق ، كلها ثبت فيها (أن الكافر إذاحسن إسلامه يكتب له في الإسلام كل حسنة عملها في الشرك) . شرح النووي على مسلم ، جـ: ٢ ، ص: ١٤١ .

فهذا الحديث يؤيد ما ثبت في حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه من أنه سبحانه يتفضل بقبول العمل الحسن الذي عمله المرء في حال كفره ، إذا آمن بعد ذلك الإيمان الصحيح . وذلك في قوله : ((كتب الله له كل حسنة كان أزلفها ومحيت عنه كل سيئة كان أزلفها)) . ولاشك أن المراد بالحسنة المكتوبة والسيئة الممحوة هو ماكان منه من عمل حسن أو سيء قبل إسلامه ، وهذا ظاهر ، ولاسيما أنه قال بعد ذلك مباشرة :

((ثم كان بعد ذلك القصاص ، الحسنة بعشر أمثالها ..)) إذ فرّق بين كتابة الأعمال الحسنة التي عملها قبل إيمانه والتي تكتب له بمثلها ، وبين الأعمال الصالحة التي يعملها بعد إيمانه ، والتي تكتب له بعشرة أمثالها ، وذلك في الحد الأدنى ، وفرّق أيضاً بين السيئات التي عملها في كفره . والتي يمحوها جلّ شأنه بفضله إذا آمن العبد الإيمان الصحيح . وبين السيئات التي يعملها بعد إيمانه والتي تكتب له بمثلها إلا إن تجاوز تعالى عنها .

بعد ذلك كله يتأكد بشكل ظاهر وبالأدلة الصحيحه القول بأن الله جلّ وعلا يتفضل بإثابة العبد على ما عمله من أعمال حسنة في حال كفره إذا آمن بعد ذلك ، وقد تبيّن أيضاً مما سبق أن القول بذلك لايتعارض مع أي من الأصول والقواعد الشرعية [1]. والله أعلم .

هذا في حكم من عمل صالحاً في حال كفره ثم آمن ، ويبقى بعد ذلك حكم من عمل صالحاً في حال إيمانه ثم ارتدّ . وفي شأنه مسألتان :

الأولى : في حكم أعماله الحسنة إذا مات على ارتداده أي كفره .

الثانية : في حكم أعماله الحسنة التي عملها في إيمانه الأول إذا رجع من ارتداده إلى إيمان صحيح .

المسألة الأولى : في حكم أعمال المرتد الحسنة إذا مات على ارتداده :

لقد وردت عدة نصوص تبين أن من مات على ارتداده ، فإنه يكون قد أحبط–أي :

---

(١)– انظر : في بيان الأدلة على القول بالقبول ، وعدم وجود منافاة بينه وبين سائر الأدلة الشرعية : شرح النووي على صحيح مسلم ، جـ: ٢ ،ص:١٤١–١٤٢،وفتح الباري : جـ: ١، ص : ٩٩–١٠٠ .

أبطل وأفسد-جميع ما عمله من أعمال صالحة في حال إيمانه . وهـذا أمـر متفـق عليـه بـين علماء المسلمين [1].

من تلك النصوص قوله تعالى :

﴿ ... **ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كـافر فـأولئك حبطـت أعمالـهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** (٢١٧) ﴾ البقرة .

وقوله تعالى :

﴿ **ذلك هدى ا لله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم مـا كـانوا يعملون** (٨٨)﴾ الأنعام .

وقوله سبحانه لنبيه محمد صلى ا لله عليه وسلم :

﴿ **ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملـك ولتكونـن من الخاسرين** (٦٥) ﴾ الزمر .

والدلالة من هذه النصوص ظاهرة واضحة على حبـوط عمـل مـن كفـر بعـد إيمانـه ، وثبات ذلك الحبوط إذا مات الإنسان على كفره . نعوذ با لله تعالى من سوء الخاتمه .

المسألة الثانية :

في حكم أعمال المرتد الحسنة التي عملها حال إيمانه الأول ، إذا رجع بعد ارتـداده إلى إيمان صحيح . فهل يقبل ماعمله في إيمانه الأول ويضاف إلى ماعمله في إيمانـه الثـاني أم أن عمله الصالح في إيمانه الأول قد حبط حبوطاً تاماً فـلا يقبـل لـه مطلقـاً ولـو عـاد إلى إيمـان صحيح ؟.

افترق العلماء في هذه المسألة إلى فريقين :

الفريق الأول : يرى أن أعمال المسلم إذا ارتد فإنها تحبط كليّةً بمجرد ارتـداده ، فلـو عاد بعد ذلك إلى إيمان صحيح فإنه لايحسب له ما عمله في إيمانه الأول .

---

(١)- انظر : مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ، جـ: ٤ ، ص: ٢٥٧-٢٥٨ .و: تفسير الطبري ، جـ: ٢ ، ص: ٣٥٥وتفسير فتح القدير للشوكاني ، جـ: ١ ، ص : ٢١٨ .

١- واستدلّ هذا الفريق بعموم قوله تعالى :

﴿ ... ومن يكفر بالإيمان فقط حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين(٥)﴾المائدة.

٢- وعموم قوله جل شأنه :

﴿ ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين (٦٥) ﴾ الزمر .

فالآيتان فيهما بيان أن الكفر بعد الإيمان يحبط الإيمان السابق دون تقييد للإحباط بالموت على ذلك الكفر [(١)].

أما الفريق الثاني : فهو يرى أن العمل لايحبط كليّة إلا بالموت على الكفر ، بمعنى أن الإنسان لو رجع إلى الإيمان الصحيح ، فإنه يحسب له عمله الصالح الذي عمله في إيمانه الأول ويثاب عليه .

وقد استدل هذا الفريق بقوله تعالى :

﴿ ... ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (٢١٧) ﴾ البقرة .

وجه الدلالة من هذه الآية أنه سبحانه قيد الأحكام المترتبة على الارتداد عن الدين من إحباط العمل ، والخلود في النار بالموت على الكفر مما يدل على أن المرتد إذا لم يمت على الكفر ، بل رجع إلى الإيمان الصحيح ، فإنه لاتثبت في حقه تلك الأحكام [(٢)].

وقول الفريق الثاني هو الأقرب للصواب–وا لله أعلم– إذ يحمل الحكم المطلق الذي

---

(١)- انظر : أحكام القرآن ؛ ابن العربي ، جـ ١ ، ص: ١٤٨.و:تفسير آيـات الأحكـام للصـابوني جـ١، ص: ٢٦٥.والإحباط بمجرد الكفر روي عن أبي حنيفة ومالك ، ورواية عن الإمام أحمد . انظر : مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، جـ٤، ص: ٢٥٨ .

(٢)- انظر : تفسير الرازي ،جـ٦ ، ص: ٣٩.وأحكام القرآن لابـن العربي ، جـ١ ، ص:١٤٧.وتفسير فتح القدير للشوكاني ، جـ١، ص: ٢١٨.وتفسير آيات الأحكام للصـابوني ، جـ١ ،ص: ٢٦٤-٢٦٥ . وهذا القول كما في هذه المصادر هو المعروف عن الإمام الشافعي ، وهو روايـة أخـرى عـن الإمـام أحمـد . انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية . جـ٤ ، ص: ٢٥٨ ، جـ١١ ، ص: ٧٠٠ .

ورد في الآيات التي استدل بها أصحاب القول الأول ، على الحكم المقيد الذي ورد في الآية التي استدل بها أصحاب القول الثاني ، بمعنى أن إطلاق الحكم بحبوط العمل لمن كفر، كما ورد في الآيتين الأوليين ، هو مقيد بالموت على الكفر كما ورد في الآية الأخرى . وهذا التقييد متجّه لكلا الحكمين الواردين فيها واللّذين هما الإحباط والخلود في النار كما هو ظاهر الآية ، وبذلك تكون هذه الآية متحدثة عن نفس الحكم الذي تحدثت عنه الآيتان السابقتان فلا مجال للقول بأنها تتحدث عن حكم مغاير لما في الآيتين الأوليين[١] . فإذا كانت القضية متحدة وكان الحكم في بعض الآيات مطلقاً وفي بعضها مقيداً فإن الأولى حمل المطلق على المقيد كما هو معلوم [٢] _ وا لله أعلم _

ومما يؤيد قبول العمل الصالح الذي عمله المرء قبل ارتداده إذا رجع إلى إيمان صحيح ماسبق بيانه من قبول العمل الصالح الذي أداه الكافر حال كفره ، كما دل عليه قوله صلى ا لله عليه وسلم لحكيم بن حزام وقد سأله عن أعمال صالحة عملها في الجاهلية ، وهل له فيها من أجر ؟ فقال :((أسلمت على ما سلف من خير))[٣] .

فإذا كان الكافر يقبل منه ما أداه لله تعالى من أعمال صالحة حال كفره وفقده لشرط الإيمان الصحيح فكيف لايقبل من المرتدّ - إذا رجع إلى إيمانه - ماقدمه من عمل صالح حال إيمانه الأول .

ثم إن المرتدّ إذا عاد إلى الإيمان الصحيح فإنه يكون ممن تشمله الرحمة والفضل الإلهيين، ومقتضى الرحمة والفضل قبول ماكان منه من عمل سابق أدّاه في حال إيمانه الصحيح ، لارده وإبطاله . وقد أيّد ذلك الدليل النصي فترجّح المصير إليه عن المصير إلى القول بأنه سبحانه يبطل تلك الأعمال الصالحة ولو عاد المرء إلى ربه تعالى وأناب إليه وتاب من الكفر توبة نصوحاً .

---

(١)- كما ذكر ذلك ابن العربي في كتابه أحكام القرآن . جـ١، ص: ١٤٨ .

(٢)- انظر : تفسير الرازي جـ٦ ، ص: ٣٩ .ومجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية ، جـ٧ ، ص: ٤٩٣.

(٣)- سبق تخريج الحديث انظر ص: ٢٩٢ ، هامش : (١) .

وقد يقال هنا إن المرء المؤمن إذا ارتد فإنه يحبط عمله ، إلا أن ثبات ذلك الحكم مقيد بالوفاة على الكفر ، فإذا ماتوفي المرء على الكفر ثبت فيه ذلك الحكم ثبوتاً راسخاً وإن أدرك نفسه وأنقذها من الهاوية فآمن إيماناً صحيحاً راسخاً تفضل ا لله تعالى عليه بإزالة مقتضى ذلك الحكم عنه ، فتقبل بذلك أعماله الصالحة الأولى والآخرة . وا لله أعلم بالصواب .

وبعد : فهذه أهم القضايا المتفرعة عن الشرط الأول لقبول الأعمال والإثابة عليها .

الشرط الثاني : الإخلاص لله وحده في العمل :

أي أن يكون قصد الإنسان من الفعل أو الترك وباعثه عليه إرضاء ا لله وحده دون أي قصد دنيوي آخر ، كإرضاء الناس أو طلب المدح منهم أو نحو ذلك من الشوائب التي لاتجعل قصد الإنسان من العمل هو طلب مرضاة ا لله وحده[1] . قال تعالى :

﴿ قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون (٢٩) ﴾ الأعراف .

فا لله سبحانه لايقبل من العمل الصالح إلا ماكان مراداً به وجهه تعالى وحده ، وبهذا أمر جلّ شأنه عباده ، ابتداءً من أشرف خلقه محمد صلى ا لله عليه وسلم ثم من بعده . قال جل شأنه :

﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد ا لله مخلصاً له الدين (٢) **ألا لله الدين الخالص ....**(٣) ﴾ الزمر .

فهذا أمر منه جل وعلا لنبيه صلى ا لله عليه وسلم ويلحق به أمته عليه السلام بإخلاص الدين كله من عقيدة وعبادة لله وحده ، فلا يعبد غير ا لله جل شأنه ، وإذا عبده فليعبده مخلصاً له العبادة ، بمعنى أن لايريد بعبادته تلك إلا وجهه تعالى . ثم إن هذه العبادة الخالصة هي وحدها التي تستحق أن يختص بها ا لله وحده وهي التي لايقبل جل شأنه سواها[2] .

---

(١)- انظر : تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور . جـ٢٣ ، ص: ٣١٨ .

(٢)- انظر : تفسير فتح القدير:جـ٤ ، ص: ٤٤٨-٤٤٩ .وتفسير التحرير والتنوير ، جـ٢٣ ، ص: ٣١٧-٣١٨ .ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، جـ١٠ ، ص: ٤٩-٥٠ ، جـ ٢٨ ، ص: ١٣٤ .

ويقول تعالى :

﴿ **قل إني أمرت أن أعبد ا لله مخلصاً له الدين** (١١) **وأمرت لأن أكون أول المسلمين** (١٢) **قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم** (١٣) **قل ا لله أعبد مخلصاً له ديني** (١٤) **فاعبدوا ما شئتم من دونه ....**(١٥) ﴾ الزمر .

فالرسول صلى ا لله عليه وسلم أمر – وكذلك كان صلوات ا لله عليه– أن يعبده سبحانه وحده مخلصاً له الدين ، فيفرده جل شأنه بالإلهية ويفرده بالربوبية ، ويفرده باستحقاق الأسماء والصفات العلى الكاملة . هذا في الاعتقاد ، ويفرده جل شأنه بعد ذلك قصداً في جميع أنواع القرب والعبادات والطاعات فهو سبحانه وحده الأهل لكل ذلك. ومما جاء على لسان رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم دالاً على وجوب إخلاص العبادة لله سبحانه وأنها وحدها المقبولة عنده تعالى قوله صلى ا لله عليه وسلم :

((إن ا لله لايقبل من العمل إلا ماكان له خالصاً وابتغي به وجهه.))[١] .

والحديث ظاهر الدلالة على وجوب إخلاص العبادة لله وحده لأنها هي وحدها المقبولة عنده خاصة ، وأصل الحديث سؤال رجل النبي صلى ا لله عليه وسلم عمن غزا يلتمس الأجر والذكر فماله ؟. فأخبره النبي صلى ا لله عليه وسلم بأنه لاشيء له فأعاد السؤال ثلاثاً ، وكل مرة يجيبه صلى ا لله عليه وسلم بالإجابة نفسها ثم قال له:((إن ا لله..))– الحديث السابق [٢].

فهذا رجل غزا وجاهد وهو يبغي الأجر عند ا لله سبحانه ، لكن شاركت هذه الإرادة إرادة أخرى ، وهي إرادته أن يكون مذكوراً عند الناس بالشجاعة والإقدام ونحو ذلك وبسبب وجود هذه الإرادة الأخرى ، التي جعلت العمل ليس خالصاً لله وحده بطل ثواب ذلك الغازي و لم يكن له عند ا لله أجر يستحقه .

---

(١)– رواه الإمام النسائي في سننه عن أبي أمامة الباهلي رضي ا لله عنه . سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية السندي ، كتاب الجهاد (٢٥) ، باب : من غزا يلتمس الأجر والذكر (٢٤) ، ح: ٣١٤٠ ، جـ٦، ص:٢٥ . والحديث حسّنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته ، جـ١، ص:٣٧٩ ، ح:١٨٥٦ .

(٢)– انظر : تخريج الحديث في الهامش السابق .

ومن الأحاديث أيضاً قوله صلى الله عليه وسلم : ((إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ مانوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن هاجر إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ماهاجر إليه .)).[١].

وأصل النيّة في كلام العرب : القصد والإرادة [٢].

وقيل بأن النيّة معناها أخص من معنى القصد والإرادة ، لأن إرادة الإنسان تتعلق بعمله وعمل غيره ، أما نيّته فلا تتعلق إلا بعمله . فيقال أردت من فلان كذا ولايقال نويت من فلان كذا . وقد يعبّر بالنية عن نفس المراد فيقال هذه نيّتي ، أي : هذه البقعة هي التي نويت إتيانها [٣].

ثم إن النية إذا أطلقت في لسان الشرع فإما أن يرادبها : مايتميز به عمل عن عمل ، كتميّز العبادة عن العادة ، أو عبادة عن عبادة كصوم تطوع عن صوم فرض ، وإما أن يراد بها تميّز معبود عن معبود ومعمول له عن معمول له آخر ، وهذا كالتمييز بين العمل الخالص لله وحده ، وبين عمل أهل الرياء والسمعة والشرك ، فهذه النية إذاً هي التي تميّز بين من يريد بعمله الله سبحانه والدار الآخرة ، وبين من يريد بعمله الدنيا من مالٍ أو جاهٍ أو مدحٍ أو ثناء أو تعظيم أو نحو ذلك ، ولو كان العمل من حيث ظاهره مطابقاً لعمل المخلص .

والظاهر أن المقصود بالحديث هو هذا المعنى الأخير من النية وإن كان قد يشمل

---

(١)- متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب واللفظ الأول للبخاري وقد رواه مستفتحاً به : صحيحه . انظر : فتح الباري ، كتاب : بدء الوحي (١)،باب : كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ، ح: (١)،جـ١ ، ص: ٩ ورواه أيضاً في عدة مواضع أخرى . واللفظ الثاني للبخاري أيضاً انظر فتح الباري ، كتاب الحيل (٩٠) ، باب : في ترك الحيل (١)،ح: ٦٩٥٣ ، جـ ١٢ ، ص: ٣٢٧ . ولمسلم في صحيحه . انظر : شرح النووي على مسلم:كتاب الإمارة،باب قوله صلى الله عليه وسلم :((إنما الأعمال بالنيات))..،جـ١٣ ، ص: ٥٣-٥٤،(ح:١٥٥ حسب المعجم).

(٢)- انظر : لسان العرب ، مادة : نوي ، جـ٢٠ ، ص: ٢٢٢ . وانظر : مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية:جـ١٨ ، ص: ٢٥١ .

(٣)- انظر : مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، جـ١٨ ، ص: ٢٥١-٢٥٢ .

المعنى الأول . ويرجّح ذلك أنه صلى ا لله عليه وسلم عندما ضرب المثال فرق بين من يريد بعمله الصالح -الهجرة- ا لله ورسوله ومن يريد به دنيا من امـرأة ينكحهـا أو نحـو ذلـك ، و لم يفرق بين عمل وعمل [١] . ثم إنـه صلـى ا لله عليـه وسـلم عـبّر بصيغـة الحصـر (إنمـا) ليشمل بذلك جميع ما يعمله الإنسان [٢] . فيكون معنى الحديث بناءً على كل ذلك : إنمـا الأعمال جميعها -خيرها وشرها- بحسب مانواه عاملهـا ، فـإن نـوى بهـا مقصـوداً حسـناً كان له ذلك وإن قصدبها إرادة سيئة كان له مانواه .

وقد ضرب عليه السلام مثالاً لذلك[٣] بالمهاجر . فإن اثنين قد تتشابه أعمالهما تماماً في الهجرة ويكون أحدهما مأجوراً بسبب نيّته الخالصة لله وحده ، ويكون الآخر غير مأجور لنيّته غير الخالصة أو غير المتوجهة أصلاً لإرضائه جـل وعـلا وإنمـا لكسـب غـرض دنيـوي ولذلك قال عليه السلام :

((فمن كانت هجرته إلى ا لله ورسوله ، فهجرته إلى ا لله ورسوله ...)).

أي : فمن قصد بهجرته ا لله ورسوله مخلصاً لهما فقد حصل له ثواب ما قصده .

أما قوله عليـه السـلام : ((ومـن كـانت هجرتـه إلى دنيـا يصيبهـا أو امـرأة ينكحهـا فهجرته إلى ما هاجر إليه)) أي : إن من كان ناوياً في هجرته غرضاً دنيوياً يتحصـل عليـه أو امرأة يتزوجها فليس له من هجرته إلا ذلك الغرض ، وليس له أي ثواب عند ا لله علـى هجرته[٤] .

---

(١)- انظر : مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، جـ١٨ ، ص: ٢٥٦-٢٥٧ .

(٢)- انظر : المرجع السابق ، جـ١٨ ، ص: ٢٦٤ وما بعدها.و:فتح الباري ، جـ١، ص: ١٢-١٣ .

(٣)- ولعل سبب الحديث كما قيل أنه بعد هجرة رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم إلى المدينة وهجـرة مـن هاجر إليها كان هناك من هاجر إلى ا لله ورسوله صلى ا لله عليه وسلم وهناك مـن هـاجر لأغـراض دنيويـة كإرادة نكاح امرأة ونحو ذلك ، كما قيل في قصة مهاجر أم قيس ، وهو رجل أراد التزوج من امـرأة اسمهـا أم قيس تأبّت أن يتزوجها حتى يهاجر فهاجر فتزوجها فكان يقال له : مهاجر أم قيس انظر : فتح البـاري، جـ١، ص: ١٠ .و: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، جـ١٨ ، ص: ٢٥٣ .و: شـرح النـووي علـى صحيح مسلم ، جـ١٣ ، ص: ٥٥ .

(٤)- انظر : مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، جـ١٨ ، ص: ٢٧٩ .

والنيّة كما قيل : محلها القلب باتّفاق العلماء ، لذا فإن من نوى بقلبه و لم يتكلم بلسانه أجزأته نيّته باتّفاقهم أيضاً[1] فيكون الحديث دالاًعلى أن الأعمال الظاهرة مرتبطة ارتباطاً تاماً بعمل القلب ، والذي هو في الحقيقة روحٌ للعمل الظاهر [2]. لذا فإن الحساب على الأعمال الظاهرة يرتبط بالحساب على مارافقه من عملٍ قلبي ، فإن كان الإنسان عازماً بقلبه على ذلك العمل الظاهر مريداً قاصداً له جوزي عليه إن خيراً فخير وإن شرّاً فشر ، وإن كانت نيّة العامل القلبية في اتّجاه وعمله المشاهد في اتّجاه آخر جوزي على ماقام في قلبه لاعلى ماظهر من جوارحه . قال تعالى :

﴿ **لايؤاخذكم ا لله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم وا لله غفور حليم** (٢٢٥) ﴾ البقرة .

﴿ **بما كسبت قلوبكم** ﴾ : أي (اقترفته بالقصد إليه) [3].

وعلى ذلك فإن أراد الإنسان من عمله الحسن الظاهر وجه ا لله سبحانه استحق الإثابة عليه بفضله جل شأنه . فالحديث حاثٌّ الإنسان على إخلاص نيّته وإرادته لله وحده في أي عمل صالح يقوم به ليستحق به الثواب منه تعالى ، محذرٌ كل من قصد بنيّته من عمله الصالح غير وجه ا لله لأن في ذلك خسران الثواب وعدم تحصيل غير ما تحصّل له بالفعل .

ثم إن النيّة الجازمة الصادقة لأداء عمل صالح والخالصة لوجه ا لله سبحانه لايقتصر تأثيرها على قبول العمل الذي قام به المرء فعلاً بل تتعدّاه إلى ما جزم المرء القيام به وحال بينه وبين القيام به أمر خارج عن إرادته . فإذا ما أراد المؤمن إرادة صادقة القيام بعمل صالح بنيّةٍ خالصةٍ لله وحده وحال بينه وبين بلوغ مراده أمر خارج عن قدرته فإنه تعالى بكرمه يثيبه على إرادته ونيته كما لو قام بذلك العمل . قال عليه السلام :

((من طلب الشهادة صادقاً أعطيها ولو لم تصبه))[4]. وقال :

---

(١)- انظر : المرجع السابق جـ١٨ ، ص: ٢٦٢ .

(٢)- سيأتي بإذن ا لله مزيد بيان لهذا ،انظر ص:٣٤٨-٣٤٩ ..

(٣)- تفسير فتح القدير ، جـ١ ، ص: ٢٣٠ .

(٤)- رواه مسلم عن أنس بن مالك . انظر : شرح النووي على مسلم : كتاب : الإمارة ، باب استحباب طلب الشهادة في سبيل ا لله تعالى ، جـ١٣ ، ص: ٥٥ .

((من سأل ا لله الشهادة بصدق بلّغه ا لله منازل الشهداء وإن مات على فراشه))[1].

وهذه إرادة قارنها دعاء لله سبحانه بنيل الشهادة .

وعن جابر رضي ا لله عنه قال :

[كنا مع النبي صلى ا لله عليه وسلم في غزاة فقال : ((إن بالمدينة لرجالاً ماسرتم مسيراً ولاقطعتم وادياً إلا كانوا معكم ، حبسهم المرض)).][2].

وفي رواية : ((إلا شَرِكُوكم في الأجر))[3].

وفي رواية : ((حبسهم العذر))[4].

والمراد بالعذر :(ماهو أعم من المرض وعدم القدرة على السفر)[5].

وهنا إرادة صادقة حال دون تنفيذ مرادها العذر بمختلف أنواعه .

وروى أيضاً عن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم أنه قال :

((من أتى فراشه وهو ينوي أن يقوم يصلي من الليل فغلبته عيناه حتى أصبح ، كتب له مانوى وكان نومه صدقة عليه من ربه عزّ وجلّ .))[6].

---

(١)- رواه مسلم عن سهل بن حنيف ، انظر : شرح النووي على مسلم ، كتاب الإمارة ، باب استحباب طلب الشهادة في سبيل ا لله تعالى ، جـ١٣ ، ص: ٥٥-٥٦ .

(٢)- رواه مسلم عن جابر بن عبدا لله ، انظر : شرح النووي على مسلم ، كتاب الإمارة ، باب : ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر ، جـ١٣ ، ص: ٥٦-٥٧ .

(٣)- رواها مسلم عن جابر بن عبدا لله ، انظر : شرح النووي على مسلم ، كتاب الإمارة ، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر ، جـ١٣، ص: ٥٧ .

(٤)- رواها البخاري عن أنس بن مالك رضي ا لله عنه ، فتح الباري ، كتاب : الجهاد والسير (٥٦)، باب: من حبسه العذر عن الغزو (٣٥)،ح:٢٨٣٨-٢٨٣٩ ، جـ٦ ، ص: ٤٦-٤٧ .

(٥)- فتح الباري شرح صحيح البخاري،لابن حجر ، جـ٦ ، ص: ٤٧ .

(٦)- رواه الإمام النسائي في سننه عن أبي الدرداء مرفوعاً إلى الرسول صلى ا لله عليه وسلم وهذا لفظه . سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية السندي ، كتاب قيام الليل وتطوع النهار (٢٠) ، باب : من أتى فراشه وهو ينوي القيام فنام (٦٣) ، ح: ١٦٨٧ ، جـ٣ ، ص: ٢٥٨ . ورواه الإمام ابن ماجة عن أبي الدرداء كذلك ، في كتاب : إقامة الصلاة والسنة فيها (٥) ، باب : ماجاء فيمن نام عن حزبه من الليل =

وهذه إرادةٌ صادقة حال دون تنفيذ مرادها المستقبلي العذر الخارج عن نطاق قدرة الإنسان . فهذه الأحاديث كلّها فيها إثبات إثابة الإنسان على عمل لم يقم به ، كما لو أداه فعلاً، وذلك بسبب نيّته الصادقة والخالصة لله سبحانه في القيام به لولا وجود عارض خارج عن إرادته حال دون أدائه .

هذا كله يوضح أهمية النيّة الصادقة والخالصة لله تعالى في مسألة قبول الأعمال الصالحة ، إذ إن الإثابة تترتب على تلك النيّة وإن لم يقم الإنسان بالعمل لعارض ما مما يدل على أنها هي الأصل والعمل تابع لها (1).

وفي المقابل فالعمل مهما كان حسناً في ظاهره إذا لم ترافقه نيّة تعبّد خالصة لله سبحانه لاتشوبها شائبة فإن صاحبه لايستحق الثواب على ذلك العمل ، بل ربما عوقب بسبب نيته الفاسدة .

وقد سبق ذكر حديث : ((إن الله لايقبل من العمل إلا ماكان له خالصاً وابتغي به وجهه))(2).

فهذا الحديث واضح في دلالته على عدم قبوله جل شأنه لأي عمل لم يخلص فيه صاحبه النية لله سبحانه ، ولاسيما وأنه قدورد جواباً لسؤال عن الرجل الذي ذهب مجاهداً ابتغاءً للأجر والذكر .

وقريب من هذا الحديث قوله صلى الله عليه وسلم لمن سأل عن : [الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل ليذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه] وفي روايةٍ [الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياءً ، فمن في سبيل الله -أو- فأي ذلك في سبيل الله ؟

=(١٧٧) ، ح: ١٣٤٤ ، جـ١ ، ص: ٤٢٦-٤٢٧ . وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته ، ح: ٥٩٤١ ، جـ٢ ، ص: ١٠٣١ . وذكر الإمام النسائي أن هناك من وقفة على أبي ذر وأبي الدرداء . سنن النسائي ، جـ٣ ، ص: ٢٥٨ . الباب والكتاب السابقين .

(١)- سيأتي بإذن الله مزيد بيان لمسألة ترتب الثواب على الإرادات في ص:٦٣٢ وما بعدها .

(٢)- سبق تخريج الحديث ص:٣٠١ ، هامش : (١) .

فقال : ((من قاتل لتكون كلمة ا لله أعلى -أو : هي العليا- فهو في سبيل ا لله))] [(1)].

فالذي يقاتل بنيّة خالصة لله سبحانه لاينوي من قتاله غنيمة أو ذكراً بين الناس و لم يكن باعثه على القتال حميّةً أو غضباً أو نحو ذلك بل الجهاد لإعلاء كلمة ا لله وحده ، هو الذي يعتبر جهاده جهاداً في سبيل ا لله دون غيره ممن لم يُكِنَّ هذه النية الخالصة ، وقريب من هذا قوله صلى ا لله عليه وسلم :

((من غزا في سبيل ا لله و لم ينو إلا عقالاً فله مانوى)) [(2)].

ومن الأحاديث الدالة على عدم قبول العمل غير الخالص النيّة لله وحده قوله صلى ا لله عليه وسلم في الحديث الذي يرويه عن ربه جل وعلا :

((قال ا لله تبارك وتعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشِرْكَه .)) [(3)].

ويقول النوويّ في بيان معنى الحديث :

(ومعناه : أنا غني عن المشاركة وغيرها ، فمن عمل شيئاً لي ولغيري ، لم أقبله ، بل أتركه لذلك الغير ، والمراد : أن عمل المرائي لاثواب فيه ، ويأثم به .) [(4)].

---

(1)- الحديث برواياته أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي موسى الأشعري رضي ا لله عنه . انظر : شرح النووي على مسلم : كتاب : الإمارة ، باب: من قاتل لتكون كلمة ا لله هي العليا فهو في سبيل ا لله، جـ13 ، ص : 49-50 .

(2)- رواه النسائي في سننه بسنده عن عبادة بن الصامت رضي ا لله عنه . سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية السندي : كتاب الجهاد (25) ، باب : من غزا في سبيل ا لله و لم ينو من غزاته إلا عقالاً (23)، ح: 3138 ، 3139 ، جـ6 ، ص: 24-25 . ورواه الإمام أحمد في مسنده عن عبادة أيضاً . جـ5 ، ص:315، 320 ، 329 . والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته ، ح:6401، جـ2 ، ص: 1093 .

(3)- الحديث رواه مسلم عن أبي هريرة رضي ا لله عنه . انظر شرح النووي على مسلم : كتاب الزهد ، باب : تحريم الرياء ،جـ 18 ، ص: 115 ، ح رقم (46) حسب المعجم المفهرس . قال الإمام النووي في شرحه : هكذا وقع في بعض الأصول : وشركه ، وفي بعضها : وشريكه ، وفي بعضها : وشركته . انظر : جـ18 ، ص: 115 .

(4)- شرح النووي على مسلم ، جـ18 ، ص: 115-116 .

ومن الأحاديث أيضاً قوله صلى ا لله عليه وسلم :[((إن أخـوف مـا أخـاف عليكـم الشرك الأصغر)) قالوا : ما الشرك الأصغر يارسول ا لله ؟ قال : ((الرياء . يقول ا لله عز وجل لهم يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً .))](1) وقال أيضاً عليه السلام :((إذا جمع ا لله الأولين والآخرين ، يوم القيامة ، ليوم لاريب فيه ، نادى منادٍ ، من كان أشرك في عمل عمله لله، فليطلب ثوابه من عند غيرا لله ، فإن ا لله أغنى الشركاء عن الشرك))(2).وقال عليه السلام أيضاً :((ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال ؟)) قال : قلنا : بلى . فقال:((الشرك الخفي : أن يقوم الرجل يصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل.))](3).فهذه الأحاديث كلّها تبين أن أي عمل من الأعمال الصالحة التي يجب أن تكون خالصة لله وحده إذا عمله إنسان وَأَرَادَ به غير ا لله تعالى ، أو أراد به مع ا لله سبحانه غيره، فإن عمله هذا لن يثاب عليه عند ا لله جل شأنه فهو لايقبل من العمل إلا ماكان خالصاً له وحده ، فإذا أشرك صاحب العمل بإرادته مع ا لله شريكاً آخر فإنه تعالى يردّ ذلك العمل ، ويطالب يوم القيامة صاحبه أن يأخذ ثواب ذلك العمل من الشريك إن كان يستطيع أن يعطيه شيئاً من الثواب . وقد اعتبر مشركاً شركاً أصغر أو خفياً -كما

---

(١)- رواه الإمام أحمد عن محمود بن لبيد . المسند : جـ٥ ، ص: ٤٢٨ ، ٤٢٩ .والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته ، جـ١ ، ص: ٣٢٣ ، ح: ١٥٥٥ .

(٢)- رواه ابن ماجه عن أبي سعد بن أبي فضاله الأنصاري . سنن ابن ماجه ، كتاب : الزهد (٣٧) ، باب الرياء والسمعة (٢١) ؛ ح: ٤٢٠٣.ورواه الترمذي أيضاً . انظر عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي : أبواب تفسير القرآن : ومن سورة الكهف ، مج: ٦ ، جـ: ١٢ ، ص: ١٢-١٣ . وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب . والحديث حسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته : جـ: ١، ، ص: ١٤٥ ، ح: ٤٨٢ .

(٣)- رواه ابن ماجة عن أبي سعيد الخدري رضي ا لله عنه . سنن ابن ماجة ، كتاب الزهد (٣٧)،باب: الرياء والسمعة (٢١) ، ح: ٤٢٠٤ ، جـ٢ ، ص: ١٤٠٦ ، والحديث حسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته ، جـ١٠ ، ص:٥٠٩ ح: ٢٦٠٧ . ونقل كذلك محقق سنن ابن ماجة محمد فؤاد عبدالباقي عن الزوائد : تحسين الحديث .

ورد في بعض الأحاديث السابقة- من لم يخلص نيّته لله سبحانه في العمل الصالح ، وأراد به مع الله تعالى أو من دونه أمراً آخر من أمور الدنيا ، وذلك نظراً للمشابهة بين صنيعه وصنيع المشرك شركاً أكبر بعبادته مع الله سبحانه أو من دونه إلهاً آخر (١).

ويطلق على صاحب مثل هذه الأعمال أيضاً أنه مراءٍ فيها ، أي مظهر للناس أنه يريد وجه الله تعالى بها ، وهو في حقيقة أمره ، إما أن يريد من هذا العمل مع الله سبحانه أمراً من أمور الدنيا كالذّكر عند الناس وعلو شأنه بينهم وأن يظنوا به الصلاح والتقوى أو أنه لايقصد من عمله هذا إلا أمراً دنيوياً وليس في نيّته رضا الله سبحانه (٢). وهذا الأخير هو أسوأ أحوال الرياء وهو لايكاد يصدر إلا من منافق لايؤمن بالله أصلاً ، قال تعالى : في صفة المنافقين :

﴿ **إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولايذكرون الله إلا قليلاً** (١٤٢) ﴾ النساء .

والمنافق لاشك في بطلان عمله كلّه وحبوطه .

ولكن الكلام يرد في شأن من عنده إيمان صحيح بالله تعالى إذا راءى بعمله الصالح : فإن كان دافعه إلى العمل مجرد الرياء فلاشك في بطلان عمله وحبوطه للأدلة السابقة بل قد ورد في شأنه وعيد شديد . من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

((إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتي به فعرّفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت ، قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال : جريء ، فقد قيل ، ثم أمربه فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل تعلم العلم وعلّمه ، وقرأ القرآن ، فأُتِيَ به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلّمته ، وقرأت فيك القرآن ، قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على

---

(١)- انظر : تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد ، ص: ٥٣١-٥٣٤ .

(٢)- انظر : تفسير ابن كثير ، جـ١ ، ص: ٣١٨ . و: تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد ، ص:٥٢٤-٥٢٥ ، ٥٢٨ .

وجهه حتى ألقي في النار . ورجل وسّع ا لله عليه ، وأعطاه من أصناف المـال كلّـه ، فـأُتِيَ به فعرّفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : ماتركت من سـبيل تحـب أن ينفـق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال : هو جواد ، فقد قيل. ثـم أمربه فسحب على وجهه ، ثم ألقي في النار .))[1] .

فهذا الحديث فيه وعيد شديد لمن لم يخلص عمله الصالح لله وحده .

وقد جاء في روايـة أخـرى : ((أولئـك الثلاثـة أول خلـق ا لله تسـعر بهـم النـار يـوم القيامة))[2] .

وقد ذهب فريق من العلماء إلى أن المراد بقوله تعالى :

﴿من كـان يريـد الحيـاة الدنيـا وزينتهـا نـوفّ إليهـم أعمـــالهم فيهـا وهـــم فيهـا لايبخسون(١٥) **أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ماصنعوا فيهـا وبـاطل ماكانوا يعملون** (١٦) ﴾ هود .

هم المراءون بأعمالهم ، يجزون بأعمالهم الصالحة في الدنيا إن شاء ا لله سبحانه ، وليس لهم في الآخرة إلا النار وذلك لأنهم لم يريدوا بأعمالهم إلاّ الدنيـا وزخرفهـا . ثـم إن كـان الرياء قد تناول أصل الإيمان فذلك هو الذي أحبط عمـل صاحبـه كلّـه وهـو من ثـم مـن المخلّدين في النار ، وإلا فإنه يحبط من عمله ماكان فيه مرائياً ، ويعذّب على قدر ذلـك إن أراد سبحانه تعذيبه فالآية تبيّن الجزاء الـذي يسـتحقه المرائـي ، وهـو إحبـاط عملـه الـذي راءى فيه ، وبيان استحقاقه للعذاب في النار .

ومثل هذه الآية قوله سبحانه :

﴿ من كان يريد العاجلة عجّلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها

---

(١)- رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي ا لله عنه . صحيح مسلم بشـرح النـووي : كتـاب : الإمـارة، باب: من قاتل للرياء والسمعة استحق النار ، (ح: ١٥٢ حسب المعجم)، جـ١٣ ، ص: ٥٠ .

(٢)- هذه الرواية رواها الترمذي في سننه عن أبي هريرة رضي ا لله عنه . انظر : عارضة الأحـوذي بشـرح صحيح الترمذي : أبواب الزهد ، باب : ماجاء في الرياء والسـمعة،(ح: (٤٨) حسـب المعجـم) ، جـ٩ ، ص:٢٢٥-٢٣٠ . وقال الترمذي عن الحديث الذي رواه : هذا حديث حسن غريب .

مذموماً مدحوراً (١٨) ﴾ الإسراء .

وقوله :

﴿ **من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب** (٢٠) ﴾ الشورى .

(فهذه ثلاث مواضع من القرآن يشبه بعضها بعضاً ويصدّق بعضها بعضاً وتجتمع على معنى واحد ، وهو أن من كانت الدنيا مراده ، ولها يعمل في غاية سعيه لم يكن له في الآخرة نصيب ومن كانت الآخرة مراده ، ولها عمل وهي غاية سعيه فهي له)[1].

ومما ورد أيضاً من الوعيد لمن يرائي قوله صلى الله عليه وسلم :

((من تعلم علماً مما يُبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة))[2].

وقال أيضاً عليه السلام :

---

(١)- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين،لابن قيم الجوزية،ص: ١٣٧-١٣٨ . وانظر فما سبق كله : عدة الصابرين،ص: ١٣٥-١٣٨ .و: تفسير ابن كثير ، جـ٢ ، ص: ٤٣٩ جـ٤ ، ص:١١١ . وانظر : حديث أول ثلاثة تسعر بهم النار عند الترمذي إذ في روايته أن هذا الحديث عندما ذكر لمعاوية رضي الله عنه استشهد بآية ﴿**من كان يريد الحياة الدنيا**﴾ . وقد سبق تخريج رواية الترمذي للحديث في التعليقة السابقة. وانظر : تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد ، ص: ٥٣١ ، ٥٣٥ - ٥٣٦ .

(٢)- رواه الإمام أحمد في مسنده ، وهذا لفظه ، وقد رواه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، جـ: ٢ ، ص:٣٣٨ . ورواه أيضاً الإمام أبو داود في سننه . انظر : مختصر سنن أبي داود للمنذري : كتاب العلم ، باب : طلب العلم لغير الله تعالى ، ح: ٣٥١٧ ، جـ: ٥ ، ص: ٢٥٤-٢٥٥ . ورواه أيضاً ابن ماجه في سننه ، المقدمة ، باب : الانتفاع بالعلم والعمل به (٢٣) ، ح: ٢٥٢ ، جـ: ١ ، ص: ٩٢-٩٣ . وعَرْف الجنة : حسب ما ذكر في هذه المصادر : أي ريحها . والحديث صححه الألباني في مشكاة المصابيح ، كتاب العلم (٢)،الفصل الثاني ، ح: ٢٢٧ ، جـ: ١ ، ص: ٧٧-٧٨ . وتصحيح الشيخ الألباني في ص:٧٨ ، تعليقه :١ ، وكذلك صححه في صحيح الجامع الصغير وزيادته ، جـ: ٢ ، ص: ١٠٦٠ ، ح:٦١٥٩ .

((من تعلم علماً لغير ا لله أو أراد به غير ا لله فليتبوّأ مقعده من النار))[1].

ففي هذين الحديثين أيضاً الوعيد الشديد لمن لم يرد بالعلم الصالح وجه ا لله وحده بل أراد به أمراً دنيوياً معيّناً .

ويلتحق بحكم من لم يرد بعمله الصالح وجهه سبحانه حكم من يعمل الأعمال الصالحة خوفاً من عقابٍ أو مكروهٍ معجل يلحقه ، أو يترك المحرمات لمجرد الخوف من العقاب المعجل دون طلب ثواب ا لله أو الخوف من عقابه .

وبالنسبة إلى تارك المحرمات فإن من يتركها لكونها لم تخطر بباله ، لا قصداً للترك ، فإن هذا لايثاب على تركه لها ، ولا يعاقب أيضاً . ولكن يعاقب إذا قامت عليه الحجة بتحريمها و لم يعتقد تحريمها [2].

(فترتّب الثواب وعدمه في فعل الواجب وترك المحرم راجع الى وجود شرط الثواب وعدمه ، وهو النية)[3].

هذا في من كان دافعه إلى العمل مجرد الرياء ، دون قصد الثواب من ا لله تعالى ، أما من كان دافعه إلى العمل الصالح طلب الأجر من ا لله سبحانه بيد أنه خالطه شيءٌ من الرياء أو من إرادة أمرٍ دنيوي فإن الظاهر من الحديث السابق إيراده والذي فيه : ((أن ا لله لايقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغي به وجهه))[4]. أنه سبحانه يردّ ذلك العمل ولايقبله بسبب عدم إخلاص النية له عزوجل .

ولكن هل ينال هذا المرء من الوعيد ما يناله من كان عمله رياءً وسمعة فقط ؟

---

(١)- روى الحديث الترمذي عن ابن عمر رضي ا لله عنهما . عارضة الأحوذي : أبواب العلم ، باب : فيمن يطلب بعلمه الدنيا ، جـ: ١٠ ، ص: ١٢٣ . وقال الترمذي عن الحديث ، هذا حديث حسن غريب. والحديث رواه أيضاً ابن ماجه في سننه عن ابن عمر رضي ا لله عنهما : في المقدمة ، باب : الانتفاع بالعلم والعمل به (٢٣)،جـ: ١ ، ص: ٩٥ ، ح: ٢٥٨ .

(٢)- انظر : الحسنة والسيئة ، لابن تيمية ، ص: ٤٦ . و: شفاء العليل . ص: ٢٨٧ .

(٣)- شرح الكوكب المنير لابن النجار ، مج : ١ ، ص: ٣٥٠ .

(٤)- انظر تخريج الحديث ص: ٣٠١ ، هامش (١) .

قد يقال بأن العمل إذا كان من أعمال الفرائض والواجبات وردّ بسبب عدم إخلاص النية لله وحده . فإن صاحبه يكون مطَالباً يوم القيامة بذلك الفرض الذي لم يؤدَّ كما أراد ا لله سبحانه ومن ثمّ يكون معرضاً للعقاب . وا لله أعلم .

وأما إن لم تكن أعماله التي لم يخلص فيها النية لله وحده من أعمال الواجبات والفرائض فهذا حكمه حكم المسيئين ، الذين جمعوا بين أعمال صالحة وأخرى غير صالحة .

وهناك حالة رجح فيها الإمام أحمد وغيره عدم حبوط العمل ، وهو فيمن أدى العمل لله سبحانه ، ثم طرأ الرياء عليه أثناء العمل [1] .

وهناك حالة أخرى : وهي أن يعمل عملاً خالصاً لله وحده ثم يعرض له أمر من أمور الدنيا فلا يبالي إن تحقق له أو لم يتحقق فلا يكون هذا الأمر الدنيوي قادحاً في إخلاصه ، وذلك كمن خرج للحج وتاجر . وقد قال فيه سبحانه :

﴿ **ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم فإذا أفضتم من عرفات...**(١٩٨)﴾البقرة .

فأباح ا لله سبحانه في هذه الآية التجارة أيام الحج [2] . فلا يضره -بإذن ا لله- ما رافق حجه من تجارة ونحوها . مادام أن نيّته كانت خالصة لله وحده [3] .

وهناك حالة ثالثة : وهي فيمن عمل صالحاً وابتغى به وجه ا لله سبحانه لكنه لم يرد به ثواب الآخرة ، وإنما أراد من ا لله ثواب الدنيا من تنمية مال وحفظ نِعَمٍ وسلامة أهل ونحو ذلك فهذا قد يقال : إنه يدخل في حكم قوله تعالى :

﴿ **من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لايبخسون** (١٥) **أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون** (١٦) ﴾ هود .

---

(١)- انظر فيما سبق ذكره عن المرائي وأحكامه تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد ، ص:٥٢٨-٥٣١ ، ٥٣٨ . وعدة الصابرين وذخيره الشاكرين،لابن القيم،ص: ١٣٨ .و: الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي،لابن القيم الجوزية،ص : ١٩٦-١٩٧ .

(٢)- انظر : تفسير ابن كثير ، جـ: ١ ، ص: ٢٣٩-٢٤٠ .

(٣)- انظر : تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد ، ص: ٥٣٠ .

وقوله :

﴿ **من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب** (٢٠) ﴾ الشورى [1].

ولكن في واقع الأمر قد يكون من الصعب تصوّر إنسان يؤمن با لله سبحانه الإيمان الحقيقي ويؤمن باليوم الآخر ، وبما فيه من ثواب وعقاب ، ثم يعبد ا لله مخلصاً له سبحانه ، ولايريد بعبادته تلك من ا لله تعالى إلا ثواب الدنيا ، ولذلك فرّق الإمام ابن قيم الجوزية رحمه ا لله بين المؤمن با لله سبحانه وباليوم الآخر ، وبين العالم بذلك المقرّ به ، قال رحمه ا لله :

(وههنا أمر يجب التنبيه له وهو أنه لايمكن إرادة الدنيا وعاجلها بأعمال البرّ دون الآخرة ، مع الإيمان با لله ورسوله ولقائه أبداً ، فإن الإيمان با لله والدار الآخرة يستلزم إرادة العبد لرحمة ا لله والدار الآخرة بأعماله ، فحيث كان مراده بها الدنيا فهذا لا يجامع الإيمان أبداً ، وإن جامع الإقرار والعلم ، فالإيمان وراء ذلك ، والإقرار والمعرفة حاصلان لمن شهد ا لله سبحانه له بالكفر مع هذه المعرفة ، كفرعون وثمود واليهود الذين شاهدوا رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم وعرفوه كما عرفوا أبناءهم ، وهم من أكفر الخلق ، فإرادة الدنيا وعاجلها بالأعمال قد تجامع هذه المعرفة والعلم ، ولكن الإيمان الذي هو وراء ذلك لابد أن يريد صاحبه بأعماله ا لله والدار الآخرة)[2].

وأما من عمل الأعمال الصالحة وهو مخلص لله سبحانه فيها ويرجو منه جل شأنه ثواب الآخرة مع شيء من ثواب الدنيا المباح فهذا لاشيء عليه بإذن ا لله قال تعالى :

﴿ **فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا ا لله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً ، فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق** (٢٠٠) **ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار** (٢٠١) **أولئك لهم نصيب مما كسبوا وا لله سريع الحساب** (٢٠٢) ﴾ البقرة .

---

(١)- انظر : تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد ، ص: ٥٣٥-٥٣٦ .

(٢)- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ، ص: ١٣٨ .

فالصنف الأول من الناس الذي لم يدع إلا لدنياه ، هو صنف مذموم ، ليس له في الآخرة من نصيب ، وهو الصنف الذي سبق الحديث عنه . وأما الصنف الثاني فهو صنف ممدوح ودعوتهم قد جمعت -كما قيل- كل خير وصرفت كل شر دنيوياً كان أو أخروياً .

وقد ورد أن قوله تعالى : ﴿ **ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار** ﴾ كانت أكثر دعوة يدعو بها الرسول صلى الله عليه وسلم [(١)]. وبالطبع فإن الإنسان لايدعو بدعاءٍ إلا وهو يريد مقتضاه .

وإذا ما عمل المؤمن عملاً حسناً مبتغياً به وجه الله تعالى فاطلع الناس على ذلك العمل وأعجبوا به ففرح بذلك فإن هذا الفرح لايضرّه . وقد سأل رجل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : [يا رسول الله الرجل يعمل العمل فيسرّه فإذا اطلع عليه أعجبه ذلك ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((له أجران أجر السّر وأجر العلانية))] [(٢)].

وقال صلى الله عليه وسلم لمن سأله :

[أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه . قال : ((تلك عاجل بشرى المؤمن))] [(٣)].

وبعد فقد تبيّن مما سبق ، أن الشرط الثاني لقبول الأعمال الصالحة والإثابة عليها هو : أن يعملها صاحبها مريداً بها وجه الله سبحانه وحده ، مخلصاً له في تلك الإرادة ، طالباً منه الإثابة الأخروية على عمله .

---

(١)- انظر : تفسير ابن كثير ، جـ: ١ ، ص: ٢٤٣-٢٤٤ ، والحديث رواه مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه . انظر شرح النووي على مسلم ، كتاب : الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب : فضل الدعاء بـ ﴿ **اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار** ﴾ ، جـ: ١٧ ، ص: ١٦ .

(٢)- رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه . انظر : عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي ، أبواب الزهد ، باب : عمل السر ، جـ: ٩ ، ص: ٢٣١ . وقال الترمذي : هذا الحديث حسن غريب .

(٣)- رواه مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه . انظر : شرح النووي على مسلم : كتاب : البر والآداب والصلة ، باب : إذا أثنى على الصالح فهي بشرى ولا تضره ، جـ: ١٦ ، ص: ١٨٨-١٨٩ ، (ح: ١٦٦ حسب المعجم). وانظر في هذه المسألة : تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد ، ص: ٥٣١ .

الشرط الثالث : أن يكون العمل مشروعاً وأن يؤدّى على الوجه الذي أمر به الشرع :

بمعنى أن يتوجّه المرء إلى الله تعالى بالعبادة وبالعمل الصالح الذي شرعه وأمر به قال تعالى :

﴿ **... فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً**(١١٠)﴾ الكهف .

أي فمن أراد الثواب من الله سبحانه يوم الدين فليكن عمله عملاً صالحاً ، ولايكون ذلك إلا بعبادة الإنسان ربه وفق ما أمر به جل جلاله [(١)]، إذ إن الإنسان بمجرد عقله لا يستطيع تعيين الهيئة والكيفية المثلى التي ينبغي أن يعبد بها الله عزوجل والتي تنال رضاه.

قال تعالى :

﴿ **بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** (١١٢) ﴾ البقرة .

وقال سبحانه أيضاً :

﴿ **ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتّبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلاً** (١٢٥) ﴾ النساء .

(فالعمل الصالح هو الإحسان ، وهو فعل الحسنات ، والحسنات هي : ما أحبه الله ورسوله وهو ما أمر به أمر إيجاب أو استحباب ، فما كان من البدع في الدين التي ليست في الكتاب ولا في صحيح السنة ، فإنها وإن قالها من قالها ، وعمل بها من عمل : ليست مشروعه ، فإن الله لايحبها ولا رسوله ، فلا تكون من الحسنات ولا من العمل الصالح ، كما أن من يعمل مالا يجوز كالفواحش والظلم ليس من الحسنات ولامن العمل الصالح)[(٢)].

فلا يعبد الله سبحانه إلا وفق ما شرع وأمر لاوفق الأهواء والظنون والبدع ، فالله

---

(١)- انظر : تفسير ابن كثير ، جـ: ٣ ، ص: ١٠٨ .

(٢)- العبودية لابن تيمية ، ص: ١٢ .

سبحانه – كما قيل – لايقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وإلاّ ما كان صواباً [(١)].

قال تعالى حكاية لما قاله أحد ابني آدم :

﴿ ... **قال : إنما يتقبّل ا لله من المتّقين** (٢٧) ﴾ المائدة .

فا لله سبحانه إنما يتقبّل العمل الذي اتقى ا لله فيه صاحبه ، بأن كان عمله ذلك موافقاً لأمره جلّ شأنه ، وكان مع ذلك خالصاً لله وحده [(٢)].

ثم إن العبد إذا توجه إلى ا لله تعالى بعمله الصالح ، فإنه ينبغي أن يؤدّيه على الوجه الأكمل الذي شرعه له ، فيوفي العمل حقه الذي ينبغي له [(٣)].

فإذا ما توجه العبد إلى ربه سبحانه مثلاً بصلاة مشروعة فإنه ينبغي له أن يوفّي تلك الصلاة حقها ، فيؤديها كاملة بجميع أركانها وواجباتها وسننها وهيئاتها التي شرعها ا لله سبحانه ورسوله صلى ا لله عليه وسلم ، وينبغي كذلك أن يؤديها بطمأنينة وخشوع كامل وحضور قلب دون غفلة عنها أو تفكير بأمور خارجة عن مقتضاها ، لأن ذلك مما ينقص من ثوابها ، ويضعف أثرها على العبد في كونها آمرة له بالمعروف ناهية له عن أنواع المنكرات والفواحش .

قال صلى ا لله عليه وسلم :

((إن الرجل لينصرف وما كُتب له إلا عُشر صلاته ، تُسعُها ، ثمنها ، سُبعها ، سدسها ، خُمسها ، رُبعها ، ثُلثها ، نصفها))[(٤)].

ومن أهم أسباب هذا النقصان هو عدم حضور القلب والفكر أثناء تأدية المرء صلاته، فينقص له من ثوابها بقدر غفلة قلبه وفكره [(٥)].

---

(١)- ذكر ذلك عن الفضيل بن عياض رحمه ا لله ، انظر : العبودية : ص: ٢١ . ومجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية:جـ: ٢٨ ، ص: ١٣٤-١٣٥ .

(٢)- انظر : مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ، جـ: ٧ ، ص: ٤٩٤-٤٩٧ ، جـ: ١٠ ، ص:٣٢٢، جـ: ٢٨ ، ص: ١٣٥ .

(٣)- انظر : الفصل في الملل والأهواء والنحل،لابن حزم . جـ: ٤ ، ص: ٦٢ .

(٤)- رواه أبو داود عن عمار بن ياسر . انظر : مختصر سنن أبي داود للحافظ المنذري : كتاب : الصلاة، تفريع استفتاح الصلاة ، باب : تخفيف الصلاة للأمر يحدث ، جـ: ١ ، ص: ٣٨١ ، ح: ٧٥٢ . والحديث حسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته : ح: ١٦٢٦ ، جـ: ١ ، ص: ٣٣٥ .

(٥)- انظر : مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ، جـ: ٢٢ ، ص: ٦٠٣-٦٠٤ ، ٦١١-٦١٢ .

الشرط الرابع : عـــدم وجـــود مــا يحبــط ثــواب العمـــل :

وهذا الشرط ليس شرطاً لقبول العمل الصالح حين فعله ، فقد يعمل المرء عملاً صالحاً مستكملاً للشروط الثلاثة السابقة ، فيكتب له ذلك العمل من حسناته ، أي يكون مستحقاً للإثابة عليه – بفضل الله سبحانه – ، ولكن مع ذلك قد يطرأ على ثواب ذلك العمل ما يبطل استحقاق صاحبه له .

فهذا الشرط إنما هو لثبات استحقاق الإنسان – بفضل الله – للثواب على ما قدمه من عمل صالح ، وهو – كما قلت – عدم وجود ما يحبط ذلك الثواب سواء أكان إحباطاً كليّاً أو إحباطاً جزئيّاً [(١)].

– أما الإحباط الكلي : فلا يكون إلا بالكفر والارتداد عن الإسلام ، إذ لايحبط الحسنات كلّها إلا الكفر [(٢)].

– وأما الإحباط الجزئي : فهو إحباط بعض السيئات لما يقابلها من الحسنات ، وهذا النوع من الإحباط قد أثبته أكثر أهل السنة [(٣)].

ومما استدّل به على ثبوت الإحباط الجزئي لبعض الحسنات بسبب ارتكاب بعض السيئات ما يلي :

الدليل الأول : قوله تعالى :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولاتبطلوا أعمالكم** (٣٣)﴾محمد.

أ – فإن قيل بأن المراد بالإبطال هنا هو الإبطال الناتج عن الردّة . أجيب بأن :

١– (تفسير الإبطال ها هنا بالردّة ، لأنها أعظم المبطلات ، لا لأن المبطل ينحصر فيها) [(٤)].

---

(١)– انظر : مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ، جـ: ٢٠ ، ص: ٢٥٤ .

(٢)– انظر : المرجع السابق ، جـ: ٧ ، ص: ٤٩٣ ، جـ: ١٠ ، ص: ٣٢٢ ، جـ: ١١ ، ص: ٧٠٠ . وقد سبق دراسة بعض مسائل الكافر والمرتد عند الكلام عن الشرط الأول من شروط قبول الأعمال والإثابة عليها انظر ص: ٢٨٨ وما بعدها .

(٣)– انظر : المرجع السابق : جـ: ١٠ ، ص: ٣٢٢–٦٣٨ .

(٤)– مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، جـ: ١ ، ص: ٢٧٨ .

٢- ثم إن الكفر والردة أمور منهي عنها في أنفسها . وهي موجبة للخلود الدائم في النار ، فيكون النهي عنها لايقتصر في التعبير عنه بمجرد قوله تعالى : ﴿ **ولاتبطلوا أعمالكم** ﴾ بل لابد في التعبير من نوع من التهديد والوعيد والتغليظ في الحكم كقوله تعالى : ﴿ ... **ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** (٢١٧) ﴾ البقرة .

٣- وبعد أمر ا لله للمؤمنين - في سورة محمد - بطاعته وطاعة رسوله ، وهو أمر يتضمن معنى النهي عن مخالفتهما لئلا يؤدّي ذلك إلى إبطالٍ للأعمال ، جاء ذكر حال الكافرين الذين حبطت جميع أعمالهم بسبب كفرهم ، فقال جل شأنه : ﴿ **إن الذين كفروا وصدّوا عن سبيل ا لله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر ا لله لهم** (٣٤) ﴾ محمد .

وهذا مما يؤيّد كون لفظ الإبطال الوارد في هذا الموضع من سورة محمد لايراد به حبوط العمل جميعه .

٤- ومما يؤيّد أن المراد بالإبطال حبوط بعض العمل لا جميعه أنه قد ذكر هذا اللفظ في موضع آخر في قوله تعالى :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى** ...(٢٦٤) ﴾ البقرة .

والمراد بالإبطال هنا : إبطال بعض عمل المكلف لا جميعه ، فكأن هذا اللفظ يختص بإحباط بعض العمل الحسن [(١)] .

ب - فإن قيل : إن المراد بالآية : أن المرء إذا شرع في عمل يتقرب فيه إلى ا لله سبحانه فليتمّه ولا يقطعه فيبطله .

أجيب : بأن الآية لو كانت تدل على النهي عن إبطال بعض العمل فهي دالة على النهي عن إبطاله كلّه بطريق الأولى .

- فإن قيل : بأن عدم إتمام العمل يستلزم إبطاله كله .

أجيب : بأنه لا يسلم أن العمل إذا لم يتمّه صاحبه فإنه لايستحقّ ثواب ما عمله منه .

---

(١)- انظر : مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ، جـ: ١٠ ، ص: ٦٣٩ .

فلا يكون بعدم إتمامه له مبطلاً لعمله كلّه [1].

الدليل الثاني : قوله تعالى :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى** ...(٢٦٤) ﴾ البقرة .

فهذه الآية فيها دليل ظاهر على أن العمل السيء اللاّحق قد يكون سبباً لإبطال ثواب عمل صالح متقدم مستوف لشروط قبوله حين القيام به . فالصدقة في سبيل ا لله قد يستوفي صاحبها شروطها اللازمة لها حين أدائها ويستحق بفضل ا لله الإثابة عليها ، ولكنه قد يقوم بعد ذلك بعمل يبطل ثواب صدقته بمنّه على من تصدّق عليه أو إيذائه له بأي نوع من أنواع الإيذاء بسبب تلك الصدقة [2].

الدليل الثالث : قوله تعالى :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولاتجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون** (٢) ﴾ الحجرات [3].

والإحباط هنا قد يكون في بعض الأحوال كليّاً إن رافقه استهزاء بالرسول صلى ا لله عليه وسلم ونحو ذلك ، وقد يكون جزئيّاً ، فيحبط من حسنات المكلف القدر الذي يقضيه ا لله سبحانه بعدله في مقابل ذلك الذنب .

وقد يقال بأن مثل هذا العمل ربما يؤدي إلى كفر محبط ، كما قيل : إن المعاصي بريد الكفر [4]. ولكن إذا حبط من حسنات المكلف بسبب ارتكابه لبعض السيئات المقتضية لذلك بعدل ا لله تعالى ، ثم تاب بعد ذلك المذنب من تلك السيئات التي ارتكبها ، فإنه لايمتنع أن يقال : بأن ثواب الحسنات الذي أحبط يعود له ويثبت بفضل ا لله عزوجل ، وذلك قياساً على ما سبق بيانه في مسألة عودة المرتد إلى الإيمان الصحيح [5].

---

(١)- انظر المرجع السابق ، جـ: ١٠ ، ص: ٦٣٩-٦٤٠ .

(٢)- انظر : مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم ، جـ: ١ ، ص: ٢٧٨ .و: تفسير ابن كثير:جـ: ١ ، ص: ٣١٧-٣١٨ .

(٣)- انظر : مدارج السالكين : جـ: ١ ، ص: ٢٧٨ .

(٤)- انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية:جـ٧ ، ص: ٤٩٤ .

(٥)- انظر ما سبق ص: ٢٩٧-٣٠٠ .

يقول الإمام ابن قيم الجوزية :

فـ (الإساءة المتخلّلة بين الطاعتين قد ارتفعت بالتوبة ، وصارت كأنها لم تكن ، فتلاقت الطاعتان واجتمعتا . وا لله أعلم .)[1].

ثم إن من أوضح صور الإحباط الجزئي ما يكون يوم القيامة نتيجة الموازنة – والتي سبق بيانها [2]– فإنه إذا رجحت سيئات امرئٍ مؤمن على حسناته وقضى ا لله سبحانه عليه بأن ينال العقوبة ، فإن تلك السيئات تكون عندئذ قد أحبطت حسناته – ماعدا حسنة الإيمان – ومن ثمّ أحبطت مقتضاها وهو الإثابة عليها ، فلا يبقى صاحبها مستحقاً للإثابة على حسناته الزائدة على مامعه من إيمان صحيح [3]... وا لله أعلم .

وإذا أخرج من النار بعد ذلك – بفضل ا لله تعالى – وأثيب فهو إنما يثاب على إيمانه الصحيح غير المنقوض .

٢ – أهم شروط تحقق العقاب على العمل :

الشرط الأول : أن يكون العمل محرماً :

أي أن يكون العمل قد رتب الشرع على تركه أو فعله عقاباً : قال جل شأنه :

﴿ ... **فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم**(٦٣)﴾ النور .

وقال سبحانه : ﴿ ... **من يعمل سوأً يُجْزَ بِهِ ولايجد له من دون ا لله ولياً ولا نصيراً**(١٢٣)﴾ النساء .

وأعظم المحرمات وأكبر المخالفات تلك التي تخرج الإنسان من الإيمان إلى الكفر . وهنا قضية كان فيها بعض الخلاف بين العلماء وهي قضية مخاطبة الكافر بفروع الشريعة بحيث يعاقب يوم القيامة على عدم أدائه للفرائض على الوجه الذي أراده ا لله سبحانه وعلى فعله للمحرمات التي نهى تعالى عنها .

---

(١)– مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين،لابن القيم ، جـ: ١ ، ص: ٢٨٢ .

(٢)– انظر ماسبق ص: ٢٦٤ .

(٣)– انظر : مدارج السالكين ، جـ: ١ ، ص: ٢٧٩ .

وجمهور أهل السنة على أن الكافرين محاسبون مجازون على عدم أدائهم لتلك التكاليف [(١)].

ولهم على ذلك استدلالان هما :

الاستدلال الأول : ورود آيات عامة تشمل المؤمنين والكافرين وتأمر بأنواع من العبادات منها :

---

(١)- انظر في بيان رأي أهل السنة في هذه المسألة كتب أصول الفقه . والمشهور من المذاهب الثلاثة المالكية والشافعية والحنابلة القول بتكليفهم بمعنى أنهم محاسبون ومجازون يوم الدين على عدم أدائهم للفرائض لا على معنى أنهم مطالبون بأدائها حالاً أي في حالة كفرهم ، ولا على معنى أنهم مطالبون بقضائها إن آمنوا كما نبه إلى ذلك الإمام النووي . انظر : المجموع شرح المهذب:جـ: ٣ ، ص: ٤-٥ . وانظر في بيان نسبة هذا القول إلى الجمهور : شرح الكوكب المنير ، جـ: ١ ، ص: ٥٠١ .والإحكام في أصول الأحكام للآمدي ، جـ: ١ ، ص: ١٩١ .والمستصفى للغزالي ، جـ: ١ ، ص: ٩١ .ونهاية السول في شرح منهاج الأصول ، جـ: ١، ص: ٣٦٩ .والأشباه والنظائر للسيوطي،ص: ٤٣٠ .ومجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ، جـ: ٢٢ ، ص: ١١ . أما الأحناف : فإنه بمراجعة مصادرهم يتبين أنهم فريقان : الأول كالجمهور وهم العراقيون ، والثاني وهم البخاريون قالوا بأنهم غير مكلفين بالواجبات ، أي أنهم غير مؤاخذين على عدم أدائها يوم القيامة وإن كانوا مؤاخذين على عدم اعتقاد لزومها عليهم . والمسألة كما قيل لايحفظ فيها عن الإمام أبي حنيفة أو صاحبيه قول منصوص وإنما استنبط ذلك القول البخاريون من الأحناف من بعض المسائل التي أفتى بها محمد بن الحسن والتي ربما يكون لها أصل آخر عنده غير القول بأن الكفار غير مجازين على عدم أدائهم العبادات يوم الدين . انظر : أصول السرخسي ، جـ: ١ ، ص: ٧٣-٧٨ .وفواتح الرحموت ، جـ: ١ ، ص: ١٢٨-١٣٢ .ونهاية السول،مع تعليقات الشيخ محمد بخيت المطيعي ، جـ: ١ ، ص: ٣٦٩-٣٧٤ ، ٣٧٩-٣٨١ . قال الشيخ محمد بخيت المطيعي - وهو حنفي المذهب - : (والصحيح عندنا أن الكفار مكلفون بالفروع في الدنيا كما أنهم مكلفون بها في حق الآخرة ، وهو مذهب العراقيين من أصحابنا الحنفية ، ولذلك قال الكمال بن الهمام : والمسألة ليست بمحفوظة عند المتقدمين ، وإنما استنبطها مشايخ بخارى من بعض تفريعاتهم ، والعراقيون:إنهم مخاطبون بالكل ، وهو القول المنصور الذي تعاضده الأدلة من قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم** ﴾ ﴿ **و لله على الناس حج البيت** ﴾ وغير ذلك فإن الخطاب يتناولهم ويوجب الأداء عليهم ، وإن لم يجز حال الكفر. و لم يجب القضاء بعد إسلامهم للحرج) . نهاية السُول،مع تعليقات الشيخ محمد بخيت المطيعي ، جـ: ١ ، ص:٣٧١.

قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** (٢١) ﴾ البقرة .

وقوله جل شأنه : ﴿ ... **و لله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن ا لله غني عن العالمين** (٩٧) ﴾ آل عمران .

وقوله لبني إسرائيل مطالباً إياهم بالإيمان بما أنزله على محمد صلى ا لله عليه وسلم ومطالباً إياهم بالإضافة إلى الإيمان به بـ :

﴿ **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين** (٤٣) ﴾ البقرة .

وقوله عزوجل : ﴿ **وما تفرّق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة** (٤) **وما أمروا إلا ليعبدوا ا لله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة** (٥) ﴾ البيّنة .

فهذه آيات صريحة في عموم ما فيها من التكليف بالعبادات لغير المؤمنين وتأويلها جميعاً بما يخالف ظاهرها تأويل بعيد وضعيف ، ثم إذا ثبت أن الكفار مكلفون بتلك العبادات ثبت أنهم يوم القيامة مسؤولون عنها ومجازون بسببها الجزاء الذي يليق بهم .

الاستدلال الثاني : وهو الاستدلال بالآيات التي فيها وعيد شديد موجه للكفار بسبب عدم أدائهم بعض العبادات ، منها قوله تعالى :

﴿ ... **وويل للمشركين** (٦) **الذين لايؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون**(٧)﴾فصّلت .

وقوله جل وعلا :

﴿ **إلاّ أصحاب اليمين** (٣٩) **في جنات يتساءلون** (٤٠) **عن المجرمين** (٤١) **ما سلككم في سقر** (٤٢) **قالوا لم نك من المصلين** (٤٣) **ولم نك نطعم المسكين** (٤٤) **وكنا نخوض مع الخائضين** (٤٥) **وكنا نكذّب بيوم الدين** (٤٦) **حتى أتانا اليقين** (٤٧)﴾ المدثر .

وقوله سبحانه :

﴿**فلا صدّق ولا صلى** (٣١) **ولكن كذّب وتولى** (٣٢) **ثم ذهب إلى أهله يتمطى**(٣٣) **أولى لك فأولى** (٣٤) **ثم أولى لك فأولى** (٣٥) ﴾ القيامة .

فهذه الآيات جميعاً فيها وعيد للكفار على كفرهم وعلى عدم أدائهم لبعض العبادات -ويقاس عليها سائر العبادات- أو وعيدلهم بسبب ارتكابهم لبعض المنهيات -ويقاس

عليها سائر المنهيات- ، وتأويل هذه الآيات جميعها بما يخرجها عن ظاهرها الحق تأويل بعيد ومتعسف ولاحاجة إليه . وغاية مايراد من هذه المسألة في هذا الموضع هو إثبات زيادة عذاب الكفار، ومضاعفته بسبب الأوامر التكليفية التي لم يؤدوها وبسبب المناهي والمحظورات التي ارتكبوها وهذا ظاهر من الأدلة السابقة ظهوراً واضحاً [(١)]. والله أعلم .

الشرط الثاني : أن يكون فعل المعصية بإرادة من صاحبها :

فلابد أن يكون فاعل المعصية مريداً وناوياً القيام بها حتى يكون مؤاخذاً عليها ، وقد سبق بيان أن جزاء المكلف على عمل ماصدر منه مرتبط أساساً بنيته[(٢)]، وأما مجرد صدور عمل سيئ من الإنسان على سبيل الخطأ [(٣)]، ومن غير أن يكون مريداً له مطلقاً ، فإن ذلك العمل لايكون سبباً لمؤاخذة الإنسان عليه ، قال سبحانه :

﴿ .... **وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمّدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً** (٥) ﴾ الأحزاب .

وقال تعالى : ﴿ **لايكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحمّلنا مالا طاقة لنا به ، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين** (٢٨٦) ﴾ البقرة .

---

(١)- انظر أدلة إثبات تكليف الكفار ورد ما أثير عليها من اعتراضات كل من : المستصفى،للغزالي ، جـ١، ص: ٩١-٩٣ .ونهاية السول،مع التعليقات للشيخ المطيعي ، جـ١ ، ص: ٣٧٩-٣٨٣ .والإحكام، للآمدي ، جـ١ ، ص: ١٩١-١٩٤ .وروضة الناظر وجنة المناظر،لابن قدامة ، ص: ٢٨ .وشرح الكوكب المنير ، جـ١ ، ص: ٥٠٢-٥٠٣ . وفي المسألة أقوال أخر ضعيفة .

(٢)- انظر ماسبق ص: ٣٠٢ وما بعدها .

(٣)- الخطأ لغة : ضد الصواب . انظر لسان العرب،مادة (خطأ) ، جـ: ١ ، ص: ٥٨ . ثم إن الخطأ قد يراد به ما ارتكب من المخالفات عن عمد ، ومن أجل ذلك سمّي الذنب خطيئة . قال تعالى : ﴿ **بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** (٨١) ﴾البقرة . وقد يراد بالخطأ ما ارتكب من غير عمد . وهو المراد بالكلام هنا ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ** ...(٩٢) ﴾ النساء . انظر مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ، جـ: ٢٠ ، ص:٢٠-٢٤. وبناءً على ذلك فقد عرف الخطأ بأنه : ماليس للإنسان فيه قصد . اهـ . التعريفات،للجرجاني ، ص: ٩٩. وعرف أيضاً بأنه : كل ما يصدر عن المكلف من قول أو فعل خال عن إرادته وغير مقترن بقصد منه.اهـ. عوارض الأهلية،ص: ٣٩٦ .

وعندما نزل قوله جل شأنه : ﴿ ... **وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله** ...(٢٨٤) ﴾ البقرة ، دخل في قلوب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : [منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيء ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ((قولوا سمعنا وأطعنا)) . قال : فألقى الله الإيمان في قلوبهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **لايكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا** .. ﴾ قال : ((قد فعلت)) . ﴿ **ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا** ﴾ قال : ((قد فعلت)) . ﴿ **واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا** ﴾ قال : ((قد فعلت))] (١) .

فقوله تعالى : ((قد فعلت)) بعد دعاء المؤمنين ربهم بأن يرفع عنهم المؤاخذة على الخطأ دليل نصّي قاطع على انتفاء الإثم عمن يرتكب المعصية خطأً .

وهنا أمور لابد من التنبيه عليها وهي :

الأمر الأول : التفرقة بين عمل يجوز للإنسان القيام به في الأصل ، فإذا أخطأ فيه ، كان خطؤه مغفوراً له ، وبين عمل آخر لايجوز له القيام به في الأصل ، فهذا يحاسب على ما أخطأ فيه . ومثاله : الحاكم فقد ورد في شأنه قوله صلى الله عليه وسلم :

((إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر)) (٢) .

قال النووي :

(قال العلماء : أجمع المسلمون على أن هذا الحديث في حاكم عالم أهل للحكم ، فإذا أصاب فله أجران ، أجر باجتهاده ، وأجر بإصابته ، وإن أخطأ فله أجر باجتهاده ....

---

(١)- رواه مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما . شرح النووي على مسلم : كتاب الإيمان ، باب : من تجاوز الله تعالى عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر ...،جـ: ٢ ، ص: ١٤٦ .

(٢)- متفق عليه عن عمرو بن العاص رضي الله عنه . واللفظ للبخاري . فتح الباري ، كتاب : الاعتصام بالكتاب والسنة (٩٦) ،باب : أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ (٢١)،ح: ٧٣٥٢، جـ:١٣ ، ص: ٣١٨ . وشرح النووي على مسلم:كتاب : الأقضية ، باب : بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ ، جـ: ١٢ ، ص: ١٣ .

قالوا : فأما من ليس بأهل للحكم فلا يحل له الحكم،فإن حكم فلا أجر له بل هو آثم ولا ينفذ حكمه سواء وافق الحق أم لا ، لأن إصابته اتفاقية ليست صادرة عن أصل شرعي فهو عاصٍ في جميع أحكامه سواء وافق الصواب أم لا وهي مردودة كلها ولا يعذر في شيء من ذلك ...)[1].

ومن الأدلة على هذا قوله صلى الله عليه وسلم :

((القضاة ثلاثة : قاضيان في النار ، وقاض في الجنة . رجل قضى بغير الحق فعلم ذلك، فذاك في النار ، وقاض لايعلم فأهلك حقوق الناس فهو في النار ، وقاض قضى بالحق فذلك في الجنة))[2].

وفي رواية : ((وقاض قضى بجهله فهو في النار))[3].

ففي هذا الحديث دليل واضح على عظم إثم من يخطئ في الحكم بسبب عدم أهليته له في الأصل [4].

ويقاس عليه سائر من يخطئ في أعمال لايجوز له القيام بها ، كالمتطبّب بغير علم ونحوه.

الأمر الثاني : قال شيخ الاسلام ابن تيمية : (والنصوص إنما أوجبت رفع المؤاخذة بالخطأ لهذه الأمة)[5].

---

(١)- شرح النووي على مسلم ، جـ: ١٢ ، ص: ١٣-١٤ .

(٢)- الحديث رواه عن بريدة بن الحصيب رضي الله عنه الترمذي في سننه . وهذا لفظه . عارضة الأحوذي:أبواب الأحكام ، باب : ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في القاضي ، جـ: ٦ ، ص:٦٤-٦٥ . والحاكم في مستدركه : كتاب الأحكام ، جـ: ٤ ، ص: ٩٠ ، وذكر الحاكم لهذا الحديث روايتين . صحح إسناد الأولى ولم يوافقه الذهبي ، وذكر أن إسناد الثانية صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي . وروى الحديث أيضاً أبو داود . انظر : مختصر سنن أبي داود : كتاب : الأقضية ، باب : في القاضي يخطئ ، ح: ٣٤٢٩ ، جـ: ٥ ، ص: ٢٠٥ . وابن ماجه في سننه ، كتاب : الأحكام (١٣)، باب : الحاكم يجتهد فيصيب الحق (٣) ، ح: ٢٣١٥ ، جـ: ٢ ، ص: ٧٧٦ . والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته ، ح: ٤٤٤٦ ، جـ: ٢ ، ص: ٨١٨ .

(٣)- هذه الرواية للحاكم في مستدركه ، وقد سبق تخريج روايته في التعليقة السابقة .

(٤)- انظر في هذه المسألة مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ، جـ: ١٠ ، ص: ٤٥٠ ، جـ: ٢٠ ص:٢٥٢-٢٥٤ .

(٥)- مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ، جـ: ١٢ ، ص: ٤٩٦ .

وهذا ظاهر من خلال الآية التي ورد فيها دعاء المؤمنين ربهم بألايؤاخذهم على ما يصدر منهم من خطأ ، وأنه جل شأنه قد استجاب لهم ذلك .

الأمر الثالث : أن الكافر إذا بلغته دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم فلم يؤمن بها فهو كافر مستحق للعقاب ، ولايقبل منه عذر الخطأ بالاجتهاد [(١)].

وقد بين شيخ الاسلام ابن تيمية سبب ذلك بقوله :

(فإن ذلك لايكون خطؤه إلا لتفريطه وعدوانه ، لايتصور أن يجتهد فيكون مخطئاً في الإيمان بالرسول ، بل متى اجتهد - والاجتهاد استفراغ الوسع في طلب العلم بذلك - كان مصيباً للعلم بلا ريب .

فإن دلائل ما جاء به الرسول ودواعيه في نهاية الكمال والتمام الذي يشمل كل من بلغته ، ولا يترك أحد قط اتباع الرسول إلا لتفريط وعدوان فيستحق العقاب ، بخلاف كثير من تفصيل ما جاء به ، فإنه قد يعزب علمه عن كثير من خواص الأمة وعوامها، بحيث لايكونون في ترك معرفته مقصرين ولا مفرطين ، فلا يعاقبون بتركه ، مع أنهم قد آمنوا به إيماناً مجملاً ... بخلاف المكذب للرسول صلى الله عليه وسلم والكافر به فإنه لم يصدق بالحق ولم يستسلم له لاجملة ولا تفصيلاً ، لكن قد يكون ما اتّبعه من ظنه وهواه ، موجباً لبغض ما جاء به الرسول ومانعاً له من النظر فيه ، بحيث لايستطيع مع ذلك أن يسمع به ، فهذا واقع ، كما قال سبحانه :

﴿ **وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً** (١٠٠) **الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري وكانوا لايستطيعون سمعاً** (١٠١) ﴾ الكهف .

لكن عدم هذه الاستطاعة كان بتفريطه وعدوانه ، ومن كان تركه للمأمور بذنب منه، أو ضرورته إلى المحظور بذنب منه ، لم يكن ذلك مانعاً من ذمّه وعقابه ، ومن هذا قوله تعالى : ﴿ **وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون** ﴾[(٢)].

وقال : ﴿ ... **وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً** ﴾[(٣)].)[(٤)].

---

(١)- انظر : مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية : جـ: ١٢ ، ص: ٤٩٦ .

(٢)- سورة البقرة : (٨٨) .

(٣)- سورة النساء : (١٥٥) .

(٤)- رسالة في التوبة ؛ شيخ الإسلام ابن تيمية ، ص: ٣٢-٣٤ .وسيأتي -بإذن الله-ذكر صور أخرى لصدور مخالفات من الإنسان لايؤاخذ عليها في الآخرة . انظر الكلام عن : النوم والنسيان والجنون، ص:٤٦٥ وما بعدها .

الشرط الثالث : ارتفاع موانع إيقاع العقاب :

إن الإنسان قد يستوفي جميع مقتضيات إيقاع العقاب ورغم ذلك لايعاقب يوم القيامة بالنار لوجود مانع يمنع من إيقاع ذلك العقاب ، ولذلك فإنه لابد من انتفاء جميع تلك الموانع يوم الدين ليتم بعد ذلك تعذيب من يستوفى تلك المقتضيات .

وموانع إيقاع العقاب متعددة منها :

الأول : التوبة : وهي كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية (التوبة رجوع عما تاب منه إلى ماتاب إليه)[١].

وهي مقبولة من جميع الذنوب سواء كانت كفراً أوفسوقاً وعصياناً دون الكفر . وبين شيخ الإسلام ابن تيمية:أن الله سبحانه (لم يجعل شيئاً يحبط جميع السيئات إلا التوبة)[٢].

قال عزّ وجلّ :

﴿ **وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ماتفعلون**(٢٥)﴾الشورى .

والتوبة المقبولة هي التي تكون قبل حضور الموت أو قبل طلوع الشمس من مغربها .

قال تعالى :

﴿ **إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً** (١٧) **وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً** (١٨) ﴾ النساء .

وقال صلى الله عليه وسلم :

((إن الله عزّ وجلّ يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب

---

(١)- رسالة في التوبة ؛ ابن تيمية ، ص: ١٤ . كما عرف النووي التوبة بالرجوع عن الذنب . انظر : شرح النووي على مسلم ، جـ١٧ ، ص : ٥٩ .

(٢)- مجموع فتاوى ابن تيمية جـ٧ ، ص: ٤٩٣ .

مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها .))[1] .

والتوبة توبتان : توبة من ترك الحسنات ، وتوبة من فعل السيئات ، قال ابن تيمية : (والتوبة رجوع عماتاب منه إلى ماتاب إليه ، فالتوبة المشروعة هي الرجوع إلى الله ، وإلى فعل ما أمر وترك مانهى عنه وليست التوبة من فعل السيئات فقط ... بل التوبة من ترك الحسنات المأمور بها أهم من التوبة من فعل السيئات المنهي عنها .)[2] .

والتوبة واجبة ومستحبة ؛ فهي واجبة من ترك مأمور أو فعل محظور ، وهي مستحبّة من ترك المستحبّات أو فعل المكروهات [3] .

وللتوبة أركان هي :

١- الإقلاع عن الذنب .

٢- والندم على ماسبق من تفريط .

٣- والعزم على عدم معاودة الذنب أبداً .

وإن كانت المعصية في حق آدمي فلابد من رد الحق إليه ، إن اغتصب منه شيئاً ، أو باستحلاله من الذنب الذي ارتكب في حقه[4] ، بعد إعلامه به إن كان يجهله ، شريطة عدم نشوء مفسدة أكبر نتيجة الإعلام [5] .

وللتوبة بعد ذلك مباحث وأحكام كثيرة ليس هنا محل بسطها [6] .

---

(١)- رواه مسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه . انظر : شرح النووي على مسلم : كتاب : التوبة ، باب : قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة ، جـ١٧ ، ص: ٧٦ ، (ح:٣١ حسب المعجم) .

(٢)- رسالة في التوبة ؛ ابن تيمية ، ص: ١٤ .

(٣)- انظر : المرجع السابق ، ص: ١٢ .

(٤)- انظر : شرح النووي على مسلم ، جـ١٧ ، ص: ٥٩ .

(٥)- انظر : مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين،لابن قيم الجوزية ، جـ١ ، ص:٢٨٩-٢٩١ .

(٦)- انظر في بيان بعض أحكام التوبة : رسالة في التوبة ، لابن تيمية . وشرح النووي على مسلم:جـ١٧، ص: ٥٩-٦٠ . ومدارج السالكين ، لابن قيم الجوزية ، جـ١ ، ص: ٢٧٢-٣٠٧ .و لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية ؛ محمد بن أحمد السفاريني ، جـ١ ، ص: ٣٧٢-٣٨٧ .

الثاني : الاستغفار :

وهو طلب الغفر أي الستر للذنوب والسيئات ومحو أثرها ويلزم من ذلك ترك المؤاخذة على الذنب والوقاية من شرّه[(١)] .

قال جل شأنه :

﴿ **فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً** (١٠) ﴾ نوح .

وقال صلى الله عليه وسلم :

((والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم .))[(٢)] .

والاستغفار الكامل يستلزم أن يكون صاحبه تائباً من الذنب الذي يطلب من الله سبحانه ألا يؤاخذه عليه .

وقد اختلف فيما إذا كان الاستغفار يقبل من غير أن تقارنه توبة حقيقية أم لا[(٣)] .

الثالث : الأعمال الصالحة :

في أحوال عديدة تكون الحسنات سبباً لمحو سيئات كثيرة .

قال تعالى :

﴿ **وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيّئات ذلك ذكرى للذاكرين** (١١٤) ﴾ هود .

وقد جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بأنه أصاب من امرأة قبلة فنزلت

---

(١)- انظر : مدارج السالكين ، جـ١ ، ص: ٣٠٧-٣٠٨ .و: تفسير التحرير والتنوير ، لابن عاشور ، جـ٤ ، ص: ٩٢-٩٣ .

(٢)- رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه . انظر : شرح النووي على مسلم ، كتاب التوبة ؛ باب : سقوط الذنوب بالاستغفار توبة ، جـ١٧ ، ص: ٦٥ .

(٣)- انظر : مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، جـ٧ ، ص: ٤٨٨-٤٨٩ ، جـ١٠ ، ص: ٣١٨-٣١٩ .و: مدارج السالكين ، جـ١ ، ص: ٣٠٧-٣٠٩ .و: تفسير التحرير والتنوير ، جـ٤ ، ص:٩٢-٩٣.

الآية التي سبق ذكرها فقال الرجل : [ألي هذه يارسول ا لله ؟ قال :((لمن عمل بها من أمتي)).] [1].

وهناك أحاديث عديدة تدل على غفران كثير من السيّئات بسبب أعمال صالحة يعملها المرء [2].

كقوله صلى ا لله عليه وسلم :

((مامن مسلم يتطهر فيتم الطهور الذي كتب ا لله عليه فيصلي هذه الصلوات الخمس إلا كانت كفّارات لما بينها)) [3].

وكقوله عليه السلام :

((الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفّرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر)) [4].

الرابع : دعاء المؤمنين بعضهم لبعض :

كدعائهم لمن يموت منهم عند صلاتهم على جنازته.

قال صلى ا لله عليه وسلم :

((ما من ميت تصلي عليه أمة من المسلمين يبلغون مئة كلهم يشفعون له إلا شفّعوا فيه .)) [5].

---

(١)- رواه مسلم عن عبدا لله بن مسعود رضي ا لله عنه . انظر : شرح النووي على مسلم ، كتاب : التوبة،باب : قوله تعالى : ﴿ **إن الحسنات يذهبن السيئات** ﴾ ، جـ١٧ ، ص:٧٩ . وللحديث روايات عدة انظر ص : ٧٩-٨١ .

(٢)- انظر : مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، جـ٧ ، ص: ٤٨٩-٤٩٠ .

(٣)- رواه مسلم عن عثمان رضي ا لله عنه . انظر : شرح النووي على مسلم : كتاب : الطهارة ، باب : فضل الوضوء والصلاة عقبه ، جـ١٧ ، ص: ١١٥ .

(٤)- رواه مسلم عن أبي هريرة رضي ا لله عنه . انظر : شرح النووي على مسلم ، كتاب : الطهارة ، باب: فضل الوضوء والصلاة عقبه ، جـ١٧ ، ص: ١١٧-١١٨ .

(٥)- رواه مسلم عن عائشة رضي ا لله عنها . شرح النووي على مسلم : كتاب الجنائز ، (ح:٦١ حسب المعجم) ، جـ٧ ، ص: ١٧-١٨ .

وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام :

((مامن رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لايشركون با لله شيئاً إلا شفّعهم ا لله فيه))[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

(وهذا دعاء له بعد الموت فلا يجوز أن تحمل المغفرة على المؤمن التّقي الذي اجتنب الكبائر ، وكفّرت عنه الصغائر ، وحده ، فإن ذلك مغفور له عند المتنازعين ، فعلم أن هذا الدعاء من أسباب المغفرة للميت .)[2].

أي : وإن كان قد مات وعليه كبائر لم يتُبْ منها .

الخامس : ما يعمل للميت من أعمال البر : كالصدقة والحج ونحوهما [3].

السادس : شفاعة النبي صلى ا لله عليه وسلم وغيره في أهل الذنوب يوم القيامة[4].

ومثله دعاؤه صلى ا لله عليه وسلم واستغفاره لمن دعا واستغفر له في حياته عليه الصلاة والسلام .

السابع : المصائب التي تصيب المؤمن في الحياة الدنيا : فيكفّر ا لله سبحانه له بسببها من خطاياه[5].

الثامن : مايحصل للمؤمن في القبر: من الضّغطة وفتنة الملكين وما يصيبه من روعة وخوف نتيجة ذلك ، فإن هذا أيضاً مما يكفّر ا لله بسببه ما تبقى على المؤمن من خطايا .

التاسع : ما يحصل للمؤمن في الآخرة : من كرب وخوف بسبب مافي ذلك اليوم من أهوال وشدائد ، فإن ذلك أيضاً سبب لتكفير الخطايا .

---

(١)- رواه مسلم عن ابن عباس رضي ا لله عنهما . شرح النووي على مسلم : كتاب الجنائز ، جـ٧ ، ص: ١٨ .

(٢)- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، جـ٧ ، ص: ٤٩٨ .

(٣)- هذه المسألة ستأتي دراستها،انظر ص:٥٦٨ وما بعدها .

(٤)- سبق دراسة مسألة الشفاعة لأهل الكبائر،انظر ص:٢٦٨ وما بعدها .

(٥)- انظر ما سبق ص:٢٨.

العاشر : رحمة ا لله سبحانه وعفوه ومغفرته بلاسبب من العباد أصلاً [1]:ويدل عليه عموم قوله تعالى :

﴿ **إن ا لله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بـا لله فقد افترى إثماً عظيماً** (٤٨) ﴾ النساء .

الحادي عشر : ما ثبت من مقاصّة بين المؤمنين بعضهم من بعض : وهي تحدث بعد عبور الصراط والنجاة من النار مطلقاً ، مما يدل على أن ما يحدث في هذه المقاصة يكتفى به عن إمكانية التعذيب بالنار لمن يقتصّ منه ، أي أن هذه المقاصّة لن يكون نتيجتها ذهاب البعض إلى النار .

قال صلى ا لله عليه وسلم :

((إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار ، فيتقاصّون مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا نقّوا وهذّبوا أُذِنَ لهم بدخول الجنة فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم بمسكنه في الجنة أدلّ بمنزله كان في الدنيا .)) [2].

الثاني عشر : مايكون في الدنيا من إقامة أنواع القصاص والحدود على مستحقّيها: فإنها تعتبر كفارة لأصحابها عن العقوبة الأخروية [3].

قال صلى ا لله عليه وسلم لبعض أصحابه رضوان ا لله عليهم :

((بايعوني على ألا تشركوا بـا لله شيئاً ، ولاتسرقوا ولاتزنوا ولاتقتلوا أولادكم ، ولاتأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولاتعصوا في معروف ، فمن وفّى منكم

---

(١)- سبق تفصيل القول في هذه المسألة ، انظر ص:٢٦١ وما بعدها .

(٢)- رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي ا لله عنه . فتح الباري ، كتاب : المظالم (٤٦)،باب : قصاص المظالم (١)، ح:٢٤٤٠ ، جـ٥ ، ص: ٩٦ ، وقد سبق دراسة مسائل القصاص يوم القيامة في الفصل الأول من هذه الرسالة،انظر ص:٣٢ وما بعدها . ثم إن ماسبق ذكره من أسباب إسقاط العقوبة بالنار يوم القيامة انظره في : مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، جـ٧ ، ص: ٤٨٧-٥٠١ . وانظر : منهاج السنة النبوية له ، جـ٣ ، ص: ١٣٩-١٨٦ .

(٣)- انظر:شفاء العليل ؛ابن قيم الجوزية ، ص: ٤٢٠ . ومدارج السالكين،له:جـ١ ، ص: ٣٩٦-٣٩٧ .

فأجره على ا لله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره ا لله فهو إلى ا لله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه))[1].

وقال صلى ا لله عليه وسلم :

((من أصاب حدّاً فعجّل عقوبته في الدنيا فا لله أعدل من أن يثنّي على عبده العقوبة في الآخرة ، ومن أصاب حداً فستره ا لله عليه وعفا عنه فا لله أكرم من أن يعود إلى شيء قد عفا عنه))[2].

الثالث عشر : التوحيد : وهو مانع من التخليد في دار العذاب بالنصوص المتواترة التي لادافع لها، وربّما يقوم بالإنسان توحيد وإيمان يمنع من العذاب مطلقاً وإن استحقّه[3].

الرابع عشر: اجتناب الكبائر : وهو سبب لأن يغفر للإنسان ما ارتكبه من الصغائر.

قال تعالى :

﴿إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفّر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً(٣١)﴾ النساء .

قال الإمام ابن كثير في معنى الآية :

(أي إذا اجتنبتم كبائر الآثام التي نهيتم عنها كفّرنا عنكم صغائر الذنوب وأدخلناكم الجنة)[4].

---

(١)- متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت رضي ا لله عنه ، واللفظ للبخاري . وقد سبق تخريج الحديث،انظر ص: ٢٦٥ ، هامش (٢) .

(٢)- رواه الترمذي عن علي بن أبي طالب رضي ا لله عنه . عارضة الأحوذي : أبواب الإيمان ، باب: ماجاء لايزني الزاني وهو مؤمن ، جـ١٠ ، ص:٩٣ . وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب صحيح .

(٣)- سبق الإشارة إلى ذلك وبيان دليل منع العذاب مطلقاً ، انظر ص:١٩٧،مع هامش (١) . وانظر مدارج السالكين ، جـ١ ، ص: ٣٩٦ .

(٤)- تفسير ابن كثير ، جـ١ ، ص: ٤٨٠-٤٨٢ . وقد ذكر رحمه ا لله عدة أحاديث تؤيد مادلت عليه الآية الكريمة .

الخامس عشر : مايكون يوم القيامة نتيجة وزن الأعمال : فإنه إن زادت الحسنات على السيئات -ولو كان في السيئات كبائر- فإن الاعتبار للراجح دون المرجوح ، وحتى لوتساويا لدى امرئ فإن الله بفضله يدخله الجنة [(١)].

فهذه بعض أسباب إسقاط العقوبة بالنار يوم الدين ، وهي -كما هو ظاهر - لابد أن ينال بعضَها كثيرٌ من المؤمنين فينجون برحمة الله سبحانه من العقاب بالنار في ذلك اليوم .

فإذا عذب المسلم فلابد أنه ارتفع في حقه أي مانع يسقط عنه العقاب الأخروي .

أما الكافر فإنه لاشك في كونه قد استكمل في حق نفسه شروط إيقاع العقاب عليه واستكمل كذلك ارتفاع موانع إيقاعه ، فيكون عقابه حتماً مقضياً .

---

(١)- انظر : الدّرة فيما يجب اعتقاده ؛ ابن حزم . ص: ٣٥١ . و: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين . جـ: ١ ، ص: ٢٧٨-٢٨٨ .

ثالثاً : تفاوت الجزاء الأخروي على الأعمال وعوامل ذلك .

تمهيد :

إن مما يبين ارتباط الجزاء بالعمل ويعدّ دليلاً جديداً عليه ، النصوص الكثيرة التي ذكرت لنا أنواعاً من الجزاءات المتفاوتة ثواباً أو عقاباً والمترتّبة على حسب مايصدر من الإنسان من أعمال ظاهرة أو باطنة ، فالمرء ينال ثواباً ذا درجة عالية إذا عمل عملاً ما وثواباً أقل منه على عمل آخر ، وينال عقاباً أعظم إذا عمل عملاً ما وعقاباً أيسر على عمل آخر ، وهكذا تدلّنا هذه النصوص على ترتّب التفاوت في الجزاءات الأخروية على تفاوت درجات الأعمال فيما بينها ، فتكون بذلك دليلاً جديداً على قضية ارتباط الجزاء بالعمل ، بالإضافة إلى موضوعها الأصلي الذي هو بيان الجزاء المترتب على عمل حثاً للناس على فعله إن كان الجزاء ثواباً أو تحذيراً لهم منه إن كان الجزاء عقاباً ، وبيان أن كلاًّ من داري الجزاء ذو درجات متفاوتة مرتبطة بالعمل ، فعلى المكلّفين التسابق للنجاة من دركات دار العقاب ، ونيل أعلى ما يمكن من درجات دار الثواب .

١- بيان أن الجنة عبارة عن درجات ومراتب من النعيم والثواب متفاضلة :

إن الأدلة المثبتة لكون الجنة عبارة عن درجات متفاضلة في العلو ، سواء من الكتاب أو السنة ، أدلة متعددة معظمها صريح في بيان المقصود وواضح الدلالة على ذلك ، بحيث يمكن اعتبار أن مسألة تفاضل درجات النعيم مسألة لامجال للخلاف فيها .

ومن أدلة الكتاب العزيز على ثبوت كون الجنة على درجات ومراتب ، قوله تعالى :

﴿ **أفمن اتبع رضوان ا لله كمن باء بسخط من ا لله ومأواه جهنم وبئس المصير**(١٦٢) **هم درجات عندا لله وا لله بصير بما يعملون** (١٦٣) ﴾ آل عمران .

وهذه الآية عامة في إثبات أن كلاً من الثواب والعقاب هو على درجات متفاوتة [(١)].

ومن الأدلة أيضاً قوله تعالى :

﴿ لايستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل ا لله بأموالهم وأنفسهم فضّل ا لله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد ا لله الحسنى وفضّل ا لله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً (٩٥) درجات منه ومغفرة ورحمة وكان ا لله غفوراً رحيماً (٩٦) ﴾ النساء .

فهاتان الآيتان توضحان أن المؤمن المجاهد يرتفع على غير المجاهد درجات في الجنة لايعلم عظمها إلا ا لله سبحانه [(٢)].

ومن الأدلة أيضاً قوله جلّ شأنه :

﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر ا لله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون (٢) الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون (٣) أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم (٤) ﴾ الأنفال .

والدرجات عبارة عن منازل ومقامات متفاضلات في الجنّات [(٣)].

ومن الأدلة قوله سبحانه :

﴿ انظر كيف فضّلنا بعضهم على بعض ، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً(٢١) ﴾ الإسراء .

يقول الإمام ابن كثير عند بيان قوله تعالى : **﴿ وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ﴾**:(أي:ولتفاوتهم في الدّار الآخرة أكبر من الدنيا،فإن منهم من يكون في الدركات في جهنم وسلاسلها وأغلالها ، ومنهم من يكون في الدرجات العليا ونعيمها وسرورها ،

---

(١)- انظر : تفسير ابن كثير ، جـ١ ، ص: ٤٢٤ .و: حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ؛ ابن قيم الجوزية ، ص: ٧١ .

(٢)- انظر : حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح،ص: ٧١ .

(٣)- انظر تفسير ابن كثير ، جـ٢ ، ص: ٢٨٦ . وانظر حادي الأرواح ، ص: ٧٢ .

ثم أهل الدركات يتفاوتون فيما هم فيه كما أن أهل الدرجات يتفاوتون....)[١].

ومن الأدلة أيضاً قوله تعالى :

﴿ **ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى** (٧٥) **جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى** (٧٦) ﴾ طه .

فقوله تعالى:﴿ **..لهم الدرجات العلى** ﴾ أي : (الجنة ذات الدرجات العاليات..)[٢].

ومن الأدلة أيضاً ماجاء في سورة الرحمن عن وصف الجنّتين اللّتين أعدتا لمن خاف مقام ربّه ، ثم ماجاء عن وصف الجنّتين اللّتين دونهما [٣]. وما جاء أيضاً في سورة الواقعة من وصف للنعيم الذي يلقاه السابقون المقرّبون ، والنعيم الذي يلقاه أصحاب اليمين [٤].

في ذلك كله دليل واضح وجلي على أن النعيم يعظم نوعاً وكمّاً كلما ارتفعت درجة المثاب في الجنة ولذلك حثّ النبي صلى ا لله عليه وسلم من سأل ا لله الجنة أن يسأله الفردوس ، إذ هو وسط الجنة وأعلاها ، ممّا يلزم منه أن النعيم فيه أعظم وأعلى[٥].

وقد جاء في السنة المطهرة كذلك أدلة عديدة تدل على مادلّت عليه أدلة الكتاب الحكيم من ذلك قوله صلى ا لله عليه وسلم :

((جنّتان من فضّة آنيتهما ومافيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما ومافيهما ، وما بين

---

(١)- تفسير ابن كثير ، جـ٣ ، ص: ٣٤ . وانظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ، جـ١١ ، ص:١٨٨ .

(٢)- تفسير ابن كثير ، جـ٣ ، ص: ١٥٩ .

(٣)- سورة الرحمن . من آية ٤٦ إلى آخر السورة . وقد ذكر خلاف بين العلماء في مسألة أي الجنتين أعلى أهما الأوليان أم الأخريان ، ويبدو أنّ المرجّح كما هو ظاهر الآيات وكما رجّحه الإمام ابن قيم الجوزية وغيره أن الأولين أعلى من الأخريين . انظر : حادي الأرواح ، ص: ٩٥-٩٧ .و: تفسير ابن كثير، جـ٤ ، ص:٢٧٩-٢٨١ . وانظر في بيان أدلة كل من القولين التذكرة،للقرطبي ، ص:٥١٦-٥٢١ . ونسب رحمه ا لله القول بتفضيل الأخريين إلى كل من الضحاك وأبي عبدا لله محمد الترمذي الحكيم .

(٤)- سورة الواقعة من الآية (١٠) إلى آية (٤٠) .

(٥)- سيأتي بعد قليل -بإذن ا لله - ذكر الحديث الدال على ذلك . انظر ص:٣٣٩ .

القوم وبين أن ينظروا إلى ربّهم إلاّ رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن))[1].

وقد ذكر هذا الحديث كشاهد على الجنات الأربع الواردة في سورة الرحمن ، إذ يظهر منه أن جنّتين من الجنات الأربع أعلى وأرفع من الجنتين الأخريين ، إذ الأوليان من ذهب والأخريان من فضة ، ولاشك أن الذهب أعلى من الفضة .

ومما يدلّ على أن الجنة عبارة عن مراتب ودرجات قوله صلى ا لله عليه وسلم :

((من آمن با لله ورسوله وأقام الصلاة وصام رمضان ، كان حقّاً على ا لله أن يدخله الجنة هاجر في سبيل ا لله أوجلس في أرضه التي ولد فيها)) قالوا : يارسول ا لله أفلا ننبئ الناس بذلك ؟ قال : ((إن في الجنة مائة درجة ، أعدّها ا لله للمجاهدين ، كل درجتين مابينهما كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم ا لله فسلوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة))[2].

وقوله صلى ا لله عليه وسلم :

((إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل مابينهم .)) . قالوا : يارسول ا لله ، تلك منازل الأنبياء لايبلغها غيرهم ؟ قال : ((بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا با لله وصدّقوا المرسلين .))[3].

---

(١)- متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري رضي ا لله عنه . واللفظ للبخاري . انظر : فتح الباري: كتاب : التوحيد (٩٧) ، باب : قول ا لله تعالى : ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة** ﴾ (٢٤)، ح:٧٤٤٤،جـ١٣ ، ص: ٤٢٣ . وانظر : شرح النووي على مسلم : كتاب الإيمان ، باب : إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة لربهم سبحانه وتعالى ، جـ٣،ص: ١٥-١٦ .

(٢)- رواه البخاري عن أبي هريرة رضي ا لله عنه . فتح الباري ، كتاب التوحيد (٩٧)،باب: ﴿**وكان عرشه على الماء ، وهو رب العرش العظيم**﴾،ح: ٧٤٢٣ ، جـ١٣ ، ص: ٤٠٤ . وعن مسلم نحوه في إثبات المائة درجة للمجاهدين . انظر : شرح النووي على مسلم : كتاب : الإمارة ، باب: ما أعدّه ا لله تعالى للمجاهد في الجنة من الدرجات ، جـ١٣ ، ص: ٢٨ ، (ح:١١٦ حسب المعجم).

(٣)- متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري رضي ا لله عنه . واللفظ لمسلم،شرح النووي على مسلم=

وهذه الغرف هي التي وردت في شأنها عدة آيات في كتاب ا لله العزيز،منها قوله تعالى :

﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوّئنهم من الجنة غرفاً تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين** (٥٨) ﴾ العنكبوت .

يقول الإمام ابن كثير في بيان معنى قوله : ﴿ **لنبوّئنهم من الجنة غرفاً** ...﴾ : (أي: لنسكننّهم منازل عالية في الجنة تجري من تحتها الأنهار ...)[١] .

ومنها قوله تعالى :

﴿ **لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرفٌ من فوقها غرفٌ مبنيّة تجري من تحتها الأنهار وعد ا لله لايخلف ا لله الميعاد** (٢٠) ﴾ الزمر .

والحديثان السابقان واضحا الدلالة على أن الجنة عبارة عن درجات بعضها فوق بعض، وعلى عظم المسافة التي بين الدرجات .

ومن الأدلة أيضاً ما ورد في شأن إثبات أعلى درجات الجنة وأدناها كقوله صلى ا لله عليه وسلم عن أعلى درجة في الجنة :

((إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل مايقول ، ثم صلوا عليّ ، فإنه من صلى علي صلاة صلى ا لله عليه بها عشراً ، ثم سلوا ا لله لي الوسيلة ، فإنها منزلة في الجنة لاتنبغي إلا لعبد من عباد ا لله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لي الوسيلة حلّت له الشفاعة .))[٢] .

وقال صلى ا لله عليه وسلم عن أدنى وأعلى منازل الجنة :

((سأل موسى ربه ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال : هو رجل يجيء بعدما أدخل أهل

=كتاب : الجنة وصِفَةُ نعيمها وأهلها ، جـ١٧ ، ص: ١٦٩ . وانظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري: كتاب:بدء الخلق (٥٩) ، باب : ما جاء في صفة الجنة وأنّها مخلوقة (٨) ،ح:٣٢٥٦ ، جـ٦ ، ص:٣٢٠ .

(١)- تفسير ابن كثير:جـ٣ ، ص: ٤١٩ .

(٢)- رواه مسلم عن عبدا لله بن عمرو بن العاص رضي ا لله عنهما . شرح النووي على مسلم : كتاب : الصلاة ، باب : استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ، ثم يصلي على النبي صلى ا لله عليه وسلم ثم يسأل له الوسيلة ، جـ٤ ، ص: ٨٥،(ح: ١١ حسب المعجم) .

الجنة الجنة ، فيقال له : أدخل الجنة ، فيقول : أي ربِّ ! كيف ، وقد نزل الناس منازلهم ، وأخذوا أخذاتهم ؟ فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل مُلكِ ملكٍ من ملوك الدنيا ؟ فيقول : رضيت رب ، فيقول : لك ذلك ، ومثله ومثله ومثله ومثله ، فقال في الخامسة:رضيت ربِّ ، فيقول : هذا لك ، وعشرة أمثاله ، ولك ما اشتهت نفسك ولذّت عينك، فيقول : رضيت ربِّ .

قال ربّ ، فأعلاهم منزلة ؟ قال : أولئك الذين أردت ، غرست كرامتهم بيدي ، وختمت عليها ، فلم تَرَ عَيْنٌ ولم تسمع أذنٌ ، ولم يخطر على قلب بشر . قال : ومصداقه في كتاب الله عزّ وجلّ : ﴿ **فلا تعلم نفسٌ ما أخفي لهم من قرّة أعين ...**﴾ الآية.))[1] .

وقال صلى الله عليه وسلم عن أدنى أهل الجنة منزلة :

[((إني لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها وآخر أهل الجنة دخولاً الجنة ، رجل يخرج من النار حبواً فيقول الله تبارك وتعالى له : اذهب فادخل الجنة فيأتيها ، فيخيل إليه أنها ملأى ، فيرجع فيقول : يارب ، وجدتها ملأى ، فيقول الله تبارك وتعالى له : اذهب فادخل الجنة قال : فيأتيها فيخيّل إليه أنها ملأى ، فيرجع فيقول الله له : اذهب فادخل الجنة فإنّ لك مثل الدنيا ، وعشرة أمثالها ، أو إنّ لك عشرة أمثال الدنيا . قال : فيقول : أتسخربي، أو تضحك بي وأنت الملك)) قال[2]: لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه . قال : فكان يقال :((ذاك أدنى أهل الجنة منزلة)).][3] .

---

(١)- رواه مسلم عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه . شرح النووي على مسلم : كتاب : الإيمان ، باب: إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار ، جـ٣ ، ص: ٤٤-٤٦ ، (ح:٣١٢ حسب المعجم) . والآية:١٧ ـ السجدة .

(٢)- أي راوي الحديث .

(٣)- متفق عليه عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه . واللفظ لمسلم . شرح النووي على مسلم: كتاب: الإيمان ، باب : إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار ، جـ٣ ، ص: ٣٩-٤١ . وفي هذا الباب عدة أحاديث أخرى عن آخر أهل النار خروجاً منها ودخولاً الجنة . وانظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري:كتاب :الرقاق(٨١)باب:صفة الجنة والنار (٥١)ح: ٦٥٧١، جـ١١ ، ص:٤١٨-٤١٩.

فهذه الأحاديث فيها ذكر أعلى درجات الجنة وأدناها وهذا يقتضي وجود درجات فيما بين الأعلى والأدنى .

٢-بيان أن النار عبارة عن دركات ومراتب من العذاب متفاوتة :

إن جهنم- أجارنا الله منها- هي كذلك عبارة عن دركات وطبقات ومنازل متفاوتات بعضها أنزل وأشد عذاباً من بعض ، وهي بعكس الجنة إذ كلما نزلت الدركة فيها كان العذاب فيها أشدّ من الدركة التي تعلوها [(١)].

ومن الأدلة المثبتة لكون جهنم على دركات كما أن الجنة على درجات قوله جل شأنه :

﴿ **أفمن اتّبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير**(١٦٢) **هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون** (١٦٣) ﴾ آل عمران .

فهذه الآية -كما سبق[(٢)]- تجمع في دلالتها بين إثبات كون الجنة على درجات بعضها فوق بعض وإثبات كون النار كذلك على درجات أو على دركات بعضها دون بعض [(٣)].

ويقول جل شأنه أيضاً :

﴿ **أولئك الذين حقّ عليهم القول في أممٍ قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين** (١٨) **ولكلٍ درجات مما عملوا وليُوَفِّيَهُمْ أعمالهم وهم لايظلمون**(١٩) ﴾ الأحقاف .

فقوله تعالى : ﴿ **ولكلٌ درجات مما عملوا** ...﴾ يدلّ على كون أهل الجنة من

---

(١)- واسم الدركة يختصّ بمنازل النار إذ العرب تستعمل كلمة (درك) لكل ماتسافل،وإن كان لايمتنع إطلاق كلمة درجات على منازل النار وطبقاتها كما في قوله تعالى : ﴿**ولكلٌ درجات مما عملوا**﴾١٩ الأحقاف . انظر : التذكرة للقرطبي ص: ٤٤٤ . والنهاية لابن كثير ، جـ٢ ، ص:١٧٣ .و: الدرة فيما يجب اعتقاده لابن حزم ص: ٣٥٥ .

(٢)- انظر ص :٣٣٦-٣٣٧ .

(٣)- انظر : تفسير ابن كثير . جـ١ ، ص: ٤٢٤

المؤمنين الصالحين على درجات فيها وأن أهل النار من الكفّار على دركات فيها . فهذه الآية إن كانت تدلّ على إثبات أن الجنّة على درجات ، فهي تدل-كذلك- على أن النار على دركات من باب أولى إذ إنّها أتت مباشرة بعد الحديث عن الكفار الذين حقّ عليهم القول بتعذيبهم [١].

ومما استدل به قوله جلّ شأنه عن صنف من الكافرين المعذبين في نار جهنم :

﴿ ... **يضاعف لهم العذاب** ... (٢٠) ﴾ هود .

وقوله تعالى :

﴿ ... **ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب** (٤٦) ﴾ غافر .

فهاتان الآيتان تدلّان على كون العذاب في نار جهنم بعضه أشدّ من بعض [٢] مما قد يكون فيه دلالة - خاصة إذا جمع مع الأدلة الأخرى الصريحة - على كون النار على دركات ، بعضها يضاعف فيها العذاب ويشتدّ وبعضها يكون دون ذلك .

ومما يدل على كون النار على دركات قوله جل شأنه :

﴿ **إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجدهم نصيراً** (١٤٥) ﴾ النساء .

فكون المنافقين في أسفل دركات النار ، يدل ذلك على أن هناك دركات في النار أعلى من دركة المنافقين التي وصفت بكونها (الأسفل) [٣]. ولاشكّ في أن الدرك الأسفل هو أشد دركات النار عذاباً ، والذي لايعلم عظمه إلا ا لله جل شأنه .

هذا في الدرك الأسفل ذي العذاب الأشد ، وأما أخف أهل النار عذاباً والذي هو في أعلى دركات النار فقد جاء في شأن إثباته عن العباس بن عبدالمطلب أنه سأل الرسول صلى ا لله عليه وسلم فقال له : [يارسول ا لله ، إن أباطالب كان يحوطك وينصرك فهل نفعه ذلك؟ قال : ((نعم ، وجدته في غمرات من النار فأخرجته إلى ضحضاح .))].

---

(١)- انظر : تفسير الطبري . جـ٢٦ ، ص: ٢٠ .وتفسير ابن كثير ، جـ٤ ص: ١٥٩ .والتذكرة في أحوال الموتى للقرطبي ص: ٤٤٤ . ومثل آية الأحقاف آية : ١٣٢ من سورة الأنعام .

(٢)- انظر الدرة فيما يجب اعتقاده،لابن حزم ، ص: ٣٥٥ .

(٣)- انظر : تفسير ابن كثير ، جـ١ ، ص: ٥٧٠ .

وفي رواية : ((نعم ، هو في ضحضاحٍ من نار ، لولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار))[1].

وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال :

((أهون أهل النار عذاباً أبو طالب ، وهو منتعلٌ بنعلين يغلي منهما دماغه))[2].

وقال أيضاً عليه السلام :

((إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل مايرى أن أحداً أشد منه عذاباً ، وإنه لأهونهم عذاباً .)).

وقال :

((إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لرجل توضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه))[3].

فهذه الروايات بمجموعها تدل على أن النار عبارة عن دركات ، السفلى منها ذات عذاب أشدّ ، والعليا ذات عذاب أخف وأهون . وإن كان الجميع شديداً لايتحمله بشر .

ومما ورد كذلك في تفاوت عذاب المعذّبين في النار يوم القيامة قوله صلى الله عليه وسلم : ((منهم من تأخذه النار إلى كعبيه ومنهم من تأخذه النار إلى ركبتيه ومنهم من تأخذه النار إلى حجزته ومنهم من تأخذه النار إلى ترقوته .))[4].

---

(١)- سبق تخريج الحديث برواتية ص:٢٩٠-٢٩١،وكلتا الروايتين متفق عليهما عن العباس رضي الله عنه ، والأولى لفظ لمسلم ، والثانية لفظ للبخاري .

(٢)- رواها مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما . انظر : شرح النووي على مسلم : كتاب : الإيمان ، باب : شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه ، جـ٣،ص: ٨٥ .

(٣)- أخرج الحديث بروايتيه مسلم عن النعمان بن بشير . واللفظ له . انظر : شرح النووي على مسلم : كتاب : الإيمان،باب : شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه ، جـ٣ ، ص:٨٥-٨٦ . كما أخرجه البخاري عن النعمان أيضاً . انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري:كتاب: الرقاق (٨١)،باب : صفة الجنة والنار (٥١)،ح: ٦٥٦١ ، ٦٥٦٢ ، جـ١ ، ص: ٤١٧.

(٤)- أخرجه مسلم عن سمرة بن جندب -روايتان-.انظر : شرح النووي على مسلم : كتاب : الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب : جهنم أعاذنا الله منها ، جـ١٧ ، ص: ١٧٩-١٨٠ .

ولاشك أن من تأخذه النار إلى ترقوته[1] هو في عذاب أشدّ ممن تأخذه النار إلى حجزته[2]، وهذا الثاني هو في عذاب أشد ممن أخذته النار إلى ركبتيه . وأخفّهم من تأخذه النار إلى كعبيه . ففي هذا الحديث إذاً دلالة واضحة على كون العذاب في النار على مراتب بعضها أشدّ من بعض . وهذه الأدلة غنية في إثبات ذلك .

٣-أهم العوامل المؤدية إلى تفاضل الثواب :

سبق أن ذكرت أن فريقاً من السلف ذهب إلى أن دخول الجنة أساساً هو بفضل ا لله تعالى ، وأما اقتسام درجاتها فمرجعه إلى أعمال العباد[3]. وأن فريقاً آخر ذهب إلى أن دخول الجنة وإن كان بفضل ا لله سبحانه ، إلا أنه بالنسبة للمكلف يكون بسبب العمل أيضاً [4].

بناءً على ذلك فإنه إذا كانت الأعمال سبباً في دخول الجنة فلأن تكون سبباً في تقاسم درجاتها من باب أولى . فالعوامل التي تؤدّي إلى التفاضل في نيل الثواب والدرجات هي عموماً ترجع -بعد فضل ا لله سبحانه- إلى ما يقدّمه الإنسان من عمل .

وما سبق ذكره من الأدلة على درجات الجنة توجد فيها أيضاً دلالة على ارتباط تلك الدرجات بالأعمال . وذلك كقوله تعالى :

﴿ ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى (٧٥) جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى (٧٦) ﴾ طـه .

فربط تعالى نيل الدرجات العلى من الجنة بالإيمان والعمل الصالح أولاً ، وأعاد الربط آخراً بقوله :

﴿ وذلك جزاء من تزكى ﴾ ولاتكون التزكية إلا بذاك الإيمان والعمل الصالح .

وكذلك فإنه عند ذكر هذه العوامل-إن شاء ا لله تعالى-سيكون في الأدلة عليها مايدل على ارتباط عظم الثواب والدرجة في الجنة بتفاضل ما يقدمه المرء من عمل صالح حسن .

---

(١)- ترْقُوَته ، قال النووي : (هي العظم الذي بين ثغره النحر والعاتق) . شرح النووي على مسلم ، جـ١٧ ، ص : ١٨٠ .

(٢)- قال النووي : (هي مقعد الإزار والسراويل) . شرح النووي لمسلم . جـ١٧ ، ص: ١٨٠ .

(٣)- انظر ص:١٨٨ . وانظر : مفتاح دار السعادة ، جـ١ ، ص: ٨ .و: حادي الأرواح ، ص:٨١.

(٤)- انظر ص: ١٨٦-١٨٩ .

وهذه العوامل كثيرة يمكن هنا استنباط بعضها من خلال النصوص ومن خـلال أقـوال العلماء وبياناتهم . فمنها :

العامل الأول : كون العمل من أعمال القلوب :

إن الله تعالى على العبد عبوديتين لابد منهما ، ولاتغني إحداهما عن الأخرى ، عبودية يتوجّه بها العبد إلى ربه بقلبه وباطنه ، وعبوديّة يتوجه بها العبد إلى ربه بجوارحه وظـاهره، وكلا العبوديتين مفروضتان على العبد يجب عليه أداؤهما على الوجه الأكمل وعلـى وفـق ماشرعه ا لله تعالى [(١)].

والرسول صلى ا لله عليه وسلم صاحب الهدْي الأكمل (كان موفياً كل واحدة منهما حقها ، فكان مع كماله وإرادته وأحواله مع ا لله ، يقوم حتى تتورم قدماه ، ويصوم حتـى يقال لايفطر ، ويجاهد في سبيل ا لله ، ويخالط أصحابه ولايحتجب عنهم ...)[(٢)].

ولكن مع ذلك فقد بيّن العلماء – مستنبطين بيانهم من دلالات أدلة الكتـاب والسنة –أن أعمال القلب المجردة هي أفضل من أعمال الجوارح المجـردة ، وبذلـك تكـون عبوديـة القلب أعظم من عبودية الجوارح [(٣)]. وقد أرجعوا ذلك إلى أسباب عدة منها :

السبب الأول :

أن القلب هو محل أصل الإيمان با لله سبحانه وبسـائر مـايجب الإيمـان بـه [(٤)].فـالقلب مأمور بالإيمان با لله تعـالى وبسـائر الأركـان إيمانـاً جازمـاً ، جامعـاً بـين العلـم والتصديق واليقين من جهة والإقـرار والإذعـان مـن جهـة أخـرى . فـإذا حصـل هـذا العلـم واليقـين والإقرار والإذعان في القلب لزم عنه عبوديات قلبية أخرى متعددة من محبة وخشية ورجاء وخوف وتوكّل واستعانة ورضا ....الخ وكلها تتّجه نحو ا لله سبحانه–الذي آمن به القلب

---

(١)- انظر : بدائع الفوائد،لابن قيم الجوزية،جـ٣ ، ص: ١٩٢ .و: الفوائد ، له ص:١٤١ .

(٢)- انظر : الفوائد ، لابن القيم ، ص: ١٤٠-١٤١ . بتصرف يسير .

(٣)- انظر : مجموع فتـاوى شيخ الإسـلام ابـن تيميـة،جـ٢٢ ، ص: ٢٤٥ .و: بدائـع الفوائـد . جـ٣ ، ص:١٩٣ .

(٤)- كما في حديث سؤال جبريل عليه السلام للنبي صلى ا لله عليه وسلم الذي سيأتي ذكـره،ص:٣٦٥ ، إذ أجاب الرسول صلى ا لله عليه وسلم عن الإيمان بأنه الإيمان با لله وملائكته ....الحديث .

حق الإيمان – وتتجه أيضاً نحو سائر أركان الإيمـان الأخرى فهـذه العبوديـات الـتي محلها القلب هي أول ما يجب على المرء ، إذ الإقرار اللّساني والتزام العبوديـات الظـاهرة هـي في حقيقة الأمر مسّببة وناتجة عما قام به القلب أصلاً من إقـرار وتصديـق ومحبـة وخـوف ... وتابعة له ، وإلا فإن لم تكن كذلك لما اعتدّبها ، ولاعتبرت إما عبثاً وهزلاً أو رياءً ونفاقاً.

وعبوديات القلب هذه أعظم من عبوديات الجوارح إذ هي واجبة على المـرء في جميع أحواله وأوقاتـه ولاسيّما مـا يتعلـق بـأصل الإقـرار والتصديـق الراسـخ في القلـب بخلاف العبوديات الظاهرة والتي تجب في وقت دون وقت [1].

إضافة إلى أنه لاينجو أحد من دار العقاب – ولو بعد مدة من العـذاب فيهـا – إلا إذا قام في قلبه إيمان صحيح غير منقوض ، وإن لم يكن إيماناً كاملاً ، ولو كان مثقال ذرة مـن إيمان [2].

ثم إنه ليس الإيمان فحسب أصله في القلب بل كذلك الإسلام الذي لا يقبـل ا لله مـن العبد ديناً سواه كما قال تعالى : ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام دينـاً فلـن يقبـل منـه وهـو في الآخرة من الخاسرين** (٨٥) ﴾ آل عمران .

هو أيضاً أصله في القلب إذ الإسلام : الاستسلام والخضوع لله سبحانه ، ولاشك أن استسلام وخضوع الجـوارح لايكـون صحيحـاً مـا لم يكـن ناتجـاً عـن استسـلام وخضـوع القلب[3].

إضافة إلى أن الاسلام يحمل معنى الإخلاص ، كما في قوله عزوجل :

﴿ **بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولاخوف عليهم ولا هـم يحزنون** (١١٢) ﴾ البقرة [4].

---

(١)– انظر : مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ، جـ: ٧ ، ص: ٢٦٣، ٦٣٧، ٦٤٤ .و: بدائع الفوائد لابن القيم ، جـ: ٣ ، ص: ١٩٣ .

(٢)– راجع أحاديث الشفاعة ص: ٢٦٨ وما بعدها . وانظر : مجموع فتـاوى شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة ، جـ: ٧ ، ص: ٢٥٧ .

(٣)– انظر : مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ، جـ: ٧ ، ص: ٢٦٣ ، ٦٢٣ .

(٤)– انظر : مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ، جـ: ٧ ، ص: ٦٣٥،٦٢٣ . و: تفسـير ابـن كثـير ، جـ:١ ، ص: ١٥٤ .

فالإسلام الذي لايقبل ا لله ديناً سواه لابد أن يتحقق فيه أولاً ودواماً استسلام القلب وخضوعه وإخلاصه . وأما استسلام الجوارح ظاهراً من غير استسلام وخضوع قلبي فليس إسلاماً حقيقياً منجياً من العذاب في الآخرة بل وجود مثل هذا الأمر كعدمه في أحسن أحواله إن لم يكن وجوده أسوأ إذا كان نفاقاً .

السبب الثاني : أن إذعان القلب وخضوعه من جهة وتصديقه وإقراره من جهة أخرى يقتضيان عمله ، بمعنى أنه لابد أن ينتج عن ذلك الإذعان والخضوع ، والتصديق والإقرار أعمال يقوم بها القلب ، من حبّ وخشية وخوف ورجاء وتوكّل واستعانة ... إلى آخر تلك الأعمال التي بقدر ما يستكمل منها العبد يحصل لقلبه مقدار من الصلاح مساوٍ لما استكمله ، ثم إن صلاح القلب مستلزم لصلاح الجسد بحسبه ، أي بمقدار ما يكون في القلب من صلاح ينتج عن ذلك صلاح في جوارح الإنسان وأعضائه مساوٍ لما في القلب ، وذلك أن مافي القلب لابد أن يظهر على الجوارح ويؤثر فيها ، فصلاحه صلاح للجسد وفساده فساد للجسد . كما قال صلى ا لله عليه وسلم :

((... ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب))[1].

أما الأعمال الظاهرة فإن كانت حسنة فغايتها أن تكون فيها دلالة على كونها نابعة عن إيمان صحيح ، مع احتمال أن تكون نابعة عن رياء وسمعة ونفاق ...

ثم إن هذه الأعمال القلبية الباطنة والتي توجب لصاحبها أعمالاً صالحة ظاهرة توافقها أشرف من فروعها كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية مستدلاً على ذلك بقوله تعالى :

---

(١)- هذا طرف من حديث متفق عليه عن النعمان بن بشير رضي ا لله عنه. وأوله : ((الحلال بيّن والحرام بين ...)) واللفظ للبخاري . انظر : فتح الباري ، كتاب : الإيمان (٢) ، باب : فضل من استبرأ لدينه (٣٩)،ح: ٥٢ ، جـ: ١ ، ص: ١٢٦ . وانظر : شرح النووي على مسلم ، كتاب : المساقاة والمزارعة ، باب : أخذ الحلال وترك الشبهات ، جـ: ١١ ، ص: ٢٦-٢٨ . وانظر : مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ، جـ: ٧ ، ص : ٩-١٠ ، ١٨٧، ٢٠٤، ٢٢١، ٥٢٨-٥٢٩، ٥٥٣، ٥٧٥، ٦٤٤-٦٤٥، جـ: ٢٢ ، ص: ٢٤٤ . ودقائق التفسير لابن تيمية ، المجلد الأول ، ص: ٢٣٩، ٢٤٢-٢٤٤ .و بدائع الفوائد لابن القيم، جـ: ٣ ، ص: ١٩٢ .و فتح الباري،لابن حجر ، جـ: ١ ، ص: ١٢٨-١٢٩ .

﴿ **لن ينال ا لله لحومها ولادماؤها ولكن يناله التقوى منكم ...(٣٧)** ﴾ الحج(١).

ويستدّل على ذلك أيضاً بالحديث الذي قال فيه صلى ا لله عليه وسلم :

((إن الرجل لينصرف وما كُتب له إلا عشر صلاته ، تسعها ، ثمنها ، سبعها ، سدسها ، خمسها ، ربعها ، ثلثها ، نصفها))(٢).

ولاشك أن أهم سبب لمثل هذا النقص أو الزيادة في الإثابة على الصلاة يعود إلى مدى خشوع المصلي وحضور قلبه وفكره مع كل حركة يؤديها وكلمة يقولها (٣).

السبب الثالث : أن أي واجب يجب على الأعضاء الظاهرة ، هو واجب على القلب قبل ذلك ، إذ هو الأصل وغيره إنما يجب عليه العمل تبعاً لوجوبه على القلب ، وذلك لأن العبد إنما يعلم الأوامر والنواهي بقلبه ، كما أنه يقصد إلى الامتثال بقلبه ، وكُلٌّ من العلم والقصد يكون قبل وجود الفعل فإذا وُجِدا وُجد الفعل على الوجه الصحيح . قال الإمام ابن القيم الجوزية :

(إن لله على العبد عبوديتين ، عبودية باطنة وعبودية ظاهرة ، فله على قلبه عبودية وعلى لسانه وجوارحه عبودية فقيامه بصورة العبودية الظاهرة مع تعرّيه عن حقيقة العبودية الباطنة مما لايقرّبه إلى ربه ، ولايوجب له الثواب وقبول عمله ، فإن المقصود امتحان القلوب وابتلاء السرائر فعمل القلب هو روح العبودية ولبّها ، فإذا خلا عمل الجوارح منه كان كالجسد الموات بلا روح ، والنيّة هي عمل القلب ... إلى أن قال : - وما الأعمال الخالية عن عمل القلب إلا بمنزلة حركات العابثين وغايتها أن لايترتب عليها ثواب ولا عقاب)(٤).

---

(١)- انظر : دقائق التفسير ، المجلد الأول ، ص: ٢٤٢-٢٤٣ . ومجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ، جـ: ١٧ ، ص: ٤٨٥-٤٨٦ .

(٢)- رواه أبو داود عن عمار بن ياسر رضي ا لله عنهما . وقد سبق تخريج الحديث،انظر ص:٣١٧ ، هامش : (٤) .

(٣)- انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ، جـ: ١٧ ، ص: ٢٨-٣١ . وقد نقل عن ابن عباس رضي ا لله عنهما قوله : ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها .

(٤)- بدائع الفوائد لابن القيم ، جـ: ٣ ، ص: ١٩٢ . وانظر : دقائق التفسير لابن تيمية ، مجلد أول ، ص: ٢٣٩-٢٤٠ ، ٢٤٢ .و: مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ، جـ: ١٧ ، ص: ٤٨٥-٤٨٦ .

السبب الرابع : أن نية العمل الصالح المجرّدة يثاب عليها صاحبها وإن لم يعمل ما نواه كما قال صلى ا لله عليه وسلم :

((إن ا لله كتب الحسنات والسيئات ، ثم بين ذلك ، فمن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها ا لله له عنده حسنة كاملة ...))[1].

أما العمل الذي ظاهره حسن ولكنه مجرد عن النية ، فإن غايته أن لايثاب عليه المرء ، ولا يعاقب ، وقد يعاقب إذا صاحب ذلك العمل نيّة فاسدة كالرياء [2].

السبب الخامس : أن الإنسان إذا نوى نية جازمة القيام بعمل حسن وعمل منه مقدوره ، إلا أنه عجز عن إكماله فإنه يكتب له ذلك العمل كما لو عمله كاملاً ، يدلّ على ذلك قوله صلى ا لله عليه وسلم : ((إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم ، حبسهم المرض)) . وفي رواية : ((إلا شركوكم في الأجر))[3]. وغير ذلك من الأدلة [4].

السبب السادس : قال شيخ الاسلام ابن تيمية :

(إن توبة العاجز عن المعصية تصحّ عند أهل السنة ، كتوبة المجبوب عن الزنا وكتوبة المقطوع اللسان عن القذف وغيره ، وأصل التوبة عزم القلب ، وهذا حاصل مع العجز)[5].

ولهذه الأسباب السابقة قال العلماء : أن نية المرء وعمله القلبي أبلغ وأعظم من عمل جوارحه الظاهرة [6].

---

(١)- الحديث متفق عليه من حديث ابن عباس رضي ا لله عنه واللفظ للبخاري . وسيأتي تخريجه عند ذكره كاملاً ص: ٤٤٤ ، هامش : (١) .

(٢)- انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ، جـ: ٢٢ ، ص: ٢٤٣ .

(٣)- الحديث رواه مسلم عن جابر رضي ا لله عنه،وقد سبق تخريجه في ص: ٣٠٥ ، هامش : (٢-٣) . ومسألة الإثابة على النية سيأتي بإذن ا لله مزيد كلام عنها،انظر ص: ٦٣٢ وما بعدها . .

(٤)- انظر : مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، جـ: ٢٢ ، ص: ٢٤٣-٢٤٤ .

(٥)- المرجع السابق ، جـ: ٢٢ ، ص: ٢٤٤-٢٤٥ .

(٦)- انظر : المرجع السابق ، جـ: ٢٢ ، ص: ٢٤٣-٢٤٥ .

ولذلك فقد يكون شخصان أحدهما أكثر عملاً ظاهراً من الآخر ، ورغم ذلك يكون الآخر أفضل عند الله عزّوجل منه ، لأن إيمانه القائم في قلبه أعظم من إيمان ذلك الأول[1].

وبعد بيان أساس فضل الأعمال الباطنة على الأعمال الظاهرة ومن ثم زيادة ثواب الأولى على الثانية فإنه لابد من بيان بعض ما ورد من فضل بعض الأعمال الباطنة ، وعظم الثواب عليها ، ليكون ذلك كالتقرير والتأكيد لما سبق :

فمن الأعمال الباطنة والتي لها أعظم الآثار على الأعمال الظاهرة : الخلق الحسن ، والذي يعتبر اسماً جامعاً لجميع الصفات المحمودة المستقرّة في النفس والتي لها آثار محمودة كذلك على السلوك الظاهر [2].

وقد ورد في عظم فضل الخلق الحسن وعظيم الثواب عليه أحاديث كثيرة منها قوله صلى الله عليه وسلم : ((ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن ، وإن الله ليبغض الفاحش البذيء))[3].

وقال صلى الله عليه وسلم :

((إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم))[4].

---

(١)- انظر : المرجع السابق ، جـ: ٧ ، ص:٣٤٢ .

(٢)- انظر : الأخلاق الإسلامية وأسسها،لعبد الرحمن حبنكه الميداني ، جـ: ١ ، ص: ١٠-١١ .

(٣)- رواه الترمذي عن أبي الدرداء رضي الله عنه . عارضة الأحوذي ، أبواب البر والصلة ، باب : ما جاء في حسن الخلق ، جـ: ٨ ، ص: ١٦٧-١٦٨ . وقال عن الحديث : حسن صحيح . وروى أبو داود الجزء الأول منه إلى قوله ((خلق حسن))،انظر : مختصر سنن أبي داود للمنذري ، كتاب : الأدب ، باب: في حسن الخلق ، جـ: ٧ ، ص: ١٧٢ ، ح: ٤٦٣١ . وكذلك روى الجزء الأول منه الإمام أحمد في مسنده ، جـ: ٦ ، ص: ٤٤٦، ٤٤٨، ٤٥١ ، ٤٥١ - ٤٥٢ . وذكر الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته:ح: ٥٧٢١ ، جـ: ٢ ، ص: ٩٩٧،رواية أحمد وأبو داود للحديث،وقال : صحيح .

(٤)- رواه أبو داود في سننه ، انظر : مختصر سنن أبي داود : كتاب : الأدب ، باب : في حسن الخلق ، جـ: ٧ ، ص: ١٧٢ ، ح: ٤٦٣٠ . وذلك بسنده عن عائشة رضي الله عنها . والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته:ح: ١٩٣٢ ، جـ: ١ ، ص: ٣٩١ .

وقال عليه السلام :

((من ترك الكذب وهو باطل بُني له في ربض الجنة ومن ترك المراء وهو محق بُني له في وسطها ، ومن حسّن خلقه بني له في أعلاها))[1] .

وقال صلى ا لله عليه وسلم أيضاً :

[((إن من أحبّكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً ، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون المتشدّقون المتفيهقون)) قالوا : يا رسول ا لله ، قد علمنا الثرثارون والمتشدقون ، فما المتفيهقون ؟ قال : ((المتكبرون))][2] .

وغير ذلك من أحاديث كثيرة تبين عظم الثواب الذي يناله الإنسان بسبب خلقه الحسن .

ومن الأخلاق الفاضلة الرفق ، قال صلى ا لله عليه وسلم :

((يا عائشة إن ا لله رفيق يحب الرفق ، وهو يعطي على الرفق مالا يعطي على العنف،

---

(١)- رواه الترمذي عن أنس بن مالك رضي ا لله عنه،وقال عن الحديث : وهذا الحديث حديث حسن . عارضة الأحوذي:أبواب البر والصلة ، باب : ما جاء في المراء ، جـ: ٨ ، ص: ١٥٨-١٥٩ . ورواه ابن ماجه عن أنس في سننه: المقدمة،باب : اجتناب البدع والجدل (٧)،ح: ٥١ ، جـ: ١ ، ص: ١٩-٢٠ . وروى نحوه أبو داود في سننه عن أبي أمامة بلفظ ((أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً ، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه)) . مختصر سنن أبي داود : كتاب : الأدب ، باب : في حسن الخلق ، ح: ٦٣٢ ، جـ: ٧ ، ص: ١٧٢-١٧٣، وهذه الرواية حسنها الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته ، ح: ١٤٦٤ ، جـ: ١ ، ص: ٣٠٦ .

(٢)- رواه الترمذي في سننه عن جابر بن عبدا لله رضي ا لله عنه . وقال عن الحديث : وهذا حديث حسن غريب .عارضة الأحوذي :أبواب البر والصلة ،باب: ما جاء في معالي الأخلاق، جـ: ٧ ، ص:١٧٤-١٧٥. وكذا حسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته ، ح: ٢٢٠١ ، جـ: ١ ، ص: ٤٣٩ . وروى نحوه الإمام أحمد في مسنده عن أبي ثعلبة الخشني . انظر : المسند ، جـ: ٤ ، ص: ١٩٣-١٩٤،وصحح رواية أحمد الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته ، ح: ١٥٣٥ ، جـ: ١ ، ص: ٣٢٠ . وروى البخاري عن عبدا لله بن عمرو رضي ا لله عنهما ((إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً)) وفي رواية : ((إن من أحبكم إلي أحسنكم أخلاقاً)) . انظر في الرواية الأولى : فتح الباري ، كتاب المناقب (٦١) ، باب : صفة النبي صلى ا لله عليه وسلم (٢٣)،ح: ٣٥٥٩ ، جـ: ٦ ، ص: ٥٦٦ . وفي الرواية الثانية . كتاب : فضائل الصحابة(٦٢) ، باب : مناقب عبدا لله بن مسعود رضي ا لله عنه (٢٧)،ح: ٣٧٥٩ ، جـ: ٧ ، ص:١٠٢.

و مالا يعطي على ما سواه)) [1].

قال النووي : (ومعنى : ((يعطي على الرفق)) : أي يثيب عليه مالا يثيب على غيره) [2].

كذلك فإن من الأعمال الباطنة التي يترتب عليها عظيم الأجر والثواب : الصبر [3] ، فإنه عمل من أعمال القلب يظهر أثره على الجوارح واضحاً جلياً في الالتزام بأوامر ا لله سبحانه ، والبعد عن محارمه والثبات على ما يرضيه في جميع أقضيته أي : أن الصبر عمل دائم للقلب لابد منه ، حتى يكون باطن المرء وظاهره على ما يرضي ا لله سبحانه .

قال تعالى بعد أن ذكر الصفات التي يتصف بها عباد الرحمن من التزام أوامر ا لله سبحانه ، واجتناب نواهيه ، وعبادته بأحسن وجوه العبادة وكيفية تعاملهم مع غيرهم من الجاهلين [4]:

﴿ **أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقّون فيها تحية وسلاما** (٧٥) **خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً** (٧٦) ﴾ الفرقان .

فاتصاف عباد الرحمن بالصبر على أكمل وجوهه حملهم على أن يكونوا على أحسن حال ، سواء في معاملتهم مع ربهم وعبادتهم له ، أو في معاملتهم مع غير ا لله سبحانه من البشر . فجوزوا نتيجة ذلك بالغرفة وهي -كما سبق بيانه [5]- من مراتب الجنة العالية .

وقال جل شأنه :

﴿ ... **إنما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب** (١٠) ﴾ الزمر .

فإذا كانت هناك مقادير للثواب على الأعمال كالثواب على الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ونحو ذلك ،فإن الصبر من عظمة أجره أنّه لايقدر بحسابٍ معين ،بل يعطى

---

(١)- رواه مسلم عن عائشة رضي ا لله عنها . شرح النووي على مسلم ، كتاب : البر والصلة والآداب ، باب : فضل الرفق ، جـ: ١٦ ، ص: ١٤٦ .

(٢)- شرح النووي على مسلم ، جـ: ١٦ ، ص: ١٤٥ .

(٣)- وقد يعتبر من الأخلاق الفاضلة .

(٤)- انظر : سورة الفرقان الآيات : ٦٣-٧٤ .

(٥)- انظر ص: ٣٣٩-٣٤٠ .

صاحبه من الأجر والثواب مالا غاية له ولانهاية إذ (كل شيء يدخل تحت الحساب فهو متناه ، وما كان لايدخل تحت الحساب فهو غير متناه ...)[1] .

كذلك فإن الصدق من الأعمال التي أصلها في القلب ، ويظهر أثرها على الجوارح ، ومن أهم درجات الصدق ، أن تُصَدِّق جوارح الإنسان باطنه فيكون ما يظهر عليه من عملٍ حسن نابعاً عن إيمانٍ صحيح ، ومن أعظم الصدق صدق المرء ربه فيما عاهده عليه من التزام شرائع الإسلام . قال تعالى :

﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن با لله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون** (١٧٧) ﴾ البقرة .

وقال عزوجل :

﴿ **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا ا لله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً** (٢٣) ﴾ الأحزاب .

والتزام المرء المؤمن الصدق في جميع أحواله يؤدي إلى أن يُكتب صاحبه من الصديقين، ومرتبة الصديقية من أعلى المراتب بعد مراتب الأنبياء والمرسلين عليهم السلام . قال تعالى:

﴿ **ومن يطع ا لله والرسول فأولئك مع الذين أنعم ا لله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً** (٦٩) ﴾ النساء .

تفيد هذه الآية أنّ درجة الصدّيقية هي أولى الدرجات بعد درجة الأنبياء والرسل صلوات ا لله عليهم[2] .

وأما بلوغ المؤمن ملتزم الصدق في جميع أقواله درجة الصدّيقية بسبب صدقه فنجده

---

(١)- تفسير فتح القدير ، جـ: ٤ ، ص: ٤٥٤ . وانظر : تفسير ابن كثير ، جـ: ٤ ، ص: ٤٨ .

(٢)- انظر : طريق الهجرتين،لابن قيم الجوزيه ، ص: ٦١٤-٦١٥ . وانظر : الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان،لابن تيمية ، ص: ٨٩ .

في قوله صلى ا لله عليه وسلم : ((إن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة . وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقاً ...))الحديث [1].

وتبعاً لما ثَبتَ من فضل الأعمال الباطنة على الأعمال الظاهرة يكون التفاضل بين درجات الثواب عليها .

العامل الثاني : التفاضل بين الأعمال القلبية الباطنة :

إن أعمال القلوب على أنواعها ليست على درجة واحدة ، لابين أنواعها ولافي النوع الواحد ، بل هي تتفاضل فيما بينها تفاضلاً عظيماً ويتفاضل بذلك الثواب عليها .

وفيما يلي دراسة أربع حقائق دينية تتناول فيما تتناول أعمال القلوب وذلك لبيان تفاضل درجات كلٍ منها بخصوصه ثم تفاضل درجاتها فيما بينها ، وارتباط تفاضل درجات الثواب عليها بتفاضل تلك الدرجات . وهذه الحقائق الدينية هي :

الحقيقة الأولى:التقوى : وهي تعتبر عند الإطلاق اسماً جامعاً لكل ما يقي الإنسان به نفسه من التعرّض لعذاب ا لله وعقابه وسخطه وغضبه ، من فعل جميع ما أمر ا لله به ، وترك جميع مانهى تعالى عنه[2].

وقد بين عزوجل أن التقوى وصف أساسيّ لمن أراد أن يكون من أوليائه جل شأنه ، إذ قال : ﴿ **ألا إن أولياء ا لله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون** (٦٢) **الذين آمنوا وكانوا يتّقون**(٦٣) ﴾ يونس [3].

---

(١)- متفق عليه عن عبدا لله بن مسعود رضي ا لله عنه . واللفظ للبخاري . فتح الباري ، كتاب الأدب(٧٨) ، باب : قول ا لله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا ا لله وكونوا مع الصادقين** ﴾-١١٩ التوبة - (٦٩) ، ح: ٦٠٩٤ ، جـ: ١٠ ، ص: ٥٠٧ . وانظر : شرح النووي على مسلم : كتاب : البر والصلة والآداب ، باب : قبح الكذب وحسن الصدق وفضله ، جـ: ١٦ ، ص: ١٥٩،(ح: ١٠٣ حسب المعجم) .

(٢)- انظر : على سبيل المثال : مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ، جـ: ٧ ، ص: ١٦٣ .و: تفسير فتح القدير ، جـ: ١ ، ص: ٣٣-٣٤ .

(٣)- انظر: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، ص: ٢٠-٢٢ ، ٢٨ .

ولاشك أن الإنسان لايحرص على التوقّي عن كل مـا يعرضـه لعذابـه عـزّ وجـلّ ، إلا وهو يخاف ذلك العذاب ويخشاه . بل يخاف رب ذلك العـذاب وموقعـه مـن بـاب أولى ، فإذا قام في القلب خشية ا لله والخوف منه سبحانه على الوجـه الأكمـل ، قـام فيـه إرادة الابتعاد عن كل مايكون نتيجته غضب الرب وسخطه . وقام فيه أيضاً إرادة الالتزام بكـل ما يكون سبباً لنيل رضاه جل شأنه ، وذلك هو مايسمى بالتقوى . فأصل محل التقوى هو القلب . قال صلى ا لله عليه وسلم :

[((التقوى هاهنا)) ويشير إلى صدره ثلاث مرات .] [1].

قال الإمام النووي في بيان معنى قوله ((التقوى هاهنا)) :

(... وإنمـا تحصـل – أي التقـوى – بمـا يقـع في القلـب مـن عظمـة ا لله وخشـيته ومراقبته) [2].

وقال تعالى :

﴿ **ذلك ومن يعظّم شعائر ا لله فإنها من تقوى القلوب** (٣٢) ﴾ الحج [3].

وإذا كان المؤمنون يتفاضلون في خشية ا لله والخوف منـه [4]، فـإنهم يتفـاضلون فيمـا ينتج عن ذلك من التقوى التي تقوم في قلوبهـم . ولاشـك أن مـن كـانت تقـواه لله تعـالى أكمل كان في درجة أعلى وأعظم ممن كان دونه في تقوى ا لله جلّ شأنه وإن كان الأخـير أكثر من سابقه في أداء بعض نوافل العبادات ، والأكمل منهما من وفّى كِلَيْ المقامين حقّه كما كان النبي صلى ا لله عليه وسلم يفعل [5].

وبناءً على ذلك كله كانت التقوى معياراً أساسياً للتفاضل بين النـاس ، قـال تعـالى :

---

(١)- جـزء مـن حديـث رواه الإمـام مسـلم عـن أبـي هريـرة رضـي ا لله عنـه . أولـه : ((لاتحاسـدوا ولاتناجشوا..)) . شرح النووي على مسلم : كتاب : البر والصلـة والآداب ، بـاب : تحريـم ظلـم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله،جـ١٦ ، ص: ١٢٠-١٢١ ،(ح: ٣٢ حسب المعجم) .

(٢)- شرح النووي على مسلم ، جـ١٦ ، ص: ١٢١ .

(٣)- انظر : الفوائد ؛ ابن قيم الجوزية ، ص: ١٤٠ .

(٤)- انظر : مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، جـ٧ ، ص: ٢٣٥ .

(٥)- انظر : الفوائد لابن قيم الجوزية،ص: ١٤٠-١٤١ .

﴿يا أيها النـاس إنـا خلقنـاكم مـن ذكـر وأنثى وجعلنـاكم شـعوباً وقبـائل لتعـارفوا إن أكرمكم عند ا لله أتقاكم ...(١٣) ﴾ الحجرات .

وقـد سـئل النبي صلـى ا لله عليـه وسـلم : [مـن أكـرم النـاس ؟ قـال : ((أكرمهـم أتقاهم))...] الحديث [(١)].

وقد وعد ا لله تعالى في كتابه الجزاء بالغرف لمن اتّقاه ، وهي منازل عالية في الجنة[(٢)].

قال تعالى :

﴿ **لكن الذين اتّقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري مـن تحتهـا الأنهـار وعد ا لله لايخلف ا لله الميعاد** (٢٠) ﴾ الزمر .

ولاشكّ بأن المراد بالذين اتّقوا ربهم هنا ، هم الذين اتّقوه التقوى الكاملة الفاضلة .

الحقيقة الثانية:الاسلام : أما الإسلام فقد سبق بيان أنه كالإيمان أصله في القلـب ، إذ هـو يعود إلى معنى الاستسلام والخضوع والإخلاص [(٣)]. والظاهر من ذلك لايقبل إن لم يكـن له أصل نابع من قلـب الإنسـان وباطنـه . ثـم إن هـذا الاستسـلام والخضـوع والإخـلاص الباطن لاشك في تفاضله كسائر الأعمال الباطنة .

وبقدر تفاضل الناس في ذلـك كلّـه تعلـو درجتهـم ومرتبتهـم عنـدا لله تعـالى . ثـم إن الإنسان لايكون مؤمناً مستحقّاً لهذا اللفظ على إطلاقه إلا إذا اكتمل لديه ذلك الاستسلام والخضوع القلبي على أتمّ وجه ، قال تعالى :

﴿ **فلا وربك لايؤمنون حتى يحكّمـوك فيمـا شـجر بينهـم ثـم لايجـدوا في أنفسـهم حرجاً مما قضيت ويسلّموا تسليماً** (٦٥) ﴾ النساء .

---

(١)- متفق عليه عن أبي هريرة رضي ا لله عنه . واللفظ للبخاري . فتح الباري : كتاب : أحاديث الأنبياء (٦٠) ، باب : ﴿ **أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ...**﴾ -١٣٣ ، البقـرة -(١٤) ، ح:٣٣٧٤ ، جـ٦ ، ص: ٤١٤ . وانظر : شرح النووي على مسلم ، كتاب : الفضـائل ، بـاب : مـن فضـائل يوسـف صلى ا لله عليه وسلم ، جـ١٥ ، ص: ١٣٤ . وانظر : الفرقان بين أليـاء الرحمـن وأوليـاء الشـيطان ، ص: ٢٨ ، ٥٢-٥٤ .

(٢)- كما سبق بيانه انظر ص:٣٣٩-٣٤٠ .

(٣)- انظر ص : ٣٤٧-٣٤٨ .

فلا بدّ من الاستسلام الكامل والخضوع التام لجميع أحكام ا لله وأوامره ، باطناً وظاهراً ، حتى يكون المرء بذلك مسلماً كامل الإسلام ، وحتى يكون من المؤمنين حقّاً .

الحقيقة الثالثة:الإيمان : إن أصل محل الإيمان القلب وهو يشمل مايقوم فيه من العلم والتصديق واليقين والإقرار وماينتج عن ذلك من معاني الحب والخشية والخوف والرجاء ، والتوكل والاستعانة ...الخ ما يتعلق بأعمال القلوب (١).

ثم إن هذا الأصل الإيماني يتفاوت زيادة ونقصاً ، كما قال تعالى :

﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر ا لله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون** (٢) **الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** (٣) **أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم** (٤) ﴾ الأنفال .

فقوله تعالى:﴿**زادتهم إيماناً**﴾ المراد بالإيمان هنا الإيمان الذي محله القلب ، فهذا الإيمان يزيد وينقص ، وبمقدار مايزيد تزداد درجة المؤمن علوّاً في الجنة ، ويزداد بذلك ثوابه(٢).

وقال جل شأنه :

﴿ **وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيّكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون** (١٢٤) ﴾ التوبة .

قال الإمام ابن كثير رحمه ا لله :

(وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء بل قد حكى غير واحد الإجماع على ذلك ....)(٣).

ومما استدل به الإمام البخاري رحمه ا لله على زيادة الإيمان ونقصه قوله تعالى :

﴿ ... **ويزداد الذين آمنوا إيماناً** ...(٣١) ﴾ المدثر .

واستدل أيضاً بحديث الشفاعة الذي فيه :

---

(١)- انظر ص:٣٤٦-٣٤٧ فقد سبق بيان ذلك .

(٢)- انظر : تفسير ابن كثير ، جـ١ ، ص: ٢٨٥-٢٨٦ .

(٣)- تفسير ابن كثير ، جـ٢ ، ص: ٤٠٢ . وانظر : مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، جـ٧ ، ص:٢٢٣-٢٣٠ . فقد ذكر الأدلة والآثار الدالة على زيادة الإيمان ونقصه .

((يخرج من النار من قال لاإله إلا ا لله وفي قلبه وزن شعيرة من خير (وفي رواية : من إيمان) ويخرج من النار من قال لاإله إلا ا لله وفي قلبه وزن برة من خير (وفي رواية من إيمان).))[(١)].

فالإيمان القلبي يتفاضل زيادة ونقصاً فيتفاضل أصحابه بقدر ماعندهم من ذلك الإيمان، وكلما كان المرء أكمل إيماناً كان أعظم درجة وأكثر ثواباً [(٢)].

ثم إن ذلك الأصل الإيماني القائم في القلب ربما يصل إلى درجة يمنع عن صاحبه العذاب وإن استحقه على عمله الظاهر ، وليس معنى ذلك أن المرء يكون مؤمناً كامل الإيمان ولايعمل من الصالحات شيئاً ، أو أنه مصر على الكبائر طوال حياته ، بل إن ذلك قد يكون في امرئ قد أكثر من المعاصي والذنوب ثم أدركته في خاتمة عمله حالةٌ إيمانية كاملة نال بسببها غفران الذنب والفوز بالنعيم [(٣)].

ولتفاضل الإيمان ولاسيما ما كان محله القلب أوجه عدة منها :

الوجه الأول: تفاضل الإيمان بسبب الإجمال والتفصيل في الأوامر الموجهة للعبد ، فإن المرء وإن وجب عليه الإيمان با لله ورسوله وبجميع ما جاء به من عند ربه إيماناً مجملاً ، فإنه عند التفصيل قد لايجب عليه الإيمان ببعض ما جاء به أوما سيجيء به ، وذلك راجع :

(١) إمّا لعدم نزول حكم بعض الأمور من عندا لله تعالى كما كان الحال في أول الإسلام ، فإن من مات في أول الإسلام مؤمناً مسلماً ، مات و لم يجب عليه الإيمان بكثير مما جاء من عندا لله مما نزل على نبيه صلى ا لله عليه وسلم وأخبر به بعد وفاته رضي ا لله عنه .

(٢) وإمَّا لكون الإنسان المؤمن ليس من أهل العلم الذين أدركوا تفاصيل ماجاء به الرسول صلى ا لله عليه وسلم فهذا الذي لديه إيمان مجمل بما جاء به الرسول صلى

---

(١)- انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري . كتاب : الإيمان (٢)،باب : زيادة الإيمان ونقصانه(٣٣)، جـ١ ، ص: ١٠٣ . والحديث قد رواه البخاري عن أنس رضي ا لله عنه في هذه الباب وهو ح:٤٤ .

(٢)- انظر : الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان،ص : ٢٠ ، ٢٨ .

(٣)- انظر ص:١٩٧،هامش (١) : حديث صاحب البطاقة الذي يغفر له ٩٩ سجلاً من الذنوب بسبب بطاقة فيها لا إله إلا ا لله . وانظر : مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، جـ١١ ، ص: ٦٦٠ .

ا لله عليه وسلم لايكون إيمانه في درجة العالم بتفصيل ما أخبر به عليه الصلاة والسلام . والمصدق بكل ذلك .

(٣) وإمَّا لكون المكلف قد دخل في الدين حديثاً وآمن بالرسول صلى ا لله عليه وسلم، وبمجمل ما جاء به ثم لم يتمكّن من معرفة كثير مما أخبر وأمر وحكم به إمّا لموت أو نحوه ، فإن ذلك يموت على إيمان صحيح ولكنه يظل دون إيمان من علم التفصيل وآمن به إيماناً راسخاً (١) .

الوجه الثاني : أن نفس العلم والتصديق يتفاضل فيكون بعضه أقوى من بعض ، ويكون لدى بعض الناس أثبت وأبعد عن الشك والريب من بعض آخرين .

وهذا أمر ثابت في جميع الصفات النفسية بل والجسدية أيضاً ، فالناس يتفاضلون فيما عندهم من القدرة وما عندهم من ملكات السمع والبصر والذوق والشم ...الخ ، فمن قال بأن العلم بالشيء لايتفاضل كان بمنزلة من قال إن القدرة على المقدور الواحد لاتتفاضل وأن رؤية الشيء الواحد لاتتفاضل . بل الإنسان نفسه يجد أن علمه بالأمر المعين يتفاضل ويزداد كلما تعمّق دراية فيه وفهماً ، وقد يكون شخصان قد علما وصدّقا بأسماء ا لله سبحانه إلا أن أحدهما أعظم إيماناً في هذه المسألة من الآخر ، لما تفتّق لديه من معاني أسماء ا لله سبحانه وصفاته مما لم يحصل للآخر مثله (٢) .

وفي تفاضل العلم با لله سبحانه يقول صلى ا لله عليه وسلم :

((إن أتقاكم وأعلمكم با لله أنا)) .

وكان صلى ا لله عليه وسلم يقول ذلك لمن كان يستقلّ مايأمر به الرسول صلى ا لله عليه وسلم من الأوامر التي يراعي فيها طاقة العبد ، ويقول : (إنا لسنا كهيئتك يا رسول ا لله ، إن ا لله قد غفر لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر ، فيغضب رسول ا لله صلى ا لله عليه

---

(١)- انظر : مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، جـ٧ ، ص: ٢٣٢-٢٣٤ .و: فتح الباري جـ١ ، ص:١٠٣ .

(٢)- انظر : مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، جـ٧ ، ص: ٢٣٤ ، ٥٦٤-٥٦٥ .

وسلم حتى يعرف الغضب في وجهه) ثم يقول مقالته السابقة [١].

فقوله صلى الله عليه وسلم : ((أعلمكم بالله أنا)) : (ظاهر في أن العلم بالله درجات وأن بعض الناس فيه أفضل من بعض وأن النبي صلى الله عليه وسلم منه في أعلى الدرجات)[٢].

الوجه الثالث : أن أصل الإيمان من التصديق والعلم الذي محله القلب يتفاضل بتفاضل استلزامه لعمل القلب ، فالتصديق الذي يستلزم عمل القلب أكمل من الذي لايستلزمه ، وكذا العلم الذي يعمل به صاحبه أكمل من العلم الذي لايعمل به ، فلو علم وصدق شخصان بأن الله حق ورسوله حق والجنة والنار حق ، واستلزم ذلك العلم والتصديق عند أحدهما خوف الله وخشيته ومحبته ومحبّة رسوله صلى الله عليه وسلم وطلب الجنة والهرب من النار ولم يستلزمه عند الآخر ، دلّ ذلك على أن التصديق والعلم عند الأول أقوى وأكمل منه عند الآخر ، إذ كلما قوي السبب قوي المسبّب وكلما ضعف السبب ضعف المسبّب وبذلك يكون قوة المسبّب أو ضعفه دليلاً على قوة سببه الأصلي أو ضعفه[٣].

الوجه الرابع : إن أعمال القلوب والتي هي من الإيمان كمحبة الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وسلم وخشية الله تعالى والخوف منه ورجائه والإنابة إليه والتوكل عليه والإخلاص له وغير ذلك مما يتعلق بالله سبحانه ، والرحمة بالمخلوقين والشفقة عليهم والنصح لهم وغير ذلك مما يتعلق بالعباد ، وكذا سلامة القلوب من العيوب والنقائص كالرياء والكبر والعجب والحسد والغلّ والحقد ونحو ذلك ، كل هذه الأعمال القلبية قابلة للتفاضل من مؤمن لآخر بما لايعلم مقداره إلا الله جل وعلا ، بل إن المؤمن يجد نفسه في حالات أشدّ خوفاً من الله ومحبّةً له من حالات أخر ، وهكذا في سائر أعمال قلبه يمكنه إدراك وجود تفاضل فيها من حين لآخر . قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

---

(١)- روى البخاري هذا الحديث عن عائشة رضي الله عنها . فتح الباري : كتاب : الإيمان (٢)،باب: قول النبي صلى الله عليه وسلم((أنا أعلمكم بالله))وأن المعرفة فعل القلب..(١٣)ح:٢٠، جـ١، ص:٧٠ .

(٢)- فتح الباري شرح صحيح البخاري،لابن حجر ، جـ١ ، ص: ٧٠ .

(٣)- انظر : مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، جـ٧ ، ص: ٢٣٤-٢٣٥ .

(والناس في حب ا لله يتفاوتون ما بين أفضل الخلق محمد وإبراهيم-عليهما السلام - إلى أدنى الناس درجة مثل من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، ومابين هذين الحدّين من الدرجات لايحصيه إلا رب الأرض والسماوات .)[١].

الوجه الخامس : لقد سبق بيان أنّ المرء إذا كان في قلبه إيمان وصلاح وتقوى فلابد أن يظهر ذلك على سلوكه [٢]، فكلما كان المرء في سلوكه الظاهري أكثر التزاماً لأوامر الشرع وأحكامه كان في ذلك دليل على وجود إيمان قوي نتج عنه مثل هذا السلوك الصالح ، ومتى كان أقل التزاماً بما وجب عليه كان في ذلك دليل على ضعف إيمانه .

هذا إضافة إلى كون الأعمال تدخل في مسمّى الإيمان العام ، فيكون الإيمان بهذا الاعتبار متفاضلاً بمقدار تفاضل الأعمال الظاهرة مع ما يرافقها من الأعمال الباطنة [٣].

الوجه السادس : أن زيادة الإيمان القلبي تَحْصُل مع مداومة استحضار المرء وتذكره بقلبه لما آمن به ، بحيث لايغفل عنه مطلقاً ، إذ ما في القلب من أمور وأحوال يدوم ويقوى بدوام أسبابه ، فما في القلب من علمٍ -مثلاً- ويقين يدوم ويقوى بدوام تذكّر المرء واستحضاره لمعلومه ، وأما الغفلة فإنها تضاد كمال العلم والتصديق فتؤدي إلى نقصان درجتهما ، ومع التذكر والاستحضار لما علمه الإنسان وصدق به يحصل له معرفة شيء آخر لم يكن يعرفه من قبل ، فكل من داوم على تذكر كتاب ا لله سبحانه بتمعّن وحضور قلب أورثه ذلك علماً لم يكن يعلمه من قبل ولو كان ذلك في فاتحة الكتاب ، وذلك بخلاف من يغفل عن كتاب ا لله .

وكذلك من يعمل عملاً وهو مستحضر بقلبه ا لله الذي آمن به وعظمته وحبّه

---

(١)- مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ، جـ٧ ، ص: ٥٦٨ . وانظر ص: ٢٣٥ ، ٥٦٣-٥٦٤ ، ٥٦٦-٥٦٩ .

(٢)- انظر ص:٣٤٨-٣٤٩ .

(٣)- انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ، جـ٧ ، ص: ٢٣٥ ، ٥٦٢-٥٦٣ . وتفاضل المؤمنين بتفاضل أعمالهم الظاهرة سيأتي ذكره بإذن ا لله فيما يلي من العوامل،انظر ص: ٣٦٨ وما بعدها .

وخشيته له وأنه هو الذي أمره بذلك العمل يحصل له من التصديق واليقين بذلك الأمر ما كان غافلاً عنه قبل قيامه بفعله وإن لم يكن مكذّباً . وهذا لم يكن ليحصل لمن أدى ذلك العمل وهو غافل عن تلك المعاني .

فدوام الاستحضار والتذكّر يجعلان إيمان صاحبهما أقوى من إيمان من تصيبه الغفلة والنسيان [١].

الوجه السابع : أن الإيمان القلبي قد يزداد بسبب أمر كان ينكر صاحبه صحته وثبوته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس تكذيباً للرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكنه لعدم علمه وتأكده بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أخبر به ، ولو علمه ما أنكره .

لذلك إن تبيّن له الحق وصدّق به فقد حصل عنده زيادة إيمان قلبي عما كان عنده قبل ذلك .

وقد يكون الإنسان أيضاً على بدعة قولية أو عملية وهو لايعلمها فإن علمها ورجع حصل له بذلك زيادة في إيمانه وكان أكمل إيماناً ممن لم يكن كذلك . (فمن علم ماجاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وعمل به ، أكمل ممن أخطأ ذلك ، ومن علم الصواب بعد الخطأ وعمل به فهو أكمل ممن لم يكن كذلك)[٢].

الوجه الثامن : أن الإيمان القلبي يتفاضل بكثرة الأسباب المؤدية إلى ثبات يقين المرء وتصديقه ثباتاً راسخاً لايتزعزع وذلك بكثرة الأدلة اليقينية -مثلاً- المبيّنة للحقّ والمبطلة لأي شبهة عارضة ، فكلّما قويت الأدلّة عند شخص ما زاد يقينه فيزيد بذلك إيمانه القلبي ويكون أكمل وأقوى ممن لم يكن حاله مثله [٣].

.. وبعد فهذه بعض أوجه تفاضل الإيمان الموجود في القلب والذي يؤدّي إلى تفاضل الجزاء المترتب عليه ، أي إنها يمكن اعتبارها جميعاً من عوامل تفاضل المؤمنين في الثواب

---

(١)- انظر : مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، جـ٧ ، ص: ٢٣٥-٢٣٧ ، ٥٦٦ .

(٢)- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، جـ٧ ، ص: ٢٣٧ .

(٣)- انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ، جـ٧ ، ص: ٥٦٥-٥٦٦ .

الذي ينالونه .

قال ابن قيم الجوزية :

فالفضل عندا لله ليس بصورة ال — أعمال بل بحقائق الإيمـــــان.
وتفاضل الأعمال يتبع مايقـــو — م بقلب صاحبها من البرهـــان.
حتى يكون العاملان كلاهمـــا — في رتبة تبدولنـــا بعيـــــان.
هذا وبينهما كمـــا بين السمـــا — والأرض في فضل وفي رجحان.
ويكون بين ثواب ذا وثـواب ذا — رتبٌ مضاعفةٌ بلا حسبـــان.
هذا عطاء الرب جـل جـلالـه — وبذاك تعرف حكمة الديّـان [(١)].

هذا في إثبات أن الإيمـان الـذي في القلـب يتفـاضل بجملتـه تفـاضلاً عظيمـاً ويتفـاضل بذلك الثواب عليه . ويبقى بعد ذلك بيان أنّ الأعمال الباطنة-من التي تدخل تحت مسمّى الإيمان الذي محله القلب – بعضها أفضل وأعظم ثوابـاً مـن بعـض ، فـالأصل الإيمـاني مـن العلم والتصديق والإقرار القلبي الصحيح غير المنقوض والذي فيه نجاة لصاحبه من النار ولو بعد حين ليس الثواب عليه كثواب ماينتج عن ذلك الأصل من خـوف وخشـية ومحبـة لله ونحو ذلك من أعمال القلوب ، وذلك لأن الخوف والرجاء وحدهمـا إن لم يكونـا نـابعين عن أصل إيماني صحيح فإنهما لايكفيان مطلقاً في نجاة المرء مـن دار العـذاب وإدخالـه دار الثواب .

فالأصل الإيماني جملةً يتفاضل وتتفـاضل الإثابـة عليـه وكـذا عنـاصر الإيمـان تتفـاضل ويتفاضل الثواب عليها .

الحقيقة الرابعة:الإحسان : عن عمر بن الخطاب رضي ا لله عنه قال :

[بينما نحن عند رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم ذات يوم إذْ طلع علينا رجل شديد

---

(١)- توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمـام ابـن القيـم الموسـومة بالكافيـة الشـافية في الانتصار للفرق الناجية ؛ أحمد بن إبراهيم بن عيسى ، جـ٢ ، ص: ٤٦٣-٤٦٤ .

بياض الثياب ، شديد سواد الشعر لايرى عليه أثر السفر ولايعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي صلى ا لله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال: يا محمد ، أخبرني عن الإسلام فقال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم :((الإسلام : أن تشهد ألا إله إلا ا لله وأن محمداً رسول ا لله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً)) قال : صدقت ، قال : فعجبنا له يسأله ويصدّقه . قال : فأخبرني عن الإيمان ، قال : ((أن تؤمن با لله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره)) قال : صدقت . قال : فأخبرني عن الإحسان ، قال : ((أن تعبد ا لله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)) . قال : فأخبرني عن الساعة ، قال : ((ما المسؤول عنها بأعلم من السائل)) قال : فأخبرني عن أماراتها ، قال: ((أن تلد الأمة ربَّتَها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان.)). قال : ثم انطلق . فلبثت ملياً ، ثم قال لي : ((ياعمر ، أتدري من السائل ؟)). قلت : ا لله ورسوله أعلم . قال : ((فإنه جبريل أتاكم يعلّمكم دينكم .)).] [(١)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن حديث جبريل عليه السلام :

---

(١)- روى الحديث الإمام مسلم عن عبدا لله بن عمر رضي ا لله عنه عن أبيه رضي ا لله عنه . شرح النووي على مسلم : كتاب : الإيمان ، الحديث الأول ، باب : بيان الإيمان والإسلام والإحسان...،جـ١ ، ص:١٥٠-١٦٠. وروى الحديث أيضاً الإمام البخاري من رواية أبي هريرة رضي ا لله عنه . انظر : فتح الباري : كتاب : الإيمان (٢) ، باب : سؤال جبريل النبي صلى ا لله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان والساعة وبيان النبي صلى ا لله عليه وسلم له (٣٧) ، ح: (٥٠) ، جـ١ ، ص: ١١٤ . وفي كتاب : التفسير (٦٥)،سورة لقمان (٣١)،باب : إن ا لله عنده علم الساعة (٢) ، ح:٤٧٧٧ ، جـ٨ ، ص:٥١٣ . وفي ألفاظ رواية أبي هريرة بعض اختلاف عن ألفاظ رواية عمر رضي ا لله عنهما ففيها تقديم الإيمان ثم الإسلام ثم الإحسان وغير ذلك ، ورواية أبي هريرة رواها مسلم في:كتاب : الإيمان ، باب : بيان الإيمان والإسلام والإحسان...،جـ١ ، ص: ١٦١-١٦٥ . وقد ذكر روايتين ، في الرواية الثانية منهما: الترتيب فيها كالترتيب في حديث عمر رضي ا لله عنه . وذكر ابن حجر أنه في بعض الروايات ابتدأ بذكر الإسلام وثنّى بالإحسان وثلّث بالإيمان،فتح الباري ، جـ١ ، ص:١١٧،[وهي رواية مطر الوراق التي أخرجها أبو عوانة في صحيحه . انظر : فتح الباري ، جـ١ ، ص: ١١٦].وقد بين ابن حجر أن التقديم والتأخير قد وقع من بعض الرواة وأن القصة واحدة لاتعدّد فيها . انظر : فتح الباري ، جـ١ ، ص:١١٧.

(فالحق في ذلك ما بيّنه النبي-صلى ا لله عليه وسلم-في حديث جبريل ، فجعل الدين وأهله ثلاث طبقات : أولها : الإسلام ، وأوسطها : الإيمان ، وأعلاها : الإحسان ، ومن وصل إلى العليا فقد وصل إلى التي تليها فالمحسن مؤمن والمؤمن مسلم وأما المسلم فلا يجب أن يكون مؤمناً .)[١] . وكذلك لايجب أن يكون كل مؤمن محسناً .

فالإحسان وإن كان يشمل عند الإطلاق إحسان العمل الظاهر والباطن إلا أن أصله- كما دلّ عليه الحديث السابق- هو مايقوم في قلب المرء : من كمال ودوام مراقبة المرء لله عزّ وجلّ في جميع أحواله وأفعاله وشؤونه .

فالإحسان كالإسلام والإيمان أصله في القلب ويظهر أثره في الجوارح والأعمال الظاهرة ، ولاشك أن الإحسان هو أعلى المراتب الثلاثة ؛ إذ لو أنّ إنساناً قام يصلي وهو يرى ربّه جل شأنه أمامه رؤية عيان ، ويوقن بأنه سبحانه يعلم باطنه كما يعلم ظاهره لايخفى عليه منه شيء ، فإن ذلك الإنسان سوف يكون -بلاريب- في إحسانه لصلاته ظاهراً وباطناً على أعلى المراتب ويكون على أكمل محبة لله سبحانه وأكمل خشية وخوف ورجاء وتوكل واستعانة وخضوع وذل وتصديق ويقين وإقرار ...إلخ ما يتعلق بأعماله القلبية ، وأما العمل الظاهر فسيؤديه على أحسن وجه يبلغه جهده .

ولكن بما أن رؤية ا لله سبحانه غير متحققة في الدنيا فعلى الإنسان المؤمن -إن أراد الوصول إلى مرتبة الإحسان - أن يعبد ربه كأنه يراه ، فإذا لم يمكنه ذلك فليعبده جلّ شأنه وهو يعلم ويوقن بأنه تعالى مطّلع عليه لايخفى عليه شيء من أمره وإن دقّ !.

فالإحسان بذلك هو أعلى مرتبة يُعْبَدُبِهَا ا لله سبحانه كما قال جل شأنه :

﴿ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتّبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ ا لله إبراهيم خليلاً (١٢٥) ﴾ النساء [٢].

---

(١)- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، جـ٧ ، ص: ٣٥٧-٣٥٨ . ولكن بالنسبة للإيمان والإسلام فقد ذكر عن بعض أهل السنة أنهما شيء واحد والأكثر على الفرق بينهما وهذا ما رجحه شيخ الإسلام ابن تيمية . انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ، جـ٧ ، ص: ٣٥٩ .

(٢)- انظر على سبيل المثال : مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، جـ٧ ، ص:٦٢٢ .و: شرح النووي على مسلم جـ١ ، ص: ١٥٧-١٥٨ . وفتح الباري شرح صحيح البخاري ، جـ١ ، ص: ١٢٠ .

والمحسنون هم أصحاب أعلى الدرجات في الجنات كما قال تعالى بعد ذكر الجنّتين العُلْيَيْنِ في الجنة وما فيهما من النعيم في سورة الرحمن :

﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** (٦٠) ﴾ الرحمن [1].

ولاشكّ في تفاضل أهل هذه المرتبة لأن كمال مراقبة الله سبحانه ودوامها تختلف من شخص لآخر فتتفاضل درجات تلك المراقبة ، وتتفاضل المراتب بين أهل الإحسان لتفاضل ما ينالونه من ثواب بحسب أحوالهم .

العامل الثالث : تفاضل الأعمال الظاهرة بتفاضل مايرافقها مما يوافقها من أعمال القلوب الباطنة[2]:

وهذا أمر قد ظهر واضحاً جلياً من خلال ماسبق بيانه في العاملين الأول والثاني ، بما لايحتاج إلى إعادة إثبات ، فأي عبادة ظاهرة لاشك في أنها يعظم الثواب عليها بعظم ما يرافقها من إخلاص صاحبها القلبي ، وينقص الثواب بنقصان وضعف الإخلاص .

فالخشوع مثلا عبادة قلبية لابد أن تلازم عبادة الصلاة ، قال تعالى :

﴿ **قد أفلح المؤمنون** (١) **الذين هم في صلاتهم خاشعون** (٢) ﴾ المؤمنون .

هذا الخشوع كلّما عظم في قلب امرئ وهو يصلي عظم الثواب الذي يناله على صلاته تلك .

وكذا الخوف والرجاء عبادتان من عبادات القلب يعظم بهما العمل الظاهري - كالدعاء مثلاً - كلما عظما في قلب المرء المؤمن . قال جل شأنه :

﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون**(١٦) **فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون**(١٧) ﴾السجدة .

---

(١)- انظر : تفسير ابن كثير ، جـ٤ ، ص: ٢٧٨ ، ٢٨٠-٢٨١ .و: مجموع فتاوى ابن تيمية ، جـ٧ ، ص:٣٥٧-٣٥٨ .

(٢)- انظر : عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن قيم الجوزية ، ص: ١٤٩ . وانظر : فتح الباري ، جـ١١ ، ص: ٣٢٦ .

وقراءة كتاب ا لله عبادة من العبادات الظاهرة يعظم الثواب عليها بعظم حضور القلب والفكر مع كل كلمة وحرف يقوله الإنسان وهو يقرأ كتاب ا لله تعالى ويتدبر آياته ..

قال تعالى :

﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد (٣٧) ﴾ ق .

فالذكرى والعبرة والاتعاظ إنما تحصل لمن تدبر آيات ا لله عزوجل بتفكر وحضور قلب ، فكلما كان القلب حاضراً حضوراً أقوى حصل للإنسان من الاتعاظ والتذكر والعبرة ما هو أعظم [١]. وهذا يؤدي إلى عظم الثواب الذي يناله بسبب ما يحصل له من جراء ذلك الاتعاظ والتذكر .

العامل الرابع : تفاوت الأعمال في درجات الفضل [٢]:

إن تفاضل الأعمال المختلفة من حيث الثواب والعقاب عليها أمر قد يقال بإجماع المسلمين عليه ، ولكن اختلافهم في عودة ذلك هل هو إلى التفاضل في درجات الإيجاب أو التحريم أم هو قاصر على التفاضل في المتعلق بذلك العمل وهو الثواب أو العقاب ؟ .

فجمهور الفقهاء ذهبوا إلى أن ذلك راجع إلى التفاضل في درجات الإيجاب والتحريم، فبعض المأمور به أوجب من بعض وبعض المنهيّ عنه أشدّ تحريماً من بعض وتبعاً لذلك يكون التفاضل في درجات الثواب والعقاب عليها [٣].

وهناك نصوص متعددة فيها ذكر لأفضل الأعمال ، منها قوله صلى ا لله عليه وسلم وقد سئل : [أي العمل أفضل ؟ فقال : ((إيمان با لله ورسوله)) قيل : ثم ماذا ؟ قال : ((الجهاد في سبيل ا لله)) . قيل : ثم ماذا ؟ قال : ((حجّ مبرور))] [٤].

---

(١)- انظر : الفوائد لابن القيم الجوزية ، ص: ٣-٥.وفتح الباري : جـ: ١١ ، ص: ٣٢٦ .

(٢)- وسماه ابن حجر في فتح الباري ، شرف العمل ، انظر : جـ: ١١ ، ص: ٣٢٦ .

(٣)- انظر : مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ، جـ: ١٧ ، ص: ٥٩-٦٠ . وفيما سبق بيانه من أن الأعمال الباطنة عموماً أفضل من الأعمال الظاهرة التي تقابلها ثم الأعمال الظاهرة الحسنة إذا استكملت ما ينبغي لها من الأعمال القلبية الباطنة أو كانت على درجة واحدة من تلك الأعمال ، كذلك تتفاضل فيما بينها ومن ثم يتفاضل الثواب عليها:دلالة واضحة على ذلك .

(٤)- متفق عليه ، من حديث أبي هريرة رضي ا لله عنه.واللفظ للبخاري . فتح الباري : كتاب : الإيمان(٢)،باب : من قال إن الإيمان هو العمل (١٨) ، ح: ٢٦ ، جـ:١ ، ص: ٧٧ . وانظر : شرح النووي على مسلم:كتاب : الإيمان ٤،باب : بيان كون الإيمان با لله تعالى أفضل الأعمال ، جـ: ٢ ، ص:٧٢ .

وسئل أيضاً صلى ا لله عليه وسلم : [أي العمل أفضل ؟ قال : ((الصلاة لوقتها)). قال : قلت : ثم أيّ ؟ قال : ((برّ الوالدين)) . قال : قلت : ثم أيّ ؟ قال : ((الجهاد في سبيل ا لله))] ...(١).

وحين سئل صلى ا لله عليه وسلم [أي الإسلام أفضل ؟ قال : ((من سلم المسلمون من لسانه ويده))](٢).

فهذه النصوص الظاهرة تثبت أن بعض الأعمال الظاهرة أفضل من بعض فتكون بذلك متفاضلة في الثواب المترتب عليها .

ثم إن الأمور التي افترضها ا لله عزّ وجلّ لاشك بأنها على وجه العموم أفضل ما يتقرّب به إليه تعالى كما قال صلى ا لله عليه وسلم في الحديث الذي يرويه عن ربه عزّ وجلّ :

((إن ا لله قال : من عادى لي ولياً فقد آذنته بحرب ، وماتقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرّب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته ، كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه ، وإن استعاذني لأعيذنه ، وماترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته .))(٣).

فالفرائض أحب الأعمال إلى ا لله جلّ شأنه ، لذلك فهي أعظم ثواباً ، ولايمكن لعبد أن يتقرب إليه تعالى إلا إذا أدى ما افترضه ثم يؤدي ما شاء من النوافل ، وأما من يضيّع

---

(١)- رواه مسلم عن عبدا لله بن مسعود رضي ا لله عنه . شرح النووي على مسلم : كتاب : الإيمان ، باب : بيان كون الإيمان با لله تعالى أفضل الأعمال ، جـ: ٢ ، ص: ٧٣-٧٤ . عدة روايات .

(٢)- متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري رضي ا لله عنه . واللفظ للبخاري . فتح الباري : كتاب: الإيمان (٢) ، باب : ((أي الإسلام أفضل)) (٥)،ح: ١١ ، جـ: ١، ص: ٥٤ .وانظر : شرح النووي على مسلم : كتاب : الإيمان ، باب : بيان تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل ، جـ: ٢ ، ص: ١٢. والحديث عند مسلم مرويّ أيضاً عن عبدا لله بن عمرو بن العاص وعن جابر بن عبدا لله ، جـ: ٢ ، ص:١٠-١٢ . الكتاب والباب السابقين .

(٣)- رواه البخاري عن أبي هريرة رضي ا لله عنه . فتح الباري : كتاب : الرقائق (٨١) ، باب : التواضع(٣٨) ، ح:٦٥٠٢ ، جـ١١ ، ص: ٣٤٠-٣٤١ .

الفرائض بسبب اشتغاله بالنوافل فهذا قد أخطأ الطريق الموصل إلى مرضاته سبحانه قطعاً[1] .

العامل الخامس : كون العمل ذا أثر على الآخرين :

فإن زيادة الثواب على العمل تكون بحسب زيادة أثره الحسن على الآخرين قال صلى الله عليه وسلم : ((من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لاينقص ذلك من أجورهم شيئاً ...))[2] .

وقال صلى الله عليه وسلم : ((إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة ، إلا من صدقة جارية أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له .))[3] .

فكل عمل حسن ذي أثرٍ على الآخرين بحيث يكون سبباً لفائدة حسنة تحصل لهم من هداية أو انتفاع مباح ، فإن أجر صاحب ذلك العمل يتضاعف ويستمر مادام قد وجد من يستفيد من عمله ذلك الاستفادة الحسنة .

ومن أهم الأعمال التي دلّ عليها هذان الحديثان : نشر العلم الصالح بين الناس ، ولايكون ذلك إلا بعد بذل المرء جهده في طلب العلم النافع وتحصيله ثم بعد ذلك يقوم بنشره فيكون بهذا من أعظم الدعاة إلى الهدى سواء اشتغل بالتعليم أو التدريس أم اشتغل بالتأليف والتصنيف وخلّف أعظم الآثار التي تجعل ثوابه لاينقطع بعد وفاته مما يكون سبباً لرفعه إلى الدرجات العلى في الجنة قال تعالى :

﴿ ... يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير (١١) ﴾ المجادلة .

---

(١)- انظر : فتح الباري ، جـ١١ ، ص: ٣٤٣ . ومجموع فتاوى ابن تيمية ، جـ:٢ ، ص:٤٦٣ ، جـ١٧ ، ص:١٣١-١٣٤ .

(٢)- رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه . شرح النووي على مسلم : كتاب : العلم ، باب : من سنّ سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة ، جـ١٦ ، ص: ٢٢٧ . وللحديث تتمة هي : ((..ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لاينقص ذلك من آثامهم شيئاً)). وسيأتي الاستشهاد بها بإذن الله،انظر ص :٤١٤ .

(٣)- رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه . شرح النووي على مسلم : كتاب : الوصية ، باب : ما يلحق بالإنسان من الثواب بعد وفاته ، جـ: ١١ ، ص: ٨٤-٨٥ ، (ح: ١٤ حسب المعجم) .

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

((من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم ، وإن طالب العلم يستغفر له من في السماء والأرض حتى الحيتان في الماء ، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب،إن العلماء ورثة الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولادرهماً،إنما ورّثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر))[1].

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله العلماء العاملين الذين يقتفون أثر الرسل في الدعوة إلى الله سبحانه في الطبقة الرابعة من طبقات المثابين يوم الدين وهي أولى الطبقات بعد طبقات الأنبياء والمرسلين ، وقد ذكر أنهم هم الصديقون – إذ هم أكمل الخلق تصديقاً بما جاء به الرسل علماً وعملاً ودعوة – والصديقون هم أول أصناف السعداء مرتبة بعد الأنبياء عليهم السلام ، كما يستدل عليه من قوله تعالى :

---

(١)- رواه ابن ماجه عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، وهذا لفظه . سنن ابن ماجه ، المقدمة ، باب : فضل العلماء والحث على طلب العلم (١٧)،ح: ٢٢٣ ، جـ: ١ ، ص: ٨١ . ورواه أيضاً عن أبي الدرداء أبو داود . انظر : مختصر سنن أبي داود : كتاب : العلم ، باب : الحث على طلب العلم (١)،ح: ٣٤٩٤ ، جـ: ٥ ، ص: ٢٤٣ . ورواه الترمذي . انظر عارضة الأحوذي : أبواب العلم ، باب : ما جاء في فضل الفقه على العبادة (١٩) ، جـ: ١٠ ، ص: ١٥٤-١٥٦ . وأحمد : المسند : جـ: ٥ ، ص: ١٩٦،وذكر له إسنادين . وذكره الدارمي في سننه : المقدمة ، باب : في فضل العلم والعالم (٣٢)،ح: ٣٤٨ ، جـ: ١ ، ص:١٠٤ . ورواه البغوي . انظر : شرح السنة ، كتاب : العلم ، باب : فضل العلم ، جـ: ١ ، ص:٢٧٥-٢٧٦ ، ح: ١٢٩ . وأما عن إسناده : فقد صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته : ح: ٦٢٩٧ ، جـ: ٢ ، ص: ١٠٧٩ . وحسنه الأرنؤوط محقق البغوي ، جـ: ١ ، ص: ٢٧٦ ، ت(١) . وذكر ابن حجر أن حمزه الكناني حسنه ، انظر : فتح الباري ، جـ: ١ ، ص: ١٦٠ ، وقال ابن حجر : له شواهد يتقوى بها . والترمذي عندما روى هذا الحديث رواه بطريق قال عنه : إنه غير متصل ورواه من طريق آخر ذكر أنه أصح من الأول . انظر عارضة الأحوذي ، جـ: ١٠ ،ص: ١٥٥-١٥٦ . وذكر هذه الرواية ابن قيم الجوزية في كتابه مفتاح دار السعادة ، جـ: ١ ، ص: ٦٣ ، وذكر بعدها رواية أخرى وقال هذا حديث حسن . وذكر رحمه الله في هذا الكتاب ما يزيد على (١٥٠) دليلاً ووجهاً على فضل العلم . انظر الجزء الأول منه .

﴿ **ومن يطع ا لله والرسول فأولئك مع الذين أنعم ا لله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً** (٦٩) ﴾ النساء [(١)].

ويدخل في عداد العلماء الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر عن علم ومعرفة . قال الرسول صلى ا لله عليه وسلم : ((إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر)) [(٢)].

ومن الأعمال ذات الأثر الحسن على الآخرين والتي رتّب عليها من عظيم الأجر والثواب ما ا لله أعلم به : الولاية بالعدل والحكم بالحق . قال الإمام ابن قيم الجوزية :

(الطبقة الخامسة – أي من طبقات المكلفين وهي الثانية بعد طبقات الأنبياء الثلاث-: أئمة العدل وولاته ، الذين تؤمن بهم السبل ويستقيم بهم العالم ويستنصربهم الضعيف ، ويذل بهم الظالم ويأمن بهم الخائف وتقام بهم الحدود ، ويدفع بهم الفساد ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقام بهم حكم الكتاب والسنة ، وتطفأ بهم نيران البدعة والضلالة ، وهؤلاء الذين تنصب لهم المنابر من النور عن يمين الرحمن عزّوجل يوم القيامة فيكونون عليها ...) [(٣)]، مشيراً بذلك رحمه ا لله إلى الحديث الذي قال فيه النبي صلى ا لله عليه وسلم :

((إن المقسطين عند ا لله على منابر من نور عن يمين الرحمن عزوجل ، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وماولوا)) [(٤)].

فهذا الحديث فيه دلالة ظاهرة على عظم ورفعة منازل ولاة العدل عندا لله سبحانه يوم القيامة [(٥)].

---

(١)- انظر : طريق الهجرتين ، الطبقة الرابعة من طبقات المكلفين ، ص: ٦١٤-٦٢٠ .

(٢)- رواه الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي ا لله عنه . عارضة الأحوذي : أبواب الفتن ، باب : ما جاء أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر ، جـ:٩ ، ص: ١٩-٢٠ . وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه .

(٣)- طريق الهجرتين ، ص: ٦٢٠ . وانظر ما بعدها .

(٤)- رواه مسلم عن عبدا لله بن عمر رضي ا لله عنهما . شرح النووي على مسلم ، كتاب الإمارة ، باب: فضيلة الأمير العادل وعقوبة الجائر ...، جـ: ١٢ ، ص: ٢١١،(ح: ١٨ حسب المعجم) .

(٥)- انظر : شرح النووي على مسلم ، جـ: ١٢ ، ص: ٢١١ .

كذلك فإنّ من الأعمال الحسنة عظيمة الأثر على الآخرين ، والتي ينال صاحبها بسببها كبير الأجر والثواب ، الجهاد في سبيل الله ، قال تعالى :

﴿ لايستوى القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاًّ وعد الله الحسنى . وفضّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً (٩٥) درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً (٩٦) ﴾ النساء .

وقال صلى الله عليه وسلم :

((إنّ في الجنة مئة درجة أعدّها الله للمجاهدين ، كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس ، فإنّه أوسط الجنّة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجّر أنهار الجنة))[(١)] .

فهذه الدرجات العالية في الجنة أعدّها الله تعالى للمجاهدين في سبيله ، لما في الجهاد من آثار صالحة يحبها ،كنشر الدعوة وهداية الخلق وإعلاء كلمته تعالى ونصر الدين وحماية أهله ، وردّ كيد الأعداء إلى نحورهم وهذه كلُّها أمور لها تأثير كبير ومباشر على كثير من الخلق ، إضافة إلى مافي الجهاد من البذل والتضحية بالنفس والمال في سبيل الله تعالى...

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية في طبقات المكلّفين المجاهدين في الطبقة السادسة من طبقات السعداء[(٢)] .

كذلك فإن الإحسان إلى الناس بشتى ضروب الإحسان من الإنفاق والصدقات ومعونة الآخرين ومساعدتهم وتفريج كرباتهم وقضاء حاجاتهم ومصالحهم ... إلى آخر مظاهر ذلك الإحسان ؛ كل هذه الأمور ينال المرء بسببها عظيم الثواب من الله عزوجل .

وقد سبق الاستدلال بالحديث الذي ذكر فيه الرسول صلى الله عليه وسلم ما يجعل ثواب المرء مستمرّاً حتى بعد وفاته والتي منها : ((الصدقة الجارية)) . وذلك لدوام انتفاع الناس بها .

---

(١)- رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه . والحديث سبق ذكره كاملاً مع تخريجه ص: ٣٣٩ .

(٢)- انظر : طريق الهجرتين ، ص: ٦٢٢-٦٣٣ .

ومن الأدلة في هذا المقام قوله تعالى :

﴿ **مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل ا لله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة وا لله يضاعف لمن يشاء وا لله واسع عليم** (٢٦١) ﴾ البقرة .

وقال جل شأنه : ﴿ **ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة ا لله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطلّ وا لله بما تعملون بصير** (٢٦٥) ﴾ البقرة .

فالمثل الأول : وهو مثل الجنة التي يصيبها الوابل – وهو المطر العظيم القدر – يبين حال السابقين المقربين من أهل الإنفاق في سبيل ا لله الذين يتضاعف ثوابهم كما يتضاعف إنتاج تلك الجنة .

والمثل الثاني : وهو مثل الجنة التي يصيبها الطلّ – وهو دون الوابل – يبين حال الأبرار من أهل النفقة ، ولكلّ من الفريقين درجات عند ا لله تعالى [(١)] .

ثم إن النصوص التي تحثّ على شتى ضروب الإحسان إلى الناس وتعود بالثواب العظيم عليه كثيرة منها قوله صلى ا لله عليه وسلم :

((المسلم أخو المسلم لايظلمه ولايُسلِمهُ ، ومن كان في حاجة أخيه كان ا لله في حاجته ، ومن فرّج عن مسلم كربة فرج ا لله عنه كربة من كربات القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره ا لله يوم القيامة .)) [(٢)] .

وقال صلى ا لله عليه وسلم :

((من سره أن ينجيه ا لله من كرب القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه)) [(٣)] .

---

(١)- انظر : طريق الهجرتين ، ص: ٦٤٤-٦٤٥ .

(٢)- متفق عليه من حديث عبدا لله بن عمر رضي ا لله عنهما . واللفظ للبخاري . انظر : فتح الباري : كتاب : المظالم(٤٦)،باب : لايظلم المسلم المسلم ولايسلمه (٣) ، ح:٢٤٤٢ ، جـ٥ ، ص:٩٧ . وانظر : شرح النووي على مسلم : كتاب : البر والآداب والصلة ، باب : تحريم الظلم جـ١٦ ، ص : ١٣٤-١٣٥.

(٣)- رواه مسلم عن أبي قتادة رضي ا لله عنه . شرح النووي على مسلم : كتاب : المساقاة والمزارعة، باب: فضل إنظار المعسر والتجاوز في الاقتضاء من الموسر والمعسر ، جـ١٠ ، ص:٢٢٦-٢٢٧ .

وقال صلى ا لله عليه وسلم :

((فلا يغرس المسلم غرساً فيأكل منه إنسان ولادابة ولاطير إلا كان له صدقة إلى يوم القيامة .))[١].

وقال صلى ا لله عليه وسلم :

[((الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل ا لله)) وأحسبه قال : ((وكالقائم لايفتر وكالصائم لايفطر))][٢].

وقال صلى ا لله عليه وسلم :

((أنا وكافل اليتيم هكذا . وقال بأصبعيه السبابة والوسطى))[٣].

ومن أعظم الأعمال الصالحات ذات الأثر الكبير على الآخرين إصلاح ما بين الناس ، قال صلى ا لله عليه وسلم :

[((ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة))؟ قالوا : بلى . قال: ((صلاح ذات البين ، فإن فساد ذات البين هي الحالقة)).][٤].

---

(١)- رواه مسلم عن جابر بن عبدا لله رضي ا لله عنهما . شرح النووي على مسلم : كتاب المساقاة والمزارعة ، باب : فضل الغرس والزرع ، جـ١٠ ،ص:٢١٣-٢١٥،عدة روايات .

(٢)- متفق عليه عن أبي هريرة رضي ا لله عنه . واللفظ لمسلم . شرح النووي على مسلم : كتاب : الزهد، باب : فضل الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم ، جـ١٨ ، ص: ١١٢ . وانظر : فتح الباري : كتاب : الأدب (٧٨) ، باب : الساعي على المسكين (٢٦)،جـ١٠ ، ص: ٤٣٧ ، ح:٦٠٠٧ . والشك من أحد رواة الحديث .

(٣)- رواه البخاري عن سهل بن سعد رضي ا لله عنه . فتح الباري : كتاب : الأدب (٧٨)،باب: فضل من يعول يتيماً (٢٤)،ح: ٦٠٠٥ ، جـ١٠ ، ص:٤٣٦ . وروى نحوه مسلم عن أبي هريرة بلفظ : ((كافل اليتيم له أو لغيره...))شرح النووي على مسلم : كتاب الزهد ، باب : فضل الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم ، جـ١٨ ، ص:١١٢-١١٣ .

(٤)- رواه الترمذي عن أبي الدرداء رضي ا لله عنه . عارضه الأحوذي : أبواب : صفة القيامة والرقائق والورع ، باب : (بدون عنوان)،جـ٩ ، ص:٣١٣-٣١٤. وقال الترمذي : هذا حديث صحيح .

إلى غير ذلك من نصوص كثيرة فيها الحث على جميع مايعود بالخير العظيم على جماعة المؤمنين ولايختص أثره بالعامل وحده ، وفيها إشارة إلى عظيم الثواب الذي يناله المرء بسبب ذلك العمل ، وقد جعل الإمام ابن قيم الجوزية هذا الصنف في الطبقة السابعة من طبقات المكلفين [1].

العامل السادس : اختلاف أحوال العاملين ، والأحوال التي يؤدون فيها أعمالهم [2]:

أما الأول : فإن الناس يتفاوتون في الأعمال التي تعود عليهم بالنفع أكثر من غيرها ، بحيث يكون لدى بعضهم طلب العلم أسهل وأكثر نفعاً له من إنفاق المال ، ولدى بعضهم الآخر إنفاق المال أسهل من الجهاد بالنفس -أي : إن إكثاره من الإنفاق أعظم نفعاً مما لوتكلف الإكثار من جهاد قد لايتقنه - والبعض الآخر يسهل عليه الإكثار من الصلوات والأذكار وهكذا ...، وعموماً فإن المؤمن إذا قضى ماوجب عليه وأراد الإكثار من نوافل الطاعات فإن عليه أن يرى ماهو أرضى لله تعالى من جهة ، وماهو عليه أقدر من جهة أخرى (فقد يكون على المفضول أقدر منه على الفاضل ، ويحصل له أفضل مما يحصل من الفاضل ، فالأفضل لهذا أن يطلب ماهو أنفع له ، وهو في حقه أفضل ، ولايطلب ماهو أفضل مطلقاً، إذا كان متعذراً في حقه ، أو متعسراً يفوته ماهو أفضل له وأنفع ...فأي عمل كان له أنفع و لله أطوع أفضل في حقه من تكلف عمل لايأتي به على وجهه ، بل على وجه ناقص ، ويفوته به ماهو أنفع له ...) [3].

فمن ينتفع مثلاً بقراءة القرآن ليلاً تدبراً واتعاظاً أكثر من انتفاعه بالصلاة أو بالإكثار منها والتي ربما تثقل عليه ، كان التزامه بالقراءة أفضل له من تكلف صلاة زائدة لاتعود عليه بكبير نفع . ونحو ذلك ... ويمكن أن يستدل على ذلك بعموم قوله صلى ا لله عليه

(١)- انظر : طريق الهجرتين ، ص: ٦٣٣-٦٦١ .

(٢)- انظر : فتح الباري . جـ١ ، ص:٥٦ .

(٣)- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، جـ٧ ، ص:٦٥١-٦٥٢ .

وسلم : ((... احرص علىماينفعك واستعن با لله ولاتعجز ...))[1] .

وأما اختلاف الحال الذي يعمل فيه العمل زماناً أو مكاناً فهو كذلك يؤدي إلى اختلاف عظم الثواب على الأعمال ففي بعض الأمكنة والأزمنة ، يكون ثواب بعض الأعمال أعظم من ثواب أعمال أخر كبلدٍ صارت فيه مجاعة ، أو زمان حصل فيه قحط ، فلاشك أن من أفضل الأعمال عندئذ إطعام الطعام ومواساة الناس . وقد سأل رجل النبي صلى ا لله عليه وسلم :

[أي الإسلام خير ؟. قال : ((تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف .))][2] .

فإذا أريد بالخيرية هنا الخيرية المطلقة على سائر النوافل الأخرى ، فإن ذلك يكون عندما تشتد الحاجة إليها أكثر من غيرها كما جاء في الحديث أنه صلى ا لله عليه وسلم قال أول ماقدم المدينة :

((أيها الناس : أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام وصلّوا والناس نيام تدخلون الجنة بسلام .))[3] .

---

(١)- طرف من حديث رواه مسلم عن أبي هريرة رضي ا لله عنه . وأوله :((المؤمن القوي خير وأحب إلى ا لله من المؤمن الضعيف...)). شرح النووي على مسلم : كتاب : القدر ، باب : الإيمان بالقدر والإذعان له ، جـ١٦ ، ص: ٢١٥ ، (ح:٣٤ حسب المعجم) . وانظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ، جـ٧ ، ص: ٦٥١-٦٥٤ ، جـ١١ ، ص: ٣٩٩-٤٠٠ ، ٦٦٠ .

(٢)- متفق عليه عن عبدا لله بن عمرو رضي ا لله عنهما . واللفظ للبخاري . فتح الباري : كتاب : الإيمان(٢)،باب : إطعام الطعام من الإسلام (٦) ، ح: ١٢ ، جـ١ ، ص: ٥٥ . وانظر : شرح النووي على مسلم : كتاب : الإيمان ، باب : بيان تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل ، جـ٢ ، ص:٩-١٠ ، (ح:٦٥حسب المعجم) .

(٣)- رواه الترمذي عن عبدا لله بن سلام رضي ا لله عنه . عارضه الأحوذي : أبواب : صفة القيامة والرقائق والورع ، باب : (بدون عنوان)،جـ٩ ، ص: ٣٠٠ . وقال الترمذي : هذا حديث صحيح . وانظر في هذا التعليل : شرح النووي على مسلم : جـ٢ ، ص: ١٠ ، ٧٧-٧٨ . وانظر : فتح الباري : جـ١ ، ص:٥٦ .

(فليس الأفضل الأشرف هو الذي ينفع في وقت ، بل الأنفع في كل وقت ما يحتاج إليه العبد في ذلك الوقت وهو فعل ما أمر الله به وترك مانهى الله عنه ، ولهذا يقال : المفضول في مكانه وزمانه أفضل من الفاضل ، إذ دلّ الشرع على أن الصلاة أفضل من القراءة ، والقراءة أفضل من الذكر ، والذكر أفضل من الدعاء فهذا أمر مطلق . وقد تحرم الصلاة في أوقات فتكون القراءة أفضل منها في ذلك الوقت ، والتسبيح في الركوع والسجود هو المأموربه ، والقراءة منهي عنها . ونظائر هذا كثيرة ...)[1].

العامل السابع : التفاضل بين الأزمنة والأمكنة التي يؤدّى فيها العمل :

ففي بعض الأزمنة يكون العمل الصالح فيها أعظم ثواباً من أزمنة أخرى ، لمعنى جعله الله سبحانه فيها بإرادته وحكمته ، وذلك كشهر رمضان الذي يستحبّ فيه الإكثار من الأعمال الصالحة ، قال صلى الله عليه وسلم :

((إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وغلّقت أبواب النار، وصفّدت الشياطين.))[2].

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم أجود الناس إلا أنه كان أجود مايكون في رمضان . فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : [كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس ، وكان أجود مايكون في رمضان ، حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، فلرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة][3].

---

(١)- مجموع فتاوى ابن تيمية ، جـ١٧ ، ص: ١٣٢-١٣٣ . وانظر جـ١١ ، ص: ٣٩٩-٤٠٠.

(٢)- متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه . واللفظ لمسلم . شرح النووي على مسلم : كتاب : الصيام،(الحديث الأول فيه)،جـ٧ ، ص:١٨٦-١٨٧ . وللحديث عدة روايات . وانظر : فتح الباري : كتاب : الصوم (٣٠)،باب : هل يقال : رمضان أو شهر رمضان (٥) ،ح : ١٨٩٩ ، جـ٤ ، ص: ١١٢-١١٣ .

(٣)- متفق عليه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما . واللفظ للبخاري.فتح الباري : كتاب: بدء الوحي (١) ، باب(٥) بدون عنوان،ح:(٦) ، جـ١ ، ص:٣٠ . وانظر : شرح النووي على مسلم : كتاب: الفضائل ، باب: جوده صلى الله عليه وسلم ، جـ١٥ ، ص: ٦٨-٦٩ .

وكان إذا دخل العشر الأواخر من رمضان اجتهد صلى ا لله عليه وسلم في العبادة فيه مالايجتهد في غيره ، وذلك لمافي العبادة في ذلك الوقت من الثواب العظيم ، ولأن فيها ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر : كما قال تعالى :

﴿ **ليلة القدر خير من ألف شهر** (٣) ﴾ القدر .

فالعبادة فيها خير من العبادة في ألف شهر(١) .وعن عائشة رضي ا لله عنها أنها قالت:

[كان رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم إذا دخل العشر أحيى الليل وأيقظ أهله وجدّ وشدّ المئزر .](٢) .

وعنها أيضاً قالت : [كان رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم يجتهد في العشر الأواخر مالا يجتهد في غيره .](٣) .

وقال صلى ا لله عليه وسلم مبيّناً عظيم فضل صيام رمضان على الوجه الأكمل وقيامه كذلك وقيام ليلة القدر بصفة خاصة :

((من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ماتقدم من ذنبه ، ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ماتقدم من ذنبه))(٤) .

وقال صلى ا لله عليه وسلم :

---

(١)- انظر : تفسير ابن كثير ، جـ٤ ، ص: ٥٣٠-٥٣١ .

(٢)- متفق عليه.واللفظ لمسلم ، شرح النووي على مسلم : كتاب : الاعتكاف ، باب: الاجتهاد في العشرة الأواخر من رمضان ، جـ٨ ، ص:٧٠،(ح: ٧ حسب المعجم) . وانظر : فتح الباري : كتاب : فضل ليلة القدر (٣٢)،باب: العمل في العشر الأواخر من رمضان(٥) ، ح:٢٠٢٤ ، جـ٤ ، ص:٢٦٩ .

(٣)- رواه مسلم . شرح النووي على مسلم : كتاب : الاعتكاف ، باب : الاجتهاد في العشر الأواخر من رمضان ، جـ٨ ، ص: ٧٠ .

(٤)- متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي ا لله عنه . واللفظ للبخاري . فتح الباري : كتاب : فضل ليلة القدر (٣٢) ، باب : فضل ليلة القدر(١) ، ح: ٢٠١٤ ، جـ٤ ، ص: ٢٥٥ . وانظر شرح النووي على مسلم : كتاب : صلاة المسافرين وقصرها ، باب: الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح ، جـ٦ ، ص:٤٠-٤١.

((من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ماتقدم من ذنبه .))[1].

والعمرة في رمضان يعظم ثوابها فقد قال صلى ا الله عليه وسلم [لامرأة من الأنصار ، ((ما منعك أن تحجّي معنا)) ؟ قالت : كان لنا ناضح فركبه أبو فلان وابنه-لزوجها وابنها- وترك ناضحاً ننضح عليه . قال : ((فإذا كان رمضان اعتمري فيه ، فإن عمرة في رمضان حجة)).][2].

ومن الأزمنة الفاضلة كذلك العشر الأُول من ذي الحجة فقد ورد في شأنهن حديث عن الرسول صلى ا الله عليه وسلم قال فيه :

[((مامن العمل في أيام أفضل من العمل في عشر ذي الحجة)) . قيل : ولاالجهاد في سبيل ا الله ؟ قال :((ولاالجهاد في سبيل ا الله ، إلا رجل خرج بنفسه وماله ، فلم يرجع بشيء)).][3].

---

(١)- رواه مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي ا الله عنه . شرح النووي على مسلم : كتاب : صلاة المسافرين وقصرها ، باب : الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح ، جـ٦ ، ص:٣٩-٤٠ .

(٢)- متفق عليه عن ابن عباس رضي ا الله عنهما . واللفظ للبخاري . فتح الباري : كتاب العمرة(٢٦) ، باب: عمرة في رمضان(٤)،ح: ١٧٨٢ ، جـ٣ ، ص: ٦٠٣ . وانظر : شرح النووي على مسلم : كتاب : الحج ، باب : فضل العمرة في رمضان ، جـ٩ ، ص :٣ .

(٣)- رواه الدارمي عن ابن عباس رضي ا الله عنهما . سنن الدارمي : كتاب الصوم (٤) ، باب : في فضل العمل في العشر (٥٢)،ح: ١٧٢٢ ، جـ: ١ ، ص: ٤٥١ . ورواه كذلك البخاري في صحيحه بلفظ اختلف فيه رواة الصحيح فبعضهم رواه كما في رواية الدارمي وبعضهم رواه بلفظ : ((ما العمل في أيام العشر أفضل من العمل في هذه ...)) وهذا يقتضي كما قال ابن حجر : أن أيام التشريق أفضل . ولكن أكثر رواة صحيح البخاري وأكثر الروايات الأخرى تقتضي أن العمل في عشر ذي الحجة أفضل . انظر : فتح الباري : كتاب ، العيدين (١٣)،باب : فضل العمل في أيام التشريق (١١)،ح: ٩٦٩ ، جـ: ٢ ، ص:٤٥٧ . وانظر : كلام ابن حجر ص: ٤٥٩ . وسند الدارمي هو سند البخاري إلا شيخ الدارمي المباشر فهو سعيد بن الربيع وهو أيضاً من شيوخ البخاري ومسلم . كما في تقريب التهذيب حرف السين، ترجمة : ١٥٩ ، جـ: ١ ، ص: ٢٩٥ ، وقال عنه ابن حجر : ثقة من صغار التاسعة . والحديث رواه كذلك عن ابن عباس كرواية الدارمي : الترمذي . انظر : عارضة الأحوذي : أبواب الصوم ، باب : ما جاء في العمل في أيام العشر ، جـ: ٣ ، ص: ٢٨٩ . وابن ماجه في سننه ، كتاب : الصيام (٧) باب : صيام العشر(٣٩)،ح: ١٧٢٧ ، جـ: ١ ، ص: ٥٥٠ .وأحمد في المسند:جـ: ١ ، ص: ٢٢٤،٣٣٨-٣٣٩ .

كذلك فإن من الأزمنة الفاضلة جوف الليل . فقد سئل الرسول صلى ا لله عليه وسلم:

[أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة ، وأي الصيام أفضل بعد شهر رمضان ؟ فقال : ((أفضل الصلاة بعد الصلاة المكتوبة : الصلاة في جوف الليل ، وأفضل الصيام بعد شهر رمضان صيام شهر ا لله المحرم))] (١) .

وغير ذلك من الأزمنة . وأما الأمكنة ، وأن منها أمكنة فاضلة يضاعف فيها الثواب ، فمن أشهر ما يدل على ذلك ، ما ورد من مضاعفة الأجر والثواب على الصلاة في الحرمين . قال صلى ا لله عليه وسلم :

((صلاة في مسجدي هذا خيرٌ من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام)) (٢) .

وقال عليه الصلاة والسلام :

((صلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه ، إلا المسجد الحرام . وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه)) (٣) .

---

(١)- رواه مسلم عن أبي هريرة رضي ا لله عنه . شرح النووي على مسلم : كتاب : الصيام ، باب : فضل صوم المحرم ، جـ: ٨ ، ص: ٥٤-٥٥ . عدة روايات .

(٢)- متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي ا لله عنه . واللفظ للبخاري . فتح الباري : كتاب : فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة (٢٠) ، باب : فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة (١)،ح: ١١٩٠ ، جـ: ٣ ، ص: ٦٣ . وانظر : شرح النووي على مسلم : كتاب الحج ، باب : فضل الصلاة بمسجد مكة والمدينة ، جـ: ٩ ، ص: ١٦٣-١٦٥ ، عدة روايات،(ح: ٥٠٥-٥٠٨ حسب المعجم) .

(٣)- رواه ابن ماجه في سننه عن جابر بن عبدا لله رضي ا لله عنهما : كتاب : إقامة الصلاة والسنة فيها(٢٥)،باب : ماجاء في فضل الصلاة في المسجد الحرام ومسجد النبي صلى ا لله عليه وسلم (١٩٥)، ح:١٤٠٦ ، جـ: ١ ، ص: ٤٥١ . وقال المحقق : في الزوائد إسناد حديث جابر صحيح ورجاله ثقات . وكذا صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته:ح: ٣٨٣٨ ، جـ: ٢ ، ص: ٧١٤ . وأما المسجد الأقصى فقد ورد عند ابن ماجه : أن الصلاة فيه كألف صلاة في غيره : الكتاب السابق،باب : ما جاء في الصلاة في مسجد بيت المقدس (١٩٦)،ح: ١٤٠٧ ، جـ: ١ ، ص: ٤٥١ . وقال المحقق : في الزوائد : إسناد طريق ابن ماجه صحيح ورجاله ثقات . وذكر ابن حجر في شرحه للبخاري : فتح الباري:جـ:٣ ، ص: ٦٧ : أن البزار والطبري رويا من حديث أبي الدرداء / رضي ا لله عنه / رفعه : ((الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة . والصلاة في مسجدي بألف صلاة . والصلاة في بيت المقدس بخمسمائة صلاة)) قال البزار : إسناده حسن . اهـ .

العامل الثامن : التفاوت بين الأعمال في عظم المشقّة غير المقصودة لذاتها :

فإذا كانت طبيعة العمل الصالح تقتضي وجود مشقة يلاقيها المرء فكلما ازدادت تلك المشقة ازداد الثواب على ذلك العمل .

وأما قصد المشقّة لذاتها وابتداع أمور فيها أنواع من المشاق يزعم المرء أنه يتقرب بها إلى الباري عزوجل كتحريم الطيبات فهذا أمر غير مشروع بل هو محرم إن كان فيه اعتداء على حدود ا لله بتحريم ما أحلّه . ومثله التعمق والتنطع في الدين كالذي ذمّه الرسول صلى ا لله عليه وسلم فقال :

((هلك المتنطعون)) قالها ثلاثاً [(١)].

وقد أراد الصحابة وصال الصيام كما كان صلى ا لله عليه وسلم يفعله فنهاهم عن ذلك وبيّن لهم أنه يبيت يطعمه ربه ويسقيه صلى ا لله عليه وسلم ، فأبى الصحابة إلا الوصال فواصل بهم ، وشقّ ذلك عليهم ، ولم يقطع الوصال إلا رؤية هلال شوال ، وقال صلى ا لله عليه وسلم :

((ما بال رجال يواصلون ، إنكم لستم مثلي ، أما وا لله لو تمادّ لي الشهر لواصلت وصالاً يدع المتعمقون تعمقهم))[(٢)].

ومثل ذلك كثير من الأمور التي تضرّ بالإنسان من غير فائدة فلا يشرع للمرء قصدها على وجه التعبد لله عزوجل وقد جاء في الحديث [بينما النبي صلى ا لله عليه وسلم يخطب إذ هو برجل قائم فسأل عنه فقالوا : أبو إسرائيل ، نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم ، فقال النبي صلى ا لله عليه وسلم : ((مروه فليجلس ،

---

(١)- رواه مسلم عن عبدا لله بن مسعود رضي ا لله عنه . شرح النووي على مسلم : كتاب : العلم ، باب: النهي عن اتباع متشابه القرآن والتحذير من متبعيه والنهي عن الاختلاف في القرآن ، جـ: ١٦ ، ص: ٢٢٠،(ح: ٢٧ حسب المعجم) . ورواه عن ابن مسعود أحمد في المسند : جـ: ١ ، ص: ٣٨٦ .

(٢)- هذه الرواية أخرجها مسلم عن أنس بن مالك رضي ا لله عنه . شرح النووي على مسلم : كتاب : الصيام ، باب : النهي عن الوصال ، جـ: ٧ ، ص: ٢١٣-٢١٤ . وهناك عدة روايات أخرى له عن ابن عمر وأبي هريرة وأنس وعائشة رضي ا لله عنهم في النهي عن الوصال أخرجها الإمام مسلم في هذا الموضع: جـ: ٧ ، ص: ٢١١-٢١٥ . والحديث عن عبدا لله بن عمر أخرجه البخاري في صحيحه . انظر : فتح الباري:كتاب : الصوم (٣٠)،باب : بركة السحور من غير إيجاب (٢٠)،ح: ١٩٢٢ ، جـ: ٤، ص:١٣٩.

وليستظل ، وليتكلم ، وليتمّ صومه))] [1] .

وورد أيضاً [أن النبي صلى ا لله عليه وسلم رأى شيخاً يهادى بين ابنيه ، قال : ((ما بال هذا ؟)) قالوا : نذر أن يمشي . قال : ((إن ا لله عن تعذيب هذا نفسه لغني)) وأمره أن يركب] [2] .

فالرسول صلى ا لله عليه وسلم قد بيّن في هذين الحديثين عدم مشروعية قصد الإنسان للمشقّة الزائدة ، ولو في عبادة مشروعة أصلاً كالحج مثلاً ظناً منه أن في تلك المشقّة الزائدة التي تناله مزيد تقرب من الباري جلّ وعلا ، فإنه تعالى غني عن مثل تلك المشقة التي فيها تعذيب للنفس بلا فائدة شرعية ثابتة . كذلك بين الرسول صلى ا لله عليه وسلم عدم مشروعية عبادة ا لله عزوجل بأنواع المشقّات غير المشروعة أصلاً كعدم الجلوس والراحة وعدم الاستظلال وعدم التكلم ونحو ذلك .

ولكن العمل الصالح إذا كان مستلزماً لذاته للمشقّة والتعب فعندئذ يكثر ثواب المرء على قدر ما يناله من المشقّة والتعب والنصب . وذلك كالجهاد في سبيل ا لله تعالى الذي يتضمن كثيراً من أنواع المشاق فكلما زادت مشقة المجاهد في سبيل ا لله زاد ثوابه . قال تعالى :

﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول ا لله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ، ذلك بأنهم لايصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل ا لله ولا يطؤون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدوٍ نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إنّ ا لله لايضيع أجر المحسنين (١٢٠) ﴾ التوبة .

وكالحج والعمرة اللذين لابد من مشقة للمرء فيهما كبيرة؛لذا فإن أجره وثوابه يزيد كلما زادت مشقته .

---

(١)- رواه البخاري عن ابن عباس رضي ا لله عنهما . فتح الباري : كتاب : الإيمان والنذور (٨٣) ،باب: النذر فيما لايملك وفي معصية (٣١)،ح: ٦٧٠٤ ، جـ: ١١ ، ص: ٥٨٦ .

(٢)- رواه البخاري عن أنس رضي ا لله عنه . فتح الباري : كتاب : جزاء الصيد (٢٨) ، باب : من نذر المشي إلى الكعبة (٢٧)،ح: ١٨٦٥ ، جـ: ٤ ، ص: ٧٨ .

جاء في الحديث أن عائشة رضي الله عنها قالت : [يا رسول الله ، يصدر الناس بنسكين وأصدر بنسك ؟ فقيل لها : ((انتظري ، فإذا طهرت فاخرجي إلى التنعيم فأهلّي، ثم ائتينا بمكان كذا ، ولكنها على قدر نفقتك أو نصبك))][1] .

أي : الأجر على قدر النفقة أو النصب [2] .

العامل التاسع : التفاضل في مدى أداء العمل على أحسن وجه وأكمله :

وهذا أمر لاشكّ فيه ، إذ كلما بذل المرء جهده في تحسين العمل وإكماله وجعله على أتمّ صورة ازداد ثوابه على ذلك العمل ، وقد يقال بأن الثواب الكامل لعمل حسن ما إنما يُنال إذا أدى المرء ذلك العمل على أكمل وجه ، فإن أنقص شيئاً من ذلك الكمال أنقص من ثوابه .

فعن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه توضأ وضوأً كوضوء النبي صلى الله عليه وسلم وقال :

[... إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ مثل وضوئي هذا ثم قال : ((من توضأ هكذا غفرله ما تقدم من ذنبه ، وكانت صلاته ومشيه إلى المسجد نافلة))].

وفي رواية عنه رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

((ما من مسلم يتطهر فيتم الطهور الذي كتب الله عليه فيصلي هذه الصلوات الخمس إلا كانت كفّارات لما بينها)) .

---

(١)- متفق عليه واللفظ للبخاري . فتح الباري : كتاب العمرة (٢٦)،باب : أجر العمرة على قدر النصب(٨)،ح: ١٧٨٧ ، جـ: ٣ ، ص: ٦١٠ . وانظر : شرح النووي على مسلم : كتاب : الحج ، باب: بيان وجوه الإحرام وأنه يجوز إفراد الحج والتمتع والقران وجواز إدخال الحج على العمرة ومتى يحل القارن من نسكه ، جـ: ٨ ، ص: ١٥٢ ، (ح: ١٢٧ حسب المعجم) .

(٢)- انظر : فتح الباري : جـ: ٣ ، ص: ٦١١ . وعلى ذلك عنون البخاري لهذا الحديث كما في التعليقة السابقة . وانظر : شرح النووي على مسلم : جـ: ٨ ، ص: ١٥٢-١٥٣ .و: مجموع فتاوى ابن تيمية . جـ: ١٠ ، ص: ٦٢٢ . وانظر لما سبق : هذا الموضع من الفتاوى ص: ٦٢٠-٦٢٤ .

وفي رواية عنه كذلك : ((ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوأها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفّارة لما قبلها من الذنوب مالم يأت كبيرة وذلك الدهر كله)) .

وفي رواية عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : ((من توضأ نحو وضوئي هذا ثم صلىّ ركعتين لايحدّث فيهما نفسه غفرله ما تقدم من ذنبه))[١] .

هذا في الوضوء والصلاة أما في العتق فإن أفضله عتق أنفس الرقاب عند أهلها وأكثرها ثمناً ، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال : [سألت النبي صلى الله عليه وسلم : أي العمل أفضل ؟ قال : ((إيمان بالله وجهاد في سبيله)) قلت : فأيّ الرقاب أفضل ؟ قال : ((أعلاها ثمناً وأنفسها عند أهلها))...]الحديث[٢] .

فكلما بذل المرء جهده لكي يكون عمله على أحسن صورة وأكملها وأفضلها ازداد أجره عند الله تعالى . وقد يعمل الرجل عملاً مفضولاً ويؤدّيه على وجهه الأكمل ويعمل آخر عملاً فاضلاً ولكن يفوّت بعض شروطه أولا يؤديه على أحسن صورة فيكون الأول أعظم ثواباً منه[٣] .

العامل العاشر : التفاوت بين الأعمال في مدى الحصول على عائدٍ دنيوي عليها :

فعدم التمكن من نيل شيء من الثواب الدنيوي المشروع المعجّل يجعل الثواب الأخروي كاملاً تاماً قال صلى الله عليه وسلم :

---

(١)- هذه الروايات كلها أخرجها مسلم في صحيحه عن عثمان بن عفان رضي الله عنه . انظر هذه الروايات وغيرها في معناها : شرح النووي على مسلم : كتاب : الطهارة ، باب : صفة الوضوء وكماله وباب فضل الوضوء والصلاة عقبه ، جـ: ٣ ، ص: ١٠٥-١١٧ .

(٢)- متفق عليه واللفظ للبخاري . فتح الباري : كتاب العتق (٤٩) ، باب : أي الرقاب أفضل (٢)، ح:٢٥١٨ ، جـ: ٥ ، ص: ١٤٨ . وانظر : شرح النووي على مسلم : كتاب : الإيمان ، باب : بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال ، جـ: ٢ ، ص: ٧٢-٧٣ ، (ح: ١٣٦ حسب المعجم) .

(٣)- انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية . جـ: ١١ ، ص: ٤٠٠ .

((ما من غازية أو سرية تغزو فتغنم وتسلم إلا كانوا قد تعجلوا ثلثي أجورهم ، وما من غازية أو سرية تخفق أو تصاب إلا تمّ أجورهم)) [(١)].

قال النووي :

(وأما معنى الحديث فالصواب الذي لايجوز غيره أن الغزاة إذا سلموا أو غنموا يكون أجرهم أقل من أجر من لم يسلم ولم يغنم ، وأن الغنيمة هي في مقابلة جزء من أجر غزوهم ، فإذا حصلت لهم فقد تعجلوا ثلثي أجرهم المترتب على الغزو وتكون هذه الغنيمة من جملة الأجر وهذا موافق للأحاديث الصحيحة المشهورة عن الصحابة ...)[(٢)].

العامل الحادي عشر: التفاوت بين العاملين في مدى السبق إلى أداء الأعمال الصالحة :

قال تعالى : ﴿ **ومالكم ألا تنفقوا في سبيل ا لله و لله ميراث السمٰوات والأرض ، لايستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاً وعد ا لله الحسنى وا لله بما تعملون خبير** (١٠) ﴾ الحديد .

فالذين أنفقوا في سبيل ا لله من قبل الفتح إنما كانوا أعظم درجة لكونهم سبقوا إلى الدخول في دين الاسلام ونصرته بالنفس والمال ، وكان سبقهم ذلك في وقت شديد عصيب لأنها كانت بداية الدعوة الربانية الجديدة ، ولم يكن لها من البشر قوة تدافع عنها وتحميها ، بل إنها كانت تُحارب محاربة شديدة منذ أول يوم أعلنت فيه على الملأ من الناس. ولم يكن لها أيضاً من القوة المالية ما يكفي أولئك السابقين في الدخول إليها في معيشتهم الخاصة ، فضلاً عن كفايتها لحمايتهم ونصرتهم .

فلذلك كان المُدّ أو نصيفه من إنفاق السابقين في سبيل ا لله أعظم أجراً من مثل جبل أحد ذهباً ينفقه أحد المؤمنين في سبيل ا لله تعالى بعد استقرار الدين وتمكّنه في الأرض

---

(١)- رواه مسلم عن عبدا لله بن عمر رضي ا لله عنهما . شرح النووي على مسلم ، كتاب : الإمارة ، باب: بيان قدر ثواب من غزا فغنم ومن لم يغنم ،جـ: ١٣ ، ص: ٥١-٥٣ ـروايتان ـ(ح: ١٥٣-١٥٤ حسب المعجم) .

(٢)- شرح النووي على مسلم . جـ: ١٣ ، ص: ٥٢ .

وكثرة جموع أهله . كما قال صلى الله عليه وسلم :

((لاتسبوا أصحابي ، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفهُ))[1] .

العامل الثاني عشر : التفاوت بين الأعمال في مدى ما تحققه من المنافع :

كلما كان العمل الصالح جامعاً بين أكثر من غايةٍ حسنة بحيث يكون نفعه أعظم كان الثواب عليه أكبر . فالإنفاق في سبيل الله قد حثّ عليه الشرع في كثير من النصوص . ولكنّ هذا الإنفاق له درجات متفاضلة في الإثابة عليها ، فأعلى درجاته ما ينفقه المرء – مبتغياً وجه الله تعالى – على نفسه وأهله من النفقة الواجبة فيعفّ نفسه وأهله عن سؤال الناس من جهة ، ومن جهة أخرى فإنه وأهله محتاجون إلى كفايتهم من الطعام والشراب والمسكن ونحو ذلك من ضرورات وحاجيات الحياة ، إضافة إلى مافي إنفاق المرء على نفسه وأهله من أداء لما أوجبه تعالى عليه من النفقة الخاصة . وقد أعتق رجلٌ على عهد النبي صلى الله عليه وسلم عبداً له عن دبر فسأله صلى الله عليه وسلم ((ألك مالٌ غيره)) فقال : لا ، فباع رسول الله صلى الله عليه وسلم العبد ، وأعطاه الثمن وقال له : ((إبدأ بنفسك فتصدق عليها ، فإن فضل شيء فلأهلك ، فإن فضل عن أهلك شيء فلذي قرابتك فإن فضل عن ذي قرابتك شيء فهكذا وهكذا)) يقول : ((فبين يديك وعن يمينك وعن شمالك))[2] .

– وأما عن عظم أجر النفقه على الأهل ، فقال صلى الله عليه وسلم :

---

(١)- متفق عليه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه . واللفظ للبخاري . فتح الباري : كتاب : فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم (٦٢)،باب :قول النبي صلى الله عليه وسلم : ((لو كنت متخذاً خليلاً)) (٥) ، ح: ٣٦٧٣ ، جـ: ٢٧ ، ص: ٢١ . وانظر : شرح النووي على مسلم : كتاب : فضائل الصحابة ، باب : تحريم سبّ الصحابة ، جـ: ١٦ ، ص: ٩٢-٩٣ . وقد جاء عند مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك بعد أن سبّ خالدُ بن الوليد عبدالرحمنَ بن عوف لأمر كان بينهما رضي الله عنهما . وانظر : تفسير ابن كثير:جـ: ٤ ، ص: ٣٠٦ .

(٢)- رواه مسلم عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه . شرح النووي على مسلم :كتاب : الزكاة ، باب : الابتداء في النفقة بالنفس ثم أهله ثم القرابة ، جـ: ٧ ، ص: ٨٢-٨٣ .

((دينارٌ أنفقته في سبيل الله ودينارٌ أنفقته في رقبة ودينار تصدقت به على مسكين ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك))[1].

وطلب أحد الصحابة من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقبل منه حديقة عزيزة عليه فيضعها حيث يشاء ، فأشار عليه صلى الله عليه وسلم أن يجعلها في أقاربه . فعن أنس رضي الله عنه قال :

[لما نزلت ﴿ **لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون** ﴾[2] جاء أبو طلحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ، يقول الله تبارك وتعالى في كتابه : ﴿ **لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون** ﴾ وإن أحب أموالي إلي بيرحاء[3] -قال : وكانت حديقة ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويستظل بها ويشرب من مائها - فهي إلى الله عزوجل وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم أرجو برّه وذخره . فضعها- أيْ يا رسول الله -حيث أراك الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((بخٍ . يا أبا طلحة، ذلك مال رابح قبلناه منك ورددناه عليك ، فاجعله في الأقربين)) فتصدق به أبو طلحة على ذوي رحمه ...][4].

وسألت إحدى الصحابيات الرسول صلى الله عليه وسلم هل تجزئ صدقتها على زوجها وأيتام في حجرها ، فقال صلى الله عليه وسلم : ((نعم ، ولها أجران : أجر

---

(١)- رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه . شرح النووي على مسلم : كتاب : الزكاة ، باب : فضل النفقة على العيال والمملوك وإثم من ضيعهم أوحبس نفقتهم عنهم ، جـ: ٧ ، ص: ٨٢ .

(٢)- آية (٩٢) سورة آل عمران .

(٣)- قال الإمام النووي : اختلفوا في ضبط هذه اللفظة على أوجه . قال القاضي رحمه الله : روينا هذه اللفظة عن شيوخنا بفتح الراء وضمها مع كسر الباء ، وبفتح الباء والراء . قال الباجي : قَرَأْتُ هذه اللفظة على أبي ذر البروي بفتح الراء على كل حال ... قال : وبالرفع قرأناه على شيوخنا بالأندلس . شرح النووي على مسلم . جـ: ٧ ، ص: ٨٤ .

(٤)- متفق عليه من حديث أنس رضي الله عنه . وهذا لفظ البخاري . فتح الباري : كتاب : الوصايا(٥٥)،باب : من تصدق إلى وكيله ثم رد الوكيل إليه (١٧)،ح: ٢٧٥٨ ، جـ: ٥ ، ص: ٣٨٧ . وانظر : شرح النووي على مسلم : كتاب : الزكاة ، باب : فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج والأولاد ...،جـ: ٧ ، ص: ٨٤ .

القرابة وأجر الصدقة))[1].

وأخبرت إحدى أمهات المؤمنين الرسول صلى ا لله عليه وسلم أنها أعتقت جارية لها فقال صلى ا لله عليه وسلم : ((أما إنك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك))[2].

فهذه الأحاديث كلها فيها دلالة ظاهرة على أن الصدقة أو إنفاق المال بصفة عامة إذا ابتُغِيَ به وجه ا لله تعالى يعظم أجره إذا تحقّق فيه أكثر من غاية حسنة ، كسدّ الحاجة وإغناء النفس عن سؤال الآخرين ، أو سدّ حاجة الغير وإغنائه عن سؤال الآخرين ، ووصله القرابة والرحم ونحو ذلك .... .

ولهذا الوجه أيضاً عظم أجر الجهاد في سبيل ا لله تعالى لما يجمعه من غايات متعددة حسنة محبوبة للرب عزوجل ، كنشر الدعوة وهداية الخلق إلى دين ا لله ، وحماية الدين وأهله ، وبذل النفس والمال في سبيل ا لله وكبت أعدائه سبحانه وأعداء المؤمنين ، إلى غير ذلك من غايات حميدة تتحصل من جهاد المرء بنفسه وماله .

العامل الثالث عشر : التفاوت بين الأعمال في مدى ما يترتّب عليها من حسن صلة العبد بربه :

فكلما كان العمل دافعاً لصاحبه إلى ارتباط قلبه وفكره با لله عزوجل ، دائم التذكر له ، كان ذلك العمل أعظم ثواباً من غيره . وأظهر مثال على ذلك : ذكره جل وعلا ، والنصوص التي تبين عظم أجر من يذكره بصفة عامة ، أو بعض الأذكار على وجه الخصوص كثيرة ، منها قول ا لله تعالى :

---

(١)- متفق عليه من حديث زينب امرأة عبدا لله بن مسعود رضي ا لله عنهما.واللفظ للبخاري . فتح الباري : كتاب : الزكاة (٢٤)،باب : الزكاة على الزوج والأيتام في الحجر (٤٨)،ح: ١٤٦٦ ، جـ: ٣ ، ص: ٣٢٨ . وانظر : شرح النووي على مسلم : كتاب : الزكاة ، باب : فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج والأولاد ، جـ: ٧ ، ص: ٨٦-٨٧،(ح: ٤٦ حسب المعجم) .

(٢)- متفق عليه من حديث أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث رضي ا لله عنها . واللفظ للبخاري . فتح الباري : كتاب : الهبة وفضلها والتحريض عليها (٥١)،باب : هبة المرأة لغير زوجها وعتقها إذا كان لها زوج فهو جائز إذا لم تكن سفيهة (١٥) ، ح: ٢٥٩٢ ، جـ: ٥ ، ص: ٢١٧-٢١٨ .وانظر : شرح النووي على مسلم : كتاب : الزكاة ، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج والأولاد ...،جـ:٧، ص: ٨٥-٨٦ ، (ح: ٤٥ حسب المعجم) .

﴿ اتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر ا لله أكبر وا لله يعلم ما تصنعون (٤٥) ﴾ العنكبوت .

قال الإمام ابن كثير رحمه ا لله :

(وتشتمل الصلاة أيضاً على ذكر لله تعالى وهو المطلوب الأكبر ولهذا قال تعالى : ﴿ ولذكر ا لله أكبر ﴾ أي أعظم من الأول ...)[(١)]. وورد عن الرسول صلى ا لله عليه وسلم في فضل الذكر على كثير من الأعمال الصالحة أحاديث عدة منها قوله :

[((ألا أنبّئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخيرلكم من إنفاق الذهب والوَرِق وخيرلكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم))؟ قالوا : بلى . قال : ((ذكر ا لله تعالى)).][(٢)] .

وعن أبي هريرة رضي ا لله عنه قال :

[جاء الفقراء إلى النبي صلى ا لله عليه وسلم فقالوا : ذهب أهل الدثور من الأموال بالدرجات العلى والنعيم المقيم ، يصلّون كما نصلي ويصومون كما نصوم ، ولهم فضلٌ من أموال يحجون بها ويعتمرون ويجاهدون ويتصدقون . قال : ((ألا أحدّثكم بأمرٍ إن أخذتم به أدركتم من سبقكم ، ولم يدرككم أحد بعدكم ، وكنتم خير من أنتم بين ظهرانيه إلا من عمل مثله : تسبحون وتحمدون وتكبرون خلف كل صلاة ثلاثاً

---

(١)- تفسير ابن كثير ، جـ: ٣ ، ص: ٤١٥ . ولقوله ﴿ ولذكر ا لله أكبر ﴾ تفسير آخر مأثور وهو : أن ذكر ا لله سبحانه لعباده أكبر إذا ذكروه من ذكرهم إياه . انظر : تفسير ابن كثير . الموضع السابق .

(٢)- رواه الترمذي عن أبي الدرداء رضي ا لله عنه . عارضة الأحوذي : أبواب الدعوات عن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم ، باب منه (بدون عنوان)،جـ: ١٢ ، ص: ٢٧٠ . ورواه كذلك ابن ماجه في سننه: كتاب: الأدب (٣٣)،باب فضل الذكر (٥٣)،جـ: ٢، ص: ١٢٤٥،ح: ٣٧٩٠ . ورواه الحاكم في مستدركه : كتاب : الدعاء ، جـ: ١ ، ص: ٤٩٦ . وقال: وهذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي . وقد صحح الحديث الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته : ح: ٢٦٢٩ ، جـ: ١ ، ص: ٥١٣ .

وثلاثين))...][1].

وقال صلى الله عليه وسلم :

((من قال لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، في يوم مائة مرة . كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مئة حسنة ، ومحيت عنه مئة سيئة ، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ، ولم يأت أحد أفضل مما جاء به ، إلا أحد عمل أكثر من ذلك ، ومن قال : سبحان الله وبحمده في يوم مئة مرة حطت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر))[2].

ونظراً لهذا الفضل العظيم لذكر الله تعالى ، فإنه عندما سأل أحد الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوصيه بأمر يتشبث به ، إذ إن شرائع الإسلام قد كثرت عليه. قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم موصياً :

((لايزال لسانك رطباً من ذكر الله))[3].

ثم إن الصلاة وهي من أعظم شرائع الإسلام نرى معظمها قائم على ذكر الله تعالى ، وكذا الحجّ كل فعلٍ من أفعاله مقرون بذكره تعالى ، وعلى الرغم من ذلك فقد شرع الإسلام ذكر الله تعالى بعد أداء هاتين الشعيرتين العظيمتين كما سبق بيانه في الحديث

---

(١)- متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . وهذا لفظ البخاري . فتح الباري : كتاب : الأذان (١٠)،باب : الذكر بعد الصلاة (١٥٥)،ح: ٨٤٣ ، جـ: ٢ ، ص: ٣٢٥ . وانظر شرح النووي على مسلم : كتاب : المساجد ومواضع الصلاة ، باب : استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته ، جـ: ٥ ، ص: ٩٢-٩٣،(ح: ١٤٢ حسب المعجم) .

(٢)- متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه واللفظ لمسلم . شرح النووي على مسلم : كتاب : الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب : فضل التهليل والتسبيح والدعاء ، جـ: ١٧ ، ص: ١٦-١٧ . وانظر : فتح الباري : كتاب : بدء الخلق (٥٩)،باب : صفة إبليس وجنوده (١١)،ح: ٣٢٩٣ ، جـ: ٦ ، ص: ٣٣٨-٣٣٩ . ومن قوله : ((من قال سبحان الله وبحمده ...)) إلخ الحديث غير موجود في رواية البخاري .

(٣)- رواه الترمذي عن عبدالله بن بسر رضي الله عنه . عارضة الأحوذي : أبواب الدعوات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، باب : ما جاء في فضل الذكر ، جـ: ١٢ ، ص: ٢٦٩ . وقال الترمذي :===

الذي علّم فيه صلى ا لله عليه وسلم أصحابه أذكاراً يقولونها خلف كل صلاة [1]، ينـالون بها أعظم الدرجات . هذا بالنسبة إلى الصلاة أما الحج فقد قال فيه جل شأنه :

﴿ **فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا ا لله كذكركم آباءكم أو أشدّ ذكراً فمن النـاس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق** (٢٠٠) **ومنهم من يقول ربنا آتنـا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسـنة وقنـا عـذاب النـار** (٢٠١) **أولئـك لـهم نصيـب مما كسبوا وا لله سريع الحساب** (٢٠٢) ﴾ البقرة .

ومن الواضح أنه ليس المقصود مجرد تحريك اللسان بأذكار لايشترك القلب والفكـر في فهمها وتدبرها واستحضار معانيها بل لابد من ذلك كلّه لينال المرء أعظم الثواب .

العامل الرابع عشر : التفاوت بين الأعمال في بعدها عن الرياء :

فكلما كان العمل أبعد عن مظنّة الرياء يعظم أجره وثوابه من أجل ذلـك ، ومـن هنـا كانت صدقة السر أعظم عموماً [2]في الأجر والثواب من صدقة العلانية ، قال تعالى :

﴿ **إن تبدوا الصدقات فنعمّا هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خيرلكم ويكفّـر عنكم من سيئاتكم وا لله بما تعلمون خبير** (٢٧١) ﴾ البقرة .

قال الإمام ابن كثير : (وقوله ﴿ **وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهـو خـيرلكم** ﴾ فيـه دلالة على أن إسرار الصدقة أفضل من إظهارها لأنه أبعد عن الرياء ...)[3].

وقد وردت أحاديث كثيرة في عظم فضل إخفاء الصدقة ، من أقواهـا الحديـث الـذي فيه أن صاحب الصدقة المخفية هو أحد السبعة الذين يظلّهم ا لله تحت ظلـه يـوم لاظـل إلا

= هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه . ورواه كذلـك أحمد . المسند:جـ: ٤ ، ص: ١٨٨،١٩٠ . ورواه أيضاً الحاكم عنه في مستدركه : كتاب : الدعاء ، جـ:١ ، ص: ٤٩٥ . وقال : هذا حديث صحيح الإسـناد ولم يخرجـاه ووافقـه الذهبي . والحديـث صححـه الألبـاني في صحيـح الجـامع الصغـيروزيادتـه: ح[٧٧٠٠]، جـ: ٢ ، ص: ١٢٧٣ .

(١)- انظر ص: ٣٩٠-٣٩١ .

(٢)- قال الإمام ابن كثير : إلا أن يترتب على الإظهار مصلحة راجحة من اقتداء الناس بـه فيكـون أفضـل من هذه الحيثية . تفسير ابن كثير . جـ: ١ ، ص: ٣٢٢ .

(٣)- تفسير ابن كثير . جـ: ١ ، ص: ٣٢٢ .

ظله[1]. إلى غير ذلك من الأحاديث [2].

وهذا العامل أيضاً هو أحد العوامل التي جعلت ثواب الصيام أعظم من ثواب كثير من العبادات ، إذ الصوم سرّ بين المرء وربّه . قال صلى ا لله عليه وسلم :

((كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف . قال ا لله عزوجل : إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به ، يدع شهوته وطعامه من أجلي . للصائم فرحتان فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه . ولخلوف فيه [3] أطيب عند ا لله من ريح المسك)) .

وفي رواية : ((كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به ، والصيام جُنة...))[4].

فقوله ((إلا الصوم فإنه لي)) : ذكر فريق من العلماء أن المراد به كون الصوم من أبعد العبادات عن الرياء [5]. ولهذا فإن في الحديث دلالة واضحة على عظم الثواب على

---

(١)- انظر : الحديث الذي ذكر السبعة الذين يظلهم ا لله تحت ظل عرشه ص: ٤٥٢ .

(٢)- انظر : تفسير ابن كثير . جـ: ١ ، ص: ٣٢٢-٣٢٣ . فقد ذكر فيه عدة أحاديث تدل على عظم ثواب صدقة السر .

(٣)- خلوف فم الصائم : تغير ريح الفم . خَلَف فوه . يَخْلُفُ خُلوفاً وخُلوفة وأخلَفَ تغير . انظر : لسان العرب لابن منظور . مادة خلف ، جـ: ١٠ ، ص: ٤٤١ . وانظر : شرح النووي على مسلم:جـ: ٨ ، ص:٢٩ .

(٤)- متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي ا لله عنه . والروايتان لفظان لمسلم . شرح النووي على مسلم : كتاب : الصيام ، باب : فضل الصيام ، جـ: ٨ ، ص: ٣٠-٣١ ، (ح: ١٦٣-١٦٤ حسب المعجم) . وانظر : فتح الباري : كتاب الصوم (٣٠)،باب : هل يقول إني صائم إذا شتم (٩)،ح:١٩٠٤، جـ: ٤ ، ص: ١١٨ . وانظر : باب فضل الصوم (٢) ، ح: ١٨٩٤ ، جـ: ٤ ، ص: ١٠٣ . وانظر: كتاب : التوحيد(٩٧)،باب : قول ا لله تعالى ﴿ **يريدون أن يبدّلوا كلام ا لله** ﴾ (٣٥)،ح: ٧٤٩٢ ، جـ: ١٣ ، ص: ٤٦٤ . وفي مواضع أخر.... وروايات البخاري فيها اختلاف في بعض الألفاظ عن روايات مسلم . ومعنى جُنّة : أي سترة ومانع من الرفث والآثام ومانع أيضاً من النار ومنه المجن وهو الترس ومنه الجنّ لاستتارهم . انظر : شرح النووي على مسلم . جـ: ٨ ، ص: ١٣٠-١٣١ .

(٥)- انظر : فتح الباري . جـ: ٤ ، ص: ١٠٧ .

الصيام وأنه ليس كالأعمال الأخرى التي يكـون الجـزاء عليهـا علـى قـاعدة الحسـنة بعشـر أمثالـها إلى سبعمائة ضعف ، بل لايعلم مقدار الثواب على الصيام إلا ا لله جل شـأنه [(١)]. بالإضافة إلى كون الصيام جُنّة تحمي صاحبها من النار . وهذا كلـه متوقّـف علـى اسـتيفاء الصيام لشروطه وأدائه بحسب ما شرعه ا لله وأراده .

وقد قال عليه السلام مبيناً عظم فضل الصيام :

((ما من عبدٍ يصوم يومـاً في سـبيل ا لله إلا بـاعد ا لله بذلـك اليـوم وجهـه عـن النـار سبعين خريفاً))[(٢)].

ولعظم فضل الصيام فإنه عندما استشار أحد الصحابة الرسول صلـى ا لله عليـه وسـلم بأمر يأخذه عنه . قال له صلى ا لله عليـه وسـلم ((عليـك بـالصوم فإنـه لامثـل لـه)) وفي رواية : ((فإنه لاعدل له))[(٣)].

العامل الخامس عشر : فضل فعل الأوامر على ترك النواهي :

فإن فعل الأوامر أعظم ثواباً من ترك النواهي ، بإرادة واختيار من التارك المؤمن ابتغـاء وجه ا لله تعالى ، ومسألة التفاضل بين الفعل والترك إثابة وعقاباً والأدلة عليها سيأتي بحثهـا عند ذكر عوامل تفاوت العقاب بإذن ا لله [(٤)].

---

(١)- انظر : المرجع السابق . جـ: ٤ ، ص: ١٠٨ .

(٢)- رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي ا لله عنه . شرح النـووي علـى مسـلم : كتـاب : الصيـام ، باب : فضل الصيام في سبيل ا لله لمن يطيقه بلا ضرر ولا تفويت حق ، جـ: ٨ ، ص: ٣٣ .

(٣)- رواه النسائي عن أبي أمامة الباهلي رضي ا لله عنه . سنن النسائي : كتـاب الصيـام (٢٢) ، بـاب : ذكر الاختلاف على محمد بـن أبـي يعقـوب في حديـث أبـي أمامـة في فضـل الصـائم (٤٣)،ح: ٢٢٢٠ ، والرواية المشار إليها:ح: ٢٢٢٢ ، جـ: ٤ ، ص: ١٦٥،وقد ذكر عدة روايات للحديث . وبيّن ابـن حجـر في فتح الباري : جـ: ٤ ، ص: ١٠٤:أن رواية النسائي سندها صحيح . والحديث رواه أحمد في مسنده عن أبي أمامة : حـ: ٥ ، ص: ٢٤٩، ٢٦٤ . ورواه الحاكم في مستدركه عن أبي أمامة أيضاً في:كتاب الصـوم، جـ: ١ ، ص: ٤٢١ ، وقال هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجـاه ووافقـه الذهـبي . والحديـث صححـه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته:ح(٤٠٤٤)،جـ: ٢ ، ص: ٧٤٧ .

(٤)- انظر ص: ٤٢١ وما بعدها . وانظر : الفوائد لابن قيم الجوزية . ص: ١١٧-١٢٦ .

وبعد ، فهذه بعض عوامل تفاضل مقادير الثواب على الأعمال والمؤدية إلى تفاضل المؤمنين في الدرجات التي ينالونها في الجنة ويبقى وراء ذلك عوامل كثيرة تحتاج إلى بحث واستقصاء يتناول بالدراسة النصوص الشرعية التي تذكر فيها الأعمال الصالحة وما يترتب عليها من ثواب متفاضل ، وهي نصوص كثيرة جداً ، ثم محاولة استنباط عوامل ذلك التفاضل ، وهذا ربما يحتاج إلى بحث مستقل يتناول هذه المسألة بشكل مفصّل ومتكامل .

مجمل طبقات السعداء يوم الدين :

ويتّفق ما قدمناه هنا مع ترتيب طبقات السعداء طبقاً لتفاضل أعمالهم وهو الذي ذهب إليه الإمام ابن قيم الجوزية [١]، تلك الطبقات التي سبقت الإشارة إلى بعضها عند الكلام عن بعض العوامل السابقة . وهي عموماً ثلاث عشرة طبقة :

الثلاثة الأولى : خاصة بالأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام ، فهم قد اصطفاهم الله سبحانه من جملة خلقه ليكونوا الواسطة بينه وبينهم في تبليغ الدعوة ، قال تعالى : ﴿**قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى** ...(٥٩) ﴾ النمل .

وهم أيضاً أكمل الخلق وأحسنهم عملاً ظاهراً و باطناً ، وأي عمل حسن يمكن أن يعمله غيرهم لابد أنهم عليهم السلام قد بلغوا فيه أعلى الدرجات ، إضافة إلى ما يصلهم من الثواب بسبب أي عمل حسن يعمله عبد من أمتهم والذي يساوي فيه ثواب عامله لأنهم عليهم السلام السبب في إيصال الدعوة إليه . مصداقه قوله عليه السلام :

((من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لاينقص ذلك من أجورهم شيئاً ...))[٢] . فإذا كان هذا فيمن يبلغ دعوة الرسول عليه السلام فكيف بالرسول نفسه.

ثم إنّ أعلاهم طبقة هم أولو العزم من الرسل المذكورون في قوله تعالى :

﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب** (١٣) ﴾ الشورى . وأفضلهم خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم .

---

(١)- في كتابه طريق الهجرتين من ص: ٦١٢ وما بعدها .

(٢)- رواه مسلم عن أبي هريرة . وقد سبق تخريج هذا الحديث ص:٣٧٠ ، هامش : (٢) .

ثم يليهم في الطبقة بقية الرسل عليهم السلام ثم الأنبياء الذين لم يثبت لهم وصف الرسالة على الجميع أفضل الصلاة وأتم التسليم [(١)].

الطبقة الرابعة : وهي أولى الطبقات بعد طبقات الأنبياء والمرسلين ، وهي طبقة الصديقين من العلماء والدعاة العاملين بعلمهم . وقد سبقت الإشارة إليها .

الطبقة الخامسة : طبقة أئمة العدل وولاته وسبقت الإشارة إليها .

الطبقة السادسة : طبقة المجاهدين في سبيل الله وسبقت الإشارة إليها .

الطبقة السابعة : طبقة المحسنين إلى الخلق وسبقت الإشارة إليها . [(٢)]

الطبقة الثامنة : وهي طبقة من أدى الفرائض كاملة وزاد عليها من أعمال الخير القاصرة على نفسه كالذكر وقراءة القرآن والصلاة والعمرة والحج ونحو ذلك ، فهذا له من الثواب الشيء العظيم ، إلا أنّ صحيفته تُطوى بعد موته على ماعمله في حياته من خير [(٣)].

الطبقة التاسعة : طبقة من عمل فرائض الله كاملة واجتنب محارمة ، دون أن يزيد على الفرائض شيئاً من أعمال الخير المندوبة ، فهذا من أهل النجاة والفلاح ، كما ورد في الحديث أنه :

[جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل نجد ثائر الرأس يُسمع دويّ صوته ولا يفقه ما يقول ، حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((خمس صلوات في اليوم والليلة)) فقال : هل علي غيرها ؟ قال : ((لا ، إلا أن تطوع)) . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((وصيام رمضان)) قال : هل علي غيره ؟ قال :((لا ، إلا أن تطوع)) قال : وذكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم الزكاة، قال : هل علي غيرها ؟ قال : ((لا ، إلا أن تطوّع)) . قال : فأدبر الرجل وهو يقول :والله لاأزيد على هذا ولا أنقص .قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :((أفلح إن

---

(١)- انظر : طريق الهجرتين ، ص: ٦١٢-٦١٤ .

(٢)- انظر : في هذه الطبقات . طريق الهجرتين ص: ٦١٤-٦٦١ . وما سبق دراسته من عوامل تفاضل الثواب على الأعمال انظر على التوالي ص: ٣٧١، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٦ ..

(٣)- انظر : طريق الهجرتين ص: ٦٦١ .

صدق))] [(١)].

ولايخرج من هذه الطبقة من يعمل السيئات دون الكبائر ، إذ الصغائر مكفرة باجتناب الكبائر . قال تعالى : ﴿ **إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً** (٣١) ﴾ النساء .

كذا لا يخرج من هذه الطبقة من ارتكب كبيره ثم تاب منها توبة نصوحاً ، إذ يصير بتوبته تلك كمن لاذنب له [(٢)].

الطبقة العاشرة : طبقة من أسرف على نفسه بارتكاب الكبائر طوال حياته ، إلا أن الله سبحانه رزقه التوبة النصوح منها قبل مماته ومات على توبة صحيحة ، وهذا القسم ناجٍ من عذاب الله إلا أنه دون الذي قبله ، لأن هذا قد أضاع وقته في طلب ما يضرّه فلو تاب وقبل منه فغايته أنه لاله ولا عليه . بخلاف الذي سبقه ممّن التزم طوال حياته أوامر الله وحدوده [(٣)].

الطبقة الحادية عشرة : طبقة من يأتي الله يوم القيامة بأعمال حسنة وأعمال سيئة من كبائر لم يتب منها ، وزادت عند الوزن حسناته على سيئاته ، فهذه الطبقة أهلها من الناجين الفائزين . قال تعالى : ﴿ **والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون** (٨) ﴾ الأعراف [(٤)].

الطبقة الثانية عشر : طبقة أهل الأعراف وهم الذين تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، وهؤلاء مصيرهم الجنة بفضل الله عزوجل ، بعد أن يحبسوا عنها مدة من الزمن على الأعراف . قال تعالى :

---

(١)- متفق عليه من حديث طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه . واللفظ للبخاري . فتح الباري : كتاب : الإيمان (٢)،باب الزكاة من الإسلام (٣٤)،ح: ٤٦ ، جـ: ١ ، ص: ١٠٦ . وانظر : شرح النووي على مسلم : كتاب الإيمان ، باب : بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام ، جـ: ١ ، ص: ١٦٦ ، (ح:٨ حسب المعجم) .

(٢)- انظر : طريق الهجرتين . ص: ٦٦١-٦٦٢ .

(٣)- انظر : المرجع السابق . ص: ٦٦٢-٦٦٣ .

(٤)- انظر : المرجع السابق . ص: ٦٦٣-٦٦٤ .

﴿ وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم ونـادوا أصحاب الجنة أن سلامٌ عليكـم لم يدخلوهـا وهـم يطمعـون (٤٦) وإذا صرفـت أبصـارهم تلقـاء أصحاب النار قالوا ربنا لاتجعلنـا مـع القـوم الظـالمين (٤٧) ونـادى أصحـاب الأعـراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وماكنتم تستكبرون (٤٨) أهؤلاء الذيـن أقسـمتم لاينـالهم ا لله برحمـة ادخلـوا الجنـة لاخـوف عليكـم ولا أنتـم تحزنون(٤٩)﴾الأعراف [١].

وهؤلاء طبقات أهل الجنة الذين لم يدخلوا النار .

الطبقة الثالثة عشرة :وهي طبقة من عندهم أصل إيمانيٌّ صحيح غير منقوض إلا أنهم عند الوزن زادت سيئاتهم على حسناتهم ،فهؤلاء هم المعرضون لعقاب ا لله جل شأنه .

وإذا عذّبوا عذّبوا على قدر ذنوبهم بعدل ا لله تعالى ، ثم يخرجـون مـن النـار بشـفاعة الشفعاء ويدخلون الجنة برحمته جل وعلا [٢].

ويلاحظ هنا أمور :

الأمر الأول : أن أمة محمد صلى ا لله عليه وسلم هم خير الأمم ، كما قال تعالى :

﴿ **كنتم خير أمةٍ أخرجت للناس ....(١١٠)**﴾ آل عمران .

ثم أفضل أمة محمد صلى ا لله عليه وسلم القرن الأول ، وهـم صحابة الرسول رضـوان ا لله عليهم . قال : صلى ا لله عليه وسلم : ((خير الناس قرنـي ، ثـم الذيـن يلونهـم ، ثـم الذين يلونهم ، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته .))[٣].

---

(١)- انظر : المرجع السابق ص : ٦٦٤-٦٦٩ .

(٢)- انظر : طريق الهجرتين . ص:٦٦٩-٦٧٣ . وقد سبق ذكر الحديث الذي فيه اختلاف المعذبين من أهل الإيمان في المقدار الذي يصيبهم من العذاب . انظر ص:٣٤٤. وقد سبق ذكر طرف من أحاديث الشفاعة انظر ص:٢٦٩ وما بعدها .

(٣)- متفق عليه عن عبدا لله بن مسعود رضي ا لله عنه . واللفظ للبخارى . فتح الباري : كتـاب: فضـائل أصحاب النبي صلى ا لله عليه وسـلم (٦٢) ، بـاب : فضـائل أصحـاب النبي صلـى ا لله عليـه وسـلم ومـن صحب النبي أو رآه فهو من أصحابه (١)،ح: ٣٦٥١ ، جـ٧ ، ص: ٣ . وانظر : شرح النووي على مسلم: كتاب : فضائل الصحابة رضي ا لله تعالى عنهم ، باب : فضـائل الصحابـة ثـم الذيـن يلونهـم ، ثـم الذيـن يلونهم ، جـ١٦ ، ص: ٨٤-٨٦ (عدة روايات) .

وذلك لأنه لو تم استعراض جميع العوامل التي تؤدي إلى نيل الدرجات العلى في الجنة ، فإنه سوف يتبين أن الصحابة رضوان ا لله عليهم هم الأفضل -بصفة عامة- في كل عامل، إيماناً وعملاً وتأثيراً حسناً على من بعدهم إذهم أول الذين قاموا بنشر هذا الدين وتمكينه في الأرض ، فكل عمل صالح وكل علم نافع أتى من بعدهم ، لهم منه حظ ونصيب من الثواب ، لأنهم كانوا سبباً في إيصال هذا الدين من مبلّغه الأول الرسول صلى ا لله عليه وسلم إلى من دخل في هذا الدين ممن أتى بعدهم (١).

الأمر الثاني : أنه لايشترط فيمن كان أعلى درجة في الجنة أن يكون أسبق في الدخول إليها . فقد جاء في الحديث أنه صلى ا لله عليه وسلم قال :

((إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفاً .)) (٢).

وفي رواية قال صلى ا لله عليه وسلم : ((يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفاً)) (٣).

وفي رواية : ((يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم ، وهو خمسمائة عام .)) (٤).

وسبق الفقير المؤمن إما لأنه لايحاسب أو يحاسب حساباً أيسر بكثير من الغني ، ولكن قد يحاسب الغني ويظهر أن حسناته أعظم بكثير من ذلك الفقير ، لأنه اتّقى ا لله جل شأنه فيما وهبه من مال وأنفقه في مراضيه تعالى ، فيكون له نتيجة ذلك من الحسنات ماهو أعظم ، فيكون أعظم درجة في الجنة وإن دخلها متأخراً عن ذلك الفقير . وا لله أعلم .

---

(١)- انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية . جـ١١ ، ص: ٢٢١-٢٢٣ .

(٢)- رواه مسلم عن عبدا لله بن عمر رضي ا لله عنهما . شرح النووي على مسلم : كتاب : الزهد ، جـ١٨ ، ص: ١٠٩-١١٠،(ح: ٣٧ حسب المعجم) .

(٣)- رواه الترمذي عن جابر بن عبدا لله رضي ا لله عنهما . عارضه الأحوذي : أبواب الزهد ، باب :ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم ، جـ٩ ، ص: ٢١٣-٢١٤ . وقال الترمذي : هذا حديث حسن .

(٤)- رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي ا لله عنه . عارضه الأحوذي : أبواب الزهد ، باب : ماجاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم ، جـ٩ ، ص: ٢١٣ . وقال الترمذي : هذا حديث صحيح .

وقد يستدلّ على هذا بالحديث الذي جاء فيه :

[إن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : ذهب أهل الدثور[1] بالدرجات العلى والنعيم المقيم ، فقال : ((وماذاك)) ؟ قالوا : يصلّون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدّقون ولانتصدق ، ويعتقون ولانعتق . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((أفلا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم ، ولايكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ماصنعتم ؟)) قالوا : بلى ، يارسول الله . قال : ((تسبّحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاةٍ ثلاثاً وثلاثين مرة .)). فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ، ففعلوا مثله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء)).][2].

ففي هذا الحديث بيان لعظيم الأجر الذي يناله الغني إن اتقى الله فيما آتاه ، وأنه حريّ بأن يغبطه الفقير على ذلك .

الأمر الثالث : أنه لايمتنع أن يصل المؤمن إلى درجة أعلى من الدرجة التي يستحقها بحسب عمله بما أن الثواب يعود في أساسه الأول إلى فضل الله عز وجل وذلك :

١- إما بالشفاعة وهذه أحد أنواع الشفاعة التي أثبتها أهل السنة [3].

---

(١)- الدثور : هو المال الكثير . انظر : شرح النووي على مسلم:جـ٥ ، ص:٩٢ .

(٢)- متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه . واللفظ لمسلم . شرح النووي على مسلم : كتاب : المساجد ومواضع الصلاة ، باب : استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته ،جـ٥ ، ص: ٩٢-٩٣ . وانظر : فتح الباري : كتاب : الأذان(١٠)،باب : الذكر بعد الصلاة(١٥٥)،ح: ٨٤٣ ، جـ٢ ، ص:٣٢٥، ولم يذكر البخاري رجوع المهاجرين بعد ذلك . وانظر : مجموع فتاوى ابن تيمية . جـ١١ ، ص: ٢١ ، ٦٩، ١١٩-١٢١ ، ١٢٢-١٢٩ . و : عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين،لابن قيم الجوزية،ص: ١٥٠. و: حادي الأرواح،لابن القيم،ص: ١٠٩-١١٠.وكذا ذكر الإمامان ابن تيمية وابن القيم فيما يتعلق بالسبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، فقد يحاسب مؤمن ثم يكون أعلى درجة في الجنة ممن دخلها بغير حساب.مجموع فتاوى ابن تيمية .جـ١١ ، ص:١٢١، ١٢٨،وحادي الأرواح . ص: ١١٠.

(٣)- انظر : النهاية لابن كثير . جـ٢ ، ص: ١٨٣ .

٢-أو بإلحاق الذرية المؤمنة الأقل درجة بالآباء الذين هم أعلى درجة في الجنة[١].

فهذان عاملان من عوامل الوصول إلى بعض الدرجات العلى في الجنة وهما يعودان إلى مجرد فضل ا لله تعالى ، ولاسيما فيما يتعلق بالشخص المجازى نفسه .

٤-أهم العوامل المؤدية إلى تفاوت العقاب :

إن ارتباط شدّة العذاب في نار جهنم ، وارتباط الدركات التي يصير اليها المرء فيها بالأعمال هو أمر يعدّ ظاهراً واضحاً لايحتاج إلى دليل منفصل بعد ما سبق بيان ارتباط أصل العذاب بالعمل [٢].

فإذا كانت دار العذاب لايدخلها الإنسان أصلاً إلا إذا استحق ذلك بعمله وبعدل ا لله تعالى فلأن تكون دركة العذاب فيها وشدته مرتبطة بالعمل من باب أولى ، وفي النصوص الشرعية ما يدل على ذلك منها قوله تعالى :

﴿ أفمن اتّبع رضوان ا لله كمن باء بسخطٍ من ا لله ومأواه جهنم وبئس المصير(١٦٢) **هم درجات عندا لله وا لله بصير بما يعملون** (١٦٣) ﴾ آل عمران .

فإذا كانت هذه الآية -كما سبق بيانه[٣]- تجمع في دلالتها بين كون كل من داري الجزاء على درجات ومراتب متفاوتة من النعيم والعذاب ، فإنّ قوله جل شأنه **﴿وا لله بصير بما يعملون﴾** يشير إلى أن درجات ومراتب كل من الدارين مترتب على مايقدمه الإنسان من عمل ، إذ معناه أنه تبارك اسمه بصير بعمل كل عامل لايخفى عليه شيء منه ، ومن ثم فإنه جلّ شأنه سيضع كل إنسان في الدرجة التي تلائم عمله الذي قدّمه فلايظلم عباده في أي خير قدّموه بل يزيدهم من فضله عليه ، ولايظلمهم بزيادة عذاب فوق استحقاقهم بحسب ماقدّموه ، فهو سبحانه متّصف بالعدل الكامل والبعد عن الظلم لعباده ولو مثقال ذره[٤].

---

(١)- سيأتي بإذن ا لله دراسة مسائل الإلحاق هذه،انظر ص:٥٠٣-٥٠٥، ٥٦٤-٥٦٨ .

(٢)- انظر : ص: ٢٥٤-٢٥٦ ، ٢٥٩-٢٦١ . وانظر شفاء العليل،ص: ٤٢٠-٤٢١ .

(٣)- انظر ص:٣٣٦-٣٣٧ ، ٣٤٢ .

(٤)- انظر : تفسير ابن كثير:جـ١ ، ص: ٤٢٤ .

وقال جل شأنه :

﴿ **أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين** (١٨) **ولكلٍ درجات مما عملوا وليوفّيهم أعمالهم وهم لايظلمون**(١٩) ﴾ الأحقاف .

فهذه الآية المثبتة لدرجات ودركات النار-كما سبق إيضاحه[١]- تدلّ بشكل واضح جلّي على أن درجة العذاب مرتبطة بالعمل السيء الذي قدمه المكلّف ، فبحسبه ينال من العذاب مايقابله ، دون أن يظلم بزيادة لايستحقّها [٢].

وفيما يلي بيان العوامل المؤدية إلى التفاوت في مقادير العذاب المستحقّة ، ومن ثم التفاوت في الدركات التي يصير إليها المعاقب .وسيتبين من خلال الأدلة على كل عامل منها أنها تعود عموماً إلى مايقدّمه الإنسان من عمل سيء ، أي إن في هذه الأدلة مايؤكد حقيقة ارتباط مايصير إليه المعاقب من دركات العذاب بما قدّمه من الأعمال السيئة .

ويمكن استنباط الكثير من عوامل تفاوت العقاب من خلال العوامل التي سبق بيانها عند الكلام عن التفاضل في مقادير الثواب التي ينالها المرء المؤمن ولكن مع قلب الموضوع.

فمن تلك العوامل :

العامل الأول : كون العمل من أعمال القلوب :

إنه بالاستناد إلى ماسبق ذكره في العامل الأول لتفاضل الثواب[٣]يمكن تلخيص أسباب كون أعمال القلوب في باب المعاصي أكثر أهمية من أعمال الجوارح بما يلي :

أولاً : أن الكفر با لله تعالى بأي نوع من أنواع الكفر أصله ومحله القلب ، فهو الذي يرفض الإذعان والاستسلام والتصديق والإقرار ، وإذا رفضت هذه الأمور كان صاحبها كافراً خارجاً عن الملة . ثم إن هذه الأعمال القلبية السيّئة أعظم إثماً من أعمال الجوارح الكفرية المقابلة ، لأنها ترافق المرء في جميع أحواله بينما تكون أعمال الجوارح الكفرية في وقت دون آخر .

---

(١)- انظر ص:٣٤٢-٣٤٣ .

(٢)- انظر : تفسير ابن كثير:جـ٤ ، ص:١٥٩ .

(٣)- انظر ص:٣٤٦ وما بعدها .

إضافة إلى أنه بمجرد وجود ذلك الرفض الكامل في القلب فإن صاحبه يكون قد حرم دار الثواب مطلقاً واستحق الخلود في دار العقاب لأنه يكون عندئذ قد انتفى عنه مطلقاً اسم الإيمان والإسلام على الحقيقة ، وقد قال صلى ا لله عليه وسلم : ((... إن الجنة لايدخلها إلا نفس مسلمة ...))[1].

وقال صلى ا لله عليه وسلم : ((... إنه لايدخل الجنة إلا المؤمنون .))[2].

ثانياً : أن رفض القلب للإذعان والخضوع والاستسلام والإقرار والتصديق يلزم عنه أعمال يقوم بها ذلك القلب من بغض وكراهية واستهزاء واستخفاف وكبر وإعراض وإرادة لمخالفة ومحاربة ماكفربه ...إلخ . وهذا كله يؤدّي إلى فساد القلب ، وفساد القلب فساد للجسد والجوارح ، لأن مافي القلب لابدّ أن يظهر أثره على جوارح الإنسان . قال صلى ا لله عليه وسلم : ((... ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب))[3].

ومهما حاول المنافق إخفاء حقيقة باطنه فلابدّ أن يظهر في سيماه مايدل على حقيقته[4] الداخلية السيئة . قال تعالى :

﴿ ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنّهم في لحن القول وا لله يعلم أعمالكم (٣٠) ﴾ محمد صلى ا لله عليه وسلم .

وأما الأعمال الكفرية الظاهرة على الجوارح ، فهي إنما تكون كفراً حقيقة إذا كانت نابعة عن كفر قائم في القلب ، وذلك مثلاً كالسجود لوثن ، أوسبّ الرسول صلى ا لله عليه وسلم ، أو النطق بأي كلمة من كلمات الكفر ، ونحو ذلك . أما إن لم تكن تلك

---

(١)- متفق عليه عن عبدا لله بن مسعود رضي ا لله عنه . واللفظ للبخاري . وقد سبق تخريج الحديث،انظر ص:٢٨٥ ، هامش : (١) .

(٢)- رواه مسلم عن عمر بن الخطاب رضي ا لله عنه . وقد سبق تخريج الحديث،انظر ص:٢٨٥ ، هامش(٢) .

(٣)- متفق عليه عن النعمان بن بشير واللفظ للبخاري . وقد سبق تخريج الحديث ص ٣٤٨ ، هامش:(١).

(٤)- انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية:جـ١٠ ، ص: ٧٥٩-٧٦٠ .

الحركات الظاهرة نابعة عن كفر قائم في القلب ، بل كان سببها مثلاً خشية صاحبها من أذى يصيبه من كفارٍ هوبينهم مما اضطره إلى النطق بكلام كفري حفاظاً على نفسه فهذا لايعدّكفراً حقيقة إذ لم يصدر عن كفر قائم في القلب قال تعالى : ﴿ **من كفر با لله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من ا لله ولهم عذاب عظيم** (١٠٦) ﴾ النحل .

ثالثاً : أن مايقوم في القلب من أعمال كتكذيب للرسول صلى ا لله عليه وسلم ولدعوته وبغض لهما وحسد واستكبار عن اتّباعه صلى ا لله عليه وسلم ونحو ذلك ، هو أعظم إثماً من أعمال تظهر على الجوارح فيها مخالفة للرسول صلى ا لله عليه وسلم ولما جاء به من عند ربه ، كالقتل والزنا والسرقة وشرب الخمر ونحو ذلك ، فإن قيل إن هذه الأمور ليست أموراً كفرية أجيب بأنها قد تكون كفرية إذا ارتكبها المرء مستحلاً لها ، ثم إن هذه الأمور الظاهرة الكفرية ، كالسجود للأوثان والنطق بالكلمات الكفرية إنما تكون كفراً إذا كانت صادرة عن كفر قائم في القلب .

رابعاً : ومما يدل على عظم أهمية أعمال القلوب السيئة على أعمال الجوارح ، ماورد من العقاب الشديد الذي ينال كُلاً من المنافق والمرائي ، فعلى الرغم من أن ظاهر عمله حسن إلا أنه يتعرض لعقاب شديد لعدم صدوره عن إرادة حسنة صحيحة ، بل عن إرادة سيئة .

قال تعالى في شأن المنافقين :

﴿ **إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً** (١٤٥) ﴾ النساء .

وهذا يعني أن كثيراً من الكفار كفراً ظاهراً هم فوقهم في الدركات .

وأما المراءون في أعمالهم فقد ورد في حقهم من الوعيد الشديد الكثير من النصوص التي سبق ذكرها [(١)] ، والتي منها قوله صلى ا لله عليه وسلم :

((إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما فعلت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت ، قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال جريء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ،

---

(١)- انظر ص: ٣٠٩ وما بعدها .

ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن فأتى به فعرّفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن ، قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : هو قارئ ، فقد قيل ، ثم أمربه فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل وسع الله عليه ، وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتى به فعرّفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : ماتركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال : هو جواد ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار .))[١].

وفي رواية : ((أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة .))[٢].

وغير ذلك من نصوص الوعيد الشديد في حق المرائين ، وهذا الوعيد الشديد سواء للمنافق أو المرائي ربما لم يكن بهذه الشدّة لو أن صاحب النفاق والرياء لم يقم بذلك العمل الحسن أصلاً ، وعوقب على مجرد عدم قيامه به بل ربما لم يتعرض للعقاب أصلاً ، كحالة الذي تعلم العلم وعلمه ليقال عالم فعوقب العقاب الشديد لتصدّره للعلم عن رياء وسمعة .

فهذا يبيّن عظم أهمية أعمال القلوب على أعمال الجوارح الظاهرة فهي إما أن تكون سبباً لشدة العذاب الذي يناله صاحبها ، أو تكون سبباً لعذاب يناله على عملٍ ظاهر لورافقه نيّة حسنة لأثيب عليه .

خامساً : أن العبد إذا أعرض عن معرفة أوامر الله تعالى ونواهيه ، وأعرض عن الالتزام بها ، فإن بداية تلك المعصية من قلبه ، إذ المرء بقلبه يقصد التعلم والامتثال وبقلبه يقصد الابتعاد عن التعلم والامتثال . فالقصد والإرادة محلّهما القلب ، فإذا قصد القلب عدم الامتثال تبعته الجوارح فظهر عليها مخالفة الأوامر ، فبداية العصيان من القلب ، بل هو في الحقيقة العاصي وغيره تبع له في ذلك قال تعالى : ﴿ **فلا صدّق ولا صلّى** (٣١) **ولكن كذب وتولّى** (٣٢) ﴾ القيامة .

---

(١)- رواه مسلم عن أبي هريرة.وقد سبق تخريجه،ص : ٣١٠ ، هامش : (١) .

(٢)- رواها الترمذي عن أبي هريرة.وقد سبق تخريجه،ص : ٣١٠ ، هامش : (٢) .

فالتكذيب وعدم التصديق أمر قد قام في القلب ونتج عنه عدم التزام ظاهري [(١)].

سادساً : أن النّية الجازمة للعمل السيء مع فعل المقدور منه ثم العجز عن إكماله كافيان لأن يجازى المرء عليهما كجزاء من قدر على إتمام الفعل . يدل على ذلك قوله صلى ا لله عليه وسلم :

[((إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار)) فقلت [(٢)]: يا رسول ا لله ، هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : ((إنه كان حريصاً على قتل صاحبه)).] [(٣)].

فهذه بعض الأمور الدالة على عظم أهمية أعمال القلوب السيّئة ، وأن الإنسان يجازى عليها بأعظم مما يجازى على أعمال جوارحه الظاهرة السيئة [(٤)].

ومن أمثلة الأعمال السيئة الباطنة سوء الخلق والذي يمكن اعتباره اسماً جامعاً لسائر الصفات السيئة المستقرة في النفس والتي لها آثار سيئة على السلوك الظاهري [(٥)].

ومما ورد في شأن ذم سوء الخلق قوله صلى ا لله عليه وسلم :

((... وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني في الآخرة مساويكم أخلاقاً الثرثارون المتفيهقون المتشدقون))[(٦)].

---

(١)- انظر : دقائق التفسير لابن تيمية . جـ: ١ ، ص: ٢٣٩ ، ٢٤٢ .

(٢)- هو أبو بكرة رضي ا لله عنه راوي الحديث عن الرسول صلى ا لله عليه وسلم .

(٣)- متفق عليه عن أبي بكرة رضي ا لله عنه ، واللفظان للبخاري . الأول : فتح الباري ، كتاب الإيمان(٢) ، باب : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما** ﴾ تابع للباب (٢) ، ح: ٣١ ، جـ: ١ ، ص: ٨٤-٨٥ . واللفظ الثاني : كتاب الفتن (٩٢)،باب : إذا التقى المسلمان بسيفيهما (١٠)، ح: ٧٠٨٣ ، جـ: ١٣ ، ص: ٣١-٣٢ . وانظر : شرح النووي على مسلم : كتاب : الفتن وأشراط الساعة ، جـ: ١٨ ، ص: ١٠-١١ . والحديث عند مسلم باللفظ الثاني ، وهذه المسألة سيأتي بإذن ا لله مزيد بحث لها ،انظر ص:٦٤٢-٦٥٣ .

(٤)- وهذه الأسباب مستنبطة مما سبق ذكره من الأسباب لكون أعمال القلوب أعظم ثواباً من أعمال الجوارح ، ومن كلام شيخ الاسلام ابن تيمية . انظر : دقائق التفسير . جـ: ١ ، ص: ٢٣٨-٢٤٧ . ومجموع فتاوى ابن تيمية،جـ: ١٠ ، ص: ٧٥٨-٧٦٩ . وانظر : أيضاً المراجع التي سبق ذكرها عند الكلام عن أسباب عظم الثواب على أعمال القلوب ، انظر ص: ٣٤٧-٣٥٠ مع الهوامش .

(٥)- انظر ص: ٣٥١ ، فهذا التعريف لسوء الخلق مستنبط من تعريف حسن الخلق المذكور هناك .

(٦)- رواه أحمد عن أبي ثعلبة الخشني . المسند ، جـ: ٤ ، ص: ١٩٣، ١٩٤ . وانظر : الكلام عن هذه الرواية ص: ٣٥٢ ، هامش : (٢) .

ومن أسوأ الأخلاق الباطنة خلق الكبر ، قال صلى ا لله عليه وسلم :

[((لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر)) قال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ، ونعله حسنة . قال : ((إن ا لله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس))][1] .

وهذا وعيد شديد في حق المتكبرين ، أن لايدخل الجنة أحدٌ وفي قلبه مثقال ذرة من كبر فما بال من كان خلقه الدائم والمتأصل فيه هو الكبر .

كذلك من الأخلاق السيئة خلق الفحش ، وقد قال صلى ا لله عليه وسلم :

((إن شر الناس منزلة عند ا لله من تركه – أو ودعه – الناس اتقاء فحشه))[2] .

العامل الثاني : التفاوت بين الأعمال القلبية الباطنة :

وسواء كان ذلك في النوع الواحد من أعمال القلوب أم في الأنواع المتعددة ، فإن أعمال القلوب السيئة تتفاوت في درجة سوئها تفاوتاً عظيماً . ولاشك أن أعظمها سوءاً هو العمل الذي يخلد صاحبه بسببه في دار العذاب وهو الكفر ، فهو أعظم مثلاً من الغل والحقد والحسد والغش ونحو ذلك من أعمال القلوب السيئة التي لو مات صاحبها على أصل إيماني صحيح غير منقوض فإن مآله دار النعيم وإن عُذّب عليها قبل ذلك .

ثم إن الكفر كذلك على درجات متفاوتة فأعظمه شرك التعطيل ، والمؤدي إلى إنكار الخالق جل وعلا بالكلّية ، ومن أنواع شرك التعطيل جعل المخلوق والخالق واحداً كقول أهل وحدة الوجود ، وكذلك سلب الرب وتعطيله عن جميع ما يجب له من صفات وأسماء ونعوت الجلال والكمال ، ومنه إسناد الربوبية العظمى إلى غير ا لله جل شأنه كشمس أو قمر ونحو ذلك .

---

(١)- رواه مسلم عن عبدا لله بن مسعود رضي ا لله عنه . شرح النووي على مسلم ، كتاب : الإيمان ، باب : تحريم الكبر وبيانه ، جـ: ٢ ، ص: ٨٨-٨٩ ، (ح: ١٤٧ حسب المعجم) .

(٢)- متفق عليه من حديث عائشة أم المؤمنين رضي ا لله عنها . وهذا لفظ البخاري . فتح الباري : كتاب: الأدب (٧٨) ، باب : المداراة مع الناس (٨٢) ، ح: ٦١٣١ ، جـ: ١٠ ، ص: ٥٢٨ . وانظر : شرح النووي على مسلم : كتاب : البر والصلة والآداب ، باب : مداراة من يتقى فحشه ، جـ: ١٦ ، ص: ١٤٣-١٤٤ ، (ح: ٧٣ حسب المعجم) .

ويلي هذه الأنواع من شرك التعطيل شرك من جعل مع ا لله إلـها آخر كشرك النصارى وعبّاد الأوثان ونحوهم[١].

وقد بيّن العلماء أن كلاً من الكفر والشرك والفسق والظلم والنفاق ينقسم إلى ناقلٍ عن الملة وغير ناقل [٢]. وأصل هذه الأمور كلها محله القلب .

وبعبارة أخرى فإن المكلف قد تكون فيه شعبة من شعب الكفر أو النفاق ونحو ذلك ولا يخرج بتلك الشعبة عن كونه من أهل الملّة [٣].

فالكفر يكون ناقلاً عن الملة إن كان كفراً بأصل الإيمان ، كما قال تعالى :

﴿ ...ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين (٥)﴾المائدة .

ولايكون ناقلاً عن الملة إن أطلق على بعض الذنوب العملية التي ترتكب من غير استحلال لـها كما قال صلى ا لله عليه وسلم : ((سباب المسلم فسوق وقتاله كفر))[٤].

وقال صلى ا لله عليه وسلم أيضاً : ((اثنتان في الناس هما بهم كفر : الطعن في النسب ، والنياحة على الميت)) [٥].

وكقوله تعالى : ﴿ ...ومن لم يحكم بما أنزل ا لله فأولئك هم الكافرون(٤٤)﴾المائدة .

والحكم بما أنزل ا لله قد يكون كفراً أكبر إن اعتقد الحاكم عدم وجوب الحكم بما أنزل ا لله أو استهان به ونحو ذلك ، ويكون كفراً أصغر إن اعتقد الوجوب لكنه عدل في القضية المعينة عن الحكم بما أنزل ا لله لرشوةٍ نالـها أو نحو ذلك مع إقراره القلبي بأنه عاصٍ لله سبحانه . وهكذا ما سبق في النصوص من الذنوب العملية [٦].

إذاً : فالأمر يعود إلى ماقام في القلب من درجة العصيان ، فآدم عليه السلام عصى ربه ، قال جل شأنه : ﴿ ... وعصى آدم ربه فغوى (١٢١) ﴾ طه .

---

(١)- انظر : الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي،لابن قيم الجوزية،ص: ١٩٣-١٩٥ . ومجموع فتاوى ابن تيمية جـ: ١١ ، ص: ١٨٥ ، ١٨٦ . و: طريق الهجرتين،ص: ٧١٠-٧١١ .

(٢)- انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية . جـ: ٧ ، ص: ٣١٢ ، ٣٢٦-٣٢٩ ، ٣٥٠-٣٥١ ، ٥٢٤ .

(٣)- انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية . جـ: ٧ ، ص: ٣٥٠ .

(٤)- متفق عليه عن عبدا لله بن مسعود رضي ا لله عنه . انظر تخريجه ص : ١٧٦ ، هامش : (٢) .

(٥)- رواه مسلم عن أبي هريرة رضي ا لله عنه . انظر تخريجه ص : ١٧٧ ، هامش : (١) .

(٦)- انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص : ٣٥٩-٣٦٤ .

والشيطان عاصٍ للرب تعالى كما قال في كتابه حكاية عن إبراهيم عليه السلام :

﴿ **يا أبت لاتعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً** (٤٤) ﴾ مريم .

وشتان بين عصيان آدم عليه السلام ، وعصيان إبليس عليه اللعنة .

والشرك الأكبر المحبط لجميع الأعمال ، أدناه-كما سبق-الإشراك با لله سبحانه في العبادة . قال تعالى : ﴿ **ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين** (٦٥) ﴾ الزمر .

وأما الشرك الأصغر فكالرياء الذي لايحبط من الأعمال إلا مارافقها قال صلى ا لله عليه وسلم :

[((إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر)) . قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول ا لله ؟ قال : ((الرياء))]الحديث [(١)].

والفسق منه فسق أكبر ناقل عن الملة كالكفر الأكبر ، قال تعالى : ﴿ ... **ومن يكفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون** (٥٥) ﴾ النور .

ومنه فسق أصغر يوصف به المرء على أمور من الذنوب لاتنقل عن الملة ، كما قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولانساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون** (١١) ﴾ الحجرات .

فمن ارتكب شيئاً من هذه الأمور واستحق أن يطلق عليه اسم الفسوق فلا يعني ذلك أنه قد خرج عن الملة ، بل هو فسوق لاينقض أصل الإيمان مادام أن العاصي لم يستحل هذه الأمور .

والظلم يطلق على الأمور التي تخرج عن ملة الإسلام بالكلية كالشرك الأكبر . كما قال تعالى : ﴿ **وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لاتشرك با لله إن الشرك لظلم عظيم** (١٣) ﴾ لقمان . وعندما نزل قوله تعالى : ﴿ **الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون** (٨٢) ﴾ الأنعام .

---

(١)- رواه الإمام أحمد عن محمود بن لبيد . وقد سبق تخريجه ص:٣٠٨ ، هامش : (١) .

قال الصحابة للرسول صلى ا لله عليه وسلم : [يا رسول ا لله ، أينُّا لايظلم نفسه ؟ قال : ((ليس كما تقولون ، ﴿ **لم يلبسوا إيمانهم بظلم** ﴾ : بشرك ، أو لم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه : ﴿ **يابني لاتشرك با لله إن الشرك لظلم عظيم** ﴾)).][1].

ويطلق الظلم على مالا يخرج عن الملّة ، كالذنوب والمعاصي العملية ، التي ترتكب من غير استحلال لها ، قال تعالى : ﴿**وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه...**(٢٣١) ﴾ البقرة .

والنفاق يطلق ويراد به النفاق الأكبر الذي يكون صاحبه مخلّداً بسببه في النار ، بل وفي الدرك الأسفل منها كما قال تعالى : ﴿ **إنّ المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً** (١٤٥) ﴾ النساء .

وقد يطلق النفاق على من وجد فيه شعبة من شعب النفاق فيكون نفاقاً أصغر . كما قال صلى ا لله عليه وسلم : ((أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا ائتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر))[2].

العامل الثالث : تفاوت الأعمال الظاهرة بتفاوت ما يرافقها مما يوافقها من الأعمال القلبية الباطنة :

فمثلاً هناك فرق كبير بين من يرتكب ذنباً وهو خائف من ا لله جل شأنه وبين من يرتكب ذنباً وهو لاهٍ غافل لا يراقب ا لله تعالى ، بل قد يكون أحد الذنبين – من حيث

---

(١)- متفق عليه من حديث عبدا لله بن مسعود رضي ا لله عنه ، واللفظ للبخاري . فتح الباري ، كتاب الأنبياء (٦٠)،باب : قول ا لله تعالى : ﴿ **واتخذ ا لله ابراهيم خليلاً** ...(١٦٥) ﴾ النساء ، ح: ٣٣٦٠ ، جـ: ٦ ، ص: ٣٨٩ . وانظر : شرح النووي على مسلم : كتاب : الإيمان ، باب : صدق الإيمان وإخلاصه ، جـ: ٢ ، ص: ١٤٢-١٤٣ ، (ح: ١٩٧حسب المعجم) .

(٢)- متفق عليه عن عبدا لله بن عمرو رضي ا لله عنهما . واللفظ للبخاري . وقد سبق تخريجه ص: ١٧٧، هامش : (٣) . وانظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ، جـ: ٧ ، ص: ٥٢٤ .

ذاته – أعظم إثماً من الآخر ، ولكن يرافق هذا الذنب الأقل إثماً أعمال قلبية تجعل وزره أغلظ [(١)].

وكذلك هناك فرق كبير بين من يرتكب ذنباً وهو مستحل له فيصل عندئذ إلى درجة الكفر المخرج عن الملة ، وبين من يرتكب نفس الذنب أو أعظم منه ، ولكنه مقر ومعترف بأنه مخطئ عاصٍ لله سبحانه .

وحتى الكفر يتغلظ بما يرافقه من الإصرار على العناد بعد بيان الحق ، وذلك ككفر من تبين له صدق الرسول بالآيات والأدلة ثم أصر عناداً منه على ضلاله وكفره ، فكفر من كان هذا حاله أعظم من كفر من لم يتبين له الحق ، وظل على كفره اتباعاً وتقليداً .
وكفر العناد بعد بيان الحق ككفر فرعون والملأ من قومه ، قال تعالى في شأنهم :

﴿ **وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين(١٤)** ﴾ النمل .

ولذلك فإن فرعون وآله يدخلون يوم القيامة أشد العذاب ، كما قال تعالى :

﴿ ... **ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب** (٤٦) ﴾ غافر .

وككفر اليهود الذين عرفوا الرسول صلى الله عليه وسلم كما عرفوا أبناءهم . قال تعالى : ﴿ **ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين (٨٩) بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباؤوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين (٩٠)** ﴾ البقرة [(٢)].

وهكذا غالبية أئمة الكفر وقادته يتبين لهم الحق في قرارة أنفسهم ولكنهم مع ذلك يصرّون على كفرهم عناداً بل ويحاربون الدين الحق وأهله . وأما كفر التقليد والاتباع فهو كالموجود عند جهال الكفرة السائرين على طريقة أئمة الكفر ورؤسائه دون علم ومعرفة ، وليسوا محاربين للإسلام وأهله، بل هم مجانبون ومتاركون لهم ، وهؤلاء كنساء الكفار وخدمهم وأتباعهم ، وهم لايعفيهم كونهم مقلّدين لغيرهم من مسؤولية ماهم عليه من

---

(١)- انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ، جـ: ١١ ، ص: ٦٥٩-٦٦٠ .

(٢)- انظر : طريق الهجرتين ، لابن قيم الجوزية ، ص: ٧١١ .

الكفر ، بل يثبت في حقهم حكم الكفر ويعاقبون معاقبة الكفار ولكن دون درجة المحاربين للإسلام وأهله . قال تعالى :

﴿ **وإذ يتحاجّون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنّا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار** (٤٧) **قال الذين استكبروا إنا كلٌّ فيها إن ا لله قد حكم بين العباد** (٤٨) ﴾ غافر [١].

العامل الرابع : تفاوت الذنوب في درجة عظمها :

لقد سبق عند الكلام عن عوامل تفاضل الإثابة على الأعمال [٢]، بيان أن الأعمال المختلفة متفاوتة من حيث الثواب والعقاب عليها ، وأن الراجح أن ذلك راجع إلى التفاوت في ذات الإيجاب والتحريم ، كما هو راجع إلى التفاوت في المتعلق بالإيجاب والتحريم من الثواب والعقاب . إذاً ، فالمنهيات على درجات متفاوتة ، فبعض المنهي عنه أشد تحريماً من بعض ، ومن هنا كانت الذنوب الكبائر والصغائر ، التي دلّ عليها قوله تعالى :

﴿ **إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفّر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً**(٣١)﴾ النساء .

وقوله جل شأنه : ﴿ **الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللَّمم**[٣] **إن ربك واسع المغفرة ....** (٣٢) ﴾ النجم .

وقوله صلى ا لله عليه وسلم : ((الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر))[٤].

وقد ذهب بعضهم إلى أن الذنوب كلها كبائر بالنسبة إلى مافيها من الجرأة على ا لله تعالى ومعصيته ومخالفة أمره ، وعظم حقه الذي انتهك بارتكاب ذلك الذنب ، والذنوب

---

(١)- انظر : طريق الهجرتين . ص: ٧١٢-٧١٤ .

(٢)- انظر : ص: ٣٦٨ .

(٣)- اللمم : صغائر الذنوب . انظر : تفسير فتح القدير ، جـ: ٥ ، ص: ١١٣ .

(٤)- رواه مسلم عن أبي هريرة رضي ا لله عنه . شرح النووي على مسلم : كتاب : الطهارة ، باب : فضل الوضوء والصلاة عقبه ، جـ: ٣ ، ص: ١١٧-١١٨ ، (ح: ١٦ حسب المعجم) .

كلها متساوية من هذه الحيثية .

وقد رُدّ على هذا ، بأنه مخالف لدلالات الكتاب والسنة التي سبق بيان بعض أدلتها [(١)].

وأيضاً فإن أعظم أمر تدعو إليه جميع الرسالات الربانية وتنهى عن ضده هو : الأمر بعبادة الله وحده واجتناب الشرك قال تعالى :

﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لاإله إلا أنا فاعبدون**(٢٥)﴾الأنبياء .

فالتوحيد والشرك نقيضان متقابلان ، التوحيد أعظم مأمور به ، والشرك أعظم منهي عنه ، ومن ثم فما كان من الأمر أشدّ تحقيقاً لمقتضى التوحيد كان من أوجب الواجبات وأعظمها ، وما كان من النواهي أشد منافاةً للتوحيد وموافقة للشرك كان من أكبر الكبائر وأعظم المحرمات [(٢)].

وقد عرفت الكبائر تعريفات عدة أرجحها :

أنها ما ترتب عليه حدّ في الدنيا أو توعّد عليه بالنار أو اللّعنة أو الغضب . أما الصغيرة فهي ما دون الحدّين ، حد الدنيا وحد الآخرة [(٣)]. ومن أكبر الكبائر ، تلك التي صرح بأنها كذلك .

ومن النصوص المصرحة بذلك قوله صلى الله عليه وسلم : [((ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟)) قلنا : بلى ، يا رسول الله . قال ثلاثاً : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان متكئاً فجلس فقال : ((ألا وقول الزور ، وشهادة الزور . ألا وقول الزور وشهادة الزور)) فمازال يقولها ، حتى قلت : لايسكت .] [(٤)].

---

(١)- انظر : شرح النووي على مسلم جـ:٢، ص: ٨٤-٨٥ . و مجموع فتاوى ابن تيمية ، جـ: ١١ ، ص: ٦٥٦-٦٥٧ .

(٢)- انظر : الجواب الكافي لابن قيم الجوزية ، ص: ١٩٠-١٩١ .

(٣)- انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ، جـ: ١١ ، ص: ٦٥٠-٦٥١ .و: الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي،ص: ١٨٨-١٨٩ . وشرح العقيدة الطحاوية،ص: ٤١٨ .

(٤)- متفق عليه عن أبي بكرة رضي الله عنه واللفظ للبخاري . فتح الباري : كتاب : الأدب (٧٨)، باب: عقوق الوالدين من الكبائر (٦)،ح: ٥٩٧٦ ، جـ: ١٠ ، ص: ٤٠٥ . وانظر : شرح النووي على مسلم : كتاب : الإيمان ، باب : الكبائر وأكبرها ، جـ: ٢ ، ص: ٨١-٨٢ ، (ح: ١٤٣ حسب المعجم).

وقوله صلى الله عليه وسلم : [((اجتنبوا السبع الموبقات)) قالوا : يا رسول الله ، وما هن ؟ قال : ((الشرك بالله والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات)) .] [(١)] .

وسأل رجل الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : [يا رسول الله ، أي الذنب أكبر عند الله ؟ قال : ((أن تدعو لله نداً وهو خلقك)) . قال : ثم أي ؟ قال : ((ثم أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك)) قال : ثم أي ؟ قال : ((ثم أن تزاني حليلة جارك)) .] [(٢)] . إلى غير ذلك من الأحاديث .

العامل الخامس : إذا تعدى أثر العمل السيء صاحبه إلى الآخرين :

وهذا له صور متعددة ، فمن ذلك : من يدعو إلى ضلال أو يسنّ بدعة ، فهذا عليه وزر ما هو عليه من ضلالةٍ وبدعةٍ سيئة ، ويلحقه أيضاً أوزار مثل أوزار من اتبعه على ضلالته تلك من غير أن ينقص ذلك شيئاً من مسؤولية الأتباع عما ارتكبوه من ذنوب . قال صلى الله عليه وسلم :

((... ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لاينقص ذلك من آثامهم شيئاً)) [(٣)] .

---

(١)- متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه . واللفظ للبخاري . فتح الباري ، كتاب : الحدود (٨٦) ، باب : رمي المحصنات (٤٤) ، ح: ٦٨٥٧ ، جـ: ١٢ ، ص: ١٨١ . وانظر شرح النووي على مسلم ، كتاب : الإيمان ، باب : الكبائر وأكبرها ، جـ: ٢ ، ص: ٨٢-٨٣ .

(٢)- متفق عليه عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ، واللفظ للبخاري ، فتح الباري ، كتاب : الديات(٨٧)،باب : قول الله تعالى : ﴿ **ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم** ﴾ (١) ، ح: ٦٨٦١ ، جـ: ١٢ ، ص: ١٨٧ . وانظر : شرح النووي على مسلم ، كتاب : الإيمان ، باب : بيان كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده ، جـ: ٢ ، ص: ٨٠،(ح: ١٤٢ حسب المعجم).وللحديث تتمه هي : [فأنزل الله تصديقها : ﴿ **والذين لايدعون مع الله إلهاً آخر ولايقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولايزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً** ﴾]آية : ٦٨ من سورة الفرقان .

(٣)- هذا طرف من حديث رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه . وقد سبق الاستشهاد بالقسم الأول من هذا الحديث وتخريجه ص:٣٧٠ ، هامش : (٢) . وأول الحديث : ((من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لاينقص ذلك من أجورهم شيئاً ...)) .

وقال صلى الله عليه وسلم : ((لاتقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل)) [1].

ومن صوره أيضاً : أئمة الكفر ورؤساؤه الذين يصدون عباد الله عن الدخول في الدين الصحيح رغبة ورهبة ، ويحملونهم على متابعتهم على ماهم عليه من كفر وضلال . قال تعالى : ﴿ **الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون** (٨٨) ﴾ النحل .

وقال جل شأنه : ﴿ **ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلّونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون** (٢٥) ﴾ النحل [2].

ومن هذا يتبين عظم مسؤولية من كان له وجاهة عند الناس ورئاسة ونحو ذلك ، فإنه ربما يعمل عملاً سيئاً ولايكون قصده حمل الناس عليه ، ولكن نظراً لمركزه بين الناس فإنهم يتبعونه ويقتدون به ، في القيام بذلك العمل السيء ، فيلحقه من الإثم بقدر من اتبعه على عمله السيء الذي قام به .

والدليل على ذلك قصة ابن آدم الأول ، فإنه لم يدر في خلده أن يكون قدوة للناس في القتل ، عندما عزم على قتل أخيه ، ولكنه على الرغم من ذلك عندما قتل أخاه ، وكان أول من سن القتل لحقه من الإثم بقدر من اتبعه على ضلالته تلك .

ومن صور تعدي الأثر السيء ، ما يكون من العدوان الظالم على الناس سواء في أنفسهم أو أعراضهم أو أموالهم ونحو ذلك من العدوان . قال تعالى في حق من قتل مؤمناً متعمداً ظلماً وعدواناً :

---

(١)- متفق عليه عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه . واللفظ للبخاري : فتح الباري ، كتاب : أحاديث الأنبياء (٦٠) ، باب : خلق آدم وذريته (١) ، ح: ٣٣٣٥ ، جـ: ٦ ، ص: ٣٦٤ . وانظر : شرح النووي على مسلم : كتاب : القسامة ، باب : بيان إثم من سن القتل ، جـ: ١١ ، ص: ١٦٥-١٦٦،(ح:٢٧ حسب المعجم) .

(٢)- سيأتي مزيد بيان لمسألة مسؤولية الإنسان عن آثار عمله ، انظر ص:٥٥٥ وما بعدها . وانظر : طريق الهجرتين ص: ٧٠٩-٧١١ .

﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب ا لله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً (٩٣) ﴾ النساء .

بل قتل الإنسان غير المؤمن إن كان معاهداً ورِد فيه من الوعيد الشديد ما دل عليه قوله صلى ا لله عليه وسلم : ((من قتل معاهداً لم يَرَح رائحة الجنة ، وإنّ ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً))[١].

وقال جل شأنه في حق آكلي أموال اليتامى ظلماً :

﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً (١٠) ﴾ النساء .

وقال صلى ا لله عليه وسلم في حق من يعذب الناس في الدنيا بغير حق :

((إن أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة أشد الناس عذاباً للناس في الدنيا))[٢].

كذلك فقد ورد الوعيد الشديد في حق الإمام الغاش لرعيته ، وذلك لعظم ضرره وشموله الكثير من الناس ، قال صلى ا لله عليه وسلم : ((ما من عبد يسترعيه ا لله رعية

---

(١)- رواه البخاري عن عبدا لله بن عمرو رضي ا لله عنهما . فتح الباري ، كتاب : الجزية والموادعة (٥٨)، باب : إثم من قتل معاهداً بغير جرم (٥) ، ح: ٣١٦٦ ، جـ: ٦ ، ص: ٢٦٩-٢٧٠ . وقال ابن حجر ص:٢٧٠ : (قوله : ((لم يَرَح)) بفتح الياء والراء وأصله يراح أي وجد الريح . وحكى ابن التين ضم أوله وكسر الراء ، قال : والأول أجود ، وعليه الأكثر ، وحكى ابن الجوزي ثالثة ، وهو : فتح أوله وكسر ثانيه من راح يريح . وا لله أعلم .) اهـ .

(٢)- رواه أحمد بسنده عن خالد بن الوليد رضي ا لله عنه . المسند ، جـ: ٤ ، ص: ٩٠ . وكذلك أبو بكر الحميدي في مسنده (بتحقيق الأعظمي)، جـ: ١ ، ص: ٢٥٥-٢٥٦ ، ح: ٥٦٢ .وروى نحوه أحمد في مسنده:جـ: ٣ ، ص: ٤٠٣-٤٠٤:عن هشام بن حكيم وعياض بن غنيم في حديث له قصة ، بلفظ : ((إن من أشد الناس عذاباً أشدهم عذاباً في الدنيا للناس)) . والحديث بمجموع رواياته صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته:ح: ٩٩٨ ،جـ: ١ ، ص: ٢٣٢ . وقد أخرج مسلم في صحيحه عن هشام بن حكيم بن حزام قال : أما إني سمعت رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم يقول : ((إن ا لله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا)). شرح النووي على مسلم : كتاب : البر والصلة والآداب ، باب : الوعيد الشديد لمن عذب الناس بغير حق ، جـ: ١٦ ، ص: ١٦٧-١٦٨ . عدة روايات . وأخرجه عنه أحمد أيضاً. المسند : جـ: ٣ ، ص: ٤٠٣-٤٠٤.عدة روايات .

يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم ا لله عليه الجنة))[1].

ومن أعظم الأعمال ضرراً على المسلمين النفاق ، فإن بلية المنافقين على الجماعة الإسلامية أعظم بكثير جداً من بلية أعتى الكفار المجاهرين بكفرهم ، وذلك لأن الكافر المجاهر ، واضح كفره يمكن للجماعة الإسلامية أن تتقي خطره بالكثير من الوسائل ، أما المنافقون فهم داخلون ضمن الجماعة ، لايعلمهم الكثير من الناس بل قد لايعلمهم أحد ، فهم يبثون الوهن والضعف في بناء الجماعة ، ويثيرون الشائعات الكاذبة ، ويدفعون المسلمين إلى أمور يحصل لهم منها أعظم المصائب والنكبات ، وهم أعين للأعداء المجاهرين يدلونهم على مواضع العورات ، ويشيرون عليهم بأكثر الطرق المؤدية إلى إلحاق أعظم الضرر بالمسلمين،فهم باختصار من أعظم المفسدين في الأرض ، قال تعالى عن المنافقين : ﴿ **ألا إنهم هم المفسدون ولكن لايشعرون** (١٢) ﴾ البقرة .

ولذلك فهم أعظم الناس عداوة للمسلمين . قال تعالى : ﴿ **...هم العدوّ فاحذرهم قاتلهم ا لله أنى يؤفكون** (٤) ﴾ المنافقون .

ونظراً لعظيم خطرهم وضررهم على المسلمين استحقوا أن يكونوا في أعظم عذاب يوم الدين ، ولذلك فهم من أهل الدرك الأسفل من النار ، كما قال تعالى :

﴿ **إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً** (١٤٥) ﴾ النساء[2].

العامل السادس : تفاوت الذنوب بتفاوت مايضيع بسببها من الحقوق :

فالذنب قد يكون في أصله ذنباً واحداً ، كالزنا مثلاً ويرتكبه شخصان ، فيكون من أحدهما أعظم إثماً بكثير من الآخر . فمثلاً : الزنا بالمرأة المتزوجة أعظم إثماً من الزنا بغير المتزوجة ، قال الإمام ابن القيّم : (...فالزنا بالمرأة التي لها زوج أعظم إثماً وعقوبة من التي

---

(١)- رواه مسلم بسنده عن معقل بن يسار المزني رضي ا لله عنه . شرح النووي على مسلم : كتاب : الإمارة ، باب : فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم ، جـ: ١٢ ، ص: ٢١٤-٢١٥ . وانظر فيما سبق : الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، ص: ١٨٥ ، ٢١٦ ، ٢٢٣ .

(٢)- انظر : طريق الهجرتين،ص: ٦٩٨-٧٠٩ .

لازوج لها ، إذ فيه انتهاك حرمة الزوج وإفساد فراشه ، وتعليق نسب عليه لم يكن منه ، وغير ذلك من أنواع أذاه ، فهو أعظم إثماً وجرماً من الزنا بغير ذات البعل ...)[1].

وأعظم من ذلك إثماً الزنا بحليلة الجار ، فقد جعله الرسول عليه السلام -كما سبق- من أكبر الكبائر بعد جعل الندّ لله سبحانه ، وقتل الولد خشية أن يأكل مع أبيه[2].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه :

[((ماتقولون في الزنا ؟)). قالوا : حرمه الله ورسوله فهو حرام إلى يوم القيامة . قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه :((لأن يزني الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره)) قال : فقال ماتقولون في السرقة ؟ قالوا : حرمها الله ورسوله فهي حرام ، قال : ((لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من جاره))][3].

وكذلك فإن في هذا العمل البالغ القبح أعظم الإساءة للجار وقد قال صلى الله عليه وسلم :

((لايدخل الجنة من لايأمن جاره بوائقه))[4].

وأعظم من ذلك إثماً أن يكون الجار أخاً أو قريباً ، إذ يؤدّي ذلك الفعل الشنيع إلى قطيعة الرحم ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : ((لايدخل الجنة قاطع رحم))[5].

---

(١)- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي،لابن قيم الجوزية،ص: ١٦٧ .

(٢)- انظر ص :٤١٤ .

(٣)- رواه الإمام أحمد بسنده عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه . المسند:جـ٦ ، ص : ٨ . وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته:ح: ٥٠٤٣ ، جـ٢ ، ص: ٩٠٠ .

(٤)- رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه . شرح النووي على مسلم : كتاب : الإيمان ، باب: بيان تحريم إيذاء الجار،جـ٢ ، ص:١٧،(ح:٧٣ حسب المعجم) . وانظر : الجواب الكافي ، ص:١٦٧-١٦٨ . قال النووي : (البوائق : جمع بائقة وهي : الغائلة والداهية والفتك .) . انظر : شرح النووي على مسلم ، جـ٢ ، ص:١٧ .

(٥)- متفق عليه عن جبير بن مطعم رضي الله عنه . واللفظ لمسلم . شرح النووي على مسلم : كتاب : البر والصلة والآداب ، باب: صلة الرحم وتحريم قطيعتها ، جـ١٦ ، ص:١١٣-١١٤،(ح:١٩ حسب المعجم) . وانظر : فتح الباري : كتاب الأدب(٧٨)،باب إثم القاطع (١١)،ح:٥٩٨٤ ، جـ١٠ ، ص:٤١٥. وانظر الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي،ص:١٦٨ .

وأعظم من ذلك إثماً أن تكون المرأة ذات رحم منه ، فإن ذلك يؤدي أيضاً إلى قطيعة رحمها [(١)].

وأعظم من ذلك كله إن كان الجار غائباً في طاعة الله تعالى كطلب العلم والجهاد في سبيل الله،قال صلى الله عليه وسلم : ((حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتهم ، ومامن رجل من القاعدين يخلف رجلاً من المجاهدين في أهله فيخونه فيهم إلا وقف له يوم القيامة فيأخذ من عمله ما شاء فما ظنكم؟)) وفي رواية : [((فخذ من حسناته ماشئت)) فالتفت إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ((فماظنكم؟))] [(٢)].

وهكذا يتضاعف إثم جريمة الزنا بمقدار ماينتهكه المرء من حق نتيجة ارتكابه لذلك الذنب [(٣)].

وكذلك القتل يتضاعف إثمه إن كان قتلاً لنبي أو عالم أو آمر بالمعروف ناه عن المنكر. قال تعالى :

﴿ إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشّرهم بعذاب أليم (٢١) أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وماهم من ناصرين (٢٢) ﴾ آل عمران .

وقال صلى الله عليه وسلم :

((أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل قتله نبي أو قتل نبياً وإمام ضلالة وممثل من الممثلين)) [(٤)]. وهكذا الشأن في سائر الذنوب .

---

(١)- انظر : الجواب الكافي ص:١٦٨ .

(٢)- الحديث بروايتيه أخرجه الإمام مسلم بسنده عن بريدة الأسلمي رضي الله عنه . شرح النووي على مسلم : كتاب : الإمارة ، باب: حرمة نساء المجاهدين وإثم من خانهم فيهن ، جـ١٣ ، ص:٤١-٤٢، (ح:١٣٩حسب المعجم) . وانظر : الجواب الكافي،ص: ١٦٨ .

(٣)- انظر : الجواب الكافي،ص: ١٦٧-١٦٨ .

(٤)- رواه أحمد بسنده عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه . المسند ، جـ١ ، ص:٤٠٧ . والحديث حسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته:ح: ١٠٠٠ ، جـ١ ، ص :٢٣٢ . وانظر : الجواب الكافي ، ص:٢١٦ .

العامل السابع : تفاوت حرمة الأزمنة والأمكنة التي يرتكب فيها الإثم :

فإن إثم ذنب ما يتضاعف إن ارتكب في بلد حرام أو شهر حرام ، أو وقت معظّم بتعظيم الله تعالى له [(١)].

فمثلاً قد حرم الله سبحانه مكة وتوعّد بالعذاب الأليم من أراد - مجرد إرادة - الإلحاد بظلم فيها ، قال تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواءً العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم** (٢٥) ﴾ الحج .

والتعذيب بمجرد إرادة السوء خصوصية للمسجد الحرام [(٢)].

وقال صلى الله عليه وسلم في شأن تحريم المدينة ، وتحريم الإحداث والظلم فيها ، وعظم جرم من يحدث فيها : ((المدينة حرم ما بين عائر إلى كذا ، من أحدث فيها حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لايقبل منه صرف ولاعدل...))الحديث [(٣)].

والحدث : الظلم أوماهو أعم من الظلم [(٤)].

ويقول تعالى مبيناً عظم شأن الشهر الحرام وعظم ارتكاب الذنوب فيه :

﴿ **يسألونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل...**(٢١٧) ﴾ البقرة .

ومن الأوقات التي يعظم فيها الإثم الوقت الذي يلي صلاة العصر ، وقد جاء في

---

(١)- انظر : الجواب الكافي،ص: ١٦٨ .

(٢)- انظر : تفسير ابن كثير ، جـ٣ ، ص: ٢١٤-٢١٥ .

(٣)- رواه البخاري بسنده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه . فتح الباري : كتاب : فضائل المدينة(٢٩) ، باب : حرم المدينة (١) ، ح: ١٨٧٠ ، جـ٤ ، ص: ٨١ . وعائر هو جبل بالمدينة . انظر : فتح الباري : جـ٤ ، ص: ٨٢ .

(٤)- انظر : كلام ابن حجر في فتح الباري : جـ٤ ، ص: ٨٤ .

الحديث :

((ثلاثة لايكلمهم ا لله يوم القيامة ولايزكيهم ولهم عذاب أليم . رجل على فضل ماءٍ بالطريق يمنع منه ابن السبيل ، ورجل بايع إماماً لايبايعه إلا لدنياه ، إن أعطاه مايريد وفّى له، وإلا لم يَفِ له ، ورجل بايع رجلاً بسلعةٍ بعد العصر ، فحلف با لله لقد أعطي بها كذا وكذا فصدقه فأخذها ، ولم يعط بها))(١).

العامل الثامن : كون العمل السيء تركاً للمأمور به :

إن ارتكاب المحظور قد يرجع إلى كونه تركاً للأمر بعدم الفعل ، إلا أن المراد هنا بترك المأمور به ، هو ترك ما أمر ا لله به تعالى أمراً مباشراً ، كالأمر بالصلاة والصيام والزكاة والحج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونحو ذلك ، فهو أمر بفعل إيجابي ، وأما ارتكاب المحظورات فهو ارتكاب مانهانا ا لله تعالى عن فعله ، كالقتل والزنا والسرقة والكذب ونحو ذلك ، فهو – إن صح القول – أمر بفعل سلبي أوعدمي تجاه تلك الامور . فإذا اتّضح هذا الفرق بين ترك الأوامر وارتكاب النواهي ، فإن العلماء قد بينوا بأن ترك الأوامر أعظم إثماً عندا لله تعالى من ارتكاب المحظورات ، وقد ذكر للدلالة على هذا الحكم عدة أوجه منها :

الوجه الأول : أن ارتكاب المحظورات دافعه في الغالب الشهوة والحاجة ، أما ترك الأوامر فدافعه في الغالب الكبر والعزة ولايدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر(٢).

ويدخلها من مات على التوحيد وإن زنا وإن سرق (٣).

---

(١)– متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي ا لله عنه . وهذا لفظ البخاري . فتح الباري : كتاب : الأحكام (٩٣)،باب : من بايع رجلاً لايبايعه إلا للدنيا (٤٨)،ح: ٧٢١٢ ، جـ: ١٣ ، ص: ٢٠١ . وانظر: شرح النووي على مسلم : كتاب : الإيمان ، باب : بيان تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية وتنفيق السلعة بالحلف وبيان الثلاثة الذين لايكلمهم ا لله...،جـ٢ ، ص:١١٥ ، وانظر : كلام النووي . وكذلك انظر كلام ابن حجر في فتح الباري ، جـ١٣ ، ص: ٢٠٣ .

(٢)– قال صلى ا لله عليه وسلم : ((لايدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر)).رواه مسلم عن عبدا لله بن مسعود؛انظر تخريجه ص:٤٠٧ ، هامش : (١) .

(٣)– عن أبي ذر رضي ا لله عنه قال : [أتيت النبي صلى ا لله عليه وسلم...فقال : ((مامن عبد قال لاإله=

الوجه الثاني : أن الناظر في النصوص التي يأتي فيها ذكر أفضل الأعمال يجدها في الغالب تذكر أعمالاً يؤمر العبد بأدائها [1]، كالإيمان وإقامة الصلاة والجهاد في سبيل الله والحج وبرّ الوالدين وإطعام الطعام ونحو ذلك .

وأيضاً فإن في الكثير من النصوص القرآنية تعليقاً لمحبة الله جل شأنه بفعل الأوامر ، كقوله تعالى :

﴿ **إن الله يحبّ الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص** (٤) ﴾ الصف .

وقوله عزّوجلّ :

﴿ .. **والله يحب الصابرين** (١٤٦) ﴾ آل عمران .

وقوله تبارك اسمه :

﴿ ... **وأقسطوا إن الله يحب المقسطين** (٩) ﴾ الحجرات .

إلى غير ذلك من آيات كثيرة فيها تعليق للمحبة بفعل الأوامر ، وأمّا مايتعلق بالمحظورات فغالب ماجاء فيها نفي محبة الله عزّوجلّ لها وذلك كقوله :

﴿ ... **والله لايحب الفساد** (٢٠٥) ﴾ البقرة .

وقوله :

﴿ ... **والله لايحب كل مختال فخور** (٢٣) ﴾ الحديد .

ونحو ذلك مما فيه نفي محبة الله للمحظورات أو الإخبار بأنه سبحانه يكرهها أو يسخطها كقوله : ﴿ **كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها** (٣٨) ﴾ الإسراء .

وقوله : ﴿ **ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله** ...(٢٨) ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم .

وهذا يدل على أن لفعل الأوامر درجة يعظم بها على ترك النواهي ، أي إن لترك الأوامر أثراً سيئاً أكبر من فعل النواهي .

= إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة)) قلت : وإن زنا وإن سرق ؟ قال : ((وإن زنا وإن سرق))..] الحديث.متفق عليه . انظر تخريجه ص :٢٧٧ ، هامش : (١) .

(١)- انظر ص:٣٦٨-٣٦٩ .

الوجه الثالث : أن فعل الأوامر من باب حفظ قوة الإيمان وبقائها وزيادتها ، وأما ترك المنهيات فهو من باب الحمية عن كل ما يضعف تلك القوة ، ولاشك أن القيام بما من شأنه حفظ القوة وزيادتها مقدم على الحمية مما شأنه إضعاف تلك القوة ، لأن القوة كلما ازدادت عظم تمكنها – بذاتها – من دفع أي مادة فاسدة يمكن أن تطرأ عليها ، وأما إذا ضعفت تلك القوة فإن المواد الفاسدة يمكن أن تغلبها ، فيحتاج المرء إلى مزيد حمية ليدفع عن نفسه – قدر الإمكان – أثر تلك المواد الفاسدة ويحافظ على ما تبقى لديه من قوة ، إلى أن يتمكن من استئناف العمل على ما من شأنه إعادة قوته إلى سابق عهدها بل وجعلها أعظم مما كانت عليه .

فترك الأوامر أعظم أثراً على العبد من فعله النواهي ، إذ بتركه الأوامر قد فقد القوة التي يتمكن بها من دفع أي مكروه يمكن أن يناله ، أما فعله النواهي فإنه كمادة فاسدة دخلت جسم الإنسان ، فلو كان صحيحاً لاستطاع أن يقضي عليها فوراً .

الوجه الرابع : أن المرء بفعل الأوامر ، ولاسيما الإيمان الصحيح ، يمكنه النجاة ولو بعد حين من دار العذاب ، ونيل الثواب ، ولو ارتكب من المنهيات ما ارتكب ما لم تنافِ تلك المنهيات أصل الإيمان الصحيح ، وأما مجرد ترك المنهيات دون فعل شيء من الأوامر – ولاسيما الإيمان الحق– فإنه لايفيد المرء في النجاة من دار العذاب بل يكون مخلداً فيها أبداً.

فإن قيل إن المرء يهلك بارتكاب المحظور وهو الشرك . أجيب : بأن الهلاك إنما كان أساساً بتركه التوحيد الصحيح ، ثم إنه لو فرض أن المرء ترك التوحيد الصحيح ولم يشرك، بل قال : أنا لا أصدق ، ولا أكذب ، ولا أحب ولا أبغض ، ولا أعبده ولا أعبد غيره ، فإن ذلك الترك كاف في هلاك صاحبه وخلوده في دار العذاب . فيبقى لترك الأوامر درجة يعظم بها – في باب العقوبة – على فعل النواهي .

الوجه الخامس : قال تعالى :

﴿**يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم** ...(٢٤)﴾الأنفال.

وقال جل شانه :

﴿ **أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زيّن للكافرين ماكانوا يعملون** (١٢٢) ﴾ الأنعام .

فدلّت هاتان الآيتان الكريمتان على أن فعل أوامر الله جل شأنه والتزامها حياة للعبد ، فلوفاتت تلك الأوامر لفاتت تلك الحياة المطلوبة للعبد ولكان كما قال تعالى في حق الكافرين :

﴿ **إنك لاتسمع الموتى ولاتسمع الصم الدعاء إذا ولّوا مدبرين** (٨٠) ﴾ النمل .

فجعلهم الله جل شأنه في حكم الموتى ، وإن كانت أرواحهم في أجسادهم ، ولكنهم لم يفعلوا ما يكسبون به الحياة الحقيقية .

هذا في فعل المأموربه ، أما في فعل المنهي عنه ففيه مرض للجسم ، ويمكن للإنسان أن يحيا وهو حامل للمرض والسقم ، وحياة مع سقم خير من موت كامل .

فإن قيل قد يكون في المنهي عنه مايسبب الموت كالشرك ، أجيب بأن المرء قد مات قبل ذلك بتركه التوحيد الصحيح وهو مأموربه . فالشرك زيادة مرض لجسم ميت .

الوجه السادس : أن المأمور به إذا فعل على وجهه الأكمل مستوفياً لجميع شرائطه وكمالاته الباطنة والظاهرة المشروعة فإنه يدفع صاحبه إلى ترك مانهى الله عنه ، كما قال تعالى :

﴿ **اتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ماتصنعون** (٤٥) ﴾ العنكبوت .

أما مجرد ترك المنهيات ، فإن ذلك لايقتضي ولايستلزم من صاحبه فعل ما أمر الله به فتكون خسارة المرء من ترك الأوامر أعظم من خسارته من فعل النواهي .

الوجه السابع : قال الإمام ابن قيم الجوزية في بيان هذا الوجه :

(أن مايحبه -تعالى- من المأمورات فهو متعلق بصفاته ، وما يكرهه من المنهيات فمتعلق بمفعولاته وهذا وجه دقيق يحتاج إلى بيان ، فنقول :

المنهيات شرور وتفضي إلى الشرور ، والمأمورات خيرات وتفضي إلى الخيرات ،

والخير بيديه سبحانه والشر ليس إليـه ، فـإن الشر لايدخـل في صفاتـه ولافي أفعالـه ولافي أسمائه، وإنما هو في المفعولات ، مع أنه شر بالإضافة والنسبة إلى العبد ، لامن حيث إضافته ونسبته إلى الخالق سبحانه ، فليس بشر من هذه الجهة ، فغاية ارتكـاب المنهـي أن يوجـب شراً بالإضافة إلى العبد ....، وأما فوات المأمور فيفوت به الخير الـذي بفواتـه يحصـل ضـده من الشر ، وكلما كان المأمور أحـب إلى ا لله سبحانه كـان الشـر الحـاصل بفواتـه أعظـم كالتوحيد والإيمان .)[1].

ويلاحظ هنا أنه إذا قيل إن ترك الأوامر أعظم من فعل النواهـي لايعـني ذلـك أن كـل فرد من أفراد ترك الأوامر هو أعظم من كل فرد من أفراد فعل النواهي ، حتى يقال مثلاً : إن فوت ركعتي الضحى أعظم من قتل مسلم ، وإنما المراد أن جنس ترك الأوامر أعظم من جنس فعل النواهي في بـاب العقوبـة ، أو أن جنـس فعـل الأوامـر أعظـم مـن جنـس تـرك النواهي في باب الثواب [2].

العامل التاسع : مدى تأصّل حب المعصية في طبع المكلف :

فتأصّل خلق المعصية لدى المكلف يجعل عقابه عليهـا أعظـم مـن عقـاب مـن يرتكبهـا لعارض ما ، قال صلى ا لله عليه وسلم :

((ثلاثة لايكلمهم ا لله يوم القيامة ولايزكيهم ولاينظر إليهم ولهم عذاب أليم : شـيخ زان وملك كذاب وعائل مستكبر))[3].

فهؤلاء الثلاثة الشيخ والملك والفقير قد ارتكبوا ذنوبـاً دون أن يكـون لديهـم أي داع

---

(١)- انظر هذا الوجه وماسبق من الوجوه : الفوائد،لابن قيم الجوزيـة،ص:١١٧-١٢٦ .وقـد ذكـر ثلاثـة وعشرين وجهاً للدلالة على هذه المسألة .

(٢)- انظر : الفوائد،لابن قيم الجوزية ، ص : ١٢٥ .

(٣)- رواه مسلم عن أبي هريرة رضي ا لله عنه . شرح النووي على مسلم :كتاب : الإيمان ، باب : بيـان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية وتنفيق السلعة بالحلف وبيان الثلاثة الذين لايكلمهم ا لله يوم القيامة، جـ٢ ، ص:١١٤-١١٥ ، (ح: ١٧٢ حسب المعجم) .

لارتكابها ، اللّهم إلا تـأصل حب المعصيـة فيهـم . فالشـاب وإن كـان الزنـا محرمـاً عليـه ويستحق بسببه العقاب ، إلا أنه يمكن القول بأنه قد دفعه إلى الزنا مافيه من حرارة الغريزة وضعف الضابط وطيش الشباب ، أما الشيخ إذا زنا فإن ذلك يدل على عظم جرأته على محارم ا لله ، وتأصل خلق المعصية في نفسه ، إذ قد كمل عقله وأصبح أكثر ضبطاً لتصرفاته وأفعاله واعتدلت غريزته . وكذا الكذب فإن الإنسان مادام لم يصل إلى مركز الحكم فإنـه قد يوجد أمر يدفعه إلى الكذب جلباً لمنفعة أو دفعاً لمضرة . أما الملك فإن كل الناس تحـت حكمه فإذا ماكذب ، من غير داع لذلك دلّ هذا الأمر على تأصّل خلـق معصيـة الكـذب في نفسه . فاستحق ذلك العقاب الشديد .

وكذا الكبر ، فإن الغني وإن كان كبره كبيرة من الكبائر ، إلا أنه قد يقال بأن ماعنده من الغنى والجاه جعلاه يشعر بتميّزه عن الناس ، فيدفعه ذلك إلى الاسـتكبار عليهـم ، أمـا العائل الفقير فليس عنده شيء يدفعه إلى الاستكبار على الناس ، فإذا استكبر دل ذلك على أن تلك الرذيلة متأصلة في نفسه ، فهي تظهر في تصرفاته ، وإن لم يكن لها سبب ظاهر من مال أو عزّة أو جاه أو نحو ذلك (١).

العامل العاشر : اختلاف الحال الذي يعمل فيه العمل . واختلاف حال العامل :

بناء على ماسبق ذكره في العامل السادس من عوامل تفاضل الإثابـة (٢) فإنـه يمكـن أن يقال هنا : إنه في بعض الأحوال يتضاعف إثم العمل السيء ، إذا كان ضـرره فيهـا أعظـم منه في أحوال أخر ، فمحتكر الطعام مثلاً في أوقات المجاعات أعظم إثمـاً ممـن يحتكـر نوعـاً منه في أوقات تتوفر فيها أصناف أخر ويمكن شراؤها والحصول عليها من مصادر متعدده . وا لله أعلم .

أما اختلاف حال العامل : فإن الذنب الكبير من العالم ذي المكانـة أعظـم إثمـاً ممـا لـو صدر عن غيره ممن هو من آحاد الناس ، وليس عنده من عظم العلم با لله تعالى وبمـا عنـده من عقاب وثواب ما عند العالم .

---

(١)- انظر : شرح النووي على مسلم:جـ٢ ، ص : ١١٧ .

(٢)- انظر : ص: ٣٧٦-٣٧٨ .

قال جل شأنه : ﴿ **يا نساء النّبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على ا لله يسيراً** (٣٠) ﴾ الأحزاب [١].

العامل الحادي عشر:مدى ارتباط فعل الذنب بالتعدي على مقام الرب جل جلاله:

فارتكاب الذنوب التي فيها تعاطي العبد مالا يصلح له من صفات الربوبية ،وذلك كالعظمة والكبرياء والجبروت والقهر والعلو واستعباد الخلق ونحو ذلك من الصفات التي لاتصلح إلا للرب جل وعلا يزيد في درجة العقوبة عليها [٢].

قال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم : ((العز إزارهُ والكبرياء رداؤُهُ فمن ينازعني عذبته)) [٣].

ومعنى منازعة الرب : أي تخلق المرء بأحد هاتين الصفتين أو كليهما ، مع أنهما لاتليقان إلا بالرب تعالى فيصير العبد .بمعنى المشارك والمنازع لله تعالى في الاتصاف .بما لايجوز على العبد الاتصاف به [٤].

ولذلك فقد ورد الوعيد الشديد لمن اتصف ولو بشيء يسير من الكبر . قال صلى ا لله عليه وسلم : ((لايدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر)) [٥].

ومثل هذا الوعيد الشديد بعدم دخول الجنة لمن كان عنده ولو مجرد مثقال ذرة من كبر لايكاد يوجد في غيره من الآثام .

وكذلك فإن الذين يعملون التماثيل أو يصورون صور الأحياء ، يشبهون أنفسهم با لله تعالى في الخلق ، إذ يصنعون خلقاً كخلقه تبارك اسمه ، كما قال صلى ا لله عليه وسلم : ((قال ا لله عزوجل : ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي ، فليخلقوا ذرة أو

---

(١)- انظر : في ظلال القرآن ؛ سيد قطب ، مج ٥ ، جـ: ٢٢ ، ص: ٢٨٥٧ .

(٢)- انظر : الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي،ص: ١٨٤ .

(٣)- رواه مسلم عن أبي هريرة ، والحديث سبق تخريجه،انظر ص:٦٤ ، هامش : (٢) .

(٤)- انظر : شرح النووي على مسلم ، جـ: ١٦ ، ص: ١٧٣ .

(٥)- رواه مسلم بسنده عن عبدا لله بن مسعود رضي ا لله عنه . شرح النووي على مسلم ، كتاب : الإيمان ، باب : تحريم الكبر وبيانه ، جـ: ٢ ، ص: ٨٩-٩٠ ، (ح: ١٤٩ حسب المعجم) .

ليخلقوا حبّة أو شعيره))[1].

وقال صلى ا لله عليه وسلم وقد دخل حجرة عائشة رضي ا لله عنها فوجد ستراً فيه تصاوير فهتكه :((يا عائشة أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق ا لله))[2].

والإنسان عندما يصور صورة الحيوان الحي ، فإنه بذلك يجعل نفسه مشابهاً للربّ تعالى في خلق مخلوق لايمكن أن يخلقه كاملاً إلا الرب جلّ شأنه ، وهو تعالى لم يأذن للعبد في مثل ذلك العمل ، فيكون العبد مرتكباً لإثم عظيم يستحق عليه أن يكون من أشد الناس عذاباً يوم الدين .

قال صلى ا لله عليه وسلم : ((إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون)) .

وفي رواية : ((إن من أشد أهل النار يوم القيامة عذاباً المصورون))[3].

ومن أجل أن تصوير ماله روح يحمل معنى التشبّه الظالم بالخالق جل وعلا ، كان من عذاب المصورين يوم الدين طلب نفخ الروح فيما صوّروه ، وليسوا بنافخين ، إنما هو أمر تعجيز تبكيتاً لهم على تشبههم بالخالق جل وعلا ، وزيادة في عذابهم ، قال صلى ا لله عليه وسلم : ((إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ، ويقال لهم : أحيوا ما

---

(١)- متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي ا لله عنه . وهذا لفظ البخاري . فتح الباري ، كتاب التوحيد(٧٩) ، باب : قول ا لله تعالى : ﴿ **وا لله خلقكم وما تعملون** ﴾ (٥٦) ، ح: ٧٥٥٩ ، جـ: ١٣، ص: ٥٢٨ . وانظر : شرح النووي على مسلم : كتاب : اللباس والزينة ، باب : تحريم تصوير صورة الحيوان ، جـ: ١٤ ، ص: ٩٣-٩٤ .

(٢)- رواه مسلم بسنده عن عائشة رضي ا لله عنها . شرح النووي على مسلم ، كتاب : اللباس والزينة ، باب : تحريم تصوير صورة الحيوان ، جـ: ١٤ ، ص: ٨٨-٨٩ .

(٣)- الحديث بروايتيه أخرجه الإمام مسلم عن عبدا لله بن مسعود رضي ا لله عنه . شرح النووي على مسلم : كتاب : اللباس والزينة ، باب : تحريم تصوير صورة الحيوان ، جـ: ١٤ ، ص: ٩٢ . ويلاحظ هنا أنه قد ورد الإذن في تصوير مالا روح له ـ انظر : شرح النووي على مسلم : الموضع السابق ، ص: ٩٣ـ حديث رواه الإمام مسلم عن ابن عباس . ومالا روح له ليس صنعة يحمل في ظاهره معنى التشبه بالخالق كصنع ماله روح ، بل هو يشبه إلى حد كبير سائر صناعات البشر العادية . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد ورد الإذن في شأنه ، وذلك كالشجر ونحوه .

خلقتم)) [1].

وأسوأ أنواع التشبه بالخالق جل وعلا ، التشبه به في الاسم الذي لايليق إلا به كملك الأملاك ، وحاكم الحكام ، ونحو ذلك ، مما هو من خصائص الرب عزوجل [2]. قال صلى الله عليه وسلم : ((إن أخنع اسم عند الله رجل تسمّى : ملك الأملاك ، لا مالك إلا الله عزوجل .)) وفي رواية : ((أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه وأغيظه عليه رجل كان يسمى : ملك الأملاك ، لامالك إلا الله)) [3].

فإذا كان العبد المتشبه بالرب تعالى في مجرد الاسم الذي لايليق إلا به سبحانه هو أغيظ رجل على الله جل شأنه فكيف بمن يجعل نفسه شبيهاً لله فيما هو من خواص ربوبيته وألوهيته ، فيدعو الناس إما إلى عبادته أو تعظيمه ومدحه بما لايجوز إلا للرب تعالى، أو التوكل عليه أو رجائه أو الالتجاء إليه والاستعانة به ، بمالا يقدر عليه إلا الله تبارك اسمه ، أو الخضوع والذلة له ، أو جعل نفسه مشرعاً حاكماً ونحو ذلك مما هو من خواص ربوبية الرب تعالى وألوهيته ! .

لاشك أن مثل هذا العبد يستحق من الله جلّ شأنه أن يذلّه أعظم ذلّ ويهينه أعظم إهانة ويعذّبه بعذاب هو من أشد أنواع العذاب ، قال صلى الله عليه وسلم :

((يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذلّ من كل مكان، فيساقون إلى سجن في جهنم يسمى : بولس ، تعلوهم نار الأنيار ، يسقون من

---

(١)- متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها . واللفظ للبخاري . فتح الباري : كتاب : التوحيد(٩٧)،باب : قول الله تعالى : ﴿ **والله خلقكم وما تعملون** ﴾ (٥٦)،ح: ٧٥٥٧ ، جـ: ١٣ ، ص: ٥٢٨ . وانظر : شرح النووي على مسلم : كتاب : اللباس والزينة ، باب : تحريم تصوير صورة الحيوان ، جـ: ١٤ ، ص: ٨٩-٩٠ . وانظر : شرح ابن حجر في فتح الباري:جـ: ١٣ ، ص: ٥٣٥ .

(٢) انظر : الجواب الكافي ، ص: ٢٠٤ .

(٣)- الحديث بروايتيه أخرجه الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه . شرح النووي على مسلم : كتاب : البر والصلة الآداب ، باب : تحريم التسمي بملك الأملاك أو بملك الملوك ، جـ: ١٤ ، ص: ١٢١- ١٢٢ . وأخنع : بمعنى أفجر أي أخبث وقيل أقبح ، شرح النووي على مسلم:جـ: ١٤ ، ص: ١٢١ .

عصارة أهل النار ، طينة الخبال))[١] .

فهذه بعض العوامل المؤدّية إلى التفاوت في مقادير العقاب[٢] على الأعمال السيئة والمؤدّية إلى تفاوت الدركات التي يصير إليها المرء في نار جهنم ، نعوذ با لله من النار ودركاتها وحرّها .

ويبقى بعد ذلك عوامل أخرى يمكن استنباطها من كثير من النصوص الشرعية التي فيها ذكر كون المرء إذا عمل عملاً فهو في أشد العذاب ، أو النصوص التي فيها دلالة على أن هذا العمل هو كبيرة من الكبائر ، أو نحو ذلك .

---

(١)- رواه الترمذي عن عبدا لله بن عمرو بن العاص رضي ا لله عنهما ، واللفظ له ، عارضة الأحوذي ، أبواب : صفة القيامة والرقائق والورع ، باب : بدون عنوان ، جـ: ٩ ، ص: ٣٠٣-٣٠٤ ، وقال الترمذي عن الحديث : هذا حديث حسن صحيح . وروى الحديث عن ابن عمرو أحمد في مسنده ، جـ: ٢ ، ص:١٧٩ . والحديث حسّنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته ، ح: ٨٠٤٠ ، جـ:٢،ص:١٣٣٥. وانظر : الجواب الكافي،لابن قيم الجوزية ، ص: ٢٠٤-٢٠٥ .

(٢)- قال ابن حجر في فتح الباري : والذنب يعظم بحسب عظم المفسدة ، وتفويت المصلحة.اهـ.جـ:١١. ص: ٣٩٧ .

رابعاً – مظاهر العدل والفضل في الجزاء الأخروي .

تمهـيد :

تقدم في أول هذا الفصل إثبات قيام الجزاء على أساس فضل ا لله وعدله ، فالعدل هـو الأساس الرئيسي للجزاء يوم الدين عموماً ، والفضل أساس يأتي بعـد العـدل ويختـص بمـن آمن با لله تعالى الإيمان الحق ومات عليه ، ثم كلما ارتقى الإنسان في إيمانه وعملـه الصـالح زاده ا لله تعالى من فضله أضعاف أضعاف مازاد هو من إيمانه وعمله .

وبناءً على ذلك فإنه يمكن اعتبار جميع مايجري في ذلك اليوم مـن أحـداث سواء قبـل المصير إلى دار الجزاء أو بعد المصير إليها ، راجعاً إمّا إلى عدل ا لله تعالى ، أو إلى عدله مع فضله جلّ شأنه .

مظاهر عدل الله تعالى في الآخرة :

أ–مظاهر عدل الله في المحشر :

١– حشر أعداء الله على وجوههم :

إن عدل ا لله تعالى مع أعدائه من الكفار وبعض عصاة المسـلمين يتجلى في المحشـر في الطريقة والكيفية والهيئة التي يحشرون عليها ، وهي كلها هيئات وكيفيات منكرة ، وكأنها جزء من الجزاء الذي يستحقونه على كفرهم با لله ، ومعصيتهم لأوامره ، وقد جاءت عدة نصوص تبيّن صوراً من الهيئات والكيفيّات التي يحشر بها ا لله جل شأنه أعداءه ، فمن تلك النصوص قوله تعالى :

﴿ **ومن يهد ا لله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يـوم القيامـة علـى وجوههـم عمياً وبكماً وصمـاً مـأواهم جهنـم كلمـا خبـت زدنـاهم سعيراً**(٩٧)﴾ الإسراء . ففي هذه الآية بيان أن أعداء ا لله سبحانه يحشرهم علـى وجوههـم، كما قال تعالى في موضع آخر :

﴿**الذيـن يحشـرون علـى وجوههـم إلى جهنـم أولئـك شـرّ مكانـاً وأضـل سبيلاً**(٣٤)﴾الفرقان .

وهذا الحشر على الوجه معناه : أنهم يمشون في أرض المحشر على وجوههم بدلاً من مشيهم على أقدامهم ، مصداق ذلك ماورد من أنّ رجلاً سأل النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : [يانبيّ الله ، كيف يحشر الكافر على وجهه؟ قال : ((أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا بقادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة))] (١).

وهذا الحشر علىالوجه هو من عدل الله تعالى مع من يفعل به من الكافرين ، إذ هؤلاء الكافرون قد قلبوا مقاييس ومعايير الحق والباطل فجعلوا الحق باطلاً والباطل حقاً ، فكان من جزائهم أن يحشروا على هيئة مقلوبة ، فبدلاً من أن يمشوا على أرجلهم يمشون على وجوههم ، وأيضاً فهؤلاء الكافرون عتوا واستكبروا عن اتّباع الحق ، فكان من جزائهم أن يحشروا على وجوههم إهانة وتحقيراً لهذا العضو الذي كان أكثر الأعضاء إظهاراً للعتو والاستكبار ، وإهانة له ، وهو أشرف أعضاء الإنسان ، إذ تكبّر الإنسان عن اتباع أشرف الحقائق وأعلاها ، وهي حقيقة الإيمان بالله وحده .

وكذلك فإن هذا الوجه -عند الكافر- قد تكبر عن السجود لله تعالى في الحياة الدنيا فعوقب صاحبه بأن جعل وجهه هو العضو الذي يمشي عليه في أرض المحشر ،إذلالاً له (٢).

ولو فرض أن مثل هذا نال بعض عتاة عصاة الموحدين -طبقاً لعموم اللفظ في الآيات السابقة -، فإن ذلك غير ممتنع ، فهؤلاء العصاة قد شاركوا الكفار في معنى قلب المقاييس، فبدل أن يقيموا أوامر الله وحدوده كما أنزلها ، قد ارتكبوا مانهى الله عنه واعتدوا على حدوده جل شأنه ، فما أمر الله به لم يفعلوه ، ومانهى عنه ارتكبوه ، فقلبوا الأوامر والنواهي ، فلا يمنع أن يعاقبوا في المحشر بقلب هيئاتهم ، إذ يمشون على وجوههم بدلاً من مشيهم على أرجلهم . والله أعلم .

---

(١)- متفق عليه عن أنس بن مالك رضي الله عنه . واللفظ للبخاري في فتح الباري ، وهذه الرواية ذكرها في كتاب الرقاق (٨١) ، باب : الحشر (٤٥) ، ح:٦٥٢٣ ، جـ١١ ، ص: ٣٧٧ ، ورواه أيضاً في كتاب التفسير (٦٥) -سورة الفرقان(٢٥) -باب : ﴿**الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكاناً وأضل سبيلاً**﴾(١) ، ح:٤٧٦٠ ، جـ٨ ص:٤٩٢ . وانظر شرح النووي على مسلم : كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب : طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهباً، جـ١٧ ، ص: ١٤٨-١٤٩ .

(٢)- انظر : في ظلال القرآن:مج:٥ ، جـ١٩ ، ص:٢٥٦٣ .و: تفسير التحرير والتنوير ، جـ١٥ ، ص: ٢١٧ .وانظر نحو ذلك : فتح الباري ، جـ١١ ، ص : ٣٨٢-٣٨٣ .

٢-حشر أعداء الله عمياً وصمّاً وبكماً :

ثم إن الآية التي صُدِر بها الكلام ، قد بيّنت أحوالاً منكرة أخر لحال أعداء ا لله في المحشر ، فهم -في بعض أحوال المحشر- عمي وصم وبكم ، لايبصرون ولاينطقون ولايسمعون ، وهذا أيضاً من باب عدل ا لله تعالى مع هؤلاء ، فهم كانوا في حياتهم الدنيا يتعامون عن رؤية الحقيقة ، ويسدّون أسماعهم حتى لايصل إليها شيء من الحق ، وإن وصل لايحاولون أن يتدبروه ، وإن علموا شيئاً من الحق ، كتموه و لم يتحدّثوا به ، بل تواصوا على كتمانه ، فعوقبوا في أرض المحشر بالعمى الحقيقي ، والصمم الحقيقي ، والبكم الحقيقي .

ثم إن هذه الحواس التي وهبهم ا لله إياها ليستخدموها فيما ينفعهم قد عطّلوها عن استخدامها في أهم الأمور ، وهو أمر الإيمان با لله تعالى ، واتباع أوامره ، فعوقبوا بالحرمان منها في ذلك الموقف من أرض المحشر[١] .

قال جل شأنه :

﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى (١٢٤) **قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً** (١٢٥) **قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى** (١٢٦) **﴾** طـه .

فالآيات السابقة تبين بوضوح أن جزاء الإنسان من جنس عمله ، وهذا من أكمل صور العدل فكما أن الإنسان الكافر قد أعمى -باختياره- بصره عن النظر في آيات ا لله تعالى والتفكر فيها وتدبّرها ، وذلك في حياته الدنيا ، حتى نسي تلك الآيات نسياناً كاملاً، عوقب على ذلك بإصابته بعمى البصر حقيقة في بعض مواقف الحشر ، وبنسيانه- أي تركه- في العذاب أبد الآباد [٢] .

ثم لما كان الباطل في حقيقة أمره ظلماً وكان الحقّ نوراً ، والكافر في حياته الدنيا قد اتبع الباطل وترك الحق فلا غرابة في أن يعلو وجه الكافر يوم الدين ظلمات الباطل الذي

---

(١)- انظر : تفسير ابن كثير . جـ٣ ، ص: ٦٥ . وانظر : مجموع فتاوى ابن تيمية . ج:١٨ ، ص:١٧٥.

(٢)- انظر : مفتاح دار السعادة . جـ١ ، ص: ٤٤-٤٦ . وتفسير ابن كثير . جـ٣ ، ص: ١٦٩ .

كان يتبعه ، حتى يصبح ذلك الوجه مسوداً ، قال تعالى :

﴿ **ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ، أليس في جهنم مثوى للمتكبّرين** (٦٠) ﴾ الزمر .

وقال جل شأنه :

﴿ **ووجوه يومئذ عليها غبرة** (٤٠) **ترهقها قترة** (٤١) **أولئك هم الكفرة الفجرة**(٤٢) ﴾ عبس .

وقال جل جلاله :

﴿ **يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون** (١٠٦) ﴾ آل عمران .

٣-حشر المتكبرين كأمثال الذرّ :

ومما يكون يوم القيامة في المحشر من عدل الله تعالى مع بعض أنواع العصاة ، مايكون مع المتكبّرين إذ يحشرهم جل شأنه كأمثال الذر[1] ، تحقيراً لهم وإذلالاً ، فقد كانوا في الدنيا يتكبرون على الناس ، وربما تكبروا على عبادة الله تعالى ، فعاملهم عزّ وجلّ بعدله بأن حقّرهم وأذلّهم حتى جعلهم كأصغر المخلوقات التي تطؤها أقدام الخلق وهي لاتشعر. بالإضافة إلى ماسينالهم من العذاب في نار جهنم قال صلى الله عليه وسلم :

((يحشر المتكبّرون يوم القيامة أمثال الذرّ في صور الرجال يغشاهم الذلّ من كل مكان ، فيساقون إلى سجن في جهنم يسمى بولس تعلوهم نار الأنيار يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال))[2].

ب-عرض الأعمال على العباد مكتوبة مسجلة :

فمن عدل الله تعالى مع خلقه في يوم الجزاء الأكبر أن تعرض عليهم أعمالهم صغيرها وكبيرها مكتوبة مسجلة .

---

(١)- الذر : صغار النمل . انظر : لسان العرب مادة(ذرر) ، جـ٥ ، ص: ٣٩٠ .

(٢)- رواه أحمد و الترمذي- واللفظ له- عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه . وقد سبق تخريج الحديث . انظر ص: ٤٣٠ ، هامش : (١) .

ومن أجل ذلك وكّلَ الله جل شأنه بكل إنسان في الحياة الدنيا ملكين كريمين . أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله ، وهما يسجلان عليه جميع ما يصدر منه من أقوال وأعمال حسنة أو سيئة ، ولا يغيب عنهما شيء من أقوال الإنسان وأعماله . قال تعالى :

﴿ **إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد** (١٧) **ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** (١٨) ﴾ ق .

وهذه الكتابة هي من تمام عدل الله تعالى مع العبد المجازى ، إذ تسجل أعماله لحظة بلحظة في حين وقوعها وفي مكانه ، فإذا ما اطلع عليها الإنسان يوم الدين تذكر جميع ما صدر منه ، فلم يستطع إنكار شيء منها ، ولو بينه وبين نفسه . ثم إن هذه الصحف التي تسجل عليها أعمال الإنسان بكيفية يعلمها الله تعالى ، تُعرض على صاحبها يوم الدين ، فيرى فيها جميع أعماله مرقومة مسطرة . قال تعالى : ﴿ **وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً** (١٣) ﴾ الإسراء .

وقال جل شأنه : ﴿ **ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً** (٤٩) ﴾ الكهف .

فالإنسان بإمكانه أن يكون هو حسيب نفسه ، إذ إن أعماله صغيرها وكبيرها ، حسنها وسيئها ، معروضة أمامه فيستطيع أن يوازن بينهما ، فيكون ذلك العرض من تمام عدل الله مع المكلف [(١)].

جـ- السؤال عن الأعمال والحساب عليها :

ثم يأتي بعد ذلك موقف الحساب والسؤال عن تلك الأعمال المسجلة إقامة للحجّة الكاملة على العباد ، حتى إن كان لأحد عذر اعتذر ، وإن شاء أن يعترض معترض على بعض ما سجل عليه مُكّن من ذلك ونوقش فيه . وهذا وجه جديد من وجوه عدل الله تعالى مع عبيده المجازين يوم الدين . قال جل شأنه : ﴿ **إنّ إلينا إيابهم** (٢٥) **ثم إن علينا حسابهم** (٢٦) ﴾ الغاشية .

---

(١)- انظر : تفسير ابن كثير . جـ: ٣ ، ص: ٢٨ ، فقد ذكر نحو ذلك عن الحسن البصري .

وقال تعالى : ﴿ ... **إن الله كان على كل شيء حسيباً** (٨٦) ﴾ النساء .

وقال تبارك اسمه : ﴿ ... **وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله...**(٢٨٤)﴾ البقرة .

ومن أسماء يوم الدين : يوم الحساب ، كما في قوله تعالى :

﴿ ... **إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب**(٢٦) ﴾ ص .

وقوله جل جلاله : ﴿ **هذا ما توعدون ليوم الحساب** (٥٣) ﴾ ص .

وقد وردت نصوص كثيرة تثبت سؤال الله تعالى لعباده عن أعمالهم وعن ما أجابوا به المرسلين وعن ما وهبهم إياه من نعم . هذا على الرغم من أن جميع ما يتعلق بالإجابة عن تلك الأسئلة هو مسجل عليهم، وذلك - كما سبق - إقامة للحجة على العباد ، حتى لايقول قائل إنه قد أوخذ بما لم يكتسبه . قال تعالى : ﴿ **فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين** (٦) ﴾ الأعراف .

وقال جل شأنه : ﴿ **وإنه لذكرٌ لك ولقومك وسوف تسألون** (٤٤) ﴾ الزخرف .

وقال تبارك اسمه : ﴿ **ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون** (٩٣) ﴾ النحل .

وقال جل جلاله : ﴿ ... **وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً** (٣٤) ﴾ الإسراء .

فهذه الآيات تثبت سؤال الناس عن ما أجابوا به المرسلين عليهم السلام ، وهذا يشمل السؤال عن الالتزام بالرسالة وأحكامها عموماً ، ويشمل السؤال أيضاً عن الكتاب المنزل ، وعن مدى تفهمه والتمسك به والالتزام بحدوده ،وعن القيام بما يجب له من حق عموماً[١] .

وقال تعالى : ﴿ **ثم لتسألن يومئذٍ عن النعيم** (٨) ﴾ التكاثر .

وقال جل شأنه : ﴿ **ولا تَقْفُ ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً** (٣٦) ﴾ الإسراء .

---

(١)- انظر : تفسير ابن كثير . جـ: ٤ ، ص: ١٢٩ .

فهذه الآيات يبين فيها تعالى أنه سوف يحاسب عبيده ويسألهم عن ما أنعم عليهم من ضروب النعم في النفس والجسد والمال ، ونحو ذلك . وقال صلى الله عليه وسلم :

((لاتزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع ، عن عمره فيما أفناه ؟ وعن علمه فيم فعل ؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ؟ وعن جسمه فيم أبلاه ؟))[1].

فهذه أربع أسس يسأل عنها المكلف يوم القيامة ، فيسأل في ماذا أفنى عمره الذي كتبه الله له ليتزود فيه بطاعة ربه ، ويسأل عن مدى موافقة عمله لما تعلمه من أمور الشرع ، وعن المال الذي كان قوام حياته ، كيف كان اكتسابه له وكيف كان إنفاقه له، وكذلك عن نعمة الجسد التي وهبها الله سبحانه له بلا مجهود منه ، في أي شيء أجهده ، في طاعة ربه أم في معصيته ؟ .

يسأل عن ذلك كله على الرغم من أن تصرفاته كلها قد سجلت عليه منذ أن صدرت منه في حياته الدنيا ، وعرضت عليه يوم القيامة .

د- إشهاد أعضاء الإنسان على ما كان منه من عمل :

وإذا تظلم أحد الكافرين أو العصاة عند الحساب ، وادّعى أنه لم يفعل تلك المعصية التي سجلت عليه ، أحضر له شاهد من نفسه ، لايمكنه تكذيبه ، فتشهد عليه يداه ورجلاه، ويشهد عليه جلده بما فعله ، وعندئذ تنقطع حجته .

عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال : [كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك ، فقال : ((هل تدرون ممّ أضحك ؟)) ، قال : قلنا : الله ورسوله أعلم. قال : ((من مخاطبة العبد ربه ، يقول : يارب ، ألم تُجرني من الظلم ، قال : يقول : بلى، قال : فيقول : فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني ، قال : فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً ، وبالكرام الكاتبين شهوداً ، قال : فيختم على فيه ، فيقال : لأركانه انطقي، قال فتنطق بأعماله ، قال ثم يخلى بينه وبين الكلام ، فيقول : بعداً لكُنَّ وسحقاً

---

(١)- رواه الترمذي عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه . عارضة الأحوذي ، أبواب صفة القيامة والرقاق والورع ، باب : في القيامة – وهو الباب الأول -،جـ: ٩ ، ص: ٢٥٣ . وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته :ح: ٧٣٠٠ ، جـ: ٢ ، ص:١٢٢١ .

فعنكن كنت أناضل))][1].

فهذا العبد حاول أن يتخلص من العذاب بطلب الشهود على ما قام به من عمل ، وإمعاناً في التعجيز طلب أن يكون الشاهد منه هو ، ظاناً أنه إن أعطي هذا فإنه لايمكن أن يشهد على نفسه بأمر يكون سبباً لعذاب يناله ، فيجاب إلى طلبه ، ولكن يختم على فيه الذي قد يتمكن به من الكذب ، وتمكن جوارحه ذاتها من النطق فتنطق بما ارتكبه من الآثام ، وعند ذلك لايستطيع أن يكذبها إذ هي بعض منه ، قد شهدت بالحق على ما كان منه ، وغاية ما يستطيعه هو مسبتها بسبب شهادتها عليه بما يوجب له العذاب ، مصداق ذلك نجده في عدة آيات كريمات ، منها قوله تعالى : ﴿ **ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون** (١٩) **حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون** (٢٠) **وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون** (٢١) ﴾ فصلت .

فالأسماع والأبصار والجلود التي كانت أهم الأدوات التي استعملها الكافر والعاصي في تحقيق المعاصي ، ينطقها الله سبحانه يوم القيامة فتشهد على صاحبها بما كان منه من كفر ومعصية ، وهنا لايملك الكافر أو العاصي سوى معاتبة أعضائه على شهادتها عليه ، وقال جل شأنه :

﴿ **إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم** (٢٣) **يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون**(٢٤)﴾ النور .

وقاذف المحصنات يشمل من يفعل ذلك من عصاة المؤمنين ، فهذا إن لم يغفر الله تعالى له إذا أتى يوم القيامة ، فإن لسانه الذي كذّب به وافترى يشهد عليه بما كان منه من كذب ، وذلك بالإضافة إلى شهادة يديه ورجليه عليه . وقال تبارك وتعالى :

﴿ **اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بماكانوا يكسبون**(٦٥)﴾ يس .

---

(١)- رواه مسلم . انظر : شرح النووي على مسلم ، كتاب : الزهد ، جـ: ١٨ ، ص: ١٠٤-١٠٥، (ح:١٧ حسب المعجم) .

فالإنسان إذا استشهدت جوارحه ختم على فمه ليمنع منه الكلام الذي قد يحاول به أن ينكر ماسجل عليه من أنواع الكفر والمعاصي ، كذباً وبهتاناً ، وجوارحه لاتملك إلا أن تنطق بالحقيقة إذ الذي أنطقها هو الله سبحانه ، وهو لن يجعلها تنطق إلا بما هو حق[1] .

هـ : وزن الأعمال :

إن من عظيم عدل الله تعالى أنه لايترك من الأعمال شيئاً صغيراً كان أو كبيراً ، بل هو جل شأنه يأتي بأعمال العبد كلها ، ثم بعد ذلك يكون وزنها .

والغاية من وزن الأعمال أساساً بيان مقادير الأعمال ليكون الجزاء بحسبها[2] . فالوزن عموماً يكون بحساب مقادير الأعمال الحسنة ومقادير الأعمال السيئة ثم الموازنة بينها ليتبين أي المقدارين يترجح على المقدار الآخر ، فإذا ترجّح مقدار الأعمال الحسنة أثيب الإنسان ، وبمقدار ماتترجح الأعمال الحسنة ترتفع منزلة العبد في دار الثواب . وفي المقابل إذا ترجح مقدار الأعمال السيئة كان الأصل معاقبة من صار إلى هذا الحال ، وتزداد درجة المعاقبة بمقدار ماتزداد درجة ترجّح الأعمال السيئة ، وإذا تساوت الأعمال الحسنة والأعمال السيئة كان صاحبها من الذين يسمّون بأصحاب الأعراف ، والذين مآلهم إلى الجنة بفضل الله تعالى [3] . هذه هي الغاية الأساسية من وزن الأعمال ، قال تعالى :

---

(١)- ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث قال فيه لمعشر النساء : ((عليكن بالتسبيح والتهليل والتقديس واعقدن بالأنامل فإنهن مسؤولات مستنطقات ، ولاتغفلن فتنسين الرحمة)). رواه أحمد عن يسيرة وهي إحدى الصحابيّات المهاجرات رضي الله عنها ، المسند : جـ٦ ، ص: ٣٧٠-٣٧١ . والترمذي ، في أبواب الدعوات،باب : في فضل التسبيح والتهليل والتقديس،(١٢٠ حسب المعجم)،انظر : عارضه الأحوذي ، جـ١٣ ، ص: ٨٢-٨٣ . وقال الترمذي ، عن الحديث إنّه غريب . ورواه أيضاً أبوداود في سننه،انظر مختصر سنن أبي داود للمنذري:كتاب : الصلاة، تفريع أبواب الوتر : باب التسبيح بالحصى ، جـ٢ ، ص: ١٤٦-١٤٧ . والحديث حسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته ، ح:٤٠٨٧ ، جـ٢ ، ص: ٧٥٣ . فإذا ثبت الحديث ففيه دلالة على أن الجوارح قد تستنطق في بعض الأمور الحسنة . والله أعلم . والحديث رواه الحاكم في مستدركه:كتاب : الدعاء ، جـ١، ص: ٥٤٧ . وليس في المطبوعة كلام للحاكم في تصحيح الحديث ، ولكن الذهبي قال في تلخيصه بعد ذكر الحديث : صحيح .

(٢)- انظر : التذكرة للقرطبي ، ص: ٣٥٩ . والنهاية لابن كثير ، جـ٢ ، ص: ٥٦ .

(٣)- انظر : تفسير ابن كثير ، جـ٢ ، ص: ٢١٦-٢١٩ . وطريق الهجرتين وباب السعادتين لابن قيم الجوزية ، ص: ٦٦٤-٦٦٩ .

﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينابها وكفى بنا حاسبين** (٤٧) ﴾ الأنبياء .

فالموازين التي توزن بها الأعمال يوم القيامة موازين قسط ، أي موازين عدل كامل ، فلا تظلم نفس شيئاً ، بأن يوضع في ميزانها سيئة لم تعملها ، أو ينقص من ميزانها حسنة تستحقها مهما كانت تلك الحسنة يسيرة ، ولو كانت بمثقال حبة من خردل أو أقل ، فهو جل شأنه لايعزب عن علمه شيء مطلقاً ، فيؤتى للعبد بجميع أعماله الحسنة والسيئة وتوزن بميزان العدل ذلك ليرى ما هو الجزاء الذي يستحقه بحسب عمله [(١)].

وقال جل جلاله : ﴿ **والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون**(٨) **ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون**(٩) ﴾ الأعراف .

وقال تعالى : ﴿ **فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون** (١٠٢) **ومن خفّت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون** (١٠٣) ﴾ المؤمنون .

وقال أيضاً : ﴿ **فأما من ثقلت موازينه** (٦) **فهو في عيشة راضية** (٧) **وأما من خفت موازينه** (٨) **فأمّه هاوية** (٩) **وما أدراك ماهية** (١٠) **نار حامية** (١١) ﴾ القارعة .

ثم إن النصوص تثبت أن الموزون هو المرء وأعماله . أما عن وزن المرء نفسه فقد استدل عليه بما ورد عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه [كان يجتني سواكاً من الأراك ، وكان دقيق الساقين ، فجعلت الريح تكفؤه فضحك القوم منه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((ممّ تضحكون ؟)) . قالوا : يا نبي الله من دقّة ساقيه ، فقال : ((والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد))] [(٢)].

ففي هذا الحديث دلالة ظاهرة على أن العامل يوزن كما يوزن عمله [(٣)]، إذ ذكر

---

(١)- انظر : تفسير الطبري ، جـ: ١٧ ، ص: ٣٣-٣٤ .

(٢)- رواه أحمد عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه . المسند ، جـ: ١ ، ص: ٤٢٠-٤٢١ . وذكر ابن كثير في النهاية ، جـ: ٢ ، ص: ٦١ أن هذا الإسناد للحديث جيد قوي .

(٣)- انظر : النهاية لابن كثير ، جـ: ٢ ، ص: ٦٠-٦١ .

الرسول صلى الله عليه وسلم أن ساقي ابن مسعود رضي الله عنه أثقل في الميزان من أحد، أي من جبل أحد ، وهذا لايتبين إلا إذا وزن العامل نفسه ، ويؤيد وزن العامل أيضاً ماورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامه ، لايزن عند الله جناح بعوضه ، وقال اقرؤوا ﴿ **فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً** ﴾)) (١).

فكون هذا الرجل العظيم السمين لايزن عند الله جناح بعوضة يوم القيامة ، فيه دلالة على أن هذا الرجل يوزن في ذلك اليوم (٢)، فلا يساوي وزنه ذلك المقدار الضئيل الذي هو جناح بعوضة .

أما الأعمال فهي المقصودة أساساً بالوزن لأنها هي السبب في الجزاء الذي يناله المرء من ثواب أو عقاب ، قال صلى الله عليه وسلم : ((الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن - أو : تملأ - ما بين السماوات والأرض ، والصّلاة نور، والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها))(٣).

فقوله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث : ((والحمد لله تملأ الميزان)) فيه دلالة ظاهرة على وزن العمل يوم القيامة (٤).

فوزن الأعمال يوم القيامة أحد أهم المظاهر التي يتبين بها عظيم عدل الله تعالى في جزائه لعبيده في ذلك اليوم (٥).

---

(١)- متفق عليه من حديث أبي هريرة . واللفظ للبخاري . فتح الباري ، كتاب التفسير (٦٥) ، سورة الكهف (١٨) ، باب : ﴿ **أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه** ﴾ الآية -١٠٥ الكهف-ح:٤٧٢٩ ، جـ: ٨ ، ص: ٤٢٦ . وانظر : شرح النووي على مسلم : كتاب : صفة القيامة والجنة والنار ، الحديث الأول ، جـ: ١٧ ، ص: ١٢٩ .

(٢)- انظر : النهاية لابن كثير ، جـ: ٢ ، ص: ٦٠ .

(٣)- رواه مسلم عن أبي مالك الأشعري . شرح النووي على مسلم : كتاب : الطهارة ، باب : فضل الوضوء ، جـ: ٣ ، ص: ٩٩،(ح:١ حسب المعجم) .

(٤)- انظر : النهاية ، جـ: ٢ ، ص: ٥٩ .

(٥)- انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ، جـ: ٤ ، ص: ٣٠٢ .

وأخيراً فإنه قد يعترض على ما سبق ، ولاسيما في مسألة وزن أعمال الكافر بقوله تعالى : ﴿ **أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً** (١٠٥) ﴾ الكهف .

فقد يستدل بهذه الآية على أن الكافر لاتوزن أعماله ، إذ لايوجد مقابل لأعماله السيئة فما صدر منه من أعمال حسنة قد أحبط و لم يقبل . وقد بين العلماء أن المراد بقوله تعالى: ﴿ **فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً** ﴾ هو : أنه لا تثقل موازينهم ، وذلك لخلوها عن الخير [(١)]، فليس المعنى - وا لله أعلم - أن أعمالهم لاتوزن مطلقاً ، بل هي بمعنى أنها لا تثقل مطلقاً ولو بشيء يسير من الخير ، ولو كان ثقلاً مرجوحاً بسيئات أعظم منه، إذ إن أعمالهم الحسنة قد أحبطت لأنها لم تكن على الوجه الذي أراده تعالى ، ويدل على ذلك أنه تعالى في الآيات - التي سبق ذكرها - بيّن أن من خفت موازينه فإنه من أصحاب النار الخالدين فيها ، وهذا من صفة الكفار ، فيكون هذا دالاً على أن أعمالهم تتعرض للوزن [(٢)].

ولكن وزن أعمال الكفار لايكون مثل وزن أعمال فسّاق المؤمنين مثلاً ، ففسّاق المؤمنين لهم في ميزانهم حسنات يستحقّون بها دخول الجنة ، ولكن يرجح وزن أعمالهم السيئة على أعمالهم الحسنة ، فيعاقبون أولاً بسبب ذلك الرجحان ، إن لم يعف ا لله عنهم . ثم هو جل شأنه بفضله وعدله لا يضيع عليهم إيمانهم بل يثيبهم عليه بعد مدة من العذاب . أما الكفار فليس لهم حسنات يستحقون بها الثواب ، ولكن بما أن النار دركات فهناك كفار في دركات من العذاب أخفّ من غيرها وآخرون في دركات أشدّ ، ولبيان الدركة التي يستحقها الكافر يكون وزن عمله السيء ، فكلما ازداد مقدار عمله السيء ازداد هويه في النار إلى الدركات السفلى - والعياذ با لله - وهذا من تمام عدل ا لله تعالى مع الكافرين ، ثم قد يكون فيه معنى آخر وهو فضيحة صاحبه وإظهار خزيه أمام الخلق أجمعين في ذلك اليوم ، إذ يرون عظم مالديه من أعمال سيئة إضافة إلى خلو ميزانه

---

(١)- انظر : تفسير الطبري ، جـ: ١٦ ، ص: ٣٥ . وتفسير ابن كثير ، جـ: ٣ ، ص: ١٠٧ . وتحرير المقال للقضاعي ، جـ: ١ ، ص: ٢٧٨-٢٨٠ .

(٢)- انظر : الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ، جـ: ٤ ، ص: ٦٥ .

من أي عمل حسن [١].

ويشابه المسألة السابقة ، مسألة وزن أعمال الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، فذلك لايمنع من وزن أعمالهم لبيان من هو أعظم درجة ممن دونه وإن كانوا جميعاً من الداخلين إلى الجنة بغير حساب ، فلاشك أن بعضهم أعظم درجة من بعض - والله أعلم - ، ثم إن أعمالهم توزن كذلك إظهاراً لشرفهم على رؤوس الخلائق يوم القيامة وتنويها بعظم سعادتهم التي نالوها بسبب أعمالهم [٢].

و- القصاص للمظلومين من الظالمين :

ومن مظاهر العدل في الجزاء الرباني يوم القيامة : ما يكون في ذلك اليوم من المقاصّة بين العباد ، بسبب مظالم كانت بينهم في الدنيا ، فيقتص المظلوم من الظالم وذلك إما بالأخذ من حسنات الظالم على قدر المظلمة وإعطائها للمظلوم ، إن كان للظالم حسنات، وإما بالأخذ من سيئات المظلوم وطرحها على الظالم ، إن لم تكن له حسنات [٣].

ز-ومن صور العدل في الجزاء الأخروي:المجازاة على السيئات بالمثل:

قال تعالى : ﴿ **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لايظلمون** (١٦٠) ﴾ الأنعام .

فالجزء الأول من هذه الآية يتحدث عن فضله جل شأنه في الإثابة على الحسنات ، وأما الجزء الثاني فهو الذي يتعلق بهذه المسألة ، وهي مسألة عدله تعالى في جزائه على السيئات ، إذ إنه أثبت أنه لايجزي على السيئة إلا مثلها ولا يظلم أحداً بأن يضاعف عليه عذاباً لا يستحقه .

وقد جاءت الأحاديث أيضاً مؤيدة لذلك ، قال صلى الله عليه وسلم :

---

(١)- انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ، جـ: ٤ ، ص: ٣٠٥-٣٠٦ .و: النهاية لابن كثير ، جـ: ٢ ، ص:٦٧ . والمسامرة على المسايرة للكمال بن الشريف،ص: ٢٣٩ . وحاشية زين العابدين قاسم على المسايرة،ص: ٢٤٠ .

(٢)- انظر : النهاية لابن كثير ، جـ: ٢ ، ص: ٦٧ .و: المسامرة على المسايرة ص: ٢٣٩ . وتحرير المقال للقضاعي،ص: ٢٨٥ وما بعدها .

(٣)- سبق بيان ما يتعلق بالقصاص ومسائله في بحث خاص،انظر ص: ٣١ وما بعدها .

((إن ا لله كتب الحسنات والسيئات ، ثم بين ذلك ، فمن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها ا لله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو همّ بها فعملها كتبها ا لله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، ومن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها ا لله عنده حسنة كاملة ، فإن هو همّ بها فعملها كتبها ا لله سيئة واحدة))(١) .

فإذا كانت سيئة المكلف إذا عملها لاتكتب عليه إلا سيئة واحدة ، فمعنى ذلك أنه إذا لم يعف ا لله عنها ، فلن يؤاخذ عليها صاحبها يوم الدين إلا بما تستحقه تلك السيئة الواحدة من العقاب من غير مضاعفة ، إلا إذا كان هناك حكمة تقتضي المضاعفة (٢) .

ح: كون العذاب من جنس المعصية :

ومن مظاهر العدل في الجزاء الأخروي أيضاً : أن كثيراً من العصاة المعاقبين يعذّبون بعذاب إما من جنس معصيتهم الدنيوية أو ربما بنفس الأمر الذي عصوا ا لله تعالى بشأنه .

ومثال ذلك ماقاله صلى ا لله عليه وسلّم : ((من سئل عن علم ثم كتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار))(٣) .

فكاتم العلم قد سدَّ فاه بإرادته عن النطق بالعلم النافع فعوقب يوم الجزاء الأكبر بسدّ ذلك الفم بلجام من نار ، عقوبة مشابهة لعمله الاختياري الذي صدر منه في حياته الدنيا.

---

(١)- متفق عليه من حديث ابن عباس رضي ا لله عنه . واللفظ للبخاري . فتح الباري ، كتاب : الرقاق(٨١) ، باب : من همّ بحسنة أو سيئة (٣١) ، ح: ٦٤٩١ ، جـ: ١١ ، ص: ٣٢٣ . وانظر: شرح النووي على مسلم : كتاب : الإيمان ، باب : بيان تجاوز ا لله عن حديث النفس والخواطر بالقلب ... وبيان حكم الهمّ بالحسنة والسيئة ، جـ: ٢ ، ص: ١٤٩-١٥٠ .

(٢)- وذلك لخصوصية زمان المعصية أو مكانها أو حالها أو أثرها ...الخ . انظر ما تقدم بيانه ص:٤١٤ وما بعدها .

(٣)- رواه الترمذي عن أبي هريرة وقال : حديث حسن واللفظ له . عارضه الأحوذي :أبواب العلم : باب ماجاء في كتمان العلم (٣) ، جـ١٠ ، ص: ١١٨ . ورواه عنه أبوداود . انظر : مختصر سنن أبي داود للمنذري ، كتاب : العلم ، باب : كراهية منع العلم جـ٥ ، ص: ٢٥١ ، (ح: ٩ حسب المعجم) .

ومثاله أيضاً ماذكره صلى ا لله عليه وسلم عن الذي يقتل نفسه إذ قال :

((...من قتل نفسه بشيء في الدنيا عُذِبَّ به يوم القيامة...))[(١)] . وقال صلى ا لله عليه وسلم : ((من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيه خالداً مخلداً فيها أبداً ومن تحسّى سماً فقتل نفسه فسمه في يده يتحساه في نارجهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأ بهافي بطنه في نارجهنم خالداً مخلداً فيها أبداً))[(٢)] .

وأما معاقبة العاصي بنفس الأمر الذي عصى به ربه : فمن أمثلته مايكون يوم القيامة من تعذيب تارك زكاة مالٍ ما ، بنفس المال الذي ترك زكاته ، كل مال بحسبه : قال صلى ا لله عليه وسلم :[((مامن صاحب ذهب ولافضة لايؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفّحت له صفائح من نار فأحمي عليها في نارجهنم فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره ، كلما بردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار)) قيل : يارسول ا لله فالإبل ؟ قال : ((ولاصاحب إبل لايؤدي منها حقها ومن حقها حلبها يوم وردها ، إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاعٍ قرقر[(٣)]أوفر ماكانت لايفقد منها فصيلاً واحداً ، تطؤه بأخفافها وتعضّه بأفواهها كلما مرعليه أولاها رد عليه أخراها [(٤)].في يوم كان مقداره خمسين ألف

---

(١)- متفق عليه من حديث ثابت الضحاك رضي ا لله عنه . وهو طرف من حديث أوله :((من حلف على ملة ...)) واللفظ المذكور للبخاري . فتح الباري ، كتاب : الأدب (٧٨)،باب : ماينهى عن السباب واللعن(٤٤) ، ح: ٦٠٤٧ ، جـ١٠ ، ص: ٤٦٤-٤٦٥ . وانظر : شرح النووي على مسلم : كتاب : الإيمان ، باب : بيان غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه ، جـ٢ ، ص : ١١٨-١٢٠ -عدة روايات -.

(٢)- متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي ا لله عنه ، واللفظ للبخاري . فتح الباري : كتاب : الطب(٧٦) ، باب : شرب السم والدواء به وما يخاف منه والخبيث (٥٦) ، ح: ٥٧٧٨ ، جـ١٠ ، ص:٢٤٧ . وانظر : شرح النووي على مسلم:كتاب : الإيمان ، باب : بيان غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، جـ٢ ، ص: ١١٨ .

(٣)- بطح : البطح هو البسط والمد ، القاع : المستوى الواسع من الأرض يعلوه ماء السماء فيمسكه ، قرقر : المستوي الواسع من الأرض . انظر : شرح النووي على مسلم ، جـ٧ ، ص: ٦٤ .

(٤)- وفي رواية : ((كلما مضى عليه أخراها ردت عليه أولاها)) .

سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار)) قيل : يارسول ا لله ، فالبقرة والغنم ؟ قال : ((ولاصاحب بقر ولاغنم لايؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر لايفقد منها شيئاً ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولا عضباء [(١)]. تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها كلما مرّ عليه أولاها رد عليه أخراها [(٢)]. في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار...))] [(٣)] الحديث .

فهذا الحديث يبين عقوبة مانع الزكاة ، وأنه يعاقب في أرض المحشر بنفس ما كان يملكه في الحياة الدنيا ، ويمنع زكاته .

فصاحب الذهب والفضة ، يحمى على ما كان يملكه من الذهب والفضة في نار جهنم ثم يكوى بها أجزاء من جسده حتى إذا بردت أعيدت الكرة ويظل كذلك ما دام في أرض المحشر ، وقد جاء بيان هذا في كتاب ا لله العزيز ، قال جل شأنه :

﴿ ... **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل ا لله فبشرهم بعذاب أليم** (٣٤) **يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون** (٣٥) ﴾ التوبة .

وكذا صاحب الإبل والبقر والغنم إذا كان لايؤدي زكاتها فإنه يعذب بما كان يملكه نفسه .

وهذا التعذيب بالأمر نفسه الذي عصى المكلّف به ربه يعتبر من مظاهر عدل ا لله تعالى مع العباد في ذلك اليوم ولاسيّما مع المعاقبين .

---

(١)- العقصاء : ملتوية القرنين . الجلحاء : التي لاقرن لها . العضباء : التي انكسر قرنها الداخل . انظر في بيان معانيها:شرح النووي على مسلم ، جـ: ٧ ، ص: ٦٥ .

(٢)- وفي رواية : ((كلما مضى عليه أخراها ردت عليه أولاها)) .

(٣)- رواه مسلم عن أبي هريرة رضي ا لله عنه . وهذا لفظه . وكذا الرواية المشار إليها في التعليقة السابقة. شرح النووي على مسلم ، كتاب : الزكاة ، باب : إثم مانع الزكاة ، جـ: ٧ ، ص: ٦٤-٧٢ ، عدة روايات . وروى نحوه البخاري عن أبي هريرة . انظر : فتح الباري ، كتاب : الزكاة (٢٤) ، باب : إثم مانع الزكاة (٣) ، ح: ١٤٠٢ ، جـ: ٣ ، ص: ٢٦٧ .

وهكذا فإن مظاهر عدل ا لله جل شأنه مع المجازين كثيرة ومتنوعة ، وأدلتها كذلك كثيرة . ويلاحظ أن غالب هذه المظاهر مختص بفئة المعاقبين ، وذلك واضح ويعود سببه إلى ماسبق بيانه من أنه عز وجل إنما يعامل بعدله فقط من يعاقبهم أما من يثيبهم فإنه يعاملهم بفضله ، والفضل يتضمن العدل ويزيد عليه .

مظاهر فضل الله في الآخرة :

قبل بيان بعض وجوه الفضل والرحمة في معاملة الرب سبحانه لعباده المؤمنين في يوم الجزاء الأكبر ، لابد من مقدمة عن عظيم رحمة ا لله تعالى في ذلك اليوم والتي ربما تطاول لها رجاء أن تصيبه حتى بعض أعدائه من الكفرة . فقد ورد في الحديث عن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم : ((جعل ا لله الرحمة في مئة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزأً ، وأنزل في الأرض جزأً واحداً ، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلق ، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه))[١] .

وقال أيضاً صلى ا لله عليه وسلم :

((إن ا لله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة ، فأمسك عنده تسعة وتسعين ، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة ، فلو يعلم الكافر بكل الذي عندا لله من الرحمة لم ييأس من الجنة ، ولو يعلم المسلم بكل الذي عندا لله من العذاب لم يأمن من النار))[٢] .

وقال أيضاً عليه السلام :

((إن لله مئة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وبها تعطف الوحش على ولدها .وأخر ا لله تسعة وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة))[٣] .

---

(١)- متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي ا لله عنه ، واللفظ للبخاري . فتح الباري ، كتاب : الأدب(٧٨)،باب : جعل ا لله الرحمة مائة جزء(١٩)،ح:٦٠٠٠ ، جـ١٠ ، ص: ٤٣١ . وانظر : شرح النووي على مسلم ، كتاب : التوبة ، باب : سعة رحمة ا لله تعالى وأنها تغلب غضبه ،جـ١٧ ، ص: ٦٨-٦٩ . وفي رواية مسلم : (جعل ا لله الرحمة مئة جزء) . وفي رواية له : (خلق ا لله مئة رحمة) .

(٢)- رواه البخاري من حديث أبي هريرة رضي ا لله عنه . فتح الباري ، كتاب : الرقاق (٨١)،باب: الرجاء مع الخوف(١٩)،ح: ٦٤٦٩ ، جـ ١١ ، ص: ٣٠١ .

(٣)- رواه مسلم عن أبي هريرة . شرح النووي على مسلم : كتاب : التوبة ، باب: سعة رحمة ا لله تعالى وأنها تغلب غضبه ، جـ١٧ ، ص:٦٩ .

وقال أيضاً :

((إن ا لله خلق يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة كل رحمة طباق مابين السماء والأرض فجعل منها في الأرض رحمة فبها تعطف الوالدة على ولدها والوحش والطير بعضها على بعض ، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة))[١].

فهذه الروايات كلها تثبت عظيم رحمة ا لله تعالى بعباده المؤمنين في يوم القيامة ، وأنها تعادل مئة ضعف من الرحمة التي يتراحم بها الخلائق أجمعون في هذه الحياة الدنيا ، وأن هذه الرحمة لو علمها الكافر لظن أنها يمكن أن تناله رغم كفره .

وقد ورد عن عمر بن الخطاب أنه قال : [قدم على النبي صلى ا لله عليه وسلم سبي ، فإذا امرأة من السبي تحلب ثديها تسقي [وفي رواية : قد تحلّب ثديها–أوثدياها–بسقي– أو: تسقي .] . إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته ، فقال لنا النبي صلى ا لله عليه وسلم : ((أترون هذه طارحة ولدها في النار ؟)) قلنا : لا ، وهي تقدر على أن لاتطرحه . فقال : ((ا لله أرحم بعباده من هذه بولدها))][٢].

ففي هذا الحديث قرّب الرسول صلى ا لله عليه وسلم إلى أفهام من يسمعه من الصحابة رضوان ا لله عليهم عظيم رحمة ا لله تعالى بعباده المؤمنين بحال هذه المرأة الممتلئ ثديها باللّبن والوالهة على ابنها الباحثة عنه في كل مكان ، حتى إذا وجدته ضمته إليها وأرضعته ، وهي في حالتها هذه في أعظم حالات الرحمة المتصورة من الإنسان ، والتي لايمكن معها تصور إيذاء من يرحم بتلك الرحمة بأي إيذاء اختياري . فهذه الرحمة التي هي أعظم مايمكن أن يتصوره الإنسان أو يتخيّله لاتقاس في حقيقة الأمر بعظيم رحمة ا لله تعالى بعبده الذي هو أهل لتلك الرحمة . فليقدر الإنسان مايستطيع أن يقدره بعقله المحدود جزأً من مدى تلك الرحمة الربانية !.

---

(١)– رواه مسلم عن سلمان.وقد سبق تخريج الحديث ص :١٢٦ ، هامش : (١) .

(٢)– رواه البخاري ، وهذا لفظه . فتح الباري ، كتاب : الأدب (٧٨) ، باب : رحمة الولد وتقبيله ومعانقته(١٨)،ح: ٥٩٩٩ ، جـ١٠ ، ص : ٤٢٦–٤٢٧، والروايات المشار إليها أثناء ذكر الحديث هي روايات لرواة الصحيح عن البخاري رحمه ا لله لهذا الحديث نفسه في هذا الموضع . والحديث رواه الإمام=

وهذه الرحمة وإن كانت عظيمة جداً ، إلا أنه قد يقال بأنه يقابلها ما عندا لله سبحانه من عذاب عظيم ، فيتعادل الأمران . وقد يستدل على ذلك بالحديث الذي سبق إيراده وهو قوله صلى ا لله عليه وسلم : ((... فلو يعلم الكافر بكل الذي عندا لله من الرحمة لم ييأس من الجنة ، ولو يعلم المسلم بكل الذي عند ا لله من العذاب لم يأمن من النار))[(١)].

وللإجابة عن هذا الأمر نقول : إن العلماء قد أوضحوا أن هذا الحديث من الأحاديث التي تبيّن أن على المؤمن الحق أن يكون جامعاً بين الرجاء والخوف راجياً ما عندا لله من الثواب ، مجتهداً في تحصيل أسباب ذلك الثواب [(٢)].

هذا فيما يتعلق بموقف المؤمن تجاه ربه تعالى ، وأما معاملة الرب جل جلاله لعبده المؤمن فإن لها قاعدة أخرى بيّنتها الأحاديث التي سبق ذكرها عن عظيم رحمته تعالى بعبده المؤمن يوم القيامة .

ومن الأحاديث التي تعتبر أساساً في توضيح كيفية معاملة الرب لعبده المؤمن يوم الجزاء الأكبر الحديث الذي قال فيه صلى ا لله عليه وسلم :

((لما قضى ا لله الخلق كتب في كتابه ، فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي تغلب غضبي))[(٣)].

وفي رواية : ((إن رحمتي سبقت غضبي))[(٤)].

مسلم عن عمر أيضاً : انظر : شرح النووي على مسلم ، باب : سعة رحمة ا لله تعالى وأنها تغلب غضبه ، جـ١٧ ، ص: ٦٩-٧٠ .

(١)- انظر ص : ٤٤٧ .

(٢)- وعلى ذلك بوّب البخاري لهذا الحديث في كتاب الرقاق(٨١)،بباب أسماه باب : الرجاء مع الخوف(١٩)،فتح الباري:جـ١١ ، ص: ٣٠٠ . وانظر شرح ابن حجر:جـ١١ ، ص: ٣٠١-٣٠٢ .

(٣)- متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي ا لله عنه ، واللفظ للبخاري . فتح الباري ، كتاب: بدء الخلق(٥٩)،باب : ماجاء في قول ا لله تعالى : ﴿**وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه**﴾ (١) ، ح: ٣١٩٤ ، جـ٦ ، ص٢٨٧ . وانظر : شرح النووي على مسلم ، كتاب : التوبة ، باب : سعة رحمة ا لله وأنها تغلب غضبه ، جـ١٧ ، ص: ٦٧-٦٨ -عدة روايات-.

(٤)- هذه الرواية ذكرها البخاري . عن أبي هريرة . انظر فتح الباري : كتاب التوحيد(٩٧)،باب : =

وفي رواية : ((... كتب في كتابه على نفسه فهو موضوع عنده إن رحمتي تغلب غضبي .))[1] .

فهذا الحديث برواياته دال على أنه جل شأنه قد جعل على نفسه أن يعامل عبده المؤمن معاملة رحمة لامعاملة غضب ونقمة ، معاملة تكون فيها الرحمة غالبة للغضب سابقة عليه ، أي فلايعامل العبد المؤمن معاملة تتساوى فيها الرحمة مع الغضب كما هو مقتضى العدل ، وذلك فضل منه جل شأنه وتكرّمٌ .

ومن ثم فإن مقتضيات تلك الرحمة من الثواب والإنعام تسبق مقتضيات الغضب من العذاب والعقاب . وأما مظاهر رحمة الله تعالى بعبده المؤمن في يوم الجزاء الأخروي فهي كثيرة منها :

أ- صور رحمة الله جل شأنه بالمؤمن في أرض المحشر :

١- تأمين الله للمؤمنين من أهوال الآخرة :

فالله جل جلاله يؤمن عبده المؤمن الأمن الكامل من جميع أهوال وشدائد ذلك اليوم ومما فيه من أنواع العذاب والعقوبات ، قال تعالى :

﴿ **الذين آمنوا ولم يَلْبِسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون**(٨٢)﴾الأنعام. وقال جل شأنه :

﴿ **إن الذين يُلحدون في آياتنا لايخفون علينا أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمنا يوم القيامة اعملوا ماشئتم إنه بما تعملون بصير** (٤٠) ﴾ فصلت .

٢- تلقي الملائكة للمؤمنين لتبشيرهم وتأمينهم :

ومن رحمته تبارك اسمه بعباده المؤمنين في ذلك اليوم أمره جل شأنه للملائكة أن تتلقاهم لتبشرهم بكل خير وتؤمنهم من أي مكروه قد يخافونه أو يحذرونه ، قال جل

=﴿**وكان عرشه على الماء ، وهو رب العرش العظيم** ﴾ (٢٢)،ح: ٧٤٢٢ ، جـ١٣ ، ص:٤٠٤ . ورواها مسلم عنه أيضاً . انظر : الموضع السابق في التعليقة السابقة .

(١)- هذه الرواية رواها مسلم عن أبي هريرة كذلك . انظر شرح النووي على مسلم:الموضع السابق في التعليقة قبل السابقة .

شأنه: ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون** (١٠١) **لايسمعون حسيسها وهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون** (١٠٢) **لايحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون** (١٠٣) ﴾ الأنبياء .

وقال تبارك اسمه :

﴿ **يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم** (١٢) ﴾ الحديد .

فالملائكة تتلقى عباد الله المؤمنين لتبشرهم بأنه سيتحقق لهم في هذا اليوم ما وعدهم الله إياه من النعيم المقيم والثواب العظيم ، فلا داعي إذا لأي خوف أو حزن ، كما قال عز وجل :

﴿ **ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون** (٦٢) **الذين آمنوا وكانوا يتقون**(٦٣) **لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لاتبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم** (٦٤) ﴾ يونس .

٣- تخفيف الله على المؤمنين شعورهم بطول يوم القيامة :

ثم إن يوم الموقف والعرض على الله تعالى يوم طويل جداً يقدر بخمسين ألف سنة[١] ، ولكنه جل شأنه يرحم عباده المؤمنين فيخفف عنهم طول ذلك اليوم حتى يكون للمؤمن كقدر مابين الظهر والعصر . كما جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

((يوم القيامة على المؤمنين كقدر مابين الظهر والعصر))[٢] .

٤- استظلال المؤمنين بظل العرش يوم القيامة :

وليس تخفيف الموقف على العبد المؤمن هو مايرحم به الله عباده فقط بل يزيدهم من

---

(١)- كما في الحديث الذي سبق إيراده عن تعذيب مانع الزكاة في أرض الموقف بالمال الذي منع زكاته، وجاء في الحديث تقدير زمن ذلك الموقف بخمسين ألف سنة،انظر ص:٤٤٥ .

(٢)- رواه الحاكم عن أبي هريرة،في المستدرك في:كتاب الإيمان ، جـ١ ، ص: ٨٤ . وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ، وبين الحاكم أن هناك من وقفه على أبي هريرة . أقول :وهو هنا في حكم ==

رحمته بأن يظلّهم تحت ظل عرشه ، في ذلك اليوم الذي لاظل إلا ظلّه ، قال صلى ا لله عليه وسلم :

((سبعة يظلّهم ا لله في ظله يوم لاظلّ إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ في عبادة ربه ، ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحابّا في ا لله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف ا لله ، ورجل تصدق أخفى حتى لاتعلم شماله ماتنفق يمينه ، ورجل ذكر ا لله خالياً ففاضت عيناه))[١] .

وليس هؤلاء السبعة هم فقط من يظلّهم ا لله في ظله ، فالحديث لم يحصر الذين يظلهم ا لله في ظله بهم فقط بل ذكرهم تنويهاً بهم وبشرفهم . ويؤيد ذلك ماورد عن الرسول صلى ا لله عليه وسلم أنه قال :

((من أنظر معسراً أو وضع له أظله ا لله يوم القيامة تحت ظل عرشه يوم لاظل إلا ظله))[٢] .

فهذا الحديث يدل على أن هناك من يستظل بظل عرش الرحمن في ذلك اليوم الذي لاظل إلا ظله غير هؤلاء السبعة . وأهمية هذا الاستظلال تعظم عندما يعلم عظم الحرارة التي يتعرض لها الخلق في ذلك اليوم ، بسبب اقتراب الشمس منهم ، كما قال صلى ا لله عليه وسلم :

=المرفوع. وصحح الحديث مرفوعاً الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته : ح: ٨١٩٣ ، جـ٢ ، ص:١٣٦١ . وانظر روايات أخرى تؤيد المعنى الوارد في هذا الحديث ذكرها ابن كثير في تفسيره عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة (٤)**﴾المعارج ، جـ٤ ، ص: ٤١٩ . وفي كتابه النهاية ، جـ١ ، ص: ٢٣٢-٢٣٣ .

(١)- متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي ا لله عنه ، واللفظ للبخاري . فتح الباري ، كتاب: الأذان(١٠) ، باب : من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد (٣٦) ، ح: ٦٦٠ ، جـ٢ ، ص:١٤٣ . وانظر : شرح النووي على مسلم : كتاب: الزكاة ، باب: فضل إخفاء الصدقة ، جـ٧، ص:١٢٠-١٢٢ .

(٢)- رواه الترمذي بسنده عن أبي هريرة رضي ا لله عنه. في أبواب البيوع ، باب: ماجاء في إنظار المعسر والرفق به (٦٧حسب المعجم)،انظر : عارضة الأحوذي ، جـ٦ ، ص:٤١-٤٢ . وقال الترمذي عن==

((تُدنَى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل...))[1] .الحديث

وقد ورد أن الأعمال تظل صاحبها يوم القيامة ، قال صلى ا لله عليه وسلم :

((إقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه ، اقرؤوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما ، اقرؤوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولاتستطيعها البطلة))[2].

فمجيء البقرة وآل عمران يوم القيامة كأنهما غمامتان ، فيه دليل ظاهر على أن بعض الأعمال تظلل أصحابها في ذلك اليوم الشديد الحر .

٥- إرواء المؤمنين يوم المحشر من أحواض أنبيائهم :

= الحديث إنه حسن صحيح غريب من هذا الوجه . وقد روى مسلم قريباً منه في أثناء حديث طويل عن أبي اليسر كعب بن عمرو أن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم قال : ((..من أنظر معسراً أو وضع عنه أظله ا لله في ظله ..)) انظر : شرح النووي على مسلم : كتاب الزهد ، باب: حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر، جـ١٨ ، ص: ١٣٣ . الوضع : إسقاط من عين المال ، انظر عارضة الأحوذي:جـ٦ ، ص: ٤٣.

(١)- رواه مسلم عن المقداد بن الأسود رضي ا لله عنه . انظر : شرح النووي على مسلم : كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب: في صفة يوم القيامة ، جـ١٧ ، ص:١٩٦ . وقال أحد رواة الحديث (فوا لله ما أدري ما يعني بالميل أمسافة الأرض أم الميل الذي تكتحل به العين).

(٢)- رواه مسلم عن أبي أمامة الباهلي رضي ا لله عنه . انظر : شرح النووي على مسلم ، كتاب : صلاة المسافرين وقصرها ، باب : فضل قراءة القرآن وسورة البقرة ، جـ: ٦ ، ص: ٨٩-٩٠ . وروى نحوه الدارمي باسناده ، قال : حدثنا أبو نعيم ثنا بشير هو ابن المهاجر ، حدثني عبدا لله بن بريدة عن أبيه قال -وذكر الحديث وفيه :((تعلموا سورة البقرة وآل عمران فإنهما الزهراوان ، وإنهما تظلان صاحبهما يوم القيامة ، كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف ...)) الحديث،انظر : سنن الدارمي (بتحقيق البغا) : كتاب : فضائل القرآن (٢٣) ، باب:في فضل سورة البقرة وآل عمران (١٥)، ح:٣٢٦٨،جـ٢ ، ص: ٩٠٧ . وقد سميتا البقرة وآل عمران الزهراوين لنورهما وهدايتهما وعظيم أجرهما . والغمامة والغياية:كل شيء يظل الإنسان فوق رأسه من غمام أو غبرة أو غيرهما والمراد أن ثوابهما يأتي كغمامتين=

ونظراً لأن يوم القيامة يوم شديد الحر ويـوم طويـل فـإن النـاس يعطشـون فيـه عطشـاً شديداً ، وهنا تظهر كرامة أخرى يكرم بهـا ا لله تعـالى أوليـاءه المؤمنـين ، وهـي إرواؤهـم وهم ما يزالون في أرض المحشر ، وهذا الإرواء يتمّ من حوض يكون لكل نـبي[(١)] ، وأعظـم حوض حوض نبينا محمد صلى ا لله عليه وسلم ، وأحاديث إثباته تبلغ حد التواتر[(٢)] ، منهـا ماذكره أنس رضي ا لله عنه قال :

[بينا رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفـاءة ثـم رفـع رأسه مبتسماً ، فقلنا : ما أضحكك يا رسول ا لله ؟ ، قال : ((أنزلـت علـي آنفـاً سـورة فقـرأ : ﴿ **بسـم ا لله الرحمـن الرحيـم-إنـا أعطينـاك الكوثـر ، فصـل لربـك وانحـر ، إن شانئك هو الأبتر** ﴾ ثم قال : ((أتدرون ما الكوثر ؟)) فقلنا : ا لله ورسوله أعلم . قال : ((فإنه نهر وعدنيه ربي عزوجل عليه خير كثير هو حوض تـرد عليـه أمـتي يـوم القيامـة ، آنيته عدد النجوم ، فيُختلج العبد منهم ، فأقول : رب ، إنه من أمتي ، فيقول : مـا تـدري ما أحدث بعدك))][(٣)] .

وقد وردت أحاديث كثيرة تبين عظمه وصفته وصفة مائه وكثرة من يرد عليه [(٤)] .

=(فرقان من طير صواف) وفي رواية (حِزْقان من طير صاف): الفُرقـان والحزقـان : معناهمـا واحـد وهمـا قطيعان وجماعتان يقال في الواحد فرق وحزق . انظر في معاني الكلمات:شرح النووي على مسلم ، جـ٦، ص: ٨٩-٩١ .

(١)- ذكر الإمام ابن كثير رحمه ا لله عن الإمام المزي أنه قال بصحة حديث : إن لكل نبي حوضاً ، وذلك بمجموع الطرق التي ورد فيها ذلك الحديث . انظر : النهاية ، جـ: ٢ ، ص: ٣٦ . وانظـر : قبلهـا الطرق التي ذكرها الإمام ابن كثير رحمه ا لله لـهذا الحديث ، وقال الألباني عن هذا الحديث إنه حسن وذلك أيضـاً بمجموع طرقه . انظر : تعليق الشيخ الألباني على شرح العقيدة الطحاوية ، ص: ٢٥٢ ، ت: (١) .

(٢)- كما قال الإمام ابن كثير رحمه ا لله في النهاية ، جـ: ٢ ، ص: ٣ .

(٣)- رواه مسلم عن أنس رضي ا لله عنه . شرح النووي على مسلم ، كتاب : الصلاة ، باب : حجة من قال البسملة آية من أول كل سورة سوى براءة ، جـ: ٤ ، ص: ١١٢-١١٣ ، (ح: ٥٣ حسب المعجم). ومعنى يختلج : أي ينتزع يقتطع . انظر : شرح النووي على مسلم ، جـ: ٤ ، ص: ١١٣ .

(٤)- جمع كثيراً من طرقه ابن كثير في كتابه : النهاية ، جـ: ٢ ، ص: ٣ وما بعدها .

ب – رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين عند الحساب :

١– إدخال فريق من المؤمنين الجنة بغير حساب :

والدليل عليه قوله صلى ا لله عليه وسلم : ((عرضت علي الأمم ، فأخذ النبي يمرّ معه الأمة ، والنبي يمر معه النفر ، والنبي يمر معه العشر ، والنبي يمر معه الخمسة ، والنبي يمر وحده ، فنظرت فإذا سواد كثير ، قلت : يا جبريل ، هؤلاء أمتي ؟ قال : لا ، ولكن انظر إلى الأفق ، فنظرت فإذا سواد كثير ، قال : هؤلاء أمتك . وهؤلاء سبعون ألفاً قُدّامهم لاحساب عليهم ولاعذاب . قلت : ولم ؟ قال : كانوا لايكتوون ولايسترقون ولايتطيرون وعلى ربهم يتوكلون ...)) الحديث [(١)].

وإذا علم – كما سبق بيانه [(٢)]– أنّ أي إنسان مهما بلغت عبادته وطاعته لربه فإنه لايستحق عليه تعالى ثواباً من قبل نفسه ، تبين عظيم فضل ا لله جل شأنه على هذا الفريق من المؤمنين إذ أدخلهم الجنة حتى بلا حساب تتم فيه ولو بعض معاتبة على شيء من ذنوب أو تقصيرات صدرت من هؤلاء المؤمنين .

٢– حساب كثير من المؤمنين حساب عرض لاحساب مناقشة :

ثم إن كثيراً من المؤمنين الذين يتعرضون للحساب إنما يحاسبهم ا لله جل شأنه حساب عرض لاحساب مناقشة . والدليل على ذلك ما ورد عن عائشة رضي ا لله عنها قالت : قال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم : [((ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك)) فقلت : يا رسول ا لله ، أليس قد قال ا لله تعالى : ﴿ **فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً** ﴾[(٣)].

---

(١)– متفق عليه من حديث ابن عباس رضي ا لله عنهما . واللفظ للبخاري . فتح الباري ، كتاب : الرقاق(٨١) ،باب :يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب (٥٠)، ح: ٦٥٤١، جـ:١١ ،ص: ٤٠٥–٤٠٦. وانظر : شرح النووي على مسلم ، كتاب : الإيمان ، باب : الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب ، جـ: ٣ ، ص: ٩٢–٩٤ ، (ح : ٣٧٤حسب المعجم) .

(٢)– انظر : ما سبق ص: ١٨٠ وما بعدها .

(٣)– الانشقاق ، آية : ٧–٨ .

فقال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم : ((إنما ذلك العرض، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عذّب))][1].

فهذا الفريق من عباد ا لله المؤمنين إن حاسبهم ا لله تعالى فحسابه لهم يكون بمعنى استعراض نعمه العظيمة عليهم ليقرّوا له عزوجل بها ، واستعراض أعمالهم خيرها وشرها، دون أن تكون هناك مؤاخذة منه عزوجل لهم على مافي أعمالهم من تقصير أو بعض ذنوب .

٣- ستر الله على كثير من عصاة المؤمنين فلا يفضحهم بذنوبهم يوم القيامة :

ثم إن البعض من المذنبين من أهل الإيمان ، إذا قررهم تعالى بذنوبهم فإنه يقررهم عليها وهم مستورون بكنفه وستره جل شأنه ، ثم يغفرها لهم بمنّه وفضله ، فلايفضحهم ولايخزيهم بل يسترهم فلايطلع مطلع على ماصدرمنهم من ذنوب ، قال صلى ا لله عليه وسلم : ((يدنى المؤمن من ربه-وفي رواية : يدنو المؤمن -حتى يضع عليه كنفه فيقرّره بذنوبه : تعرف ذنب كذا؟ يقول : أعرف ، يقول : رب اعرف ، (مرتين) ، فيقول : سترتها في الدنيا ، وأغفرها لك اليوم ، ثم تطوى صحيفة حسناته ، وأما الآخرون -أو الكفار-فينادى على رؤوس الأشهاد ، هؤلاء الذين كذبوا على ربهم))[2].

جـ - رحمة الله جل شأنه بعباده المؤمنين عند الجزاء :

١- مضاعفة الحسنات حتى يكون الجزاء بحسب تلك المضاعفة :

---

(١)- متفق عليه من حديث عائشة رضي ا لله عنها ، واللفظ للبخاري . فتح الباري ، كتاب : الرقاق(٨١)،باب : من نوقش الحساب عذب (٤٩)،ح: ٦٥٣٧ ، جـ: ١١ ، ص: ٤٠٠ . وانظر : شرح النووي على مسلم :كتاب :صفة الجنة وصفة نعيمها وأهلها ،باب : إثبات الحساب ، جـ:١٧، ص:٢٠٨.

(٢)- رواه البخاري عن ابن عمر رضي ا لله عنهما ، واللفظ له . فتح الباري ، كتاب : التفسير(٦٥)، تفسير سورة هود (١١) ، باب: ﴿ **ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة ا لله على الظالمين** ﴾(٤) ، ح: ٤٦٨٥ ، جـ٨ ، ص: ٣٥٣ . ورواه مسلم أيضاً عن ابن عمر . انظر : شرح النووي على مسلم ، كتاب: التوبة ، باب : سعة رحمة ا لله تعالى على المؤمنين ، جـ١٧ ، ص: ٨٥ .

قال تعالى : ﴿ **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلايجزى إلا مثلها وهم لايظلمون** (١٦٠) ﴾ الأنعام .

وقال صلى ا لله عليه وسلم : ((إن ا لله كتب الحسنات والسيئات ، ثم بين ذلك : فمن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها ا لله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو همّ بها فعملها كتبها ا لله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، ومن هَمَّ بسيئة فلم يعملها كتبها ا لله عنده حسنة كاملة ، فإن هو همَّ بها فعملها كتبها ا لله سيئة واحدة))[١] .

فإذا كان ا لله تعالى بِعَدْلِهِ لا يكتب السيئة إلا بمثلها ، ثم لايجازي عليها إلا بمقدار من العذاب يقابل ذلك المثل ، فإنه جل جلاله بفضله يتكرم على عباده المؤمنين بمضاعفة مقادير الأعمال الحسنة ، بما لايقل في أدنى الأحوال عن عشرة أمثال الحسنة التي قدمها العبد ، وأما الحد الأعلى فلا يعلم منتهاه إلا هو جل شأنه العالم بخفيات النفوس .

٢- عظم ثواب المؤمنين بمالا يخطر على قلب بشر :

لقد سبق بيان [٢] أن عمل الإنسان مهما بلغ فإنه لايستحق عليه بمجرده الثواب على ا لله سبحانه ، فإذا انضم إلى هذا كون الثواب الذي أعده سبحانه للمؤمنين هو كما قال صلى ا لله عليه وسلم :

((قال ا لله تبارك وتعالى : أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)) قال : أبو هريرة – راوي الحديث – : اقرؤوا إن شئتم ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين** ﴾[٣] .

---

(١)- سبق تخريجه ص: ٤٤٤ ، هامش : (١) .

(٢)- انظر ما سبق ص: ١٨٠ وما بعدها .

(٣)- الآية ١٧ من سورة السجدة ، والحديث متفق عليه عن أبي هريرة رضي ا لله عنه . واللفظ للبخاري: فتح الباري ، كتاب : التفسير (٦٥) ، تفسير سورة السجده (٣٢) ، باب : ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين** ﴾ (١) ، ح: ٤٧٧٩ ، جـ: ٨ ، ص: ٥١٥ . وانظر : شرح النووي على مسلم: كتاب : الجنة وصفة نعيمها وأهلها – أول الكتاب – ، جـ: ١٧ ، ص: ١٦٥-١٦٧ . وقد ذكر عدة روايات للحديث .

فإذا علم هذا تبين عظم فضل الله تعالى على عباده المؤمنين ورحمته بهم عندما يدخلهم الجنة ، إذ أثابهم على أعمالهم اليسيرة بمالا يستطيع عقل بشر أن يدرك مداه أو غايته .

٣- فوز المؤمنين بأنواع الشفاعات :

وقد ثبت وجود أنواع من الشفاعات يوم الدين منها : الشفاعة في إدخال المؤمنين الجنة عموماً والشفاعة في إدخال من تساوت حسناتهم وسيئاتهم الجنة ، والشفاعة في عدم إدخال النار بعض من قضي عليه بدخولها ، والشفاعة لإخراج من دخل النار من المؤمنين منها وإدخاله الجنة ، والشفاعة في رفع درجات المؤمنين في الجنة [(١)]. وهذه الشفاعات يترتب عليها تغيير الجزاء الذي كان يجازى به المكلف ، أو قضي عليه بأن يجازى به إلى ماهو أحسن منه ، إما إدخال للجنة لمن لم يدخلها ، أو رفع درجات في الجنة لمن دخلها ، وهي بذلك تكون من أعظم أنواع الرحمة الربانية التي يرحم بها الله جل شأنه عباده المؤمنين ويتفضل بها عليهم .

وبعد ، فإن ما سبق بيانه نماذج يسيرة من صور فضل ورحمة الله العظمى بعباده المؤمنين يوم الدين ، والتي كان سبب نيلهم لها هو موافاتهم الله تعالى بإيمان صحيح غير منقوض .

---

(١)- انظر : أنواع الشفاعة مع أدلتها : النهاية لابن كثير ، جـ: ٢ ، ص: ١٧٩ وما بعدها .